جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى

خلال عصري المرابطين والموحدين

(٤٨٣هـ/١٠٩٠م - ٦٤٠هـ/١٢٤٢م)

تأليف الدكتور

محمد بن إبراهيم بن صالح الحسين أبا الخيل

دار أصداء المجتمع

للنشر والتوزيع

ح دار أصداء المجتمع للنشر و التوزيع ، ١٤١٩ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

أبا الخيل ، محمد بن إبراهيم
جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى خلال عصري المرابطين والموحدين
- بريدة
٥٧٦ ص ؛ ..سم
ردمك ـــ ـــ٩٠٧٦ـــ٩٩٦٠
١- الأندلس ـــ تاريخ ٢- الإسلام والمسيحية أ- العنوان
ديوي ٩٥٣,٠٧ ١٩ / ٠٧٥١

رقم الإيداع : ١٩ / ٠٧٥١
ردمك ـــ ـــ٩٠٧٦ـــ٩٩٦٠

هذا الكتاب رسالة دكتوراه نال بها صاحبها
الدرجة العلمية مع مرتبة الشـــرف الأولى

الطبعة الأولى
١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م

دار أصداء المجتمع للنشر و التوزيع
السعودية - القصيم - بريدة
هاتف و فاكس : ٠٦٣٢٣٢٥٩٠ ص ب:٣٤١٥

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ با لله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده ا لله فلا مضل له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا ا لله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى ا لله عليه وآله وصحبه وسلم .

أما بعد ...

بوأ الإسلام العلماء مكانة سامقة ، ومنزلة عالية ، ورفعهم على غيرهم درجات ، وعدهم – لا سيما من يحمل العلم الشرعي منهم – ورثة الأنبياء والمرسلين ، يبلغون للناس ما حفظوه من العلم ، ويبثون بين الآحاد والجماعات ما وعوه من آيات ا لله والحكمة ، وينذرون المخالفين بضنك العيش ، وسوء المنقلب ، وهم فوق ذلك يخشون ا لله تعالى أكثر من بقية العباد ، فتراهم يتمثلون في حركاتهم وسكناتهم ما اكتسبوه من العلم ؛ الأمر الذي يجعل الأمة تحاول أن تترسم خطاهم ، وتأتسي بمسلكهم في الحياة ، وتسير وفق ما يدعون إليه من الهدى والخير .

ولقد مثل غالب رجال العلم مسؤوليتهم في طول البلاد الإسلامية وعرضها على مدى تاريخنا المجيد ، فسعوا – قدر طاقتهم – لتعليم الناس ووعظهم ، والقيام بمصالحهم ، وإصلاح ذات بينهم ، وتأليف قلوبهم ؛ فإذا ما تعرضت البلاد لاضطراب داخلي أو خطر خارجي هبوا لدرء ما ينجم عن ذلك من شرور ، وقدموا الحلول الناجعة لتجنيب الأمة ما قد يضرها ؛ زد على ذلك أن العلماء لا يكلون عن السعي لنشر دين الإسلام ، والجهاد في

سبيل الله ، وكثيراً ما انتضوا السلاح - هم بأنفسهم - وتقدموا صفوف الجيوش الإسلامية في مواجهة الأعداء .

التعريف بالموضوع وأهميته :

ولقد تبوأ العلماء في الأندلس مقاماً رفيعاً في وسط المجتمع الأندلسي، فكانوا يشاركون في قيادة الأمة مع القوة السياسية في أكثر فترات التاريخ الإسلامي في هذه البلاد . وبجانب ذلك فإن طبيعة بلاد الأندلس ، وما ابتلى به المسلمون فيها من تفكك وتناحر في كثير من عصورها ، ثم مجاورتها للأعداء المتربصين بها - أبداً - قد فرض عليهم مضاعفة الجهود للنهوض بمسؤوليتهم ، والقيام بواجبهم ؛ حيث كان الواحد منهم في ليله ونهاره يعايش هَمَّ دينه المستهدف من قبل أولئك الأعداء ، فهو يعمل جاهداً بشتى الوسائل لدفع ذلك الخطر عن هذا الدين ، ومن ثم إعزازه ورفعة شأنه .

ولقد اختلف نشاط علماء الأندلس في العصور المتوالية ، إذ طغت جوانب من نشاطاتهم في عصر على جوانب أخرى في عصر آخر ، وظهرت بعض الجهود المرتبطة بالعلماء في زمن واختفت في زمن آخر ، ولعل ذلك مرده إلى الظروف التي مرت بها الأندلس ، وكذلك إلى طبيعة حكم الدول التي سيرت الأمور فيها . ففي زمن الدولة الأموية - مثلاً - كان للعلماء مشاركات كثيرة في الجهاد ضد النصارى إلا أن أثرهم في الجوانب المدنية كان أشد وأقوى . ولما سقطت هذه الدولة ، وتفرق مسلمو الأندلس شيعاً وأحزاباً، وحل بين ظهرانيهم ما يعرف بعصر الطوائف ، واستأسد النصارى، واشتد الكرب بالمسلمين برز أثر العلماء في شتى الميادين ، وكان في مقدمتها ميدان الصراع ضد القوى النصرانية السياسية منها والدينية .

استمر نشاط أهل العلم في ميدان الصراع ضد النصارى ، وأصبح في عصر المرابطين والموحدين لافتاً للأنظار ، ذلك أن العلماء الأندلسيين حرصوا على استدعاء المرابطين إلى الأندلس للوقوف في وجه العدو النصراني الذي اِلْتَهَمَ العديدَ من الأراضي الإسلامية هناك ، وأذل المسلمين وأرهقهم عسراً فوافق ذلك رغبة في الجهاد عند المرابطين ، فعبروا إلى الأندلس وتصدوا لذلك العدو . ثم إنهم سوغوا لهؤلاء المرابطين ضم الأندلس إليهم بعد أن مزقها حكام الطوائف شر ممزق ، وبعد ذلك أيدوهم في حكمهم لها ، وجدوا في مناصحتهم والوقوف معهم ، فكان علماء الأندلس بذلك أحرص الناس على وحدة البلاد وتماسك أطرافها في ظل المرابطين ، وحين سقطت دولتهم على أيدي الموحدين ، وسعت دولة هؤلاء الأخيرين إلى بسط سلطانها على الأندلس بادر العديد من العلماء الأندلسيين إلى مبايعة حكامها ضماناً لبقاء وحدة البلاد أمام النصارى ، ثم قاموا – أيضاً – بتأييدها والدعوة إلى طاعتها كما أبدوا في كثير من المناسبات ولاءهم لحكامها .

وبالإضافة إلى ما سبق فقد كان لعلماء الأندلس جهود فعالة في ميدان الجهاد الحربي أيام المرابطين والموحدين الذين عبروا من المغرب إلى الأندلس حاملين راية الجهاد ضد النصارى . وقد تعددت إسهامات هؤلاء العلماء في هذا الميدان ، فطفق بعضهم يدعو إلى الجهاد في سبيل الله في أماكن تجمعات الناس كالمساجد والأسواق والميادين العامة وغيرها ، كما صدرت عنهم الفتاوى والرسائل والأشعار والمؤلفات التي استهدفوا من ورائها استنهاض مسلمي الأندلس من جواذب الأرض ، ومغريات الحياة ، ومن ثَمَّ شحذ الهمم ، وتقوية العزائم لمجاهدة الأعداء

النصارى بشتى الوسائل .

ولم يكتف علماء الأندلس زمن المرابطين والموحدين بالدعوة إلى الجهاد بالأقوال المجردة ، وهم بمنأى عن ساحات الوغى ، وميادين القتال ، بل أتبعوا ذلك بتطبيق واقعي لما يدعون إليه ، فشاركوا هم وغيرهم من حملة العلم وطلبته في معارك عديدة ، وشهدوا وقائع كثيرة ، أرخصوا فيها الأرواح، وباعوا فيها الأنفس ، نصرة للدين ، ودفاعاً عن المسلمين ، وقد كتب لبعضهم القتل في سبيل الله ، وتعرض بعضهم لذل الأسر ، وجاهدت فئة ثالثة وعادت سالمة لتستأنف القيام بمسؤولياتها ، ولتمارس مهامها الملقاة على عواتقها تجاه الجماعة الإسلامية في الأندلس .

ومن جانب آخر فإن جمعاً من رجال العلم في الأندلس كان لهم أثر في النفقة لمصلحة الجهاد ضد النصارى كتجهيز الغزاة ، وإصلاح أسوار بعض المدن المتعرضة للغارات ، أو فك الأسرى المسلمين ونحو ذلك ، فأنفقوا من أموالهم في هذا السبيل ، ودعوا غيرهم إلى الإنفاق فيه .

وكان من المتوقع أن تتعاظم مسؤولية العلماء في مجال الصراع ضد النصارى في السنوات التي ضعف فيها حكم المرابطين أو الموحدين في الأندلس. ففي تلك السنوات العصيبة من حياة الأمة اجتهد المخلصون منهم للوقوف في وجه الزحف النصراني المتدافع نحو الأراضي الإسلامية ، فتولى بعضهم زمام السلطة في بعض المدن بعد أن بويع من قبل أهلها ، وقام بعضهم بمناصرة من رأوه مناسباً لحكم المدن التي يعيشون فيها . كما أن ثلة من العلماء قامت بجهود ملموسة لتلافي التفكك المريع الذي ضرب بأطنابه في

الأندلس حين اضمحلت دولة الموحدين .

ولم تقف جهود هؤلاء العلماء عند هذا الحد وكفى ؛ بل ظهرت أكثر في أثناء حصار النصارى للمدن الأندلسية ، إذ قاموا بالسعي في طلب النجدة من عمال الدولة المسيطرة على الأندلس ، أو من أهل المدن القريبة منهم ، وذلك عن طريق بعث الرسائل إليهم ، أو بالاتصال المباشر بهم . كما أنهم لم يقتصروا على طلب المساعدة من داخل الجزيرة الأندلسية ، بل اضطروا في وقت من الأوقات إلى طلبها من الخارج ، وبخاصة من أهل العُدوة المغربية .

وحين استنفذ العلماء شتى السبل لإنقاذ المدن من الخطر النصراني ، وأعيتهم الحيل لم يخنسوا عن المواجهة ، ويركنوا إلى الراحة ؛ فضلاً عن الفرار إلى مدن آمنة ، ولكنهم لبثوا مع الناس يحرضون على قتال العدو ، والصبر على مدافعته حتى النهاية ، فلا تكاد تسقط مدينة من المدن الأندلسية إلا وتجد بعض العلماء من ضحاياها سواء من القتلى أو الأسرى . أما من سلم منهم من القتل وأطلق سراحه من الأسر فقد عاش أكثرهم - بقية عمره - يجول في البلاد يسدي النصح للمسلمين ، ويحذرهم مغبة الخلاف ، وعاقبة الشقاق ، ويدعوهم للحفاظ على ما بقي من أراضٍ إسلامية في الأندلس أولاً وإنقاذ ما فُقِدَ منها ثانياً .

ولعلماء الأندلس في عصر المرابطين والموحدين نشاط من نوع آخر لا يقل في أهميته للأمة وبقائها عما ذكرنا سابقاً - وهذا النشاط يتمثل في التصدي للحملات النصرانية الفكرية المضادة للإسلام وما يرتبط بها سواء

أكانت بالمشافهة أو بالكتابة . فالنصارى إبان هذا العصر دعموا حروبهم العسكرية السافرة ضد مسلمي الأندلس بما يمكن أن نسميه حرباً فكرية ، فأخذوا يجتمعون بالعامة من المسلمين ، ويعقدون المحاورات معهم بغية تشكيكهم في دينهم ، وإدخالهم في الدين النصراني ، كما لجأت فئة من رجال الدين النصارى إلى ترجمة القرآن الكريم والكتب الإسلامية للرد عليها – فيما زعموا – ومحاربتها . كما أن فئة أخرى من رجال الدين أخذت على عاتقها تأليف كتب ورسائل تهاجم فيها عقيدة الإسلام وأحكامه وشرائعه ورسوله ﷺ ، بَلْهَ اللغة العربية لغة هذا الدين وأهله . ولمواجهة هذا التحدي انبرت طائفة من المفكرين المسلمين للرد على هذه الحرب الفكرية رداً علمياً محكماً ، سواء باللسان مباشرة أو في داخل كتب عامة ككتب التفسير والفقه والفتاوى وغيرها ، أو في كتب خاصة لم يؤلفها أصحابها إلا من أجل بيان تهافت تلك الشبهات التي أثارها أولئك النصارى .

ولقد قام عدد من العلماء والمفكرين في ذلك العصر من خلال دروسهم وخطبهم ومؤلفاتهم بجهد مشكور في مجال تميز الجماعة الإسلامية في الأندلس ، وتحصين هويتها الأصيلة ، فوقف بعضهم موقفاً صلباً إزاء ما تسلل إليها من عادات العدو وتقاليده ، وسعى إلى تبصيرها بأمر دينها ، وتحذيرها من عاقبة التمادي في الانحراف عن تعاليمه .

وهكذا نرى جهود علماء الأندلس في ميدان الصراع ضد النصارى خلال عصر المرابطين والموحدين متعددة الجوانب ما بين حرص على وحدة البلاد ، وتأييد للحكام الذين رأوهم جديرين بحكم تلك البلاد ، وسعى

للاتصال بالقوى الإسـلامية لمسـاعدة المسلمين في الأندلـس إذا لـزم الأمـر ، ودعوة للجهاد ومشاركة فيه بالأنفس والأموال ، وتصدٍ للحمـلات الفكريـة المضادة للإسلام ، ومحاربة لأية عادات وتقاليد غريبة عن المجتمع الإسلامي .

☆ ☆ ☆

لعل العـرض السـابق أعطـى فكـرة موجـزة عـن الموضـوع ، وبالتـالي اتضح – ولو بصفة مجملـة – أهميـة دراسـته والـتي يمكـن إبرازهـا في النقـاط المركزة التالية :

– إنه يدرس صراع المسلمين في الأندلس ضد النصـارى مـن منظـور جديد يختلف عن الدراسات المعروفـة الـتي تناولتـه – فحسـب – مـن خـلال العلاقات الرسمية البحتة بين الحكومـات الإسـلامية في هـذه البـلاد والممـالك النصرانية .

– إن دراسته تقدم لنا نماذج لرجال من مجتمعنا الإسلامي ساروا وفق تعاليم دينهم ، وعاشوا حياتهم من أجل نصرتـه والدفـاع عـن بيضتـه ، تـارة بالسنان ، وأخرى باللسان ، وثالثة بالأموال ، أو بذلك جميعاً . هذه النماذج التي كادت أن تغيب عن أذهـان البـاحثين في تاريخنـا الإسـلامي بعـد الصـدر الأول، وذلـك في غمـرة اهتمـامهم بـالحديث عـن قيــام الـدول الإسـلامية وسقوطها ، والخلافات بين زعمائها ، والإشادة بمآثر حكامها وقوادها .

– ومما يضفي على هذا الموضوع أهمية : أن دراسته لا انفصـام فيهـا بشكل عـام بـين الأحـداث السياسـية والنواحـي الحضاريـة ، فكـلا الأمريـن يمتزجان فيها ببعضهما البعض ، وهذا مطلب طالما نادى بتطبيقه المنهجيون في

البحث التاريخي ، وعدد من المؤرخين للوصول إلى أقرب تصور ممكن للحقائق التاريخية ، ومن ثم قطف الثمرة المرجوة من دراسة التاريخ .

– كذلك فإنه يعرض للأدواء المستشرية في كيان المجتمع الأندلسي المسلم التي شخصها مفكرو ذلك العصر من خلال نصحهم – آنذاك – للمسلمين حكاماً ومحكومين ، أو نقدهم لواقعهم ، ولعلنا بذلك نمسك ببعض الأسباب الحقيقية الكامنة وراء سقوط الأندلس ، خصوصاً إذا كان ذلك التشخيص صادرا من علماء الشرع العارفين بسنن الله تعالى الثابتة حول رقي الأمم وانحطاطها .

– وفي دراسة الموضوع -أيضاً- تعرف على جانب من وضع المسلمين الذين وقعوا – بُعَيْد سقوط مدنهم – تحت السيطرة النصرانية في وقت كان للمسلمين دولة في الأندلس ، وهو جانب لم يحظ باهتمام الباحثين في التاريخ الأندلسي – فيما أعلم .

– وفي التعرض لجهود علماء الأندلس في الرد على الحملات الفكرية النصرانية المضادة للإسلام خلال هذه الدراسة كشف لبعض الأساليب غير العسكرية التي سلكها النصارى لاستئصال شأفة هذا الدين من الأندلس ، وإحلال النصرانية محله ، لا سيما ونحن المسلمين اليوم أحوج ما نكون إلى تفهم مثل تلك الأساليب ، وإدراك أبعادها ، أو حتى لفت الأنظار إليها في ظل هذا الاندفاع التنصيري على شعوب إسلامية كثيرة في آسيا وإفريقيا وشرقي أوربا .

– ومما يكسب الموضوع أهميه أن دراسة أعمال أولئك الأعلام الذين

جاهدوا في الله حق جهاده ، وقضوا زهرة حياتهم في مواجهة أعداء العقيدة الإسلامية اتجاه بالغ الأهمية في عصرنا الشاهد ؛ إذ فيه استنهاض لهمم علمائنا وكل من لديه أثارة من علم للقيام بواجبه نحو أمته المثقله بالعلل ، المثخنة بالجراح ، والتي لا ينى أعداؤها في توجيه الضربات القاتلة إليها كلما وجدوا نهزة ، أو سنحت لهم فرصة .

الدراسات التي مست الموضوع :

قبل أن اتجاسر على دراسة هذا الموضوع استفرغت المجهود ، وبذلت الوسع للتأكد من كونه لم يدرس دراسة علمية منسقة ، فقرأت ما وقع تحت اليد من كتابات حوله ، وتصفحت ما تيسر من فهارس مهتمة برصد عناوين رسائل الماجستير والدكتوراه في تاريخ الأندلس وحضارتها ، واتصلت بالمتخصصين فظهر – بعد كل هذا – أن نشاط رجال العلم في الأندلس ضد القوى النصرانية إبان عصر المرابطين والموحدين لم يحظَ بدراسة جامعة لأطرافه، لامة لأشتاته ، منظمة لأبوابه ، كاشفة لغوامضه ، ذاك أن الباحثين في التاريخ الأندلسي مع أنهم درسوا هذا العصر بجوانبه السياسية والحضارية وأثروه بكتابات محكمة إلا أن كتاباتهم في غالبها جاءت مرتبطة ارتباطاً وشيجاً بالنظام الرسمي الحاكم للأندلس المتمثل فترة بدولة المرابطين وفترة تالية بدولة الموحدين . ولذا فإنهم لم يعنوا بنشاط رجال العلم في الصراع مع النصارىٰ الذي ما هو إلا ميدان واحد فقط من الميادين المتعددة التي كان هؤلاء الرجال يجولون في مناكبها ، ويشاركون بالعمل فيها . ومع ذلك كله فلا أنكر أن عدداً من المؤرخين والكتاب قد مسوه مساً خفيفاً في معرض حديثهم عن الأحداث السياسية أو النواحي الحضارية في مؤلفاتهم

أو رسائلهم الجامعية أو أبحاثهم المكتوبة عن المرابطين والموحدين .

فمن الذين علقوا على الموضوع الدكتور / حسين مؤنس في كتيبه الموسوم بـ " شيوخ العصر في الأندلس " والذي درس فيه مشيخة العصر عند الأندلسيين ، حيث كان أهل العلم في الأندلس في كل جيل يختارون شيخاً ممن عرفوا بالصلاح والتقوى والإخلاص للعلم ، فيتخذونه إماماً لهم دون أن يحفزهم على ذلك سلطان أو طمع ، فيكون هذا الشيخ : المتكلمَ باسم الجماعة الأندلسية ، الذاب عن حقوقها ، المَفْزَع لها - بعد الله تعالى - عند حلول الأزمات . ولما كان المؤلف قد درس هذا التقليد من الفتح حتى نهاية عصر الموحدين فإنه تعرض لشيخ كل جيل في الفترة التي قمت بدراستها ، فأشار إلى نشاطاته المختلفة في بلاد الأندلس ، وضمنها طرفاً من نشاطه في المواجهة مع النصارى وعلق على ذلك ، فكانت تعليقاته مفيدة .

ومن الباحثين من أشار أثناء حديثه عن الجهاد الحربي ضد النصارى في عصري المرابطين والموحدين إلى مشاركة بعض العلماء في عدد محدود من المعارك التي تعرض لها ، واكتفى في أحايين كثيرة بذكر أسمائهم فقط دون تعليق ، ومن هؤلاء الباحثين الأستاذ محمد عبد الله عنان في العصر الثالث من موسوعته " دولة الإسلام في الأندلس " بقسميه الأول والثاني ، والدكتور / عبد الرحمن الحجي في كتابه " التاريخ الأندلسي " وغيرهما .

كما أن الدكتور / يوسف العريني في رسالته للدكتوراه " الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين " أعطى أمثلة للعلماء المساهمين في الجهاد ضد النصارى إبان عصر الموحدين .

وبالإضافة إلى ذلك فإن هناك باحثين آخرين ألمحوا إلى مشاركة بعض العلماء في الجهاد الإسلامي ضد النصارى ، وذلك بإشارات عابرة وسريعة ضمن أبحاثهم ودراساتهم الأندلسية .

وصفوة القول أن ما ورد عن الموضوع في المؤلفات والأبحاث الأندلسية الحديثة لا يعدو أن يكون نتفاً متفرقة ، أو تلميحات مبعثرة ، أو تعليقات محدودة ، أو معلومات عارضة ، وفوق هذا فهي جاءت – في عمومها – تمس فقط مشاركة العلماء بأنفسهم في الجهاد الحربي ضد القوى النصرانية.

هيكل البحث :

ولدراسة الموضوع دراسة علمية منظمة ، مُلمة بجوانبه كلها ، مغطية ما يفرضه عنوانه أولاً ، وما توافر من مادة علمية ثانياً فقد جاء هذا الكتاب محتوياً على تمهيد وفصول خمسة وخاتمة .

فحيث أن الموضوع يستغرق في زمانه عصري المرابطين والموحدين ، وينحصر في مكانه على الأندلس، ولا يُعنى إلا بجانب الصراع مع النصارى، ولا يتعرض إلا لنشاط فئة واحدة من فئات مجتمع مسلمي الأندلس في ذلك الصراع – أعني العلماء – حيث أن ذلك كذلك فقد كان من الضروري أن يتقدم الدراسة تمهيدٌ يُعَرِّف باختصار بأوضاع الأندلس السياسية في ذلك العصر من جانب ، وبأحوالها العلمية في العصر نفسه من جانب آخر ؛ فبدون هذا التعريف المختصر تبقى خلفيات كثيرٍ من الأحداث والقضايا الواردة في فصول الكتاب غير واضحة ، وقد حرصنا أن نركز عند التطرق للأوضاع السياسية على اهتمام الحكام المرابطين والموحدين بشؤون بلاد الأندلس ، وبالأخص في حقل الجهاد العسكري ضد القوى النصرانية .

أما الأحوال العلمية التي ترتبط بالعلماء المشاركين في الصراع المضاد للنصارى ارتباطاً وثيقاً فقد آثرنا أن يكون الحديث عنها مُبْرزاً لما طرأ من تطور أو تغيير في الحركة العلمية في الأندلس زمن المرابطين ثم الموحدين .

وأتى الفصل الأول بعنوان : " العلماء المشاركون في الصراع مع النصارى ومنزلتهم العلمية والاجتماعية " فلقد كان من غير المناسب دراسة المناشط المختلفة للعلماء في ميدان الصراع ضد النصارى دون التعرف عليهم، والوقوف على أحوالهم ، ولذا احتوى هذا الفصل على أربعة مباحث ؛ أُفرد أولها لمعرفة ملامح حياة مشاهير هؤلاء العلماء خلال عصر الدراسة كله ، وتناول المبحث الثاني المكانة العلمية – بشكل عام – للعلماء المشاركين في الصراع ضد النصارى ، كما عالج المبحث الثالث منزلتهم الاجتماعية ، ثم اختتم هذا الفصل بالمبحث الرابع الذي يتمم المباحث السابقة ، وهو أثرهم العلمي في المجتمع الأندلسي .

أما الفصل الثاني فقد تعقب تحركات العلماء السياسية المتصلة بالمجابهة مع العدو النصراني ، فكان عنوانه " أثر العلماء السياسي في مواجهة النصارى" وقد أبرز – أولاً – نشاطهم المتنوع في دعوة الناس إلى مجاهدة ذلك العدو ، ثم درس – ثانياً – ما نُسِبَ إليهم من أقوال وأعمال في سبيل إبقاء الأندلس في عصر الدراسة متوحدة الكلمة ، مترابطة الأجزاء أمام الخطر النصراني . وبعدها تتبع – ثالثاً – أثرهم السياسي وقت اضمحلال دولة الموحدين والذي تمثل بالاستنجاد بالدولة الحفصية في العُدوة المغربية لمحاولة استنقاذ البلاد من زحف الجيوش النصرانية عليها .

ثم تلى ذلك : الفصل الثالث الذي رصد بصورة جلية إسهام أكبر عدد ممكن من علماء الأندلس في ميدان الصراع ضد النصارى ، إذ هو يتعلق بجهودهم في الجهاد العسكري ، وقد عنون له بـ " مشاركة العلماء في الجهاد الحربي ضد النصارى " وقد تطرق في البداية إلى عدد من المظاهر الدالة على اهتمام علماء الأندلس بقضية الجهاد العسكري مع هؤلاء الأعداء ، ثم عرض لإسهاماتهم في إنفاق الأموال في ذلك الميدان ، ثم فصَّلَ في مشاركتهم الميدانية في الجهاد التي قسمت إلى شطرين ؛ الأول يرصد مشاركاتهم في الغزوات الموجهة نحو ممالك إسبانيا النصرانية ، فابتدأ بخروجهم للجهاد ضد مملكة قشتالة ، ثم مملكة برشلونة (قطالونيا) ، ثم مملكة أرغون ، وأخيراً مملكة البرتغال . أما الشطر الآخر فقد عُني بالحديث عن إسهاماتهم في تحصين المدن الأندلسية من العدوان النصراني الغادر عليها ، ثم تناول جهودهم في الدفاع عنها عند تعرضها للاعتداء أو الحصار من جانب أولئك الأعداء .

والفصل الرابع الموسوم بـ " تصدي العلماء للحملات الفكرية النصرانية ضد الإسلام " أُفتتح ببيان للحملات الفكرية التي سلطها النصارى على الإسلام والمسلمين في الأندلس إبان ذلك العصر ، ثم لحق ذلك استقصاء للعلماء الذين انبروا للرد على تلك الحملات ، فعُرِّف بهم ، وشرحت جهودهم في هذا الجانب ، وبعدها عُرضت نماذج من ردود هؤلاء العلماء على النصارى الطاعنين في الدين الإسلامي .

وأتى الفصل الخامس – وهو الأخير – معالجاً لأثر العلماء في الحفاظ على هُوية مسلمي الأندلس إزاء النصارى ، فكان عنوانه " أثر العلماء في

المحافظة على الشخصية الإسلامية تجاه التأثيرات النصرانية " .

وكما هو المقرر في البحوث العلمية فقد أُنهي هذا الكتاب بخاتمة رصدت فيها أهم النتائج التي تُوصل إليها ، كما ذُيل بعدد من الملاحق والخرائط التي رُئي أنها تخدم الموضوع .

المادة العلمية :

إن المصادر المختصة بأخبار علماء الأندلس لم تعن كثيراً برصد جهودهم في ميدان الصراع ضد النصارى ، فذِكْرُ شيءٍ منها لم يكن يمثل ركناً أساسياً مرعياً في كتب التراجم ، إذ الملاحظ أن الإشارة إلى جهود هذا العالم أو ذاك في ذلك الميدان قد جاء عَرَضاً في تلك المصادر ، وربما مبتسراً في أحيان كثيرة . وقد يُغْفِل مصدر من هذه المصادر - معاصر للدراسة - مشاركة عالم في جهاد النصارى ، ثم نرى مصدراً آخر جاء بعده بزمن يشير إلى تلك المشاركة . وقد تخلو المصادر المعنية بأخبار العلماء من أي تصريح أو تلميح لمشاركة العلماء في الجهاد لكنْ تأتي المصادر التي تتكلم عن الأحداث معلنةً عن مشاركتهم فيه ولو بإشارات مقتضبة ؛ علماً أن ما جاء في هذين الصنفين من المصادر يختص - في الغالب - بالجهاد العسكري . وقد لا نجد مطلقاً أي إشارة لجهود العلماء في ميدان الصراع ضد النصارى في الكتب الخاصة بتراجمهم أو المختصة بالأحداث ثم نعثر على شيء من ذلك أثناء كلامهم عن أنفسهم في مؤلفاتهم الخاصة ، أو في مؤلفات نَقْلت مما صدر عنهم من أقوال . ولذلك فإن جمع مادة هذه الدراسة اقتضى جهداً كبيراً ، ووقتاً مضاعفاً ، حيث تطلب مسحاً شاملاً لكثير من المصنفات المختلفة في فنونها ، المتنوعة في موضوعاتها . فالمادة العلمية المكونة للدراسة - إذن -

فوق أنها انداحت إلى مصادر متعددة الاتجاهات، متلونة المشارب،فهي لم تأت فيها محدودة في أبواب معروفة ، متسقة في مواضع معينة ، ولكن يمكننا - على العموم - حصرها في قسمين ؛ قسم منها جاء وافراً في مصادر معينة ولكنه في الوقت عينه كان متفرقاً في تضاعيفها ، وهذا وُجد بصفة عامة في المؤلفات التي كَتَبَتْ على العلماء وأخبارهم ، وعن أحداث عصرهم . أما القسم الآخر من المادة العلمية فقد أتى مشعشعاً في مصادر شتى، وفي الآن نفسه مبعثراً في أكثرها ، فتخاله شذرات هنا ، وشذرات هناك، وقد وردت هذه الشذرات في كثير مما سُطّر في عصر الدراسة في فنون العلم المختلفة ، سواء بأيدي علماء ذلك العصر وكُتّابه ، أو بأيدي الذين جاءوا من بعدهم ؛ فقضية كقضية الصراع مع النصارى - تصك سمع المجتمع الإسلامي في الأندلس وبصره كل حين - قد استحوذت - بلا ريب - على تفكير رجال العلم ، وأرقت نفوسهم ، وأصبحت الهم الأكبر لدى كثيرين منهم ، فانعكس ذلك على ما ألقوه من خطب ومحاضرات ، وما أملوه من شروح ومختصرات ، وما خطوه هم بأنفسهم من رسائل وكتب ؛ علاوة على ما سجله تلاميذهم عنهم من أقوال وآراء . وعلى هذا فلدينا كمية من المصادر التي اعتمد عليها البحث تميزت بأن كُتّابها كانوا من أهل العصر الذي ندرسه، فاتفق أن ثلة منهم سجلت من الحوادث المتعلقة بالصراع ضد النصارى ما شاهدته بعينها، أو شاركت فيه بنفسها، أو عايشته في عمرها.

وقبل أن نلقي الأضواء على أهم المصادر التي أفادتنا نؤكد أنه بالرغم من أن تلك المصادر اختلفت في فنونها واتجاهاتها إلا أن ما ورد فيها بشكل عام من معلومات تخص البحث كان بعضها - في كثير من الأحايين -

يكمل بعضاً ، وربما فسر بعضها ما غمض في الأخرى .

ومن الطبيعي أن تكون كتب التراجم وما يُلحق بها كبعض كتب الفهارس والبرامج ونحوها أساس هذه الدراسة وعمادها ، فمعظم العلماء الأندلسيين الواردة أسماؤهم في صفحات هذا الكتاب انطلقت معلوماتنا الأولى عن إسهاماتهم القولية أو الكتابية أو الميدانية في الصراع ضد النصارى - من هذه المصادر ؛ إضافة إلى كونها المعول الأصلي في التعريف بهم ، وتبيان أحوالهم .

فلقد كانت كتابات أبي عبد الله بن الأبار (ت٦٥٨هـ/١٢٥٩م) الذي كان من المشاركين في حقل الجهاد ضد النصارى - من أهم هذا النوع من المصادر ، فكتابه " التكملة لكتاب الصلة " من بين المصادر قاطبة - كان الأكثر حضوراً في فصول الدراسة ، فهذا الكتاب ترجم - أصلاً - لعلماء عصر المرابطين والموحدين الذي زخر بكثرة كاثرة من أهل العلم لايدانيه في الأندلس عصر سابق ولا لاحق ، فأمدنا بإفادات عن إسهامات كثير من العلماء في ميدان الصراع ضد النصارى ، وبالأخص في مضمار الجهاد الحربي فأشار إلى وقائع حربية بين المسلمين والنصارى شارك فيها أهل العلم لا ذكر لها في المصادر التاريخية . كما أن كتابه " المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي " الذي شمل تراجم علماء عاشوا في عصر المرابطين ، وفي النصف الأول من عصر الموحدين - قد أفادنا بمعلومات قيِّمة عن مشاركات العلماء السياسية والعسكرية المضادة للنصارى .

ويُعد كتاب " الذيل والتكملة لكتاب الموصول والصلة " لابن

عبدالملك المراكشي (ت٧٠٣هـ/١٣٠٣م) الذي طُبعت أكثر أسفاره حتى الآن – من كتب التراجم التي أثْرَت البحث كثيراً ، فبالإضافة إلى اختلاف طريقته – أحياناً – عن ابن الأبار في عرضه لسير علماء الدراسة ، فقد تفرد بترجمة علماء فات ذكرهم عن ابن الأبار ، وفوق ذلك أنه تميز بتوسع كبير في تراجم عديد من أولئك العلماء المشاركين في الصراع ضد النصارى ، وعرض لإسهاماتهم في ذلك ، سواءً السياسية أو العسكرية بل وحتى الفكرية .

ومن كتب التراجم التي أفادتنا كثيراً كتاب « صلة الصلة » لابن جعفر ابن الزبير (ت٧٠٨هـ/١٣٠٨م) الذي طُبع قسمه الأخير قديماً ، ثم طُبع مؤخراً أقسام ثلاثة ، رقمت بالثالث والرابع والخامس ، فشملت هذه الثلاثة الأقسام ذلك القسم المطبوع من قبل ، حيث سددت ما كان فيه من نقص ، ثم أتت بتراجم جديدة سابقة عليه . فعلى الرغم من أن ابن الزبير لم يكن دائماً دقيقاً في تحديد سنوات الأحداث التي تعرض لها في زمن دراستنا إلا أن معلوماته عن مشاركات العلماء في الجهاد الميداني كان بعضها فريداً ، كتفرده – مثلاً – بذكر مشاركة بعض علماء الأندلس في الجهاد ضد الصليبيين في المشرق .

أما كتب الفهارس أو البرامج أو المشيخة التي سارت على نهج كتب التراجم ، واستفاد منها البحث ، فنذكر على سبيل المثال ما كتبه بيراعه أبو محمد بن عطية (ت٥٤١هـ/١١٤٧م) الذي كان من مشاهير المسهمين في حرب النصارى ، وعُنْوِنَ له بـ « فهرس ابن عطية » حيث أورد عن نفسه

عَرَضاً - وهو يحكي قصة طلبه العلم - إشارات دقيقة عن مشاركاته ومشاركات بعض شيوخه في المعارك ضد العدوان النصراني . وفي معجم مشيخته المسمى " الغنية " زودنا القاضي عياض (ت٥٤٤هـ/١١٤٩م) بمعلومات طيبة عن عدد من العلماء الذين درس على أيديهم ، وشاركوا في جهاد النصارى . أما ما دونه الرعيني (ت٥٦٦هـ/١٢٦٧م) عن شيوخه ، ونشر بعنوان " برنامج شيوخ الرعيني " فقد اطلعنا على طرف من أحوال بعض العلماء في المعارك ضد القوى النصرانية ، كما قَدَّم لنا إشارات عامة عن سير الحركة العلمية في عصره ، فكانت تلك الإشارات مفيدة لنا في الكشف عن جوانب معينة من جهود العلماء الفكرية المواجهة للنصارى .

ولقد كان للمصادر التاريخية الأثر الأعظم في بناء هذا البحث ، فكثير مما ورد مقتضباً عن أحداث الصراع ضد النصارى في كتب التراجم وغيرها أتى موسعاً في هذه الكتب التاريخية ، وما التقطناه من تلويحات عامة، وقد تكون غامضة عن جهود العلماء في ذلك الصراع - في عديد من المصادر غير التاريخية جاءت المصادر التاريخية شارحة لها ، مجلية لغامضها .

فمن المصادر التاريخية التي أفادت الدراسة كتاب ابن الكردبوس (كان حياً في النصف الثاني من القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي -) الموسوم بـ " الاكتفاء في أخبار الخلفاء " والذي سُمّي ما وجد منه يخص الأندلس " تاريخ الأندلس " فما كتبه عن عصر المرابطين كانت فائدته للبحث عظيمة ، وبالذات عند دراسة أثر العلماء في وحدة البلاد أمام النصارى في ذلك العصر .

وكان كتاب « المن بالإمامة » ☆ لابن صاحب الصلاة الذي عاش في أواخر النصف الثاني من القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي - رافداً مهماً للدراسة في الفترة التي غطى أحداثها ، ذلك أن ما نشر منه يمثل فقط السفر الثاني الذي يبتديء بسنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م ويقف عن نهاية حوادث سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م ، فجاءت فيه تفصيلات واسعة عن الأحداث في الأندلس إبان هذه السنوات ، وكذلك عن مشاركات العلماء في جهاد النصارى ، وبخاصة في المجال العسكري . كما حكي ابن صاحب الصلاة عن نفسه - بصفته أحد رجال العلم - خروجه مع الجيوش الموحدية للغزو في البلاد النصرانية .

كذلك فإن عبد الواحد المراكشي (ت٦٤٧هـ/١٢٤٩م) في كتابه « المُعجِب في تلخيص أخبار المغرب » قد عَرَض لجهود بعض العلماء ومواقفهم السياسية والعسكرية في حقل الصراع ضد الأعداء . كما أفادنا - أيضاً - بأخبار وافية عن بعض المعارك الكبرى الدائرة بين المسلمين والنصارى في عصري المرابطين والموحدين التي شارك فيها العلماء .

ويعد كتاب « نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان » لابن القطان (وفاته في منتصف القرن السابع الهجري -الثالث عشر الميلادي-) من المصادر التاريخية التي زودتنا بمادة علمية فريدة عن أثر العلماء في صراع الإسلام ضد النصرانية في الأندلس إبان العصر المرابطي خاصة ، ففي أخبار

☆ أصل عنوان هذا الكتاب هو " تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين ، وظهور الإمام المهدي بالموحدين على الملثمين ، وما في مساق ذلك من خلافة الإمام الخليفة أمير المؤمنين وآخر الخلفاء الراشدين " ، وقد اكتفى المحقق بكلمتين من العنوان .

السنوات الباقية من أصل هذا الكتاب - وتمتد من سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م - ٥٣٣هـ/١١٣٨م والتي تحامل فيها كثيراً على المرابطين - تفرد بشرح إسهام بعض العلماء في معركتين دارتا بين المسلمين وقشتالة ، وهما أُقْلِيش وطَلَبِيرة. كما كشف جهود بعض العلماء في الدفاع عن المدن الأندلسية من هجمات الأعداء .

وثمة مصادر تاريخية غير ما سبق اعتمد عليها البحث في أغلب فصوله، وذلك عند شرح الأحداث والمواقف المرتبطة بجهود العلماء في ميادين المواجهة مع النصارى ، فضلاً عما ورد فيها - هي بنفسها - عن أثرهم في تلك الميادين . ومن أهم هذه المصادر نذكر كتاب " البيان المُغْرب ... " لابن عِذارِى (ت بعد سنة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م) في القسم الخاص بالمرابطين ، وهو الجزء الرابع ، والقسم الخاص بالموحدين . وكتاب " الأنيس المطرب..." لابن أبي زرع (ت ٧٤١هـ/١٣٤٠م) وكتاب " أعمال الأعلام ... " بقسميه الثاني المختص بتاريخ الأندلس ، والثالث المتعلق بتاريخ المغرب ، وكتاب " الحلل الموشية ... " لمؤلف مغربي مجهول (عاش في القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي -) . وكذلك كتاب " العبر ... " لابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) في الجزء الأول " المقدمة " ، والجزئين الرابع والسادس .

وواضح مما تقدم أن هذه المصادر التاريخية وقبلها كتب التراجم كلها أندلسية أو مغربية ، بيد أن المصادر المشرقية من هذين الصنفين قد أفادت

الدراسة . ومِيْزَتُها أن كُتَّابها نقلوا رواياتٍ لبعض أحداث ذلك العصر من أندلسيين أو مغاربة هاجروا إلى المشرق ، أو من مؤلفاتٍ ألفها بعض هؤلاء المهاجرين ، وتعتبر الآن في حكم المفقود . ومن هذه المصادر المشرقية نذكر " الكامل في التاريخ " لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) ، و " وفيات الأعيان ... " لابن خلكان (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) ، و " سير أعلام النبلاء " للذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) ، و " الوافي بالوفيات " للصفدي (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م) .

ولقد وفرت المصادر ذات الصبغة الأدبية مادة علمية ثرة للبحث ؛ حيث جاءت هذه المصادر في غالبها تراجم لأهل العلم ، وبخاصة لرجال الأدب ، فاستطرد مصنفوها في ذكر حوادث تهمنا في دراستنا .كما حفل بعضها - أيضاً - بخطب ورسائل كانت في غاية الأهمية في تبيان الأثر السياسي والعسكري والفكري ، لعلماء العصر في ميدان الصراع ضد النصارى . فاستفدنا - مثلاً - مما كتبه ابن خاقان (ت ٥٢٩هـ/١١٣٥م) في " قلائد العقيان ... " و " مطمح الأنفس ... " ، وابن أبي الخصال (ت ٥٤٠هـ / ١١٤٦م) في رسائله ، وابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م) في كتابه " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " ، والبلوى (ت ٦٠٤هـ/ ١٢٠٨م) في معلمته " ألف باء " ، وابن عَميرة المخزومي (ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م) في رسائله المخطوطة ، وابن سعيد (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) في كتابه " المُغرب في حلى المغرب " ، وابن المرابط (كان حياً سنة

٧٢١هـ/ ١٣٢١م) في كتابه " زواهر الفِكَر ... " ، وابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م) في كتابه " الإحاطة في أخبار غرناطة " . كما أفدنا كذلك مما جاء في كتاب " رسائل أندلسية " لمؤلف مجهول ، وكتاب " رسائل ومقامات أندلسية " ، لمؤلف مجهول أيضاً . وكان هذان الكتابان الأخيران قد نشرا من قريب لأول مرة .

أما الصنف الآخر من المصادر التي شيدت البحث فهي مصادر لم تؤلف أصلاً في الأحداث التاريخية ، ولا في تراجم العلماء وأخبارهم . ونعني بها المؤلفات التي صنفها علماء عصر الدراسة أو بعده في أصول الشرع الإسلامي وفروعه ، فمثل هذه التواليف أفادت البحث أيما فائدة ؛ حيث جَلَّتْ جوانبَ أساسية من جهود علماء الأندلس في ميدان الصراع ضد النصارى ، وأكملت ما تخلل فصول الرسالة من نقص ، وردمت ما اعتورها – أحياناً – من ثغرات . ففي مجال تصدى العلماء للحملات الفكرية النصرانية المضادة للإسلام رجعنا إلى أعمال متكاملة ما ألفها أصحابها إلا لهذا الغرض ، فاستفدنا منها فائدة عظيمة ، ككتاب " مقامع الصلبان " لابن أبي عَبيدة الخزرجي (ت٥٨٢هـ/١١٨٧م) ، وكتاب " الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ... " المنسوب للقرطبي .

كذلك أفاد البحث من بعض ما ألفه أولئك العلماء في العقيدة والتفسير والحديث والفقه ، حيث عثرنا في ثنايا صفحات هذه المؤلفات على معلومات وتعليقات كانت في غاية الأهمية لموضوعنا ، فهم – مثلاً – في

تفسيرهم لآية كريمة ، أو شرحهم لحديث نبوي استطردوا - أحياناً - في الكلام عن حوادث وقعت لهم ، أو وقائع حربية مع النصارى شهدوها أو سمعوا بها ، وربما استرسلوا - أحياناً أخرى - في التعليق على ما تعاينه أمتهم من أمراض اجتماعية أو فكرية . وكمثال واضح على ذلك فقد استفدنا من مؤلفات أبي بكر بن العربي (ت ٥٤٣هـ/١١٤٨م) مثل كتاب " العواصم من القواصم " و " أحكام القرآن " بأقسامه الأربعة ، و " قانون التأويل " في التفسير و " عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي " و " القبس في شرح موطأ مالك ابن أنس " ، وغيرها . فتعليقات ابن العربي في أطواء هذه المؤلفات واستطراداته التي تشهد بوعية بأوضاع أمته، وفقهه لواقع الأحداث، ومتابعته - عن فهم وإدراك - لما يدور من احتكاكات بين المسلمين وأعدائهم النصارى - هذه التعليقات والاستطرادات وسواها في مؤلفات آخرين غيره أفادت هذه الدراسة فائدة عظيمة .

ولقد زودتنا كتب الفتاوى بمادة علمية نفيسة ، إذ تضمنت قضايا ونوازل ذات صلة وطيدة بموضوعنا ، فمن ذلك فتاوى ابن رشد الجد (ت ٥٢٠هـ/١١٢٦م) ، و " مذاهب الحكام في نوازل الأحكام " للقاضي عياض (ت ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م) وابنه محمد (ت ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م) ، و " المعيار المعْرَب و الجامع المُغرب في فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب " للونشريسي (ت ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م) الذي حوى عديداً من فتاوى علماء عصر دراستنا .

ونُذَكّر في نهاية حديثنا عن هذا النوع من المصادر أننا حصلنا على إشارات مفيدة لبحثنا في كتابات علماء ذلك العصر في مجال الحسبة والسيرة النبوية والمغازي .

كما أفادتنا كتب الجغرافية بمعلومات عما ورد في الدراسة من أماكن وُجِدتْ حاجة للتعريف بها ، وتحديد مواقعها ؛ علاوة على أن هذه الكتب تضمنت أخباراً تاريخية انتفعنا بها في مواطن متفرقة من فصول الكتاب .

أما الدراسات الحديثة فلم ندخر جهداً للاستفادة مما كُتب بالعربية عن عصر المرابطين والموحدين سواء في كتب عامة أو خاصة ، أو فيما جاء على صورة مقالات أو أبحاث . كما رجعت إلى ما تيسر من مراجع ومقالات أجنبية تمس الموضوع ، وانتفعت بها .

وفي الختام أحمد الله تعالى على ما وهبني من صحة وعزم ، وصبر وجَلَدٍ حتى انهيت هذه الدراسة ، فهو المحمود على ذلك وغيره من نعمه التي لا تحصى ، وله المنة من قبل أن هداني إلى موضوعها ، ويسر عليَّ جمع مادتها، وأعانني على كتابتها ، ومَنَّ علي بإتمامها ، فله الحمد والامتنان ، والفضل والشكران .

ثم إنني أنوه بفضل أستاذي الدكتور حمد بن صالح السحيباني – الذي أشرف على هذه الدراسة – ، فكان – على مدى خمس سنوات – عوناً لي على إنجازها . فأشكره على حسن توجيهه ، وحكيم نصحه ، وعلى

تواضعه الجم ، وكرم استقباله لي في مكتبه وبيته ، فجزاه الله عني أعظم الجزاء .

كما أشكر كل من قدم لي مساعدة أو مشورة ، وأخص منهم بالذكر أستاذنا الأستاذ الدكتور/ محمد عبد الحميد عيسى ، وأخي الدكتور/ صالح بن محمد السنيدي ، والأستاذ الدكتور / حمدي عبد المنعم حسين ، وزميلي الأستاذ / حسن بن يحيى الشوكاني ، فأدعو الله أن يجازيَ كل واحد منهم على ما قدم لي خير الجزاء .

وأخيراً أسأل الله سبحانه أن يثيبني - بفضله وكرمه - على ما في هذا العمل من خير وصواب ، وأن يعفوَ عني - بلطفه ورحمته - عما فيه من عثرات وأخطاء ، فحسبي أني تحريتُ واجتهدت ، والحمد لله أولاً وآخراً .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى وآله وصحبه وسلم

إيضاحات

- اكتفينا عن كلمات ترددت كثيراً في الكتاب برموز ، فـ " ت " = توفي أو المتوفى ، " جـ " = الجزء ، " م " = المجلد ، " ق " = القسم ، " س " = السفر ، " ط " = الطبعة .

- فيما يتعلق بكتاب " التكملة لكتاب الصلة " لابن الأبار رجعنا إلى ثلاث طبعات ؛ ١ - ط . الحسيني في جزئين ، ٢ - ط . كوديرا في جزئين، ٣ - ط . عبد السلام الهراس في أربعة أجزاء ، فإذا عزونا إلى ط . الحسيني نكتفي بذكر اسم الكتاب . أما إذا كانت الإحالة إلى الطبعتين الأخريين فإننا نربط باسم الكتاب كوديرا أو عبد السلام الهراس . وكذلك يقال عن كتاب " صلة الصلة " لابن الزبير ، فالطبعة الأساس المعتمدة في هذا الكتاب والتي نعزو لها هي ط . بروفنسال المتمثلة في القسم الأخير من هذا الكتاب ، ولكننا استفدنا من الطبعة الجديدة التي جاءت في ثلاثة أقسام : الثالث والرابع والخامس . فإذا عزونا إلى هذه الطبعة الجديدة فيعرف ذلك بتقييدنا لها بذكر القسم " ق " .

- استخدمنا الأرقام في العزو إلى المصادر والمراجع ، وعلامة (☆) في التعريف بالمدن أو الشخصيات أو لتوضيح غامض أو لشرح مختصر أو للإحالة إلى شيء سبق ذكره ... ونحو ذلك .

التمهيد

تعريف موجز بالحياة السياسية والعلمية في الأندلس

خـــلال عصـــري المرابطـــين والموحـــدين

أ - الحياة السياسية :

لما انتثر عقد الخلافة الأموية في الأندلس ، وتفرق الناس فيهـا شـيعاً ، وذاق بعضهـم بأس بعض ، وأخـذ المـد النصرانـي يتدافـع بشراسـة للاسـتيلاء على البلاد هيأ الله تعـالى مـن أهـل العُـدوة المغربيـة مَـنْ بسـط سيادته على الأندلس ، واجتهد في توحيد كلمة أهلها ، ووقف شجي في حلوق نصـارى الممالك الإسبانية مدة زمنيـة غـير قصـيرة . وقـد مثـل المرابطـون هـذا الـدور المغربي أولاً ، ثم جاء من بعدهم الموحدون .

فلقـد عـبر المرابطـون – بقيـادة سلطانهـم يوسـف بـن تاشفـين☆ –

☆ نشأت دولة المرابطين على أثر قدوم عبد الله بن ياسين إلى الصحراء جنوب المغرب مع زعيم الملثمين يحيى بن إبراهيم الجدالي ، حيث دعا للعودة إلى الإسلام ، ولما لم يستجب له آوى ومن تبعه إلى جزيرة هناك ، واتخذ رباطاً فيها ، وحين تجمع حوله ألف من الأشياع سماهم المرابطين ، ثم خرج من ذلك الرباط ، وأخضع قبائل الملثمين (ابـن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ط. درا المنصور، الرباط ، ١٩٧٢م، ص١٢٤-١٢٥) وبعد أن آلت زعامة المرابطين إلى يحيى بن عمر اللمتوني عقب وفاة يحيى بن إبراهيم غزا المرابطون مملكة غانة الوثنية سنة ٤٤٦هـ / ١٠٥٤م ، ثم اتجهوا بفتوحاتهم شمالاً نحو المغرب. ولما قتل يحيى بن عمر سنة ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م بويع لأخيه أبي بكر بن عمر بالإمارة على المرابطين ، وفي حروبهم مع برغواطة سنة ٤٥١هـ / ١٠٥٩م قتل داعيتهم عبد الله بن ياسين (البكري : المسالك والممالك ، تحقيق: أدريان فان ليوفن وأندري فيري، ط. الدار العربية للكتاب، تونس ، ١٩٩٢م، جـ٢ ص ٨٥٩-٨٦٣ ؛ عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق سعيد أحمد أعراب ، ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، جـ٨، ص٨١-٨٣) وحينما توجه أبو بكر بن عمر إلى الصحراء فوض أمر المغرب إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين ، فلما رجع رأى أن شأن يوسف قد عَظُم فتنازل عن السلطة في المغرب عام٤٦٥هـ/١٠٧٢م وكر عائداً مرة أخرى إلى الصحراء (مجهول : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة ، ط . الأولى ، دار الرشاد الحديثة، الرباط ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص٢٣-٢٨) تابع يوسف فتح البلاد فلم تأت سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٤م إلا والمغرب الأقصى كله وغربي المغرب الأوسط خاضعاً لسلطانه (ابن أبي زرع : الأنيس المطرب، ص١٣٩-١٤٤) ويحسن التنبيه هنا أن المرابطين عرفوا أيضاً بالملثمين (ابن أبي صيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ط . دار الثقافة ، بيروت ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، جـ٣ ، ص١٠٤) .

إلى الأندلس لمؤازرة إخوانهم المسلمين فيها ضد النصارى مرتين☆ . وبعدها توافرت لدى ابن تاشفين عدد من الأسباب حملته على إسقاط مَنْ يحكمون فيها من زعماء دول الطوائف ، ومن ثم إلحاقها بدولته . ولعل من أهم تلك الأسباب ، ظلمهم للناس (١) ، واستفحال التنازع بينهم (٢) ، وتخاذلهم عن الجهاد (٣) ، وتهافتهم على موالاة العدو (٤) ؛ فضلاً عن كون الأندلس كافة تُعد من الثغور الإسلامية المهمة لاسيما لبلاد العدوة المغربية ، فسقوطها بأيدي النصارى تهديد خطير لأمن المغرب الذي كان الحكمُ المرابطي قائماً فيه (٥) . وقد دعم ذلك كله فتاوى العلماء الحاثة على خلعهم (٦) .

عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس في أوائل سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م

☆ كان العبور الأول سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م فجرت معركة الزلاقة التي اندحر فيها النصارى (ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، ط . دارالثقافة ، بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، ق ٢ ، م١، ص٢٥٤-٢٥٥ ، ق ٣ ، م١ ، ص ٩٣) ، أما الثاني فقد كان في سنة ٤٨١هـ /١٠٨٨م حيث حاصر المرابطون حصن لييط قرب مرسية في الجنوب الشرقي من الأندلس (مجهول : الحلل الموشية ، ص ٦٦-٧٠) ولمعرفة تفاصيل أحداث هذين العبورين انظر (عبد الله بن بلقين : التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيرى في غرناطة ، تحقيق إ . ليفي بروفنسال ، ط. دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٥م ، ص١٠٢ - ١١٣) .

(١) ابن بلقين : التبيان ، ص ١٠٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٧ ، ١١٣ .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ، ق ١ ، م ٢ ، ص ٧٣٤ ؛ ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس (قطعة من كتاب الإكتفاء في أخبار الخلفاء) تحقيق أحمد مختار العبادي ، ط . معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، ١٩٧١م ، ص١٠٤ .

(٤) ابن بلقين : التبيان ، ص ١٢٣-١٢٧؛ ابن بسام : الذخيرة ق ٢ ، م ١ ، ص ٢٤٨ ؛ ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس ، ص ١٠٤ .

(٥) محمد عبدالله عنان : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، ط.الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ، ص ٣٣٩ ؛ سعدون عباس نصر الله : دولة المرابطين في المغرب والأندلس -عهد يوسف بن تاشفين-، ط. الأولى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ، ص١١٤.

(٦) ابن خلدون : [العبر] ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، ط. الأولى ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، جـ٦، ٢٤٩.

لتحقيق غرضه ، ولكنه اتجه أولاً إلى طليطلة الحاضرة الجديدة لمملكة قشتالة النصرانية☆ ، فلما عاث فيها وفي بعض ما حولها من قرى ومدن (١) ، ورأى – فيما يبدو – أنه قطع الصلة بين حاكمها وملوك الطوائف المتواطئين معه كر عائداً نحو الجنوب (٢) ، وبدأ بمملكة غرناطة☆☆ ، فاستولى على حاضرتها في شهر رجب سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م (٣) . وبعدها استكملت القوات المرابطية إخضاع بقية أراضي هذه المملكة (٤) .

☆ قشتالة كانت في أصلها تلك القلاع المقامة لحماية مملكة ليون من هجمات المسلمين ، وقد عرفت أيضاً في المصادر الأسبانية بـ CASTELLES أي القلاع . ولقد صارت هذه القلاع مملكة مستقلة بعد اتحادها في القرن الرابع الهجري – العاشر الميلادي – (أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس، ط . مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية ، ص ٧٨ ، ٢٠٩) وفي النصف الأول من القرن التالي أصبحت قشتالة تابعة للملك نافار سانشو الثالث (المسمى بالكبير) ، فمنحها لابنه فرناندو الذي ضم إليها مملكة ليون بعد وفاة أبيه سنة ٤٢٦هـ / ١٠٣٥م فاتحدت بذلك قشتالة وليون في مملكة واحدة . (عنان : دول الطوائف ، ص ٣٧٧-٣٧٨) ثم إن فرناندو قسم هذه المملكة قبل وفاته بين أبنائه ، فلما توفى سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٥م ، تنازع هؤلاء الأبناء فيما بينهم ، واستقر ذلك النزاع عن ولاية الفونسو السادس لعرش تلك المملكة سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م . (Jose Terrero : Historia de Espana , Barcelona , ١٩٧٢, p. ٩٢-٩٣) . والفونسو هذا هو الذي انتزع طليطلة من المسلمين سنة٤٧٨هـ/١٠٨٥م (ابن بسام : الذخيرة ، ق٤، م ١ ، ص١٦٨) فجعلها عاصمة لمملكته (عنان : دول الطوائف ، ص ٣٩٦) .

(١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٥٣ .

(٢) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ، ط .دار الفكر العربي ، القاهرة ، ص ٣٠٢ .

☆☆ كانت أسرة بني زيرى بن مناد البربرية الصنهاجية تحكم هذه المملكة ، وقد كان آخر حكامها عبدالله ابن بُلُقِّين الذي استسلم للمرابطين . لمعرفة أخباره وأخبار أسرته مفصلة انظر (ابن بلقين : التبيان، ص١٦ – ١٧٧ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، ط . الأولى، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥ ، جـ ٣ ، ص ٣٧٩ – ٣٨٢ ؛ أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، تحقيق إ . ليفى بروفنسال ، ط . الثانية ، دار المكشوف ، بيروت ١٩٥٦م ، ق ٢ ، ص ٢٣٥ – ٢٣٦) .

(٣) الضبي : بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، ط . دار الكتاب العربي ١٩٦٧م ، ص ٤٢ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

(٤) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٥٤ ؛ مجهول : نبذ تأريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى، نشر إ . ليفى بروفنسال ، ط . المطبعة الجديدة ، الرباط ١٣٥٢هـ / ١٩٣٤م ، ص ٤٤ .

عاد يوسف إلى عاصمته مراكش [١] وشرع في حشد قواته للاستيلاء على مملكة إشبيلية☆ – أوسع ممالك الطوائف رقعة ، وأشدها قوة [٢] – حيث وزع تلك القوات على عدد من قواده ، وأمرهم بقصد المدن المهمة منها [٣] ، فبدأوا هجومهم عليها في شهر شوال من سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م[٤] ، فما زالت المدن تتهاوى تحت ضرباتهم [٥] إلى أن أطبقوا على العاصمة إشبيلية بالحصار ، ولبثوا يحاصرونها عدة أشهر حتى دخلوها عَنْوَة في شهر رجب سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م [٦] . وعقب ذلك سقطت المدن الباقية من هذه المملكة بأيدي المرابطين [٧] .

وبُعيد اكتساحهم لمملكة إشبيلية وجه المرابطون فرقاً عسكرية إلى عدد من حكام الطوائف في الجنوب الشرقي من الأندلس ، فنجحت تلك الفرق في القضاء على أولئك الحكام والاستيلاء على أراضيهم [٨] .

ولم يتعرض المرابطون لحاكم مملكة بطليوس المتوكل على الله

(١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٥٤ .

☆ كان بنو عباد العرب اللخميين يحكمون هذه المملكة ، وقد انتهى حكمهم بقبض المرابطين على آخرهم أبي القاسم محمد بن عباد الملقب بالمعتمد على الله . انظر أخبار هؤلاء في (ابن بسام : الذخيرة ، ق ٢ ، م ١ ، ص ١٣ – ٥٧ ، ابن الأبار : الحلة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس ، ط . الأولى ، الشركة العربية للطباعة ، القاهرة ، ١٩٦٣م ، جـ ٢ ، ص ٣٤ – ٥٥ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢، ص ١٥٢ – ١٦٤) .

(٢) عنان : دول الطوائف ، ص ٧١ .

(٣) مجهول : الحلل الموشية ، ص ٧٢ – ٧٣ .

(٤) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، ط . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، ص ٢٠٠ .

(٥) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٥٤–١٥٥ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ١١٦ .

(٦) ابن بسام : الذخيرة ، ق ٢ ، م ١ ، ص ٥٢ ، ٥٦ ؛ الضبي : بغية الملتمس ، ص ٤٢ .

(٧) ابن بلقين : التبيان ، ص ١٧١ ؛ المراكشي : المعجب ، ص ٢٠٩ .

(٨) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٥٥–١٥٦ .

ابن الأفطس☆ ، إذ كان يداريهم ويتظاهر بموالاتهم [١] ، فلما تحالف مع نصارى قشتالة، وسلمهم بعض المدن الإسلامية[٢]، قضى عليه المرابطون في سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م ، وسيطروا على جميع ما تحت يده من بلاد [٣].

وبهذا سيطر ابن تاشفين عسكرياً على الجزء الأكبر من الأندلس، فلم يترك منها سوى مناطق أبدى مَنْ يحكمها له بالولاء ، وهي في الوقت ذاته تقف سداً في وجوه الأعداء [٤] ، أو مناطق كان أهلها يجاهدون من يليهم من النصارى [٥] ، فأتلف بذلك المغرب مع الأندلس - تحت رايته - في وحدة سياسية وثقى مدعمة باعتراف رسمي من قبل الخلافة العباسية بولايته عليهما، وقد تلقب بأمير المسلمين[٦]،فاقترن هذا اللقب باسمه ثم بأسماء من

☆ المتوكل على الله بن الأفطس هو : عمرو بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة ، وكان الحاكم الرابع لبطليوس من أسرته ، وقد تولى الحكم فيها سنة ٤٦٠هـ هـ /١٠٦٧ م ، وأسرته بنو الأفطس يعودون في نسبهم إلى قبيلة مكناسة البربرية على القول الراجح (ابن بسام : الذخيرة ، ق ٢ ، م ٢ ، ص ٦٤١ ؛ ابن الأبار : الحلة ، حـ ٢ ، ص ٩٦-٩٧ ، أما مملكة بطليوس فكانت تشمل معظم أراضي غربي الأندلس (عنان : دول الطوائف ، ص ٨١) .

(١) ابن بلقين : التبيان ، ص ١٧٢ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ١٨٥-١٨٦ ؛ الإحاطة ، حـ٤ ، ص ٤٦.

(٣) ابن الأبار : الحلة ، حـ ٢ ، ص ١٠٢ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، تحقيق إحسان عباس ، ط . دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٥م ، ص ٥ ، ق ٢ ، ص ٤٦٧ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، حـ ٤ ص ٤٧ .

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ١٧٣ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٥) عصام سالم سيسالم : جزر الأندلس المنسية ، ط . الأولى ، دار العلم للملايين ، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٢٠٦ ؛ سلامة الهرفي : دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين ، ط . المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٦) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٣ (تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط) تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني ، ط . دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤م ، ص ٢٥١-٢٥٢ ؛ ابن خلدون : العبر ، حـ ٦ ، ص ٢٥٠ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الأنشا ، حـ٥ ، تحقيق نبيل خالد الخطيب ، ط . الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ص ٢٤٩ ، ٤٥٦.

أتى بعده من حكام الدولة المرابطية [١] .

وإذا كان يوسف بن تاشفين قد قصد من وراء خلعه لملوك الطوائف توحيد كلمة أهل الأندلس ليقفوا صفاً متراصاً ضد النصارى [٢] فإنه في إطار مجاهدته لهؤلاء الأخيرين قام بعملين جليلين ؛ أحدهما : تحرير ما استطاع من الأراضي الإسلامية الواقعة في قبضتهم ، فاسترد منهم بعض مدن غربي الأندلس[٣] ، وأعاد الحكم الإسلامي إلى جهات من شرقي البلاد[٤].

أما العمل الثاني فهو استئناف حركة الجهاد الإسلامي على الحدود مع الممالك النصرانية [٥]، وقد ركز على مملكة قشتالة أقوى تلك الممالك وقتذاك ، فوجه إليها حملات عديدة بقيادة نخبة من قواده فكتب النصر في أغلبها للمسلمين[٦]. هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى هاجم المسلمون في عهده مملكة برشلونة☆

---

(١) مجهول : الحلل الموشية ، ص ٨٤ ، ١٢١ ، ١٣٥ .
(٢) المراكشي : المعجب ، ص ٢٢٦ .
(٣) أمين توفيق الطيبي : دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ط . الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس ، ١٩٨٤م ، ص ٢٣٣ .
(٤) ابن بسام : الذخيرة ، ق ٣ ، جـ ١ ، ١٠١ .
(٥) مجهول : الحلل الموشية ص ٨٢ .
(٦) انظر تفاصيل هذه الحملات في : ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ١١١ ، ١١٣ ؛ ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق إحسان عباس ، ط . الثالثة ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٣م ، جـ ٤ ، ص ٤٤ ، ٤٥ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٥٣ .
☆ منطقة برشلونة Barcelona تقع في ركن الأندلس الشمالي الشرقي، وتسمى أيضاً قطالونيا (Emilio Mitre : La Espana medieval , Madrid , ١٩٧٩,p.١١٦) وتسميتها بقطالونيا نسبة إلى إحدى القبائل القاطنة هناك (شكيب أرسلان : الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، ط. دار مكتبة الحياة ، بيروت ، جـ٢ ، ص ٢٠٢) وقد سلبها فرنجة فرنسا من المسلمين عام ١٨٥هـ/ ٨٠١م (مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، تحقيق لويس مولينا ، ط . مدريد ، ١٩٨٣م ، جـ ١ ، ص١٣٢) فكانت تابعة لهم فترة من الزمن ، ثم استقلت عن سلطانهم وانقسمت إلى عدة ممالك ، وكان أهمها مملكة برشلونة التي خضعت في مستهل القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي لسلطة آل برنجير ، وكان حاكمها منهم أيام الأحداث المشار إليها أعلاه : رامون برنجير الثالث (٤٨٥هـ / ١٠٩٢م – ٥٢٥هـ / ١١٣١م) (أرسلان : الحلل جـ ٢ ص٢١٦ -٢١٧ ، ٢١٩ ؛ عنان : دول الطوائف ، ص٤٠٧ – ٤٠٨ ؛ Jose Terrero: op. cit. P.٩٠-٩١) .

وتوغلوا في أراضيها [١] .

وواضح مما سلف أن يوسف بن تاشفين قد جعل الأندلس - منذ أن ضمها إلى دولته - محط عنايته ؛ فبالإضافة إلى تفانيه في توحيدها وجهاده للعدو المتربص بها فقد حرص على تنظيم شؤونها ، فقسمها إلى ولايات[٢]، وعين فيها ولاة من خيرة رجاله [٣] ؛ ثم إنه حين اختار ابنه علياً لولاية العهد قصد مدينة قرطبة ، وأجرى له فيها مراسيم العهد ، وذلك في ذي الحجة سنة ٤٩٦هـ / ١١٠٣م [٤] . ثم كان - أيضاً - من شروط تقديمه لولاية العهد تخصيص سبعة عشر ألف فارس للأندلس ، منهم أربعة آلاف للمرابطة في ثغورها المصاقبة للعدو ، وبقيتهم يوزعون على قواعدها الكبرى [٥] ؛ بل بلغت عناية يوسف بأمر الأندلس حداً دفعه - وهو على فراش الموت - أن يوصي خيراً بالقرطبيين [٦] الذين هم سكان حاضرة الأندلس وقاعدة الحكم المرابطي فيها وقتذاك [٧] .

ولما تسنم علي بن يوسف بن تاشفين سدة الحكم في دولة المرابطين بعد وفاة والده عام ٥٠٠هـ / ١١٠٦م [٨] أصبحت الأندلس على رأس أعماله، فبمجرد أن بويع له في المغرب عبر إليها ، فأخذ من أهلها

(١) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ١١٠ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٢٥٠ .
(٢) عنان : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، ط . الأولى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤م ، ق ١ ، ص ٤١٥ .
(٣) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٣٤٩ - ٣٥٠ .
(٤) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٥٦ ؛ ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ٥١٨ ، ٥٢١ .
(٥) مجهول : الحلل الموشية ، ص ٨٠ .
(٦) المصدر السابق ، ص ٨٣ .
(٧) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٤٧ ، ٤١٥ .
(٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ط . دار صادر ، بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، جـ ١٠ ، ص ٤١٧؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٥٧ .

البيعة ، ورتب أمورها (١) وأجرى فيها جملة من التغييرات الإدارية (٢) ، ثم إنه فيما استقبل من أيام حكمه صرف جل جهوده في متابعة شؤونها ، ومراقبة أحوالها (٣) حتى أنه عبر إليها بنفسه عام ٥١٥هـ / ١١٢١م لمعالجة ما حصل من خلاف بين أهل قرطبة وواليهم من قبله (٤) .

ولقد واتت الظروف علي بن يوسف وربما دفعته إلى ضم مناطق أندلسية إلى دولته لم تدخل في سلطان المرابطين من قبل ، من ذلك أن حاكم سرقسطة☆ المستعين بالله بن هود☆☆ قُتِلَ في رجب سنة٥٠٣هـ/١١١٠م ، فتولى بعده ابنه عماد الدولة عبد الملك الذي أصر على مداخلة النصارى ، فعندئذ قام المرابطون بالاستيلاء على بلاده في آخر تلك السنة (٥) . كما أن جزائر الأندلس الشرقية (البليار)☆☆☆ تعرضت سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م لهجوم

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٤٧ .
(٢) ابن عذاري : البيان ، جـ ٤ ، ص ٤٨ - ٤٩ .
(٣) الهرفي : دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين ، ص ٦٨ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٥٨ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ٨٦ .
☆ سرقسطة Zaragaza تقع على الضفة اليمنى لنهر إبرو في الشمال الشرقي من الأندلس (الإدريسي: صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ط. ليدن ، ١٩٦٨م، ص ١٩٠) وكانت قاعدة الثغر الأعلى (أبو الفداء : تقويم البلدان ، نشر رينود وديسلان ، ط . الأولى ، باريس ، ١٨٤٠م ، ص ١٨١) وتمثل اليوم مركزاً لمقاطعة تسمى باسمها (إ. ليفي بروفنسال : سرقسطة ، دائرة المعارف الإسلامية ، تعريب أحمد الشنتناوي وآخرين ، ط . دار المعرفة ، بيروت ، جـ١١ ؛ ص٣٦٧) .
☆☆ المستعين بالله هو أبو جعفر أحمد بن المؤتمن ، وهو الحاكم الرابع من بني هود الذين حكموا سرقسطة في عصر دول الطوائف ، وقد كانت ولايته عليها من سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م حتى قتل عام ٥٠٣هـ/١١١٠. وبنو هود هؤلاء يعودون في نسبهم إلى قبيلة جذام العربية (ابن الأبار : الحلة ، جـ٢، ص ٢٤٥-٢٤٨ ؛ ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص ٥٤-٥٥ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢، ص ١٧٠ - ١٧٥) .
(٥) ابن الأبار : الحلة ، جـ ٢ ، ص ٢٤٨ ؛ ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص ٥٢ ، ٥٣-٥٤ ، ٥٥ .
☆☆☆ البليار Paleares هي مجموعة من الجزر في غربي البحر المتوسط تؤلف مع بعضها بعضاً أرخبيلاً متسعاً تصل مساحته إلى ٤٩٠٠ كم٢ وأهمها خمس جزر هي : ميورقة ومنورقة ويابسة وفرمنتيرة وقبريرة (سيسالم : جزر الأندلس ، ص ١٥) وكانت تعرف عند المسلمين باسم الجزائر الشرقية =

عاتٍ من جانب الأساطيل النصرانيــة المشـكلة مـن الإيطـاليين المتواطئـين مـع البرشلونيين فاحتلتهـا بعـد حصـار مريـر[١] ، وكـان المسـلمون فيهـا -أثنـاء الحصار- قد بعثوا إلى علـي بـن يوسـف لإغـاثتهم ، فوجـه إليهـم الأسـطول المرابطي [٢] فما أن سمع النصارى بمقدمـه حتـى أخلـوا الجزائـر هـاربين [٣] ، فدخلها المرابطون سنة ٥٠٩هـ /١١١٦م [٤] ☆ .

ولقد بذل علي بن يوسف طاقته في جهاد الممالك الإسبانية ، فعبر إلى الأندلس مجاهداً أكثر من مرة [٥] ، وكان عند تسييره الحملات - لغزو تلـك الممالك - يجتهـد في الاسـتعداد ، ويبـالغ في الاحتشـاد [٦] ، وكـان يُحَـرِّضُ

= (ابن الأبار : الحلة ، جـ١ ، ص ٢٧٠ ؛ ابـن خلـدون العـبر ، جــ٤ ، ص ٢١٠) أما اسـم البليـار فالذي أطلقه عليها اليونانيون ثم سايرهم في ذلك الرومان (سيسالم : جزر الأندلس ، ص ١٦) وتعـد اليوم إحدى مديريات إسبانيا (محمد فريد وجدي : دائرة معارف القـرن العشـرين ، ط . الثالثـة ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٧١م ، م ١ ، ص ٢٤٢) .

(١) محمود علي مكي : وثائق جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، م٧ - ٨ ، ١٩٥٩ - ١٩٦٠، ص ١٥٩ - ١٦٠؛عصام سيسالم : جزر الأندلس ، ص٢٣٥ - ٢٤٠، ٢٥٤ - ٢٦١ .

(٢) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ١٢٣ ، القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ٢٤٨.

(٣) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص١٢٤ ؛ ابن القطان : نظم الجمان لترتيب ما سـلف مـن أخبـار الزمان ، تحقيق محمود علي مكي ، ط. الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٠م ، ص ٧٥.

(٤) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦٢ .

☆ وتذكر المصادر النصرانية أن السقوط النهائي لآخر معقل في هذه الجزر بأيدي النصارى كـان في ٣ ذي القعدة ٥٠٩هـ (١٩ مارس ١١١٦م) وأن المرابطين استعادوها في آخر هذا الشهر (عصام سيسـالم : جزر الأندلس ، ص ٢٦١ ، ٢٦٩) انظر دراسـة ضافيـة موثقـة عـن أسـباب هـذا الاحتـلال وظروفـه وأحداثه في (المرجع السابق ، ص ٢٢٣ - ٢٧١) .

(٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ص ٢٤٧ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ٨٥ ، ٨٦ .

(٦) يفهم ذلك من خلال رسالة كتبهـا إلى أهـل الأندلـس ، انظـر ابـن أبـي الخصـال : رسـائل ابـن أبي الخصال، تحقيق محمد رضوان الداية ، ط . الأولى ، دار الفكـر ، دمشـق ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م ، ص ٦٠٥ ؛ محمود علي مكي : وثائق جديدة عن عصر المرابطين ، ص ١٦٨ .

عماله وقواده في الأندلس على مواصلة الجهاد وحماية الثغور [١] ، وربما شدد اللهجة على من انهزم منهم أمام الأعداء [٢] ، فأفضى به الأمر – أحياناً – إلى معاقبتهم بعزلهم عن القيادة أو الولاية [٣] .

وقد جابه أربع ممالك نصرانية ، فوفق في الانتصار عليها في مواطن ، وأخفق في مواطن أخرى ، ففي علاقته مع قشتالة استطاع جنده عام ٥٠١هـ/ ١١٠٨م هزيمة جيوشها هزيمة منكرة في موقعة أُقْلِيش ☆ [٤] ، ثم تساجل الجانبان الهجوم على أراضي بعضهم بعضاً ، فركز المرابطون غزواتهم على طليطلة وما حولها [٥] بينما وجه القشتاليون غاراتهم على قرطبة وإشبيلية وأحوازهما [٦] .

أما المملكة النصرانية الثانية وهي مملكة أرغون☆☆ ، فقد انهزم

(١) ابن أبي الخصال : رسائل ابن أبي الخصال ص ٦٠٨ ؛ محمود علي مكي : وثائق جديدة ، ص ١٧٠؛ مجهول : رسائل ومقامات أندلسية ، تحقيق فوزي سعد عيسى ، ط . منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٩م ، ص ١٣١-١٣٢.

(٢) انظر رسالة علي بن يوسف إلى أبي محمد بن أبي بكر بن سير في : حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م ، ص ٥١-٥٢ .

(٣) ابن الأبار : المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي ، ط . دار الكاتب العربي ، القاهرة، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م ، ص ٥٥ .

☆ أُقْلِيش Ucles كانت من قواعد كورة شَنْتَبَريَّة (مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، ص ٥٨) وهي إلى الشرق من طليطلة ، وتقع الآن في مديرية كُونكة تابعة لمركز تارانكون (حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسي ، ص ١٩ ، وحاشية ٣) .

(٤) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٦٣-٦٤ ؛ ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص ٤٩-٥٠ .

(٥) انظر التفاصيل في : ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٦٩-٧٠ ، ٢١٥ – ٢١٦ ؛ ابن عذاري : البيان جـ٤ ، ص ٥٢ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٨٠ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١ ، ص ٤٥١ .

(٦) انظر تفاصيل ذلك في : ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٢٢٦ ؛ ابن عذاري : البيان ، جـ ٤ ص ٦١ ، ٨٤ ، ٨٥-٨٦ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١ ص ٤٥٢ .

☆☆ أرغون Aragon أصلها رقعة ضيقة تمتد من باب شيزروا في جبال البرتات نحو الجنوب بحذاء نافار الواقعة إلى الغرب منها (عنان : دول الطوائف ، ص ٣٧٨) وقد ظهرت بشكل إمارة صغيرة في –

المرابطون أمامها في أكثر من موقعة [(١)] ، واحتلت عدداً من المدن والحصون في شمال شرقي الأندلس [(٢)] كان أكبرها سرقسطة التي سقطت في قبضتها عام ٥١٢ هـ/١١١٨م [(٣)] ، فصارت عاصمة لهذه المملكة النصرانية[(٤)] ، ثم أن الجيش الأرغوني استطاع عام ٥١٩هـ/١١٢٥م اختراق الأندلس في غارة سريعة حتى وصل إلى مناطقها الجنوبية [(٥)] . لكنَّ المرابطين بعد ذلك بسنوات تمكنوا من إلحاق الهزيمة بالأرغونيين عند مدينة إفْراغَة ☆ ، وكان هذا في سنة ٥٢٨هـ/١١٣٤م [(٦)] .

- أواخر عصر الولاة في الأندلس (حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ط . الثانية ، الدار السعودية ١٤٠٥هـ /١٩٨٥م، ص ٥١٩) ولقد كانت أرغون في أوائل القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي - ضمن مملكة نافار ، وحين قسم سانشو الكبير مملكته هذه قبل وفاته عام ٤٢٦هـ/١٠٣٥م بين أبنائه الأربعة خص ابنه غير الشرعي راميرو بأرغون . وقد نشط هذا الأخير في مد سلطانه على ما حوله من بلاد ، ثم تولى حكمها بعد وفاته عام ٤٥٥هـ /١٠٦٣م ابنه سانشو الذي اتسعت أرغون في عهده اتساعاً كبيراً ، ثم خلفه بعد وفاته ابنه بيدرو الأول . ولما توفي عام ٤٩٨هـ/١١٠٥م حكم مملكة أرغون أخوه الفونسو الأول (المحارب) (يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، ط . الثانية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م ، ص ٩ ، ١١-١٧ ، ٢٤ ، ١٣٨ ؛ عنان : دول الطوائف ، ص ٣٧٨ - ٣٧٩ ، ٤٠٥-٤٠٦ . Jose Terrero : op .cit , p.124) .

(١) انظر أمثلة في : ابن بشكوال : الصلة ، ط . الدار المصرية للتأليف والنشر ، ١٩٦٦ م ، جـ ١ ، ص١٤٦ ؛ ابن الأثير : الكامل، جـ١٠ ، ص ٥٨٦؛ ابن القطان: نظم الجمان ، ص ١٥٢ - ١٥٤ .

(٢) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦٣ .

(٣) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ١١٧-١١٩ ؛ ابن الأبار : الحلة ، جـ٢ ، ص ٢٤٨ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦٣ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، (منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار) نشر إ . ليفي بروفنسال ، ط . ب . م ، ص ٩٧-٩٨ .

(٤) أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص ١٤٥.

(٥) ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص٦٩-٧٢ ؛ ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ١ ، ص ١٠٩-١١٣ ؛ مجهول : الحلل ، ص ٩١-٩٧ .

☆ إفْراغَة Fraga تقع جنوب غرب لاردة (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٣ ، ص ٢٥٤ ، حاشية ٢) بينهما مسافة ثمانية عشر ميلاً وهي تربض على نهر الزيتون (الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ٢٤) .

(٦) ابن الأثير : الكامل، جـ١١، ص ٣٣ - ٣٤؛ ابن القطان : نظم الجمان، ص ٢٣٥ ، ٢٤٣-٢٤٨.

وبالنسبة لموقف علي بن يوسف من مملكة النصارى الثالثة : برشلونة (قطالونيا) فقد غزتها قواته أكثر من مرة (١) ، ولم يختلف الوضع مع المملكة الرابعة: البرتغال☆ التي كانت قد نشأت حديثاً إذ هاجمتها القوات المرابطية في عهده عدة مرات ، واستردت بعض المدن الإسلامية منها (٢) ، بل إن علياً نفسه كان قائد جيش المجاهدين في أراضيها عام ٥١١هـ / ١١١٧م (٣) .

وفي الوقت الذي كانت دولة المرابطين تجاهد هؤلاء النصارى ، وتدرأ خطرهم عن الأندلس نبتت في المغرب دعوة الموحدين بزعامة محمد ابن تومرت☆☆ ، واستغلظ عودها ، وأخذت تحارب المرابطين بشراسة ،

---

(١) ابن الأبار : المعجم ، ص ٥٤ ، ١٣٨ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦٠-١٦١ .

☆ البرتغال : أصبح الشطر الشمالي من غربي الأندلس المنتزع من المسلمين والتابع لمملكة قشتالة – أصبح ولاية خاصة باسم البرتغال في عهد فرناندو الأول، وقد اشتقت تسميته من مدينة بورتو كالي Porto cale القائمة عند مصب نهر دويرة . ولقد تعاقب على ولايته في عهد الفونسو السادس فارسان فرنسيان هما ريمون البرجوني وهنري دي لورين ، ذاك أنهما أخلصا في حرب المسلمين ، وكافأهما الفونسو السادس بتزويجهما من ابنتيه ، وجعل الأول منهما والياً للبرتغال ، فلما توفي عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م أسند ولايتها للثاني هنري الذي لم يمكث أن صار حاكماً مستقلاً عن قشتالة لا سيما بعد وفاة الفونسو السادس عام ٥٠٢هـ/١١٠٩م ، وقد اتخذ من قُلُمْرِية عاصمة له ، ولهذا تنعته المصادر الإسلامية بـ" صاحب قلمرية " . توفي هنري عام ٥٠٦هـ/١١١٢م ولم يعقب سوى طفل صغير اسمه الفونسو هنريكيز ، فحكمت أمه تيريز البرتغال بالوصاية عليه حتى كبر واستلم الحكم عام ٥٢٢هـ/١١٢٨م (أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص ٢٣٧-٢٤٢؛ عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٥٢٢ – ٥٢٥) .

(٢) المراكشي : المعجب ، ص ٢٢٨ ، ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٢٢٧-٢٢٨ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦١ ، ١٦٤ .

(٣) ابن عذاري : البيان ، جـ ٤ ص ٦٤؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٤٧ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ٨٦ .

☆☆ محمد بن تُومَرْت من قبيلة هَرْغَة من المصامدة البربر ، درس في المغرب والأندلس ، ثم طلب العلم في المشرق الإسلامي ، وفي سنة ٥١٠هـ/١١١٦م عاد إلى المغرب ، فما زال يتنقل بين مدنه إلى أن حل هو وأصحابه في مراكش عام ٥١٤هـ/١١٢٠م ، ثم طُرد منها في السنة التالية ونزل في أغمات ، ثم مضى إلى بلاد السوس موطن قبيلته ، وهنالك انثال عليه كثير من الأتباع ، وحينئذ ادعى أنه من نسل الحسن بن علي –رضي الله عنهما – ، وأنه المهدي المنتظر ، وسمى أتباعه الموحدين ، ثم بدأ الصراع–

فكان علي علي بن يوسف أن يتصدى لهذه الحركة الناهضة [(١)] ، ويصرف مجهودات مضاعفة لضربها ، لا سيما في سنوات عهده الأخيرة ، ذاك أن زعامة هؤلاء الموحدين آلت عقب وفاة ابن تومرت عام ٥٢٤هـ / ١١٣٠م إلى خليفته عبد المؤمن بن علي☆ [(٢)] ، فدخل مع المرابطين - على مدى ثماني سنوات تقريباً - في حرب استنزافية اعتمد فيها على الغارات الخاطفة [(٣)] ،

= العسكري بينهم وبين المرابطين ، وقد توفي عام ٥٢٤هـ / ١١٣٠م عقب هزيمة أنصاره على أيدي المرابطين في موقعة البحيرة عند مراكش . انظر أخباره في : (البيذق : أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين ، ط . دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، ١٩٧١م ص ١١-٤٣ ؛ ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٦١-١٦٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حـ١٠ ، ص ٥٦٩ - ٥٧٨ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنووط وآخرين ، ط . الثامنة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، حـ١٩ ، ص ٥٣٩ - ٥٥٢) . أما سر تلقيب أتباعه بالموحدين فلأنه جعل من أهم أسس حركته الاعتقاد برأي المعتزلة ومن على شاكلتهم من الجهمية في نفي صفات الله عز وجل، والذي يعد عندهم توحيداً ، فبسبب هذا الاعتقاد أطلق على جماعته موحدين . أما من خالفهم فمجسماً ، ولذا وصم المرابطين بالمجسمين مع أنهم مالكية على عقيدة أهل السنة والجماعة.(ابن تيمية: مجموع فتاوى ابن تيمية ، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد ، ط . مكتبة المعارف ، الرباط ، المغرب ، م ١١ ، ص ٤٧٨ ، ٤٨٧ - ٤٨٨ ؛ درء تعارض العقل والنقل ، تحقيق محمد رشاد سالم ، ط . مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، حـ ٣ ، ص ٤٣٨) وبجانب زعمه النسب العلوي والمهدية فقد ادعى العصمة ، واستحل دماء من خالفه (الشاطبي : الاعتصام ، تحقيق سليم بن عيد الهلالي ، ط. الأولى ، دار ابن عفان ، الخبر ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، حـ٢ ، ص ٥٨٤) لمعرفة الأسس الفكرية لدعوته بتوسع انظر (حمد السحيباني : الاتجاه الفكري لدعوة ابن تومرت ، مجلة جامعة الإمام ، عدد ٦ ، محرم ١٤١٣هـ ، ص ٥٥٦-٥٦٩) .

(١) البيذق : أخبار المهدي ، ص ٣٥ - ٤٠ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٧٧ - ١٧٩ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١١٠ - ١١١ .

☆ عبد المؤمن بن علي : يرجع إلى قبيلة كُومية من البربر البتر الذين منهم زناتة ، ومنهم من يوصل نسبه إلى قيس بن عيلان العدنانيين . كان لقاؤه بابن تومرت لأول مرة في بجاية ، فلازمه حتى وفاته، ثم بويع له على الموحدين من بعده -كما جاء في المتن- (ابن خلدون: العبر، حـ٦ ص ١٦٦ - ١٦٧) تسمى بالخليفة أمير المؤمنين وسار خلفاؤه على ذلك (ابن خلدون : المقدمة ص ٢٨٦) .

(٢) البيذق : أخبار المهدي ، ص ٤٣ ؛ ابن القطان : نظم الجمان ، ص ١٧٠ ، ٢٠٤ .

(٣) عبد الله علام : الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي ، ط . دار المعارف بمصر ، ١٩٧١م ، ص ١١٠ ؛ الهرفي : دولة المرابطين ، ص ١٢٦ . انظر التفاصيل في : ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٢٢٣ - ٢٢٦ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ - ٢٤٠ ، ٢٤٩ - ٢٥٥ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ ؛ ابن خلدون : العبر ، حـ٦ ، ص ٣٠٦ .

فكانت النتيجة أن " وُجِّه كثير من حماة الأندلس إلى العُدوة ، ونُقِلَ إليها كثيرٌ من أسلحتها وعددها "(١) حتى أن تاشفين بن علي بن يوسف الذي عرف بجهاده المستميت ضد النصارى في الأندلس (٢) ولاه والده قيادة الجيوش المرابطية المقاتلة للموحدين في المغرب بعد أن بايعه بولاية العهد (٣) ، وذلك في ربيع الآخر سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٨م (٤) .

قام تاشفين بمهاجمة معاقل الموحدين في منطقة السوس جنوب المغرب (٥) ثم حاول وقف تحركاتهم في أراضي المغربيين الأقصى والأوسط ، فلم يفلح في عرقلتهم إلا قليلاً ، إذ حاقت به الهزيمة في معظم المعارك التى خاضها معهم (٦) .

وبينما كان نجم الموحدين يتألق بما أحرزوه من غلبة المرابطين إذ توفى علي بن يوسف بن تاشفين في رجب سنة ٥٣٧هـ / ١١٤٣م فارتقى سدة الحكم بعده ابنه تاشفين (٧) الذي فارقت طاعته عدد من القبائل المرابطية منحازة إلى خصومه الموحدين ، وتلاحقت عليه الهزائم إلى أن انتهت حياته في

---

(١) مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٢٠ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١ ص ٤٥١ – ٤٥٣ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٢١ – ١٢٤ .

(٣) ابن الخطيب : شرح رقم الحلل في نظم الدول ، تحقيق عدنان درويش ، ط . وزارة الثقافة السورية ، ١٩٩٠م ، ص ١٨٧ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٢٠ ، ١٣٠ .

(٤) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٢٦٧ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦٥ .

(٥) البيذق : أخبار المهدي ، ص ٤٥ – ٤٧ ؛ ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٢٦٣ – ٢٦٥ ؛ ابن عذاري : البيان ، جـ ٤ ، ص ٩٨ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٣٠٦ .

(٦) انظر أخبار هذه الوقائع مفصلة في : البيذق : أخبار المهدي ، ص ٤٩ – ٥٦ ؛ ابن عذارى : البيان ، جـ ٤ ، ص ٩٩ – ١٠٠ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ ٦ ، ص ٣٠٦ .

(٧) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦٥ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٣ ، ص ٢٥٦ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ ٦ ، ص ٣٠٦ – ٣٠٧ .

رمضان سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٥م بسقوطه من مكان شاهق [(١)] ، وعندها بويع لابنه الحدث إبراهيم في العاصمة مراكش ولكن عمه إسحاق بن علي نازعه السلطة [(٢)] في الوقت الذي كان الموحدون يحتلون ما بقي من مدن المغرب الواحدة تلو الأخرى إلى أن أحدقوا بالعاصمة المرابطية ، ودخلوها بالسيف في شوال من عام ٥٤١هـ/١١٤٧م فاستباحوا دماء المرابطين بها بمن فيهم حاكم الدولة[(٣)] -كما هو فعلهم من قبل في مدن مرابطية أخرى-[(٤)].

وكانت الأندلس قد اندلعت فيها الثورات ضد المرابطين باضمحلال دولتهم في المغرب ، وقد ابتدأ اندلاعها هناك قبل موت تاشفين بن علي بأشهر معدودة عندما خرجت جماعة من الصوفية - عُرِفتْ بالمريدين☆ - على سلطان المرابطين في غربي الأندلس، وسيطرت على عدد من مدنه [(٥)] . وحينها

---

(١) البيذق : أخبار المهدي ، ص ٥٤ - ٥٩ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٣ ، ص ٢٦٤ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ ٦ ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٣٠ - ١٣٤ ؛ مجهول : نبذ تاريخية ، ص ٥٨ .

(٢) ابن عذارى : البيان ، جـ ٤ ، ص ١٠٥ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٣٥ .

(٣) انظر التفاصيل في : البيذق : أخبار المهدي ، ص ٦٠ - ٦٥ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ١ ، ص ٢٢٨ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرين، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م ، ص ٢٢ - ٢٩؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب، ص ١٨٨-١٨٩ ؛ ابن خلدون : العبر، جـ٦، ص٣٠٩-٣١٠ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٣٥ - ١٣٩ .

(٤) الإدريسي : صفة المغرب ، ص ٦٨ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق. الموحدين ، ص ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ؛ ابن غازي : الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، ط . الثانية ، المطبعة الملكية، الرباط ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ١٨ - ٢٧؛ مجهول : الحلل الموشية، ص١٣٤، ١٣٥.

☆ المريدون : هم أتباع مشايخ الصوفية الذين انتشروا آنذاك في الأندلس ، وكان مركزهم مدينة المرية ، بيد أنهم كثروا في غربي الأندلس خاصة ، وقد عرف عنهم إقبالهم على كتب التصوف ورسائل إخوان الصفا وكتب الباطنية (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩) وقد كتب ابن صاحب الصلاة كتاباً عن ثورتهم بعنوان " تاريخ ثورة المريدين بالأندلس " (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ١ ، ص ٣٢) .

(٥) ابن الأبار:الحلة،جـ٢ص١٩٧-١٩٨،٢٠٤-٢٠٥؛ابن الخطيب:أعمال الأعلام،ق٢،ص٢٤٨-٢٥٠ .

انفجرت الثورات عليهم في كافة مناحي البلاد [١] ، وقد كانت أكثرية الذين رفعوا لواء تلك الثورات من القضاة والفقهاء ، أما القلة الباقية منهم فقد كانوا من الأدباء والأعيان ، أو من القادة ذوي الأصل الأندلسي [٢] .

ومما يمكن رصده أن نفراً من هؤلاء المنتزين لم يستقروا في حكم مدنهم غير أيام، أو أشهر لاتتعدى العام[٣]، حيث استمر بينهم التنازع لامتلاك أوفر نصيب من القرى والمدن ، فاختفى على أثر ذلك طائفة منهم [٤] . كما أن غالب تلك الحركات قد افتقدت التنظيم ، وانعدم فيما بينها التنسيق [٥] وإن أبدى فريق من زعمائها - حيناً من الدهر - تبعيتهم الظاهرية لحركة العاصمة الأندلسية القديمة قرطبة [٦] . ولم يستطع المرابطون التصدي إلا لقسم محدود من هذه الحركات [٧] ، بل تمكنت ثلة من أولئك المتمردين تشكيل دويلات مستقلة عاش بعضها فترة قصيرة بينما عُمِّرَ بعضها الآخر طويلاً [٨] . وقد ارتمى أفراد منهم في أحضان النصارى لضمان البقاء في السلطة، أو الاستعانة

(١) حسين مؤنس : نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين ، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، عدد ٣ ، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية، ص ٦٥٦ - ٦٥٧ ؛ السامرائي وزميلاه: تاريخ المغرب العربي ، ط . جامعة الموصل ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، ص ٢٧٤ - ٢٨١ .

(٣) عصمت دندش : الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، ص ٩٩ .

(٤) انظر أمثلة في : ابن الأبار : الحلة ، جـ٢ ص ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٤٢ ، ٢٥١ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٦٤ .

(٥) أحمد بدر : تاريخ الأندلس ، ط . مكتبة أطلس ، دمشق ، ١٩٨٣م ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٦) انظر أمثلة لهؤلاء في : ابن الأبار : الحلة ، جـ٢ ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ ، المعجم ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكلمة ، س ٥ ، ق ١ ، ص ٢٢٣ .

(٧) أحمد بدر : تاريخ الأندلس ، ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، عبد الرحمن العجلان : الأندلس تحت حكم المرابطين ، رسالة ماجستير لم تنشر بعد ، كلية العلوم الاجتماعية بالرياض ، ١٤٠٢هـ ، ص ٢٥٦ .

(٨) أحمد بدر : تاريخ الأندلس ، ص ٢٨٠ .

بهم في مواجهة بقايا المرابطين، ثم بعد ذلك مواجهة ورثتهم الموحدين [١] .

ولقد اقتضى انتظام بلاد الأندلس برمتها في سلك الطاعة الموحدية سنوات مديدة تجاوزت عهد عبد المؤمن بن علي إلى عهود خلفائه من حكام الموحدين[٢]، فثمة ثوار بادروا بالبيعة لعبد المؤمن بن علي عند تيقنهم أن دولة المرابطين في سبيلها إلى الانقراض [٣] وهناك فئة من الثوار الأندلسيين لما غُلبوا على أمرهم ، وضاقت بهم السبل عبروا إلى المغرب ، وبايعوا عبد المؤمن ، فمنهم من اكتفى بالبيعة وبقي في المغرب أو عاد إلى وطنه[٤]، ومنهم من زَيَّن له العبور بقواته إلى الأندلس [٥] ، وحينئذ انهد ثلاثة من الجيوش إلى مناطق الأندلس الغربية فسيطرت عليها -بلا مشقة- قبل أشهر من سقوط مراكش عام ٥٤١هـ/ ١١٤٧م [٦] إلا أن أهل هذه المناطق - سوى القليل منهم - ما نشبوا في العام التالي أن تمردوا على الحكم الموحدي فبعث عبد المؤمن إليهم جيشاً قوياً أخضعهم كرة أخرى لسلطانه [٧] . ثم ما زال يشدد ضغطه لاحتلال بقية الأندلس حتى سلمت له قرطبة أوائل عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م [٨]

---

(١) ابن الأبار : الحلة ، جـ٢ ، ص ٢٠٠ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٢ ، ص ١٢٤ ؛ أعمال الأعمال، ق٢ ، ص ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠ .

(٢) عز الدين موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي، ط.الأولى، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م ، ص٤٦ - ٤٧. ; Montgomery Watt , A History of Islamic Spain , New York , 1967., P. 91.

(٣) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٧ ، ٣٤ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٨٨ .

(٤) ابن الأبار : الحلة ، جـ ٢ ، ص ٢٤٢ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعمال ، ق ٢ ، ص ٢٥٤ ، ٢٦٤ .

(٥) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٣٤ - ٣٥ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٥١ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٣١٢ .

(٦) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٣٥ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٣١٢ - ٣١٣ .

(٧) انظر التفاصيل في : البيذق : أخبار المهدي ، ص ٨٦ - ٨٨ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين، ص ٣٨ - ٤٠ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٣١٣ - ٣١٥ .

(٨) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٤١ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٩١ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٤ ، ص ٣٤٧ .

ومنها انطلقت السرايا لبسط السيادة الموحدية على المدن والحصون القريبة[١]، فلم يكد عام ٥٥١هـ /١١٥٦م ينصرم إلا وكانت غرناطة آخر معاقل المرابطين في البلاد قد أعلنت الطاعة له [٢] . وبذلك سيطر الموحدون على أواسط الأندلس فضلاً عن مناطقها الغربية ، فلم يبق خارجاً عن طاعتهم إلا مناطقها الشرقية وجزر البليار .

وكانت السيادة في شرقي الأندلس قد خلصت إلى محمد بن سعد ابن مردنيش☆ [٣] الذي والى النصارى في داخل الجزيرة الإيبيرية وخارجها [٤] وآزرهم في احتلالهم لبعض المدن الإسلامية [٥] ، وفي المقابل ناصب الموحدين العداء ، وقمع بعنف الثورات المؤيدة لهم في أراضيه[٦]، واحتل مدناً في الجنوب الأندلسي تابعة لهم [٧] ، ثم توغلت عساكره - تحت قيادته أولاً ثم بقيادة أهل ثقته لاحقاً - توغلت باتجاه الغرب ، فدوخت قواعد

---

(١) السامرائي وزميلاه : تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس ، ط . جامعة الموصل ، ص ٢٦٣ ، تاريخ المغرب العربي ، ص ٢٩٨ .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٥٥ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٩٦ .

☆ محمد بن سعد بن مردنيش تنسبه المصادر إلى أصل عربي إما إلى جذام أو إلى تجيب (ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٢ ، ص ١٢١) بينما يرجع المؤرخون النصارى المحدثون انتسابه إلى البيزنطيين القدماء في منطقة قرطاجنة (عنان : عصر المرابطين ، ق ١ ، ص ٣٣٦) وقد تولى أمور شرقي الأندلس عام ٥٤٢هـ / ١١٤٧م بعد مقتل صهره ابن عياض حاكم هذه المنطقة (الضبي : بغية الملتمس ، ص ٤٤؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ١٢١ ، ١٢٦) .

(٣) المراكشي : المعجب ، ص ٢٧٨ .

(٤) ابن الأبار : الحلة ، جـ٢ ، ص ٢٣٣ حاشية ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٢ ، ص ١٢٤ .

(٥) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٥٦ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٩٣ .

(٦) ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، نشر السيد عزت العطار الحسيني ، ط . مطبعة السعادة بمصر ، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥ ، جـ ٢ ، ص ٤٧٧ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ . وانظر أيضاً بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ، ط . المطبعة الاقتصادية ، الرباط ، ١٩٤١م ، ص ٣٧ ؛ عبد الله كنون : النبوغ المغربي في الأدب العربي ، ط . الثالثة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م ، جـ٢ ، ص ١٠٣.

(٧) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٢ ، ص ١٢٦ ، أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٦١ .

الأندلس الرئيسة ، بل اقتحمت بعضها . وبالرغم من أن عبد المؤمن عُني بشأنه ، وحفز قواده في الأندلس على ضربه ، وبعث إليه من المغرب الحشود أكثر من مرة ، فاشتبكت مع أنصاره في وقائع ضارية إلا أنه توفي دون أن يخضد شوكة ابن مردنيش هذا أو يدفع خطره عن رواق الدولة الموحدية[(١)].

وبالنسبة لجزر البليار فإن عاملها المرابطي محمد بن علي بن غانية☆ استقل بها [(٢)] سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م [(٣)] حين زال حكم المرابطين من المغرب والأندلس ، فصيرها ملاذاً للفلول المرابطية الفارة من وجوه الموحدين وغيرهم ، وقاعدة بحرية لجهاد النصارى المحدقين بها من كل صوب [(٤)] . وفي عهد عبد المؤمن لم يسع الموحد ون في ضم هذه الجزر ، كما لم يصطدموا مطلقاً ببني غانية ، إذ انشغلوا بشأن ابن مردنيش الذي شكلت – أيضاً – مملكته في شرقي الأندلس حاجزاً مفروضاً بين الجانبين [(٥)] .

ولقد استغل النصارى هذه الفتنة في احتلال ما تيسر لهم من

---

(١) انظر التفاصيل في : ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، تحقيق عبد الهادي التازي ، ط . الثالثة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٧م ، ص ٥٦ – ٦٨ ، ٩١ – ٩٢ ، ١٢٣ – ١٣٥ ؛ البيذق : أخبار المهدي ، ص ٨٠ – ٨١ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٦٣ – ٦٥، ٧٣–٧٧ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ٣٠٠ – ٣٠١ ، جـ ٢ ، ص ١٢٦ – ١٢٧ ، أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص ٢٦١ – ٢٦٢ .

☆ محمد بن علي بن غانية المسوفي نسبة إلى مَسُّوفة إحدى القبائل المرابطية الكبرى ، وكان والده علي قد تزوج امرأة من أهل بيت يوسف بن تاشفيق اسمها غانيّة ، فأنجبت له يحيى ومحمداً ، فنسبا إليها – كعادة المرابطين – فعرفا بابني غانية (المراكشي : المعجب ، ص ٣٤٢ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٦، ص ٢٥٢ – ٢٥٣) .

(٢) المراكشي : المعجب ، ص ٣٤٤ ؛ ابن خلدون : العبر، جـ٤ ، ص ١١٢، جـ٦، ص ٢٥٣، ٣٢٦.

(٣) عصام سيسالم : جزر الأندلس ، ص ٣١٦ ، ٣١٨ .

(٤) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ ؛ مراجع عقيلة الغناى : سقوط دولة الموحدين ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ ؛ سيسالم: جزر الأندلس ، ص ٣١١ ، ٣١٤ ، ٣١٨ – ٣٢٠ .

(٥) سيسالم : جزر الأندلس ، ص ٣١٧ حاشية ، ٣٢٥ ، ٣٣٠ .

أطراف الأندلس [١] ، فانقضوا على بقية الثغر الأعلى ، وبسطوا سيطرتهم على بعض مُدن الساحل في الشمال الشرقي من الأندلس [٢] ، كما هاجم البرتغاليون منطقة الشمال الغربي من البلاد ، واستولوا على مدن إسلامية هناك [٣] ، وقد شاركهم في الاستيلاء على بعضها إخوانهم الصليبيون المتجهون إلى المشرق [٤] وبلغ استخفاف النصارى بأهل الأندلس أن كونوا حلفاً صليبياً من ممالك إسبانيا وغيرها واحتلوا مدينة المرية☆ [٥] - الكائنة على الساحل الأندلسي الجنوبي - عام ٥٤٢هـ / ١١٤٧م [٦] .

اقتصر نشاط الموحدين ضد النصارى - أولاً - على استرداد المرية

(١) المراكشي : المعجب ، ص ٢٧٧ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٦ .

(٢) ابن غالب : فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس (قطعة منه) تحقيق لطفي عبد البديع ، مطبعة مصر ، ١٩٥٦، ص ١٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٣٦ ؛ ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٦٤ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٤٠ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٢ ، ص ١٢٦ .

(٣) ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص ٢٢ ؛ ابن دحية : المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق إبراهيم الأبياري وزميليه ، ط . القاهرة ، ١٩٩٣م ، ص ٢٤ ؛ ابن الأبار : الحلة ، جـ٢ ، ص ٢٧٣ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٤٠ ، ٥٣ .

(٤) محمود سعيد عمران : دور الحركة الصليبية في تكوين مملكة البرتغال ، ندوة الأندلس في كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م ، ص ٨ - ١٤ ؛ الطيبي : دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٣٨ ، ٢٤٠ ؛ سحر السيد عبد العزيز سالم: تاريخ بطليوس الإسلامية، ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، جـ ٢ ، ص ١٩١ - ١٩٢ .

☆ والمَرِيّة Almeria بناها الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر عام ٣٤٤ هـ / ٩٥٥م (الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٨٣) وتمثل في إسبانيا الحديثة عاصمة للولاية الأندلسية المسماة بهذا الإسم (محمد عبد الله عنان : الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ، ط . الثانية ، مؤسسة الخانجي ، القاهرة ، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م ، ص ٢٦٥) .

(٥) أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص ٢٢٤-٢٢٥؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة المرية الإسلامية، ط. دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩، ص٩٤ حاشية (١).
Joseph Mccabe , The Splendouir of Moorish Spain , London , 1935. , . P . 144 .

(٦) الإدريسي : صفة المغرب ، ص ١٩٨ ؛ ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص ١٥ ؛ ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص ٥٢ ؛ المعجم ، ص ٢٢٨ .

عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧م [١] ، ونشوب مناوشات محدودة في التخوم بين الطرفين [٢] ثم أظهر عبد المؤمن عناية بجهاد نصارى إسبانيا عقب توحيده المغرب كله باستكماله ضم إفريقية عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠م [٣] فجاز في آخر هذا العام إلى مدينة الفتح بجبل طارق التي أمر ببنائها لتكون قاعدة للجهاد في الأندلس [٤] وبعد حوالي سنتين حشد جموعاً جرارة ، وإمكانات مضاعفة لرسم خطة لمهاجمة كافة الممالك الإسبانية ، ولكن المنية عاجلته قبل العبور إليها ، فتوفي في جمادي الآخرة سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٣م [٥] بعد أن خلّف مملكة واسعة الأرجاء شملت الشمال الإفريقي من المحيط الأطلسي حتى طرابلس الغرب ؛ فضلاً عن منطقة السوس جنوب المغرب الأقصى وما تم ضمه من الأندلس [٦] .

وعندما تقلد يوسف بن عبد المؤمن زمام دولة الموحدين غِبَّ وفاة أبيه [٧] استغرقت الأندلس من تفكيره ووقته ومجهوداته حيزاً كبيراً ، فجاز إليها إبان عهده مرتين [٨] ، وقد استطالت مدة إقامته بها في المرة الأولى زهاء

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ، ص ٢٢٤ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٥٦ ؛ بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ، ص ٧٤ ، ٨١ .

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ١١١ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٥٣ - ٥٤ ، ٦١ - ٧٠ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٠٠ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٧٠ ، ٩٢ ؛ ابن الأثير ، جـ ١١ ، ص ٢٤١ - ٢٤٥ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٦٢ ، ٦٤ .

(٤) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٨٤ ، ٩٢ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٢١ .

(٥) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ١٤٧ - ١٥٥ ، ١٦٣ ؛ المراكشي : المعجب، ص ٣٠٦ ، ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٠٢ .

(٦) المراكشي : المعجب ، ص ٣٠٠ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٥٦ .

(٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢٩١ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٨٣ .

(٨) ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، ط . الثالثة ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٩٣م ، ص ١٤١ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٥٧ .

خمس سنوات [(١)] ، وركز سياسته في الأندلس على ناحيتين أولاهما : الاستمرار في المواجهة مع ابن مردنيش ، والعمل على انتزاع منطقة شرقي الأندلس من قبضته ، والناحية الأخرى الجهاد ضد الممالك النصرانية .

ففيما يتصل بابن مردنيش فقد سُيرت إليه قوات موحديه من المغرب سنة ٥٦٠هـ / ١١٦٥م ثم عززت بأخرى في السنة نفسها ، فقام الموحدون بمحاربته في عقر أراضيه إلى أن انتهوا معه إلى الاشتباك في معركة هائلة عند فحص الجلاب☆ ، فهزموه هزيمة شنيعة[(٢)]. وعلى إثرها أخذ سلطانه في شرقي الأندلس بالانهيار [(٣)] ، إذ سيطر الموحدون على بعض الحصون التابعة له[(٤)] ، وانحاز نفر من خواصه إليهم[(٥)] . وفي منتصف عام ٥٦٦هـ/١١٧١م اجتاح الموحدون بلاده بحملة كبيرة كانت قد جُهزت من المغرب فثارت عليه جملة من المدن [(٦)] ، وتثاقل حلفاؤه النصارى عن نصرته [(٧)] ، بل إن مملكة أرغون سعت إلى اقتطاع أجزاء من بلاده الشمالية [(٨)] . وفي أواخر ذلك العام عبر الحاكم الموحدي يوسف بن عبد المؤمن إلى الأندلس بجيوش

---

(١) ابن أبي دينار : المونس ، ص ١٤١ .

☆ فحص الجَلاّب : يقع جنوب مدينة مُرْسِيَة على قيد اثني عشر كيلو متراً منها (ابن الأبار : الحلة ، جـ٢، ص ٢٦٠ ، حاشية "١") .

(٢) انظر التفاصيل في : ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ١٩٦ - ٢٠٠ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٨٨ - ٩٠ .

(٣) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص ١٨ .

(٤) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ ، ٢٤٦ .

(٥) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٢ ، ص ١٢٦ ؛ أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

(٦) انظر تفاصيل ذلك في : ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣١٣ - ٣٢١ ؛ ابن عذارى : البيان ق . الموحدين ، ص ١١١ ، ١١٢ - ١١٣ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ ٦ ، ص ٣٢١ - ٣٢٢ .

(٧) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص ٥٠ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٥١ - ٥٢ .

كثيفة ، ونزل في إشبيلية [١] ، فانثال عليه زعماء شرقي الأندلس يبايعونه ويرحبون به [٢] ، وعندئذ ساءت أحوال ابن مردنيش ، فمات سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧٢م بعد مرض ألم به . وعندها وفد أولاده إلى الحاكم الموحدي باخعين بالطاعة [٣] وبذلك كملت سيطرة الموحدين على الأندلس الإسلامية باستثناء جزائرها الشرقية (البليار) التي وجد حكامها بنو غانية أنفسهم وجهاً لوجه مع الموحدين بعد سقوط مملكة ابن مردنيش[٤] ، فعمدوا إلى مصانعة الحاكم الموحدي يوسف بن عبد المؤمن [٥] ، فتوفي يوسف دون أن ينشب بين الجانبين أي صدام مسلح .

وبخصوص نصارى إسبانيا في عهد يوسف بن عبد المؤمن فإنهم ما برحوا يهاجمون الأراضي الأندلسية سواء المصاقبة لهم أو النائية عنهم متى ما سنحت لهم الظروف أو واتتهم الفرص ، وقد أتت أنشط تلك الهجمات وأشرسها من قبل المملكتين القشتالية والبرتغالية [٦] . وكان الحاكم الموحدي يوسف يؤكد للأندلسيين حرصه الشديد على جهاد عدوهم ، ودفع ضرره عنهم [٧] ، وقبل جوازه إلى الأندلس في المرة الأولى سخر شعراءه لدعوة

---

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣٦١ - ٣٦٢ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١١٨ -١١٩ ؛ محمود مقديش : نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ، تحقيق علي الزواري ، ومحمد محفوظ ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٨م ، جـ١ ، ص ٤٦٦ .

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣٢٢ ، ٣٧٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٧٩ ، ٣٨١ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٢١ - ١٢٢ ؛ محمود مقديش : نزهة الأنظار ، جـ ١ ، ص ٤٦٦ - ٤٦٧ .

(٤) سيسالم : جزر الأندلس ، ص ٣٣٥ - ٣٣٦ ؛ جمعة شيخة : ثورة الميورقيين وأثرها في توازن القوى بين الإسلام والنصرانية في المغرب والأندلس ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية - تونس ، عدد ١١٧ - ١١٨ ، عام ١٩٨١ ، ص ٩٥ .

(٥) المراكشي : المعجب ، ص ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٦) مراجع الغناي : سقوط دولة الموحدين ، ص ١٠٨ .

(٧) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٢٧٣ ، ٢٩٤ ؛ بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ، ص ١٤٠ ، ١٥٢ .

العرب ومَنْ إليهم في الشمال الإفريقي إلى الجهاد [(١)] ، كما كان لا يكف عن التحريض على الجهاد في مجالسه الخاصة كلما لاحت لذلك مناسبة [(٢)].

ولقد أشير عليه بغزو مملكة قشتالة [(٣)] حينما عبر بجيش كبير إلى الأندلس عام ٥٦٦هـ / ١١٧١م [(٤)] لا سيما وأن حملة عسكرية في العام السابق قد انطلقت من هذه المملكة باتجاه الجنوب مخترقة الأراضي الأندلسية ، فلم يردها إلا البحر ، فعاثت وقتلت وسبت ونهبت [(٥)] . وعندئذ تحرك بجيشه أواخر عام ٥٦٧هـ / ١١٧٢ لمجاهدة القشتاليين ، وقصد مدينة وَبْذَة☆ وحاصرها ، ولكنه أخفق في الاستيلاء عليها [(٦)] .

وبعد فشله في غزوته تلك اكتفى يوسف بتوجيه كتائب صغيرة إلى البلاد النصرانية فاستطاعت في مواقع عديدة الانتصار على النصارى وإدخال الهلع في قلوبهم إلى درجة أن بعض حكامهم تهافتوا إلى عقد الهدنة مع الموحدين [(٧)] ، ولكن ما أن قفل الحاكم الموحدي بقواته إلى المغرب عام ٥٧١هـ/١١٧٦م حتى تنكر هؤلاء لعهودهم ، وخرقوا الهدنة واحداً بعد الآخر[(٨)]، وهبوا يعيثون في الأندلس فساداً، فاشتبكت معهم القوات الموحدية

---

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣٢٥ - ٣٢٩ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١١٤ - ١١٦ .

(٢) ابن صاحب الصلاة ، المن بالإقامة ، ص ٣٤٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٨١ - ٣٨٢ .

(٤) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١١٨ .

(٥) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣١٠ ؛ ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١١٠ .

☆ وَبْذَة Huete من أعمال كورة شَنْتَ بَرِيَّة (ياقوت : معجم البلدان ، ط . دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، جـ٥ ، ص ٣٥٩) وهي الآن مركز إداري في مقاطعة كُونْكة إلى الغرب من مدينة كونكة نفسها (ابن الأبار : الحلة ، جـ ٢ ، ص ١٦٩ ، حاشية ١) .

(٦) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص٣٩٨ - ٤١٤ ؛ المراكشي : المعجب ، ص ٣٢٣-٣٢٤ .

(٧) مراجع الغناى : سقوط دولة الموحدين ، ص ١٢٥ ، ١٤٥ .

(٨) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص ٩٥-٩٦ .

في معارك برية وبحرية [١] . وحيث أن نصارى البرتغال قد شكلوا الخطر الأفدح على المسلمين بكثرة غاراتهم واتساع نطاقها [٢] حتى ضربوا ساحل المغرب [٣] فقد قصدهم يوسف بن عبد المؤمن أوائل عام ٥٨٠هـ/١١٨٤م عند عبوره الثاني إلى الأندلس بجيشه ، فيمم وجهه شطر مدينة شَنْتَرِين☆ [٤] فحاصرها حصاراً شديداً ، ثم ما نَشِبَ أن أمر جيشه بالانسحاب ، فوقع اضطراب مخيف في صفوف المنسحبين فخلص النصارى إلى حاكم الموحدين يوسف ، وأصابوه بمَقْتَلٍ ، فقضى نحبه بعد أيام [٥] .

ولقد شهدت الأندلس مراسيم البيعة للحاكم الموحدي الجديد يعقوب ابن يوسف الذي تلقب فيما بعد بالمنصور ، إذ كان مرافقاً لأبيه في حملة شَنْتَرِين [٦] ، وكان قد عُين من قبل ولياً للعهد [٧] ، ففور وفاة والده في الطريق بين شنترين وإشبيلية نهض المصاحبون للحملة من أفراد أسرته وكبار الموحدين وقدموا بيعتهم له بالملك ، ثم تسارع خاصتهم وعامتهم إلى مبايعته عند حلوله إشبيلية ، ثم سار بعد ذلك عائداً إلى المغرب [٨] .

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في : ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٣٧ – ١٣٨ ؛ ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٤–١٥٠ ، ١٥٤ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ ٦ ، ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

(٢) أحمد بدر : تاريخ الأندلس ، ص ٣٠١ ؛ سحر سالم : تاريخ بطليوس ، جـ٢ ، ص ٢٣١ .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ق الموحدين ، ص ١٤٣ .

☆ شَنْتَرِين Santaren تربض على ضفة نهر التاجة الشمالية (الادريسي : صفة المغرب ، ص ١٨٦ ، ١٨٩) وهي حالياً ضمن دولة البرتغال ، إلى الشمال الشرقي من لشبونة على قيد واحد وأربعين ميلاً منها . (بروفنسال : شنترين ، دائرة المعارف الإسلامية ، جـ١٣ ، ص٣٨٣) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ٥٠٥ ؛ ابن زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢١٣ – ٢١٤ ؛ محمود مقديش : نزهة الأنظار ، جـ١ ، ص ٤٦٧ .

(٥) المراكشي : المعجب ، ص ٣٣١ – ٣٣٢ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢١٤ – ٢١٥ .

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، ط . دار صادر ، بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م ، جـ٧ ، ص ٤ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٦٣ .

(٧) المراكشي : المعجب ، ص ٣٣٦ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٤ ، ص ٣٥٥ .

(٨) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٧١ .

وفي مطلع عهده دخل المنصور في صراع دامٍ مع بني غانية أصحاب جزر الأندلس الشرقية الذين كانوا قد اهتبلوا ظروف وفاة الحاكم الموحدي يوسف بن عبد المؤمن وانتقال السلطة إلى ابنه يعقوب فأبحروا بقواتهم إلى ساحل العدوة [(١)] ، وفجروا ثورتهم العارمة ضد الموحدين في المغرب الأوسط وإفريقية، فلم يستطع المنصور كبح جماحها إلا في منتصف سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م [(٢)] . وحينها عزم على ضم الجزائر الشرقية بالقوة ، فتابع إرسال الأساطيل إليها حتى سقطت بأيدي رجاله في السنة نفسها [(٣)] ، فلم يبق منها إلا جزيرة ميورقة☆ التي قاومت المهاجمين ببسالة، واحتفظ بنو غانية بسيادتهم عليها [(٤)] .

ولقد شغلت الأندلس وقضية المسلمين فيها مع أعدائهم النصارى - المنصور طوال عهده ، فصرح بأنه ليس في نفسه "أعظم من همها" [(٥)] ولهذا واظب على جهاد الممالك الإسبانية [(٦)] ، وسُدِدَ في النكاية

---

(١) المراكشي : المعجب ، ص ٣٤٥ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٧٥ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ ، ٣٢٦ .

(٢) انظر تلك الأحداث بتفصيل في : ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ، ص ٥٠٧ - ٥٠٨ ، ٥١٩-٥٢٢؛ المراكشي : المعجب ، ص ٣٤٦ - ٣٥٠ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٧٥ - ١٨١، ١٨٥ - ١٩٧ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٢٥٤ - ٢٥٧ ، ٣٢٨ ؛ محمود مقديش : نزهة الأنظار ، جـ١ ، ص ٥٠٣ - ٥٠٤ ، ٥٠٧ - ٥٠٨ .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٩٧ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ ٦ ، ص ٣٣٢ .

☆ ميورقة Mullorca موقعها وسط جزر البليار ، وهي الكبرى من حيث المساحة (الزهري : الجعرافية ، تحقيق محمد حاج صادق ، ط . مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ص ١٢٨ - ١٢٩ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٨٨) إذ تعادل ثلاثة أرباع المساحة الكلية لهذه الجزر (عصام السيد : جزر الأندلس ، ص ١٩) .

(٤) عصام سيسالم : جزر الأندلس ، ص ٣٩٥ .

(٥) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٣٢ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٦٠ .

(٦) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢١٦ ؛ ابن أبي دينار : المؤنس ، ص ١٤١ .

بها [(١)] ، لحد أن ذلك الجهاد المؤزر صار ألمع عمل علق بشخصيته [(٢)] . فلقد عبر إلى الأندلس عام ٥٨٦هـ / ١١٩٠م [(٣)] للرد على عدوان ملك البرتغال الذي عاث في المناطق الإسلامية المتاخمة له [(٤)] حتى بلغ مدينة شِلْب☆ الكائنة في الركن الجنوبي الغربي من الأندلس، واحتلها عام ٥٨٥هـ/١١٨٩م بمعاونة الصليبين العابرين إلى المشرق [(٥)] . وقد وفق المنصور في ردع البرتغاليين في عدة وقائع ، واستطاع أن يسترجع شلب ومدناً أخرى غيرها سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م وبعدها عاد إلى المغرب[(٦)] ، ثم ما لبث أن قَدِمَ إلى الأندلس للجهاد كرة ثانية عام ٥٩١هـ / ١١٩٥م [(٧)] ولكن وجهته هذه المرة كانت إلى مملكة قشتالة في الوسط[(٨)] التي عادت جيوشها تستأنف الإغارة على المسلمين بعد انقضاء الهدنة الموقعة مع المنصور عقب عبوره السابق إلى الأندلس [(٩)] . وقد سار المنصور بجموعه والتقى بالقشتاليين قرب حصن الأرك☆☆ في معركة

---

(١) المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس ، ط . دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ، جـ١ ، ص ٤٤٣ .

(٢) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص ٢٣٩ .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٠٣ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٠٧ .

(٤) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٠١ .

☆ شِلْب Silves المسافة بينها وبين البحر ثلاثة أميال (الإدريسي : صفة المغرب ، ص ١٨٠) وهي الآن مدينة صغيرة في أقصى جنوب البرتغال تشرف على نهر Arade (عنان : الآثار الأندلسية، ص٤٠٢) .

(٥) المراكشي : المعجب ، ص ٣٥٦ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٦) ابن عذارى:البيان،ق.الموحدين،ص٢٠٦،٢١٠-٢١٢؛ الحميري:صفةجزيرة الأندلس،ص١٠٧-١٠٨ وانظر وصفاً لبعض ماحدث في تلك الوقائع في: بروفنسال: مجموع رسائل موحدية،ص٢٢٣- ٢٢٧ .

(٧) مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٥٩ .

(٨) أحمد بدر : تاريخ الأندلس ، ص ٣٠٣ .

(٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص ٤ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢١٧ ، المقري : نفح الطيب ، جـ ٤ ، ص ٣٨٠ ، ٣٨١ .

☆☆ حصن الأرك Alarcos يقع تقريباً في منتصف المسافة بين قرطبة وطليطلة (Montgomery Watt , op . cit,p.92) . وهو بمقربة من قلعة رباح (الحميري : صفة جزيرة الأندلس ص ١٢) على أحد فروع نهر آنه ، إلى الغرب من مدينة ثيوداد ريال (عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص ٢٠٠) .

حامية الوطيس انجلت عن نصر كبير للمسلمين في شعبان سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥م [١] وقد استثمر المنصور هذا النصر في القيام بغزوتين ، اخترق في الأولى المناطق الواقعة بين مملكتي قشتالة والبرتغال [٢] ، ثم اتجه نحو أحواز طليطلة ، وكان ذلك في عام ٥٩٢هـ / ١١٩٦م [٣] . والغزوة الأخرى كانت في العام الذي تلاه وقد تمادى المنصور في أراضي قشتالة حتى تجاوز طليطلة شمالاً . وعلى أثر ذلك قبل ما التمسته الممالك النصرانية من التهادن معه [٤] ، وقد ذُكر أنه هادن قشتالة لمدة عشر سنين ثم غادر الأندلس بعد جهاد دام مايدنو من أربع سنوات [٥] .

هذه الضربات المتوالية التي تكبدها النصارى ، وما أعقبها من إبرام هدنة طويلة الأمد نوعاً ما بينهم وبين المسلمين ضمنت للأندلس قدراً كبيراً من الاستقرار الأمني في النصف الأول من عهد الحاكم الموحدي الجديد محمد الناصر الذي تسلم زمام الملك لما توفى أبوه المنصور في ربيع الأول عام ٥٩٥هـ / ١١٩٩م [٦] ، فكان ذلك فرصة له لاجتثاث حركة بني غانية من جذورها في جزيرة ميورقة مركز حركتهم ، حيث دفع نحوها في الأيام الأخيرة من عام ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م أساطيل حاشدة بالرجال والسلاح [٧] ، فاستولى

---

(١) الضبي : بغية الملتمس ، ص ٤٥ - ٤٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ، ص ١١٣ - ١١٥ ؛ المراكشي : المعجب ، ص ٣٥٨ - ٣٥٩ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢١٨ - ٢٢٠؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٢٠ - ٢٢٨ .

(٢) أحمد بدر : تاريخ الأندلس ، ص ٣٠٥ .

(٣) انظر تفاصيل هذه الغزوة في : ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٢ ، ص ١١٥ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ ٦ ، ص ٣٣٠ ؛ بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ، ص ٢٣١ - ٢٤١ .

(٤) ابن عذارى: البيان، ق . الموحدين ، ص ٢٢٥-٢٢٧، ٢٢٨ ؛ ابن خلدون: العبر، جـ٦، ص٣٣٠.

(٥) المراكشي : المعجب ، ص ٣٦٠ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ، ص ١٤٥ - ١٤٦ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٦٠ .

(٧) المراكشي : المعجب ، ص ٣٩٤ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٨٩ .

عليها في أوائل عام ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م [(١)] بعد عملية تطهير قامت بها تلك الأساطيل لإزالة نفوذ بني غانية الذي كان قد امتد إلى بعض جزر البليار الأخرى [(٢)] . وبهذا يكون الناصر قد استكمل بسط السيادة الموحدية على جزائر الأندلس الشرقية .

ولقد كان الناصر كغيره ممن سبقه من أسلافه حكام الموحدين يولي الأندلس اهتماماً متميزاً ، وبالأخص فيما يرتبط بشؤونها العسكرية ، فكان - مثلاً - يخاطب ولاتها لتفقد الآلات الحربية، وشراء ما يُفتقر إليه منها[(٣)]، ثم إنه عَلِمَ بتجدد عدوان النصارى على حِمَى المسلمين فيها [(٤)] ، فاستنفر الناس للجهاد ، فتوافد إليه المجاهدون من كل مكان ، وأرسل عمال الأقاليم ما توافر لديهم من عساكر [(٥)] . فلما جَاوَزَ بهم البحر إلى الأندلس في أواخر عام ٦٠٧هـ/١٢١١م والتحقت به جموع الأندلسيين[(٦)] قصد بعض الحصون النصرانية المستظلة بسلطان قشتالة ، فوفق في الاستيلاء عليها خلال عام ٦٠٨هـ / ١٢١١م [(٧)] . وفي شهر صفر من سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م كانت المواجهة بينه وبين مملكة قشتالة[(٨)] التي كانت قد نجحت في حشد النصارى من داخل إسبانيا وخارجها لقتال المسلمين [(٩)] ، فدارت بين

---

(١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٣٢ .
(٢) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين، ص ٢٤٠، ٢٤١؛ انظر عرضاً لبعض ما حدث في : بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ، ص ٢٤٣ - ٢٤٧ .
(٣) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٤٢ .
(٤) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص٢٥٨ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص٢٣٣-٢٣٤ ؛ ابن خلدون : العبر ، ص ٣٣٥ .
(٥) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٣٤ .
(٦) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص٢٦٠ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٣٤ .
(٧) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٣٣٥ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .
(٨) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٧٠ .
(٩) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص ٢٩٤ ؛ عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ، ط. الثانية، دار القلم، دمشق، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٤ ، ص ٤٩١ . Montgomery Watt , op . cit,p.92 .

الطرفين معركة مهولة قرب حصن العقاب☆ ، انتهت بهزيمة شنيعة للمسلمين ، ومقتل جم غفير منهم [١] .

ولقد قضت العقاب على المستقبل السياسي للموحدين ، فلم يستطيعوا قط النهوض من نكبتها [٢] ، ذلك أن عوامل الضعف والانحلال الكامنة في دولتهم أخذت بعد تلك الهزيمة تطفو فاقعة على السطح ، وراحت تفعل فعلها المفضي بهم إلى السقوط [٣] . ومن ذلك التنافس السافر على الملك بين أسرة بني عبد المؤمن بعد مرور عقد من الزمان على وفاة الناصر عام ٦١٠هـ/ ١٢١٣م [٤] ، حيث غدت الأندلس ساحة عَبَّر فيها عملياً بعض المنشقين من الأسرة عن طموحهم بالمشاركة في حكم البلاد [٥] ، بل صارت - أيضاً - مِحْضَناً لحركاتِ أفرادٍ من بني عبد المؤمن رأوا أنفسهم الأحق بحكم دولة الموحدين ، فكانت انطلاقتهم منها إلى العاصمة مراكش ، وقفزهم للسلطة بعد إسقاطهم لمن يحكم فيها من أقاربهم . وقد تخلل ذلك - بالطبع - مصادمات مسلحة بين هؤلاء المتنافسين [٦] ، وضروب مكشوفة

☆ حصن العقاب : يقع بين حيان وقلعة رباح (الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٣٧) وهو فوق قمة إحدى سلاسل جبال الشارات ، واسمه بالإسبانية " كسترو فرال " . وفي التواريخ النصرانية تعرف هذه المعركة بمعركة " نافاس دي تولوسا " أي عقاب تولوسا (عنان : عصر المرابطين والموحدين، ق ٢ ص ٣٠١ ، ٣٠٢) وهذا المكان اليوم يعرف بالإسم نفسه في مديرية حيان الحالية على خمسة كيلو مترات شمال شرقي لاكادولينا (ابن الأبار : الحلة ، جـ٢ ، ص ٢٧٣ ، حاشية " ١ ") .

(١) المراكشي : المعجب، ص ٤٠١ - ٤٠٢ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص٢٦٣ - ٢٦٥؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٣٨ - ٢٤٠ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ٢٢، ص٣٣٩؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ص ١٣٧ - ١٣٨ .

(٢) أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص ٣٩٩ .

(٣) عز الدين موسى : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ، ط . الأولى ، دار الشروق ، بيروت ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ص ٧٨ ؛ السامرائي وزميلاه : تاريخ المغرب العربي ، ص ٣٢٦ .

(٤) ابن الخطيب : شرح رقم الحلل ، ص ٢٠٣ .

(٥) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢٤٦ ، ٢٥٣ ؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص ٥٧-٥٨.

(٦) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٣٤٠ - ٣٤١ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ ٤ ، ص ٣٨٤ .

من الاستعانة بالنصارى على بعضهم بعضاً (١) .

ومن ناحية أخرى فإن تلك الانقسامات التي اشتعلت بين الموحدين على أرض الأندلس ، وما صحب ذلك من انصرافٍ عن شؤونها الدفاعية - قد شجعت عدداً من الشخصيات الأندلسية على الثورة ضد الدولة الموحدية(٢) فكان في طليعة هؤلاء محمد بن يوسف بن هود☆ الذي ثار في شرقي الأندلس عام ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م (٣) وهزم جيشين للموحدين هناك (٤) ، وفي غضون سنتين تقريباً تمت له السيادة على أغلب بلاد المسلمين في الأندلس (٥) . ولكنه من جانب آخر لم يوفق في مواجهاته العسكرية مع النصارى (٦) ، كما أن سلطانه في الأندلس ما عَتّم أن اهتز بظهور منافس قوي له هو محمد بن يوسف بن الأحمر☆☆ الذي سيطر على بعض المدن في وسط الأندلس ثم في

(١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٤٦ ، ٢٥٠ .

(٢) المقري : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ٤٤٦ .

☆ ابن هود : هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي ، من ذرية بني هود الذين حكموا سرقسطة في عصر الطوائف ، وكان أول ظهوره في الصخيرات من ظاهر مدينة مرسية ، وقد تلقب بأمير المسلمين سيف الدولة ، والمتوكل على الله (ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، ط . الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠م ، جـ ٢ ، ص ٢٥١ ؛ ابن الخطيب: الإحاطة، جـ٢، ص ١٢٨-١٢٩؛ أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ١٧٦، ٢٧٧ -٢٧٨).

(٣) ابن الأبار : الحلة ، جـ ٢ ، ص ٣٠٨ ؛ ابن سعيد : المغرب ، جـ ٢ ، ٢٥١ .

(٤) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص٢٧٧ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ، ص ٢١٦ .

(٥) ابن عذارى : البيان، ق . الموحدين، ص ٢٨٨ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١، ص ١٣٠ -١٣١.

(٦) ابن سعيد: المغرب، جـ ٢ ، ص ٢٥١ - ٢٥٢ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ، ص ٢١٦ - ٢١٧.

☆☆ ابن الأحمر : هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر الخزرجي ، يُقال أن نسبه يعود إلى سعد بن عبادة - رضي الله عنه - وقد ظهر أولاً في أرجونة مسقط رأسه ، وكان يُلقب بالشيخ والغالب بالله (ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ٩٢ - ٩٤ ، شرح رقم الحلل ، ص ٣٠٣ ، ٣١٩ ؛ ابن جُزَي الكلبي : كتاب الخيل ، تحقيق محمد العربي الخطابي ، ط . دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ص ٢٢ ، ٢٣) وقد عرف بابن الأحمر ، والأحمر لقبٌ لوالده (ابن عذارى : البيان المغرب ، ق . الموحدين ، ص ٢٩٦) .

جنوبها [(١)] ، وجنح إلى محالفة النصارى [(٢)] ومع أن ابن الأحمر اعترف بطاعة ابن هود سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م[(٣)] إلا أن التنافس بينهما على ملك البلاد ظل سارياً حتى وفاة ابن هود عام ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م [(٤)] . وحيث أن النصارى وبخاصة نصارى أرغون وقشتالة☆كانوا قد استغلوا انشقاق المسلمين وتنافسهم فاستولوا على قواعد أندلسية مهمة [(٥)] ، ومعظم جزر الأندلس الشرقية [(٦)] ، وبدا أنهم عازمون على محو الإسلام من الأندلس نهائياً – فقد اعتصم ابن الأحمر في غَرْنَاطة التي كان أهلها قد استدعوه لحكمها بعد حوالي ثلاثة أشهر من وفاة منافسه ابن هود [(٧)] ، فاتخذها وما جاورها ولحق بها من مناطق جنوبي الأندلس وشرقيها مملكة له [(٨)] ، وأظهر الطاعة الإسمية للموحدين في

---

(١) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٩٦ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ٩٤ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ، ص ٢١٨ .

(٢) ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ، ص ٢١٩ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٤٤٨ .

(٣) ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ، ص ٢١٧ ، ٢١٨ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ٢٥١ .

(٤) ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ، ص ٢١٤ .

☆ كانت الممالك النصرانية في القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي - خمساً ، هي : قشتالة وليون وأرغون ونافار والبرتغال ، وفي وقت ضعف الموحدين وبزوغ شمس ابن الأحمر كانت بعض من تلك الممالك قد اتحدت مع بعض فأصبحت عندئذ ثلاثاً فقط هي : قشتالة وأرغون والبرتغال (محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، ط . الثالثة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، ص ٨٥ – ٨٨) . وبجيوش مملكة قشتالة ومملكة أرغون سقطت البلاد الإسلامية المشار إليها في المتن (الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٤٦٩ ، ٤٧١ ، ٥٢٥) .

(٥) ابن الأبار : التكملة ، جـ ١ ، ص ١٢٠ ، ١٤٤ ، جـ٢ ، ص ٤٧٩ ؛ الحلة ، جـ ٢ ، ص ٣٠٣ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ ٤ ، ص ٤٧٢ .

(٦) ابن الأبار : التكملة ، جـ ١ ، ص ١٥٦ ؛ ابن سعيد : المغرب ، جـ ٢ ، ص ٤٦٧ ، ٤٧٠؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٧٦ . وانظر : عصام سيسالم : جزر الأندلس ، ص ٤٤٣ – ٤٤٥ .

(٧) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٢ ، ص ٩٨ ، ١٣٢ ؛ اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، ط . الثالثة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠ ، ص ٤٧ .

(٨) الحجي: التاريخ الأندلسي ، ص ٥١٧ ؛ يوسف فرحات : غرناطة في ظل بني الأحمر ، ط . الأولى، دار الجيل ، بيروت ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣ ، ص ٢٠ .

عهد حاكمهم الرشيد☆ عام ٦٣٦هـ/١٢٣٩م ولكن حالما توفي هذا الأخير في عام ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م نبذ تلك الطاعة ، ولم يعد لاسم الموحدين عقب ذلك أثر في مملكته (١) . ذاك أن دولتهم أخذت بالانتقال من ضعف إلى ضعف إلى أن سقطت عام ٦٦٨هـ / ١٢٦١م (٢) بينما صارت مملكة غرناطة الملاذ الأخير للمسلمين في الأندلس ، وظلت قائمة أزيد من قرنين ونصف من الزمان (٣) .

ب - الحياة العلمية :

في عموم الأحوال لا يطرأ على نمط الحياة العلمية ، في أي بلد إسلامي تغير جذري بتبدل الحكومات الإسلامية إبان القرون السالفة ؛ ذاك أن المسلمين في بلاد الإسلام في ذلك الزمان يسيرون في غالب شؤون حياتهم وفق ما انْبَثّ بينهم من مبادئ وآداب مستمدة من دينهم الإسلامي الخالد . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن نقل المسار العلمي في بلد ما من حال إلى حال لا يمكن أن يقع بسرعة خلال تلك الحقب ؛ فضلاً عن أنه ليس لدى الدول الإسلامية حينذاك إمكانات كفيلة بإجرات تغيير جوهري للحياة العلمية في جميع الأراضي التي قد تسيطر عليها ، دع عنك المناطق البعيدة عن مركز الحكم فيها . وعلى هذا فالحركة العلمية بالأندلس في عصر المرابطين إنما هي امتداد للحركة العلمية التي كانت في عصر الطوائف ، وكذلك الحال

☆ الرشيد الموحدي هو عبد الواحد بن أدريس (المأمون) ابن المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ، تولى الحكم في غرة سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م . أما حكام الموحدين بين الناصر والرشيد فهم على الترتيب : المنتصر يوسف بن الناصر ، ثم عبد الواحد بن المنصور، ثم العادل بن المنصور ، ثم يحيى بن الناصر، ثم المأمون أدريس بن المنصور (ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٤١ - ٢٥٤ ؛ ابن الخطيب : شرح رقم الحلل ، ص ١٩٢ - ١٩٤ ، ٢٠٣ - ٢٠٥) .

(١) ابن عذارى : البيان ، ق ٣، ص ٣٤٧ ، ٣٥٧ .

(٢) المقري : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ٤٤٦ ، جـ٤ ، ص ٣٨٤ .

(٣) الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٥١٥ ، ٥١٨ .

بالنسبة للحركة الفكرية بالأندلس في عصر الموحدين فهي امتداد لما كانت عليه في عصر المرابطين [١] . بيد أن هذا لم يمنع تميز كل عصر من هذه العصور بازدهار علوم معينة تبعاً لميل الدولة إليها دون أن يعوق ذلك استمرارية سير بقية العلوم [٢] .

فالنهضة العلمية التي عاشتها الأندلس في ظل ملوك الطوائف استمرت في مسيرتها أثناء حكم المرابطين[٣] ، بل تهيأت في عهدهم عوامل مختلفة دفعت عجلة الحركة العلمية في الأندلس إلى الأمام ؛ منها الاستقرار السياسي الذي نعمت به هذه البلاد في معظم أيام المرابطين[٤]، ومنها -أيضاً- ازدياد الصلات الثقافية بين الأندلس والمشرق نتيجة توثيق الدولة المرابطية علاقتها بالخلافة العباسية [٥] ومنها - كذلك - تشجيع المرابطين - سواء الحكام أو الولاة أو غيرهم - للعلم ، واحترامهم لطلبة العلم والعلماء [٦] ، فمثلاً يوسف ابن تاشفين الذي ضم الأندلس إلى دولته وُصِفَ بأنه " يعظم العلماء، ويصرف الأمور إليهم " [٧] ، كما رحب في بلاطه في مراكش بالعلماء الأندلسين في مختلف التخصصات ، فانقطع إليه " من الجزيرة من أهل كل علم فحوله ، حتى اشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم ... " [٨] . إذن فقد أُتيح للحياة العلمية في الأندلس أن تزدهر في ظل

---

(١) عصمت دندش : الأندلس في نهاية المرابطين ، ص ٣٤٩ .
(٢) عبد الله كنون : النبوغ المغربي ، جـ١ ، ص٧٥ .
(٣) الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٤٥٠ ؛ دندش : الأندلس في نهاية المرابطين ، ص ٣٤٩ .
(٤) عبد الرحمن العجلان : الأندلس تحت حكم المرابطين ، ص ٢٠٨ .
(٥) مصطفى الزباخ : فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين ، ط . الأولى ، الدار العالمية للكتاب، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٨٧م ، ص ٥٩-٦٠ .
(٦) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٤٢٩ ؛ عبد السلام شقور : القاضي عياض الأديب ، ط . الأولى ، دار الفكر المغربي ، ١٩٨٣م ، ص ٤٠ .
(٧) ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ٤ ، ص ٣٤٩ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ٨٢ .
(٨) المراكشي : المعجب ، ص ٢٢٧ .

المرابطين ، فكان من مظاهر ذلك ما نراه في كتب الحوليات والطبقات والتراجم والبرامج من كثرة علماء ذلك العصر [(١)] ، وشمولية مباحثهم وتنوعها ووفرة تصانيفهم وفضلها على ما سواها [(٢)] .

وحيث أن المرابطين كانوا يحملون لواء بعث إسلامي إصلاحي [(٣)] فقد كان من الطبيعي أن يحتفوا بالمقام الأول بالعلوم الشرعية ، ومن ثم بعلمائها وطلابها [(٤)] على أن ذلك لم يترتب عليه حجر لعقول الناس على دراسة تلك العلوم ، كما لم ينل من يدرسون علوماً غير شرعية اضطهاداً فكرياً ، إذ ظل العلماء في الأندلس على تنوع اختصاصاتهم يمارسون نشاطهم الفكري لا يعترض سبيلهم معترض[(٥)] ، لا سيما أن بعض أولئك العلماء كانت دراساتهم تتسم بالثقافة الموسوعية التي لاتقتصر على علم من العلوم [(٦)] .

وعلى هذا فإن جميع العلوم والمعارف التي كانت تدرس في الأندلس قبل المرابطين أخذت تشق طريقها في عصرهم ، مثل علوم القرآن الكريم والحديث والفقه ، والدراسات اللغوية والأدبية ، والتاريخ والجغرافيا ، والفلسفة وعلم الكلام، والطب والرياضيات وغيرها [(٧)] . على أنه كتب لبعض هذه العلوم تميز في هذا العصر ، أو جدت عليها تغيرات ملموسة ، ففي مجال علوم القرآن – مثلاً – استوى علم التفسير على سوقه في الأندلس

---

(١) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٤٣٠ – ٤٣١ ؛ نهلة عبد الكريم الحرتاني : معجم الشعراء والكتاب والمترسلين في عصر المرابطين، ط . الأولى، دار البشير ، عمان ، الأردن ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ص٧ ، ٦٠ .

(٢) المختار التليلي: ابن رشد وكتابه المقدمات ، ط.الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٨٨م، ص ٥٩،٦٣.

(٣) ابن خلدون : العبر ، جـ ٦ ، ص ١٣٧ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٤٠ .

(٤) الزباخ : فنون النثر الأدبي بالأندلس ، ص ٣٥ .

(٥) كنون : النبوغ المغربي ، جـ١ ، ص ٧٥ .

(٦) الزباخ : فنون النثر الأدبي بالأندلس ، ص ٣٨ .

(٧) عصمت دندش : الأندلس في نهاية المرابطين ، ص ٣٨٧ ، ٤٠٥ ، ٤٢٣ ؛ العجلان : الأندلس تحت حكم المرابطين ، ص ٢٠٩ – ٢٣١ .

أيام المرابطين [١] ، وبلغ على أيدي كوكبة من العلماء الأفذاذ مرحلة النضج، وذلك بما وضعوا له من أسس علمية رصينة طبقوها في تواليفهم الموسعة ، فصارت تلك التواليف وما ضمنته في أطوائها من قواعد ومناهج المرجعية الأساسية لمن أتى بعدهم من المفسرين [٢] .

وفي مضمار الفقه تميز الفقه المالكي في الأندلس - إبان عصر الدولة المرابطية التي تبنت هذا المذهب - تميز بدراسات مستوعبة وفي الوقت ذاته ناقدة لما كُتب فيه قَبْلاً سواء في الأصول أو الشروح أو الاختصارات أو التعليقات ، فغدا الفقه المالكي بذلك « مصفى جلياً موطأ الأكناف » [٣] ، وثمة ظاهرة أخرى لافتة للنظر وهي أن الأندلس تفردت خلال العهد المرابطي بإنتاج العديد من كتب الأحكام أو المسائل أو الفتاوى أو النوازل [٤] .

وفي مجال الكتابات الأدبية برز في الفترة المرابطية شعور لدى الكُتاب الأندلسيين بالتفوق الممزوج بالدعوة إلى الإقلاع عن تقليد المشارقة في حقل الأدب ، والاكتفاء بالمفاخرة بالأندلس ، والإشادة بمآثر أهلها ، فبانت على أثر ذلك شخصية الأندلسيين الأدبية المتميزة [٥] .

---

(١) إبراهيم الواقي : التفسير وعلوم القرآن في الغرب الإسلامي من القرن الثاني إلى القرن الثامن الهجري، ندوة الأندلس ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض عام ١٤١٤هـ /١٩٩٣ م ، الجلسة (٢) ، بحث (١) ، ص ٣٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٥ .

(٣) ابن رشد : البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة ، تحقيق محمد حجي ، ط . دار المغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، جـ١ ، ص ٥ ، ١٠-١١ من مقدمة المحقق.

(٤) عياض : مذاهب الحكام في نوازل الأحكام ، تحقيق محمد بن شريفة ، ط . الأولى ، دار المغرب ، بيروت ، ١٩٩٠م ، ص ١١ - ١٣ من مقدمة المحقق ؛ مصطفى بنسباع : ابن الحاج التجيبي القرطبي ومسائل بيوعه في معيار الونشريسي ، ندوة الأندلس ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض، عام ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م ، الجلسة (٦) ، بحث (٢) ، ص ٢ - ٣ .

(٥) الزباخ : فنون النثر الأدبي ، ص ٦٣ ، ٤٠٠ .

وفي الميدان الشعري عُرفت الأندلس زمن المرابطين بازدهار أحد أنواع الشعر المسمى بالموشحات ، حيث تعاصر آنذاك عدد وافر من الوشاحين المطبوعين (١) . وهناك نوع آخر من النظم منسوج بلغة عامة أهل الأندلس على منوال الموشحات معروف بالزجل (٢) بلغ في العصر المرابطي القمة من حيث التركيب اللفظي والإبداع الفني (٣) ، وكثرة المتعاطين له من الزجالين (٤) حتى وصف هذا العصر بالعصر الذهبي للزجل (٥)☆ .

(١) ابن سعيد : المقتطف من أزاهر الطرف، تحقيق سيد حنفي حسنين ، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٨٤م ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٨٢٥ .

(٣) ابن سعيد : المقتطف من أزاهر الطرف ، ص ٢٦٣ ؛ وابن خلدون : المقدمة ، ص ٦٢٥ .

(٤) عبدالعزيز الأهواني: الزجل في الأندلس، ط.معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٥٧م، ص٦٤-٦٥.

(٥) المرجع السابق ، ص ٦٣ .

☆ ولقد وصم بعض الكاتبين عصر المرابطين في الأندلس بأنه عصر كسدت فيه سوق الشعر ، وتدنت فيه منزلة الشعراء ، واحتجوا بأقوال كتاب وأشعار شعراء من ذلك العصر (إميليو غرسية غومس : الشعر الأندلسي، ترجمة : حسين مؤنس ، ط . الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٩م ، ص٥٦؛ إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ، ط . الخامسة ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٨م ، ص ٩٠) والحق أن ما قاله القدامى والمحدثون حول الشعر والشعراء في الأندلس زمن المرابطين إنما ينطبق على شعر التكسب والشعراء والمداحين فحسب ولا يتعداهما (عبد الحميد الهرامة : الأعمى التطيلي حياته وأدبه ، ط . الأولى المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، ليبيا ، ١٩٨٣م ، ص ١٦٧ - ١٦٨) ثم ذلك القول - أيضاً - قد لا ينطبق على هذا اللون من الشعر تمام الانطباق إلا في السنوات الأولى من حياة المرابطين في الأندلس (حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٤٤٥ ، عصمت دندش : الأندلس في نهاية المرابطين ، ص ٤٣١) وثمة أسباب وراء أزمة شعراء المديح في الأندلس في الفترة المذكورة منها ؛ أن المرابطين كانوا حملة لواء الجهاد في سبيل الله ، فكانوا في أول الأمر في شغل عن الاحتفاء بشعراء من هذا الصنف الذين دأبوا على الأكل بشعرهم (عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ، ص ٤٣١) ومنها أن حكام هذه الدولة بارتباطهم الكبير بالفقهاء وأهل العلم والفضل -وفيهم كثرة تقرض الشعر - انسد الباب بوجوه الشعراء المتملقين في مدحهم ، والذين لا يكثرون في الغالب إلا في بلاطات لا تخلو من تجاوزات شرعية (عبد السلام شقور: القاضي عياض ، ص ٥٥ - ٥٦) . وكيفما كانت الحال فهناك ظاهرة تحول في الناحية الأدبية يمكن رصدها في الأندلس إبان ذلك العصر ، وهي أن بعض الشعراء خرجوا عن صمتهم الذي التزموا به من قبل ، فأقبلوا على المدح الصادق لدولة المرابطين وحكامها (الزباخ : فنون النثر الأدبي ، ص ٥٨) . ولقد أثبتت إحدى الكاتبات بدراسة توثيقية بيبلوغرافية معجمية كثرة الشعراء والكُتاب والمترسلين في الأندلس أيام المرابطين (نهلة الحرتاني : معجم الشعراء ، ص ٥٩ - ٦١) .

أما الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين فقد كانت في مرحلتها الأولى استمراراً لما كانت عليه في عصر المرابطين (١)، فالأندلس لم تخلص كلها للدولة الموحدية بمجرد أن سقطت الدولة المرابطية في المغرب، إذ بقيتْ منطقةُ شرقي الأندلس والجزائر الشرقية سنواتٍ خارجةً عن نطاق السيادة الموحدية - كما سلف عرضه - هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فإن الموحدين لم يطبقوا على الأندلسيين أحكام عقيدة ابن تومرت مثلما طبقوها على أهل المغرب قبل سقوط مراكش (٢) ، بل استوعبوا في الأندلس حتى ولاة الأقاليم الذين لم يعارضوا الأفكار التومرتية - على الأقل في الظاهر (٣) - وأبقوا النظام الإداري الساري بها قبلهم (٤) ، واستعانوا في البداية برجال الأندلس وعلمائها في مجال الكتابة والإدارة والقضاء سواء في الأندلس أو في غيرها ، وكانت زمرة من هؤلاء ممن خدموا المرابطين (٥) .

غير أن الاتجاهات الفكرية للموحدين وسياستهم نحو العلماء والتعليم أخذت آثارها تظهر تدريجياً في سير الحياة العلمية في الأندلس ، فالحكام الموحدون - وبخاصة الأوائل منهم - فوق أنهم معدودون من علماء العصر(٦) فقد دعوا إلى نشر العلم بين الناس في أرجاء دولتهم (٧) ، ورعوا

---

(١) عصمت دندش : الأندلس في نهاية المرابطين ، ص ٣٤٩ ، ٣٥٤ ؛ حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته، ط . الأولى، العصر الحديث للنشر، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، م٢ ، جـ٢ ، ص ١٩٢.

(٢) عز الدين موسى : الموحدون في المغرب الإسلامي ، ص ١٩٦ ؛ السحيباني : الاتجاه الفكري لدعوة ابن تومرت ، ص ٥٧٢ .

(٣) عز الدين موسى : الموحدون ، ص ١٠٤ .

(٤) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص ٦٤١ ؛ عز الدين موسى : الموحدون ، ص ١٥٣ .

(٥) عز الدين موسى : الموحدون ، ص ١٦٣ ، ١٩٦ .

(٦) ابن عذارى:البيان، ق.الموحدين، ص ٨٠، ٨١، ١٦٤، ٢٣٥؛ المقري: نفح الطيب، جـ٣،ص ١٠٢.

(٧) ابن حبيش : الغزوات الضامنة الكاملة والفتوح الجامعة الحافلة الكائنة في أيام الخلفاء الأول الثلاثة ، تحقيق سهيل زكار ، ط . الأولى ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م ، جـ١ ، ص ٧ ؛ بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ، ص ١٣٧ .

علوماً جديدة لم تكن لها سوق رائجة قبل عهدهم (١) ، وعقدوا المجالس العلمية لمختلف العلوم (٢) ، وشجعوا العلماء على التأليف حيث وجدنا أسماءهم يتردد ذكرها في خُطب عدد من الكتب المؤلفة خلال ذلك العصر (٣) .

ونتيجة لذلك ازداد النشاط العلمي قوة وازدهاراً أيام الموحدين ، واتسعت دائرة مجالاته (٤) ، وزخرت الأندلس بكثرة كاثرة من العلماء وطلبة العلم ، بحيث لم يُرَ مثلهم في هذه البلاد لا في فترة سابقة ولا لاحقة (٥) .

ولقد طرق علماء الأندلس في تدريسهم وإنتاجهم العلمي إبان العصر الموحدي كافة المجالات العلمية المعروفة حينذاك كالعلوم الشرعيةواللغة العربية والأدب والتاريخ والجغرافيا والعلوم البحتة والتطبيقية (٦) ، بيد أن ثمة ظواهر متعددة ذات صلة بالجانب العلمي اختص بها هذه العصر ، منها احتفاظ العلوم الشرعية والأدب بمستواهما الرفيع في وقت الاضمحلال السياسي للموحدين في الأندلس ، بل بلغ الأدب في تلك الفترة – على الخصوص –

(١) ابن رشد : فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، ط . الثانية ، دار العلم للجميع ، بيروت ، ١٩٣٥ ، ص ٣٦ .

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٢١٧ ، ٤٠٦ ؛ المراكشي : المعجب ، ص ٤٢٦ ؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ، جـ٣ ، ص ١٢٨ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ١ ، ص ٢٣٣.

(٣) انظر مثلاً ابن حبيش : الغزوات الضامنة ، ص ٥ ، ٦ ؛ السهيلي : الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام ، تحقيق عبد الرحمن الوكيل ، ط . الأولى ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م ، جـ ١، ص ٣١ ، ٣٤ ؛ الخزرجي : نَفَسُ الصَّباح في غريب القرآن وناسخه ومنسوخه ، تحقيق محمد عز الدين المعيار الإدريسي ، ط . وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م ، جـ١ ، ص ١٦٣-١٦٤ ؛ الشريشي : شرح مقامات الحريري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط . المكتبة العصرية، صيدا – بيروت ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م ، جـ ١ ، ص١٠.

(٤) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص ٦٤٧ – ٦٤٨ ؛ محمد المنونى : حضارة الموحدين ، ط . الأولى ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ١٩٨٩م ، ص ١٤.

(٥) حسين مونس:شيوخ العصر في الأندلس، ط.الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة،١٩٨٦م، ص١٠٦.

(٦) العربي : الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين ، ط . الأولى ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، الرياض ، ١٤١٦هـ ، ص ٢٠٩ .

مستوى عظيماً فاق به ما قبلها من فترات . إذ الشعر والنثر عكسا بقوة وبيان ما استجاش في نفوس الأندلسيين آنذاك من أحاسيس حين تهاوت المدن الأندلسية بأيدي النصارى ، وما صاحب ذلك من محن وتفرق وفتن[1].

ومنها تحريض بعض الحكام الموحدين على أطراح كتب الفروع المؤلفة في الفقه المالكي إلى درجة أن الحاكم الموحدي الثالث المنصور أمر بإحراقها [2] وفي المقابل دعوتهم إلى الأخذ مباشرة من الكتاب والسنة [3] . وقد أثر ذلك على الحياة العلمية في الأندلس فازدهر علم الحديث فيها غاية الازدهار [4] ، وظهرت مؤلفات فقهية عمادها الأحاديث النبوية المستقاة من مختلف مصنفات أئمة الحديث [5] .

ومنها أن الطب في الأندلس بلغ أوجه زمن الموحدين [6] ، فبرز في عصرهم أطباء انفكوا من التقليد ، فأبدعوا في دراساتهم ، واعتمدوا في

---

(١) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص ٦٤٩ .

(٢) ابن جزي : القوانين الفقهية ، ط . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص ٢٧٦ .

(٣) المراكشي : المعجب ، ص ٣٥٤ - ٣٥٦ .

(٤) عبد الهادي أحمد الحسيسن : مظاهر النهضة الحديثية في عهد يعقوب المنصور الموحدي ، ط . مطابع الشويخ ، تطوان ، ١٩٨٢م، جـ١، ص٧٣، ٢٦٦، ٣٠٠؛ المنوني:حضارة الموحدين ، ص ٣٥؛ فوزي عيسى : الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ط . دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩١م، ص٥٦.

(٥) انظر مثلاً عبد الحق الإشبيلي : الأحكام الشرعية الصغرى ، تحقيق أم محمد بنت أحمد الهليس ، ط . الأولى ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م ، جـ١ ، ص ٧١ ؛ الصلاة والتهجد : تحقيق عادل أبو المعاطي ، ط . الأولى ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م ، ص ٣٢ - ٣٣ .

(٦) آنخل جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، ط . الأولى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٥م ، ص ٤٦٩ ؛ محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس ، ط . الأولى ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٢م ، ص ٣٢٩ ؛ إبراهيم زعرور وعلي أحمد : معجم أطباء المغرب والأندلس خلال العصور الوسطى ، ط . مطابع الجمهورية ، دمشق ، ١٩٩٤م ، ص١٣؛ عبد الهادي الحسيسن : الحركة العلمية في العصر الموحدي ، مجلة دار الحديث الحسنية ، عدد (٥) ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م ، ص ٤٣٠ .

تشخيص الأمراض ومداواتها على الفحوصات السريرية [١] ، وقد ازدان ذلك العصر بطائفة من الأطباء الأندلسيين الذين تجاوزت شهرتهم آفاق العالم الإسلامي إلى العالم النصراني [٢] ؛ حيث ترجمت آثارهم الطبية إلى اللغات العبرية واللاتينية [٣] ، وبقيت تلك الآثار تدرس في جامعات أوربا الغربية عدة قرون [٤] .

ومن الظواهر المرتبطة بالحركة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين دون غيره من العصور أن مؤلفات ابن تومرت كانت ضمن المؤلفات التي يدرسها طلبة العلم الأندلسيون [٥] ، وقد حرص الحاكم الموحدي الأول عبد المؤمن بن علي على جلب طائفة من الصبيان من الأندلس إلى مراكش لأخذ علم ابن تومرت وحفظه [٦] ، وقد وُجِدَ من رجال العلم الأندلسيين من عبّر – صراحة – عن مظاهرته للموحدين في دعوتهم [٧] ، بل أن بعض علماء الأندلس – بقطع النظر عن اقتناعهم أو عدمه – ساروا في مطالع خطب تواليفهم على نسق الرسائل الموحدية الرسمية التي تؤكد في افتتاحياتها

---

(١) ابن زهر : التيسير في المداواة والتدبير ، تحقيق ميشل الخوري، ط . الأولى ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ص : ط من مقدمة المحقق .

(٢) محمد العربي الخطابي : الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٨م ، جـ١ ، ص ٢٣ ، ٢٨٤ .

(٣) ابن رشد : رسائل ابن رشد الطبية ، تحقيق جورج قنواتي وسعيد زايد ، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٧م ، ص ٢٠ من مقدمة المحقق ؛ محمد العربي الخطابي : الطب والأطباء في الأندلس ، ص ٢٨٤ ، ٣٢٩ .

(٤) ابن زهر : التيسير ، ص : ح ، ل من مقدمة المحقق .

(٥) المراكشي : المعجب ، ص ٣٦٩ .

(٦) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ١٧٨ – ١٧٩ .

(٧) ابن حبيش : الغزوات الضامنة ، جـ١ ، ص ١٠ ؛ ابن القطان : نظم الجمان ، ص ١٠١ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق١ ، ص ٣٢ ، ٣٠٤ .

على ما ادعاه ابن تومرت من العصمة والمهدية [١] ، فنصوا فيها - بعد الحمدله والتصلية - على الترضي - كما زعموا - عن " الإمام المعصوم ، والمهدي المعلوم " [٢] . وإذا تركنا ما ضمنه هؤلاء في خطبهم جانباً فإننا نرى مجموعة من البدع التومرتية المتعلقة بأحكام العبادات تسربت - عن طريق التعليم وغيره - إلى الأندلسيين ، فظلوا يعملون ببعضها حتى بعد انقراض دولة الموحدين بزمن بعيد [٣] .

---

(١) انظر مثلاً ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٢٠٢ ، ٢٢٦ ، ٢٣٤ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ .

(٢) انظر ابن حبيش : الغزوات الضامنة ، ص ٤ ؛ الشريشي : شرح مقامات الحريري ، جـ ١ ، ص ٣ .

(٣) الشاطبي : الاعتصام ، جـ ١ ، ص ٣٢٧ ، جـ ٢ ، ص ٥٥٦ .

الفصل الأول

العلماء المشاركون في الصراع
مع النصارى ومنزلتهم العلمية والاجتماعية

إن جهود علماء الأندلس في ميدان الصراع ضد النصارى إذا نُظر إليها نظرة شمولية - أكبر من أن تحصر ، وأطول من أن تستوعب ، فشطر منها صريح في كونه موجهاً نحو ذلك الميدان ، كالدعوة إلى الوحدة لمجابهة الأعداء النصارى ، والتحريض على قتالهم ، وجهادهم بالأنفس والأموال ، والانبراء لحملاتهم الفكرية المناهضة للإسلام ، والتصدي لما تسلل إلى المجتمع الإسلامي من عاداتهم وتقاليدهم إلى غير ذلك . وشطر آخر من تلك الجهود لم يوجه أصلاً صوب ذلك الميدان ، بيد أن لها من الآثار القريبة والبعيدة المنعكسة عليه ما لا يمكن أن يُنكر ، فكل من يقاوم الجهل المتفشي بين أفراد الأمة ، أو يبث العلم والمعرفة في مختلف فئاتها ، أو يسعى لرفع الوعي بين خاصتها وعامتها ، أو يجتهد في تحصينها من اخترام الصف، أو يدفعها للأخذ بأسباب القوة المادية والمعنوية . كل هذه الجهود وما شاكلها - وإن لم يُصرح بأنها موجهة ضد النصارى - فإنها في الحقيقة دعم لكيان المسلمين في الأندلس المستهدفين من جانب أولئك النصارى المجاورين ، فهي بهذا المفهوم تصب في النهاية في ميدان الصراع مع النصارى .

وهذه الدراسة -بحول الله تعالى- ستركز فقط على الجانب الظاهر من مواجهة علماء الأندلس للنصارى في عصري المرابطين والموحدين ، حيث أن جمهرة كبيرة منهم شاركت في تلك المواجهة بنشاطات ملموسة ، وإسهامات مجدية ، وجهود مؤثرة سواء كان ذلك في المجال السياسي أو العسكري أو الفكري ، وقد تنوعت مشارب أولئك العلماء واتجاهاتهم ، فكان فيهم المقرئون والمفسرون ، والفقهاء والمحدثون ، وعلماء اللغة والأدباء والشعراء ، والخطباء وأئمة المساجد ، والعباد والزهاد . وقد كانوا من بقاع متفرقة من البلاد الأندلسية .

أولاً : مشاهير العلماء المشاركين في ميدان الصراع مع النصارى في عصري المرابطين والموحدين :

إن طائفة من العلماء المسهمين في ميدان الصراع ضد النصارى إبان عصري المرابطين والموحدين يعدون من أعلام العصر المرموقين ، ومن رجال الفكر المشهورين كأبي علي الصدفي ، وابن رشد الجد ، وأبي محمد بن عطية وأبي بكر بن العربي ، وابن رشد الحفيد ، وأبي الربيع الكَلاعي ، وابن الأبار، ولذا فكتب التراجم الأندلسية احتفت بهم ، فوصفت حياتهم ، ودونت أخبارهم ، ورصدت تحركاتهم . وحيث أن هؤلاء سيرد ذكرهم في كثير من زوايا الدراسة ، فمن المناسب التعرف على أبرز معالم حياتهم ، وأهم ملامح شخصياتهم .

☆ ☆ ☆

فأبو علي الصدفي الذي كان من المجاهدين في سبيل الله ضد النصارى(١) هو حسين بن محمد بن فِيُّرة بن حَيُّون بن سُكَّرة☆

---

(١) عياض: ترتيب المدارك، جـ٨ ، ص ١٩٤؛ ابن الأبار: التكملة ، جـ١، ص٤٣٣ ، المعجم، ص ٣٧.

☆ قال ابن فرحون أن اسم " فيرة " معناه الحديد بلغة العجم ، وحيون اسم مصغر من يحيى (الديباج المذهب ، جـ١ ، ص٣٣٢) والظاهر أن ابن فرحون جانب الصواب فيما قال عن حيون . فالأقرب أن أصل الاسم حيي ، وأضيفت إليه واو ونون ، فصار حيون ، حيث أن الأندلسين تعودوا على زيادة الواو والنون إلى الاسم بقصد التفخيم (ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ٤ ، ص ٣٨) وذلك بأثر من لغة أهل البلاد ، إذ أن المقطع الأسباني un أو on دال عندهم على الفخامة والتعظيم ، وقد أدخل على أسماء أندلسية كثيرة (العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١٧٠) . أما اسم سُكّرة فهو مؤنث سكر (المقري : أزهار الرياض ، جـ٣ ، ص١٥١) ، وأما الصدفي فيظهر أنه نسبة إلى قبيلة الصدف العربية التي يُنسب إليها كثير من العلماء (السمعاني : الأنساب، تحقيق: عبد الله عمر البارودي ، ط . الأولى ، دار الجنان ، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م جـ٣ ، ص ٥٢٨-٥٣٠) لكن الذي يثير الارتياب في انتساب أبي علي إلى العرب تسمى جده باسم عجمي إذ عرف عن عرب الأندلس اعتزازهم بأسمائهم العربية أيما اعتزاز ، فهل كان صدفياً بالولاء ؟

الصّدفي (١) ، يعرف بابن سكرة (٢) ، وأيضاً بابن الدراج (٣) ، وقد تلحق بعض المصادر باسمه لقب السرقسطي(٤) ، لأن أصله من إقليم سرقسطة حيث كانت أسرته تقطن قرية " منزل محمود " القريبة من حاضرتها سرقسطة، ثم نزحت إلى تلك الحاضرة، فولد فيها أبو علي نحو عام ٤٥٤هـ/١٠٦٢م، وتعلم على مشايخها (٥) ورغبة منه في طلب العلم قصد في شرقي الأندلس مدينة بلنسية☆، ومدينة المرية فسمع من كبار علمائهما(٦). ولما صار عمره حوالي ستة وعشرين عاماً رحل إلى المشرق ، حيث خرج من الأندلس للحج في محرم سنة ٤٨١هـ/١٠٨٨م عن طريق البحر (٧) ، فحج في العام نفسه ، ولقي بمكة عدداً من العلماء سواء من أهلها أو من الطارئين

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ١ ، ص ١٤٤ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ١٩ ، ص ٣٧٦ ؛ المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض ، ط . صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة ، الرباط ، ١٩٧٨م ، جـ٣ ، ص ١٥١ .

(٢) عياض : الغنية ، تحقيق محمد بن عبد الكريم ، ط . الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م ، ص ١٩٣ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٢ ، ص ٩٠ .

(٣) ابن الأبار : المعجم ، ص ١ .

(٤) ابن عطية : فهرس ابن عطية ، تحقيق محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي ، ط . الثانية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٣م ، ص ٩٩ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ١ ، ص ٣٣٠ .

(٥) عياض : الغنية ، ص ١٩٣ .

☆ بلنسية Valencia هي حاضرة الكورة المسماة باسمها (ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص ١٦) تبعد عن البحر حوالي ثلاثة أميال (الإدريسي : صفة المغرب ، ص ١٩١) تعد حديثاً من مدن إسبانيا المهمة (علي إسلام باشا : إسبانيا والأندلس ، ط . مطبعة مصر ، ص ٩٦ ، عيسى الناعوري : في ربوع الأندلس ، ط . الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ص ١٤٩) .

(٦) ابن بشكوال : الصلة ، جـ١ ، ص ١٤٤ ؛ المقري : أزهار الرياض ، جـ٢ ، ص ١٥١ ؛ نفح الطيب، جـ٢ ، ص ٩٠ .

(٧) ابن بشكوال : الصلة ، جـ١ ، ص ١٤٤ .

عليها . ثم سار إلى العراق فدخل البصرة ثم واسط وقد التقى بمشايخ هاتين المدينتين ، وبعدها حل ببغداد في جمادي الآخرة سنة ٤٨٢هـ/١٠٨٩م ، فأقام بها خمس سنوات كاملة ، سمع في غضونها من علمائها، "ومن القادمين عليها أيام كونه بها" (١) ثم غادرها إلى دمشق فكان بها عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م (٢) ، ومنها إلى مصر فانتهى به المطاف إلى الإسكندرية ، إذ نراه بها سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م (٣) ، ثم عاد إلى الأندلس ، فوصلها في صفر سنة ٤٩٠هـ /١٠٩٧م (٤) .

وقد ذكر تلميذه ابن عطية (ت٥٤١هـ/١١٤٧م) (٥) أنه استفاد من علماء الإسكندرية ومصر قبل وصوله إلى مكة ، فقال عنه "وكتب في طلوعه بالإسكندرية ومصر ... عن جماعة ، وبلغ مكة ... " كما ذكر تلميذه الآخر القاضي عياض(ت٥٤٤هـ/١١٤٩م) (٦) أنه التقى بشيوخ إفريقية ، وأشار إلى دخوله مدينة سبتة مرتين بقوله "ودخل بلدنا كرتين ... " (٧) . وقد كانت الأولى منهما عند عودته إلى الأندلس من تلك الرحلة المشرقية ، فلم يلبث بها إلا يسيراً "لفرط استعجاله" (٨) .

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ، جـ١ ، ص ١٤٤-١٤٥ ؛ المقري : أزهار الرياض ، جـ٣ ، ص١٥١-١٥٢.

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق ، نشرته -مخطوطاً- مكتبة الدار بالمدينة المنورة ، ١٤٠٧هـ ، جـ٥ ، ص١٢٥ .

(٣) ابن الأبار : المعجم ، ص ١٠٢ .

(٤) ابن بشكوال : الصلة ، جـ١ ، ص١٤٤ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، مدريد ، ١٨٨٧م ، جـ٢ ، ص٦٠٨ ؛ المقرى : أزهار الرياض ، جـ٣ ، ص ١٥٢ ؛ نفح الطيب ، جـ٢ ، ص٩١ .

(٥) فهرس ابن عطية ، ص٩٩ .

(٦) الغنية ، ص١٩٣ .

(٧) المصدر السابق ، ص١٩٤ .

(٨) ابن الأبار : المعجم ، ص٥٣،٥٤ .

ولعلنا نحاول على ضوء ما مضى من عرض وأقوال أن نرسم حلقة متكاملة لخط سير رحلة أبي علي الصدفي إلى المشرق التي دامت تسع سنوات وشهراً وأياماً . يبدو أن أبا علي أبحر من مدينة المرية الأندلسية **لسببين** : **أولهما** : إنه كان قد ارتحل إليها –كما مر– لطلب العلم [١] . **وثانيهما**: أن المرية كانت منفذاً رئيساً لأهل شرقي الأندلس ، فهي كما وصفها الجغرافيون الأندلسيون « باب الشرق » [٢] . ومن المرية – يبدو – أنه انطلق رأساً عن طريق البحر إلى الإسكندرية فلم يمر في خط ذهابه بإفريقية التي ورد التقاؤه بعلمائها، وأخذه العلم عنهم في رحلته تلك[٣]. وحلوله الإسكندرية في طريقه إلى الحج لا إشكال فيه، إذ صرح تلميذه ابن عطية بذلك، كما سلف ذكره [٤] ، أما كوننا نرجح انطلاقه بحراً من المرية صوب الإسكندرية مباشرة فلأن رحلته إلى المشرق كانت في البحر [٥] ، ومن عادة بعض حجاج البحر الأندلسين الانطلاق رأساً إلى الإسكندرية ، فلا تستغرق رحلتهم في الغالب – إذا سلمت من الأخطار – سوى ثلاثين يوماً [٦] . فهو أسرع الطرق لبلوغ الهدف ، وطلبة العلم الأندلسيين إذا أرادوا الحج تراهم يسلكون أخصر الطرق إلى الحجاز ، ولا يعرجون على أي مناطق تباعدهم عن هدفهم الأسمى الذي تتشوق إليه أفئدتهم ، فإذا ما قضوا الفريضة صار عندهم متسع من الوقت للتعريج عن بعض المدن الإسلامية المعروفة بازدهار

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ، حـ ، ص١٤٤ .

(٢) ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص١٤ ؛ ابن سعيد : المغرب ، حـ٢ ، ص١٩٣ .

(٣) عياض : الغنية ، ص١٩٣ .

(٤) فهرس ابن عطية ، ص٩٩ .

(٥) ابن بشكوال : الصلة ، حـ١ ، ص١٤٤ .

(٦) علي أحمد : الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس وحتى نهاية القرن التاسع الهجري ، ط . الأولى ، دار طلاس ، دمشق ، ١٩٨٩م ، ص١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٤ .

العلم ، ووفرة العلماء [١] ، وهذا ما فعله أبو علي الصدفي الذي عدل إلى العراق بعد حجه ، ثم رحل إلى الشام ، ثم إلى مصر [٢] ، ومنها - فيما يظهر - يمم وجهه شطر إفريقية [٣] ، وربما أنه انطلق منها واتجه إلى مدينة سبتة التي جاء النص صريحاً في دخوله إليها عند عودته من المشرق [٤] ، ولعل سيره كان في الطريق البحري المحاذي لساحل الشمال الإفريقي [٥] ، إذ لو سلك الطريق البري لسجلت المصادر استفادته من علماء مدن مشهورة بالعلم تربض على هذا الطريق . ومن سبتة عبر أبو علي الصدفي إلى الأندلس[٦] . ولم يرجع أبو علي إلى بلده سرقسطة عند أفوله إلى الأندلس من رحلته المشرقية ، بل نزل في مدينة مُرْسِيَة☆ واستوطنها ، فطفق يدرس الناس في جامعها [٧] .

ولقد برع أبو علي الصدفي بالحديث وعلومه [٨] ، وكان بجانب

---

(١) حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ط . الثانية ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص٤٣٢ ؛ علي أحمد : الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام ، ص ٢٥٤ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، حـ١ ، ص١٤٤-١٤٥ ؛ المقري : أزهار الرياض ، حـ٣ ، ص ١٥١-١٥٢.

(٣) عياض : الغنية ، ص١٩٣ .

(٤) ابن الأبار : المعجم ، ص٥٣ ، ١٠٢ .

(٥) علي أحمد : الأندلسيون والمغاربة ، ص١٢٠ .

(٦) ابن الأبار : المعجم ، ص٥٣ .

☆ مُرْسِية Murcia قاعدة كورة تدمير في شرقي الأندلس ، تبعد عن البحر أربعين ميلاً (الإدريسي : صفة المغرب، ص ١٩٤ ، ١٩٥) ، والطريق البري بينها وبين المرية طوله نحو مائة وخمسة وثلاثين ميلاً (الإدريسي : أنس المهج وروض الفرج ، مخطوط حكيم أوغلي رقم ٦٨٨ ، مكتبة السليمانية في إستانبول ، نشره بالتصوير الفوتوغرافي معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، فرانكفورت ، ورقة ١٥١) ومرسية اليوم من المدن الكبرى في إسبانيا (الناعوري : في ربوع الأندلس ، ص١٤١) .

(٧) ابن بشكوال:الصلة، حـ١، ص١٤٥؛ المقري أزهار الرياض،حـ٣،ص١٥٢؛نفح الطيب، حـ٢ ص٩١.

(٨) عياض : ترتيب المدارك ، حـ٨ ، ص١٩٣ ؛ الغنية ، ص١٩٤ ، الضبي : بغية الملتمس ، ص٢٦٩ .

ذلك «عالماً بالقراءات»[(١)] ، «إماماً بالفقه»[(٢)] لديه معرفة بالأدب[(٣)] . وحينما قُلِّد قضاء مرسية قَبِلَه على كره منه سنة ٥٠٦هـ/١١١٢م ، ولكنه لم يلبث أن استعفى منه فلم يُعفَ، فتوارى عن الأنظار عدة شهور من آخر سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م[(٤)] وأوائل السنة التالية حتى أعفى من ذلك المنصب[(٥)] . ولما طُلِبَ منه أن يليَ القضاء في إشبيلية تمنع وأبى[(٦)] ، وقد اجتهد في بث العلم ونشره سواء في مرسية[(٧)] أو في غيرها[(٨)] إلى أن قتل في معركة مع النصارى في ربيع الأول سنة ٥١٤هـ/١١٢٠م[(٩)] .

☆ ☆ ☆

وابن رشد الجد الذي كانت له مساع متميزة في الحفاظ على الوفاق بين أهل الأندلس والمرابطين للوقوف صفاً متراصاً في وجوه النصارى[(١٠)] ،

---

(١) الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ط . دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م ، حـ٤ ، ص١٢٥٣.

(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ، حـ١ ، ص٣٣٠ .

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، حـ١٩ ، ص٣٧٧ .

(٤) ابن الأبار: المعجم، ص١٠٦؛ المقري: أزهار الرياض، حـ٣ ، ص١٥٣ ؛ نفح الطيب، حـ٢، ص٩٢.

(٥) محمد بن عياض : التعريف بالقاضي عياض ، تحقيق محمد بن شريفة ، ط . الثانية ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ، ١٤٠٢هـ /١٩٨٢م ، ص ٧-٨ .

(٦) عياض : الغنية ، ص ١٩٤ .

(٧) ابن بشكوال : الصلة ، حـ١ ، ص١٤٥ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، حـ١٩ ، ص٣٧٨ .

(٨) ابن الأبار : التكملة ، حـ١ ، ص٤٣٣ ، حـ٢ ، ص٤٧٢ ، ٩٣٣ ؛ المعجم ، ص٣٧ ، ٥٣-٥٤ ، ٦٦ ، ٩٥ ، ١٠٢ .

(٩) ابن بشكوال : الصلة ، حـ١ ، ص١٤٦

(١٠) ابن رشد : الجامع من المقدمات ، تحقيق المختار التليلي ، ط . الأولى ، دار الفرقان ، عَمّان ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص٣٠ من مقدمة المحقق .

كما كان له الأثر الأكبر في معاقبة بعض النصارى الأندلسيين المتآمرين على المسلمين مع إخوانهم في الممالك النصرانية المجاورة [١] ، فهو أبو الوليد محمد ابن أحمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن رشد [٢] . ويظهر أن أصله من غير العرب ، فتلامذته الذين ترجموا له سردوا سلسلة نسبه دون أن يصلوه بأي قبيلة عربية [٣] ؛ بل قيل إنه " لا يعرف له نسب في قبائل الأندلس " [٤] ، فضلاً أن ثمة من ينسبه إلى بني إسرائيل [٥] .

ولقد كانت أسرته تقطن سرقسطة[٦]، ثم استوطنت بعد ذلك قرطبة[٧]، لعل أبا الوليد ولد بهذه الأخيرة، حيث كانت ولادته عام٤٥٠هـ/١٠٥٨م [٨]

(١) ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص ٧٢-٧٣ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١ ، ص١١٤ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ٩٠-٩١ .

(٢) توصل إلى سلسلة نسب ابن رشد الجد هذه من خلال النظر في نسب والده أحمد (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص١ ، ق١ ، ص٢٨) وفي نسب حفيده أيضاً (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ق٦ ، ص٢١-٢٢) ولقد أورد المقري هذا العمود النسبي إلا أنه جعل اسم جد والده أحمد ، فقال : محمد بن أحمد بن أحمد بن أحمد ... (المقري : أزهار الرياض ، جـ٣ ، ص٥٩) .

(٣) انظر مثلاً : عياض : الغنية ، ص١٢٢ ، ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٥٧٦ .

(٤) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ص٦ ، ص٢٦ .

(٥) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٦) ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص ٥٧٦ (جاء ذلك في هامش الأصل) .

(٧) لم تصرح المصادر بذلك ، ولكن يفهم استيطان بيت ابن رشد قرطبة من قديم بدمغ والد ابن رشد بالقرطبي (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٢٨) إضافة إلى أنه قد ورد نص يصرح بوجود مدفن في مقبرة عباس بشرقي قرطبة لسلف ابن رشد الجد (ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، تحقيق المختار التليلي ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، جـ٣ ، ص١٥٢٥) مما يعني قدم استقرار أسرته في قرطبة .

(٨) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ٣ ، ص ١٥٢٦ ، ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص ٥٧٧ .

ثم درس على شيوخها [١] ، ولم يثبت – طبقاً للمصادر المتوافرة – خروجه منها لطلب العلم سواء داخل الأندلس أو خارجها كفعل بعض طلبة العلم القرطبيين الذين ينتقلون من أجل تلك الغاية بين المدن الأندلسية أو حتى يرحلون إلى المشرق [٢] .

نال ابن رشد علماً واسعاً في كثير من العلوم المعروفة في زمنه ، وقد غلبت عليه الدراسة أكثر من الرواية[٣] ، فصار " فقيهاً عالماً حافظاً للفقه، ... عارفاً بالفتوى على مذهب مالك وأصحابه ، بصيراً بأقوالهم واتفاقهم واختلافهم ، نافذاً في علم الفرائض والأصول " [٤] . كما أصبح بجانب ذلك ذا تفوق بالحديث ، ومعرفة باللغة ، ومشاركة بالتفسير والتاريخ [٥] .

ابتدأ ابن رشد التدريس وشيوخه ما زالوا على قيد الحياة ، فاجتهد بالتعليم ، وبذل عطاءً مضاعفاً في بث علمه الذي يحمله ، فقصده الطلبة من كل ناحية ، وتكاثروا حوله [٦] .

ولقد أسند إليه القضاء بقرطبة في جمادي الأولى سنة ٥١١هـ / ١١١٧م ، فصار قاضي الجماعة بها ، وصاحب الصلاة في مسجدها

---

(١) عياض : الغنية ، ص١٢٣ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ٢ ، ص٢٤٦ .

(٢) المختار التليلي : ابن رشد وكتابه المقدمات ، ص١٤٩ .

(٣) عياض : الغنية ، ص١٢٢ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ٢ ص٢٤٨ .

(٤) ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٥٧٦ ؛ المقري : أزهار الرياض ، جـ٣ ، ص٦٠ . وقد نقل الذهبي نص ابن بشكوال ، وأسقط منه بعض الكلمات (سير أعلام النبلاء ، جـ١٩ ، ص٥٠٢ ؛ تاريخ الإسلام " حوادث ووفيات المشاهير والأعلام " (٥٠١-٥٢٠هـ) ، تحقيق : عمر تدمري ، ط . الأولى ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م ، ص٤٤٤) .

(٥) ابن رشد : الجامع من المقدمات ، ص٢٤ من مقدمة المحقق .

(٦) المختار التليلي : ابن رشد وكتابه المقدمات ، ص٢٢٧-٢٣١ .

الجامع[١] ، وبعد مضي أربع سنوات أعفي منه بناء على رغبته[٢] ، وذلك في سنة ٥١٥هـ/١١٢١م [٣] . وقد كان من جملة الأعذار التي قدمها ابن رشد لطلب الإعفاء من القضاء التفرغ لاستكمال ما شرع فيه من مؤلفات، حيث قضى بقية عمره في التأليف [٤] ، وإسماع ما ألفه [٥] ، "ونشر كتبه ... ومسائله" [٦] إلى أن توفي في شهر ذي القعدة سنة ٥٢٠هـ /١١٢٦ م بعد مرض أضجعه أزيد من أربعة أشهر [٧] .

ولقد خلف ابن رشد كثيراً من المصنفات في فنون مختلفة من العلم[٨]، إلا أن غالبها كان في الفقه وما يتصل به [٩] ، ككتاب المقدمات والممهدات ...[١٠] وكتاب البيان والتحصيل ... وغيرهما [١١] .

☆ ☆ ☆

(١) ابن فرحون : الديباج المذهب ، حـ٢ ، ص٢٤٩ .
(٢) ابن رشد : البيان والتحصيل ، جـ١ ، ص٣٠ ، ٣١ .
(٣) عياض : الغنية ، ص١٢٣ .
(٤) ابن رشد : البيان والتحصيل ، حـ١ ص ٣٠-٣١،٣٢ .
(٥) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، حـ٣ ، ص١٥١٨ ، ١٥٢٤ (ذكر ذلك تلميذه جامع فتاويه أبو الحسن ابن الوزان المتوفي سنة ٥٤٣هـ /١١٤٨م) .
(٦) ابن بشكوال : الصلة ، حـ٢ ص ٥٧٧ .
(٧) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، حـ٣ ، ص١٥٢٤ (ذكر ذلك أيضاً ابن الوزان) ؛ النباهي : المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، ط . دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، ص٩٩؛ المقري : أزهار الرياض ، حـ٣ ، ص٦١ .
(٨) عياض : الغنية ، ص١٢٢ ، ١٢٣ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، حـ٢ ، ص٢٤٨ ، ٢٤٩ .
(٩) ابن رشد : الجامع من المقدمات ، ص٣٤ من مقدمة المحقق .
(١٠) وقد طبع هذا الكتاب أكثر من مرة .
(١١) ابن بشكوال : الصلة ، حـ٢ ، ص٥٧٧ ؛ عياض : الغنية ، ص١٢٢ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام "حوادث ٥٠١-٥٢٠هـ" ، ص٤٤٤ . وانظر : ابن دحية : المطرب في أشعار أهل المغرب ، ص٢١٠؛ ابن خير : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، نشر فرانيسكو كوديرا ، ط . الثانية ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، ص ٢٤٣ ، ٢٦٦ ؛ الفلاني : قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات في الفنون والأثر ، تحقيق عامر صبري ، ط . الأولى ، دار الشروق ، جده ، ١٩٨٤ ، ص١٦٥ .

أما أبو محمد بن عطية المكثر من الخروج في الجيوش المرابطية لقتال النصارى [١] ، والمسهم بقلمه في الجهاد ضدهم [٢] ، فهو عبد الحق بن أبي بكر غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن عبد الرؤوف بن تمام بن عبد الله بن تمام ابن عطية بن خالد بن عطية المحاربي☆ ، وعطية هذا الأخير هو أول داخل للأندلس من أسرة أبي محمد بن عطية [٣] ، وقد كان ذلك زمن الفتح[٤] ، فاستقر هو وذريته من بعده في غرناطة [٥] ، حيث ولد بها - فيما يبدو - عبد الحق ، فكان مولده عام ٤٨١هـ/١٠٨٨م [٦] .

تلقى عبد الحق العلم في مسقط رأسه على يد والده أبي بكر غالب[٧] الذي كان من العلماء المبرزين [٨] ، وكذلك على أيدي علماء آخرين

---

(١) ابن الأبار : المعجم ، ص٢٧١ .

(٢) ابن خاقان : قلائد العقيان ومحاسن الأعيان ، تحقيق حسين يوسف خربوش ، ط . الأولى ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، مكتبة المنار ، عَمّان ، جـ٣ ، ص٦٦٦-٦٦٩ .

☆ وبنو محارب الذين ينتسب إليهم ابن عطية هم من أبناء قيس بن عيلان بن مضر (ابن عطية : فهرس ابن عطية ، ص٦٠) ومضر من ولد معد بن عدنان (ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ط . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص٢٥٩ ، ٤٨١) .

(٣) ابن عطية : فهرس ابن عطية ، ص٥٩-٦٠ ؛ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، تحقيق المجلس العلمي بفاس وغيره ، ط . مكتبة ابن تيمية ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ، جـ١ ، ص١ ؛ ابن الأبار : المعجم، ص٢٦٩-٢٧٠ .

(٤) ابن عطية : فهرس ابن عطية ، ص٦٠ ؛ عياض : الغنية ، ص٢٥٣ .

(٥) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١ ، ص ١٢٧ ، جـ٣ ، ص٥٣٩ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ٢، ص٥٧ .

(٦) الضبي : بغية الملتمس ، ص٣٨٩ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٧٢ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٣، ص٥٤١ .

(٧) ابن عطية : فهرس ابن عطية ، ص٥٩ ، ٦٤ ، ٦٩-٧٧ .

(٨) عياض : الغنية ، ص٢٥٤ ، ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٤٥٨ .

سواء من غرناطة عينها [١] ، أو من المارين عليها من العلماء الأندلسيين [٢] ، أو من العلماء الواردين إليها من خارج الأندلس [٣] . ولم ينقع غلة نهم أبي محمد بالعلم ماتلقاه في غرناطة ، فارتحل في سبيل تحصيله إلى عدد من المدن الأندلسية كقرطبة [٤] وإِشْبِيلِيَة [٥] ومُرْسِيةَ [٦] وبَلَنْسِيَة [٧] وجَيَّان [٨] .

وبحرصه على التعلم منذ الصغر[٩]، وبذكائه وفطنته وإدراكه، وبتعاهد والده له[١٠] ☆، اتسعت معارفه ، واكتسب جملة منوعة من العلوم [١١] ، فأصبح " فقيهاً عالماً بالتفسير والأحكام والحديث والنحو والأدب واللغة[١٢]"، وفوق ذلك كانت " له يد في الإنشاء والنظم والنثر " [١٣] ، إذ كان هو نفسه شاعراً مجيداً ، وأديباً بارعاً [١٤] .

---

(١) ابن عطية : فهرس ابن عطية ، ص ١٠١ ، ١١٨ ، ١٢٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٩ ، ١١٢ ، ١٣٩ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٧٠ .

(٣) ابن عطية : فهرس ابن عطية ، ص ٩٤ ، ١٤١ .

(٤) المصدر السابق ، ص١٠٧ ، ١١٢ ، ١١٩ .

(٥) المصدر السابق ، ص١٢١ .

(٦) المصدر السابق ، ص١٠٠ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص٢٧٠ .

(٧) ابن عطية : فهرس ابن عطية ، ص١٠٩ .

(٨) المصدر السابق ، ص١٣٧ .

(٩) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق٣ ، ص٦٥٦ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ١٩ ، ص٥٥٨ .

(١٠) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ١٩ ، ص٥٨٨ .

☆ وقد ظل غالب يُعنى بابنه عبد الحق ويوجهه حتى في المرحلة التي أمسى فيها هذا الابن يقوم بالتأليف (الضبي : بغية الملتمس ، ص٤٤١) .

(١١) ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٣٨٧ .

(١٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٣ ، ص٥٣٩ .

(١٣) السيوطي: طبقات المفسرين، ط . الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص٥٠.

(١٤) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق٣ ، ص٦٥٦ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص١٠٩ .

نُصِبَ عبد الحق قاضياً لمدينة المرية [١] ، وكان ذلك في عام ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م[٢]، وقد ظل في هذا المنصب سنوات متوخياً العدل، ناشداً للحق [٣] ومع أن المصادر المتوافرة لم تصرح بعدد تلك السنوات إلا أن ثمة نصاً يؤكد على أنه في عام ٥٣٨هـ /١١٤٣م ما زال على رأس عمله في قضاء المرية ، ذاك أن أحد تلامذته قد انتسخ فهرسته في ربيع الآخر من ذلك العام ، وقرأه عليه – وهو قاض – في تلك المدينة [٤] ، والظاهر أن ولاية ابن عطية لخطة القضاء في المرية قد تجاوزت عام ٥٣٨هـ/١١٤٣م ، فقد ورد أن أهل هذه المدينة شكوه – بصفته قاضياً لهم – على عبد المؤمن بن علي الموحدي (٥٢٤هـ/١١٣٠م – ٥٥٨هـ/١١٦٣م) لما قدم وفدهم إليه في المغرب [٥] ، ومعلوم أن أول وفد أندلسي قابل عبد المؤمن ، وأظهر الطاعة له كان في أوائل سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م ، ثم أخذت الوفود الأندلسية تترى على الموحدين طائعة لهم [٦] . ولا يُستبعد أن يكون وفد المرية – المار ذكره آنفاً – ممن بادر بالقدوم على زعيم الموحدين مما يعنى أن عبد الحق بن عطية لبث قاضياً على المرية إلى عام ٥٤٠هـ / ١١٤٥م ، وربما أن فترة ولايته على

---

(١) ابن الأبار: المعجم، ص٢٧٠؛ ابن جزى: كتاب الخيل، ص٢٤٢؛ السيوطي:طبقات المفسرين، ص٥٠ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ١٩ ، ص٥٨٨ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٣ ، ص٥٣٩ ؛ النباهي: المرقبة العليا ، ص١٠٩ .

(٣) ابن الزبير : صلة الصلة ، تحقيق إ.ليفي بروفنسال ، ط . مكتبة خياط ، بيروت ، ص ٣ ؛ ابن فرحون: الديباج المذهب ، جـ٢ ، ص ٥٧ .

(٤) ابن عطية : فهرس ابن عطية ، ص ٤٨ .

(٥) الزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور ، ط . الثانية ، المكتبة العتيقة ، تونس ، ١٩٦٦م ، ص٩ .

(٦) ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص٣٤-٣٥ .

قضائها لم تتعد الأشهر الأولى منه ، إذ أننا نراه في صدر الثورة على المرابطين في الأندلس يقصد صهره أبا عبد الرحمن بن طاهر☆ في مرسية [١] ، بعد أن قُلد خطة القضاء فيها ، ولكنه صُد عن دخولها ، ليس هذا وكفى بل أجبر على التوجه إلى مدينة لُورْقَة☆☆ فسكنها حتى وفاته [٢] .

والذي يبدو مقبولاً ألا يكون خروج أبي محمد بن عطية إلى مرسية بعد صدور الأمر بتقليده القضاء فيها إلا في الفترة التي كان فيها صهره ابن طاهر حاكماً عليها والممتدة فقط من أواخر شهر ربيع الأول إلى العاشر من جمادي الأولى من سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م [٣] ، بل من المرجح أن مسيرة ابن عطية إلى مرسية لم تكن إلا في آخر فترة حكم صهره لها ، بدليل أنه حيل بينه وبين دخولها ، مما يشير إلى أن السلطة في مرسية قد انتزعت من

☆ أبو عبد الرحمن بن طاهر : هو محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن طاهر القيسي ، من أسرة معروفة برئاستها في مرسية ، يعد من جملة علماء الأندلس (ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق عبد السلام الهراس ، ط . دار المعرفة ، الدار البيضاء ، جـ٢ ، ص٤٧ ؛ ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص٣٣٨) ولاه أهل مرسية أمرهم أواخر عهد المرابطين عقب مقتل زعيمهم أبي جعفر الخشني ، فظل يمسك بحكم مرسية فترة تدنو من شهرين ، حيث سلمها لابن عياض ، وقد توفي في مراكش عام ٥٧٤هـ/١١٧٨م (ابن الأبار : الحلة ، جـ٢ ، ص٢٣٠-٢٣٣) وكان قد أظهر خضوعه للموحدين ، وكتب مقالة يقرر فيها صحة دعاوى ابن تومرت (ابن القطان : نظم الجمان ، ص١٠١-١٢٢)

(١) ابن الأبار : المعجم ، ص٢٧٢ .

☆☆ لُورْقَة : Lorca تقع إلى الجنوب الغربي من مرسية (ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٢ ، ص٤١٢ ، حاشية ٥) بمسافة تقدر بحوالي أربعين ميلاً (الإدريسي : صفة المغرب ، ص١٩٦ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص١١٧) .

(٢) ابن الزبير : صلة الصلة ، ص٣ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٣ ، ص٥٤١ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص١٠٩ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ٢ ، ص٥٨ .

(٣) ابن الأبار : الحلة ، جـ٢ ، ص٢٣٠ ، ٢٣١ .

ابن طاهر☆ .

وما نخلص إليه هنا ان عبد الحق بن عطية بقي قاضياً على المرية - فيما يظهر - أكثر من عشر سنوات ، وذلك من سنة ٥٢٩ هـ/١١٣٤م إلى جمادي الأولى من سنة ٥٤٠هـ /١١٤٥م .

ولقد كان ابن عطية يقوم بالتدريس بجانب ولايته القضاء في المرية[1]، بل إنه استمر يقدم هذه الخدمة الجليلة لطلابه وهو في الطريق إلى مرسية [2] . ولا ريب أن من كانت هذه حاله في الطريق ألا يترك التدريس بعد أن ألزم سكنى لورقة ، حيث توفي بها في رمضان سنة ٥٤١ هـ/١١٤٧م على القول الصحيح [3]☆☆ .

☆ اعتمد عبد الوهاب فايد على نص يشير إلى أن ابن رَزين قرأ على ابن عطية فهرسته في المرية في آخر سنة ٥٤٠هـ ، ومما جاء في ذلك النص حسبما نقله عبد الوهاب فايد " قرأ جميعها على مؤلفها ... وذلك في المرية في عشرين من شهر ذي حجة أربعين وخمسمائة ... " (منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم، ط . الهيئة العامة لشوون المطابع الأميرية ، القاهرة ، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ، ص ٧٥) وبسبب هذا النص راح عبد الوهاب يضع عدة احتمالات لتوجه ابن عطية إلى مرسية بعد ذلك التاريخ الذي كانت فيه سلطة صهره ابن طاهر قد زالت عن تلك المدينة ، ثم اجهد نفسه في البحث عن الشخص الذي ولى ابن عطية قضاء مرسية في تلك الظروف العصيبة (المرجع السابق ، ص٧٦-٧٧) ولكن بالرجوع إلى النسخة المحققة من فهرس ابن عطية نرى النص هكذا " قرأ جميعها على مؤلفها ... وذلك في الموفى عشرين من شهر ذي حجة أربعين وخمسمائة ... " (فهرس ابن عطية ، ص ٤٩) . فليس فيه - كما نرى - أدنى إشارة إلى المرية ، مما يعني أنه قد قُرِأ عليه بعد خروجه من المرية ، إذ مازال تلامذته يقرأون عليه حتى بعد أن صُد عن دخول مرسية (ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٥٦٢) وبهذا يزول الإشكال وتتناسق الروايات مع الأحداث كما أثبتناه في المتن .

(١) ابن عطية : فهرس ابن عطية ص ٤٨ ؛ ابن خير : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص ٤٣٧ ؛ الضبي : بغية الملتمس : ص ٣٨٩ ؛ ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص ٨٩ .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص ٥٦٢ .

(٣) ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٧٢ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص٣ .

☆☆ اختلف في وفاة ابن عطية ، فقيل غير ما ذكرنا في المتن أنها كانت في سنة ٥٤٢هـ /١١٤٨م -

ترك أبو محمد☆ وراءه من التصانيف كتاباً بالتفسير سماه المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، وكتاباً فيما رواه عن شيوخه طبع بعنوان فهرس ابن عطية .

☆ ☆ ☆

وأبو بكر بن العربي المشارك زمن المرابطين في الصراع ضد النصارى تارة باللسان (١) وتارة أخرى بالسنان (٢) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن العربي المعافري (٣) ، نسبة إلى قبيلة معافر المنسوبة إلى قحطان(٤). ولد في موطن أسرته إشبيلية في شعبان سنة

= (ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٣٨٧) ، وقيل في سنة ٥٤٦هـ/١١٥٢م (ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٣ ، ص ٥٤١) لكن ابن الأبار يأخذ بسنة ٥٤١هـ/١١٤٧م لأنها كما يشير " قول ابن حميد وابن عباد وغيرهما وهو الصحيح " (المعجم ، ص ٢٧٢) .

☆ حكى الزركشي (الذي كان حياً في أواخر القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي) عن بعض أشياخه أن أهل المرية لما وفدوا على عبد المؤمن بن علي في المغرب رموا قاضيهم أبا محمد بن عطية بالزندقة ، فرد عليهم بعض الأدباء الحاضرين ما ألصقوه به ببيتين من الشعر (تاريخ الدولتين ، ص٩) وهذه التهمة التي قيل أن أهل المرية قذفوا بها قاضيهم لا نرى لها وجوداً في المصادر القريبة من عصر ابن عطية ، ولا حتى المعنية بترجمة حياته ، فضلاً عن أن ما خلفه من تفسير يشهد ببراءته منها ، فقد أشاد شيخ الإسلام ابن تيمية بتفسير ابن عطية بقوله " وتفسير ابن عطية وأمثاله اتبع للسنة والجماعة ، وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري ... " (مقدمة في أصول التفسير ، تحقيق محمود نصار ، ط . مكتبة التراث الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٨٨م ، ص٨٩-٩٠) كما أثنى عليه خيراً في موضع آخر (المصدر السابق ، ص١١٠) .

(١) ابن العربي : أحكام القرآن ، ط . دار المعرفة ، بيروت ، ق٢ ، ص٩٥٥ .

(٢) ابن العربي : قانون التأويل ، تحقيق محمد السليماني ، ط . الثانية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٠م ، ص١٣٩ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص٥ ؛ التكملة ، جـ١ ، ص٢٤٤ ، ٣٥٠ ، ٤٤٣ .

(٣) الضبي : بغية الملتمس ، ص٩٢ .

(٤) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص٤١٨ - ٤١٩ ، ٤٨٥ .

٤٦٨هـ/١٠٧٥م [١]، وتربى في حجر والده أبي محمد [٢] الذي كان من رجال دولة بني عباد [٣]، حيث هيأ له أسباب طلب العلم ، فمنذ أن آنس منه إدراكاً خصص لتدريسه المعلمين الأكفياء ، وكان أبو بكر من طرفه مقبلاً على العلم والمعرفة يستثمر باقي وقته في المطالعة والمذاكرة والتقييد[٤]، وحضور مجالس العلماء [٥] ، وحين بلغ السابعة عشرة من عمره☆ رحل مع أبيه إلى المشرق عقيب سقوط الدولة العبادية على أيدي المرابطين ، حيث خرج من إشبيلية في مستهل ربيع الأول عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م [٦] ، فلما وصل ميناء المرية غادر الأندلس بحراً إلى المغرب الأوسط (الجزائر) ، فتابع سيره على المدن الساحلية طوراً بالبحر وطوراً آخر بالبر حتى حل بالمهدية في إفريقية ، ومنها ركب البحر قاصداً مصر [٧] ، ولعله حينما قال " كنا في

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ ، ص٥٩١ ، النباهي: المرقبة العليا ، ص١٠٦ .

(٢) انظر : ترجمته في : ابن بشكوال : الصلة ، جـ١ ، ص٢٨٨-٢٨٩ ؛ الضبي : بغية الملتمس ، ص٣٣٧؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ١٩ ، ص١٣٠ .

(٣) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق٣ ، ص٦٩٢ ؛ مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس ، تحقيق محمد علي شوابكة ، ط . الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص٢٩٧ ؛ عياض : الغنية ، ص١٣٣ - ١٣٤ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ٢ ، ص٢٥٢-٢٥٣ .

(٤) ابن العربي : قانون التأويل ، ص٦٩-٧٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص٧٦-٧٧ .

☆ صرح ابن العربي أنه حين رحل إلى المشرق كان " ابن ستة عشر عاماً " (سراج المريدين في سبيل المهتدين ، مخطوط دار الكتب المصرية ، رقم ٢٠٣٤٨ ب ، ورقة ٢٤٠ ب) ولكنه في المصدر نفسه ذكر أن رحلته ابتدأت عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م (سراج المريدين ، ورقة ١٥٢أ) كما أنه هو الذي أخبر أحد تلامذته بولادته سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م (ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٥٩١).بمعنى أنه في العام السابع عشر من عمره عند خروجه إلى المشرق .

(٦) ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ٢ ، ص٢٥٣ ؛ المقري : أزهار الرياض ، جـ٣ ، ص٦٢ ، ٦٣ .

(٧) ابن العربي : قانون التأويل ، ص٨٠-٨٤ .

رمضان سنة ٤٨٥ هـ في البحر "[١] كان يعني رحلته تلك من المهدية إلى مصر . لكنه اضطر هو من معه للنزول على إحدى القبائل العربية الساكنة بين إفريقية ومصر بعد نجاتهم من الغرق على إثر تحطم سفينتهم التي كانت تقلهم . ومن مضارب هذه القبيلة توجه براً إلى مصر[٢] ، فكان بالإسكندرية في شوال من ذلك العام[٣] ثم ذهب إلى القاهرة ، فنراه بها في ذي الحجة من العام نفسه [٤] ؛ وبعدها ارتحل إلى بيت المقدس [٥] ، وبما أنه بقي في مصر ثمانية أشهر [٦] ولم يكن قد وصل إليها – فيما يظهر – قبل رمضان أو قبل شوال الذي صرح بوجوده بها –كما مر ذكره – فإن حلوله ببيت المقدس سيكون في ربيع الثاني أو جمادي الأولى من العام التالي ٤٨٦هـ/١٠٩٣م فأقام بها ثلاث سنوات [٧] ، وبعد ذلك ذهب إلى دمشق [٨] ، فكان بها في جمادي الآخرة سنة ٤٨٩هـ / ١٠٩٦م [٩] ، ثم غادر دمشق إلى العراق في شعبان من السنة ذاتها ،

---

(١) ابن العربي : عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي ، ط . دار أم القرى للطباعة والنشر ، القاهرة، جـ٣ ، ص٢١١ .

(٢) ابن العربي : قانون التأويل ، ص٨٥-٨٩ .

(٣) ابن خير : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص٢٤٣-٢٤٤ .

(٤) ابن العربي : سراج المريدين ، ورقة ٥٦ أ .

(٥) ابن العربي : قانون التأويل ، ص٩١ ؛ العواصم من القواصم ، تحقيق عمار طالبي ، ط . الأولى ، دار الثقافة ، الدوحة ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ، ص٤٥ .

(٦) ابن العربي : العواصم من القواصم ، ص ٤٥ .

(٧) ابن العربي : أحكام القرآن ، ق٣ ، ص١١٨٨ ، ق٤ ، ص١٥٩٦ .

(٨) ابن العربي : قانون التأويل ، ص١٠٤ ؛ العواصم من القواصم ، ص٥٦ ؛ ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق مجموعة من المحققين ، ط . الأولى ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، جـ٢٢ ، ص٣٢٦ .

(٩) ابن العربي : سراج المريدين ، ورقة ٧٣أ-ب .

فدخـــل بغداد [١] وظل بها إلى ذي القعـدة حيـث قصـد مكـة للحـج [٢] ، وقد أدى الفريضة في تلك السنة [٣] ، ثم زار مدينة الرسول ﷺ [٤] ، وبعدها عاد كرةً أخرى إلى العراق [٥] ، فكان في بغداد سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٧م [٦] فلبث فيها حوالي عامين [٧] . وبعد ذلك قرر الرجوع إلى الأندلس، فعرّج في طريقه إليها على دمشـق [٨]، ثـم خـرج منهـا عـام ٤٩١هـ/١٠٩٨م [٩] إلى بيت المقدس فحل به في محرم سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م [١٠] وبعدها توقف مـدة في الإسكندرية ، وهناك توفى والـده في أول سنة ٤٩٣هـ /١٠٩٩م [١١] ، ثم واصل سـيره غربـاً ، فـنراه في إفريقيـة سنة ٤٩٤هـ/١١٠١م [١٢] ، وفي السنة التالية ٤٩٥هـ/١١٠٢م كـان مـروره بتلمسـان في المغـرب الأوسـط،

(١) ابن العربي : قانون التأويل ، ص١٠٧-١٠٨ .

(٢) ابن العربي : عارضة الأحوذي ، جـ٤ ، ص٤٩ .

(٣) ابن العربي : سراج المريدين ، ورقة ١٠٠ أ ، ٧٤ أ ؛ عارضة الأحوذي ، جـ٤ ، ص١١٠ ، ١٥٣ .

(٤) ابن العربي : سراج المريدين ، ورقة ١٠٣أ ؛ عارضة الأحوذي ، جـ٧ ، ص٢٠٠ ؛ ابن خير : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص١٦٣ .

(٥) ابن العربي : سراج المريدين ، ورقة ١٠٠أ .

(٦) ابن العربي : العواصم من القواصم ، ص٢٤ .

(٧) ابن العربي : رسائل أبي بكر بن العربي ، تحقيق عصمت عبد اللطيف دندش (ملحقة بكتاب دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا للمحققـة ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ، ص١٨٨ .

(٨) ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق ، جـ٢٢ ، ص٣٢٦ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٢ ، ص٢٨ .

(٩) ابن عساكر : تاريخ دمشق ، جـ١٥ ، ورقة ٥٥٤ .

(١٠) ابن العربي : أحكام القرآن ، ق٣ ، ص١٢٥٢ ، ق٤ ، ص١٥٩٧ .

(١١) عياض : الغنية ، ص١٣٥ ؛ النباهي: المرقبة العليا ، ص١٠٦ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ٢، ص٢٥٣ .

(١٢) ابن العربي : سراج المريدين ، ورقة ٨٧ أ .

وبفاس في المغرب الأقصى[١] . وقبل اجتيازه إلى الأندلس دخل سبتة [٢] ، واستمر في مسيره حتى انتهى به المطاف أخيراً إلى بلده إشبيلية [٣] التي وصلها في غضون عام ٤٩٥هـ / ١١٠٢م [٤] ☆ .

وهكذا قفل أبو بكر بن العربي من رحلته المشرقية التي دامت عشر سنوات أو تزيد☆☆ ، فكانت – فضلاً عما تخللها من نشاط سياسي سنعرض له إن شاء الله في حينه – رحلة علميه من مبدئها إلى منتهاها [٥] ، أُتيح له فيها أن يلتقي بجمهور كبير من علماء العصر [٦] ، فلازم طائفة منهم ، وقد كان على رأس هذه الطائفة أبو حامد الغزالي [٧] (ت٥٠٥هـ/١١١١م) ،

---

(١) ابن العربي : سراج المريدين ، ورقة ٢٣٨ ب .

(٢) عياض : الغنية ، ص١٣٥ .

(٣) ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ٢ ، ص٢٥٤ .

(٤) ابن العربي : العواصم من القواصم ، ص٢١٤ ؛ عياض : الغنية ، ص١٣٥ .

☆ يذكر العماد الأصفهاني أن عودة ابن العربي إلى الأندلس كانت في سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م (خريدة القصر وجريدة العصر ، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم ، ط . دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٦٩م ، ق٤ ، جـ٢ ، ص٢٢٠) وهذا ليس له نصيب من الصحة ، لأنه يعارض أقوال ابن العربي نفسه التي دونها عن رحلته .

☆☆ هذه المدة التي أمضاها في رحلته تتضح جلية من التمعن في تاريخ مغادرته الأندلس ورجوعه إليها ، ولكن مما يدعم ذلك تأكيده لأحد تلامذته على بقائه في رحلته عشر سنوات (الضبي : بغية الملتمس ، ص٩٣) وفي حديثه عن نفسه ذكر أنها نحو الأحد عشر عاماً (سراج المريدين ، ورقة ٢٤٠ ب) .

(٥) ابن العربي : الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم ، تحقيق عبد الكبير العلوي المدغري ، ط . وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، جـ١ (الدراسة) ، ص٢٤ .

(٦) عياض : الغنية ، ص١٣٤ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ٢٠ ، ص١٩٨-١٩٩ .

(٧) ابن العربي : قانون التأويل ، ص١١٢ ؛ العواصم من القواصم ، ص٢٤ ؛ رسائل أبي بكر بن العربي، ص١٩٥ ، ٢٠٣ ؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ط . دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، جـ٤ ، ص١٣ .

وأبو بكر الطرطوشي☆ (١) (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م) ، كما نقل إلى الأندلس مجموعة من مصنفات المشارقة التي كان من جملتها كتب لم يسبقه أحد من الأندلسيين إلى نقلها (٢) ، دع عنك تعرفه عن كثب أثناء هذه الرحلة «على آراء الفرق والمذاهب المنتشرة في البلدان التي زارها ، كما اكتسب أساليب جديدة في المناظرة والجدل» (٣) .

اشتغل ابن العربي حالما حَلَّ ببلده بالتدريس والوعظ والتأليف (٤) ، ثم ما برح أن قُدِّمَ للشورى فيها سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م (٥) ، وفي منسلخ جمادي الآخرة سنة ٥٢٨هـ/١١٣٤م صدر مرسوم بتوليته قضاء

☆ أبو بكر الطرطوشي هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي الفهري الطرطوشي ، أصله من طرطوشة في الأندلس ، فهاجر إلى المشرق عام ٤٧٦هـ/١٠٨٣م واستقر آخر حياته في الإسكندرية، حيث توفي بها (ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٥٧٥-٥٧٦ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٢٦٢ - ٢٦٥) .

(١) لازمه أولاً في بيت المقدس انظر : (ابن العربي : قانون التأويل ، ص٩٢-٩٣ ؛ سراج المريدين ، ورقة ٥٦) ، ثم كان لقاؤه به ثانية في الإسكندرية . انظر (ابن العربي : رسائل ابن العربي ، ص٢٠٤ ؛ عياض : الغنية ، ص١٣٥) .

(٢) ابن العربي : سراج المريدين ، ورقة ٢٣٨أ - ٢٣٩ب ؛ ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٥٩١ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، تحقيق بمجموعة من المحققين ، ط . دار النشر فرانز شتايز بفيسبادن ، ١٤١١هـ/١٩٩١م ، جـ٣ ، ص٣٣٠ ؛ المقري : أزهار الرياض ، جـ٣ ، ص٦٢-٦٣ .

(٣) ابن العربي : الناسخ والمنسوخ ، جـ١ ، ص٢٤ .

(٤) عياض : الغنية ، ص١٣٥ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص١٠٦ ؛ المقري : أزهار الرياض ، جـ٣ ، ص٦٤ .

(٥) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٥٤٢ .

إشبيلية [(١)]☆ ، فقام به أجمل قيام [(٢)] إلى أن صرف عنه - فيما يبدو - بعد أقل من سنتين☆☆، فألحق بقرطبة مدة [(٣)] ، ثم فاء إلى بلده إشبيلية نزلة أخرى☆☆☆ فكانت جموع طلاب العلم يتواردون عليه سواء في قرطبة أو إشبيلية [(٤)] حيث

---

(١) ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص٩٢-٩٣ ، ٥٨ ، وانظر : ابن القطان : نظم الجمان ، ص٢٣٤ ؛ المقري : أزهار الرياض ، جـ٣ ، ص٦٤ .

☆ حاد عمار الطالبي عن الصواب حين جعل سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م هي السنة التي ولي فيها ابن العربي قضاء إشبيلية (آراء أبي بكر بن العربي الكلامية ، ط . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٧٤م ، جـ١ ، ص٦٢) .

(٢) ابن العربي : العواصم من القواصم ، ص٢٩٧ ؛ أحكام القرآن ، ق٣ ، ص١٤٥١ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص١٠٥-١٠٦ .

☆☆ المصادر المتوافرة لا تذكر بالتحديد المدة التي أمضاها ابن العربي في قضاء إشبيلية ، ولكن ابن عذاري يذكر في سنة٥٢٩هـ/١١٣٥م ثورة السفلة في إشبيلية عليه (البيان، جـ٤، ص٩٣-٩٤) وقد أشار المقري أن ابن العربي خرج إلى قرطبة بعد أن ثارت عليه العامة في إشبيلية ، ونهبوا داره ، " وكان ذلك في عيد أضحى " (نفح الطيب، جـ٢، ص٢٧) فلعل الثورة التي ذكرها ابن عذاري هي عينها التي أشار إليها المقري ، فتكون ولاية ابن العربي القضاء من آخر جمادي الثانية عام ٥٢٨هـ/١١٣٤م حتى عيد الأضحى عام ٥٢٩هـ/١١٣٥م أي سنة وستة أشهر تقريباً.ومن المستغرب أن ينسب محمد عبدالله ولدكريم إلى ابن عذاري القول بأن الذي مضى علىابن العربي في القضاء سنة وأشهر(ابن العربي : القبس في شرح موطأ مالك بن أنس ، تحقيق محمد عبدالله ولد كريم، ط.الأولى،دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢م، جـ١، ص٢٤ من مقدمة المحقق) قارن بين عبارته وبين ماجاء في(سعيد أعراب : مع القاضي أبي بكر بن العربي،ط.الأولى، دار الغرب الإسلامي،بيروت،١٤٠٧هـ/١٩٨٧م،ص٨٧).

(٣) الضبي : بغية الملتمس ، ص٩٤ ؛ ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٢٩١ ؛ المعجم ، ص٦٩ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص٧٤ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٢ ، ص٢٧ .

☆☆☆ لاندري متى كان بالتحديد عودة ابن العربي إلى بلده ، ولكننا نراه بداره بقرطبة في بحر سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م (ابن العربي : القبس ،جـ١ ، ص٧٥ حاشية ١) ثم نجده في السنة التالية مستقراً في بلده إشبيلية (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق٢ ، ص٥٢٩) .

(٤) عياض : الغنية ؛ ص١٣٦ ؛ ابن خير : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص٢٤٣ ؛ ابن بشكوال : الصلة، جـ٢ ، ص٥٩١ ؛ الضبي : بغية الملتمس ، ص٩٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، س١، ق٢ ، ص٥٢٩ ، التجيبي : برنامج التجيبي ، تحقيق عبد الحفيظ منصور ، ط . الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ، ١٩٨١م ، ص٤٧ ، ٩٠ .

أمضى بقية أيام عمره في "نشر العلم وتدوينه"[١]، وكانت وفاته على مقربة من مدينة فاس بالمغرب في شهر ربيع الثاني عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م عقب صدوره إلى الأندلس من لقائه بزعيم الموحدين عبد المؤمن بن علي في مراكش[٢] ☆.

ولقد كان ابن العربي "فَهِماً نبيلاً فصيحاً حافظاً أديباً شاعراً ..."[٣]، "وكان من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها والجمع لها"[٤]، وقد صنف في علوم القرآن والحديث والفقه والأصول والنحو والأدب والتاريخ[٥]، فترك وراءه مكتبة فخمة من المؤلفات نذكر منها أنوار الفجر في التفسير، ويعد من أوسع مؤلفاته[٦]، وكتاب المشكلين مشكل القرآن والسنة، وملجئة المتفقهين إلى معرفة غوامض النحويين ،والناسخ والمنسوخ، وأحكام القرآن، وعارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، والقبس في شرح موطأ مالك بن أنس، والعواصم من القواصم[٧]، وهذه الكتب الخمسة الأخيرة كلها مطبوعة.

☆ ☆ ☆

---

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، حـ٢٠ ، ص٢٠٠ .

(٢) عياض : الغنية ، ص١٣٥ ؛ وانظر : مجهول : الحلل الموشية ، ص١٤٧ – ١٤٨ .

☆ قيل إن أبا بكر بن العربي مات مسموماً (النباهي : المرقبة العليا ، ص ٩٥ ؛ ابن غازي : الروض الهتون ص٢٧) .

(٣) عياض : الغنية ، ص١٣٥ .

(٤) ابن بشكوال : الصلة ، حـ٢ ، ص٥٩١ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، حـ٢ ، ص٢٥٤ .

(٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، حـ٢٠ ، ص٢٠١ ، تذكرة الحفاظ ، حـ٤ ، ص١٢٩٦ .

(٦) ابن العربي : القبس ، حـ٣ ، ص١٠٤٧ – ١٠٤٨ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، حـ٢ ، ص٢٥٤ – ٢٥٥ .

(٧) المقري : أزهار الرياض ، حـ٣ ، ص ٩٤–٩٥ ؛ نفح الطيب ، حـ٢ ، ص٣٥–٣٦ .

وابن رشد الحفيد الذي كان من المحرضين على الجهاد في سبيل الله[١]، والنافرين بأنفسهم مع جيوش دولة الموحدين لقتال القوى النصرانية [٢] ، هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد [٣] ، ومحمد الأخير هو أبو الوليد بن رشد الجد [٤] المُعرّف به من قبل - وواضح الآن أن لقبي الجد والحفيد وضعا للتمييز بين الاثنين ، فكلاهما اسمه الثنائي محمد بن أحمد ، وكلاهما - أيضاً - يُكنى بأبي الوليد .

ولد ابن رشد الحفيد بقرطبة [٥] في آخر حياة جده المتوفي في ذي القعدة سنة ٥٢٠هـ /١١٢٦م [٦] فقيل أن مولده قبل وفاة جده بأشهر [٧] ، وقيل بل قبلها بشهر واحد فقط [٨] .

تعلم ابن رشد الحفيد على أيدي علماء بلده ، واستفاد من غيرهم[٩]، فدرس الفقه والأصول [١٠] ، وسمع الحديث [١١]، وأخذ حظاً وافراً من

---

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٢٤ .

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص٤٠٥ .

(٣) الضبي : بغية الملتمس ، ص٥٤ .

(٤) النباهي : المرقبة العليا ، ص١١١ .

(٥) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، جـ٣ ، ص١٢٢ .

(٦) النباهي : المرقبة العليا ، ص٩٩ .

(٧) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٥٥٥ ؛ المنذري : التكملة لوفيات النقلة ، تحقيق بشار عواد معروف، ط . الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠١هـ/١٩٨١ ، جـ١ ، ص٣٢٢ .

(٨) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ٢١ ، ٣٠٧ ؛ العبر ، جـ٣ ، ص ١١١ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ٢ ، ص ٢٥٩ .

(٩) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص ٥٥٤ ؛ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، جـ٣ ، ص ١٢٢ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص ٢٢ .

(١٠) ابن الأبار : التكملة ، جـ ٢ ، ص ٥٥٤ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ ٢ ، ص ٢٥٧ .

(١١) الذهبي : العبر ، جـ ٣ ، ص ١١١ .

اللغة والأدب [١] ، وعُنى بالطب [٢] ، وأقبل على علم الكلام والفلسفة[٣].

قُلِّد ابن رشد خطة القضاء في إشبيلية[٤] ، ولا تحدد المصادر الموجودة بين أيدينا السنة التي قُلد فيها ، ولكنه في كتابه " بداية المجتهد ونهاية المقتصد " وهو يتحدث عن فراغه من أحد أجزائه في جمادي الأولى من عام ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م أشار إلى أنه قد شرع في تأليف ذلك الكتاب "منذ أزيد من عشرين عاماً أو نحوها " [٥] ، وقد ذكر بعض المترجمين لحياته أن تصنيفه " بداية المجتهد" ابتدأ حين كُلف بالقضاء [٦] ، وهذا يُلهم أن تعيينة على قضاء إشبيلية في حدود سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م أو قبلها بقليل . وفي سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م عُين طبيباً لدى الموحدين في مراكش [٧] ، ثم ولي قضاء قرطبة في شعبان من السنة التالية [٨]☆ ، فبقي يشغل ذلك المنصب إلى أن جرد منه مغضوباً عليه☆☆ عام ٥٩٣هـ/١١٩٦م [٩] حيث أُخرج من قرطبة في

---

(١) ابن الأبار : التكملة، حـ ٢ ، ص ٥٥٤؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص٢٢.

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء، حـ ٣، ص ١٢٢ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، حـ ٢١ ، ص ٣٠٨.

(٣) الذهبي : العبر ، حـ ٣ ، ص ١١٠ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، حـ ٢ ، حـ ١١٤ .

(٤) ابن أبي أصيبعة:عيون الأنباء،حـ ٣، ص ١٢٣؛ ابن عبدالملك المراكشي:الذيل والتكملة، س٦،ص ٢٢.

(٥) ابن رشد : بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، ط . السادسة ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م حـ١ ، ص ٣٨٠ .

(٦) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص ٢٢ .

(٧) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٠٧ .

(٨) ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص١٥٦ .

☆ وذكر الزركشي أن تعين ابن رشد على قضاء قرطبة كان في سنة ٥٧٧هـ /١١٨١م (تاريخ الدولتين، ص١٤) .

☆☆ سنتعرض لسبب ذلك عند الحديث عنه في المنزلة الاجتماعية للعلماء الآتية بعد .

(٩) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٢٥ .

حالـة مهينة [(١)] ، وألزم الإقامة الإجبارية في قرية قريبة من قرطبة يقطنها اليهود [(٢)] ، بيد أن ذلك لم يطل كثيراً ، إذ صدر العفو عنه - فيما يظهر - في مطلع عام ٥٩٥هـ/١١٩٨م [(٣)] ، واستدعى مكرماً إلى مراكش ، فلم يعش عقب ذلك إلا يسيراً إذ أثقله المرض فتوفى☆ في صفر من تلك السنة في رواية ، وفي ربيع الأول في رواية أخرى [(٤)] ☆☆ .

أما ما خلفه من آثار علمية فقد عُرِفَ ابن رشد باستغلاله ساعات عمره منذ أن عقل بالقراءة والبحث [(٥)] ، فسود - « فيما صنف وقيد وألف وهذب واختصرنحواً من عشرة آلاف ورقة » [(٦)] ، وقد تنوعت موضوعاتها بين الفقه والعقيدة والطب والفلك والفلسفة [(٧)] . ويمكن تقسيم آثاره بشكل عام إلى قسمين ؛ أحدهما: شرح لكتب الأقدمين ، والآخر صنفه هو بنفسه[(٨)].

---

(١) المراكشي : المعجب ، ص٣٨٥ ؛ ابن سعيد : المغرب ، جـ١ ، ص١٠٥

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، جـ٣ ، ص١٢٤ ؛ ابن سعيد : المغرب ، جـ١ ، ص١٠٥ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٢٦ .

(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، جـ٣ ، ١٢٤ .

☆ ثمة رواية تقول أن ابن رشد توفى محبوساً بداره في مراكش (الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ٢١ ، ص٣٠٩ ؛ الصفدي : الواقي بالوفيات ، جـ٢ ، ص١١٥) .

(٤) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٥٥٥ .

☆☆ دُفن ابن رشد أولاً في مراكش ، ثم نقل رفاته إلى مسقط رأسه قرطبه فدفن بها (ابن عربي : الفتوحات المكية ، تحقيق عثمان يحيى ، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٣٩٢هـ/ ١٩٣٢ م ، جـ٢ ، ص٣٧٣ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٣١) .

(٥) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٥٥٤ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ٢١ ، ص٣٠٨ .

(٦) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٥٥٤ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ٢ ، ص٢٥٨ .

(٧) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص٣٥٦ - ٣٥٨ ؛ ماجد فخري : ابن رشد فيلسوف قرطبة ، ط. الثالثة ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٩٢م ، ص ١٢ .

(٨) عبد الرحمن عميرة : الفلسفة الإسلامية بين التقليد الابتكار ، ط .مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة ، ١٩٧٥م ، ص١١٥ .

من مؤلفاته الكثيرة☆ نكتفي بذكر الآتي : بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، وفصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، والكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة ... ، وتهافت التهافت وكتاب الترياق ، تلخيص الخطابة، وهذه الكتب كلها مطبوعة☆☆ .

☆ ☆ ☆

وأبو الربيع الكَلاعي الباذل مهجته في سبيل الله ، والمتصدر صفوف المسلمين عند قتالهم النصارى [١] هو سليمان بن موسى بن سالم بن حسان بن سليمان بن أحمد بن عبد السلام [٢] ، ويعرف بابن سالم الكلاعي☆☆☆ الحميري[٣] . ولد أبو الربيع - كما أخبر هو عن نفسه - في مستهل رمضان سنة ٥٦٥هـ /١١٧٠م بمُرْسِيَة [٤] في شرقي الأندلس [٥] . وبعد إتمامه

☆ انظر : أسماء مؤلفات ابن رشد في برنامجه المنشور في(أرنست رينان:ابن رشد والرشدية، ترجمة عادل زعيتر ط.دار إحياء الكتب العربية، القاهرة،١٩٥٧،ص٤٥٦-٤٥٧) ولقد تمكن جمال الدين العلوي من ذكر مائة وثمانية من مؤلفات ابن رشد ، ثم حاول ترتيب الموجود منها حسب زمن التأليف مع تعريف بها في كتابه (المتن الرشدي ، ط . الأولى ، دار توبقال ، الدار البيضاء ١٩٨٦م ، ص١٤ - ٤٥ ، ٤٩ - ١٢٣) .

☆☆ لمعرفة الذي كُتب بالعربية حديثاً عن ابن رشد حتى حوالي سنة ١٩٧٤م . (انظر صبيح صادق : ما كُتب عن ابن رشد في المراجع العربية الحديثة ، مجلة المورد ، م٣ ، عدد ٢ ، ١٣٩٨هـ /١٩٧٨م ، ص٢٧٧-٢٨٦) . وقد أعطى فكرة موجزة عن كل مرجع ذكره .

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٤ ، ص٢٩٥ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص٨٣ .

☆☆☆ الكلاعي : نسبة إلى كلاع الذي هو من ذرية حِمير بن سبأ بن يشجب بن قحطان (الأشرف بن رسول : طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب ؛ تحقيق ستر ستين ، ط . الثانية ، دار الكلمة ، صنعاء ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م ، ص٥٠ ، ٧٦) .

(٣) ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ١ ، ص٣٨٥ .

(٤) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٤ ، ص٢٠٣ .

(٥) أبو الفدا : تقويم البلدان ، ص١٧٨،١٧٩ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ١ ، ص١٦٦ .

عامين من عمره هاجرت أسرته إلى بلنسية (١) الكائنة إلى الشمال من مرسية (٢) ، فنشأ بها (٣) ، وتعلم على شيوخها (٤) ، وأخذ من العلماء الوافدين إليها (٥) . ورغبة في زيادة العلم والمعرفة تجول في بلاد الأندلس والمغرب (٦) . فارتحل إلى عدد من المدن في شرقي الأندلس وجنوبيها وغربيها، كما رحل إلى سبتة في العدوة المغربية (٧) ، فكان بها عام ٥٨٩هـ/١١٩٣م (٨) . ومن الملاحظ أن المصادر التي نملكها لا تحدد بالضبط التاريخ الذي ابتدأ فيه جولته تلك ، ولا المدة التي انفقها فيها . وبالنظر إلى الإشارات المتفرقة عن حياة أبي الربيع العلمية نراه قد خرج من بلده بلنسية عام ٥٨٧هـ/١١٩١م (٩) ، ومن المؤكد أن خروجه هذا – في سبيل طلب العلم – لم يكن الأول ؛ إذ نراه قد نزل شاطبة عام ٥٨٦هـ/١١٩٠م (١٠) ، كما أنه دخل إشبيلية قبل شوال من عام ٥٨٦هـ/١١٩٠م (١١) ، ودخل

---

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٨٩ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص١١٩ .

(٢) كريم عجيل حسين : الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية ، ط . الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦ م ، ص٦١ .

(٣) النباهي : المرقبة العليا ، ص١١٩ .

(٤) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٧٠٨ ؛ المنذري : التكملة لوفيات النقلة ، جـ٣ ، ص٤٦٢ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ٢٣ ، ص١٣٥ .

(٥) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص٨٤ .

(٦) النباهي : المرقبة العليا ، ص١١٩ .

(٧) المنذري : التكملة لوفيات النقلة ، جـ٣ ، ص٤٦٢ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ٢٣ ، ص١٣٨؛ تذكرة الحفاظ ، جـ٤ ، ص١٤١٩ .

(٨) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٨٧٠ .

(٩) ابن الخطيب : الإحاطة ،جـ٤ ، ص٢٩٧ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٤٧٦ .

(١٠) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٣، ص٣٠٣ .

(١١) ذاك أن أبا الربيع قد قرأ بها على أبي بكر بن الجد المتوفى سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م (ابن الخطيب : الإحاطة، جـ٤، ٣٠٢) وبالتحديد في شهر شوال من تلك السنة(ابن الأبار:التكملة، جـ٢، ص٥٤٣).

مرسية قبل صفر من عام ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م [١] . ومن المقطوع به وجوده في بلده بلنسية عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م [٢] فربما أن خروجه منها لأول مرة كان في هذه السنة الأخيرة أعني ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م ، أي لما كان له من العمر ثمانية عشر ربيعاً ، فبدأ بمدينة مرسية القريبة التي سبق ذكر دخوله لها قبل صفر سنة ٥٨٤هـ /١١٨٨ م .

وعلى أي حال بلغ أبو الربيع الإمامة في الحديث ، فأصبح حافظاً له، بصيراً بطرقه عارفاً بالجرح والتعديل [٣]، كما برع في علوم القرآن والتجويد[٤] وهو بجانب ذلك كاتب بليغ، وشاعر مجيد، وخطيب مفوه[٥].

ولقد مر عليه زمن تولى فيه خطة الكتابة في بلنسية☆ ، وكان ذلك في شبيبته [٦]☆☆ .وفي المدينة ذاتها قُدِّمَ للقضاء مدة " فسار في أحكامه بأجمل مسيرة وأحمد طريقه من العدل والتثبت والفضل " [٧] . كما أتت عليه

---

(١) حيث أنه قرأ بها على أبي القاسم بن حُبيش المتوفى في صفر من سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م (ابن الخطيب: الإحاطة ، جـ٤ ، ص٣٠٢) .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٨٦ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص٨٤ .

(٣) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٧٠٨ ؛ الرعيني : برنامج شيوخ الرعيني ،تحقيق إبراهيم شبوح ، ط . مديرية إحياء التراث القديم ، دمشق ١٣٨١هـ/١٩٦٢م ، ص٦٦-٦٧ ؛ الكتبي: فوات الوفيات ، ط . دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٤م ، ص٨٠ .

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ٢٣ ، ص١٣٧ ؛ تذكرة الحفاظ ، جـ٤ ، ص١٤١٨ .

(٥) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص٨٥ .

☆ ذكر ابن مُسَدّى أنه " نُدب لديوان الإنشاء فاستعفى " (الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ٢٣ ، ص١٣٧؛ تذكرة الحفاظ ، جـ٤ ، ص١٤١٨) .

(٦) ابن الأبار : إعتاب الكتاب، تحقيق صالح الأشتر ، ط . مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٨٠هـ/١٩٦١م ص٢٤٩.

☆☆ ترجح الباحثة ترثيًا هي أن شغله لمنصب الكتابة في بلنسية كان قبل سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م التي كان فيها منفياً عن تلك المدينة (أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي " حياته وآثاره " ، ط . وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمغرب ١٤١٤هـ/١٩٩٤م ، ص ١٠٩) .

(٧) النباهي : المرقبة العليا ، ص١١٩ .

أوقات اعتلى فيها منبر الخطابة بمسجدها الجامع [(١)] .

ظل أبو الربيع الكلاعي يؤدي مهمته العلمية من إسماع للطلاب المتكاثرين على دروسه [(٢)] ☆ ، وتصنيف للمؤلفات المختلفة الفنون [(٣)] إلى أن فُقِدَ في قتال النصارى في ذي الحجة من سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧م [(٤)] . ولأبي الربيع عدد كبير من المصنفات ، سجل عنواين معظمها بخط يده قبل وفاته في رسالة له لأحد طلابه [(٥)] ، وأوردها – فيما بعد – بصورة وافية مَنْ كتب عن حياته من تلامذته وغيرهم، منها : مصباح الظُلَم من حديث رسول الله ﷺ ، وجنى الرطب في سنى الخطب ، الامتثال لمثال المبهج في ابتداع الحكم واختراع الأمثال ، وبرنامج مروياته ، وديوان شعره [(٦)] ، وكتاب الإكتفاء في

---

(١) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٧٠٨ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ، جـ١٥ ، ص٤٣٣ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص١١٩ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ١ ، ص٣٨٥ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص٨٥ .

☆ حين رثاه أحد تلامذته بعد موته قال متحسراً عليه :

ومن يُعرج طالب العلم الذي   ما أعملت إلا إليه ركابه

(البلفيقي : المقتضب من تحفة القادم ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، ط .الثانية ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص٢٠٤) .

(٣) مما يدل على استمراره في التأليف حتى وفاته أنه كتب لأحد تلامذته في رجب عام ٦٢٩هـ/١٢٣٢م قائمة بمؤلفاته ، وسأل الله أن يتم كتاباً يؤلفه في الصحابة وأكابر التابعين (الرعيني : برنامج شيوخ الرعيني ، ص٦٧-٦٨) فتوفى قبل أن يتمه (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص٨٦) .

(٤) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٧٠٩ ، البلفيقي : المقتضب من تحفة القادم ، ص١٩١.

(٥) الرعيني : برنامج شيوخ الرعيني ، ص٦٧-٦٨ .

(٦) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص٨٥-٨٦ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٤ ، ص٢٩٦-٢٩٧ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٤٧٥ .

مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء☆ . وهذا الكتاب الأخير مطبوع .

☆ ☆ ☆

أما ابن الأبار- الذي عايش بنفسه سقوط قواعد أندلسية كبرى بأيدي النصارى [١] ، وخف مستصرخاً حكام إفريقية لإنقاذ المسلمين في الأندلس من الهجمة النصرانية الضارية [٢] - فهو أبو عبد الله محمد بن عبدالله☆☆ ابن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي بكر القضاعي [٣]☆☆☆ الشهير بابن الأبار البلنسي [٤] . ولد بمدينة بَلَنْسِيَة [٥]

☆ وقفت ثريًا هي عند مؤلفات أبي الربيع ، فعرفت بما استطاعت أن تعثر عليه منها تعريفاً وافياً ، وقد تكلمت أولاً عن مؤلفاته في الأدب ، ثم مؤلفاته في الفقه ، ثم مؤلفاته في التاريخ ، ثم مؤلفاته في الحديث، ثم شعره ، ثم رسائله (أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي ، ص ١٣٥-٣١٢) .

(١) ابن الأبار : درر السمط في خبر السبط ، تحقيق عز الدين موسى ، ط . الأولى ، دار الغرب ، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ص١٢ من المقدمة .

(٢) ابن خليل : اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى لابن سعيد ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، ط . الثانية، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، ص١١٩ .

☆☆ سمى ابن سعيد والد ابن الأبار بعبد الرحمن (رايات المبرزين وغايات المميزين ، تحقيق محمد رضوان الداية ، ط . الأولى ، دار طلاس ، دمشق ١٩٨٧م ، ص٢٠٥) وهذا وهم من ابن سعيد ، فابن الأبار نفسه ترجم لوالده في باب عبد الله (التكملة ، جـ٢ ، ص٨٨٨) .

(٣) ابن عبدالملك المراكشي:الذيل والتكملة،س٦، ص٢٥٣؛الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق عادل نويهض، ط.الثانية،دار الآفاق الجديدة،بيروت١٩٧٩م،ص٣٠٩.

☆☆☆ والقضاعي نسبة إلى قضاعة التي اختلف النسابون بين مرجعها إلى عدنان أو إلى قحطان (ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ، ص٤٤٠) انظر قولاً للسهيلي في سبب هذا الاختلاف (القلقشندي : قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، ط . الثانية ، دار الكتب الإسلامية، بيروت ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص٤٢)

(٤) ابن خليل : اختصار القدح المعلى ، ص١١٩ .

(٥) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٢٧٥ .

في شرقي الأندلــس ، وذلك في أحد شهري ربيع عام ٥٩٥هـ/١١٩٩م[١]. نشأ أبو عبدالله بـن الأبـار في بيـت والـده الـذي كـان مـن رجـال العلـم في الأندلس [٢] ، فأشرف ذلك الوالد إشرافاً مباشراً على تربيته وتعليمه ، فكان يسمعه فنون العلم ، ويأخذه معه إلى منتديات العلماء ، ويختبر بين آونة وأخرى حفظة [٣] . وكان هو من طرفه يلتقي بالعلماء في مجلس والده [٤] وفي مجالس أخرى [٥] . وكان يتردد على حلقات الدروس في المساجد [٦] . كما سعى للإفادة من العلماء الزائرين لبلنسية [٧] . ثم إنه جال بعد ذلك في بلاد الأندلس [٨] . ففى أثناء حديثه على العلماء الأندلسين جاء عرضاً ذكـر عدد من المـدن الـتي دخلهـا مثـل دَانِيَـة☆ وإشبيلية وبطليوس ، ففيمـا يتعلق بإشبيلية فقد أفصح عن أخذه من العلماء فيها في عـدة مواضـع[٩] ، بـل نـص

(١) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٨٨٩ ؛ المعجم ، ص٨١ ، ١٤٤ .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، جـ ٢ ، ص ٨٨٩ .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) المصدر السابق ، ص٥٩٧ ، ٨٨٢ .

(٥) المصدر السابق ، جـ١ ، ص١٠٣ ، جـ٢ ، ص٥٨٧ ، ٥٩٣ ، ٥٩٦ ، ٦٠١ ، ٦٢١ ، ٦٢٧ ؛ الحلة ، جـ٢ ، ص١٠٢-١٠٣ ؛ المعجم ، ص١٠٨ ، ١١٢ .

(٦) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٥٩٤ .

(٧) المصدر السابق ، جـ١ ، ص١١٦ ، جـ٢ ، ص٥٩٩ ، ٦١١ ، ٧١٤ .

(٨) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ٢٣ ، ص٣٣٦ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، جـ٣ ، ص٣٥٦ ؛ الكتبي : فوات الوفيات ، جـ٣ ، ص٤٠٤ .

☆ دَانِيَة Denia من أعمال كورة بلنسية على ضفة البحر (ياقوت : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٤٣٤) تقع إلى الجنوب من بلنسية القاعدة (الزهري : الجعرافية ، ص١٠٣) بينهما مسافة مقدارها خمسة وستون ميلاً تقريباً (الإديسي : صفة المغرب ، ص١٩٢) وهي الآن بلدة صغيرة عتيقة الطراز في شرقي إسبانيا (عنان : الآثار الأندلسية ، ص١٤٦) .

(٩) ابن الأبار:التكملة،جـ١، ص١١٧، ٢٢٢، جـ٢، ص٦٠٥، ٦٠٦، ٦١٦، ٦١٩، ٦٢٣، ٦٢٧، ٩٤٢.

على أن توجهه إليها كان في رمضان عام ٦١٦هـ/ ١٢١٩م [١] وأن صدوره عنها كان أيضاً في رمضان عام٦١٩هـ/١٢٢٢م [٢] ، وأما بطليوس فقد أكد على وجوده بها في ربيع الأول سنة٦١٩هـ/١٢٢٢م [٣] وفي جمادي الأولى من السنة ذاتها [٤] . وبالنسبة لدانية فقد زارها قبل عام ٦١٨هـ/١٢٢١م [٥] .

وبالعودة إلى النصوص المتوافرة لدينا عن سماعه من العلماء في بلده بلنسية نراه موجوداً بها عام ٦١٥هـ/١٢١٨م [٦] ☆ . فلعل خروجه منها في هذا العام عينه ، أي بعد أن أتم عشرين سنة من عمره تقريباً ، فتوجه أولاً إلى دانية غير البعيدة من بلنسية [٧] ، وبعدها يمم وجهه شطر إشبيلية التي حدد لنا مسيره إليها - كما مر - في رمضان سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م وغير بعيد أنه خرج من إشبيلية - التي نراه فيها حتى جمادي الآخر من عام ٦١٨هـ/ ١٢٢١م [٨] - إلى بطليوس التي نبأنا بمقامه بها في ربيع الأول

---

(١) ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص١١١ ، ١١٣ .

(٢) المصدر السابق ، جـ١ ، ص١١٣ .

(٣) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٨٩٠ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص١٨٠ .

(٤) ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٣٣٩ .

(٥) ذاك أنه لقي أحد العلماء فيها ، وقد توفي هذا العالم عام ٦١٨هـ/١٢٢١م (ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٦٠٧) .

(٦) ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٢٧١ .

☆ وانظر تصريحه بوجوده في بلنسية قبل سنة ٦١٥هـ /١٢١٨م في (ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٣١٧ ، جـ٢ ، ص ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٩ ، ٦١١) .

(٧) ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص١٦ .

(٨) عرفنا وجوده بها حتى ذلك التاريخ لأنه حضر جنازة أحد علماء إشبيلية المتوفي في السنة المذكورة أعلاه (ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٦٠٦) وقد كانت وفاة ذلك العالم في شهر جمادي الأولى من تلك السنة (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٤٠٦) .

وجمادي الأولى من سنة ٦١٩هـ /١٢٢٢م -كما سبق- ، وعند نكوصه منها مر على إشبيلية فكان رحيله من هذه المدينة في رمضان من سنة ٦١٩ هـ /١٢٢٢م مثلما أخبرنا هو عن نفسه . فعاد إلى موطنه بلنسية ، ومن ثم نجده مستقراً بها عام ٦٢١هـ/١٢٢٤م (١) .

ولقد شغل ابن الأبار خطة الكتابة في مدينة بلنسية (٢) ، فلما لجأ واليها أبو زيد بن أبي عبد الله الموحدي☆ إلى نصارى أرغون بعد أن غلبه على بلنسية أبو جُمَيْل زيان بن مردنيش☆☆ في صفر سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م (٣) ، صحبه ابن الأبار إلى هناك ، ولكنه سرعان ما عاد إلى بلاد الإسلام (٤) ، فكان

(١) ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٢٤٤ ، ١٦٨ .

(٢) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص٤١٨ ؛ المقري : أزهار الرياض ، جـ٣ ، ص٢٠٥ ، نفح الطيب ، جـ٢ ، ص٥٨٩ - ٥٩٠ .

☆ وأبو زيد هو عبد الرحمن بن أبي عبد الله محمد بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن بن علي (ابن سعيد: المغرب ، جـ٢ ، ص٣٠٣ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ، ص٢١٤ ، ٢١٦) وقد ولي حكم بلنسية عام ٦٢٠هـ/١٢٢٣م (ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ، ص٢١٤) ولم يعش إلا يسيراً بعد لجوئه إلى النصارى (ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص٢٨٩) وانظر تعقيباً على بعض المؤرخين الذين تعرضوا لحياته في (محمد بن شريفة : أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي ، ط . المركز الجامعي للبحث العلمي بجامعة محمد الخامس ، ١٩٦٦م ، ص٩٠ حاشية ١) .

☆☆ وأبو جُميل هو زيان بن أبي الحملات مدافع بن أبي الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش ، فجده أبو الحجاج يوسف هو أخو محمد بن سعد بن مردنيش المعارض للموحدين ، وكان قد انشق على أخيه ودخل في طاعة الموحدين ، فولوه بلنسية وجهاتها حتى وفاته . وأما والده مدافع فقد مات شاباً في إحدى المعارك مع النصارى (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٢٧١-٢٧٢) فآل أمر أبي جميل زيان إلى أن أصبح من بطانة والي بلنسية الموحدي أبي زيد إلى أن انتقض عليه سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م (ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ، ص ٢١٤) .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٢٧٢ .

(٤) ابن خلدون: العبر ، جـ٦، ص٤١٨؛ المقري : أزهار الرياض ، جـ٣ ، ص٢٠٥، وانظر جمعة شيخة : القيمة الوثائقية لديوان ابن الأبار، مجلة دراسات أندلسية، عدد ٢، ذو القعدة ١٤٠٩هـ، ص٤١-٤٣.

في إشبيلية في رمضان عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م[١]، فقدم شاطبة وأقام بهـا أيامـاً[٢]، ثم قصد - فيما يبدو - بلده بلنسية [٣] . وبعـد ذلـك كلـف بقضاء دانيـة عـام ٦٣٣هـ/١٢٣٥م ، بيد أنه لم يلبث أن استعفى منـه فـأعفي [٤] ، فـأصبح -بعدها- من كتاب أبي جميل زيان صاحب بلنسية [٥] . وعقب سقوط بلنسية بأيدي النصارى صفر عام ٦٣٦هـ/١٢٣٨م آثر ابن الأبار استيطان إفريقية [٦]، وقد انتهت حياته فيها بالقتل في محرم عام ٦٥٨هـ/١٢٥٩م [٧] .

كان ابن الأبار "محدثاً مكثراً ... ذاكراً للتواريخ على تباين أغراضها، مستبحراً في علوم اللسان نحواً ولغة وأدباً ،كاتباً بليغاً ، شاعراً مفلقـاً مجيداً "[٨]، اهتم بالتأليف ، فكتب مصنفـات أربت عن الخمسين [٩] ، وقـد تركـزت في

---

(١) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٦٤٣ ، ٦٢٩ . وقد كان في مدينة وادي آش في شوال من العام نفسه ٦٢٦هـ /١٢٢٩م (المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٥٠) .

(٢) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٦٢٩ .

(٣) ذاك أنه لما أقام بشاطبة أياماً أسمع أحد أقرانه المسمى محمد بن إسماعيل بن خميس الجمحي والمتوفي عام ٦٢٩هـ/١٢٣١م بعض شعره ، ثم صرح بأنه سمع هو من محمد المذكور بعد صحبة تمت بينهما في بلنسية (ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٦٢٩ ؛ وانظر ابن عبد الملك المراكشـي : الذيل والتكملة، س٦ ، ص١٢٨) وهذا يعني أن ابن الأبار قد دخل بلنسية وعاش بها قبل عام ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م .

(٤) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٩٠٠ ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٦٠٦ .

(٥) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص٤١٨ ؛ المقري : أزهار الرياض ، جـ٣ ، ص٢٠٥ ؛ نفح الطيب ، جـ٢ ، ص٥٩٠ .

(٦) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص٣٨٨ ، ٤١٨ ، الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص٢٨ .

(٧) ابن عبد الملك المراكشـي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٢٧٥ ؛ الكتبي : فوات الوفيات ، جـ٣ ، ص٤٠٥ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص٤١٩ ؛ الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص٣٥-٣٦ .

(٨) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٢٥٨ .

(٩) المصدر السابق ، ص٢٥٩

أربعة فنون رئيسة ، هي : الحديث والتراجم والتاريخ والأدب [١] ، ومن هذه المصنفات نذكر : المورد السلسل في حديث الرحمة المسلسل ، الأربعون حديثاً ... [٢] ، درر السمط في أخبار السبط☆ ، التكملة لكتاب الصلة ، المعجم في أصحاب الإمام أبي علي الصدفي، الحلة السِّيَراء في أشعار الأمراء☆☆ ، وإعتاب الكُتّاب وديوان شعره . وهذه الستة الأخيرة جميعها قد طُبعت .

☆ ☆ ☆

وهكذا عرضنا بإيجاز مركز سير حياة سبعة من أعلام علماء الأندلس سنراهم في الفصول القادمة على رأس المشاركين في الصراع مع النصارى في زمن المرابطين والموحدين . وبجانب هؤلاء سنتعرف - إن شاء الله - على حشد كبير من إخوانهم العلماء وطلبة العلم الذين أسهموا معهم في الميادين المختلفة لذلك الصراع ، وذلك حينما تمر أسماؤهم في تضاعيف هذا الكتاب .

---

(١) رشاد الإمام : ابن الأبار وعصره في تونس ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ٢ ، ذو القعدة ١٤٠٩هـ ، ص٢٨ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٢٥٨ .

☆ يقول الذهبي : " ولقد رأيت لأبي عبد الله الأبار جزءاً سماه (درر السمط في خبر السبط عليه السلام) يعني الحسين بإنشاء بديع يدل على تشيع فيه ظاهر ، لأنه يصف علياً ﷺ بالوصي ، وينال من معاوية وآله، وأيضاً رأيت له أوهاماً في تلك الأربعين ... " (سير أعلام النبلاء ، جـ٢٣ ، ص٣٣٨).

☆☆ هكذا جاء عنوانه في بعض المصادر (الصفدي : الوافي بالوفيات ، جـ٣ ، ص٣٥٦ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٢ ، ص٥٩٢) وجاء عنوانه في مصادر أخرى بصيغة : الحلة السيراء في شعراء الأمراء (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٢٥٩) ومن المستغرب أن حسين مونس لجأ إلى الحدس لإضافة الكلمتين الأخيرتين من العنوان رغم أن المصادر نصت عليهما كما هو مشاهد (ابن الأبار : الحلة ، جـ١ ، ص٥١ من الدراسة) .

ثانياً : المنزلة العلمية للعلماء المشاركين في الصراع مع النصارى :

لا مراء أن رجال العلم المشاركين في مجابهة النصارى في عصر المرابطين والموحدين لم يكونوا كلهم على درجة واحدة في العلم ، ولا في مستوى متقارب من الثقافة ، فثمة تفاوت بينهم -كغيرهم من الناس- في مداركهم العقلية ، وفي مقادير ما تهيأ لهم من علوم ومعارف ، ففيهم الكبير والصغير، والعالم والمتعلم، والمجتهد والمقتصد، لكنَّ نفراً من هؤلاء بلغوا في زمنهم منزلة علمية سامقة بزوا فيها غيرهم ، وتفوقوا على من سواهم . ولقد كان لتلك المنزلة العلمية التي بلغوها مظاهر مختلفة يمكن رصدها خلال التأمل في تراجم حياتهم ، والنظر في تراثهم . ولعلنا نكتفي بإيراد أمثلة على تلك المظاهر، مراعين -بقدر الطاقة- أن تكون أمثلة شاملة لعصر الدراسة بأسره.

فمن خلال كلام مَنْ كتب عنهم -سواء ما جاء على لسان من عرفهم عن كثب ممن عايشهم ، واختلف إلى حلقات دروسهم، وتردد على مجالسهم أو ممن عُنِيَ بأخبارهم وهو ليس ببعيد عن الفترة التي ينتمون إليها- من خلال كلام هؤلاء يتجلى مقامهم العلمي بين معاصريهم . فأبو علي الصدفي (ت ٥١٤هـ/١١٢٠م وُصف بأنه من العلماء العاملين [١] ، وأنه من أجل شيوخ العصر [٢] ، وقد حلي اسمه بالفقيه الإمام الحافظ [٣] ، و " القاضي العدل الحافظ" [٤] ، فكان " علماً يناصي الأعلام " ، كما عده بعض الذين

(١) ابن بشكوال : الصلة ، جـ١ ، ص١٤٥ .
(٢) عياض : الغنية ، ص١٩٤ ؛ ابن بشكوال : الصلة ، جـ١ ، ص١٤٥ .
(٣) ابن عطية : فهرس ابن عطية ، ص٩٩ .
(٤) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ٣ ، ص١٥٢٢ .

ترجموا له [١] . أما ابن رشد الجد (ت ٥٢٠هـ/١١٢٦م) فقد عُرِّف بـ " الإمام العلامة " [٢] ، وقال عنه أحد تلامذته " طود علم ، وإنسان فضل وحلم ، وكوكب ذكاء وفهم ، وواحد جلالة وديانة ، وفذ رجاحة وأمانة " [٣] . ولقد نعت أبو بكر بن العربي (ت٥٤٣هـ/١١٤٨م) على لسان أحد تلاميذه بـ " الإمام العالم المستبحر" [٤] ، وقال عنه في موضع آخر : " الإمام ... المحدث المتقن الحافظ " [٥] ، وبالغ أديب معاصر له في وصفه بقوله عنه : " الفقيه الأجل الحافظ...علم الأعلام "[٦]، "الظاهر على الأتراب، الباهر الألباب"[٧]. وكذلك فإن أبا عمر ابن عات النفزي☆ الذي لقي حتفه في جهاد النصارى عام ٦٠٩هـ/١٢١٢م [٨] قد وشّيَ اسمه بـ "الإمام الحافظ البارع" [٩]،

---

(١) ابن الأبار : المعجم ، ص٢ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ١٩ ، ص٥٠١ .

(٣) ابن رشد : فتاوي ابن رشد ، جـ٣ ، ص١٥٢٥ .

(٤) ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٥٩٠ .

(٥) ابن العربي : عارضة الأحوذي ، جـ١ ، ص٢ .

(٦) ابن خاقان : مطمح الأنفس ، ص٢٩٧ .

(٧) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق٣ ، ص٦٩٢ .

☆ هو أحمد بن هارون بن أحمد بن جعفر بن عات النفزي (ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص١٠١) نسبة إلى نفزة إحدى قبائل البربر الذين يرجعون في أصولهم إلى البُتر (مجهول : نبذ تاريخية ، ص٧٦) وهو من أهل مدينة شاطبة، وكان مولده في شوال عام٥٤٢هـ/١١٤٨، وقد أخذ العلم عن علماء بلده الأندلس وعن علماء المشرق لما رحل إليهم وأدى فريضة الحج ، وله عدد من المؤلفات منها : النزهة في التعريف بشيوخ الجهة ، وريحانة النفس وراحة الأنفس في ذكر شيوخ الأندلس (ابن الأبار: التكملة، جـ١ ، ص١٠١-١٠٢ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل التكملة ، س١ ، ق٢ ، ص٥٥٦-٥٦٢).

(٨) النباهي : المرقبة العليا ، ص١١٥ ، ١١٦ .

(٩) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ٢٢ ، ص١٣ .

و« الحافظ الإمام الثقة »[١] فهو « أحد الحفاظ للحديث »[٢] بل « من أكابر المحدثين الجلة الحفاظ المسندين للحديث والآداب بلا مدافعة »[٣] . وأبو الربيع الكلاعي (ت٦٣٤هـ/١٢٣٧م) جاءت أقوال معاصريه مبينة فضله العلمي بمثل قول بعضهم عنه « بقية الأكابر من أهل العلم بصقع الأندلس الشرقي »[٤] ، وقول آخر « أجل من كان بقي من الأعلام الأكابر »[٥] ، ولما عرض له ابن سعيد[٦] قال عنه « من ...أعلام العلماء المشهورين في عصرنا »، وصور حاله أحد الذين التقوا به بقوله « لم ألق مثله جلالة ونبلاً ، ورياسة وفضلاً ، كان إماماً مبرزاً في فنون من منقول ومعقول ، ومنثور وموزون »[٧] .

ومن ناحية أخرى فإن عدداً من أهل العلم المسهمين في جهاد النصارى أيام المرابطين والموحدين كانوا قد تربعوا على كرسي الصدارة العلمية في العلوم والمعارف التي تخصصوا فيها ، بحيث صار الواحد منهم في مجال تخصصه مرجعاً علمياً لعلماء زمانه ، يعتمدون أقواله ، ويفضلون آراءه، ويأخذون بفتاويه ، ويهرعون إليه فيما أشكل عليهم من مسائل ، ويحكمونه

(١) الذهبي : تذكرة الحفاظ ، جـ٤ ، ص١٣٨٩ .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص١٠١ .

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل التكملة ، س١ ، ق٢ ، ص٥٦٠ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ١ ، ص٢٣٢ ؛ وانظر : المقري : نفح الطيب ، جـ٢ ، ص٦٠٢ .

(٤) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل التكملة ، س٤ ، ص٨٥ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٤ ، ص٢٩٥ .

(٥) الرعيني : برنامج شيوخ الرعيني ، ص٦٧ .

(٦) المغرب ، جـ٢ ، ص٣١٦ .

(٧) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ٢٣ ، ص١٣٧ .

فيما شجر بينهم من اختلاف . فأبو علي الصدفي (ت ٥١٤هـ/١١٢٠م) " كان عارفاً بالحديث ، قائماً به ، حافظاً لأسماء الرجال ، عارفاً بقويهم وضعيفهم "[١] ، ولذا " حاز الرياسة في هذا الفن "[٢] بل انفرد – وهو في الرابعة والأربعين من عمره تقريباً☆ – " بالإمامة في الحديث بالأندلس "[٣] ، فصار في وقته " إمام المحدثين بالأندلس "[٤] . وهذا ابن رشد الجد المتوفى سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م "كان حافظاً للفقه، مقدماً فيه على أهل عصره"[٥] ، فهو " أفقه أهل الأندلس في وقته "[٦] ، بل غدا " زعيم فقهاء وقته بأقطار الإندلس والمغرب ومقدمهم "[٧] ، فاستحق لقب " شيخ المالكية "[٨] ، ولذا " كان إليه المفزع في المشكلات "[٩] ، فكانت الاستفسارات العلمية والاجتماعية وغيرها تصل إليه في قرطبة للإجابة عنها سواء من قبل علماء الأندلس[١٠] ،

---

(١) عياض : الغنية ، ص١٩٤ .

(٢) عياض : ترتيب المدارك ، جـ٨ ، ص١٩٤ (الملاحق ، مختصر المدارك لابن حمادة تلميذ القاضي عياض) .

☆ عرفنا أنه كان في الرابعة والأربعين من عمره لما انفرد بإمامة الحديث ، لأن انفراده بها حدث بعد وفاة أبي علي الغساني سنة ٤٩٨هـ/١١٠٥م (ابن الأبار : المعجم ، ص٨٠) ومولده – كما سبق – عام ٤٥٤هـ/١٠٦٢م .

(٣) ابن الأبار : المعجم ، ص٧٩ .

(٤) ياقوت : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٣١٠ .

(٥) ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٥٧٦ .

(٦) الذهبي : تاريخ الإسلام (حوادث سنة ٥٢٠هـ) ، ص ٤٤٤ .

(٧) عياض : الغنية ، ص١٢٢ .

(٨) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ١٩ ، ص٥٠١ ، جـ٢١ ، ص٣٠٧ .

(٩) عياض : الغنية ، ص١٢٢ .

(١٠) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ١ ، ص١٤١ ، ١٦٤ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣ ، ٣٢٥ ، ٣٤٩ ، ٥٦١ ، ٥٦٧ ، جـ٢ ، ٨٧٣ .

أو من طرف علماء المغرب [١] ، أو من جانب حكام ذلك الزمان وولاتهم [٢] ؛ فضلاً عن ورودها إليه من عامة أهل الأندلس والمغرب [٣] . ومن الناس من قدم إلى قرطبة من بعض مدن الأندلس لطرح الأسئلة عليه كفاحاً[٤]. وأبو بكر بن العربي (ت٥٤٣هـ/١١٤٨م) ممن انتهت إليه رئاسة علم المالكية عقب وفاة ابن رشد الجد [٥] ، فكان « عالم أهل الأندلس وسندهم » [٦] ، بل صار « إمام وقته » [٧] فكان أحد الذين بلغوا « رتبة الاجتهاد » [٨] . وابن رشد الحفيد (ت٥٩٥هـ/١١٩٨م) قيل عنه إنه كان في عصره « أوحد في علم الفقه والخلاف ... متميزاً في علم الطب » [٩] ، فكان « يفزع إلى فتواه في الطب ، كما يفزع إلى فتواه في الفقه » [١٠] كما حاز رئاسة الفلسفة في وقته [١١] « فكانت له فيها الإمامة دون أهل

---

(١) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ١ ، ص١٧٥ ، ٢٦٢ ، جـ٣ ، ص١٤٦٢ ، ١٤٧٥ .

(٢) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ٢ ، ص٨٠٢ ، ١٠١٥ ، ١٠٢١ ، ١٠٦٠ ، ١٢٢٣ ، ١٤٢٣ ؛ وانظر : إحسان عباس : نوازل ابن رشد ، مجلة الأبحاث ، الجامعة الإمريكية ببيروت ، ١٩٦٩م ، السنة ٢٢ ، جـ٣ و ٤ ، ص١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ .

(٣) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ١ ، ص٦٢٩ ، جـ٢ ، ص٧٤٠ ، وانظر : ص٦١ من مقدمة المحقق

(٤) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ٢ ، ص١٢٦٠ .

(٥) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١ ، ص١٧٠ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ١ ، ص١٨٥ .

(٦) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص١٤١ .

(٧) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧١م ، جـ٥ ، ص٣٠٢ .

(٨) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ٢ ، ص٢٠١ ؛ السيوطي : طبقات المفسرين ، ص٩١ ؛ الداودي : طبقات المفسرين ، ط . الأولى، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، جـ٢ ، ص١٦٩.

(٩) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، جـ٣ ، ص١٢٢ .

(١٠) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٥٥٤ .

(١١) ابن سعيد : المغرب ، جـ١ ، ص١٠٤ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ٢١ ، ص٣٠٧ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٣ ، ص١٨٥ .

عصره »[١] . وهذا أبو الربيع الكلاعي (ت٦٣٤هـ/١٢٥٩م) آلت إليه الإمامة في علم الحديث في زمنه ، فتصدر علماء عصره في هذا العلم وما يتصل به من فنون ، فكان حسب وصف أحد تلاميذه « إماماً في صناعة الحديث ، بصيراً به ، حافظاً حافلاً عارفاً بالجرح والتعديل ، ذاكراً للمواليد والوفيات ، يتقدم أهل زمانه في ذلك وفي حفظ أسماء الرجال خصوصاً من تأخر زمانه وعاصره »[٢] .

ولقد وصل فريق من العلماء المشاركين في مجابهة النصارى في زمن المرابطين والموحدين إلى خطط شريفة في الأندلس لا يصل إليها إلا من كان علمه يؤهله للقيام بشؤونها ، كخطة القضاء في الحواضر خاصة ، وخطة الصلاة والخطبة في جوامع تلك الحواضر ، فبالنسبة للقضاء فقد كان في الأندلس « عند الكافة من أسنى الخطط »[٣] ، ولا سبيل إلى تسمي أحد من العلماء الأندلسيين باسم قاضٍ إلا حين يتقلد القضاء في مدينة كبيرة[٤] ، وقبل ذلك – وهذا هو الأهم فيما نحن بصدده – أنه لا يستقضى إلا إذا توفرت فيه شروط على رأسها « علمه بالسنة والآثار ووجه الفقه »[٥] . أما خطة الصلاة والخطبة فكانت أحياناً تلحق بالقضاء ، فيكون القاضي هو صاحب الصلاة والخطبة في موضعه[٦] . وتارة تبقي تلك الخطة مفصولة عن القضاء فيتولاها – حينئذ – أحد العلماء

(١) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٥٥٤ .
(٢) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٧٠٨ .
(٣) النباهي : المرقبة العليا ، ص٢ .
(٤) المقري : نفح الطيب ، جـ١ ، ص٢١٨ .
(٥) النباهي : المرقبة العليا ، ص٢٠ .
(٦) انظر مثلاً : ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٥٨٦ .

المبرزين [١] . فمن الذين وصلوا إلى خطة القضاء في الحواضر الأندلسية من العلماء المجاهدين للنصارى في فترة الدراسة – غير من عرفنا بهم سلفاً ، وأومأنا إلى تقلدهم هذه الخطة فقط أو خطة الصلاة والخطابة أو كليهما معاً – نذكر أبا عبد الله بن حمدين☆ (ت٥٠٨هـ/ ١١١٤هـ) الذي ظل في منصب قاضي الجماعة في قرطبة – وهو من المناصب القضائية العليا في دولة المرابطين [٢] – حوالي ثماني عشرة سنة [٣] . وأبا عبدالله ابن الفراء☆☆ (ت٥١٤هـ/١١٢٠م) الذي ولي القضاء في مدينة

---

(١) يتضح ذلك لمن تأمل تقويم كتب الرجال الأندلسية للعلماء الذين شغلوا مثل هذه الخطة في عصر الدراسة . انظر (ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٥١ ، ٥٥ ، ٩٢ ، جـ٢ ، ص٥١٩ ، ٥٣٥ ، ٦٠٢ ؛ المعجم ، ص٢٩٥ ، ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص١٩٥ ، س٥ ، ق١ ، ص١٢ ، ق٢ ، ص٤٩٣ ؛ النباهي: المرقبة العليا ، ص١١٥) ومما يدل على أن إسناد تلك الخطة لا يكون إلا للمبرزين من العلماء كون أحد رجال العلم استصغر نفسه عن القيام بها في جامع غرناطة رغم أنه يعد من كبار العلماء (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٨٤) .

☆ وابن حمدين هو محمد بن علي بن عبد العزيز بن حمدين التغلبي ، ولد عام ٤٣٩هـ/١٠٤٧م ، وكان حافظاً ذكياً أديباً شاعراً لغوياً أصولياً . ولي قضاء الجماعة بقرطبة عام ٤٩٠هـ/١٠٩٧م حتى وفاته سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م . انظر أخباره في (ابن عطية : فهرس ابن عطية ، ص١١١ ؛ عياض : الغنية ، ص١١٦-١١٧؛ ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٥٧٠ ؛ الضبي : بغية الملتمس ، ص١١٣ ؛ ابن القطان : نظم الجمان ، ص٧٣-٧٤) ، أما عن مشاركته في الجهاد فانظر (ابن القطان : نظم الجمان ، ص٧٠) .

(٢) إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ، ط . الأولى ، دار السلمي ، الدار البيضاء ، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م ، جـ١ ، ص٢١٦ ؛ حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص٣٦٧ .

(٣) عياض : الغنية ، ص١١٦ ؛ ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٥٧٠ .

☆☆ وابن الفراء هو محمد بن يحيى بن عبد الله بن زكريا ، كان من أهل الفقه والفضل والزهد والورع (ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٥٧٢ ؛ الضبي : بغية الملتمس ، ص١٤٦) وقد خرج لمحاربة النصارى فقتل في عام ٥١٤هـ/١١٢٠م (ابن الأبار : المعجم ، ص٤) .

مدينة المَرِيَّة [١] ، وإبراهيم بن أحمد الأنصاري☆ (ت٦٢٧هـ/١٢٢٩م) الذي تنقل في ولاية القضاء بجهات شتى ، كانت جزيرة ميورقة آخرها [٢]. أما الذين خولهم علمهم للقيام بالصلاة والخطابة في حواضر الأندلس من العلماء المجاهدين فنشير إلى علي بن عبدالله الأنصاري الخزرجي☆☆ (ت٥٣٩هـ/ ١١٤٥م) الذي ولي الصلاة والخطبة بجامع غَرْناطة [٣] . ومحمد بن حسن الأنصاري☆☆☆ (ت٦٠٩هـ/١٢١٢م) الذي أسندت إليه الصلاة والخطبة في جامع مدينة مَالَقَة [٤]

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٥٧٢ ؛ الضبي : بغية الملتمس ، ص١٤٦ .

☆ والأنصاري هذا هو إبراهيم بن أحمد بن عبد الرحمن الأنصاري ، واشتهر بالغرناطي ، كان أديباً ، عارفاً بالفقه حافظاً له ، قتل عام ٦٢٧هـ/١٢٢٩م في جهاد النصارى (النباهي : المرقبة العليا ، ص١١٦-١١٧) .

(٢) النباهي : المرقبة العليا ، ص١١٦ .

☆☆ أبو الحسن علي بن عبد الله بن ثابت بن محمد بن عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي من ذرية عبادة بن الصامت ﷺ ، كانت له رحلة إلى الحج في سنة ٤٩٧هـ /١١٠٤م ، وكان من جلة المقرئين المجودين، ذا حظ وافر من رواية الحديث ، وكان أيضاً من الفقهاء ، توفي في ذي حجة عام ٥٣٩هـ/١١٤٥م (الضبي : بغية الملتمس ، ص٤٢٣-٤٢٤ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٦٦٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق١ ، ص٢٢٠-٢٢٥ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ص٨٦-٨٧ ؛ ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء ، نشر ج . برجستراسر ، ط . الثالثة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، جـ ، ص ٥٥٢ - ٥٥٣) . انظر مشاركته في جهاد النصارى في : ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق١ ، ص٢٢٢) .

(٣) ابن الأبار : المعجم ، ص٢٩٥ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق١ ، ص٢٢٢.

☆☆☆ أبو عبد الله محمد بن حسن بن محمد الأنصاري يعرف بابن صاحب الصلاة وأيضاً بابن الحاج ، له رحلة إلى المشرق ، وكان فقيهاً حافظاً ، محدثاً ضابطاً ، مقرئاً متفنناً ، وقد قتل في جهاد النصارى عام ٦٠٩هـ/١٢١٢م (ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٥٨٥ ، ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص١٦٦-١٦٨ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص١١٥) .

(٤) النباهي : المرقبة العليا ، ص١١٥ .

وعبد الملك بن إبراهيم العبدري☆ (ت٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م) الذي خطب بجامع بلده ميورقة نحو عشرين عاماً (١) .

ولقد كان عدد من العلماء الذين جاهدوا النصارى في عصر البحث - أينما حلوا - مثابة للمتعلمين ، ومقصداً للمتطلعين إلى التفقه في الدين ، أو الاستفادة من علم بعضهم المتسع إلى سائر فنون العلم والمعرفة الشائعة في ذلك الحين ، فترى طلاب العلم ينثالون عليهم - بكثرة - من كل مكان ، ويزدحمون على حلقات دروسهم ، ويواظبون على حضور محاضراتهم . من ذلك أن الإقبال على دروس أبي علي الصدفي (ت٥١٤هـ/١١٢٠م) كان كبيراً من جانب الطلاب - وهو لم يصل بعد إلى بلده الأندلس من رحلته المشرقية ، فعند حلوله في سبتة بالمغرب لازمه الناس في جامعها ليلاً ونهاراً لسماع أحد كتب الحديث التي كانت تقرأ عليه ، فكانوا - من حرصهم على ملازمته - يبيتون بمقصورة الجامع إلى أن كَمُلت قراءة ذلك الكتاب(٢). ولما وصل إلى مرسية في الأندلس اعتزت بوجوده فيها ، وصارت رتبتها عالية بين المدن ، فاحتشد أهلها للدراسة عليه ، وتنافس كبراؤهم في الأخذ عنه (٣) . وقد اغتنم أهل المرية إقامته عندهم سنة ٥٠٥هـ /١١١١م حين فر من قضاء مرسية " فسمعوا في تلك المدة عنه سماعاً كثيراً " (٤) ، ومن

☆ أبو مروان عبد الملك بن إبراهيم بن هارون العبدري ، كان مقرئاً مجوداً ، مشاركاً في العربية ، قتل في حرب مع النصارى سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٦٢٠ ، ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق١ ، ص١٢)

(١) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٦٢٠ .

(٢) ابن الأبار : المعجم ، ص ٥٣ - ٥٤ ، ١٠٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص٢٤٣-٢٤٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص٦٦ .

ناحيــة أخرى كان أبو علي محط أنظار طلبة العلم في الأندلس قاطبة ، ولذا " رحل الناس من البلدان إليه، وكثر سماعهم عليه "[١] ، " وكثر الأخذ عنه " [٢] حتى أن بعض شيوخه الذين كان قد تعلم على أيديهم قَبْلاً هبـوا يـأخذون ، ويكتبون رواياته ، فصار بذلك شيخاً لهـم [٣] . كمـا أن بعـض أبنـاء حكـام زمانه لازموه ، وسمعوا منه كثيراً [٤] . ولقد اسـتقطب – أيضـاً – ابـن رشـد الجد (ت٥٢٠هـ/١١٢٦هـ) جموع طلاب العلم وبخاصة في مجال الفقه الـذي كان مبرزاً فيه ، فتوافدوا عليه من كل ناحية لينهلوا من علمه [٥] ، وقد صور القاضي عياض [٦] (ت٥٤٤هـ/١١٤٩م) ما لقيه شيخه ابن رشد مـن قبـول لدى الأندلسيين بعبارة وجيزة فقال " وإليه كـانت الرحلـة للتفقـه مـن أقطـار الأندلس .... إلى أن توفي " . وكذلـك أبـو بكـر بـن العربـي (ت٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) لما انكفأ من رحلته المشرقية إلى بلده إشبيلية كانت " النفـوس إليـه متطلعة ، ولأنبائه متسمعة " [٧] ، فتقاطر الطلاب على دروسه من كل حدب وصوب ، حيث " رُحِلَ إليه للسماع " كما يقول أحد تلامذته [٨] ، فحفلـت حلقاته العلمية –سواء في إشبيلية أو في قرطبة عند إقامته فيها فترة من الزمن–

(١) ابن بشكوال : الصلة ، جـ١ ، ص١٤٥ .

(٢) عياض : الغنية ، ص١٩٤ .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص١ ، ٨٠ ، ٨١ .

(٤) ابن الأبار : المعجم ، ص٣١٢ .

(٥) ابن رشد : البيـان والتحصيـل ، جـ١ ، ص١٦ ؛ وانظـر : المختـار التليلي : ابـن رشـد ، ص٢٣١–٢٣٣ .

(٦) الغنية ، ص١٢٣ ؛ وانظر : ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ٢ ، ص٢٤٩ .

(٧) ابن خاقان : مطمح الأنفس ، ص٢٩٨ ؛ وانظر : قلائد العقيان ، ق٣ ، ص٦٩٣ .

(٨) عياض : الغنية ، ص١٣٥ .

بطلاب العلم الذين رحلوا إليه من أنحاء الأندلس والمغرب [١] ، فكانت بعض مجالسه لا تكاد تنقطع في الليل دع عنك النهار [٢] . والمتوقع أن أبا الربيع الكلاعي (ت٦٣٤هـ/١٢٣٧م) كان يلقي دروسه في جامع بلنسية [٣] فكانت الرحلة إليه في عصره [٤] ، حيث أن طلاب العلم – من أماكن مختلفة – [٥] كانوا يتنافسون في الأخذ عنه [٦] .

ولقد وفق نفر من العلماء الأندلسيين المجاهدين للنصارى إبان حكم المرابطين والموحدين – لكتابة مؤلفات – داخل إطار اهتماماتهم – تميزت بعمق الفكرة ، وقوة الحجة ، وسلامة الترتيب ، وجودة التصنيف ، وحسن العرض ، وتحقيق الغرض ، مما جعلها تروج بين الناس في زمانهم ، فتسمو – وقتئذٍ – رتبتهم ، وتعلو منزلتهم . ودونك بعض الأقوال المتفرقة لطائفة ممن ترجموا لهؤلاء العلماء – وكانوا قد عاشوا في عصرهم أو بعده بقليل – ، قوموا فيها – عن دراية ومعرفة – بعض تلك المؤلفات ، ومدى ذيوعها بين معاصريها . فقد قال أحد المعاصرين لابن رشد الجد (ت ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م) عن كتابه "البيان والتحصيل" إنه "تأليف لم يسبق أحد من

(١) ابن العربي : الناسخ والمنسوخ ، جـ١ ، ص٢٦ ، ١٣٥-١٩٠ من دراسة المحقق .

(٢) الضبي : بغية الملتمس ، ص٩٤ .

(٣) حسين مؤنس : شيوخ العصر ، ص١٠٨ .

(٤) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٧٠٩ .

(٥) يفهم هذا من استعراض أسماء مَنْ درسوا على يديه . انظر (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة، س٤ ، ص٨٤-٨٥ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٤ ، ص٢٩٦) وكذلك ممن ذُكروا أنهم التقوا به وهم ليسوا من أهل بلنسية (الرعيني : برنامج شيوخ الرعيني ، ص٦٧ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ٢٣ ، ص١٣٧) .

(٦) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص٨٥ .

العلماء إلى مثله "[١] . وقال آخر عن كتابه " المقدمات " بأنه " مقدمات في الفقه فسر فيها مذهب مالك – رحمه الله – بأبلغ حجة وأوضح معنى "[٢] . وعن كتاب " المحرر الوجيز ... " لابن عطية (ت٥٤١هـ/١١٤٧م) قال عنه معاصر لمؤلفه " لم يوضع مثله ألبتة "[٣] ، وقال معاصر – أيضاً – بعد أن وصفه بالضخامة إنه " أربى على كل متقدم "[٤] ، ووصفه ابن الأبار[٥] بأنه " جليل الفائدة ، كتبه الناس كثيراً " . وقال آخر " أحسن فيه وأبدع ، وطار بحسن نيته كل مطار "[٦] . وقيل عن كتاب أبي محمد الرشاطي☆ (ت٥٤٢هـ/١١٤٧م) الموسوم بـ " اقتباس الأنوار والتماس

---

(١) ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص٧٤ حيث نقل كلام ابن الصيرفي المتوفى سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م صاحب كتاب " الأنوار الجلية في محاسن الدولة المرابطية " .

(٢) ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص٧٤ .

(٣) ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٣٨٦ رقم ١ من هامش الأصل والقائل هو أبو العباس بن مطاوع .

(٤) الضبي : البغية ، ص٣٨٩ والقائل أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد شيخ الضبي .

(٥) المعجم ، ص٢٧٢ .

(٦) ابن فرحون : الديباج ، جـ٢ ، ص٨٥ ؛ الداودي : طبقات المفسرين ، جـ١ ، ص٢٦٦ .

☆ والرشاطي هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن علي بن خلف بن أحمد بن عمر اللخمي ، ولد بأوريولة في جمادى الآخرة عام ٤٦٦هـ/١٠٧٤م ، ثم نقل صغيراً إلى المرية فسكنها وعُد من أهلها ، له عناية كبيرة بالحديث والرجال والتواريخ ، وقد ترك عدداً من المؤلفات منها : اقتباس الأنوار ، والإعلام بما في كتاب المؤتلف والمختلف للدارقطني من الأوهام . وقد قتل في جهاد النصارى (ابن بشكوال : الصلة ، جـ١ ، ص٢٩٧ ، ياقوت : معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٤٥ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص٢٢٧-٢٣٣ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، تحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أعراب ، ط . وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ، ق٣ ، ١٠١ – ١٠٢ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ٢٠ ، ص٢٥٨-٢٦٠) ولمعرفة سبب تلقيبه بالرشاطي انظر (ابن عبدالملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٨ ، ق٢ ، ص٤٧٩ ، الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق علي شيري، ط . دار الفكر، بيروت ١٩٩٤م، جـ١٠، ص٢٦٣) .

الأزهـار في أسمـاء الصحابـة ورواة الأخبـار " [١] " لم يسـبق إلى مثلـه ، واستعملـه الناس " [٢] . وفي كتابات ابن العربي (ت٥٤٣هـ / ١١٤٨م) في مجال التفسير قال أحدهم لما عرض لترجمته "وفسر القرآن المجيد، فأتى بكل بديع" [٣]. وأما كتاب " بداية المجتهد ونهاية المقتصد " لابن رشد الحفيد (ت٥٩٥هـ/ ١١٩٨م) فقد قيل عنه " لا يُعلم في زمنه أنفع منه ، ولا أحسن مساقاً " [٤] .

وهكذا حسب العرض المنقضي – آنفاً – قدمنا لوحة متعددة الصور حكت المنزلة العلمية التي كان يتمتع بها جماعة العلماء الأندلسيين المشاركين في الصراع ضد النصارى إبان عصر سيطرة المرابطين والموحدين على الأندلس .

☆☆☆

(١) نَشَرَ إميليو مولينا وخاثينتو بوسك بيلا ما يخص الأندلس من هذا الكتاب ومعه أيضاً ما يخص الأندلس من مختصره لابن الخراط (ت٥٨١هـ/١١٨٦م) تحت عنوان " الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار"، ط.المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد التعاون مع العالم العربي، مدريد، ١٩٩٠م).

(٢) ابن الأبار : المعجم ، ص٢٢٢ . وانظر ما قاله – أيضاً – الضبي : بغية الملتمس ، ص٣٤٩ .

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ٢٠ ، ص١٩٩ .

(٤) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٥٥٤ . وانظر : ابن فرحون : الديباج ، جـ٢ ، ص٢٥٨ .

ثالثاً : المنزلة الاجتماعية للعلماء المشاركين في الصراع مع النصارى :

إن المجتمع الإسلامي - بمختلف فئاته - ينظر إلى العلماء نظرة نابعة - بالدرجة الأولى - مما أصَّله الإسلام في النفوس من مكانة ، وما صنعه لهم في القلوب من مهابة ، ثم تزدان تلك النظرة حين يخدم أولئك العلماء الأمة في مصالحها،ويشاركونها فيما يساورها من هموم، ويكونون لساناً ناطقاً بأسمها إذا ما ألمت بها الخطوب،ويهبون للدفاع عنها وعن دينها عند حلول الأخطار.

ومجتمع المسلمين في الأندلس إبان عصر المرابطين والموحدين - كغيره من المجتمعات الإسلامية - انطلق في تعامله مع علمائه المشاركين في الصراع مع النصارى وفق ما يكنه لهم من تقدير كبير مبني على منزلتهم المكفولة في الإسلام ، وأثرهم المتشعب في أكثر من ناحية في ذلك المجتمع . فإخوانهم من العلماء وطلبة العلم كانوا - كدأب علماء المسلمين في علاقتهم مع بعضهم بعضاً في كل عصر ومصر - يحملون لهم الاحترام والإجلال☆ ، ولعل ذلك يبرز في الجمل والعبارات المستخدمة في مخاطبتهم عبر رسائل إخوانية مسبوكة بأقلام أقرانهم [١] ، أو من خلال أبيات شعرية أنشأها شعراء معاصرون

☆ يقول أبو الربيع الكلاعي (ت ٦٣٤هـ/١٢٣٧م) " إن العلماء هم آباؤنا الأقدمون وهداتنا المتقدمون ، بأنوارهم نسري فنبصر ونستبصر ، وإلى غايتهم نجري ، فطوراً نصل وأطواراً نقصِّر ، فلهم دوننا قَصَبُ السَّبق ، ولهم علينا في كل الأحوال أعظم الحق ، إذا أصابوا اعتمدناه ، وإذا أخطأوا استفدنا ، وإذا أفادوا استمددنا ، فجزاهم الله عنا أفضل الجزاء ، ووفقنا لتوفية حقوق الأئمة والعلماء " (الإكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، ط . مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م ، جـ١ ، ص٢٦٩) .

(١) ابن أبي الخصال : رسائل ابن أبي الخصال ، ص٩٣ ، ١٨٣-١٨٦ .

لهم [١] ، أو حين ترد أسماؤهم – عرضاً – في مؤلفات أصحاب لهم [٢] .

وأمر آخر يختص بهم – دون سواهم – ، وهو أن بعض من قتل منهم في موقعة مع النصارى تعود إخوانه وتلاميذه على تلقيبه بالشهيد [٣] ، تفاؤلاً باستشهاده في سبيل الله ، وحضاً لغيره على اقتفاء فعله ، وتجسيداً لمنزلته السامية عندهم . على أن هؤلاء العلماء تظهر منزلتهم الاجتماعية في زمنهم بشكل ساطع عند فئتين من فئات المجتمع الأندلسي آنذاك ، إحداهما : الفئة الحاكمة من المرابطين ثم من الموحدين . والأخرى : عامة الناس .

وبالنسبة للمرابطين فقد كانوا – كما سبق – [٤] يحترمون العلماء ، ويعلون منزلتهم ، ويرفعون من قدرهم ، ويقبلون شفاعتهم ، ولا يقطعون برأي – في الغالب – إلا بعد استشارتهم [٥] . وإذا كان هذا حالهم من العلماء عامة فإن للمشاركين في الجهاد ضد النصارى منهم أكبر حظ ، وأوفر نصيب. فقاضي الجماعة أبو عبد الله بن حمدين (ت ٥٠٨هـ / ١١١٤م) كان مقرباً للمرابطين "حاز في المكانة لديهم ما لم يحزه غيره ممن سلف" [٦] ، حيث أعطاه يوسف بن تاشفين سلطات واسعة النطاق في بلده الأندلس ، منها قوله له في رسالة بعث بها إليه "وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلموا لك في كل حق تمضيه ، ولا يعترضوا عليك في قضاء تقضيه ... والعمالُ والرعيةُ كافةً سواء في الحق ، فإن شكتْ إليك بعامل ،

---

(١) الرعيني : برنامج شيوخ الرعيني ، ص٢١١ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ١ ، ص٤٥٩ .

(٢) ابن عبد الغفور الكلاعي : إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس ، تحقيق محمد رضوان الداية ، ط . الثانية ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص١٦٢ ، ١٨٨ .

(٣) عياض : الغنية ، ص١٩٣ ؛ الرعيني : برنامج شيوخ الرعيني ، ص١٤ ، ٦٦ .

(٤) انظر : التمهيد من هذا الكتاب .

(٥) ابن الأبار : المعجم ، ص٥٥ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٤ ، ص٣٤٩ .

(٦) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٧٤ .

وجنح عندك ظلمه لها – ولا يتجه في ذلك عمل غير عزله – فاعزله ، وإن شكا العامل من رعية خلافاً في الواجب فاشكه منها ، وقومها له ... »[١] .

وكان – أيضاً – أبو علي الصدفي (ت ٥١٤هـ / ١١٢٠م) رفيع الدرجة عند المرابطين ، فهم قد ألحوا عليه لتولي قضاء مرسية ، فتقلده كارهاً – كما عرضناه سلفاً☆ – . فلما فر منه وغاب عن الأنظار ، ورأوا أنهم كلفوه فوق احتماله تركوه لحاله ، فأصدر قاضي العاصمة المرابطية[٢] في عهد يوسف بن تاشفين أمره بإعفائه من القضاء[٣] ، فلم يؤثر موقفه هذا على منزلته لديهم ، وقدره عندهم ، إذ نرى علي بن يوسف ينوه بفضله في أكثر من مناسبة[٤] ، بل فكر أن يستأثر به في مراكش ، ولم يمنعه من ذلك إلا خشيته من مخالفة رغبة أبي علي ، وإشفاقه من حرمان تلاميذه والآفه منه ومن علمه،فضلاً عن اطمئنانه على سمو منزلته، وعلو مقامه بمرسيه في ظل ولاية أخيه أبي إسحاق[٥] إبراهيم بن يوسف☆☆ الذي كان أحد الدارسين

---

(١) ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق ٢ ، جـ ١ ، ص ٢٦١ – ٢٦٢ .

☆ وذلك من حديثنا عن مشاهير العلماء في أوائل هذا الفصل .

(٢) واسم هذا القاضي : أبو محمد عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن قاسم بن منصور اللخمي (عياض : الغنية ، ص ٢١٥ – ٢١٦ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص ٢١٤) .

(٣) ابن عياض : التعريف بالقاضي عياض ، ص ٧ – ٨ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص ٢١٤ .

(٤) ابن أبي الخصال : رسائل ابن أبي الخصال ، ص ٥٠١ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٥٠٢ – ٥٠٣ .

☆☆ وأبو إسحاق : إبراهيم بن يوسف بن تاشفين يعرف بابن تعيّشْت نسبة إلى أمه ، ولي لأخيه على مرسية سنة ٥٠٨هـ / ١١١٤م ، ثم انتقل إلى ولاية إشبيلية (ابن الأبار : المعجم ، ص ٥٤ – ٥٥) وذلك في عام ٥١١هـ / ١١١٧م . ثم عزل عنها عام ٥١٦هـ / ١١٢٢م (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ ٢ ، ص ٥٦٧ ؛ ابن عذارى : البيان ، جـ ٤ ، ص ١٠٦) وقد شارك فيما بعد في محاربة الموحدين (ابن عذارى : البيان ، جـ ٤ ، ص ٨٥) .

على يديه ، المستفيدين من علمه [١] . ومع ذلك كله بقى علي بن يوسف يُذَكِّر أخاه بالواجب عليه تجاه الشيخ « من المحافظة على فضله ، والتمسك بحبله ، والرغبة في قربه ، والاقتباس من علمه ... [٢] » - كيف وهو لإمارته المباركة جمال ، ولملكه العالي تمام وكمال ، وإنه لتمد نحوه الأعناق ، وتفتقر إليه العراق ، وتُضرب إلى علمه الأكباد ، وتشتاق لشخصه البلاد » [٣] . ولذا أصبحت لأبي علي مكانة مميزة عند أبي إسحاق بن يوسف ، فكان يمضي شفاعته الحسنة إذا شفع لمحتاج حتى بعد أن انتقل من حكم مرسية - موطن أبي علي - إلى حكم إشبيلية كشفاعته « في رد أملاك أبي محمد بن العربي☆ - المعتقلة إلى ابنه أبي بكر ... » [٤] والتي كانت - فيما يبدو- قد استصفيت عقب سقوط دولة بني عباد بأيدي المرابطين بصفته أحد وزراء تلك الدولة [٥] . وكذلك لقى ابن رشد الجد (ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦م) حظوة كبرى لدى المرابطين فقد ولي قضاء الجماعة بقرطبة ما يدنو من أربعة أعوام [٦] ، وصاحبُ هذا المنصب في الدولة المرابطية يتمتع بمقام علي ، وقدر

---

(١) ابن الأبار : المعجم ، ص ٥٥ .

(٢) ابن أبي الخصال : رسائل ابن أبي الخصال ، ص ٥٠٤ - ٥٠٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٠٥ .

☆ هو عبد الله بن محمد بن أحمد بن العربي المعافري ، من أهل إشبيلية ، ولد عام ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م . كان من أهل الآداب واللغة والكتابة والبلاغة . توفي بمصر في محرم عام ٤٩٣هـ / ١٠٩٩م (ابن بشكوال : الصلة ، جـ ١ ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ ؛ الضبي : بغية الملتمس ، ص ٣٣٧ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ١٩ ، ص ١٣٠ - ١٣١) .

(٤) ابن الأبار : المعجم ، ص ٥٥ .

(٥) سعيد أعراب : مع القاضي أبي بكر بن العربي ، ص ١٢ .

(٦) ابن رشد : البيان والتحصيل ، جـ ١ ، ص ٣٠ .

جلي [١] . وإذا كان ابن رشد أصلاً غير متهافت على ذلك المنصب ، غير راغب بالبقاء فيه لأنه يراه امتحاناً ، ويسأل الله تعالى الراحة من أعبائه ، فهو مدة عمله فيه « تحت إشفاق شديد ، وكرب عظيم » [٢] ، وكان يلح على حاكم المرابطين نفسه علي بن يوسف بن تاشفين أن يخلصه منه [٣] . فإذا كان ذلك كذلك فإن مكانته عند المرابطين لم يكن مبعثها ولايته منصب قاضي الجماعة بقرطبة فحسب ، ولكنها كانت فوق ذلك ، ولذا فإن إعفاءه من منصبه هذا – والذي تم بطلب لحوح منه – لم ينقص من تلك المكانة ، بل « زاد جلالة ومنزلة » [٤] فصات العيون تتجه إليه لما اشتهر من مكانته « عند ولاة الأمر...واحترامهم جانبه ، وإجلالهم إياه، وقبولهم شفاعاته، والوقوف عند آرائه وإشاراته » [٥].فكان علي بن يوسف بن تاشفين حاكم الدولة ينصت لأقواله ، ويتقبل آراءه ، ويأخذ باقتراحاته فيما يخص شؤون الدولة المرابطية عامة وشؤون الأندلس خاصة [٦] . ولقد كان أبو بكر ابن العربي (ت٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) من المتصلين بأولى الأمر من المرابطين ، الداخلين عليهم في مجالسهم [٧] ☆ ، فصارت له عندهم وجاهة ، فهو – مثلاً – عقب تبيانه الحق لأحد الأمراء أصبح مقدماً عنده حتى قال ابن العربي

---

(١) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٣٦٧ ؛ إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ، ص ٢١٦ ؛ المختار التليلي : ابن رشد ، ص ١٠٥ .

(٢) ابن رشد : البيان والتحصيل ، جـ ١ ، ص ٣٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٠ – ٣١ .

(٤) عياض : الغنية ، ص ١٢٣ .

(٥) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص ٣٠٨ .

(٦) مجهول : الحلل الموشية ، ص ٩٠ ، ٩٨ .

(٧) ابن الأبار : التكملة ، جـ ٢ ، ص٥٢٢ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ٢ ، ص ٦٦٦ .

☆ ولقد كان دخول ابن العربي على السلاطين بهذا الشكل مدعاة للطعن فيه (الذهبي: سير أعلام النبلاء=

« فوالله ما تَوقَفتْ لي عنده بعد ذلك حاجة »[1] ، كما كان مكين القدر لدى الأمير المرابطي سِيْر ابن أبي بكر☆ حاكم موطنه إشبيلية لدرجة أنه كان يجرؤ على تكليمه للتوسط لدى الآخرين من الناس من أجل تخليص حوائجه[2] .

☆ ☆ ☆

ولقد تمتع العلماء في ظل الدولة الموحدية بمنزلة كريمة[3] ، فكان الحكام الموحدون يؤثرونهم على غيرهم ، فيستقدمونهم إلى العاصمة مراكش[4] ، ويحرصون على مجالستهم والاستفادة منهم[5] ، ويعمدون إلى تقريبهم ومشاورتهم[6] . ولا جرم أن العلماء الأندلسيين المشاركين في

= جـ٢ ، ص (٢٠١ - ٢٠٢) وقد أقر ابن العربي بمداخلته لحكام زمانه ، ولكنه برر ذلك بالضرورة ، فهو صاحب ضياع مدفوع إلى معرفة الأمير ليمنع امتداد الأطماع إليها ، وسبب آخر ذكره وهو خوفه من حساده من أهل العلم أن ينسبوه عند الحكام إلى بدعة أو تخليط (ابن العربي : قانون التأويل ، ص ٣٦٣ ؛ وانظر ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ١٨٥ - ١٨٦) .

(١) ابن العربي : القبس ، جـ ٣ ، ص ١١٣٧ .

☆ سِيْرُ بن أبي بكر أحد قادة المرابطين الكبار الذين شاركوا في الزلاقة ، وحين قرر يوسف بن تاشفين القضاء على حكام الطوائف أوكل إليه أمور القيادة في الأندلس ، فتمكن سير من إسقاط مملكة بني عباد في إشبيلية (ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٥٥) وحينذاك ولي حكمها في رجب سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م ، فكان أول حكامها من المرابطين ، فاستمر فيها إلى وفاته في آخر سنة ٥٠٧هـ / ١١١٤م (ابن عذارى : البيان ، جـ ٤ ، ص ١٠٥ ، ٥٦) .

(٢) ابن العربي : أحكام القرآن ، ق ٤ ، ص ١٦٣٣ .

(٣) حسن علي حسن : الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس - عصر المرابطين والموحدين ، ط . مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٨٠م ، ص ٣٣٩ ؛ المنوني : حضارة الموحدين ، ص١٤ ، ١٦ .

(٤) المراكشي : المعجب ، ص ٢٦٩ ، ٣١١ ، ٣١٤ .

(٥) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ٥٠٥ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢١٦ .

الجهاد ضد النصارى سيحظون بمثل تلك المنزلة كغيرهم من العلماء ، فابن رشد الحفيد (ت ٥٩٥هـ / ١١٩٨م) " تأثلت له عند الملوك وجاهة عظيمة " [١] ، حيث أن حاكم الموحدين يوسف بن عبد المؤمن المولع بالفلسفة [٢] دعاه إلى تلخيص آثار أرسطو وتقريب أغراضها فامتثل [٣] ، فصار بذلك مقرباً لديه لدرجة أن هذا الحاكم ولى ابنه أبا يحيى☆ على حكم قرطبة بالذات نزولاً عن رغبة أبي الوليد بن رشد [٤] . ولما آل حكم الدولة الموحدية من بعده إلى ابنه الآخر يعقوب بن يوسف (المنصور) ظل ابن رشد على منزلته [٥] ، فكان " مكيناً عند المنصور ، وجيهاً في دولته " [٦] يرشح أصحابه لشغل الوظائف الحكومية، وينهض بهم[٧]، بل بلغ من تقدير المنصور له أن أجلسه في إحدى المناسبات عام ٥٩١هـ/١١٩٥م في موضع أعلى من مجلس أحد كبار الموحدين من أصحاب مؤسس الدولة عبد المؤمن بن علي [٨] . وفوق ذلك

---

(١) ابن الأبار : التكملة ، جـ ٢ ، ص ٥٥٤ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ ٢ ، ص ٢٥٨ .

(٢) المراكشي : المعجب ، ص ٣١٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣١٥ .

☆ أبو يحيى بن يوسف بن عبد المؤمن ، ولاه والده على قرطبة سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م (ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٥٦ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ ٦ ، ص ٣٢٤) ويبدو أنه بقي يحكمها في عهد أخيه المنصور ولكنه طمع في حكم الدولة الموحدية حين مُرض أخوه المنصور ، فلما أبلَّ هذا الأخير من مرضه بادر بقتله (المراكشي : المعجب ، ص ٣٥٧ – ٣٥٨) ويظهر أن ذلك كان في سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م (ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢١٣) .

(٤) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٥٦ .

(٥) من الملاحظ أن ابن رشد استمر في شرح مؤلفات أرسطو في عهد المنصور كما يتضح من تواريخ تلك الشروح . انظر (جمال الدين العلوي : المتن الرشدي ، ص ٢١ ، ٢٢ ، ٣٠) .

(٦) ابن أبي أصيبعه : عيون الأنباء ، جـ ٣ ، ص ١٢٣ .

(٧) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق٢ ، ص٦٧٦ .

(٨) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، جـ٣ ، ص١٢٣-١٢٤ .

قيل إن الكُلْفَةَ رفعت بينهما ، فكان ابن رشد إذا تكلم مع المنصور في شيء من العلم خاطبه - بعيداً عن الألقاب السلطانية - كما لو كان يخاطب أحد زملائه [١] . لكن تلك المنزلة التي سُعد بها ابن رشد في ظل المنصور لم تدم ، إذا افتقدها عام ٥٩٣هـ/١١٩٧م بعد اتهامه بانحرافات في عقيدته☆ والتي على ضوئها أصدر المنصور مرسومه في حق ابن رشد وشيعته☆☆ والذي جاء فيه ما نصه " ...اللهم إن دينك هو الحق اليقين ، وعبادك هم الموصوفون بالمتقين ، وهؤلاء قد صدفوا عن آياتك ، وعميت أبصارهم وبصائرهم عن

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، جـ٣ ، ص١٢٥ .

☆ الأمثلة التي صرحت بها المصادر التاريخية - المتوافرة لدينا - على انحراف ابن رشد تتمثل في : إنكاره وجود قوم عاد (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص ٢٩) وقوله حكاية عن بعض الفلاسفة إن الزهرة أحد الآلهة (المراكشي : المعجب ، ص ٨٥ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ٢١ ، ص ٣١٧) على أن شيخ الإسلام ابن تيمية رد في عدد من مولفاته على أقوال ابن رشد المبثوثة في كتبة وبخاصة ما جاء في : فصل المقال ، والكشف عن مناهج الأدلة ، وتهافت التهافت ، فكان من أبرز ما أخذه عليه ما يلي : ١ - نفيه لصفات الله عزو وجل . ٢ - عدم إثباته لله تعالى كلاماً . ٣ - إنه من الذين يقولون بأن الأنبياء أخبروا عن الأشياء الغيبية بأمور غير مطابقة للأمر نفسه. ٤ - تعصبه للفلاسفة عامة ولأرسطو خاصة . ٥ - ادعاؤه بأن أنبياء الله هم للطبقة الجماهرية من الناس أما الفلاسفة فهم للطبقة العالمة من الناس . (الطبلاوي محمود سعد : موقف ابن تيمية من فلسفة ابن رشد ، ط . الأولى ، مطبعة الاستقامة ، مصر ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م ، ص ٧٥ - ٧٩ ، ٨٥ - ٨٦ ، ١٠٢ ، ١١٢ - ١١٣ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢٢٠ - ٢٢١) انظر ما يقوله ابن رشد عن المعاد في : الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة ، ط . الثانية ، دار العلم للجميع ، ١٣٥٣هـ / ١٩٣٥م ص ١٥٤ - ١٥٥ ؛ تهافت التهافت ، تحقيق محمد العريبي ، ط . الأولى ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ١٩٩٣م ، ص ٣٢٦ - ٣٢٧) .

☆☆ كان نفر من معاصري ابن رشد قد تتبعوا كتاباته ، فألْفَوا فيها ما يقدح في عقيدته ، فرفعوها إلى المنصور في مراكش عام ٥٩٠هـ / ١١٩٤م ، ولكنه لم يلتفت إليها آنئذ ، فلما قدم إلى قرطبة سنة ٥٩٣هـ / ١١٩٧م رفعوها له كرة أخرى ، فعقد مجلساً في جامع قرطبة لمحاكمة ابن رشد ، فأصدر مرسومه المومأ إليه في المتن (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص ٢٥ - ٢٦) .

بيناتك ..." [١] ثم أشار إلى الحكم الذي صدر فيهم بقوله "ولم يكن بينهم إلا قليل وبين الإلحام بالسيف في مجال ألسنتهم ، والإيقاظ بحده من غفلتهم وسنتهم ، ولكنهم وقفوا بموقف الخزي والهون ... " [٢] فلم يُدرأ عنه حد القتل إلا بشبهة ما يظهر من إسلامه [٣] . ولقد خاض الرواة والمؤرخون في أسباب نكبة ابن رشد ومن ثم فقدانه لمكانته المرموقة في الدولة الموحدية ، فذكروا أن ما أعلن في المرسوم -المار ذكره - يخفي وراءه أسباباً أخرى كانت هي الدوافع الحقيقية للمنصور حينما أوقع بابن رشد ، كاختصاصه بأخي المنصور أبي يحيى[٤] الطامع في حكم الدولة[٥] ، وكذلك عدم استخدامه أسلوب المجاملة مع المنصور عند كلامه معه [٦] أو في بعض مؤلفاته [٧] .

ومهما يكن من أمر☆ فقد قيل إنه بعد شهادة عدد من أعيان إشبيلية

---

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص ٢٨ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) يقول ابن جبير (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) في ذلك :

وقد كان للسيف اشتياق إليهمُ ... ولكنْ مقامُ الخزي للنفس أقتلُ

وآثرتَ دَرْءَ الحد عنهم بشبهة ... لظاهر إسلام ، وحكمك أعدلُ

(ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص ٣١) .

(٤) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص ٢٦ .

(٥) المراكشي : المعجب ، ص ٣٥٧ .

(٦) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، جـ ٣ ، ص ١٢٥ .

(٧) المراكشي : المعجب ، ص ٣٨٤ ؛ ابن سعيد : المغرب ، جـ ٢ ، ص ١٠٥ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ٢١ ، ص ٣١٧ .

☆ ناقش عدد من الكتاب المحدثين أسباب نكبة ابن رشد ، انظر : رينان : ابن رشد والرشدية ، ص ٣٩-٤٤ ؛ العقاد : ابن رشد (ضمن المجموعة الكاملة ، ط . الأولى ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٨م ، جـ ٩) ص ٣٨٠ - ٣٨٥ ؛ التليلي : ابن رشد ، ص ١٠٩ - ١١١ ؛ العريني : الحياة العلمية في الأندلس ، ص ٦٦ - ٧٠ .

بخلاف ما نُسب إليه عفا عنه المنصور سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٩م [١] ودعاه إلى مراكش، فعادت منزلته إلى سابق حسنها ، ولكنه توفي بعيد ذلك بقليل [٢]. وكان أبو عمرو بن عات النفزي (ت ٦٠٩هـ / ١٢١٢م) عظيم المنزلة لدى حكام الموحدين . حيث " كان الأمراء من آل عبد المؤمن يخاطبونه ويعتمدون رأيه ومشورته في مصالح بلده شاطبة وأهلها ثقة بدينه ، وركوناً إلى نصيحته " [٣] . كذلك فإن أبا الربيع الكلاعي (ت ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م) كان كبير القدر عند حكام بلده بلنسية ، حيث " لم يزل في السيادة ، مشاهد الزيادة " [٤] فكان هؤلاء الحكام يجعلونه المتكلم عنهم في المجالس ، وإذا ما أرادوا تبيان أمر من الأمور للناس أوكلوا إليه ذلك [٥] . وابن الأبار (ت ٦٥٨هـ / ١٢٩٥م) بلغ من الحظوة والتقدير والثقة لدى حاكم بلنسية أبي جُميل زيان [٦] درجة أهلته ليكون رسوله المميز في سفاراته الدبلوماسية إلى قادة الدول [٧] ، وكاتبه المعتمد في تحرير اتفاقياته السياسية المعقودة بينه وبين غيره من الحكام [٨] .

☆ ☆ ☆

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، جـ ٣ ، ص ٢٢٤ .

(٢) المراكشي : المعجب ، ص ٣٨٥ ؛ ابن الأبار : التكملة ، جـ ٢ ، ص ٥٥٥ .

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٠ .

(٤) ابن الأبار : إعتاب الكتاب ، ص ٢٥١ .

(٥) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ ٢ ، ص ٧٠٨ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ٢٣ ، ص ١٣٦ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، جـ ١٥ ، ص ٤٣٣ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ١١٩ .

(٦) عبدالعزيز عبد المجيد: ابن الأبار حياته وكتبه،ط.المطبعة الحسنية،تطوان ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م، ص١٤٣.

(٧) الغبريني : عنوان الدراية ، ص ٣١١ .

(٨) ابن الأبار : الحلة ، جـ٢ ، ص١٢٧ .

أما منزلة العلماء المشاركين في الصراع ضد النصارى لدى عامة الناس فتتجسم في عدة ظواهر ، منها أن عدداً منهم كانت كلمتهم عند الناس مسموعة، وأوامرهم مطاعة ، فمثلاً حينما هَمَّ العامة في عصر المرابطين بانتزاع المباع من الأموال المغصوبة ، ورده إلى بيت مال المسلمين بالقوة بناءً على فتوى أحد العلماء تصدى لهم أبو عبد الله بن حمدين (ت٥٠٨هـ/١١١٤م) ومنعهم من تنفيذ ما هموا به، فانصاعوا لأمره، ووقفوا عند قوله [(١)] . وكذلك لما اشتعلت الفتنة بين أهل قرطبة والمرابطين عام ٥١٤هـ/١١٢٠م واقتحم العامة قصر الوالي☆تصدر ابن رشد (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م) العمل على إيقاف هؤلاء العامة ، وردع المعتدي منهم [(٢)] .

ومما يجسد منزلتهم الاجتماعية لدى العامة أن منهم من منحه الناس الثقة ، فكانوا يقصدونه – بلا تردد أو وجل – إذا حزبهم أمر ، أو انتابتهم ضائقة ، أو عضتهم مظلمة . فابن رشد الجد (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م) " كان الناس يلجأون إليه ويعولون في مهماتهم عليه " [(٣)] ، من ذلك قيام أحد

(١) البرزلي : جامع مسائل الأحكام لمانزل بالقضايا من المفتين والحكام ، ميكروفيلم جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية ، رقم ١٠٧٩٠ ، جـ٤ ، ورقة ٢ب .

☆ اختلف في سبب هذه الفتنة فقيل إن أحد عبيد أبي بكر بن رواد عامل قرطبة المرابطي أمسك بامرأة قرطبية فاستغاثت بالناس فأغاثوها ، فجرت الفتنة (ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص٥٥٨) وقيل إن وقوع تدافع بين الحشم والناس في احتفال عسكري أفضى إلى اشتباك بين الطرفين (عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق١ ، ص٨٢ (نقلاً عن ابن عذاري : أوراق مخطوطة من البيان المغرب عثر عليها عنان) .

(٢) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق١ ، ص٨٢ (نقلاً عن ابن عذاري : أوراق مخطوطة من البيان المغرب) .

(٣) ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٥٧٧ .

الأندلسيين بالتوجه إليه لرفع ظلم أحد الولاة ، ومبادرة ابن رشد بمساعدته إلى أن تم له ما أراد [١] . وكذلك فإن أبا الربيع الكلاعي (ت٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م) كان " نفاعاً بجاهه وماله وعلمه " [٢] ، وهذا يوحي أن الناس كانوا يعمدون إليه في كثير من الأحايين لإصلاح أحوالهم ، وجلب منافعهم .

ومما يعكس مكانة العلماء المجاهدين للنصارى لدى العامة في زمن الدراسة تسارع جمهور الناس للالتفاف حول هذا العالم أو ذاك إذا ما استنفرهم لتأدية واجب ، أو استصرخهم لجهاد عدو ، وقد حصل مثل هذا لأبي علي الصدفي (ت٥١٤هـ/١١٢٠م) الذي كان له أثره البالغ في حشد المجاهدين في إحدى غزوات المرابطين في شرقي الأندلس [٣] ومثله التفاف الناس حول أبي الربيع الكلاعي في شرقي - أيضاً - أيام ضعف الدولة الموحدية [٤] وخروجهم معه بكثرة لجهاد النصارى الذين كانوا قد استأسدوا على المسلمين في تلك المنطقة [٥] .

ولعل حزن العامة على بعض العلماء المشاركين في الصراع ضد النصارى عند موتهم ، وكثرة المشيعين لهم ، وازدحامهم على جنائزهم من أسطع الدلائل على منزلتهم لدى أولئك العامة . فأبو عبد الله بن حمدين حين توفي عام ٥٠٨هـ/١١١٤م " حزن الناس عليه، وكان محبباً لديهم... " [٦]

---

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٣٠٨ .

(٢) المصدر السابق ، س٤ ، ص٨٨ .

(٣) حسين مؤنس : شيوخ العصر ، ص٩٤ .

(٤) محمد بن شريفة : أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي ، ص٦٩ .

(٥) حسين مؤنس : شيوخ العصر ، ص١٠٧ ، ١٠٩ .

(٦) ابن القطان : نظم الجمان ، ص٧٤ .

وابن رشد الجد لما توفى عام ٥٢٠هـ/١١٢٦م " شهده جمع عظيم من الناس، وكان الثناء عليهم حسناً جميلاً "[١] ، وقال أحد تلاميذه عنه يوم دفنه " وكان مشهده حفيلاً ، والتفجع عليه جليلاً ، لم يَر أحد من أهل زماننا مشهداً أكثر تولهاً وتفجعاً منه "[٢] . وكذلك أبو عبد الله بن قاسم الأنصاري☆ حينما توفي عام ٦٤٠هـ/١٢٤٣م " حضر جنازته الخاصة والعامة، وازدحموا على نعشه حتى كسروه ... "[٣] .

☆ ☆ ☆

وصفوة القول أن العلماء الأندلسيين المشاركين في الصراع مع النصارى أيام المرابطين والموحدين بلغوا منزلة رفيعة في مجتمعهم ، وقد لمسنا ذلك واضحاً من خلال طيب معاملة الحكام والأمراء والولاة لهم . وكذلك من خلال التفاف عامة الناس حولهم ، وانقيادهم لأوامرهم ، والنزول على أحكامهم وآرائهم .

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٥٧٧ .

(٢) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ٣ ، ص١٥٢٥ .

☆ هو محمد بن عبد الله بن محمد بن خلف بن قاسم الأنصاري ، من أهل بلنسية ، ولد في رمضان عام ٥٥٤هـ/١١٥٩م ، كان عارفاً بالتفسير ، ذا حظ في النظم والنثر ، وله من المؤلفات : بغية النفوس الزكية في الخطب الوعظية " و " نسيم الصبا " ، توفي في رجب عام ٦٤٠هـ/١٢٤٣م ؛ انظر أخباره في (ابن الأبار : التكملة، جـ٢ ، ص٦٥١-٦٥٢؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦، ص٣٠٤-٣٠٥) . أما جهوده في جهاد النصارى : فانظر المصدرين السابقين أيضاً .

(٣) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٦٥٢ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٣٠٥ .

رابعاً : أثرهم العلمي في المجتمع :

تفاوت العلماء المسهمون في الجهاد ضد النصارى إبان عصر المرابطين والموحدين كغيرهم من العلماء - تفاوتوا فيما بينهم في أثرهم العلمي في المجتمع ، وذلك تبعاً لتباين مستوياتهم العلمية ، ودرجة مخالطتهم للناس ، وحرصهم على نشر العلم بينهم ، وملامسة كتاباتهم وأحاديثهم لحاجيات المجتمع واهتماماته . ولقد تنوعت القنوات التي عن طريقها أثر هؤلاء العلماء في مجتمعهم . فكان أهمها ما يلي :

أولاً : الخطابة ، حيث تولى مجموعة منهم الخطبة في جوامع بلدانهم - كما سبق الإشارة إلى أمثله على ذلك - وقد استطالت مدة ولاية بعضهم للخطبة في بلده [(١)]، فوصلت -في بعض الحالات- نحواً من عشرين سنة [(٢)] . ولا ريب أن الخطباء سيتطرقون في خطبهم تلك - كما هو معلوم - إلى ما يهم الناس في أمور دينهم ودنياهم [(٣)] .

ثانياً : التدريس ، فقلما نجد واحداً من العلماء المشاركين في الجهاد لم

---

(١) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٥٨٦ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٣٤٥ ، س٦ ، ص١٦٨ .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ١ ، ص٦٢٠ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق١ ، ص١٢ .

(٣) انظر أمثلة لخُطَبِ ذلك العصر في : ابن عبد الغفور الكلاعي : إحكام صنعة الكلام ، ص١٧٦-١٧٨ ، ٢٣٧-٢٣٩ ؛ ابن عياض : التعريف بالقاضي عياض ، ص ٨٤-٨٧ ؛ ابن المرابط : زواهر الفِكر وجواهر الفِقَر ، تحقيق حسن إفليفل ، رسالة دكتوراه ، كلية الفلسفة والآداب ، جامعة غرناطة ، إسبانيا ، ١٩٩٢م ، ق٢ ، ص٢٧٧-٢٨٩ ، ٣٠٧ - ٣٨٩ .

يزاول هذه الوظيفة ، سواء في المساجد أو غيرها [١] . ولعل الحلقات العلمية الخاصة أو العامة التي عرفتها مساجد الأندلس [٢] هي أكثر مجالات التدريس أثراً في المجتمع .

ثالثاً : التأليف ، فكثير من أولئك العلماء خاض في ميدان التأليف - كما مر ذكر شيء منه في التعريف ببعضهم - ، فمنهم المستقل ، ومنهم المستكثر حتى أن أحدهم أملى في التفسير فقط ثمانين ألف ورقة [٣]☆ وقد غطت تلك المصنفات مستويات أكبر قطاع ممكن من المجتمع، إذ قسم منها صُنف للمتخصصين [٤]، وقسم ثان ألف لشرح مسائل غمض فهمها على الدارسين[٥] وقسم ثالث جُمِعَ ليكون في متناول عامة الناس [٦] .

ولقد أبدى معظم العلماء المشاركين في الجهاد نشاطاً منقطع القرين في نشر العلم بين مواطنيهم الأندلسيين [٧] ، فنرى بعضهم يسعى للتخلص

(١) انظر على سبيل المثال : ابن الأبار : المعجم ، ص٨٧ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٢١ ؛ ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٣٩٨ ، س٥ ، ق٢ ، ص٦٦٦ .

(٢) العربي : الحياة العلمية في الأندلس ، ص١٠٦ ، ١٠٨ .

(٣) ابن العربي : القبس ، جـ٣ ، ص١٠٤٧-١٠٤٨ .

☆ أملى أبو بكر بن العربي في سورة واحدة من قصار المفصَّل مائة وثمانين مجلساً (أحكام القرآن ، ق٤ ، ص١٩٧٤) .

(٤) ابن عطية : المحرر الوجيز ، جـ١ ، ص٣ .

(٥) ابن رشد : البيان والتحصيل ، جـ١ ، ص٢٧ ، ٢٩ م ٣١ ؛ ابن العربي : عارضة الأحوذي ، جـ١ ، ص٣ .

(٦) الكلاعي : الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، جـ١ ، ص٣ ، ٢ .

(٧) انظر مثلاً : ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٧٤٨ ، والتكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٥٥٥ ، ٦٣٩ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٣٨٩ ، س٤ ، ص٨٥ ، ٢٢٢ ، س٦ ، ص١٦٨ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ٢٠ ، ص٢٠٠ ؛ النباهي: المرقبة العليا، ص١١٧.

من الأعمال الرسمية ويتفرغ لهذا الغرض النبيل (١) ، بل ثمة علماء منهم جردوا أنفسهم للعلم وإشاعته بين الناس ، فأحمد بن محمد الخشني☆ (ت٦١١هـ/ ١٢١٤م) على سبيل التمثيل - كان من أحرص الناس على طلب العلم وتعلمه وبثه ونشره - (٢) . ولقد حُكِيَ من حرص أبي علي الصدفي على إيصال العلم إلى تلاميذه أنه أيام اختفائه عن القضاء في مرسية – علم بمقدم تلميذه عياض (ت٥٤٤هـ/ ١١٤٩م) فعزم على إشعاره بموضع من الأندلس لايؤبه لكونه فيه ، فيخرج إليه هناك ، ويعطيه ما يطلبه من علم (٣) . كما ذُكر أن أبا بكر ابن العربي (ت٥٤٣هـ/١١٤٨م) حين أقام في قرطبة فترة من الزمن – أذن لتلاميذه أن يبيتوا معه في بيته (٤) ، وما ذاك إلا لحرصه على استغلال كل ما يملك من وقت لإفادتهم ؛ بل من شدة اعتنائهم بنشر العلم بين الناس أن بعضهم كان يغتنم خروجه إلى الجهاد في سبيل الله ، فيدرس في المناطق التي يمر عليها في طريقه (٥) .

وعلماء بمثل هذه الهمة المتقدة في خدمة العلم ونشره سيكون –قطعاً–

---

(١) ابن رشد : البيان والتحصيل ، جـ١ ، ص٣٠ ، ٣١ ؛ عياض : الغنية ، ص١٩٤ .

☆ هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن إبراهيم الخشني ، من أهل قرطبة ، ويعرف أيضاً بالآجري نسبة إلى حصن قريب منها ، له رحلة إلى الحج ، وقد برع في الحديث ، وتوفي في صفر عام ٦١١هـ/ ١٢١٤هـ انظر أخباره في (ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص١٠٣-١٠٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٣٩٧-٣٩٨) أما مشاركته في الجهاد فانظر (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٣٩٨ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٣٩٨ .

(٣) ابن عياض : التعريف بالقاضي عياض ، ص٨ .

(٤) الضبي : بغية الملتمس ، ص٩٤ .

(٥) ابن الأبار : التكملة، جـ١، ص٣٤٤، ٣٥٠، ٤٣٣، جـ٢، ص٤٧١، ٤٧٢، ٩٣٣. المعجم، ص٣٧، ٦٧، ٩٦، ١٢١، ٢٠٦، ٢٩٨؛ ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة ، س٥ ، ق٢ ، ص٥٧٧ .

أثرهم العلمي في المجتمع عريضاً ومتجذراً . على أن المصادر - في الواقع - لاتصرح بشكل مباشر عن ذلك الأثر اللهم إلا بمثل قولها عن أحمد بن محمد الأنصاري☆ (ت٦١٤هـ/١٢١٧م) " نفع الله بتعليمه خلقاً كثيراً "(١) ، أو قولها عن انتفاع المجتمع بكتاب " اقتباس الأنوار ... " الذي صنفه أبو محمد الرشاطي (ت٥٤٢هـ/١١٤٧م) " واستعمله الناس ... "(٢) ، ولكن بإرجاع البصر في المصادر كرة أخرى ، وإجالة الفكر فيما كتب عنهم بخاصة ، وما دُوِّن عن الحياة العلمية في العصرين المرابطي والموحدي بعامة يتجلى أثرهم العلمي في مجتمعهم من خلال عدة جوانب ، من أبرزها :

١ - تذكر المصادر عن جمع من رجال العلم المشاركين في الصراع ضد النصارى تصدرهم في بلدانهم لتدريس مواد علمية معينة ، فعلي بن عبد الله الأنصاري (ت ٥٣٩هـ / ١١٤٥م) من أهل غرناطة " تصدر ... لإقراء القرآن في بلده "(٣) . وعلي بن أحمد العبدري☆☆ (ت ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م) تصدر في ميورقة " لإقراء القرآن "(٤) . وأحمد بن محمد الخشني (ت٦١١هـ/

☆ وهو أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن عبيد الله بن عبد الرحمن بن موسى الأنصاري ، كان خيراً فاضلاً ، وقد قتل في حرب مع النصارى سنة ٦١٤هـ /١٢١٧م (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٣٧١) .

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٣٧١ .

(٢) ابن الأبار : المعجم ، ص٢٢٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٩٥ .

☆☆ هو أبو الحسن علي بن أحمد العبدري ، ويعرف بالمطرقة ، من أهل ميورقة ، له رحلة إلى الحج ، وقد توفي - وهو مأسور عند النصارى - بعيد صفر من سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م (ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق١ ، ص ١٨٣) .

(٤) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق ١ ، ص ١٨٣ .

١٢١٤م) كان في قرطبة " يُقرئ القرآن ، ويُسمع الحديث "[١] . ومحمد بن عبد النور السبائي☆ (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) من أهل إشبيلية " تصدر ببلده لإقراء القرآن وإسماع الحديث "[٢] . وعبد الملك بن إبراهيم العبدري (ت ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م) تصدر في ميورقة " لإقراء القرآن وتدريس النحو"[٣]. وأحمد بن محمد الطرسوني☆☆ (ت ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م) كان يدرس في مرسية " الفقه والعربية والأدب "[٤] . ومن المعلوم أن القرآن والحديث والفقه والعربية والنحو والأدب - المنصوص عليها في النقول الفائتة - تعد من المعارف الإساسية في العملية التعليمية الأندلسية[٥] والتي قلما يستغنى عن

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق ١ ، ص ٣٩٨ .

☆ هو : أبو بكر محمد بن عبد النور بن أحمد السبائي الإشبيلي ، ولد في رجب عام ٥٥٣هـ / ١١٥٩م، وكان من المعتنين بالقرآن وعلومه والحديث ، وقد توفي في قتال النصارى في ربيع عام ٦١٤هـ / ١٢١٧م انظر أخباره في (ابن الأبار : التكملة ، حـ ٢ ، ص ٥٩٦ ؛ الرعيني : برنامج شيوخ الرعيني، ص ١٤ - ١٦ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص ٤١١ - ٤١٣ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق بشار عواد معروف وزميله ، ط . الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، الطبقة الثالثة والستون ، ص ٢٠٦) .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، حـ ٢ ، ص ٥٩٦.

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق ١ ، ص ١٢ .

☆☆ أبو القاسم أحمد بن محمد بن إسماعيل الطرسوني ، من أهل مرسية ، ولد عام ٥٥٠هـ /١١٥٥م ، له بجانب اهتمامه بالفقه والعربية والأدب مشاركة في الطب والنثر والنظم ، وقتل في إحدى المعارك مع النصارى في رجب سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م (ابن الأبار : التكملة ، حـ١ ، ص١١٣ ؛ السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط . المكتبة العصرية ، بيروت ، حـ١ ، ص٣٦٣) وقد وردت ترجمته باختصار في (الرعيني : برنامج شيوخ الرعيني ، ص١٦٣ ؛ وابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٣٦٤ ، ٣٩١-٣٩٢ ، ٤٠٠) .

(٤) السيوطي : بغية الوعاة ، حـ١ ، ص ٣٦٣ .

(٥) إبراهيم العكش : التربية والتعليم في الأندلس، ط . الأولى ، دار الفيحاء - دار عمار ، عمان ، الأردن ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص١٩٠-١٩١ ، ٢٢٢ .

تعلمها المسلم دع عنك من يرنو ببصره لأن يصبح مستقبلاً في زمرة العلماء أو حتى المتعلمين . وحيث أن هؤلاء العلماء قد آلت لهم الصدارة في إقراء تلك المواد العلمية في مدن مختلفة من الأندلس والذي يعنى من زاوية أخرى تبريزهم في تدريسها ، فمن المنتظر أن يُقبل عليهم الناس - صغيرهم وكبيرهم - ليسمعوا منهم ، ويقرأوا عليهم ، وينهلوا من علمهم ، يشهد بذلك ابن الأبار [١] في قوله عن عبد الملك بن إبراهيم العبدري المار ذكره قبل قليل "أخذ عنه عامة أهل بلده" . وبهذا يتبين جانب من جوانب الأثر العلمي لأولئك العلماء وسط المجتمعات التي كانوا يعيشون فيها .

٢ - نسب إلى عدد من العلماء المشاركين في الجهاد كثرة كاثرة من التلاميذ سواء من أخذ عنهم مباشرة أو بطريق غير مباشر* ، فعلى سبيل المثال استطاع ابن الأبار [٢] تسجيل أخبار خمسة عشر وثلاثمائة ممن سمعوا من أبي علي الصدفي (ت٥١٤هـ/١١٢٠م) أو رووا عنه ، وهم - حسب تعبيره - "بين صاحب في الأخذ عنه راغب ، وتلميذ على السماع منه راتب" [٣] وقد كانوا من شمالي الأندلس [٤] وشرقيها [٥]

---

(١) التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٦٢٠ .

* قدر عياض وجوه الأخذ عن الشيوخ والرواية عنهم بثمانية ضروب ، هي : السماع من لفظ الشيخ ،القراءة عليه ، المناولة ، الكتابة ، الإجازة ، إعلام الطالب بأن هذه الكتب روايته ، وصيته بكتبه له ، الوقوف على خط الراوي فقط (الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع ، تحقيق السيد أحمد صقر ، ط . الثانية ، دار التراث ، القاهرة ، ١٣٩٨هـ /١٩٧٨م ، ص٦٨) .

(٢) المعجم ، ص ط ، ٣٣٤ .

(٣) ابن الأبار : المعجم ، ص١ .

(٤) المصدر السابق ، ص١٢١ ، ١٢٥ ، ١٤٤ ، ٢١٤ ، ٣٢٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص٣ ، ٦ ، ٩ ، ٣٧ ، ٥٨ ، ٧٠ ، ٩٩ ، ١١٨ .

ووسطها[١] وغربيها[٢] وجنوبيها[٣] . كذلك تمكن عبد الكبير المدغري[٤] من تقييد أسماء أربعة وخمسين ومائتين كلهم سمع من أبي بكر بن العربي (ت٥٤٣هـ/١١٤٨م) أو روى عنه ، وقد كانوا أيضاً من أماكن متفرقة من البلاد [٥] . ومن المتفق عليه أن هؤلاء التلاميذ المتوزعين على المدن الأندلسية صاروا في عداد علماء الأندلس أو على أقل تقدير من كبار طلبة العلم فيها ، ولولا أنهم كانوا كذلك لما عنيت كتب التاريخ والتراجم والفهارس وغيرها بهم، فدونت أسماءهم وحفظت أخبارهم، وبعض العلماء - موضوع الدراسة- شاهد مقنع على ذلك، فأبو محمد بن عطية (ت ٥٤١هـ/١١٤٧م) تلميذ لأبي عبد الله بن حمدين (ت٥٠٨هـ/ ١١١٤)[٦]، وكذلك لأبي علي الصدفي (٥١٤هـ/١١٢٠م) [٧] . وأبو الربيع الكلاعي (ت٦٣٤هـ/١٢٣٧م) تلميذ لأبي الوليد بن رشد الحفيد [٨] (٥٩٥هـ/ ١١٩٨م) . وابن الأبار (ت٦٥٨هـ/١٢٥٩م) تلميذ لأبي الربيع الكلاعي [٩] المتقدم ذكره ، وقد لازمه أزيد من عشرين عاماً [١٠] .

---

(١) ابن الأبار : المعجم ، ص٢٥ ، ١٩١ ، ١٦٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص١٤ ، ٦٩ ، ١٥٦ ، ١٦٥ ، ١٨٨ ، ٢٦٢ ، ٣١٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص٢٩ ، ٣٣ ، ٤٠ ، ١٥٤ .

(٤) ابن العربي : الناسخ والمنسوخ ، جـ١ (الدراسة) ، ص١٩٠ .

(٥) انظر مثلاً : ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٧٤ ، ١٠٦ ، ٤٢٧ ، جـ٢ ، ص٤٦٨ ، ٨٢٠ .

(٦) ابن عطية : فهرس ابن عطية ، ص١١١ .

(٧) المصدر السابق ، ص٩٩ .

(٨) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٥٥٤ ؛ التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٧٠٨ .

(٩) ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٦ ، ٧ ؛ التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٧٠٩ .

(١٠) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٢٥٣ ؛ الغبريني : عنوان الدراية ، ص٣١٠.

٣ - ولا مشاحة أن ما يُقرأ على العلماء أو يُروى عنهم من مصنفات له أثره العلمي والثقافي في المجتمع،ويزداد هذا الأثر تبعاً لنوعية تلك المصنفات وكثرتها ورواجها بين المتعلمين ، فعلى سبيل المثال أُحْصِيَ ما قُرِىءَ على ابن أبي علي الصدفي (ت٥١٤هـ/١١٢٠م) أو سُمع منه في حلقات دروسه بحوالي ستين مصنفاً [١] ، وكان فيها ما يعد معتمداً في مجاله ، أو فريداً في بابه، أو متميزاً في موضوعه،وقد شملت تلك المصنفات علوم القرآن[٢] ، والحديث وعلومه [٣] ، وأصول الفقه [٤]، والسيرة [٥] ، والتاريخ والتراجم [٦]، والأدب[٧] والأخلاق [٨] . ومثله أبو بكر ابن العربي (ت٥٤٣هـ/١١٤٨م) الذي دُرِست عليه في مجالسه العلمية مصنفات كثيرة في فنون مختلفة ، فكان شطر منها من تأليفه [٩] حتى أنه أملى بعضها بالفعل في تلك المجالس[١٠] .

---

(١) ابن الأبار : المعجم ، نشر فرانسيسكو كوديرا ، ط . مدريد ١٨٨٥م ، صVII ، VIII .

(٢) انظر مثلاً : عياض : الغنية ، ص١٩٦ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص٣٥ ، ٨٢ ، ٢٥٠ .

(٣) انظر أمثلة في : ابن عطية : فهرس ابن عطية ، ص١٠٠، ١٠١ ؛ عياض : الغنية ، ص١٩٥ ، ١٩٦، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص٦ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ٦٢ ، ٧٠ ، ١٠٦ ، ١٤٥ ، ١٦٤ ، ٢٤٤ ، ٢٥٠ ، ٢٨٦ .

(٤) عياض : الغنية ، ص١٩٧ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص٣٠٧ .

(٥) عياض : الغنية ، ص١٩٦ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص٨ ، ٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٦٨ .

(٦) عياض : الغنية ، ص١٩٩ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص٩٣ ، ١٠٦ ، ١٣١ .

(٧) عياض : الغنية ، ص١٩٩ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص٢٧٧ .

(٨) عياض : الغنية ، ص١٩٦ ، ١٩٧ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص٨ ، ٢٢ ، ٦٢ ، ١١٢ ، ٢٥٠ .

(٩) عياض : الغنية ، ص١٣٦ ؛ ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٥٩١ ؛ ابن خير : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص١٦٦ ، ١٧٥ .

(١٠) ابن العربي : قانون التأويل ، ص٣٦١ ؛ القبس ، جـ٣ ، ص١٠٤٧ - ١٠٤٨ ؛ الضبي : بغية الملتمس ، ص٩٣ ، ١٣٢ .

أما الشطر الآخر فقد كان من تأليف غيره[١]، ولعل معظمها مما أدخله هو بنفسه إلى الأندلس[٢]، حيث "أدخل ... إسناداً عالياً ، وعلماً جماً"[٣] ، بل إن منها ما انفرد به ابن العربي[٤] ، فلم يدخله إلى هذه البلاد "أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق"[٥] . ولقد اشتهر عن أبي عمر بن عات النفزي (ت٦٠٩هـ/ ١٢١٢م) تركيزه على تدريس مصنفات فرع معين من الدراسات القرآنية وهو القراءات[٦] . كما سعى أبو الربيع الكلاعي (ت٦٣٤هـ/١٢٣٧م) إلى تزجية مصنفاته بين طلبة العلم ، فأحد تلامذته يقول عنه "وكان يكاتبني ويبعث إلي بتواليفة"[٧] ، بل بلغ من حرص أبي الربيع على توفير مؤلفاته لطلبته أن أرسل غيرما مرة إلى ذلك التلميذ نسخاً أصلية منها[٨] .

٤ - وثمة علماء مشاركون في الجهاد ضد النصارى لهم جهودهم في إثراء علوم تخصصوا فيها ، وبذلوا صفوة أعمارهم في سبيلها ، فكانت لبعضهم آراء واجتهادات فرضت نفسها بين معاصريهم من العلماء والمتعلمين، وأمست مشهورة من بعدهم ، يُركن إليها ، ويأخذ بها ، فأبو الوليد بن

---

(١) عياض : الغنية ، ص١٣٥ ، ١٣٦ ؛ ابن خير: فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص٤٧ ، ١١٧ ، ١٦١، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٨٦ ، ٣٦٥ ، ٣٧٠ ، ٤١٠ ، ٤٥٥ .

(٢) ابن العربي : سراج المريدين ، ورقة ٢٣٨ب - ٢٣٩أ .

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ٢٠ ، ص٢٠٠ .

(٤) ابن العربي : عارضة الأحوذي ، جـ٣ ، ص٢٦٤ ، جـ٩ ، ص١٤٩ .

(٥) ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٥٩١ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ٢ ، ص٢٥٤ ؛ وانظر : المقري : أزهار الرياض ، جـ٣ ، ص٦٢-٦٣ .

(٦) الرعيني : برنامج شيوخ الرعيني ، ص١٥ ، ١٦ .

(٧) المصدر السابق ، ص٦٧ .

(٨) المصدر السابق ، ص٦٧ ، ٦٨ .

رشد الجد (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م) - مثلاً - "قرب ... مذهب الإمام مالك تقريباً لم يسبق إليه "[١] ، فلقد اطلع على كل ما كتب قبله في المذهب من متون وشروح واختصارات وغيرها ، ونقده نقد الفقيه المجتهد في نطاق المذهب المالكي ، وحرره بأسلوب واضح يدركه "المبتدي والشادي" [٢] ، فكان ذلك مدعاة لإقبال الفقهاء والتلاميذ في عصره على كتاباته ، واستمر هذا الإقبال عليها في العصور التالية[٣]، حتى لم يعد للكتب الفقهية المالكية قبله من العناية في فهارس فقهاء الغرب الإسلامي فيما بعد القرن السادس الهجري الذي عاش في أوائله ابن رشد - مثلما كان لها من العناية في الفهارس السابقة [٤] .

كما أن لبعضهم أثر في دفع حركة معارف لم تكن قبلهم تحظى باهتمام واسع من قبل طلاب العلم في الأندلس ، كما هو شأن ابن رشد الحفيد (ت٥٩٥هـ/١١٩٨م) - مثلاً - في الفلسفة ، إذ صرف همته إليها بتشجيع من الحاكم الموحدي يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨هـ/١١٦٣م - ٥٨٠هـ/١١٨٤م) [٥] فاعتنى بكتب أرسطو المنطقية والفلسفية [٦] ، فتناول ما استطاعه منها [٧] فلخصها

(١) التبكتي : نيل الابتهاج بتطريز الديباج، نشر عبد الحميد الهرامة، ط . الأولى ، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس ، ليبيا ، ١٩٨٩م ، ص٤٧٥ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٥ ، ص٣٤٦ .

(٢) ابن رشد : البيان والتحصيل ، جـ١ ، ص١٠ من مقدمة المحقق .

(٣) التليلي : ابن رشد ، ص٤٢٠ .

(٤) ابن رشد : البيان والتحصيل ، جـ١ ، ص٥ من مقدمة المحقق .

(٥) المراكشي : المعجب ، ص٣١٥ .

(٦) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٢٩ .

(٧) دي بور : تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ، ط . الخامسة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص٣٨٥ .

وشـرح أغراضها [١] ، فكانت شروحه لها من أوفى الشـروح [٢] . وبجـانب ذلك كانت له شروح ومؤلفات فلسفية أخرى [٣] لا يقل عددها عما تناولـه من كتب أرسطو [٤] . ويبدو أن ابن رشد نال شهرة بـين معاصريـه – حتـى خارج الأندلس – بصفته متخصصاً بالفلسفة [٥] . وقد وصلت مؤلفاته فيهـا إلى أيدي الناس [٦] ، وسار في ركابه عـدد مـن التلاميـذ [٧]☆ . ومـن ناحيـة أخرى كان لابن رشد الحفيد - أيضاً – تأثير ملموس في تطور علم الطب في الجانب النظري ، ذاك أنه بتلخيصاتـه النقديـة لمؤلفـات الإغريـق الطبيـة مَهَّدَ السبيل لفهم ما ورد فيها من نظريات ، ثم ألقي نظرة فاحصة على أقـاويلهم «في كثير من المسـائل الطبيـة ، وأبـدى فيهـا رأيـاً مخالفـاً ، أو رسـم لبعضهـا منهجاً جديداً ... » [٨] .

☆ ☆ ☆

(١) المراكشي : المعجب ، ص٣١٦ .

(٢) ماجد فخري : ابن رشد فيلسوف قرطبة ، ص٣ .

(٣) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص٣٥٧ .

(٤) جمال الدين العلوي : المتن الرشدي ، ص١٣٨ ، ١٦٧ .

(٥) رينان : ابن رشد والرشدية ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

Cristobal Cuevas : el pensamieta del Islam, Madrid , ١٩٧٢ , P . ٢٣٠ .

(٦) يفهم هذا من قول المراكشي " وقد رأيت أنا لأبي الوليد هذا تلخيص كتب الحكيم ... " (المعجب ، ص ٣١٥ – ٣١٦) .

(٧) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٣٦٣ .

☆ ولقد لوحق تلامذة ابن رشد حين وقعت نكبته ، فتفرقوا أيدى سبأ (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص ٢٦ ، س ٥ ، ق ٢ ، ص ٦٧٦) .

(٨) محمد العربي الخطابي : الطب والأطباء في الأندلس ، جـ ١ ، ص ٣٢٩ .

وهكذا عبر الصفحات الماضية عشنا مع العلماء المشاركين في الصراع مع النصارى زمن المرابطين والموحدين ؛ فتعرفنا - عن قرب - على الحياة الشخصية لطائفة منهم ، ثم تطرقنا لمكانتهم العلمية في عصرهم ، وبعدها دلفنا إلى مكانتهم التي تمتعوا بها بين معاصريهم . وأخيراً عرضنا لأثرهم العلمي في المجتمع الذي تربوا في أحضانه ، وتعاملوا فيه مع أفراده .

الفصل الثاني

أثر العلماء السياسي في مواجهة النصارى

استشعر نخبة من علماء الأندلس في عصري المرابطين والموحدين مسؤوليتهم حيال المد النصراني المتدافع نحو الديار الأندلسية ، والذي بات خطره يهدد نواحي كثيرة منها صباح مساء ؛ فعلاوة على جهودهم في تدريس علوم أعتاد طلاب المسلمين أن يتلقوها من العلماء في كل زمان ، وكذلك انشغالهم في قضايا المجتمع العادية - فقد سخروا قسطاً كبيراً من اهتمامهم لمواجهة الخطر النصراني ، وذلك بالتفكير في أنجع السبل لكبح جماحه ، والتخطيط المتوالي لمقاومته ، والعمل الدؤوب من أجل الوقوف في وجهه . وقد أخذ هذا الاهتمام من بعضهم كل مأخذ ، فطغى على أحاديثهم وكتاباتهم وتحركاتهم. ويمكن إجمال الأثر السياسي لهؤلاء العلماء في مواجهة النصارى إبان ذلك العصر في نقاط ثلاث هي :

أولاً : أثرهم في الدعوة لمواجهة العدوان النصراني على الأندلس .

ثانياً : أثرهم في الحفاظ على وحدة الأندلس أمام الخطر النصراني .

ثالثاً : أثرهم في الاستنجاد بالدولة الحفصية لإيقاف الزحف النصراني في الأندلس .

أثر العلماء في الدعوة لمواجهة العدوان النصراني على الأندلس :

من المعلوم أن الأندلس "ثغر من ثغور المسلمين"(١) . فالمسلمون فيها كانوا في احتكاك دائم مع النصارى (٢) ، يشتد في فترات ، ويخف في أخرى. وقد غدا الطَوْلُ والحول في عصر الطوائف للنصارى ، فاستأسدوا على المسلمين "وكَلِبَ داؤهم في كل إقليم" (٣) ، "وصار لهم أقصى بلاد المسلمين مرتعاً" (٤) ، وأمسى لاهَمَّ لهم "إلا استرجاع البلاد والأقطار ... وافتتاح القلاع ، والاستيلاء على الثغور ، تارة في سبيل المشارطة والاستجارة ، وتارة في سبيل المسالمة والمتاركة ، وتارة بالغلاب والمنازلة"(٥). ومع أن المرابطين لما جاءوا إلى الأندلس تصدوا للإعتداءات النصرانية عليها إلا أن النصارى تربصوا بالأندلسيين الدوائر في عصر دولة المرابطين ، فاحتلوا بقاعاً متفرقة من البلاد . وكذلك الشأن في عصر الموحدين، إذ وقف هؤلاء الأخيرون -بقدر وسعهم- أمام العدوان النصراني على الأندلس ، ولكنَّ النصارى من جانبهم – أيضاً – استغلوا الفرص في ذلك العصر لاقتطاع الأراضي الإسلامية ، وحالما أخذت دولة الموحدين في الاضمحلال انطلق

---

(١) الحميدي : جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري ، ط . الثانية ، دار الكتب الإسلامية ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ق١ ، ص٣٦ .

(٢) ابن هذيل : تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس ، مخطوط م . نهيل (الدار البيضاء) نشر بالتصوير الفوتوغرافي لويس مرسي ، باريس ، ١٩٣٢ ، ورقة ١٠ .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ، ق٢ ، م١ ، ص٢٤٨ .

(٤) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص٨٩ .

(٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٢٤١ .

النصارى في عدوانهم النّهم على المدن الأندلسية ، فأسقطوا العديد منها (١) .

ومما لا شك فيه أن تلك الانتهاكات العدوانية للأراضي الإسلامية من طرف النصارى ، وما نجم عنها من تهاوٍ لكثير من الحصون والقرى والمدن في أيديهم قد شهد أحداثها علماء الأندلس كغيرهم من الأندلسيين ، وعايشوا مآسيها ، وتجرعوا آلامها . ولذلك هبوا - مدفوعين - بما أحدثته تلك المشاهد في نفوسهم من أحاسيس ، وبما وهبهم الله من وعي لتدابير الأعداء ، وسبر لمكائدهم ؛ وكذلك بما يدركونه من واجب عليهم تجاه دينهم وأمتهم - هبوا يستنفرون الناس ، ويستنهضون الهمم ويلهبون المشاعر ، ويستثيرون الحماس ، ويذكون جذوة الإيمان في القلوب لمجاهدة ذلك العدو، والتصدي لأعماله العدوانية ، وغاراته التخريبية، ومخططاته التوسعية . وحين أومأ المقرى (٢) إلى احتلال النصارى أراضي المسلمين في الأندلس أردف قائلاً " ولم يزل العلماء والكُتّاب والوزراء يحركون حميات ذوي البصائر والأبصار ، ويستنهضون عزماتهم من كل الأمصار " . وبالعودة إلى المصادر ذات الصلة بعصر الدراسة سواء ما كان منها آثاراً خاصة بعلماء الأندلس في ذلك العصر، أو ما كان معنياً بسيرهم ككتب التراجم والتاريخ والأدب وغيرها - بالعودة إليها ، وتعقب ما يمكن اعتباره دعوة من جانب أولئك العلماء لمواجهة النصارى في عصر المرابطين والموحدين نخرج بجملة متنوعة من الأساليب والمناشط ، منها إصدار فتاوى تكشف للأندلسيين ومَنْ جاورهم وجوب جهاد العدو النصراني ، وأنه آكد عليهم من الحج إلى

---

(١) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق١ ، ص٢٧-٢٨ ؛ نهاية الأندلس ، ص٧٥ .

(٢) أزهار الرياض ، جـ١ ، ص٦٣ .

بيت الله الحرام . فابن حمدين (ت٥٠٨هـ/١١١٤م) " أفتى ... في رجل قادر على الحج بجسمه وماله ، وإنه إن كان من الأندلس أو قطر مجاور لها – وهو قادر على الجهاد – أنه آكد عليه من الحج .... "[1] ، وقد أفتى ابن رشد الجد (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م) أن الجهاد لأهل الأندلس في زمنه أفضل من حج الفريضة الذي لا يتوفر فيه – آنذاك – شرط الوجوب حسب رأيه ، لأن الوصول إلى مكة بأمان – كما يرى – غير حاصل في ذلك الزمان [2] . ثم إنه لما فاضل بين جهاد الأندلسيين للعدو وبين حج النفل من جهة وحج الفريضة من جهة أخرى – إن كانت السبيل مأمونة – أفتى أن الجهاد لحاج النفل " أفضل لما ورد فيه من الفضل العظيم "[3] أما حاج الفريضة من الأندلسيين فإنه إن سقط فرض الجهاد على الأعيان بقيام مَنْ قام به " فيتخرج ذلك على الاختلاف في الحج هل هو على الفور أو على التراخي "[4] أما في المكان الذي يتعين فيه الجهاد " على الأعيان فهو أفضل من حج الفريضة .... "[5] ☆ .

وغير خافٍ أثر فتاوى العلماء في المجتمع الإسلامي لاسيما إذا صدرت من كبار علماء العصر، إذ يتلقفها الصغير والكبير ، ويأخذ بها العالم والجاهل ويتبلغها القاصي والداني . ففتاوى ابن حمدين وابن رشد في الجهاد

---

(١) الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، ط.دار الغرب الإسلامي،بيروت،١٤٠١هـ/١٩٨١م، جـ ، ص٤٣٣

(٢) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ٢ ، ص١٠٢٣ .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٥) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

☆ انظر نص الفتوى في ملاحق هذا الكتاب .

- وهما من كبار علماء الأندلس كما سلف معرفته - ينتظر أن يتسامع الناس بها ، فتشيع بين جمهورهم ، وتحرك سواكن قلوبهم لمواجهة النصارى. وحيث أن فتاوى ابن رشد في الجهاد الآنفة الذكر صدرت منه رداً على سؤال من حاكم المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين [١] (٥٠٠هـ/١١٠٦م-٥٣٧هـ/١١٤٢م) فمن المتوقع أن تتبنى الدولة المرابطة تلك الفتاوى ، فيكون انتشارها في البلاد أكبر ، ووقعها في النفوس أعظم .

ومما يندرج في مناشط العلماء للوقوف في وجه النصارى في تلك الفترة تخصيص دروس في المساجد للتحريض على جهادهم ، فهذا ابن رشد الحفيد (ت٥٩٥هـ/١١٩٨م) يحكي عنه أحد تلامذته فيقول « سمعت كلامه بالمسجد الجامع من قرطبة ، وهو يحض الناس على الجهاد والغزو في سبيل الله ويورد ما جاء في فضله في كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ بلسان طلق ، وإيراد مستحسن » [٢] . كما أن بعض علماء العصر طعموا الخطب التي تعودوا أن يُسمعوها الناس في الأعياد وغيرها - طعموها بالآثار الحاضة على مجالدة العدو [٣] ، إضافة إلى أن بعض أئمة المساجد - لا سيما في العصر الموحدي - كانوا يستغلون احتشاد جماهير المصلين عندهم في المواسم، فيحرصون على شحن النفوس بقضية الصراع ضد النصارى بمثل قول أحدهم في الدعاء « اللهم إنك تعلم انقطاعنا بين عِدانا ، وغُربتنا في أرض قد رَاع الشرك فيها حِمَانًا... فتداركنا بنصر يعز دينك الحنيفي ويعليه، وخذ بثأرنا من عدويريد أن يطفيء نورك من أقطارنا ويخفيه ، ولا تسلط على أهل

---

(١) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ٢ ، ص١٠٢٢ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٢٤ .

(٣) ابن أبي الخصال : رسائل ابن أبي الخصال ، ص٥٧٨-٥٧٩ .

التوحيد أهل التثليث ... »[١] «... ولا تُخْلِ من ملتنا الشريفة مصلى ولا مسجداً ، ولا تُضيِّعْ منا ركعاً لك في هذه البيوت المرفعة وسجداً... »[٢] إلى أن يقول «اللهم حسن في هذه البلاد أحوالنا ، وأحرس ربوعنا وحِلالنا ، ولا تسلط علينا عدواً يستبيح ذِمَارنا ، ولاتُورِّث الكفر بعد الإيمان أرضنا وديارنا...»[٣]. وثمة علماء من ذلك العصر عمدوا إلى إفراد بعض الخطب التي لا غرض لها سوى التحريض على مقاومة الأعداء والحث على مجاهدتهم، كما فعل أبو عبد الله بن أبي الخصال☆ (ت ٥٤٠هـ/١١٤٦م) الذي خصص خطبة لمثل هذا الغرض ، ومما جاء فيها «ألا تستوحشون لتباريح العصر ، وركود ريح النصر ، وتداعي أمم الكفر ، وإجفالنا عن مقاومتهم ... ألا نُقلع عن الذنوب التي فَتّت في أعضادِنا وقضت باهتضامِنا

(١) ابن المرابط : زواهر الفكر وجواهر الفقر ، ق٢ ، ص٢٨٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص٢٨٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص٢٨٨ .

☆ وابن أبي الخصال هو محمد بن مسعود بن [طيب] بن فرج بن خلصة بن أبي الخصال الغافقي ، ولد في قرية فر غليط من شقورة عام ٤٦٥هـ/١٠٧٣م . وسكن قرطبة ، وكان متفنناً في كثير من العلوم ، لكنه نبغ في اللغة والآداب والكتابة والخطابة والشعر ، فكان من أعلام عصره في البلاغة ، وقد خدم المرابطين ، فصار من كبار كتابهم ، ولقب بذي الوزارتين ، قتل في ذي الحجة عام ٥٤٠هـ/١١٤٦م في فتنة قرطبة عند انقراض دولة المرابطين . وقد خلف عدداً من المصنفات والرسائل ، منها رسائله المطبوعة . انظر عن حياته وآثاره (ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق٢ ، ص ٥١٨-٥٣٧ ؛ ابن بسام : الذخيرة ، ق٣ ، م٢ ، ص٧٨٦-٨٠٩ ؛ ابن خير : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص٣٨٦ ، ٤١٨ - ٤٢١ ؛ ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٥٨٨-٥٨٩ ؛ العماد الأصفهاني : خريدة القصر ، ق٤ ، جـ٢ ، ص٤٥٩ ؛ الضبي : بغية الملتمس ، ص١٣١ ؛ ابن دحية : المطرب ، ص١٨٧-١٨٩ ؛ المراكشي : المعجب ، ص٢٣٧-٢٤١ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٢ ، ص٣٨٨-٤١٨ ؛ مجهول : الدرر النثيرة في أخبار الجزيرة ، مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس ، رقم ١٨٦٢١ ، ورقة ٢٥٥ب-٢٥٨ ب) .

واضطهادنا ..." إلى أن يقول "فاستقيلوا -رحمكم الله- عِثارَكم، واستقبلوا عدوكم، وخذوا ثاركم ..."[(١)].

ومما يحسب في عداد مجهودات علماء الأندلس لمواجهة العدوان النصراني، وتقوية العزائم لدفعه - تصنيف كتب تتعلق بالجهاد في الإسلام، وما يرتبط به من أحكام، ككتاب "الترغيب في الجهاد" لأبي عبد الله التجيبي☆[(٢)] (ت ٦١٠هـ/١٢١٣م) وقد أتى وصفه بأنه مجلد متوسط[(٣)]، يحوي خمسين باباً[(٤)]. وكتاب "الإنجاد في الجهاد"☆☆ لأبي عبد الله بن أصبغ المعروف بابن المناصف[(٥)] ☆☆☆ (ت ٦٢٠هـ / ١٢٢٣) الذي ندبه

---

(١) ابن أبي الخصال : رسائل ابن أبي الخصال ، ص٥٢٨ .

☆ وأبو عبد الله هذا هو محمد بن عبد الرحمن بن علي التجيبي ، من أهل لقنت في كورة مرسية ، ولد حوالي عام ٥٤٠هـ /١٠٤٨م برع في الحديث . وكان قد رحل إلى المشرق ، وعندما قفل من رحلته تلك سكن تلمسان بالمغرب، وبها توفي في جمادى الأولى سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م، له مجموعة من المؤلفات غير كتابه في الجهاد منها : كتاب الفوائد ، كتاب مناقب السبطين (السهيلي : حذوة المقتبس ، مخطوط المكتبة الظاهرية بدمشق رقم ٦٤٩/تاريخ ، ورقة ٢٦ ب ابن الأبار : التكملة ، حـ٢ ، ص٥٨٨-٥٩١ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة، س٦، ص٣٥٢-٣٥٧؛ المقري: نفح الطيب ، حـ٢، ص١٦٠-١٦١؛ محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، ط . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ص١٧٢-١٧٣) .

(٢) السهيلي : حذوة المقتبس ورقة ٢٦ب ؛ ابن الأبار : التكملة ، حـ٢ ، ص٥٨٩ .

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٣٥٧ .

(٤) ابن الأبار : التكملة ، حـ٢ ـ ص٥٨٩ .

☆☆ ورسم أيضاً عنوان هذا الكتاب بـ " الإنجاد في أحكام الجهاد " (الرعيني : برنامج شيوخ الرعيني ، ص١٢٩) وكذلك بـ " الإنجاد في أبواب الجهاد " (الصديق بن العربي ، فهرس مخطوطات ابن يوسف بمراكش ، ط . الأولى ، دار الغرب ، بيروت ، ١٩٩١م ، ص١٩٥) كما سمي أيضاً بـ " الاتحاد في أبواب الجهاد " (التنبكتي : نيل الابتهاج ، ص٣٧٩) .

(٥) ابن الأبار : التكملة ، حـ٢ ، ص ٦١١.

☆☆☆ وابن المناصف هو محمد بن عيسى بن أصبغ الأزدي ، كان والده قد خرج من قرطبة أثناء إنحلال دولة المرابطين ، فاستوطن إفريقية ، فولد بها ابنه محمد هذا في رجب سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٨م (ابن الأبار : التكملة ، جـ ٢ ، ص ٦١١) كان فقيهاً جانحاً إلى الاجتهاد يميل إلى المذهب الشافعي (ابن -

إلى تأليفه - حينما كان قاضياً في بلنسية - أحد ولاة الموحدين [(١)] فجاء كتابه هذا " في أبواب الجهاد، وتفصيل فرائضه وسننه، وذكر جمل من آدبه ولواحق أحكامه " [(٢)] ، فكان كتاباً مفيداً[☆] ، " استوعب فقه الجهاد " [(٣)] . وكذلك كتاب " بغية المرتاد في التعريف بسنة الجهاد " لأبي القاسم بن الطيلسان[☆☆] [(٤)] (ت ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م) . ويبدو أن هذه المصنفات قد كتب لها الذيوع بين الناس في ذلك الحين ، إذ أن مصنفيها كانوا من العلماء

= عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٨ ، ق ١ ، ص ٣٤٦) وكان قد انتقل إلى تلمسان ، ثم ولى القضاء في بلنسية ، وبعدها في مرسية ، ثم ألزم سكنى قرطبة ، واستقر أخيراً في مراكش ، وبها توفي في ربيع الأول عام ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م) ، وله عدة مؤلفات منها - بجانب كتاب الإنجاد - كتاب تنبيه الحكام على مآخذ الأحكام ، وهو مطبوع (ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص ٦١١ - ٦١٢ ؛ ابن سعيد : المغرب ، جـ ١ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة س ٨ ، ق ١ ، ص ٣٤٥ - ٣٥٠ ؛ التنبكتي : نيل الابتهاج ، ص ٣٧٩ ؛ محمد مخلوف : شجرة النور، ص ٣٧٩) .

(١) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة ، س ٨ ، ق ١ ، ص ٣٤٨ . وانظر : محمد إبراهيم الكتاني: أبو عبد الله ابن المناصف المجتهد المغربي، مجلة الباحث، السنة الأولى، م٢ ، ١٩٧٢م، ص٣٢.

(٢) الكتاني : أبو عبد الله ابن المناصف ، ص ٣٢ .

☆ للتعرف باختصار على كتاب الإنجاد ، انظر : الكتاني : المرجع السابق ، ص ٣٥- ٣٦ .

(٣) التنبكتي : نيل الابتهاج ، ص٣٧٩ .

☆☆ أبو القاسم بن الطيلسان هو القاسم بن محمد بن أحمد الأنصاري الأوسي ، من أهل قرطبة ، ولد عام ٥٧٥هـ / ١١٧٩م كان مبرزاً في الحديث بجانب عنايته بعلوم أخرى . وحين سقطت قرطبة بأيدي النصارى هاجر إلى مالقة ، وبها توفي في ربيع الآخر سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤ م . وقد خلّف عدداً من المؤلفات ، نذكر منها غير كتابه في الجهاد كتاب ما ورد من تغليظ الأمر على شربة الخمر ، وكتاب المنن على قاري الكتاب والسنن (السهيلي : حذوة المقتبس ، ورقة ٢٧ ؛ الرعيني : برنامج شيوخ الرعيني ص ٢٧ - ٣٠ ؛ ابن الأبار : التكملة : ط . كوديرا ، جـ ٢ ، ص ٧٠٣ - ٧٠٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ٢ ، ص ٥٥٧ ، ٥٦٦ ؛ التنبكتي : نيل الابتهاج ، ص ٣٦١) .

(٤) التجيبي : برنامج التجيبي ، ص ٢٣٦ .

الذين يتقاطر طلاب العلم الأندلسيون على دروسهم [(١)] ، بل إن صاحب كتاب « الإنجاد » قد سعى إلى نشر كتابه بين أهل العلم عن طريق الإهداء[(٢)]، بينما كان كتاب « بغية المرتاد » يقرأه طلاب العلم ويتداولونه بعد سنين طويلة من وفاة مؤلفة [(٣)] . وكل هذا يوحي برواج مثل هذه الكتب بين الأندلسيين .

ومما لا شك فيه أن من الأهداف الرئيسة لهؤلاء العلماء - لما صنفوا كتبهم الآنفة الذكر - تحريض الناس على الجهاد في سبيل الله ، وتذكيرهم بواجب النهوض به ومخاطر القعود عنه ، وما أعده الله سبحانه للقائمين به من جزيل الثواب ، وعظيم التكريم . وهذه الأغراض السامية هي التي ينشدها عادة علماء المسلمين في التأليف عن الجهاد ، وبخاصة في العصور التي يتكالب فيها الأعداء على المسلمين [(٤)] .

وبالإضافة إلى هذه المؤلفات الخاصة بالجهاد وفضله فإن بعض علماء الأندلس الذين ألفوا في تفسير القرآن أو شروح السنة النبوية قد توقفوا عند بعض الآيات أو الأحاديث الخاصة بالجهاد، فعنوا ببيانها، ووسعوا مدلولاتها[(٥)]

---

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ٢ ، ص ٥٦٥ ، س٦ ، ص٣٥٦ ؛ س ٨ ، ق١ ، ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٢) الرعيني : برنامج شيوخ الرعيني ، ص ١٢٩ .

(٣) التجيبي : برنامج التجيبي ، ص ٢٣٦ . الوادي آشي : ثبت أبي جعفر أحمد بن علي البلوى الوادي آشي ، تحقيق : عبد الله العمراني ، ط . الأولى ، دار الغرب ، بيروت ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص ٢٥٠ .

(٤) محمد خير هيكل : الجهاد والقتال في السياسة الشرعية ، ط . الأولى ، دار البيارق ، بيروت ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م ، جـ ٢ ، ص ٨٤٢ - ٨٤٣ .

(٥) انظر مثلاً : ابن برجان : تفسير ابن برجان (قطعة منه) مخطوط مكتبة عنيزة الوطنية بالجامع الكبير كتاب رقم ٩٧، ورقة ١ ، ٢ ، ٤٥ب ؛ ابن عطية : المحرر الوجيز ، جـ ٢ ، ص ١٥٩، ٢٤٦- =

وأحياناً مثلوا لتوضيحها بواقعهم الذي شاهدوه [١] ، أو بما جرى لهم شخصياً في ميدان القتال مع النصارى [٢] . ولعلنا لا نكون في الخيال مغرقين إذا قلنا أن ما حبره هؤلاء في كتبهم لابد أنه كان صدى لما يتفوهون به في دروسهم ومحاضراتهم ومجالسهم من أقوال حول الجهاد والتي سيكون لها كبير الأثر في مَنْ يُصغى إليها .

وشيء آخر يمكن أن يُلحق بهذا الاتجاه ، وهو ما سلكه أبو الحجاج البلوى[☆] (ت ٦٠٤هـ / ١٢٠٨م) في كتابه الموسوم بـ « ألف باء »[☆☆] الذي يُعد معلمة « جامعة لفنون الثقافة العامة » [٣] ، فهو في كتابه هذا[☆☆☆] – فوق

= ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، جـ ٤ ، ص ١٧١ – ١٧٢ ، ١٧٦ ، ١٩٣ ، ٢٢٢ ، جـ ٨ ، ص ٧ – ٨ ، ١٠٣ ، ٢٨٢ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ؛ ابن العربي : أحكام القرآن ، ق ١ ، ص ١٠٢ – ١٠٦ ، ١١٠ ، ١٤٦ ، ٤٥٨ ، ق ٣ ، ص ١١٧١ – ١١٧٢ ؛ عارضة الأحوذي ، جـ ٨ ، ص ١٦٥ – ١٦٨ ؛ القبس ، جـ ٢ ، ص ٥٨٤ – ٥٩٠ .

(١) انظر على سبيل المثال : ابن عطية : المحرر الوجيز ، جـ ٨ ، ص ٢١٣ ، جـ ١٥ ، ص ٥٠٤ ؛ ابن العربي : أحكام القرآن ، ق ١ ، ص ٥٠٩ .

(٢) انظر ما ذكره ابن العربي عن نفسه في : أحكام القرآن ، ق ٢ ، ص ٨٧٣ ، ٩٥٥ ، ق ٤ ، ص ١٧٠٨ ؛ عارضة الأحوذي ، جـ ٨ ، ص ١٧٥ .

☆ وأبو الحجاج هو يوسف بن محمد بن عبد الله البلوى المالقي ، ويعرف بابن الشيخ ، ولد عام ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م، له رحلة إلى المشرق ، وكان مبرزاً في اللغة والأدب ، وقد شارك بنفسه في الجهاد ، وتوفي في رمضان ٦٠٤هـ / ١٢٠٨م وقد ألف غير كتاب " ألف باء " كتاب التكميل . (المنذري: التكملة، جـ ٢ ، ص ١٤٧ ؛ ابن الأبار : التكملة ، تحقيق الهراس ، جـ ٤ ، ص ٢١٩ – ٢٢٠ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ٢١٧ – ٢٢٠ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ٢١ ، ص ٤٧٩) .

☆☆ للتعرف على منهج البلوى في كتابه هذا . انظر : رضا عبد الجليل الطيار : الدراسات اللغوية في الأندلس ، ط . دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠م ، ص ٥٨ – ٦٠ .

(٣) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ١٧٩ .

☆☆☆ رجع البلوى إلى أكثر من سبعين كتاباً في تأليفه (عبد الله مخلص : كتاب ألف باء ، مجلة المقتبس، م٧ ، جـ ٥ ، سنة ١٣٣٠هـ / ١٩١٢م ، ص ٣٦٤) .

عرضه لجوانب متعددة من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وغزواته وسير أصحابه [(١)] والتي تعتبر في حد ذاتها تذكيراً للأمة بماضيها المتألق الذي يحملها على الاندفاع لمواجهة الأعداء - فهو فوق ذلك عُني بالكلام عن الجهاد في سبيل الله وما يتصل به من سلاح وخيل ونحوهما [(٢)]، وأكد أنه قد « جاء في فضل الجهاد ما تنقطع دونه الأكباد » [(٣)] وفي شرحه لقول النبي ﷺ : « ليس من اللهو إلا ثلاثة : تأديب الرجل فرسه ، وملاعبته أهله ، ورميه بقوسه » [(٤)] [(٥)] سخره لإبراز أهمية الجهاد ، والحث عليه ، وقال في ختام الشرح : « فانظر ... في أي موطن اللهو مباح ، وأي شيء منه عليه الصلاة والسلام أباح ، أَبَاحَ والله منه تعليم الخيل المعدة للقتال ، وتعليم الرمي بالقسي والنبال ، وملاعبة الأهل للتوالد والانتسال ، وهذه كلها خلال حَلال لا يقوم بها إلا الأبطال من الرجال ، حض فيه عليه الصلاة والسلام على الجهاد الذي هو متمادٍ مع كل بر وفاجر إلى يوم التناد ،

---

(١) انظر مثلاً : البلوى : ألف باء ، ط . الثانية ، عالم الكتب ، بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، جـ ١ ، ص ٥٢ - ٥٣ ، ٨٩ - ٩١ ، ١٤٨- ١٥٠ ، ٢٢٢ - ٢٢٥ ، ٤١٤ - ٤١٩ ، ٤٣٤ - ٤٤٥ ، ٥٣٨ - ٥٤٠ ، جـ ٢ ، ص ٩١ ، ١٠٩ - ١١٢ ، ١٥٥ - ١٥٦ ، ٢٢٨ - ٢٣٤ ، ٤١٨ - ٤٢٠ ، ٥٢١ - ٥٢٤ ، ٥٣٥ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٥١٦ ، ٥٢١ .

(٣) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٥١٩ .

(٤) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٥١٦ .

(٥) انظر روايات للحديث في : أحمد : مسند الإمام أحمد بن حنبل ، إعداد مجموعة من الباحثين ، إشراف سمير طه المجذوب، ط . الأولى ، المكتب الإسلامي ، بيروت ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، جـ ٤، ص ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٣. ولمعرفة درجة صحته ، انظر : ابن قيم الجوزية : الفروسية ، تحقيق: مشهور بن حسن ابن سلمان ، ط . الأولى ، دار الأندلس ، حائل ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م ، ص ١١٧ ، حاشية "٢" .

وندب فيه إلى الرمي بالسهام الذي فيه من الأجر أوفر السهام ، ودعا إلى ملاعبة النساء لإيجاد الأولاد المظهرين للاجتهاد في الجهاد »[١]☆ . ولم يكتف أبو الحجاج البلوى بذلك ، بل صنع قصيدة مطولة في الجهاد ، أبياتها تربو عن المائة [٢] . وقد ساق لنا منها عدة أبيات [٣] . ففي التحريض على الخروج للغزو ، يقول :

ألا حبذا خفق البنود — ولبس السابغات من الحديد
ومشي في المَهَامَة☆☆ والفيافي — إلى أرض الأعادي بالجنود
ألا يا صاح هذا الغزو فانهض — إليه فذا من الرأي السديد
وقوسك خُذْ، ونَبلك ثَمَّ واخرج — ولا تُرين في القوم القعود
وكن بالرمي مغتبطاً وفاخر — به فكأنه سعد السعود
ألم تسمع أعدوا ما استطعتم — لهم من قوة قول الودود
وفسرها النبي الرمي فاعلم — وكرره لمعناه العتيد

إلى أن يقول :

فشمر عن ذارعك وارم حتى — تكسر في الرماية كل عود[٤]

---

(١) البلوى : ألف باء ، جـ ٢ ، ص ٥٢١ .

☆ تأمل مدى اهتمام البلوى في شؤون الجهاد ، بحيث جعل ملاعبة النساء وسيلة لإيجاد الأولاد الذين يقومون بحق الجهاد في سبيل الله ، وانظر - أيضاً - ما قاله قبل ذلك في المعني نفسه (ألف باء ، جـ٢ ، ص ٥١٨) .

(٢) البلوى : ألف باء ، جـ ٢ ، ص ٥٢٠ .

(٣) البلوى : ألف باء ، جـ ٢ ، ص ١٥٦ - ١٥٧ ، ٥٢٠ .

☆☆ المَهامه جمع مَهْمَة ومعناها : المفازة البعيدة أو البلد المقفر (الزبيدي : تاج العروس ، جـ١٩ ، ص٩٦).

(٤) البلوى : ألف باء ، جـ ٢ ، ص ٥٢٠ .

وإذا علمنا أن هذه القصيدة نشرها البلوى في أكثر من كتاب له [١]، كما أن كتابه « ألف باء » أصلاً كان « يجمع أطراف ثقافة أوساط الناس في عصره ، ويجعلها في متناول قارئه » [٢] إذا علمنا ذلك تخيلنا مقدار ما قد يحدثه كلامه عن الجهاد من أثر في تهييج الأندلسيين لمواجهة الأعداء☆ .

ولعل من الأساليب التي أخذ بها علماء الأندلس لاستثارة حماس الناس، وحفزهم للتضحية في سبيل الوقوف في وجه العدوان النصراني – هو عرضهم – نثراً أو شعراً – أحداث سقوط مدن أندلسية عايشوا سقوطها ، أو شهدوا سقوطها بأنفسهم ، وما صحب ذلك من جرائم شنيعة ، وأفعال دنيئة اقترفها النصارى في حق المسلمين [٣] ، فابن علقمة☆☆ (ت ٥٠٩هـ/١١١٦م)

---

(١) البلوي : الف باء ، جـ ٢ ، ص ٥٢٠ .

(٢) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ١٧٩ .

☆ ثمة عدد من الشعراء المعاصرين لزمن البحث أنشدوا قصائد في شخصيات سياسية من الحكام والأمراء ، وضمنوها دعوة تلك الشخصيات للجهاد . انظر أمثلة في : (ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق ٣ ، ص ٦٥٨ – ٦٥٩ ؛ ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٩٥ – ٩٨ ، ١٠٢ – ١٠٥ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ٣٩٣ ، جـ ٤ ، ص ٤١١ – ٤١٥ ؛ الإحاطة " نصوص جديدة لم تنشر " تحقيق : عبد السلام شقور ، ط . مؤسسة التغليف والطباعة والنشر ، تطوان ، ١٩٨٨م ، ص ١٨٩ – ١٩٠ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ ٣ ، ص ٣٤٥ ، جـ ٤ ، ص ٤٧٨) وحيث أن تلك القصائد الشعرية غير مقصورة على الدعوة للجهاد أو ربما أنها لم تُنشأ في الأصل للدعوة إلى الجهاد – فقد آثرنا إغفالها وعدم الاستشهاد بشيء منها .

(٣) محمد مجيد السعيد : الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، ط . دار الرشيد ، بغداد، ١٩٨٠م، ص ٣١٧ .

☆☆ ابن علقمة هو أبو عبد الله محمد بن خلف بن الحسين الصدفي ، من أهل بلنسية ، ولد عام ٤٢٨هـ / ١٠٣٦م . وكان ينتحل الكتابة وقرض الشعر ، توفي في شوال سنة ٥٠٩هـ / ١١١٦م . (ابن الأبار: التكملة ، جـ ١ ، ص ٤١١ – ٤١٢ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة، س ٦ ، ص ١٨٤) .

صنف كتاباً في تغلب النصارى على بلنسية عام ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م [(١)] ، " وهو ممن شهد الموطن " [(٢)] ، وقد سماه " البيان الواضح في المُلم الفادح " [(٣)] صور فيه ما جرى لأهلها من أهوال [(٤)] بأسلوب " يبكي القارئ ، ويذهل العاقل " على حد قول أحد المؤرخين [(٥)] . وقد تناقله الأندلسيون في وقته ، ثم ظل متداولاً بينهم يرويه الخلف عن السلف حتى أن بعض كُتاب القرن السابع الهجري حرصوا على الاقتباس منه [(٦)☆] . ثم إن اثنين ممن شاركوا في جهاد النصارى مشاركة ميدانية كانا ممن حدثا بالكتاب ، وهما ابن عات النفزي (ت٦٠٩هـ / ١٢١٢م) وأبو الربيع الكلاعي (ت ٦٣٤هـ/١٢٣٧م) [(٧)]. وَتداولُ هذا الكتاب بين الناس ، وروايته عَمن قام بالجهاد دليل مقنع - فيما يبدو - على أثره في إشعال حرارة الحماس ، وإذكاء روح الفداء بين

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٢ ، ص ٢٠٤ ؛ وانظر : التمهيد من هذه الرسالة .

(٢) ابن عذارى : البيان ، جـ ٣ ، ص ٣٠٦ .

(٣) ابن الأبار : التكملة ، جـ ١ ، ص ٤١٢ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص ١٨٤ .

(٤) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ١١٦ ، ٣٠٥ ؛ حامد كساب عياط : أدب الجهاد في الأندلس في عصر المرابطين ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب ، الجامعة الأردنية ، ١٩٨٣، ص١٥٣.

(٥) ابن عذارى : البيان ، جـ ٣ ، ص ٣٠٥ ، جـ ٤ ، ص ١٤٨ ، لمعرفة مزيد من المعلومات على هذا الكتاب ، انظر : كريم عجيل حسين : الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية ، ص ٤٦٩ - ٤٧٣.

(٦) ابن الأبار : التكملة جـ ١ ، ص ٤٠٤ ، ٤١٢ .

☆ ومما هو خليق بالذكر أن الذين ألفوا المدونة العامة الأولى لإسبانيا المسماة تاريخ إسبانيا العامة ترجموا كتاب ابن علقمة إلى الإسبانية ، وأدخلوه ضمن هذه المدونة العامة . (حسين مؤنس : السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين ، المجلة التاريخية المصرية ، م٣ ، عدد ١، مايو ١٩٥٠، ص ٥٧ حاشية "١"؛ حسن الوراكلي: ياقوتة الأندلس، ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤م، ص٥٩)، ولكن كثيراً من نصوصه المترجمة إلى الإسبانية ترجمتْ ترجمة غير أمينة (الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٣٧٨).

(٧) ابن الأبار : التكملة ، جـ ١ ، ص ٤١٢ .

أهل الأندلس لمجابهة أعدائهم . ومما يشابه في موضوعه كتاب " البيان الواضح " – المتقدم الذكر – ما سطره يَراع الكاتب ابن المُطَرِّف بن عَميرة المخزومي☆ (ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م) عن أحداث سقوط جزيرة ميورقة بأيدي النصارى في صفر عام ٦٢٧هـ/١٢٣٠م [١]، وذلك في كتاب له سماه المقري[٢] " تاريخ ميورقة " حيث دبجه ابن عميرة –كما تقول المصادر– " في كائنة ميورقة " [٣] أو " في كائنة ميورقة ، وتغلب الروم عليها " [٤] ومن

☆ أبو المطرف هو أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن أحمد بن عَمِيرة المخزومي ، شكك بعضهم في في نسبته إلى مخزوم (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ١ ، ق١ ، ص ١٥٠ – ١٥١) ولد في شُقر وقيل في بلنسية في رمضان عام ٥٨٢هـ/١١٨٦م . تفنن في كثير من العلوم لكنه مال إلى الأدب ، وعُد من كبار مجيدي النظم ، أما الكتابة فكان إمامها في عصره . وقد كَتَبَ لعدد من أمراء شرقي الأندلس ، ثم انتقل إلى العدوة وكتب لحكام الموحدين في مراكش ، ثم تنقل في المدن المغربية حتى انتهى به المطاف عند السلطان الحفصي في إفريقية . وتوفي في تونس في ذي الحجة عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م على القول الراجح.ومما تجدر الإشارة إليه أنه تقلب في قضاء عدد من المدن الأندلسية والمغربية ، وقد خلف كماً هائلاً من الرسائل والأشعار ، وله عدد من المؤلفات . انظر ترجمته في : (ابن عميرة : رسائل أبي المطرف بن عميرة ، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم ٥٢٣٢ ، ورقة ٦٧–٧٣ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص١٥٠ – ١٨٠ ؛ الغبريني : عنوان الدراية ص٢٩٨–٣٠٢ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١ ، ص ١٧٣ – ١٨٠ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ١ ، ص ٢٠٦ – ٢٠٧ ؛ السيوطي : بغية الوعاة ، جـ١ ، ص٣١٩ ؛ المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ٣١٣ – ٣١٧ ؛ ابن خليل : اختصار القدح المعلى ، ص ٤٢ – ٥٢) .

(١) ابن الأبار : التكملة ، جـ ١ ، ص ١٥٦ ، الحلة ، جـ ٢ ، ص ٣١٨ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٧ ، ص١٩ .

(٢) نفح الطيب ، جـ٤ ، ص ٤٦٩.

(٣) ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ١ ، ص٢٠٧ .

(٤) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص١٧٦ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١، ص١٧٨ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ٣١٤ .

المرجح أنه ألفه عقب سقوط تلك الجزيرة مباشرة☆ ، فقصد من ذلك شرح ظروفها حينما هاجمها النصارى ، ثم بيان ما ارتكبه هؤلاء الغزاة في حق أهلها من القسوة والعنف والتنكيل ، وكأنه « أراد بعمله هذا أن ينبه الناس إلى الخطر الذي يهدد كيانهم ويدفعهم إلى الاستعداد والاحتياط لأنفسهم قبل فوات الأوان »(١) ويروى أن ابن عميرة احتفل بهذا الكتاب من حيث الأسلوب(٢)، فلعله أراد بذلك – فيما يظهر – « أن يثير حماس الأندلسيين ، وينبههم من غفوتهم »(٣) ☆☆ .

وثمة علماء أندلسيون رثوا بالشعر الأندلس بصفة عامة، أو مدناً معينة

☆ أكد بعض الكتاب أن ابن عميرة كان قاضياً لميورقة قبيل سقوطها ، فشهد بأم عينه فصول مأساتها (ابن الأبار : الحلة ، جـ١ ، ص ٣١ من مقدمة المحقق ؛ عصام سيسالم : جزر الأندلس المنسية ، ص٤١٢ ، ٥٣٧ ، ٥٤٨) وبالرجوع إلى المصادر المتوافرة لا نجد ذكراً لهذه المعلومة ؛ بل إن الذي ذكرته المصادر قاضياً لميورقة قبيل سقوطها إنما هو محمد بن أحمد بن عبد الودود البكري (ابن الأبار: التكملة، جـ٢ ، ص ٦٢٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٧) .

(١) محمد بن شريفة : أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي ، ص ٢٨٨ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص١٧٦ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١، ص ١٧٨ .

(٣) محمد بن شريفة : أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي ، ص٢٨٩ .

☆☆ وهناك رسائل قصيرة كتبها علماء في عصر الدراسة عند سقوط المدن ، ولكنها كانت رسائل شخصية بعثوها إلى القادة أو إلى إخوان لهم ، فلم تكن موجهة – أصلاً – إلى الناس ، وربما أن هؤلاء الأخيرين لم يطلعوا عليها إلا بعد زمن . ومن هذه الرسائل رسالة كتبها أبو محمد بن عطية (ت٥٤١هـ/ ١١٤٧م) عن سقوط ميورقة بأيدي النصارى عام ٥٠٨هـ/١١١٤م خاطب بها أحد رجال الدولة المرابطية (ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق٣ ، ص٦٦٦-٦٦٩) ورسالة كتبها ابن عميرة المخزومي (ت٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) إلى صاحبه ابن الأبار (ت ٦٥٨هـ/١٢٥٩م) في حادثة سقوط بلنسية عام ٦٣٦هـ/١٢٣٩ م (الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص٤٨-٤٩؛ المقري : نفح الطيب، جـ٤ ، ص٤٩٠-٤٩٦) ثم رسالة ابن الأبار التي أجاب عنها ابن عميرة في الغرض نفسه (الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص٥٢-٥٤ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٤٩٨-٤٩٩) .

منها بصفة خاصة [(١)] ، فكانت استجاشة عواطف المسلمين وشد عزائمهم لمواجهة العدو النصراني إحدى المقاصد التي استهدفها أولئك العلماء الشعراء في قريضهم الذي نظموه في ذلك الغرض [(٢)] . فإبراهيم بن فَرْقَد☆ (ت٥٧٢هـ/ ١١٧٦م) بكى الأندلس بقصيدة طويلة بقي منها :

ألا مسعدٌ منجز ذو فِطَن ... يبكي بدمع مَعين هَتِنْ
جزيرة أندلس حسرة ... ألا غالب من حقود الزمن
ويندب أطلالها آسفاً ... ويرثي من الشعر ما قَدْ وهَن
ويبكى الأيامي ويبكي اليتامى ... ويحكى الحَمام ذوات الشجن
ويشكو إلى الله شكو شجٍ ... ويدعوه في السر ثم في العلن
وكانت رباطاً لأهل التقى ... فعادت مناطاً لأهل الوثن
وكانت معاذاً لأهل التقى ... فصارت ملاذاً لمن لم يَدِن
وكانت شجى في حلوق العدا ... فأضحى لهم ما لها محتجن[(٣)]

فهذه الأبيات التي اشتهرت بين الأندلسيين[(٤)] وإن كان طابعها

---

(١) فوزي سعد عيسى : الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ص ١٨١ ؛ عبد الله الزيات : رثاء المدن في الشعر الأندلسي ، ط. الأولى ، جامعة قاريونس ، بنغازي ، ليبيا ، ١٩٩٠م ، ص ١٣٤ .

(٢) منجد مصطفى بهجت : الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهد ملوك الطوائف والمرابطين ، ط. الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م ،ص٣٢٢ ؛ عبد الله الزيات : رثاء المدن ، ص٤٣٣ .

☆ وابن فرقد هو أبو إسحاق إبراهيم بن خلف بن محمد بن الحبيب بن فرقد القرشي العامري ، من أهل مورور ، ولد عام ٤٨٤هـ/١٠٩١م ، وسكن إشبيلية ، وقد كان محدثاً فقيهاً شاعراً كاتباً ، له عدة تواليف ، وتوفي في محرم سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م (ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص ١٥٣ ؛ وابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١ ، ص ٣٦٤ – ٣٦٧) .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١ ، ص ٣٦٦ .

(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

العام رثاء الأندلس فإنها تحمل في طياتها دعوة قوية للتصدي للخطر النصراني ، " فإن فيها ثروة عاطفية حقة قادرة على إثارة المشاعر ، وحفز الهمم ، يظهر ذلك في الوصف المؤثر لأوضاع المسلمين ...وقد أحدق العدو بهم ، والمقارنة بين حالها أيام قوة المسلمين وحالها بعد ضعفهم ، وإبراز خطر الأعداء على التراث الإسلامي ، وجماعة المسلمين الذين قُتل كثير منهم فكثر الأيامى واليتامى، وأصبحت البلاد ملاذاً للكفار بعد ما كانت عامرة بأهل الإيمان "(١). وفي قصيدة لأبي المُطَرِّف بن عَميرة (٢) – المار ذكره قبل قليل – رثى بها إحدى المدن الأندلسية جاء فيها :

وهم☆حربٌ لنا وهم وَشَل   سَالَمَه الواردون فاستبحرْ

وإنا لنرجو للدهر فَيْئَةَ مَنْ   أنابَ مما جناهُ واسْتَغْفَرْ

ونرقبُ الكرةَ التي أبداً   بها على الرومِ لم نَزلْ نُخْبَرْ

ففي الأبيات السالفة هَوَّن ابن عميرة من شأن العدو النصراني ، فأكد أنه ليس بذي قوة لولا ما حصل من جانب المسلمين الذين تخاذلوا عن لقائه ، وتهافتوا على مسالمته ، فتوسع على حسابهم ، ثم بين أن نصرهم على العدو ليس ببعيد المنال إذا هم أنابوا إلى ربهم واستغفروه ، لا سيما وأنهم يملكون وعداً ربانياً بالنصر المؤزر على الروم (النصارى) . فكأنه أراد بذلك كله أن يعيد الثقة إلى أفئدة المسلمين ، ويزرع الأمل في نفوسهم ، ويستنفرهم

---

(١) شفيق محمد الرقب : شعر الجهاد في عصر الموحدين ، ط . مكتبة الأقصى ، عَمّان ، ١٩٨٤م ، ص٢٢١ .

(٢) رسائل أبي المطرف بن عميرة ، ورقة ١٦ .

☆ جاء في مخطوط آخر لرسائل ابن عميرة لفظ " والروم " بدلاً من الضمير " وهم " (محمد بن شريفة : أبو المطرف أحمد بن عميرة ، ص ٢٣٢) .

لمواجهة الاحتلال النصراني .

ومما يغلب عن الظن أن إبراز فضائل الأندلس وخصائص سكناها في مؤلفات كتبها بعض رجال العلم في الأندلس في الفترة التي ندرسها كان من أهدافه إيقاظ الأندلسيين ، وتأجيج مشاعرهم نحو بلادهم المهددة من قبل النصارى . فابن بشكوال (ت٥٧٨هـ/١١٨٢م) حشد في كتاب - لا وجود له بين أيدينا الآن☆ - أحاديثَ وأثاراً في فضل الأندلس على غيرها من الأقطار(١) . بل الملفت للنظر أن الضبي (ت٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م) لما اقتبس أخبار فتح الأندلس من أحد المؤرخين السابقين على عصره - خرج عن الاقتباس (٢) وراح يثبت بكلام مسهب أن الأندلس هي المعنية بما جاء في أحد الأحاديث الصحيحة التي قالها الرسول ﷺ في غزو البحر (٣) ، حتى خلص في النهاية أن للأندلس فضلاً " لا يشاركها غيرها فيه "(٤) .

ومن صور الاستنفار لمواجهة النصارى في زمن البحث إبراز العلماء لماضي الأمة المجيد (٥)، وعلى الخصوص مايتصل بعصر النبيﷺ والصحابة

☆ قال حاجي خليفة : " ولابن بشكوال تاريخ صغير للأندلس " (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، ط . دار العلوم الحديثة ، بيروت ، م١ ، ص ٢٨٦) . فهل هذا هو الكتاب الذي ذكر فيه فضائل الأندلس ؟ انظر : حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية ، ص ٢٨٥ ، ٢٩٤ .

(١) المقري : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٢٠٤ ، وحاشية "٢" ؛ مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، جـ١ ، ص ١٥ .

(٢) قارن بين ما أورده الحميدي - وهو المورخ الذي نقل منه الضبي - (جذوة المقتبس ، ق١ ، ص٣١) وبين ما أنشأه الضبي نفسه (بغية الملتمس ، ص ٢) .

(٣) الضبي : بغية الملتمس ، ص ٢ - ٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص١٠.

(٥) أبو الحجاج البياسي : الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام ، تحقيق شفيق جاسر -

الكرام رضي الله عنهم ، وذلك بالكتابة عنه ، وإذاعته بين الناس [(١)] ، فالرعيل الأول من هذه الأمة ضربوا أروع الأمثلة في العزة والشجاعة إزاء أعدء الملة ، وقدموا دماءهم رخيصة في سبيل نشر هذا الدين ، والذود عن حياضة . فذيوع مثل هذا بين الأندلسيين سيفجر - بلا شك - روح التضحية والفداء ، ويحركهم لمحاكاة فعل أولئك السلف ، والاقتداء بهديهم ، وترسم خطاهم ، وساعتئذ تنقدح العزة الإسلامية فيهم ، ويهبوا لمقاتلة الذين يلونهم من النصارى . فتأمل ما وضعه أبو الربيع (ت٦٣٤هـ/١٢٣٧م) في اعتباره عند تأليفه لكتاب عن الرسول ﷺ ومغازيه ومغازي خلفائه الراشدين رضوان الله عليهم ، فقد قال بعد ذكره قصده الأول من التأليف - وهو وجه الله تعالى - " القصد الثاني متوفر على إيثار الرغبة في إيناس الناس بأخبار نبيهم ﷺ وعمارة خواطرهم بما يكون لهم في العاجل والآجل أنفع وأسلم ... ولا أحسن بعد كتاب الله ... من أخبار رسول الله ﷺ التي بالوقوف عليها توجد حلاوة الإسلام ، ويُعرف كيف تمهدت السبل إلى دار السلام " [(٢)] ثم يضيف قائلاً " فإنه لا يخلو الحاضرون [(٣)] لهذا الكتاب مِنْ أن يسمعوا ما صنع الله لرسوله في أعداء تنزيله ، فيَسْتَجْزِلوا ثواب الفرح بنصر الله ، أو يستمعوا ما امتحنه الله به من المحن ... فيعتبروا بعظيم ما لقيه من شدائد الخطوب ، ويصطبروا لعوارض الكروب ، تأدباً بآدابه ، وجرياً في

- أحمد ، ط . الأولى ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، جـ١ ، ص ٨٠ من مقدمة المحقق .

(١) حسين مؤنس: شيوخ العصر ، ص ١٠٥ ؛ العريني : الحياة العلمية في الأندلس ، ص ٣٢٥ ، حاشية "٣" ، ص ٣٩٢ ؛ الحسيسن : مظاهر النهضة الحديثية في عهد يعقوب المنصور الموحدي ، جـ١ ، ص١٤٢ .

(٢) الكلاعي : الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، جـ ١ ، ص ٥ .

(٣) في طبعة أخرى " الناظرون " . الكلاعي : الاكتفاء ، جـ١ ، ص ٦ ، حاشية "١" .

الصبر على ما يصيبهم، والاحتساب لما ينوبهم على طريقة صبره واحتسابه »[(١)] ثم يعقب على ذلك بقوله « وتلك غايات لـن نبلـغ عَفوهـا بجهدنـا ، ولـن نصـل أدانيها بنهاية رَكْضِنا وشَدِّنا ، وإنما علينا بذلُ الجهد في قصد الاهتداء ... »[(٢)] .

كذلك ابن حُبَيْش☆ (ت٥٨٤هـ/١١٨٨م) لما ألـف -بـأمر مـن أحـد حكـام الموحدين☆☆ - كتاباً عن غزوات الخلفاء الراشدين الثلاثـة الأُوَل رضـوان الله عليهم أومأ إلى أن هؤلاء الخلفـاء « قـد توالـت في أيـامهم الغـزوات والفتـوح الخطيرة ، واستولى تغلبهم على أصقاع طوائف الشرك والكفر وبلادها الدانية والشطيرة، واطفؤوا بجدهم واجتهادهم نيران الكفرة الطغاة المسـتطيرة... »[(٣)] ثم أفصح عن الغاية التي كان يتوخاها من جمع أخبار تلك الغزوات وهـي« أن تنبعث الهمم الأبية من مكانسها ، وتتجرد العزائم القوية من ملابسـها ، وتُجْتنى العواقب الرضية من مغارسها ، وتعتلى المراتـب العليـة مـن مدارجهـا ومراقيهـا ، وتمتاح الآراء المصيبة من فرضها ومساقيها ، فيُحْتَذى ذلك الحـذو، ويمتثـل ذلـك المثـال، ويـدرك بعـون الله وتـأييده ذلـك المـدرك ، ويُنـال بنصـره وإنجـــاز

---

(١) الكلاعي : الاكتفاء ، جـ ١ ، ص ٦ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

☆ وابن حُبَيْش هو أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري ، ولد بالمرية عام ٥٠٤هـ/١١١٠م . ولما تغلب النصارى عليها سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م خرج منها إلى مُرْسِيَة ، ثم سكن جزيرة شُقَر ، فتولى بها القضاء والخطابة ، برع في علم الحديث ، وكانت له اهتمامات في علوم أخرى. توفي بمرسية في صفر عام ٥٨٤هـ/١١٨٨م ، وقد ترك عدة مصنفات (المنذري : التكملة ، جـ١ ، ص٧٩-٨١ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ ٢ ، ص ٥٧٣ - ٣٧٥ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ٢١ ، ص ١١٨ - ١٢١) .

☆☆ هذا الحاكم هو أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨هـ/١١٦٣م - ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) (ابن حبيش : الغزوات الضامنة ، جـ١ ، ص ١) .

(٣) ابن حبيش : الغزوات الضامنة ، جـ١ ، ص٧ .

وعده مثل ذلك المثال ... »[(١)] .

ويُلاحظ أن التأليف عن عصر النبي ﷺ والصحابة رضوان الله عنهم أصبح سمة مميزة من سمات ذلك العصر ؛ حيث صنفت مجموعة من الكتب والقصائد في سيرة النبي ﷺ ومغازيه[(٢)]، ونبوته[(٣)]، وشمائله[(٤)]، ومعجزاته[(٥)]، وفي مدحه[(٦)] وأزواجه وأهل بيته وأصحابه[(٧)]، وفي فضائل الصحابة ومغازيهم[(٨)] .

ومن المتوقع أن يكون لمثل هذه المصنفات أثر في إنهاض الناس لجهاد النصارى ، لا سيما وأن الحكام في ذلك الزمان اهتموا بهذا اللون من التصنيف ، فأمروا العلماء بالتأليف فيه[(٩)] ، وشجعوا على الكتابة

(١) ابن حبيش : الغزوات الضامنة ، جـ١ ، ص٨ .

(٢) الرعيني : برنامج شيوخ الرعيني ، ص ٥٢ ، ٦٧ ، ١٥٢ ؛ السخاوي : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، تحقيق : فرانز روزنتال ، ترجمة صالح العلي ، ط . الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م ، ص ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٨ .

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص ١٩٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص٤٣٠ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ٩٠ ، ١٢١ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة جـ٤ ص ٨٦ ، ١٧٥ .

(٥) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة ، س٥ ، ق١ ، ص٢٨٨ ، س٦ ، ص ١٩ ؛ الوادي آشي : برنامج الوادي آشي ، تحقيق محمد محفوظ ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، أثينا ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ، ص ٢٢٤ .

(٦) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق ١ ، ص ٣٧٢ ، س ٦ ، ص٣٦١ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٢ ، ص٤٩٠ ، جـ٣ ، ص٥١٩ .

(٧) حياة قارة : رائية أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي البلنسي ، مجلة دعوة الحق ، عدد ٢٩٨ ، محرم ١٤١٤هـ / يوليو ١٩٩٣م ، ص ١١٢ .

(٨) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، س٦، ص٤١٨ ؛ الرعيني: برنامج شيوخ الرعيني ، ص٦٤.

(٩) ابن حبيش الغزوات الضامنة ، جـ١ ، ص ٧ .

عنه [١] . كما صارت كتب المغازي -مثلاً- تُقرأ في مجالس بعضهم [٢] . فضلاً عن كون بعض تلك الكتب قد قُدر لها الانتشار بين أفراد الجماعة الأندلسية [٣] .

ومن ناحية أخرى فإن فريقاً من أهل العلم الأندلسيين - حرصاً منهم فيما يظهر - على شحن الناس لحرب النصارى عادوا يقلبون صفحات التاريخ الأندلسي ، وينوهون في كتاباتهم بأسلافهم الذين كانت لهم وقائع مشرفة أيام الفتح والدولة الأموية ضد أولئك الأعداء [٤] ، حيث صاروا يستعيدون ذكرى "موسى بن نصير وطارق ، ومن بعدهما من ملوك الأندلس الذين راعت العدو الكافر منهم طوارق" [٥] .

وعلى صعيد آخر فالمظنون أن إشاعة أخبار انتصارات المسلمين في الشام على النصارى الصليبيين بين أهل الأندلس كان طريقة من طرق العلماء في ندب الناس على مجابهة نصارى إسبانيا والتصدي لهم ، فعلماء الأندلس تابعوا الصراع الدائر بين المسلمين والنصارى هناك [٦] ، وشارك بعضهم فيه [٧] ، كما عمد بعضهم إلى نقل أنباء الأعمال العسكرية الناجحة التي أخذت تُرَجّح كفة المسلمين على عدوهم في تلك الديار قبل فتح

---

(١) السهيلي : الروض الأنف ، جـ١ ، ص ٣٤ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق١ ، ص ٣٧٥ .

(٣) ابن الأبار : التكملة، ط . كوديرا، جـ٢، ص ٥٧٥؛ الوادي آشي: برنامج الوادي آشي، ص ٢١٩.

(٤) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ٥١ ، المقري : نفح الطيب ، جـ١ ، ص٣٠٧ .

(٥) المقري : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٣٠٥ .

(٦) ابن العربي : العواصم من القواصم ، ص ٣٧٢ ، القبس ، جـ٢ ، ص ٧٩٦ - ٧٩٧ .

(٧) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٧٣٧ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص٢١٨ .
وانظر : علي أحمد : الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام ، ص ٩٨ ، ٣٠٢-٣٠٧ .

بيت المقدس [١] ، فلما تم فتحه عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م على يد صلاح الدين الأيوبي[٢] ابتهج المسلمون في الأندلس كسواهم من المسلمين [٣] . ويلاحظ أن العلماء الأندلسيين احتفوا بأخبار ذلك الفتح بشكل لافت للنظر ، فتداولوا – مثلاً – كتاباً غطى تلك الأخبار بدقة ، وهو كتاب " الفتح القسي في الفتح القدسي " لعماد الدين الأصفهاني☆ (ت٥٩٨هـ/١٢٠١م) [٤] ، فاختصروه كفعل ابن القطان☆☆ (٦٢٨ هـ/ ١٢٣١م) في " تقريب الفتح

---

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ط . دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ، ص ٢٦٠ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ . ورحلة ابن جبير هذه هي رحلته الأولى من بين ثلاث رحلات قام بها (أغناطيوس كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، ط . الثانية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م ، ص ٣٣٣ ؛ حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية ، ص٤٣٦ -٤٣٧) وقد بدأت في شوال ٥٧٨هـ/١١٨٣م وانتهت في محرم ٥٨١هـ/١١٨٥م (ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ص ٧ ، ٣١٩) .

(٢) العماد الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي ، ط . الأولى ، المطبعة الخيرية بمصر ، ١٣٢٢هـ ، ص١٠ ، ٤٧ .

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق٢ ، ص٦٠٥ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة، جـ٢، ص ٢٣٢ .

☆ والأصفهاني هو أبو عبد الله عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني الكاتب ، ولد بأصفهان سنة ٥١٩هـ/ ١١٢٥م . وقدم بغداد ، وبعد ذلك انتقل إلى دمشق والتحق بخدمة نورالدين محمود ، ثم من بعده صلاح الدين الأيوبي . وقد عُرف بالفقه والأدب ، وبرع في النظم والنثر . وتوفي في رمضان عام ٥٩٧هـ/١٢٠١م . وله عدة مؤلفات منها خريدة القصر ، والفتح القسي (المنذري : التكملة ، جـ١ ، ص٣٩٢ – ٣٩٣ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص ١٤٧ – ١٥٣ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ٢١ ، ص ٣٤٥ – ٣٥٠) .

(٤) محمد بن شريفة : أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي ، ص ٢٨٨ .

☆☆ وابن القطان هو أبو الحسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي ، أصله من قرطبه ، استقر بالمغرب وصار من المقربين إلى حكام الموحدين . وكان بارزاً في الحديث وعلومه . وصنف كثيراً من المصنفات، وتوفي في ربيع الأول عام ٦٢٨هـ/١٢٣١م (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢، –

القسي »[١] وابن الأبار (ت٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م) في « الوشي القيسي في اختصار الفتح القسي »[٢] . كما نسخ على منواله من حيث اللفظ والأسلوب ابن عَميرة المخزومي (ت٦٥٨هـ/١٢٦٠م) كتابه عند سقوط ميورقة [٣] الذي سبق أن أشرنا إليه .

ويبدو أن سر اهتمام هؤلاء العلماء بكتاب الفتح القسي بالذات لأنه يصور عودة الإسلام إلى بيت المقدس وما حوله بعد الاحتلال النصراني ، أو كما عبر عنه مؤلفه « هجرة الإسلام إلى القدس ثانية »[٤] ، فكأنهم أرادوا زرع التفاؤل في نفوس الأندلسيين ، ودفعهم –حكاماً ومحكومين – لانتهاج ما فعله إخوانهم في الشام ضد النصارى، ليكتب لهم النصر مثلما كتب لهم .

وهكذا – فيما فات من كلام – تعرفنا على ما بذله العلماء من مجهودات ، وما أنفقوه من أوقات في سبيل تحشيد طاقات جماعة المسلمين في الأندلس لجهاد النصارى ، والتصدي لزحفهم المتنامي، وانتهاكاتهم الوحشية، وغاراتهم المسعورة على الأراضي الأندلسية .

= ص ٦٨٦-٦٨٧ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٨ ، ق١ ، ص١٦٥ – ١٩٥ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ١٣١ – ١٣٢ ؛ التنبكتي : نيل الابتهاج ، ص ٣١٧) .

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٨ ، ق١ ،ص١٦٧ .

(٢) المصدر السابق ، س٦ ، ص ٢٥٨ .

(٣) المصدر السابق ، س١ ، ق١ ، ص١٧٦ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١٧٨ .

(٤) العماد الأصفهاني : الفتح القسي ، ص٥ .

ثانياً : أثر العلماء في الحفاظ على وحدة الأندلس أمام الخطر النصراني :

إن بقاء الحكم الإسلامي في الأندلس - بصفة خاصة - مرهون في غالبه - بعد إرادة الله سبحانه - بوحدة كلمة سكانها من المسلمين ، وائتلافهم فيما بينهم ، وتراص صفوفهم ، وبُعدهم عن الخلاف والتشرذم ، والتنازع والتشتت . فأي خلل في ذلك يُعرِّض بلادهم للتهديد النصراني الماحق ، المتمثل بالقوى النصرانية المصاقبة لهم [١] من جهة ، والجماعات النصرانية القاطنة معهم في الداخل من جهة أخرى. وقد وعى علماء الأندلس المخلصون هذه المعادلة ، فتشبثوا بالوحدة ، واستماتوا في الحفاظ عليها ، وسلكوا شتى الطرق المفضية لإرساء أركانها ، وتثبيت أسسها . ولقد ظهر أثرهم في هذا المجال بشكل جلي زمن المرابطين والموحدين الذي " في كنفهما عاشت الأندلس زهاء قرن ونصف مشمولة بوحدة رَبَطتْها سياسياً وعسكرياً بأقطار العدوة المغربية ، بل وربطتها - وهذه في بعض الفترات - روحياً بالخلافة السنية في المشرق " [٢] . ففي سبيل وحدة البلاد في مواجهة النصارى وضع علماء الأندلس أيديهم بأيدي حكام المرابطين ثم من بعدهم حكام الموحدين ، فالتفوا حولهم ، وناصروهم في سيطرتهم على البلاد ، وارتبطوا بخدمتهم ، ومحضوا النصيحة لهم ، وأثنوا عليهم خيراً في مجالسهم وكتاباتهم ، وزكوا نهجهم في الحكم ، وكانوا يعتقدون جازمين أن الله قيضهم لكبد العدو النصراني ، وتوهين كيده، واستنقاذ المسلمين في الأندلس من عدوانه.

---

(١) ابن بلقين : التبيان ، ص١٠٦ .

(٢) حسن الوراكلي : التراث الأندلسي وسؤال الوحدة ، ندوة الأندلس في مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض عام ١٤١٤هـ ، جلسة ٢١ ، بحث (٣) ، ص٣ .

أ - أثرهم في وحدة الأندلس في عصر المرابطين :

انعدمت وحدة الأندلس بقيام دول الطوائف ، حيث تنازع حكام تلك الدول أراضي البلاد ، وتنافسوا السلطة عليها (١) . فجعل الله بينهم " من التحاسد والتنافس والغِيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات ، والعشائر المتغايرات ، فلم تتصل لهم في الله يد ، ولا نشأ على التعاضد عزم " (٢) ، وظلت الأندلس ترزح تحت نير هؤلاء الحكام ممزعة الأرجاء ، مبددة النظام ، متشعبة الأهواء " إلى أن جمع الله الكلمة ، ورأب الصدع ، ونظم الشمل ، وحسم الخلاف ، وأعز الدين ، وأعلى كلمة الإسلام ، وقطع طمع العدو بيمن نقيبه أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ... " (٣) .

ولا خلاف أن توحد الأندلس تحت راية المرابطين ومن ثم المحافظة عليه وتعاهده ودعمه لم يكن لينتظم بمنأى عن نظر العلماء الأندلسيين ومشورتهم ، فهم كغيرهم من علماء المسلمين يقفون - قبل كل شيء - في طليعة ولاة الأمر (٤) المنوط بهم رعاية شؤون الأمة . وتفقد أحوالها ، والحفاظ على مصالحها . كما أن للعلماء عند زعماء المرابطين - على وجه الخصوص - صوتاً مسموعاً ، ورأياً معتبراً . وسوف نستجلي نشاط هؤلاء العلماء في هذا الجانب من خلال **المحاور الثلاثة الآتية :**

---

(١) حمد السحيباني : جهود مفكري الأندلس لإصلاح الوضع السياسي في عصر ملوك الطوائف (بحث غير منشور) ص١٣ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٢٤٤ .

(٣) المراكشي : المعجب ، ص١٤٧ .

(٤) ابن العربي : أحكام القرآن ، ق١ ، ص٤٥٢ ؛ عارضة الأحوذي ، جـ٧ ، ص٩٣ .

١ – وقوفهم في صف المرابطين لاتمام توحيد الأندلس :

كان العلماء الأندلسيون على رأس الذين تبنوا – بحرارة – دعوة المرابطين لاستنقاذ الأندلس من براثن النصارى (١) ، ثم إنهم بعد ذلك أفتوا ليوسف بن تاشفين بجواز خلع مَنْ تخاذل من حكام الطوائف عن الجهاد ، أو مَنْ ثبت تورطه منهم في مداخلة النصارى (٢) ، كما أفتوه " بقتالهم إن امتنعوا " (٣) . وكان دافعهم إلى ذلك كله تشوفهم إلى اتحاد كلمة المسلمين في الأندلس ومن ثم القيام بواجب الجهاد ضد الأعداء (٤) .

واتكاءً على فتوى العلماء هذه قضى ابن تاشفين خلال عامي ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م و ٤٨٤هـ/١٠٩١م (٥) على أولئك الحكام واحداً بعد الآخر – كما سبق معرفته☆ – ولم يُبْقِ منهم في بادي الأمر إلا مَنْ ظَهَرَ أوتظاهر بأنه مؤيد لسياسة الوحدة مع المرابطين ، مخلص لقضية الجهاد ضد النصارى كحال حاكم مملكة بطليوس المتوكل على الله بن الأفطس (٦) ، وحاكم مملكة سرقسطة المستعين بالله بن هود (٧) . وحينما تغير الموقف ضد الوحدة في هاتين المملكتين كان العلماء – أيضاً – على رأس من أوعز

---

(١) عياض : ترتيب المدارك ، جـ٨ ، ص١٢٧ ؛ ابن الأبار : الحلة ، جـ٢ ، ص٩٩ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ق٢ ، ص٢٤٥ ؛ النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق أحمد كمال زكي ، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٠م ، جـ٢٣ ، ص٤٥٤ .

(٢) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص١٠٧ .

(٣) المقري : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٣٧٣ .

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٣ ، ص٢٥٠ .

(٥) ابن بسام : الذخيرة ، ق٣ ، م١ ، ص٩٤ .

☆ انظر : التمهيد من هذا الكتاب .

(٦) ابن بلقين : التبيان، ص١٧٢ .

(٧) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص١٧٣ ؛ مجهول : الحلل الموشية ،ص٧٤ ، ٧٥ .

للمرابطين في ضمهما بالقوة إلى حيز الدولة المرابطية . فبالنسبة للمتوكل على الله بن الأفطس فإنه ما لبث في فترة الدراسة أن اتصل بملك قشتالة الفُنْش (١) (الفونسو السادس)☆ وتحالف معه سراً ضد المرابطين (٢) ، بل وصل به الأمر أن تخلى له عن مدينة شنترين (٣) إحدى المدن الكبرى في غربي الأندلس (٤) يقول ابن الخطيب (٥) فيه " وعندما مكَّنَ العدو من شنترين انحرفت عنه الرعية ، واتصل عليه الحمل ، وضاقت الصدور ، وراسل أهل بطليوس المرابطين ، فوصلتها الجيوش ، وفتح الناس الأبواب ، فدخل القوم عنوة ، وقبض على المتوكل ... "☆☆ وكان ذلك في صدر سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م (٦) .

ومع أننا في المصادر التي بين أيدينا نفتقر إلى خبر ينص صراحة على قيام علماء الأندلس بالدعوة إلى إنهاء سلطان المتوكل على الله بن الأفطس

---

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق٢ ، ص٤٦٧ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ص١٨٥ ؛ الإحاطة ، جـ٤ ، ص٤٦ .

☆ الفونسو السادس : Alfonso ٧١ ترسم المصادر الإسلامية اسمه تارة بـ" إذفونش " (ابن بسام : الذخيرة، ق٤ ، م١ ، ص١٦٣) وتارة أخرى بـ " ألفُنْش " (ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص٧٦) تفرد بالحكم في مملكة قشتالة عام ٤٦٥هـ/١٠٧٢م . وهو الذي اتخذ طليطلة بعد احتلالها حاضرة لملكته، وقد استمر في الحكم حتى وفاته عام ٥٠٢ هـ/١١٠٩م (أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص٢٢ ، ٦٠ ، ١٣٥ ؛ Jose terrero : op.cit ., p.٩٣-٩٤)

(٢) ابن بلقين : التبيان ، ص١٧٢ .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص١٨٦ .

(٤) ابن بسام : الذخيرة ، ق١ ، م١ ، ص١٩ .

(٥) أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص١٨٦.

☆☆ ساق ابن الخطيب في مؤلف آخر كلاماً شبيهاً بما قاله هنا ، لكنه جعل المدينة التي تخلى عنها المتوكل على الله لحاكم قشتالة هي مدينة الأشبونة " لشبونة " . (الإحاطة ، جـ٤ ، ص٤٦-٤٧)

(٦) ابن الأبار : الحلة ، جـ٢ ، ص١٠٢؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق٢ ، ص٤٦٧.

عن بطليوس إلا أن لدينا قرائن نكاد نجزم معها بأنهم كانوا مضطلعين بتلك العملية ؛ منها إن ابن الأفطس قد ارتكب عملاً مستشنعاً ، ألا وهو تحالفه مع النصارى في الوقت الذي كان يظهر فيه الطاعة للمرابطين القائمين " بدعوة الحق ، ونصرة الدين "[١] ، ومن المنتظر - والحالة هذه - أن يطبق ابن تاشفين عليه فتوى علماء الأندلس في حق حكام الطوائف الصادرة قبل بضع سنوات والتي استند عليها في إسقاط ممالكهم . ويُلاحظ ان ابن الكردبوس[٢] حين ساق تفاصيل تلك الفتوى ، وذكر قضاء المرابطين على ابن عباد وأن قائد المرابطين حاصر إشبيلية قال "وخلع ابن عباد منها ، ثم خلع ابن الأفطس من بطليوس "فهو لم يفصل - كما ترى - بين عملية خلع الاثنين مما يعني عنده أن ابن تاشفين اعتمد في خلعه لابن الأفطس على فتوى العلماء المنوه عنها فيما تقدم .

وقرينة أخرى ، وهي أن أهل بطليوس لما نما إليهم خبر ارتماء ابن الأفطس في أحضان النصارى اشتد نكيرهم عليه ، ودعوا المرابطين للتخلص منه ، وبعبارة ابن الخطيب المار ذكرها قبل قليل "وراسل أهل بطليوس المرابطين ". وأمر خطير كهذا ، ذو صلة بمستقبل بطليوس ، وله خلفيات تتعلق بأحكام شرعية ، لا ريب أن للعلماء أثراً حاسماً فيه ، فلا بد أنهم كانوا في مقدمة الداعين للمرابطين للقضاء على ابن الأفطس ، وإلحاق مملكته داخل رواق الدولة المرابطية .

أما المستعين بالله بن هود فبالرغم من أنه كان يركن إلى النصارى

---

(١) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ٢ ، ص٩٦٥ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص١٤٠ .

(٢) تاريخ الأندلس ، ص١٠٦-١٠٧ .

المجاورين [١] ويسدي لهم المعونة أحياناً [٢] ، كما أنه في بعض المواطن تثاقل عن نصرة إخوانه المسلمين المتعرضين للحصار والقتل من طرف النصارى [٣] إلا أن يوسف بن تاشفين تركه يحكم مملكته [٤] " إيثاراً للعافية ، وإبقاءً على وحدة الجهود، ورغبة في إيجاد نوع من الجبهة الإسلامية المتحدة "[٥]، وبخاصة أنه ظل يُبدي ولاءه للمرابطين من جانب [٦]، ويقوم – أحياناً – بواجب الجهاد في سبيل الله من جانب آخر [٧] ؛ يضاف إلى ذلك أمر خاص بالمرابطين أنفسهم وهو أنهم – وقتذاك – لم يُخضعوا بعد منطقة شرقي الأندلس التي كانت تحول بينهم وبينه [٨] ، الأمر الذي يجعل تصفية سلطته -على ما يظهر- محفوفة بالمخاطر ، غير مضمونة النتائج . وبموت المستعين بالله عام٥٠٣هـ/١١١٠م [٩] كانت أملاك المرابطين في الأندلس قد زاحمت مملكة سرقسطة التي استشرف أهلها – آنذاك فيما يبدو – الانضمام إلى المرابطين لحمايتهم من القوى النصرانية [١٠] ، فصاروا أكثر صرامة مع حاكمهم الجديد

---

(١) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ١١٠ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ٧٥ .

(٢) ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص٣١ .

(٣) المصدر السابق ، ص٣٩ .

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص١٧٣ .

(٥) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص٣٢٠ .

(٦) ابن بسام : الذخيرة ، ق٢ ، م٢ ، ص٥٤٦ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص١٧٣ ، ١٧٤ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص٧٤ ، ٧٦ .

(٧) الطرطوشي : سراج الملوك ، تحقيق محمد فتحي أبو بكر ، ط . الأولى ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م ، جـ٢ ، ص٦٨٥ ؛ ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص١١٣ ، ١١٧ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص١٧٢ – ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٨) أحمد بدر : تاريخ الأندلس ، ص٢٣٤ .

(٩) ابن الأبار : الحلة ، جـ٢ ، ص٢٤٨ .

(١٠) حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسي ، ص١٨ .

عماد الدولة عبد الملك بن المستعين بالله إزاء النصارى ، فلم يرضوا بولايته عليهم إلا بعد " ما اشترطوا عليه ألا يستخدم الروم ، ولا يتلبس بشيء من أمرهم "[١] - ثم بعد ذلك لم يفِ عماد الدولة بن المستعين بالشرط الذي ألزمه نفسه من طرح الروم وتركهم ، فعزم على مداخلتهم "[٢] ، بل " تلبس بملك قشتالة ، وأنكر الناس ذلك "[٣] فاتصلوا بالمرابطين ، واستدعوهم للسيطرة على سرقسطة ، حيث فتح أهل المدينة أبوابها للمرابطين[٤] ، فامتلكوها في آخر سنة ٥٠٣هـ/ ١١١٠م بعد طرد عماد الدولة منها[٥] .

وظاهر الحال أن علماء الأندلس شاركوا بمشورتهم وتدبيرهم في ضم المرابطين لسرقسطة في عهد علي بن يوسف بن تاشفين . قال ابن سعيد[٦] " ونشأت نشأة من الفقهاء والمرابطين امتدت أيديهم وآمالهم ، وزينوا لعلي ابن يوسف أَخْذَ بلادِ الثغر من عماد الدولة " ، فالفقهاء -بلا ريب- هم الذين قالوا لعلي بن يوسف بن تاشفين عن بلاد ابن هود " الشرع يدعوك أن تسعى في أخذ تلك البلاد منهم ، لكونهم مسالمين للروم "[٧] . ومع أن ابن سعيد في كلامه المتقدم لم ينص على أن أولئك الفقهاء كانوا أندلسيين إلا أننا نكاد نقطع بأن كلهم أو بعضهم أندلسيون لأمرين :

---

(١) ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص ٥٣ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص١٧٥ .

(٤) ابن الأبار : الحلة ، جـ٢ ، ص٢٤٨ ؛ ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص٥٤ .

(٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص١٧٥ .

(٦) المغرب ، جـ٢ ، ص٤٣٨ .

(٧) مجهول : الحلل الموشية ، ص٩٨ .

أحدهما : كون فقهاء الأندلس تبوأوا لدى علي بن يوسف بن تاشفين مقاماً رفيعاً (١) ، وعلى رأسهم أبو عبد الله بن حمدين (ت٥٠٨هـ/١١١٤م) – أحد المشاركين في الجهاد – الذي تولى علي بن يوسف الحكم في الدولة المرابطية وهو يشغل منصب قاضي الجماعة ، فكان علي "لا يخالفه في شيء" (٢) .

وثانيهما : أن السيطرة على مملكة بني هود مسألة أندلسية بالدرجة الأولى ، ولن يجرؤ علي بن يوسف على الخوض فيها ما لم يجد مؤيداً له من فقهاء الأندلس .

ومهما يكن من أمر فإذا كان ما سبق يمكن أن يقال في حق علماء الأندلس بعامة تجاه مملكة بني هود فإن أثر علماء سرقسطة في ضمها إلى الدولة المرابطية لاشبهة فيه ، فاشتراط أهل سرقسطة على عماد الدولة بن هود معاداة النصارى أولاً ، ثم استدعاؤهم المرابطين للسيطرة على البلد ثانياً لن يتم – بالتأكيد – بدون تدبير علماء سرقسطة أنفسهم أو حتى موافقتهم على أقل تقدير .

وعلى صعيد آخر فما حدث في بلنسية أيام يوسف بن تاشفين يمكن أن يدخل في إطار وقوف علماء الأندلس في صف المرابطين من أجل توحيد أجزاء البلاد . ذلك أن الحكم فيها قد آل للقادر بالله بن ذي النون☆ في

---

(١) المراكشي : المعجب ، ص٢٣٥ .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ، ص٧٤ .

☆ القادر بالله هو يحيى بن إسماعيل بن المأمون يحيى بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذي النون الهواري (القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص٢٤٣) والهواري نسبةإلى هوّارة إحدى قبائل البربر البرانس (ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ص١٨٥) ولقد تولى القادر بالله الحكم في مملكة طليطلة بعد وفاة جده المأمون في آخر عام ٤٦٧هـ/١٠٧٥م (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص١٧٨-١٧٩) انظر أخباراً موسعة عن عهده في (ابن بسام : الذخيرة ، ق٤ ، م١ ، ص١٤٩-١٦٩) .

أواخر عام ٤٧٨هـ/١٠٨٦م [١] حيث دخلها تحت حراب جيش حلفائه نصارى قشتالة [٢] الذين كان ملكهم الفنش (الفونسو السادس) قد وعده بحكمها طبقاً لاتفاق سري بينهما تخلى بموجبه القادربالله عن طليطلة [٣]، فسقطت بيد الفنش (الفونسو السادس) في محرم سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م [٤] . ولقد صار القادر بالله يحكم بلنسية بحماية قوة نصرانية من قشتالة [٥] ، فلما غادرت هذه القوة بلنسية [٦] لم ينشب القادر بالله أن وقع تحت حماية القائد النصراني المرتزق القمبيطور[٧] ☆ ، ويظهر أن ذلك كان

(١) مجهول : نص في أخبار دول ملوك الطوائف (ملحق في : ابن عذاري :البيان ، جـ٣) ص٣٠٤ .
(٢) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص٨٦ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص١٨٢ .
(٣) ابن بلقين : التبيان ، ص٧٧ ، ١٥٣ ، ١٧٣ ؛ ابن بسام : الذخيرة ، ق٣ ، م١ ، ص٩٣ ؛ ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس ، ص٨٤ ؛ مجهول : نص في أخبار دول ملوك الطوائف ، ص٣٠٤ .
(٤) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص١٣٥ ، المقري : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٣٥٢ ، ٣٥٤ .
(٥) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص٨٦ .
(٦) ابن بسام : الذخيرة ، ق٣ ، م١ ، ص٩٣ ؛ ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص٩٢ .
(٧) ابن بسام : الذخيرة ، ق٣ ، م١ ، ص٩٥ .
☆ القمبيطور Campeador اسمه الأصلي رود ريجوديات دي بيار (عنان : دول الطوائف ، ص٢٣٢) ويأتي رسم اسمه في المصادر الإسلامية بـ " لذريق" أو "رذريق" (ابن بسام : الذخيرة ، ق٣ ، م١ ، ص٩٥) وهي الكتابة العربية لاسم رودريجو(الطاهر مكي: ملحمة السيد ، ط . مطابع دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ، ١٩٩١م ، ص١٢٨) ويرسم فيها آونة أخرى بـ " الكنبيطور " (ابن بسام : الذخيرة ، ق٣ ، م١، ص٩٥) أو الكنبيطور (ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص٣١) أو القمبيطور (ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص٩٩) أو القنبيطور ومعناه صاحب الفحص (مجهول : نص في أخبار دل ملوك الطوائف ، ص٣٠٥) يقابله في المصادر اللاتينية قائد الغارات في بلاد الأعداء(حسين مؤنس:السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين ، ص٤٤) وقد يأتي اسمه في المصادر النصرانية باسم السيد . ولد في قشتالة، فصار من أشهر فرسانها في عهد فرناندو الأول ، ثم غدا في عهد ابنه سانشو قائد جيوشها ثم نفى عن قشتالة في عهد الفونسو السادس الابن الثاني لفرناندو ، فاتجه إلى شرقي الأندلس ، فعمل تارة في خدمة بني هود ، وتارة أخرى لحسابه الخاص،وقد عاد في بعض الفترات إلى طاعة الفونسو السادس، وقد احتل بلنسية عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م ، فحكمها حتى وفاته عام ٤٩٣هـ/١٠٩٩م . انظر تفاصيل حياته =

سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م [١] . وقد تكفل له القادر بالله كفاء ذلك دفع مائة ألف دينار في العام [٢] ، فأمسى القمبيطور يعد بلنسية «له طاعة ، والقادر بها عامله» على حد تعبير ابن الكردبوس [٣] . وبسبب ذلك بلغت أحوال بلنسية تحت مظلة الحماية النصرانية غاية في السوء صورها أحد المؤرخين بدقة فقال عن القمبيطور «أخذ بمخنق بلنسية ، وألقى زَوْرَه عليها ، يجبى رعيتها ، ويستغلها حاضرة وبادية ، وقد استضعف ... ابن ذي النون ، ملكها المشئوم» [٤] . أما عن أعمال القادر بالله نفسه في بلنسية «فقد أحدث أحداثاً ، وغير أحكاماً ، وأظهر منكراً كثيراً» [٥] .

ومن المؤكد أن أهل بلنسية تبرموا أقصى التبرم بحكم القادر بالله ، إذ تولى عليهم بمعونة النصارى ، وجعل أمن المدينة بأيدي النصارى أيضاً ، وأرهقوا بالضرائب، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل قام القادر بتدابير انتهك فيها الحرمات بشكل سافر . إذن فلا عجب أن يسعى البلنسيون للخلاص مما ابتلوا به متى وجدوا نهزة ، أو سنحت لهم فرصة . وبما أن المرابطين الذين كانوا دعاة إصلاح مثلما كانوا دعاة جهاد [٦] -كانوا قد

= في (حسين مؤنس : السيد القمبيطور ص٤٣ - ٧٧ ؛ الطاهر مكي : ملحمة السيد ، ص٨٣-١٤٩ ؛ ستانلي بول : العرب في إسبانيا ، تعريب علي الجارم ، ط . دار المعارف بمصر ، ص١٧٥-١٨٥ ؛ Jose terrero : op. cit. ,p.٩٤-٩٨)

(١) أحمد بدر : تاريخ الأندلس ، ص٢٣٥ .
(٢) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص١٠٠ ، ١٠٣ .
(٣) تاريخ الأندلس ، ص١٠٠ .
(٤) ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص٣١ .
(٥) مجهول : نص في أخبار دول ملوك الطوائف ، ص٣٠٥ .
(٦) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص٣٠٠ ، محمد عبد الهادي شعيرة : المرابطون - تاريخهم السياسي، ط . الأولى مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٦٩م ، ص١٣٣ .

شرعوا في توحيد أجزاء البلاد فإن اقترابهم من تخوم بلنسية [(١)] كان أكبر محرك للبلنسيين للتخلص من القادر وحكمه الوبيل، والانضمام إلى الوحدة الجديدة تحت راية الدولة المرابطية. فبمجرد أن انشغل القمبيطور عن مدينتهم بمهمة عسكرية في شمال شرقي الأندلس [(٢)] اتفق أهل الحل والعقد في بلنسية،وعلى رأسهم القاضي جعفر بن حَجَّاف☆ وصاحب الأحكام ابن واجب☆☆ على الاتصال بالمرابطين[(٣)] .وثمة روايتان ، الأولى تقول إن ابن جحاف نهد بنفسه إلى القائد المرابطي محمد ابن عائشة☆☆☆ في دانية التي لا

---

(١) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص١٠٣ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٢٠٣ .

(٢) ابن الكردبوس :تاريخ الأندلس ، ص١٠٣ ؛ ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص٣١ .

☆ جعفر بن جحاف : هو أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن جحاف ، تولى الأحكام ثم القضاء في بلنسية ، ثم أسندت له ولاية بلنسية على إثر استدعاء البلنسيين قوة مرابطية ، والتخلص من حاكمها القادر بالله بن ذي النون حليف القمبيطور عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢ ، وقد ظل يحكم المدينة حتى سقطت بيد القمبيطور بعد حصار مرير ، ثم أقدم هذا الأخير على قتله حرقاً في جمادى الأولى سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م (ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٢٣٩-٢٤٠) انظر مزيداً من أخباره في : ابن بسام : الذخيرة ، ق٣ ، م١ ، ص٩٥-٩٩ ؛ الضبي : بغية الملتمس ، ص٢٥٧ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢، ص٢٠٣-٢٠٥ ؛ مجهول : نص في أخبار دول ملوك الطوائف ، ص٣٠٥-٣٠٦ .

☆☆ ابن واجب : اكتفى ابن عذاري عند ذكره له بقوله " ابن واجب صاحب الأحكام " فلم يخبرنا باسمه الأول (البيان ، جـ٤ ، ص٣١) ولقد ذكر ابن بشكوال عالم من بني واجب كان يتولى أحكام بلنسة اسمه عمر بن محمد بن واجب ، لكن وفاته كانت في شعبان عام ٤٧٦هـ/١٠٨٣م (الصلة ، جـ٢ ، ص٤٠٣) وهذا يعني أنه توفى قبل الأحداث المذكورة في المتن .وهناك عالم آخر من بني واجب في بلنسية معاصر لتلك الأحداث هو محمد بن واجب بن عمر بن واجب، ولد عام ٤٤٦هـ /١٠٥٥م وتولى القضاء في بلنسية ، وكانت وفاته في آخر عام ٥١٩هـ/١١٢٥م (ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٥٧٥) فلعل الثاني هذا هو المعني في نص ابن عذاري . وقد جزم بعض الباحثين – بلا تحفظ – أن هذا الثاني هو ابن واجب الذي ذكره ابن عذاري مجرداً من كنيته واسمه الأول (عبير زكريا سليمان بيومي : دور الفقهاء السياسي والحضاري في الأندلس في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب ، جامعة طنطا ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م ، ص ١٤٤) .

(٣) ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص٣١ .

☆☆☆ محمد بن عائشة : هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن تاشفين (ابن الأبار : المعجم ، ص٥٤) ونسبته إلى أمه عائشة من العادات الذائعة عند المرابطين (النويري: نهاية الأرب، جـ٢٤ ، ص٢٦٥) كان والده –

تبعد سوى خمسة وستين ميلاً عن بلنسية [١] ، ودعاه لدخول بلدهم بلنسية ؛ ولأن ابن عائشة لم يكن – وقتها – قادراً على مغادرة موقعه – ربما لاعتبارات عسكرية – فقد بعث فوراً مع ابن جحاف كتيبة من الجند عليها أحد القادة نيابة عنه [٢] . والأخرى تقول إن ابن عائشة أرسل تلك الكتيبة من مُرْسِيَة بعد أن اتصل به أهل بلنسية ، فلما وصل قائد الكتيبة « خرج القاضي ابن جحاف والفقهاء لتلقيه وإدخاله البلد » [٣] . وعلى أي حال فبحلول تلك القوة المرابطية في بلنسية حاول القادر بالله بن ذي النون الفرار، ولكن تم القبض عليه ، وقتل في رمضان عام ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م [٤] ، فأسند أهل بلنسية أمرهم إلى القاضي ابن جحاف [٥] بعد أن صارت مدينتهم تابعة رسمياً للمرابطين [٦] .وقد صرح ابن جحاف بذلك في كتابه إلى القمبيطور الذي أقبل إلى بلنسية مسرعاً عندما لامس سمعه نبأ مقتل حليفه القادر ، وطالب ابن جحاف المؤن الكائنة في الحصون المحدقة بالمدينة ، حيث قال « أن البلد لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين » [٧] .

= يوسف قد نصبه والياً على مرسية (ابن الأبار : المعجم ، ص٥٤) فكانت له جهوده النشطة في ضم عدد من مدن شرقي الأندلس إلى الدولة المرابطية (ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص١٠١-١٠٢) ولقد بقي والياً على مرسية إلى أن اشترك في جهاد نصارى برشلونة عام ٥٠٨هـ/١١١٤م فاعتل بصره على إثر ذلك، ثم لم يلبث أن فقد بصره تماماً ، فاستدعاه أخوه علي بن يوسف إليه في مراكش (ابن الأبار : المعجم، ص٥٤) .

(١) الإدريسي : صفة المغرب ، ص١٩٢ .

(٢) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص١٠٣ .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص١٨٢ .

(٤) ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص٣١-٣٢ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص١٨٢ ، ٢٠٣ .

(٥) مجهول : نص في أخبار دول ملوك الطوائف ، ص٣٠٥ .

(٦) مجهول : الدرر النثيرة في أخبار الجزيرة ، ورقة ١١٠أ .

(٧) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٢٠٣ .

وبصرف النظر عما حدث بعد ذلك في بلنسية فإنه قد استبان لنا فيما مضى أثر نفر من العلماء في دعوة المرابطين لدخول بلنسية في تلك الحقبة ، ومن ثم نظمها في سلك الوحدة المرابطية المتنامية .

٢ – نشاطهم في دعم وحدة الأندلس تحت حكم المرابطين :

ومثلما كان لعلماء الأندلس الأثر الملموس في وحدة بلادهم تحت علم الدولة المرابطية فإن مسلكهم المتناغم مع حكام المرابطين فيما بعد كان من أفعل الدعائم لتلك الوحدة وتماسك أجزائها أمام العدو النصراني المستوفز لضرب المسلمين . فالعلماء الأندلسيون أَلْفَوا في المرابطين الصفات التي طالما استشرفوا إليها ، وتمنوا وجودها في حكامهم لانتشال البلاد من الانحدار الذي كانت تُهْطِعُ نحوه ، والتفسخ الذي كانت تئن من وطأته . فهؤلاء المرابطون – كما وصفهم أحد المؤرخين « أمة جديدة الإسلام ، شديدة الاعتزام ، مظهرة للقيام بالحق ، مجاهدة مَنْ زاغ عن الشريعة »[1] . ولذا فلا عجب أن يتمسك علماء الأندلس – وبخاصة من لهم ثقلهم في المجتمع – بحبل الدولة المرابطية ، ويسيروا في ركابها ، ويحرصوا على بقاء حكم الأندلس بعهدتها . وثمة بينات متنوعة تشهد بذلك ، منها أن كثيراً منهم ارتبط بجهاز الحكم المرابطي في الأندلس ، وذلك عن طريق شغلهم خططاً دينية شرعية سواء بتكليف صريح من حكام الدولة ، أو بشغلهم أياها على الأقل أثناء الفترة المرابطية☆ . كذلك كان العديد منهم ذا صلة وطيدة ،

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٢٤٥ .

☆ انظر الفصل الأول من هذا الكتاب .

أو علاقة حسنة بالحكام المرابطين☆ ، وقد تفاعل الجميع في قضية الجهاد ضد النصارى ، فكان العلماء الأندلسيون يخرجون إلى ساحات الوغى مصاحبين آونة حاكم الدولة المرابطية نفسه [١] ، وآونة أخرى بصحبة الولاة أو القادة [٢] .

وعلى مستوى آخر فإن بعض العلماء لم يقتصر على ما مضى بل راح يبث الدعاية للمرابطين في أوساط المجتمع الأندلسي ، وذلك بالثناء عليهم ، وتزكية حكمهم ، أو إطراء بعض زعمائهم ؛ ففي إجابة ابن رشد الجد (ت٥٢٠هـ/ ١١٢٦م) عن سؤال خاص باللثام الذي كان المرابطون لا ينفكون عن لبسه قال إن المرابطين "قاموا بدعوة الحق ، ونصرة الدين" [٣] فحين يلتزمون بذلك اللثام "تظهر كثرتهم ، ويتوفر في أعين الناس عددهم" [٤] وهذا "غيظ للمشركين ، وعز للمسلمين ، لأنهم حماتهم الذابون عنهم والمجاهدون دونهم" [٥] ☆☆ . كما امتدح أيضاً أبو بكر العربي (ت٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) في كتابه "عارضة الأحوذي في شرح سنن الترمذي"☆☆☆

☆ انظر الفصل الأول من هذا الكتاب .

(١) ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص٦٤ .

(٢) ابن الأبار : المعجم ، ص٤ ، ٥ ، ٥٧ ؛ السخاوي : الإعلان بالتوبيخ ، ص٥٩-٦٠ .

(٣) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ٢ ، ص٩٦٥ .

(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٥) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

☆☆ وقد نُقل عنه وصفه للمرابطين بأنهم " حماة الدين " (عثمان بن فودي : نجم الإخوان يهتدون به بإذن الله تعالى في أمور الزمان ، مخطوط مجموعة صكت ، مجلد ١ ، مظروف رقم ١ ، مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا ، جامعة أحمدوبيللو ، زاريا ، نيجيريا . ورقة ٤٧) .

☆☆☆ في المطبوع من كتاب " عارضة الأحوذي " لابن العربي لايوجد النص المذكور في المتن . لكن المتأمل للكتاب يخال الأبواب الأخيرة من كتاب الزهد في سنن الترمذي قد سقط شرحها من كتاب العارضة ، فلم يكن لها أثر في الأصول التي اُعتمد عليها في نشر الكتاب (ابن العربي : عارضة الأحوذي ، جـ٩ ، ص٢٢٥) فهل يا ترى ما قاله ابن العربي عن المرابطين يقع ضمن هذا المقطع الذي ضاع من الكتاب ؟

المرابطين ، فقال « المرابطون قاموا بدعوة الحق ، ونصرة الدين ، وهم حماة المسلمين الذابون عنهم ، والمجاهدون دونهم ولو لم يكن للمرابطين فضيلة ولا تقدم ولا وسيلة إلا واقعة الزلاقة ... لكان ذلك من أعظم فخرهم ، وأربح تجرهم »(١) . ولقد أثنى أبو محمد بن عطية (ت٥٤١هـ/١١٤٧م) على المرابطين ، واتخذ من اللثام الذي كانوا يستخدمونه أداة لذلك الثناء ، فطوّر معنى التلثم لديهم ، حيث أعطاه « وظيفة الكمامة للزهرة أيام السلم والرخاء لكنه يتحول إلى جلد أفعى أوقات الحرب والشدة »(٢) ، فقال :

إذا لُثّموا بالرَّيْط☆ خِلْتَ وجوهَهم أزاهيرَ تبدو من فتوقٍ كمائم
وإن لُثّموا بالسابرية☆☆ أبرزوا عيون الأفاعي في جلود الأراقم☆☆☆(٣)

ولقد أثنى أبو عبد الله بن الحاج☆☆☆☆ (ت٥٢٩هـ/١١٣٤م) على عامل المرابطين على إشبيلية سِيْر بن أبي بكر☆☆☆☆☆ خيراً ، فأشاد بجهاده

---

(١) مجهول : الحلل الموشية ، ص١٤٠ .

(٢) السعيد : الشعر في عهد المرابطين والموحدين ، ص١٠٧ .

☆ الريط : جمع ريطة ، وهو كل ثوب لين رقيق (ابن دحية : المطرب ، ص٩١ ، حاشية ٣) .

☆☆ السابري: درع دقيقة النسج محكمة، تنسب إلى سابور الفارسي (الزبيدي:تاج العروس،جـ٦، ص٤٩٢).

☆☆☆ الأراقم : بمعنى الحيات (البلوى : ألف باء ، جـ٢ ، ص٥٠١) .

(٣) ابن دحية : المطرب ، ص٩١ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص٩ .

☆☆☆☆ أبوعبد الله بن الحاج هو محمد بن أحمد بن خلف بن لب بن بيطير التجيبي ، قاضي الجماعة في قرطبة. كان من حلة الفقهاء وكبار العلماء ، بصيراً بالفتوى ، رأساً في الشورى ، معتنياً بالحديث والآثار والأنساب واللغة والشعر والسير والأخبار .وقد ولي قضاء الجماعة في قرطبة مرتين ؛ حيث قتل وهو على رأس عمله في القضاء في صفر سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م ، وذلك بجامع قرطبة أثناء سجوده في الصلاة (عياض : الغنية ، ص١١٧ – ١٢٢ ؛ ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٥٨٠ – ٥٨١ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ١٩ ، ص٦١٤-٦١٥ ؛ المقري : أزهار الرياض ، جـ٣ ،ص٦١-٦٢) .

☆☆☆☆☆ سبق التعريف به في الفصل الأول .

للأعداء ، وقد تضمن هذا الثناء تزكية للدولة المرابطية ، ودعاءً بالجزاء الأوفى لحكامها ، حيث قال عن سير " وكان رحمه الله من نصحاء هذه الدولة المباركة ، وصدراً من أوليائها ، شد الله أزرها ، ورفع في الخير والتقوى علمها – مع ما كان عليه فيما اتصل بنا – من التوسع بالأجناد ، ومن آثاره الواضحة في الجهاد . والله يجعل ذلك في ميزان أمير المسلمين وناصر الدين ، ونوراً بين يديه وعن يمينه يوم ميعاده بفضل الله تعالى ورحمته "[(١)] .

وشهد أبو بكر بن العربي [(٢)] (ت٥٤٣هـ/١١٤٨م) لسير بن أبي بكر هذا بالعدل فقال " كان ببلدنا أمير يقال له سير بن أبي بكر ، فكلمته أن يسأل لي رجلاً حاجة ، فقال لي : أما علمت أن طلب السلطان الحاجة غصبٌ لها . فقلت : أما إذا كان عدلاً ، فلا " ☆ .

ولايغرب عن البال أن المديح والإطراء قد تهاطل بغزارة على المرابطين وحكامهم من قبل جمهرة كبيرة من أرباب الألسنة والأقلام المعاصرين لهم في الأندلس كالكتاب والأدباء [(٣)] والشعراء [(٤)] والمؤرخين [(٥)] ونحوهم ، ولكننا آثرنا ألا نتكأ عليهم ، لأن أقوالهم في أولئك المرابطين ومن

---

(١) الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ٩ ، ص٦١٣ .

(٢) أحكام القرآن ، ق٤ ، ص١٦٣٣ .

☆ ولقد أنشأ أبو محمد بن عطية (ت٥٤١هـ/١١٤٧م) قصيدة مَدَحَ بها عبد الله بن مزدلي أحد قادة وعمال الدولة المرابطية (الضبي : بغية الملتمس ، ص٣٩٠-٣٩١) .

(٣) انظر مثلاً : ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق١ ، ص٤٥ ؛ ابن بسام : الذخيرة ، ق٢ ،م١ ، ص٢٥٥ ؛ ق٢ ، م٢ ، ص٥٤٧ ، ٦٦٠ ؛ ق٤ ، م١ ، ص١٦٩ .

(٤) انظر على سبيل المثال : ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص٤٧ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٤ ، ص٣٥٣، ٤١١.

(٥) انظر مثلاً : ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٣ ، ص٢٧٥ ، جـ٤ ، ص٣٤٩ .

ينتمي إليهم - وإن طابقت الواقع أحياناً - فإنه لا يطمئن إليها بحال من الأحوال كالاطمئنان إلى ما قاله فيهم علماء الدين الموقعون عن رب العالمين. فعلماء الدين عامة عرفوا عند المسلمين بترفعهم - إلا فيما ندر - عن مديح السلاطين ، والتهالك في إطرائهم بخلاف حال غيرهم [(١)] . وحيث أن ابن رشد وابن الحاج وابن عطية وابن العربي الذين سقنا أقوالهم قبل قليل كانوا من أعلام العصر في العلم الشرعي فإن ما تفوهوا به في حق المرابطين وحكامهم سيكون له أكبر الأثر في التفاف الجماعة الأندلسية حول الدولة المرابطية ، ودعم وحدة الأندلس تحت رايتها ، وبخاصة إذا توقعنا أن ما أثبته أولئك الأعلام في مصنفاتهم من إطراء وثناء على المرابطين ما هو إلا صدى لما كانوا يرددونه عنهم في دروسهم ومجالسهم الخاصة والعامة .

وشيء تبناه علماء الأندلس ، وكان له أثره البالغ في إضفاء الشرعية على دولة المرابطين ، وبالتالي في دعم وحدة البلاد تحت سلطانهم ، وهو حضهم يوسف بن تاشفين على الاتصال بالخلافة العباسية ، وطلبه منها الاعتراف بحكمه رسمياً على بلاد المغرب والأندلس☆ . فلقد ورد أن " الفقهاء

---

(١) عبد الله كنون : أدب الفقهاء ، ط . دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٨٨م ، ص١٢١ ، ١٢٢؛ منير الدين أحمد : تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس الهجري ، ترجمة سامي الصقار ، ط . دار المريخ ، الرياض ١٩٨١م ، ص١١٦ .

☆ ومما هو خليق بالبيان هنا معرفة أن المرابطين دعوا للعباسيين منذ وقت مبكر ، يدل على ذلك دينار مرابطي ضُرب في سجلماسة سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م كُتب على ظهره " الإمام عبد الله أمير المؤمنين " التي تعني الخليفة العباسي (عبد رب النبي بن محمد: مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال إفريقيا والأندلس ، رسالة ماجستير في كلية الشريعة بمكة المكرمة عام ١٣٩٨هـ-١٣٩٩هـ ، ص٢١، ٢٩ ؛ ريتشارد بلانت : النقود العربية والإسلامية ، تعريب بسام سروج وإبراهيم سروج ، ط.الأولى، مكتبة السائح ، سوريا ١٩٩٤م ، ص٦٤) ومن يقول بأن المقصود بهذا اللقب هو داعية المرابطين عبد الله -

بالأندلس قالوا لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين : إنه لا تجب طاعتك على المسلمين حتى يكون لك عهد من الخليفة »(١) . وكان ذلك بعد سنة ٤٨١هـ /١٠٨٨م☆ فأرسل يوسف إلى الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله☆☆ فجاء الرد منه☆☆☆ بالاعتراف والتقليد (٢) ، فأصبح يوسف في نظر أهل الأندلس -آنئذ- الداعي الأكبر للخلافة العباسية في الغرب الإسلامي (٣) الذي ينبغي الانتظام في طاعته، والانضواء تحت لوائه. ولم يقف علماء الأندلس عند دعوة ابن تاشفين للحصول على تقليد من الخلافة بشرعية ولايته على المغرب والأندلس بل وصل أحدهم - وهو أبو محمد بن العربي

= ابن ياسين المتوفي سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م لاحجة له ، لأن هذا اللقب استمر في مسكوكات المرابطين بعد اعتراف الخلافة العباسية رسمياً بالمرابطين (عبد رب النبي بن محمد : مسكوكات المرابطين ، ص٢٨ ، ٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ؛ حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص٣٣٥ ؛ إحسان عباس : الجانب السياسي من رحلة ابن العربي إلى المشرق ، مجلة الأبحاث ، السنة ١٦ ، جـ٢ ، حزيران ١٩٦٣م ، ص٢٢٤-٢٢٥) .

(١) النويري : نهاية الأرب ، جـ٢٤ ، ص٢٧٢ .

☆ ذكر ابن الأثير أن مشورة علماء الأندلس على يوسف للاتصال بالخليفة العباسي كانت بعد عودته إلى مراكش من موقعة لييط في الأندلس (الكامل ، جـ١٠ ، ص١٥٥) وموقعة لييط كانت في ربيع الأول عام ٤٨١هـ/١٠٨٨م (ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص١٥٢) .

☆☆ تولى المقتدي بأمر الله الخلافة في شعبان عام ٤٦٧هـ/١٠٧٥م وتوفي في محرم عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م انظر أخباره في (ابن العمراني : الإنباء في تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السامرائي ، ط . الثانية ، دار العلوم ، الرياض ١٩٨٢م ، ص٢٠١-٢٠٥) .

☆☆☆ ومما يذكر هنا أن عتيق بن عمران الربعي السبتي لما حل بالإسكندرية عام ٤٨٤هـ/١٠٩١م وُجدت معه كُتب من المقتدي بأمر الله إلى يوسف بن تاشفين ، فقتله أمير الجيوش (ابن عساكر : تاريخ دمشق ، جـ١١ ، ورقة ٦٤ ؛ ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق ، جـ١٦ ، ص٧١) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص١٥٥ .

(٣) إبراهيم حركات : النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين ، ط . مكتبة الوحدة العربية ، الدار البيضاء ، ص٥١ .

(ت٤٩٣هـ/١٠٩٩م) وبصحبته ابنه أبو بكر (ت٥٤٣هـ/١١٤٨م) إلى المشرق [(١)] ، وحصل من الخليفة العباسي المستظهر بالله☆ على مرسوم حرر في رجب عام ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م يشيد فيه بولاء يوسف للخلافة العباسية ، وإخلاصه في الاعتصام بحبلها [(٢)] ☆☆ . وبعد التنويه بجهاده للكفار جاء فيه " فهذا هو الواجب اعتماده الذي يقوم به من الشرع عماده ، ويؤلف شمل من في جملته من الأجناد على الطاعة الإمامية التي هي العروة الوثقى ... " [(٣)] .

ولقد عمل أبو محمد بن العربي على تعضيد مرسوم الخليفة ، فاجتمع في بغداد بأبي حامد الغزالي [(٤)] (ت٥٠٥هـ/١١١١م) فأطلعه على أوضاع الأندلس قبل يوسف بن تاشفين ثم أوضاعها بُعيد شروعه في القضاء على ملوك الطوائف [(٥)] ، ويسترعى الانتباه هنا أنه عَمِدَ إلى استفتائه في مسألة ذات مساس كبير بوحدة الأندلس تحت سلطان المرابطين ، حيث سأله عن الحكم الشرعي في طائفة من رؤساء ثغر الأندلس الشرقي ، حالفوا النصارى،

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ، حـ١ ، ص٢٨٩ .

☆ تولى المستظهر بالله الخلافة في محرم عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م ، وتوفى في ربيع الأول عام ٥١٢هـ/١١١٨م انظر أخباره في (ابن العمراني : الإنباء في تاريخ الخلفاء ، ص٢٠٦-٢٠٩) .

(٢) ابن العربي : رسائل أبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي ، ص١٩٠-١٩١ .

☆☆ اختلف في مبتدأ رحلة أبي محمد بن العربي وابنه أبي بكر إلى المشرق بين كونهما رحلا عن الأندلس إلى المشرق خوفاً من تغير الأوضاع بعد استيلاء يوسف بن تاشفين عليها (ابن خاقان : مطمح الأنفس ص٢٩٨) وبين كونهما قاما بها ابتداءً بتوجيه من يوسف بن تاشفين (ابن خلدون : العبر ، حـ٦ ، ص٢٥٠) انظر مناقشة لهذا الاختلاف في : (إحسان عباس : الجانب السياسي من رحلة ابن العربي ، ص٢١٩-٢٢٨؛ أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، ص١٠٢-١٠٤) .

(٣) ابن العربي : رسائل أبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي ، ص١٩١ .

(٤) المصدر السابق ، ص٢٠٠ .

(٥) المصدر السابق ، ص١٩٥-١٩٦ .

وتلكأوا في الدخول في بيعة يوسف بن تاشفين ، بحجة أنه لا جهاد إلا مع إمام من قريش أو نائبه ، وابن تاشفين لم يثبت لديهم رسمياً ارتباطه بالخلافة العباسية ليصبح بمثابة نائب عن الإمام القرشي [١] ، فكان مما جاء في فتواه " إذا نادى الملك المستولي بشعار الخلافة العباسية وجب على كل الرعايا والرؤساء الإذعان والانقياد ، ولزومهم السمع والطاعة ، وعليهم أن يعتقدوا أن طاعته هي طاعة الإمام ، ومخالفته هي مخالفة الإمام ، وكل من تمرد واستعصى وسل يده عن الطاعة فحكمه حكم الباغي " [٢] ، ثم أوضح ما يراه في أولئك الرؤساء فقال " فيجب على الأمير [يوسف] وأشياعه قتال هؤلاء المتمردة على طاعته لاسيما وقد استنجدوا بالنصارى " [٣] إلى أن يقول " فمن أعظم القربات قتالهم إلى أن يعودوا إلى طاعة الأمير العادل المستمسك بطاعة الخلافة العباسية ... " [٤] . وبجانب ذلك ظفر أبو محمد بن العربي على رسالة من الغزالي موجهة إلى يوسف بن تاشفين فيها تزكية له ، وإشادة بجهاده وعدله [٥] . ومن الملاحظ أنه قد حلي اسمه فيها بـ "جامع كلمة الإسلام" [٦] مرة، " وجامع كلمة المسلمين " [٧] مرة أخرى. حمل أبو محمد كل هذه المكتوبات ، وتوجه – ومعه ابنه أبو بكر – إلى الأندلس ، ولكنه

---

(١) ابن العربي : رسائل أبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي ، ص١٩٦-١٩٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٩٨ .

(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٠٠-٢٠٤ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٢٠١ .

مات في مصر سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م [١] فاحتفظ بها ابنه أبو بكر بن العربي، وأضاف إليها رسالة كتبها في الإسكندرية أبو بكر الطرطوشي (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م) إلى يوسف بن تاشفين ، وكان بإيعاز من أبي بكر بن العربي نفسه ، وقد تضمنت نصيحة مطولة ليوسف ، وتحريض له على مواصلة جهاد الأعداء [٢] . والظاهر أن أبا بكر بن العربي لما فاء إلى بلاده اجتهد في إيصال تلك الكتابات والرسائل إلى يوسف بن تاشفين☆ ، ولابد أن هذا حرص على نشرها بين أهل الأندلس لما فيها من تأييد له ، وتأصيل لولايته على المغرب والأندلس ، ودحض لدعاوى المناوئين لحكمه من بقايا حكام الطوائف ومناصريهم ، فكتاب الخليفة – مثلاً – ثبت لدينا أن الناس تناقلوه فيما بينهم [٣] . وإذا كان كتاب الخليفة قد أُذيع بين الناس فمن باب أولى أن يَنْشر ابن تاشفين فتاوى ورسائل أبي حامد الغزالي وأبي بكر الطرطوشي المؤيدة له ولقومه المرابطين والتي جلبها من المشرق أبو بكر بن العربي الأندلسي . فهذان العالمان كانت لهما منزلة علمية مرموقة في بلاد المسلمين [٤] لاسيما الغزالي الذي طبقت شهرته الآفاق [٥] . ولذا فإن أقوالهما في يوسف ستكون – حتماً – محل إجلال علماء الأندلس والعامة ،

---

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ١٩ ، ص١٣١ .

(٢) ابن العربي : رسائل أبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي ، ص ٢٠٤ – ٢١٧ .

☆ حزم سعيد أعراب – دون استناد على نصوص بينة – بأن ابن العربي دخل مراكش ، وقابل فيها يوسف ابن تاشفين شخصياً ، وأعطاه ما يحمله من رسائل تخصه (مع القاضي أبي بكر بن العربي ، ص٧٦-٧٧) .

(٣) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص٢٥٠ .

(٤) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص١٠ ، ٦٢ .

(٥) ابن العربي : رسائل أبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي ، ص١٩٥ .

وفي ذلك دعم كبير لوحدة الأندلس ، واتفاق كلمة أهلها على الحكم المرابطي ، ومن ثم وقوفهم صفاً متراصاً في مجابهة الأعداء النصارى .

٣ – وقوفهم ضد الأعمال المؤدية إلى تفتيت الوحدة :

وبما أن علماء الأندلس كانوا من أكبر الداعين إلى الوحدة في بلادهم عند انتثارها شيعاً وأحزاباً ، ثم أعانوا على نظم حلقاتها حلقة حلقة تحت السلطة المرابطية – فمن الطبيعي أن نراهم يتعاهدون تلك الوحدة التي أضحى أهل الأندلس يرفلون في خيرها ، ويتقلبون في جوانحها ، فيؤكدون في المناسبات على الناس بوجوب طاعة أولي الأمر القائمين بحقوق الله ، والوفاء بعهدهم [١] ، والدعوة إلى الإبقاء على حكمهم القائم بالأندلس ، وعدم القدح فيه وإن ظهر منهم تقصير في بعض الأمور [٢] . كما كانوا – أيضاً – يحذرون من شق عصا الطاعة ، ومفارقة الجماعة [٣] . وقد تصدوا لكل ما يفتت الوحدة ، ويفرق الأمة ولو كان أمراً محدوداً ، فمثلاً ابن العربي (ت٥٤٣هـ/١١٤٨م) مَنَعَ من بناء مسجد رأى أن الهدف منه تشتيت الكلمة، فعندما ذكر رأي الفقهاء القائلين بأن لا صلاة في مسجد واحد جماعتين علق بقوله " وذلك أن الجماعة إنما شُرِّعتْ في الصلاة لتأليف القلوب، وجمع الكلمة ، وصلاح ذات البين ، والتشاور في أمور الإسلام ، فلا تكون إلا واحدة ، ولو طرق فيها إلى التبعيض والتثنية لأفسد هذا النظام، وتنافرت القلوب ، وافترقت الكلمة ... " [٤] إلى أن يقول " ولذلك منعنا

(١) الكلاعي : إحكام صنعة الكلام ، ص١٧٦ .

(٢) ابن العريف : مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة ، تحقيق عصمت دندش ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٣م ، ص٢١٣ .

(٣) ابن أبي الخصال : رسائل ابن أبي الخصال ، ص ٥٧٨ .

(٤) ابن العربي : القبس ، جـ١ ، ص٢٠٤ – ٢٠٥ .

من بنيـان مسجد آخر يقصد به تفريق الكلمة ، وتشتيت الجامعة »[(١)] .

ولقد وقف قاضي الجماعة في قرطبة أبو عبد الله بن حمدين (ت٥٠٨هـ/١١١٤م) موقفاً متصلباً ضد محاولة انشقاقية على الحكومة المرابطية خطط لها والي قرطبة أبو عبد الله بن الحاج☆ في مطلع عهد علي بن يوسف بن تاشفين بتلكؤه عن إرسال البيعة له[(٢)] . حيث أن ابن الحاج هذا منذ أن عَلِمَ باشتداد المرض بيوسف بن تاشفين عام ٤٩٩هـ/١١٠٥م[(٣)] بَيَّتَ النية للامتناع عن البيعة من بعده بالحكم لابنه علي ، فحشد في قرطبة ما استطاع من مؤيدين له في مشروعه ، واستشار قاضي الجماعة ابن حمدين فيما دَبَّر له ، ولكن ابن حمدين ما استساغ فعله رغم ما وجده من ضغوط من جانب ابن الحاج وشيعته ، بل إنه طفق بكل ما أُوتي من طاقة لنقض ما أبرمه ابن الحاج[(٤)] ☆☆ ، فانتهى الأمر بالقبض عليه ، وإفساد

---

(١) ابن العربي : القبس ، جـ١ ، ص٢٠٥ .

☆ وابن الحاج هو أبو عبد الله بن الحاج داود اللمتوني كان من قادة المرابطين الذي أعانوا يوسف بن تاشفين في ضم الأندلس ، كما خاض معارك مهمة ضد النصارى (ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص٩٦، ١٠٨، ١٠٩) وقد ولي قرطبة حتى جرت نكبته بعد حركته المذكورة أعلاه، ثم عفا عنه علي ابن يوسف بعد ذلك (ابن الأبار: المعجم، ص١٣٨؛ مجهول: الدرر النثيرة في أخبار الجزيرة، ورقة٨٣أ) وولاه مدينة فاس في سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م ، ثم نقله بعد ستة أشهر إلى ولاية سرقسطة (ابن الأبار : المعجم ، ص١٣٨ ؛ ابن أبي زرع :الأنيس المطرب ، ص ١٥٩ ، ١٦٠) وقد لقي ربه في موقعة مع النصارى سنة٥٠٨هـ/١١١٤م (المعجم، ص١٣٨؛ ابن عذاري : البيان ، جـ٤، ص٦١؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص١٦٠-١٦١) ونشير إلى أن محمد الطاهري تعرض لحياته في مقال له بعنوان : حول ابن أبي الخصال ، مجلة دعوة الحق ، عدد ٢٦٦ ، محرم ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م ، ص ٨٥ -٨٧) .

(٢) ابن الأبار : المعجم ، ص ١٣٨ .

(٣) ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص٤٥ .

(٤) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق٣ ، ص٦١١ .

☆☆ نلفت الانتباه إلى أن محقق " قلائد العقيان " ظن خطأً أن ابن الحاج المشار إليه في المتن هو أبو الحسن جعفر بن الحاج (ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق٣ ، ص٦١١ ، حاشية ٣ ، ق٢ ، ص٤٠٠) .

تدبيره (١) ، وواضح أن تصدى ابن حمدين لابن الحاج ، وسعيه الجازم لإحباط حركته☆ ينم عن إدراك لخطورتها على وحدة الدولة المرابطية ، سيما وأن مسألة الحكم بعد يوسف قد بُتَّ فيها في آخر عام ٤٩٦هـ/١١٠٣م بالبيعة لعلي بن يوسف بولاية العهد (٢) ، وموافقة أهل المغرب والأندلس عليها في حينه (٣) ، علاوة على كون علي في مرض والده كان يدير شؤون الدولة (٤) . ثم إن الأندلس ستتضرر بهذه الحركة أكثر من غيرها، إذ لو كتب لها الانبعاث فستكون بؤرتها قرطبة ، وبما أن هذه الأخيرة كانت يومذاك مركز الحكم المرابطي في الأندلس (٥) فمن المنتظر أن لا ينحصر لهيب الحركة عليها، بل سيتجاوزها إلى بقية المدن الأندلسية ، وغير خاف ما قد يُسفر عن ذلك من تشرذم وضعف أمام العدو النصراني المتربص بالبلاد.

وقد كان لابن رشد الجد (ت ٥٢٠هـ/١١٢٦م) أثر متميز في التصدي لحركتين أوشكتا أن تحدثا انفلاتاً في وحدة الأندلس إبان الحكم المرابطي ، إحداهما فتنة قرطبة الحادثة في آخر سنة ٥١٤هـ/١١٢١م (٦) وملخصها أن الناس خرجوا في عيد الأضحى متفرجين ، فأمسك أحد عبيد والي قرطبة المرابطي☆☆ بامرأة ، فاستغاثت بمن حولها ، فأغاثوها فوقع بين

---

(١) ابن الأبار : المعجم ، ص ١٣٨ .

☆ أشار الأصفهاني إلى موقف ابن حمدين من هذه الحركة (خريدة القصر ، ق٤ ، حـ٢ ، ص٥٠٧) .

(٢) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص١٥٦ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، حـ٢ ، ص٥٢١ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص٧٨ .

(٣) ابن الكرديبوس : تاريخ الأندلس ، ص ١١٣ ؛ ابن عذاري : البيان ، حـ٤ ، ص ٤٢-٤٣ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، حـ٢ ، ص ٥٢٠ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ٧٩ .

(٤) سلامه الهرفي : دولة المرابطين ، ص ٦٨ .

(٥) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق١ ، ص٤١٥ ؛ الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٤٤٩ .

(٦) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق١ ، ص٨٢ (نقلاً عن ابن عذاري : أوراق مخطوطة من البيان).

☆☆ اختلفت المصادر في تسمية هذا الوالي ، فهو أبو بكر يحيى بن رواد (ابن الأثير : الكامل ، حـ١٠ ، ص٥٥٨) أو أبو بكر يحيى بن داود (النويري : نهاية الأرب ، حـ٢٤ ، ص٢٧٤) أو أبو يحيى بن رواد (مجهول : الحلل الموشية ، ص ٨٦) .

الجند وأهل قرطبة فتنة دامت طوال النهار، وحينئذ اجتمع الفقهاء والأعيان بالوالي، وطلبوا منه قتل مَنْ تسبب في الفتنة ، ولكنه أبى واستعد لقتالهم من الغد☆ ، فجرى بين الجانبين اشتباك هُزم فيه الوالي ، وفر من القصر الذي أُنتهب على إثر ذلك [١] . وثمة رواية أخرى تشير إلى أن ما وقع في عيد الأضحى من تجمع كان للتفرج على تجربة لمجانيق وآلات حربية اكتملت صناعتها ؛ حيث خرج الوالي وجنده ، وخرج بخروجهم جم غفير من الناس « فكثر التدافع والتزاحم، ودُهِمَ الحشم » . وفي تلك الأثناء هاجم لفيف من العامة قصر الوالي، فاقتحموه وانتهبوا ما فيه [٢] . ويتراءى لنا أنه لا تعارض بين الروايتين فكل واحدة منهما تكمل الأخرى ، فما أغفلته هذه كشفته تلك . ويمكن الجمع بينهما أن الوالي وجنده وأهل قرطبة خرجوا يوم عيد الأضحى للتفرج على تلك المجانيق ، وفي وسط الزحام وقع التحرش بتلك المرأة ، وساعتها استغل الرعاع ذلك في السطو على القصر ونهبه .

وعلى أي حال فما يهمنا معرفته هنا على وجه الخصوص أن ابن رشد تدخل لتدارك الموقف إذ « ركب ... في أعلام الفقهاء ، فردع العامة ، وقمع السفلة » [٣] . فكأنه أراد بذلك أن يضع حداً للتجاوزات التي ارتكبها الدهماء من الناس ، وأعظمها اجتراؤهم على انتهاك قصر الحكم في المدينة الذي يمثل السلطة المرابطية . تلك السلطة التي جمع الله بها شمل الأندلسيين بعد فرقة ، فأمنوا بعد خوف ، وعزوا بعد ذلة . والملاحظ أن القرطبيين لم

☆ وصم الذهبي والي قرطبة بالظلم (تاريخ الإسلام – حوادث ووفيات ٥٠١–٥٢٠هـ ، ص ٢٩١) .

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص ٥٥٨ ؛ النويري : نهاية الأرب ، جـ٢٤ ، ص ٢٧٤ – ٢٧٥.

(٢) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٨٢ (نقلاً عن ابن عذاري : أوراق مخطوطة من البيان) .

(٣) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٨٢ (نقلاً عن ابن عذاري : أوراق مخطوطة من البيان) .

ينبذوا الطاعة المرابطية☆ بالرغم من فرار الوالي والمرابطين من بلدتهم . ولعل السبب في ذلك هو قيام ابن رشد ومعه العلماء والأعيان بإعادة النظام إلى أرجاء المدينة ، ومن ثم إمساكهم بزمام الأمور حتى جواز حاكم الدولة علي بن يوسف بن تاشفين غاضباً إلى الأندلس بحشود كثيفة (١) في شهر بيع الأول عام ٥١٥هـ/ ١١٢١م (٢) لمعالجة ذلك الوضع المتأزم . وهنا يبرز ابن رشد كرة أخرى على مسرح الأحداث عند إحاطة القوات المرابطية بقرطبة ، حيث قابل علي بن يوسف وأبان له الحقيقة ، ورد على من اعتبر فعل أهل قرطبة احتزاءً وعصياناً وضلالاً (٣) ، وأكد أنهم لم يشقوا عصا ، ولا نكثوا بيعة (٤) . وإنه كان من واجب الوالي ليتحاشى ما حدث « أن يعاقب المذنب من عبيده » (٥) . ولما طالبه علي بن يوسف بحصر مثيري الشغب رد عليه بقوله « ليس لنا قدرة على حصرهم ، وإنما يحصرهم صاحب الأمر " (٦) . وقد حُلت الأزمة وعادت الأمور إلى مجاريها باتفاق يقضي بتعويض المرابطين عما نُهِبَ منهم (٧) .

وهكذا نرى ابن رشد وقف منذ البداية موقفاً صارماً من الغوغاء

☆ جاء ذلك على لسان ابن رشد كما سنرى بعد قليل .
(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص٥٥٨ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ٨٦ .
(٢) ابن عذاري : البيان ، جـ١ ، ص ٣٠٨ .
(٣)عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٨٤(نقلاً عن ابن عذاري : أوراق مخطوطة من البيان) .
(٤) ابن رشد : مسائل ابن الوليد بن رشد ، تحقيق محمد الحبيب التجكاني ، ط . الثانية ، دار الجيل ، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م ، جـ١ ، ص ٣٢ من مقدمة المحقق (نقلاً عن مجهول : طبقات المالكية).
(٥) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٨٤ (نقلاً عن ابن عذاري : أوراق مخطوطة من البيان) .
(٦) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٨٤ (نقلاً عن ابن عذاري : أوراق مخطوطة من البيان) .
(٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص ٥٥٨ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ٨٧ .

الذين اعتدوا على مركز الحكم المرابطي في المدينة ، فكان هذا سبباً في تلافي ما كان ينتظر حدوثه في قرطبة من فوضى واضطراب قد يمتد إلى مدن أخرى، فينفرط عقد الوحدة في الأندلس ، ثم توج ذلك كله بمساعيه الحميدة في الصلح بين أهل قرطبة وعلي بن يوسف " حقناً لدماء المسلمين ، وتأليفاً لجماعتهم ، وإعادة لجو الانسجام بين السلطة العليا والقرطبيين "[١] .

أما الحركة الأخرى التي كادت تعصف بوحدة الأندلس ، وكان لابن رشد أثر ملموس في معالجة آثارها فهي خيانة أهل الذمة من نصارى غَرْناطة وغيرها للمسلمين باتصالهم سراً بابن ردمير (الفونسو الأول أو المحارب)☆ حاكم مملكة أرغون النصرانية المجاورة من الشمال الشرقي لدولة الإسلام في الأندلس[٢] ، ودعوتهم أياه لغزو الأندلس واحتلال غَرْناطة على الخصوص[٣] حيث " توالت عليه كتبهم ، وتواترت رسلهم ملحة بالاستدعاء ، مطمعة في دخول غرناطة "[٤] ، ولما أبطأ عليهم أغروه بكتاب ضَمِنُوا له فيه التحاق إثنى عشر ألفاً من أنجاد مقاتليهم بجيشه عند حلوله غرناطة ، وقد سجلت أسماؤهم في ذلك الكتاب ، وذكروا له – أيضاً – أن

---

(١) المختار التليلي : ابن رشد ، ص ٢٢٢ .

☆ الفونسو الأول (المحارب) Alfoso el Batalladar تولى حكم أرغون بعد وفاة أخيه بيدرو الأول عام ٤٩٨هـ/١١٠٤م، وقد اتسعت مملكة أرغون في عهده، واستمر يحكمها حتى وفاته عام ٥٢٩هـ/١١٣٤م (أشباخ : تاريخ الأندلس، ص ١٣٨ ، ١٦٥ – ١٦٦؛ Jose terrero:op.cit.,p.١٢٤-١٢٥) وتسمية المصادر الإسلامية ابن رُذْمير (ابن هشام اللخمي : المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان ، تحقيق مأمون بن محي الدين الجنان ، ط . الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م ، ص١٧٢ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١ ، ص ١٠٨) أو ابن ردمير ، وقد نُعت بأنه من أكثر ملوك النصارى " تجرداً لحرب المسلمين " (ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ، ص٢٤).

(٢) عنان : دول الطوائف ، ص ٤٠٦ .

(٣) مجهول : الحلل الموشية ، ص ٩١ .

(٤) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١ ، ص ١٠٩ .

كثيرين غير هؤلاء ينتظرون شخوصه عندهم للانضمام إليه (١) . وإزاء هذا الإغراء الممزوج بالإلحاح من قبل نصارى غرناطة☆ تجهز الفونسو المحارب في قوة مختارة من رجاله ، وانطلق في غارة بعيدة العمق في بلاد المسلمين ، حيث خرج من مملكته في منسلخ شعبان عام ٥١٩هـ/١١٢٥م (٢) ، واجتاز مناطق شرقي الأندلس ، ثم دخل المناطق الجنوبية حتى وصل غرناطة ، فألفى القوات المرابطية من الأندلس والمغرب قد أحدقت بها فلم يصنع فيها شيئاً رغم تسلل النصارى منها إليه ، وإمدادهم له بالأقوات ، ولذا استمر في مسيره إلى أن بلغ البحر في الجنوب ، ثم كر راجعاً فمر بغرناطة نزلة أخرى، وبعدها انكفأ عائداً إلى بلاده (٣) . وقد أخذت منه تلك الغارة☆☆ حوالي ستة أشهر☆☆☆ . ورغم وقوع مناوشات بينه وبين الجيوش التي كانت تطأ أذياله أينما حل طوال غارته إلا أنه لم يستطع احتلال أي مدينة أندلسية ، وإن خلّف في بعض المناطق خراباً في الأرض ، وفزعاً بين السكان (٤) .

ولا جرم أن فيما فعله أهل الذمة من النصارى الأندلسيين – وبخاصة

---

(١) ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص٦٩ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١ ، ص ١٠٩ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ٩١ .

☆ كان على رأس من تولى كبر دعوة حاكم أرغون لاحتلال غرناطة أحد كبار رجال الدين النصارى فيها ويدعى بابن القَلاَّس (ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١ ، ص ١٠٧ ، ١١٠) .

(٢) مجهول : الحلل الموشية ، ص ٩١ .

(٣) ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص ٧٠-٧٢ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١ ، ص ١٠٩-١١٣ .

☆☆ أشارت المصادر المشرقية إلى هذه الغارة (ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص ٦٣١ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام " حوادث ووفيات ٥٠١-٥٢٠هـ " ، ص ٣٠٧) .

☆☆☆ جاء في بعض المصادر أن تلك الغارة استغرقت سنة وثلاثة أشهر (مجهول : الحلل الموشية ، ص ٩٧) ولكن الصحيح أنها لم تستغرق سوى ستة أشهر ، وقد تزيد أياماً (ابن رشد : فتاوى ابن رشد، جـ٣، ص١٥١٨ ، ١٥٢١) .

(٤) مجهول : الحلل الموشية ، ص ٩٦-٩٧ .

نصارى غرناطة – من دعوة للفونسو المحارب لغزو الأندلس ، ومساعدة له ، وانضمام إلى جنده☆ فضلاً عن تنبيهه " على المراشد التي تضر المسلمين وتنفعه " [١] لا جرم أن في ذلك ضربة لكيان الجماعة الإسلامية في الأندلس ، وزعزعة لحبل أمنها ، وخلخلة لنظام وحدتها ، وهذا كله يخالف ما كان ينبغي أن يلتزم به هؤلاء النصارى المعاهدين من واجبات تجاه المسلمين في الأندلس ودولتهم وفقاً لعقد الذمة الذي صاروا بموجبه من أهل دار الإسلام [٢] .

هذه النازلة التي ترتب عليها تضعضع وحدة البلاد أشغلت بال ابن رشد الجد لدرجة أنه انقطع عن التدريس وقتها لمتابعة فصولها أولاً بأولا [٣] . وريثما انقضت خف بنفسه إلى حاكم المرابطين في مراكش ، وتجشم العبور إلى العُدوة [٤] رغم أن سنى عمره آنذاك قد خانقت السبعين [٥] ؛ فخرج

☆ يذكر بعض المؤرخين أن غارة الفونسو المحارب في العمق الأندلسي كان يرمي منها حمل نصارى الأندلس المستعربين على الهجرة إلى بلاده التي كانت بحاجة إلى من يُعمّرها (أحمد بدر : تاريخ الأندلس ، ص ٢٤٣ ؛ هشام أبو رميلة : علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس ، ط . الأولى ، دار الفرقان ، عَمّان ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ص٣٥٥ ؛ W.Montgomery watt : op.cit., p.86) .

(١) مجهول : الحلل الموشية ، ص ٩٢ .

(٢) يوسف القرضاوي : غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ، ط . الثانية ، مؤسسة الرسالة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م ، ص ٧ .

(٣) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ٣ ، ص ١٥١٨ ، ١٥٢١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٥٢١ .

(٥) ذاك أن ابن رشد ولد عام ٤٥٠هـ/١٠٥٨م (ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص ٥٧٧) وكان عبوره هذا إلى العدوة في أوائل سنة ٥٢٠هـ /١١٢٦م كما في المتن .

متوجهاً إلى مراكش أوائل ربيع الأول سنة ٥٢٠هـ /١١٢٦م (١) ، ولما وصل إلى أمير المسلمين علي بن يوسف "استوعب في مجالس عدة إيراد ما أزعجه إليه" (٢) حيث "بين له أمر الأندلس ، وما بليت به من معاهدتها ، وما جروه إليها ، وما جنوه عليها من استدعاء ابن ردمير ، وما في ذلك من نقض للعهد والخروج عن الذمة" (٣) . ولرتق ما أنفتق من صدوع في كيان الأندلس ، ولضمان عدم تكرار مثل تلك الهجمة الغادرة ولتقوية الجبهة الداخلية للبلاد أفتى ابن رشد علي بن يوسف – أولاً – بتغريب نصارى الأندلس المتعاونين مع حاكم أرغون ، وإجلائهم عن أوطانهم (٤) ، "وقال☆ وهو أخف ما يوخذون به" (٥) . ثم اقترح ثانياً على علي بن يوسف أمرين آخرين أحدهما: عزل أخيه أبي طاهر تميم بن يوسف☆☆ عن ولاية الأندلس(٦)، إذ وقعت الغارة النصرانية أثناء ولايته . والآخر العناية بأسوار المدن المغربية والأندلسية بالبناء

---

(١) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ٣ ، ص ١٥٢٣ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص ١٦٠ .

(٢) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ٣ ، ص ١٥٢٣ – ١٥٢٤ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ٩٩ .

(٣) ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص ٧٢ .

(٤) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١ ، ص ١١٤ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ٩٠ ، ٩٧ .

☆ انظر كلاماً لابن رشد عن الحكم فيمن نقض العهد من أهل الذمة (البيان والتحصيل ، جـ٢ ، ص٦١٠-٦١١) .

(٥) ابن الأبار : المعجم ، ص ١٦٠ .

☆☆ أبو طاهر تميم بن يوسف بن تاشفين ، تقلب في ولاية عدد من المدن المغربية والأندلسية زمن أخيه علي كغرناطة وتلمسان وإشبيلية وفاس (ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ٨٢ ، ٨٣ ؛ ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص٤٩ ، ٥٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٨٣ ، ١٠٦) ولما أغار الفونسو المحارب على الأندلس كان تميم الحاكم العام لها ، ومستقره غرناطة (مجهول: الحلل الموشية ، ص ٩٣) ولما صرف عن الأندلس ولى مدينة فاس (ابن عذارى : البيان، جـ٤، ص ٨٣) وقد كانت له جهود في جهاد النصارى في الأندلس (ابن عذارى : البيان، جـ٤، ص٥٠) ومحاربة الموحدين في المغرب (مجهول: الحلل الموشية، ص١١٢) .

(٦) مجهول : الحلل الموشية ، ص ٩٨ .

أو التعزيز [١] ، ولقد تلقى علي بن يوسف بالقبول ما أوصى به ابن رشد☆ الذي ثاب إلى وطنه في أواخر جمادي الأولى من السنة نفسها [٢] فغَرَّبَ النصارى الناكثين بالعهد إلى العُدوة المغربية☆☆ في رمضان من تلك السنة[٣]، وفي رمضان أيضاً عَزَلَ أخاه تميماً عن ولاية الأندلس [٤] ، كما صدرت الأوامر بتفقد الأسوار ، وقد بادر عدد من ولاة المدن في الأندلس في بناء أسوار مدنهم أو تجديدها [٥] . وتلك إجراءات نُفِّذت - بلا شك - لتوثق عرى الوحدة في الأندلس ، ولتُحْكِم روابط الاتحاد مع الدولة المرابطية في المغرب .

ولاغرو أن الاختلاف الفكري المفضي إلى الجدل والخلاف لا يقل

---

(١) ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص ٧٣ .

☆ كتب علي بن يوسف كتاباً إلى أهل الأندلس يشير فيه إلى وفادة ابن رشد عليه ، ويؤكد لهم اهتمامه البالغ بالذود عنهم (ابن أبي الخصال : رسائل ابن أبي الخصال ، ص ٦٠٣-٦٠٤ ؛ محمود علي مكي : وثائق جديدة عن عصر المرابطين ، ص ١٢٣ - ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٦٧) .

(٢) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ٣ ، ص ١٥٢٤ .

☆☆ ومن الملاحظ أن بعض النصارى المنقولين من الأندلس إلى المغرب تقدموا لحاكم المرابطين باستفسارات حول أملاك لهم في الأندلس ، فعرضها هذا على علماء الأندلس عام ٥٢١هـ/ ١١٢٧م (الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ٦ ، ص ٥٦ - ٥٧) وجاء في سؤال للقاضي عياض تصريح بإجلاء جماعة من النصارى ، وتبين من جوابه أنهم من نصارى الأندلس (مذاهب الحكام ، ص ٢٠٣، ٢٠٤؛ الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ٧ ، ص ٧٣ ، ٧٤) ويذكر أن ألوفاً كثيرة من هؤلاء النصارى - وبخاصة الذين عاشوا بمراكش - قد عادوا إلى الأندلس في أوائل عصر الموحدين ، بينما أعلنت جماعات منهم إسلامها ، واندمجوا في المجتمع الإسلامي (رضوان البارودي : أضواء على المسيحية والمسيحيين في المغرب في العصر الإسلامي ، ط . دار الفكر العربي ، ١٩٩٠م ، ص ٣٧ ، ٤٠) .

(٣) ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص ٧٣ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١ ، ص ١١٤ .

(٤) ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص ٧٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٧٣ - ٧٤ .

خطورة على الجماعة من التنازع السياسي ، بل ربما كان في بعض الأحايين أساساً أو مبعثاً ينطلق منه ذلك التنازع . ولكون الأندلس - كما مر ذكره - ثغراً من ثغور المسلمين ويعيش بين جوانحها أعداد عظيمة من النصارى ، بمعنى أنها تواجه أعداءها وخصوم عقيدتها كل حين فإن علماء الأندلس - على مر العصر الإسلامي كله - ظلوا يتمسكون بمذهب الإمام مالك في المجال الفقهي(١) ، وبما يرونه مذهباً لأهل السنة والجماعة في المجال العقدي (٢) ، فوقفوا بالمرصاد لكل من يعارض ذلك ، سداً لأبواب الخلاف وما قد يجره من فتن ، ووقاية للوحدة الإسلامية في هذا الثغر القصي من أي تصدع أو انفلات(٣) ، قد يؤدي إلى اجتثاث شجرة الإسلام منه (٤) . وانطلاقاً من هذا المبدأ فإنه حالما انتشر في الأندلس كتاب " إحياء علوم الدين " لأبي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ / ١١١١م) أصدر علماء قرطبة برئاسة قاضي الجماعة أبي عبد الله بن حمدين (ت٥٠٨هـ / ١١١٤م) فتوى بإحراقه (٥) في أوائل عهد الحاكم المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين☆ باعتباره من كتب

---

(١) حسين مؤنس : صورة الأندلس ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، م١٤ ، عام ١٩٦٠م ، ص٤٣ ، ٤٤ .

(٢) حسين الوراكلي : التراث الأندلسي وسؤال الوحدة ، ص ٢٠ .

(٣) حسين مؤنس : صورة الأندلس ، ص ٤٤ . وانظر ما قاله محمود علي مكي في تقديمه لكتاب (ابن سهل : ثلاث وثائق في محاربة الأهواء والبدع في الأندلس "مستخرجة من الأحكام الكبرى" تحقيق محمد عبد الوهاب خلاف ، ط . الأولى ، المركز العربي الدولي للإعلام ، القاهرة ، ١٩٨١م ، ص٧).

(٤) محمد اليعقوبي البدراوي : إحراق كتاب الإحياء في الغرب الإسلامي ، مجلة المناهل ، العدد ٩ ، السنة ٤ ، رجب ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م ، ص ٣١٢ .

(٥) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٧٠ ؛ ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص ٥٩ ؛ الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ١٢ ، ص ١٨٥ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٠٤ .

☆ أكد ابن القطان أن فتوى الإحراق صدرت عام ٥٠٣هـ / ١١٠٩م (نظم الجمان ، ص ٧٠) بينما =

البدع [١] المشوشة لعقائد الناس ، المشتتة لكلمة الجماعة [٢] ، المبعدة عن الكتاب والسنة[٣] . وحال صدور الفتوى بُوشر العمل بها في قرطبة وغيرها[٤].

وغالب الظن أن الإفتاء في إحراق كتاب مثل " إحياء علوم الدين " ولعالم شهير كأبي حامد الغزالي عُرف قبلاً عند حكام المرابطين وعلماء الأندلس والمغرب لن تصدر إلا بعد قراءة مستوعبة لفصوله، ودراسة مستوفية لمقاصده. ومع أننا لا نملك حتى الآن نص الفتوى التي لا بد أنها شرحت مبررات الإحراق لكن لحسن الحظ نُقل إلينا شذرات من كلام ابن حمدين☆ بيّن فيها ما يراه في

- أكد الونشريسي أن ذلك كان عام ٥٠٧هـ / ١١١٣م (المعيار المعرب ، جـ١٢ ، ص ١٨٥) وأما ابن عذارى فقد نقل الخبر عن ابن القطان ، ولكنه لم يتبنّ التاريخ الذي ذكره هذا الأخير ، بل ساق الخبر بعد حوادث سنة ٥٠٧هـ / ١١١٣م (البيان ، جـ٤ ، ص ٥٩) ولقد رجح محمد القبلي أن سنة الإحراق هي ٥٠٧هـ/١١١٣م واحتج بأن ابن عذارى عُرف باعتماده الطريقة الحولية في تسجيل الحوادث مع توخيه الدقة . وتساءل هل معنى أن ابن عذارى كان يعرف رواية أخرى تنص على أن سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م هي التي جرى فيها الإحراق ، ولكنه لم يتمكن من الوصول إليها ساعة تصنيف الخبر ؟ كما توقف عند رواية ابن القطان القائلة بأن الإحراق حدث سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م وتساءل – أيضاً – هل تأثرت بالدعاية الموحدية التي كانت ترمي إلى " توطين حدث الإحراق قبل وفاة الغزالي سنة خمس وخمسمائة ليستقيم النسق الرسمي القائم على دعاء مؤلف الإحياء على المرابطين بسبب فعلتهم ، ولفائدة ... ابن تومرت " ؟ وأخيراً دعا إلى ضرورة التحفظ بالنسبة لأطروحة الإحراق قبل وفاة الغزالي (مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط ، ط . الأولى ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ١٩٨٧م ، ص ٣٠ ، وحاشية "٢٢") .

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ١٩ ، ص ٣٣٢ ؛ حسين مؤنس : نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين ، ص ١١٣ .

(٢) الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ١٢ ، ص ١٨٧ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص ١٧٤ .

(٤) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٧١ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ١٩ ، ص ٣٢٧ .

☆ ألف ابن حمدين رسائل في الرد على أبي حامد الغزالي كانت تُقرأ عليه (ابن عطية : فهرس ابن عطية ، ص ١١٢ ؛ عياض : الغنية ، ص ١١٦ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ١٩ ، ص ٤٢٢) .

كتاب الإحياء من خطر على عقيدة أهل السنة والجماعة في الأندلس ، ففي معرض تحذيره من رسالة أنشأها أحد الصوفية المتعصبين لكتاب الإحياء ، وصف أبا حامد بـ " إمام بدعتهم "(١) ثم تساءل موضحاً حال أبي حامد بقوله " فأين هو من شُنَع مناكيره ، ومضاليل أساطيره المُباينة للدين ؟ "(٢) ثم أضاف " وزعم أن هذا من علم المعاملة المفضي إلى علم المكاشفة الواقع بهم على سر الربوبية الذي لا يُسفر عن قِناعه ، ولا يفوز باطلاعه ، إلا مَنْ تمطى إليه ثَبَج ضلالته التي رفع أعلامها ، وشرّع أحكامها "(٣) ثم أشار إلى ما نادى به أبو حامد للوصول إلى هذه المكاشفة ، وعقّب عليه بقوله " فهو يقول : ذروا ما كان السلف عليه ، وبادروا ما آمركم به "(٤) . ولعل أبا بكر الطرطوشي (ت٥٢٠هـ / ١١٢٦م) وهو الأندلسي الذي هاجر إلى المشرق ثم استقر بمصر ، وبقي على اتصال بالأندلس وعلمائها (٥) - لعله جلى لنا سبب فتوى علماء قرطبة بإحراق الإحياء☆ ، كما كشف لنا ما يمثله

---

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، حـ ١٩ ، ص ٣٣٢ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٥) مخلوف : شجرة النور ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

☆ ومن عجب أن عديداً من الكُتاب المحدثين أعرضوا عن السبب العقدي الذي عَوَّل عليه فقهاء قرطبة في فتواهم بإحراق الإحياء والذي أيدهم عليه بعض معاصريهم من العلماء كالطرطوشي والمازري (الذهبي: تاريخ الإسلام، " حوادث ووفيات ٥٠١-٥٢٠هـ " ، ص ١٢٠-١٢٢ ؛ سير أعلام النبلاء، حـ١٩ ، ص ٣٣٠ - ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٤٠ - ٣٤٢ ، ٤٩٤-٤٩٦) وجزموا بأسباب بنوا غالبها على التخمين كجعلهم أحد الأسباب الرئيسة في فتوى الإحراق كون الغزالي في كتابه الإحياء قد شن حملة شعواء ضد الفقهاء (عبد الوهاب فايد : منهج ابن عطية في تفسير القرآن ، ص ٣٩ ؛ عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق١ ، ص٧٩ ؛ (ينهرت دوزي : المسلمون في الأندلس ، ترجمة حسن حبشي، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥م ، حـ٣ ، ص ١٦١) وقد تكلف بعض هؤلاء -

ذلك الكتاب من خطر على عقيدة الأندلسيين ، ووحدة كلمتهم - وذلك في سؤال طُرِحَ عليه بهذا الشأن . فكان مما قاله عن الغزالي وإحيائه " شحن كتابه بالكذب على رسول الله ﷺ فلا أعلم كتاباً على بسيط الأرض في مبلغ علمي أكثر كذباً على رسول الله ﷺ منه ، سبكه بمذاهب الفلاسفة ، ومعاني رسائل أخوان الصفا ، وهم قوم يرون النبوءة اكتساباً " [1] ، "وزعموا أن المعجزات حيل ومخاريق" [2]. إلى أن قال إن الغزالي في كتابه هذا " يسوق الكلام سوقاً يُرعد فيه ويُبرق ، ويمني ويشوق حتى إذا تشوفتْ له النفوس قال هذا من علم المعاملة ، وما وراءه من علم المكاشفة ، ولا يجوز تسطيره في الكتاب ، أو يقول : وهذا من سر القدر الذي نهينا عن إفشائه " [3]. ويعلق الطرطوشي على ذلك بقوله : " وهذا فعل الباطنية وأهل الدغل والدخل في دين الله يستغل الموجود ، ويكلف النفوس بالمفقود " [4] . ويقدم لنا النتيجة

= الكتاب لإثبات هذا السبب بنقل نصوص من الإحياء تؤيد وجهة نظرهم (بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ٢٥٣ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، ص ٦٥٨ - ٦٥٩ ؛ أحمد بدر : تاريخ الأندلس ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ ؛ حسن علي حسن : الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس ، ص ٤٥٢) ولقد رمى بعضهم فقهاء المرابطين بالتزمت والجهل ومحاربة الفكر لإحراقهم الإحياء (أبو العلاء عفيفي : أبو القاسم بن قسي وكتابه خلع النعلين ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، م١١ ، سنة ١٩٥٧م ، ص ٥٣ ؛ السعيد : الشعر في عهد المرابطين والموحدين ، ص ٦٣) ولا يستبعد أن هؤلاء جميعاً تأثروا في رأيهم هذا بما كتبه مؤرخو الموحدين الساخطون على المرابطين (ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٧١) أو بما كتبه مؤيدو أبي حامد الغزالي (التادلي : التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي ، تحقيق أحمد توفيق، ط . الأولى ، دار النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ ، ص ٣٦ ، ٩٦ ، ١٤٥ ، ١٦٩ ؛ ابن أبي دينار : المؤنس ، ص ١٣٣) .

(١) الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ ١٢ ، ص ١٨٦ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ١٩ ، ص ٣٣٤ ، ٤٩٥ .

(٣) الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ ١٢ ، ص ١٨٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

التي تَحْصل من جراء ذلك بقوله « فهو تشويش لعقائد القلوب ، وتوهين لما عليه كلمة الجماعة »[١] ثم أخيراً يبين وجاهة إحراقه مدعماً ذلك بما أجمع عليه الصحابة رضي الله عنهم من إحراق المصاحف المخالفة للمصحف العثماني [٢]؛ لأن فيه حسماً للاختلاف والتقاتل ، فقال « فإنه إن تُرِك انتشر بين ظهور الخلق، ومن لا معرفة له بسمومه القاتلة ، وخيف عليهم أن يعتقدوا صحة ما سُطر فيه مما هو ضلال ، فيحرق قياساً على ما أحرقته الصحابة رضي الله عنهم من صحائف المصحف التي كان فيها اختلاف ألفاظ ونقص آي ، ألا ترى أنهم لو لم يحرقوا تلك الصحائف، وانتشرت في الخلق لحفظ كل إنسان ما وقع منها إليه، وأوشك أن يختلفوا فيتقاتلوا ويتقاطعوا »[٣] . وهكذا انكشف لنا -فيما مضى- أن سبب فتوى علماء قرطبة بإتلاف كتاب الإحياء☆ هو ما حواه بين دفتيه من أمور تشوش صافي العقيدة ، وتبدد شمل الجماعة ، وقد تؤدي في النهاية إلى التنازع ثم الاقتتال بين المسلمين في بلد أحوج مايكون إلى ائتلاف القلوب ، وتوحيد الكلمة ، وانتظام الصف . وإذا كانت هذه حقيقته

(١) الونشريسى : المعيار المعرب ، ، جـ ١٢ ، ص ١٨٧ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ١٩ ، ص٤٩٦ .

(٣) الونشريسى : المعيار المعرب ، جـ ١٢ ، ص ١٨٧ .

☆ أفرد محمد بن عبد الرحمن المغراوي قسماً من أقسام كتابه " العقيدة السلفية " لدراسة أسباب حرق " إحياء علوم الدين " . فجعل الأسباب الحقيقية أربعة: ١- فتاوى علماء السنة وموقفهم من الكتاب. ٢ - الأحاديث الضعيفة والمدسوسة في الكتاب . ٣ - احتواؤه على أصول البدع وأسسها . ٤ - الطامات والمصائب التي تهدم الإسلام من أصله . وقد وقف وقفات طويلة لشرح كل سبب من هذه الأسباب ، فاستشهد على ذلك بما جاء في الإحياء نفسه (العقيدة السلفية في مسيرتها التاريخية وقدرتها على مواجهة التحديات ، ق٥ ، ط . الأولى ، دار المنار ، الرياض ، ١٤١٤هـ) وانظر أيضاً : (عياض: ترتيب المدارك ، جـ ١ ، ص يو - ك من مقدمة المحقق محمد بن تاويت الطنجي ؛ البدراوي : إحراق كتاب الإحياء ، ص ٣١٨ ، ٣٢٢) .

فإن الأمر بإتلافه لم يكن بِدْعاً في حياة المسلمين☆ . فالصحابة رضي الله عنهم أجمعوا على حرق ما خالف المصحف المعتمد لديهم خوفاً من نشوب الخلاف ومن ثم القتال .

ب – اختلال وحدة الأندلس عند تردي أوضاع الدولة المرابطية وموقف العلماء من ذلك :

كان قيام ابن تومرت وحزبه الموحدين بالثورة في المغرب ضد المرابطين من الأسباب التي أدتْ بأحوال الأندلس إلى الاختلال (١) . فلمجابهة تلك الثورة المتصاعدة القوة نقل حكام المرابطين كثيراً من حماة الأندلس وأسلحتها وعُددها إلى المغرب ، "فكان ذلك أعظم فساد حل بالأندلس ، واختل أمرها عليهم ، وألح النصارى بالضرب على جهات الأندلس حين علموا بعجز الإمارة بالمغرب عن الدفاع ... فساءت الأحوال، وكثرت الشدائد والأهوال" (٢) وحينذاك توافرت لدى الأندلسيين" دواعي

☆ كان حرق الكتب في الأندلس شيئاً مألوفاً قبل المرابطين وبعدهم ، فقد حُرّقت بعض كتب مكتبة الحكم المستنصر – وكذلك كتب ابن حزم (دندش : الأندلس في نهاية المرابطين ، ص ٣٨ ، وحاشية "٤١") كما حرق الموحدون أنفسهم كتب الفروع وعلى رأسها المدنة (المراكشي : المعجب ، ص ٣٥٤ ؛ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، جـ٣ ، ص ١١١ ، وانظر – أيضاً – : القبلي : مراجعات حول المجتمع ، ص ٥٠ ؛ روجي لي تورنو : حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ترجمة أمين الطيبي ، ط . الدار العربية للكتاب ، ليبيا – تونس ١٩٨٢م ، ص ٧٣) والظاهر أنه لو لم يستغل الموحدون إحراق الإحياء لصالحهم ، وقدر الله للدولة المرابطين الحياة مدة أطول لمر حرق الإحياء في الأندلس دونما ضجيج .

(١) المراكشي : المعجب ، ٢٧٧ .

(٢) مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٢٠ .

الشتات ...، واستهدفوا الخلع »[١] ثم ما لبثت البلاد أن انفجرت بالثورة على المرابطين بعد مضي مدة وجيزة من عهد تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين الذي انشغل عنها بمقاتلة الموحدين[٢]، فكانت سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م هي السنة التي كثر فيها الثوار في جميع مناكب الأندلس[٣]، وعلى حد تعبير المراكشي[٤] « كادت الأندلس تعود إلى سيرتها الأولى بعد انقطاع دولة بني أمية » . وهذا معناه أن الوحدة التي كانت ترفل بها الأندلس في ظل المرابطين قد انفرط عقدها ، وانحلت عراها ، وتناثرت أجزاؤها .

ومما يستلفت النظر أن الذي تولى كبر هذه الفتنة ، وأيقظها من رقدتها، وأوقد نارها هم من المحسوبين في زمرة العلماء[٥]☆ ، ولذلك سماها بعض المؤرخين « فتنة المريدين والفقهاء »[٦] فالمريدون هم شيعة أبي القاسم بن قَسي☆☆ الذي كان قد بادر بالتمرد على المرابطين في غربي الأندلس عام

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص ٢٤٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤٧ .

(٣) الضبي : بغية الملتمس ، ص ٤٢ ؛ ابن الأبار : الحلة ، جـ ٢ ، ص ٢٢٧ ؛ المعجم ، ص ٢٤٥ .

(٤) المعجب ، ص ٢٧٧ .

(٥) السامرائي : علاقات المرابطين بالممالك الإسبانية ، ص ٢٨٣ .

☆ انظر عن أصناف العلماء كلاماً لابن رشد (فتاوى ابن رشد ، جـ ٣ ، ص ١٦٢٥ - ١٦٢٩) وكلاماً آخر لأبي بكر بن العربي (قانون التأويل ، ص ٢٥٤ ؛ العواصم من القواصم ، ص ٣١٨-٣١٩) .

(٦) ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ٣٨ .

☆☆ أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قَسي ، إسباني الأصل من بادية شِلْب ، نشأ مشتغلاً بالأعمال الإدارية الرسمية، ثم أظهر الزهد ولقى بالمرية أبا العباس بن العريف أحد زعماء المتصوفة في الأندلس حينذاك ، ثم أقبل على قراءة كتب أبي حامد الغزالي (ابن الأبار : الحلة ، جـ ٢ ، ص ١٩٧) ثم أصبح كلامه في التصوف يُكتب ويُتداول بين مريديه (ابن العريف : مفتاح السعادة ، ص ٢٠٨ ؛ بولس اليسوعي : رسائل ابن العريف إلى أصحاب ثورة المريدين في الأندلس ، مجلة الأبحاث - الجامعة الأمريكية ، بيروت ، عدد ٢٧ ، سنة ١٩٧٨-١٩٧٩م ، ص ٥١) ومن أشهر =

٥٣٨هـ / ١١٤٣م [١] ، فكانت ثورته « باكورة الفتنة » على حد تعبير ابن الخطيب [٢] . أما الفقهاء فقد كان إمامهم وقدوتهم في الثورة قاضي الجماعة في قرطبة أبا جعفر بن حمدين☆ الذي جاهر بعصيانه المرابطين حين قَبِلَ تولي

- كتبه كتاب خلع النعلين (الصفدي : الوافي بالوفيات ، حـ٧ ، ص ٢٩٨ ؛ ابن خلدون : المقدمة ، ص١٩٩) ولما تشكل حوله الأتباع ادعى الولاية ثم تسمى بالمهدي ، وقد كثرت مخاريقه ومزاعمه ، منها أنه حج في ليلته (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص ٢٤٩) وقد أشار المراكشي أن له أخباراً قبيحة مضمونها الجرأة على الله سبحانه (المعجب ، ص ٢٨١) وقد تعرض ابن تيمية لبعض أفكاره مفنداً لها لا سيما قوله بما قالته الفلاسفة أن النبوة مكتسبة (بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلول والاتحاد ، تحقيق موسى الدويش ، ط . الأولى ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، ص ٣٩٠-٣٩١ ؛ درء تعارض العقل والنقل ، حـ١ ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ ، حـ٦ ، ص ٢٤١ ، حـ١٠ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥) أما ثورته على المرابطين فقد استمرت مستعرة حتى دخل في طاعة الموحدين ، ثم انتقض عليهم ، وحالف النصراني ابن الرِّيق (الفونسو هنريكيز) حاكم البرتغال ، فقتله أتباعه في جمادي الأولى سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١م (ابن الأبار : الحلة، حـ ٢، ص ١٩٨-٢٠٠ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ق٢، ص٢٥٠-٢٥٢).

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص ٢٥٠ .

(٢) الإحاطة ، حـ ٤ ، ص ٣٤٥ .

☆ أبو جعفر حمدين بن محمد بن علي بن محمد بن عبد العزيز بن حمدين التغلبي . ولى قضاء الجماعة في قرطبة سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م ثم صرف عنه ، وبعد ذلك أعيد إليه كرة أخرى ، فبقي يشغل هذا المنصب إلى أن ثارت قرطبة على المرابطين في رمضان عام ٥٣٩هـ / ١١٤٥م فقام بحكمها ، وتسمى بأمير المسلمين والمنصور بالله ، وبعث إلى كثير من المدن يطالب زعماءها بالطاعة له . لكنَّ الحكم لم يستقر له ، فآل الأمر به إلى التحالف مع حاكم قشتالة في أواخر عام ٥٤٠هـ / ١١٤٦م ، فلما فشل في التفرد بإمارة قرطبة عن طريق هذا التحالف عبر إلى الموحدين ، وبعدها عاد إلى مالقة وظل بها إلى وفاته في رجب عام ٥٤٦هـ / ١١٥١م (الضبي : بغية الملتمس ، ص ٤٢ ؛ ابن الأبار : التكملة ، حـ١ ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ ؛ الذهبي:سير أعلام النبلاء ، حـ ٢٠ ، ص ٤١٧ - ٤١٨ ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص ٢٥٢ - ٢٥٤ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ١٠٣ - ١٠٤) ولقد خلط بعض الكتاب المحدثين بين ابن حمدين هذا وبين ابن حمدين المتوفي سنة ٥٠٨هـ / ١١١٤م (حمدي عبد المنعم محمد حسين : تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين -دولة علي بن يوسف المرابطي-، ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٦م ، ص ١٤٦) .

السلطة في قرطبة نفسها أوائل رمضان عام ٥٣٩هـ / ١١٤٥م عقب قيام عامة قرطبة بخلع الطاعة المرابطية [١] . وقد اقتفى أثره عدد من القضاة فأعلنوا الثورة مثله ضد المرابطين [٢] . ولا يعنينا في مقامنا هذا تقصي أخبار هذين الثائرين ولا غيرهما ، ولا كذلك تبيان وجاهة قيام معارضةٍ للمرابطين في الأندلس من عدمه ، إذ أن ذلك خارج عن نطاق دراستنا . ولكن الذي يعنينا هنا معرفة أن هذه الفتنة ضررها على وحدة الأندلس كان كبيراً . ففيما يتعلق بابن قسي وابن حمدين – مثلاً – فإن طموحهما الشخصي إلى السلطان جعلهما يُقاتلان ولاة المرابطين في الأندلس الذين ما زالوا يمسكون رسمياً – وإن شئت فقل شرعياً – بمقاليد الحكم في البلاد [٣] ، وكذلك يتصادمان مع زعماء أندلسيين يطلبون ما يطلبان من السلطان [٤] ، بل إنهما في سبيل الوصول إلى الرئاسة تحالفا مع النصارى [٥] ، فأصيب المسلمون – ساعتئذ – بمعرة شديدة أدناها ما صوره ابن الخطيب [٦] – مثلاً – بقوله عن ابن حمدين « وأدخل ... النصارى قرطبة في عاشر ذي الحجة من عام أربعين [وخمسمائة] فاستباحوا المسجد... ومزقوا مصاحفه ... وحُرِّقت الأسواق، وأفسدت المدينة » . ولا ريب أن هذا كله وما ينتظر أن تُخلفه الحركات

---

(١) الضبي : بغية الملتمس ، ص ٤٢ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٢٥٣ .

(٢) انظر على سبيل المثال : ابن الأبار : الحلة ، جـ ٢ ، ص ٢١٢ ، ٢١٩ ، ٢٢٨ ، ٢٥١ ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٣ .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٤، ص٣٤٥ .

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٢٥١ ، ٢٥٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٥١ ، ٢٥٣ – ٢٥٤ .

(٦) الإحاطة ، جـ ٤ ، ص ٣٤٥ – ٣٤٦ .

الأخرى المعارضة لسلطة المرابطين في بقية بقاع الأندلس☆ – من اضطرابات وخلافات ومحالفات واقتتال – إنما هو ممزع للوحدة ، مفرق للجماعة ، مذهب لريح الأمة . ولذا فالعلماء الأندلسيون الذين نحسبهم مخلصين لدينهم وأمتهم نأوا بأنفسهم عن الخوض في تلك الفتنة ، وتصرفوا وفق ما قدروه مفيداً للمسلمين ووحدتهم . فمنهم من أنكر علانية على الثوار برفض الإقرار لهم بالولاية على المناطق التي انتزوا فيها باعتبارهم خارجين على طاعة المرابطين الذين يعدون الولاة الشرعيين للبلاد . فقاضي بلنسية أبو بكر جعفر بن حسين الأموي☆☆ (ت٥٤٠هـ/١١٤٥م) أبى الاعتراف بإمرة مروان بن عبد العزيز☆☆☆ على

☆ قال ابن جُزَيّ : " وقام ببلاد الأندلس قضاتها على اتفاق منهم نظراً للمسلمين ، فقام بقرطبة ابن حمدين وبغرناطة ابن أضحى ، وبجيان أبو بكر بن عبد الرحمن بن جزي ... وبمالقة ابن حسون ..." (القوانين الفقهية ، ص٢٧٥) فابن جزي يرى مشروعية حكم الفقهاء للبلاد في أواخر عصر المرابطين، فقيامهم بذلك -عنده- من باب الحسبة، أو حسب تعبيره كان "نظراً للمسلمين".وغير خاف أن كلام ابن جزي هذا لا يتوافق -مثلاً- مع ما فعله ابن حمدين الذي عرفنا ظروف وصوله للزعامة في قرطبة .

☆☆ أبو بكر جعفر بن الحسين بن أبي البقاء الأموي ، من أهل أُنْدَة عمل بلنسية ، ولي الصلاة والخطبة ثم القضاء ببلده ، وقد توفي في صفر سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م (ابن الأبار : التكملة ، جـ ١ ، ص ٢٤١) وقد ذكر بعض أخباره النباهي ، ولكن سماه جعفر بن الحسن بن الحسن الأمدي (المرقبة العليا ، ص١٦).

☆☆☆ هو أبو عبد الملك مروان بن عبد الله بن مروان بن عبد الله بن مروان بن عبد العزيز ، كان مولده عام ٥٠٤ هـ / ١١١٠م . وقد ولي قضاء بلده بلنسية في ذي الحجة سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٤م، ولما خلع الناس ببلنسية طاعة المرابطين بعد منتصف عام ٥٣٩هـ / ١١٤٥م تأمر فيها بعد أن أظهر في البداية تردداً ، ثم دخل في حرب مع المرابطين، وتملك شاطبة ولقَنْت وما إليهما ، ولكنه لم يمكث إلا يسيراً حتى ثار به الجند في جماد الأولى سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م ففر إلى المرية فقبض عليه هناك، وأرسل مقيداً إلى ميورقة فظل مسجوناً فيها اثني عشر عاماً ، ثم أطلق سراحه وتوجه إلى مراكش وبقي فيها حتى وفاته سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م (ابن الأبار : التكملة ، جـ ١ ، ص ٦٣ ، جـ ٢ ، ص ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٦٩٦ ؛ الحلة ، جـ ٢ ، ص ٢١٨ - ٢٢٦ ؛ المعجم ، ص ١١٩ - ٢٠٠ ؛ ابن سعيد : المغرب ، جـ٢ ، ص ٣٠١ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٢٥٦) .

بلنسية محتجاً بأن البيعة الشرعية للمرابطين بحكم البلاد ما زالت سارية المفعول، فلا يجوز نقضها . وسياق الخبر ما رواه ابن الأبار [(١)] عن بعض الإخباريين أنه لما قام مروان بن عبد العزيز ببلنسيه أواخر أيام المرابطين طُلب أبو بكر هذا " بالشهادة في بيعته ، فقال : وا لله لا أفعل وبيعة تاشفين☆ في عنقي " . وقد حُمِدَ لأبي بكر هذا الموقف الشجاع الذي أبعده عن السقوط في الفتنة [(٢)] . وشبيه بموقف أبي بكر الأموي من الفتنة تَصَرّفُ أبي محمد عاشر ابن محمد بن مرجي الأنصاري☆☆ (ت٥٦٧هـ/١١٧٢م) مع أبي جعفر بن أبي جعفر☆☆☆ المتأمر في مرسية في الأيام الأخيرة من حياة الدولة المرابطية . فحينما استدعاه أبو جعفر "وندبه إلى الدخول معه فيما دخل فيه ... امتنع

(١) التكملة ، جـ ١ ، ص ٢٤١ .

☆ من الملاحظ أن أبا بكر الأموي قال هذا الكلام بعيد مقتل تاشفين بن علي في رمضان عام ٥٣٩هـ / ١١٤٥م (ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ص٤٥٤) .

(٢) النباهي : المرقبة العليا ، ص ١٦ .

☆☆ أبو محمد عاشر بن محمد بن عاشر بن خلف بن مرجي الأنصاري ، ولد سنة ٤٨٦هـ / ١٠٩٣م . وقد سكن شاطبة ، وتقلب في عدة مناصب منها خطة الشورى ببلنسية ، والقضاء في شاطبة وفي مرسية . وقد كان فقيهاً حافظاً ، بصيراً في الفتوى ، شرح المدونة في مؤلف له . ولكنه توفي في شعبان عام ٥٦٧هـ / ١١٧٢م قبل إتمامه (الضبي : بغية الملتمس ، ص ٤٣٨ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا جـ ٢، ص ٦٩٧ ؛ المعجم ، ص ٣١٠ - ٣١١ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة، س ٥ ق١ ، ص ٩٩ - ١٠١ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ١٦٣ - ١٦٤) .

☆☆☆أبو جعفر محمد بن عبد الله بن محمد الخشني ، ويعرف بابن أبي جعفر، من أهل مرسية، كان فقيهاً حافظاً ، ولي قضاء بلده عند خلع أهلها طاعة المرابطين سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٥م ، ثم وصل إلى الحكم فيها ، فحارب المرابطين ، وسعى في توسعة سلطانه . وقد قتل في ربيع الأول عام ٥٤٠هـ / ١١٤٥م بمقربة من غرناطة التي كان قد قصدها بجيش لقتال المرابطين (ابن الأبار : التكملة ، جـ ١، ص ٤٤٧؛ الحلة ، جـ ٢ ، ص ٢٢٨ - ٢٣٠ ؛ المعجم ، ص ٢٤٥ - ٢٤٧ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص ٣٠٦ - ٣٠٨ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٢٥٨) .

أبو محمد من ذلك "(١) ، وابتعد بنفسه عن الفتن كلها☆ وأمضى بقية ساعات عمره "عاكفاً على العلم ، مفيداً ومستفيداً مقبلاً على ما يعنيه ، ناظراً في أسباب معيشته إلى أن لحق بربه "(٢) . وثمة علماء معدودون في ذلك الحين من كبار علماء الأندلس كابن العربي (ت٥٤٣هـ / ١١٤٨م) – مثلاً – لا نحس منهم من أحد في تلك الأحداث ، ولا نسمع لهم صوتاً . والظن بمثل هؤلاء أنهم انسحبوا من الميدان ، واعتزلوا الفتنة . ومن الواضح أن تلك المواقف التي أبداها أولئك العلماء في أيام الفتنة لم يظهر لها أثر يذكر في الإبقاء على وحدة الأندلس في ظل راية المرابطين ، لأن دولتهم في المغرب كانت تترنح تحت ضربات الموحدين ، ثم ما نشبت أن لفظت أنفاسها الأخيرة ، وانقرضت من الوجود .

جـ – أثر العلماء في وحدة الأندلس تحت حكم الموحدين :

إن قيام دولة الموحدين في المغرب على إنقاض الدولة المرابطية ، وعبور بعض كبار ثوار الأندلس كابن قسي وابن حمدين إلى العدوة ، واعترافهم بالموحدين (٣) ، ثم تمكن هؤلاء الأخيرين من بسط سلطانهم على غربي الأندلس ووسطها☆☆ – إن ترادف ذلك كله جعل علماء الأندلس

---

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق١ ، ص ١٠١ .

☆ ولقد ذُكر أن مروان بن عبد العزيز ألزم أبا عبد الله بن غلام الفرس بتقلد الخطابة بجامع دانية ، فكان أبو عبد الله " إذا سئل عن حاله يقول : حال شيخ ابن سبعين سنة يطلع على هذه الأعواد فيكذب " (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص ١٦٦) فهل معنى كلامه هذا عدم رضاه بولاية مروان الثائر في شرقي الأندلس ؟

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق١، ص١٠١ .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص ٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٦٤ .

☆☆ انظر : التمهيد من هذا الكتاب .

يرنون بأبصارهم نحو الدولة الموحدية الفتية ، فيتعلقون بحبل طاعتها ، ويعقدون عليها الآمال في مواجهة الخطر النصراني . فعندما استولى الموحدون على إشبيلية وصل إلى مراكش وفد من أهلها لتقديم البيعة للحاكم الموحدي عبد المؤمن بن علي ، وذلك في ذي الحجة من عام ٥٤١هـ/ ١١٤٧م [(١)]، وقد كان في مقدمة الوفد الإشبيلي كبار علمائهم ، وعلى رأسهم أبو بكر بن العربي (ت٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) وأبو بكر بن الجد☆ (ت٥٨٦هـ / ١١٩٠م) وغيرهما [(٢)] . وحين دخل الوفد إلى عبد المؤمن في مجلسه ألقى ابن العربي خطبة بليغة ، ثم تبعه ابن الجد فألقى هو الآخر خطبة أخرى [(٣)] . ولم تصرح المصادر بفحوى هاتين الخطبتين ، لكن من المتوقع ألا يَخرج عن إطراء للموحدين ، ودعوة للاعتصام بدولتهم [(٤)] ، بدليل أنهما حازتا على إعجاب الحاكم الموحدي [(٥)] . ومهما يكن من أمر فإنه بعد إلقاء الخطبتين قام رجال الوفد إلى عبد المؤمن "ودفعوا له بيعة أهل إشبيلية ، مشهودة بخطوطهم ، فقبلها منهم ، واستحسن فعلهم" [(٦)] .

---

(١) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص٣٣ .

☆ أبو بكر بن الجد هو : محمد بن عبد الله بن يحيى بن فَرْح بن الجد الفهري ، ولد في لَبْلَة عام ٤٩٦هـ/ ١١٠٥م ، ثم استقر بإشبيلية . برع بالعربية ، ثم مال إلى الفقه والحديث ، فكان ممن انتهت إليه الرئاسة في الفُتيا ، وقد شُهر عنه قدرة خارقة على الحفظ . وكان أحد العلماء الذين حظوا بمكانة لدى الحكام المرابطين ثم الموحدين ، وتوفي في شوال عام ٥٨٦هـ / ١١٩٠م (ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص ٥٤٢ – ٥٤٣ ؛ ابن سعيد : المغرب ، جـ ١ ، ص ٣٤٣ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص ٣٢٣ – ٣٢٦ ؛ ابن فرحون : الديباج ، جـ٢ ، ص ٢٨٦ – ٢٨٧) .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص٣٣ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٤٧ .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص٣٣ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٤٨ .

(٤) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص٣٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٣ .

(٦) مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٤٨ .

وكان قاضي الجماعة في قرطبة أبو القاسم بن الحاج☆(ت٥٧١هـ / ١١٧٥م) ممن أيد الموحدين ، ولكنه - فيما يبدو - لم يستطع في أول الأمر الشخوص بنفسه إليهم ، ولذا بعث اثنين من أسرته معززين بثالث من أصحابه إلى الحاكم الموحدي عبد المؤمن فالتقوا به في مراكش . ثم رد عليه عبد المؤمن بكتاب خَبَّرَه بوصول الرسل ، وتأديتهم البيعة (١) . أما عن اعتذاره بعدم الحضور فقد جاوبه عبد المؤمن في ذلك الكتاب بقوله "وقام عذركم -وفقكم الله- على ساقه فقُبل ، ومَثَلَ ولاؤكم نائباً عن الوصول فوصل"(٢) .

ولقد كان العلماء - أيضاً - في طليعة الأندلسيين الذين مثلوا وسط الأندلس وغربيها (٣) ، وتحركوا آخر عام ٥٤٥هـ/ ١١٥١م (٤) لمقابلة عبد المؤمن بن علي في المغرب ، وتأكيد الطاعة له ، حيث وصلوا إلى مدينة سلا☆☆ بالمغرب في خمسمائة رجل "من الخطباء والفقهاء والقضاة والأشياخ

☆ أبو القاسم بن الحاج هو محمد بن محمد بن أحمد بن لب بيطير التجيبي. وهو ولد أبي عبد الله بن الحاج قاضي الجماعة في قرطبة المقتول في الجامع في صفر عام ٥٢٩هـ / ١١٣٤م (ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص ٥٨١) من أهل قرطبة كان من أهل العلم بالرأي والحفظ للمسائل . ولي قضاء الجماعة ببلده وقتاً ، ثم خرج منها وتجول ببلاد الأندلس ، فكانت وفاته في إشبيلية سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م (ابن الأبار : التكملة ، جـ ٢ ، ص ٥١٨ - ٥١٩ ؛ وانظر : مخلوف : شجرة النور ، ص١٥٢) .

(١) يفهم هذا من رسالة كتبها عبد المؤمن بن علي لأبي القاسم بن الحاج . (بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ، ص ٣-٤) .

(٢) بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ، ص ٤ .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص٤٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٣ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٩٢ .

☆☆ مدينة سلا Sale هي إحدى مدن المغرب القائمة عند مصب نهر أسمر (أبي رقراق) في البحر المحيط (الإدريسي : صفة المغرب، ص ٧٢ ؛ المراكشي: المعجب ، ص ٢٩٦) وتتصل حالياً بمدينة الرباط عن طريق عدد من القناطر المنصوبة على نهر إبي رقراق الفاصل بينهما (الصديق بن العربي : كتاب المغرب ، ط . الثالثة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ص ٤٩ ، ١٣٨) .

والقواد »[1] . وفي أول يوم من العام التالي التقوا بعبد المؤمن ، فتقدم قاضي الجماعة في قرطبة أبو القاسم ابن الحاج☆ (ت٥٧١هـ/١١٧٥م) الذي أُتيحت له الفرصة هذه المرة بالحضور ، فراح يتكلم بين يدي الحاكم الموحدي ، فركز في كلامه على العدوان النصراني ، وأنه أضعف البلاد وأفقرها[2] . ثم نهض من بعده أبو بكر بن الجد (ت٥٨٦هـ/١١٩٠م) الذي سبق أن قدم مع وفد إشبيلية ، فخطب خطبة تطرق فيها لعبد المؤمن بن علي «وما يجب من البدار إلى طاعته ، والدخول في جماعته »[3] . وقد تكرر مثل هذا المجلس في اليوم الثاني ، فأتيح الكلام بين يدي عبد المؤمن لكل من أراد أن يتكلم من رجال الوفد الأندلسي ، ثم عادوا إلى بلادهم[4] .

والمتأمل لما مر ذكره من أخبار الوفود القادمة من غربي الأندلس ووسطها إلى الحاكم الموحدي في المغرب ، وترؤس العلماء لتلك الوفود يكاد يجزم بأن العلماء المخلصين في تلك المناطق حبذوا تملك الموحدين لها بعد انتزاعها من الفرقاء المتحاربين ، وذلك رغبة في ائتلاف القلوب ، واجتماع الكلمة ، ووحدة الصف أمام النصارى☆☆ . وقد كشف لنا أبو القاسم ابن الحاج في كلمته لعبد المؤمن أن ردع العدوان النصراني ، وإيقاف زحفه هو غاية الأندلسيين الأولى في إنضوائهم تحت مظلة الدولة الموحدية .

---

(١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٩٢ .

☆ رسم ابن عذارى اسمه هنا بابن حجام (البيان ، ق . الموحدين ، ص ٤٤) .

(٢) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٩٢ .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص٤٤ .

(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

☆☆ تأمل كلام ابن العربي عند شرحه لقول الرسول ﷺ : " وألا تنازع الأمر أهله " حيث قال " يعني بقوله أهله : مَنْ مَلَكَه لا من يستحقه ، فإن الأمر فيمن يملكه أكثر منه فيمن يستحقه ، والطاعة واجبة في الجميع لأمر النبي ﷺ بذلك لكل أمير ولو كان عبداً حبشياً لما في ذلك من مصلحة الخلق، فإن=

ولقد كان المظنون بعلماء شرقي الأندلس أن يسعوا إلى ربط بلادهم بالدولة الموحدية ، لأن حكام هذه الأخيرة يرفعون علم الجهاد ضد النصارى[١] بينما محمد بن سعد بن مردنيش المتأمر على تلك المناطق الشرقية من الأندلس[٢] – بجانب انهماكه باقتراف ألوان من المنكرات [٣] – كان معروفاً بمداخلته النصارى ، حيث " ألجأه الخروج عن الجماعة ، والانفراد بنفسه إلى الاحتماء بالنصارى ، ومصانعتهم ، والاستعانة بطواغيتهم "[٤]☆. بيد أننا لا نخال جهداً صريحاً لأولئك العلماء في ذلك الشأن☆☆ ، لا سيما في مرحلة قوة ابن مردنيش ، وربما أن السبب المانع لهم في عمل شيء من ذلك عدم اطمئنانهم من نجاح مسعاهم ، فابن مردنيش كان في تلك المرحلة أصلب عوداً، وأشد

= الخروج على من لا يستحق الأمر إباحة للدماء ، وإذهاب للأمن ، وإفساد ذات البين ، فالصبر على ضرره أولى من التعرض لهذا الفساد كله " . (القبس ، جـ ٢ ، ص ٥٨٢) . فهذا المنهج الذي حكاه ابن العربي هو الذي سار عليه – فيما يبدو – علماء الأندلس مع دولة الموحدين .

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ١٥٢ ؛ بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ، ص ١٢٢ ، ١٤٠ ، ١٥٢ ، ٢٢٠ ، ٢٣٠ .

(٢) انظر : التمهيد من هذا الكتاب .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ ، أعمال الأعلام، ق٢ ، ص ٢٦١ .

(٤) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ٢ ، ص ١٢٣ – ١٢٤ .

☆ لمعرفة الممالك النصرانية التي حالفها ابن مردنيش انظر (محمد أحمد أبو الفضل : شرق الأندلس في العصر الإسلامي، ط.دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية،١٩٩٦م،ص٩٩-١٠٠،١٠٢-١٠٣،١٣١،١٣٢)

☆☆ هناك رسالة لابن مغاور الشاطبي (ت٥٨٧هـ/١١٩١م) كتبها عام ٥٤٦هـ/١١٥١م على لسان أشياخ بلنسية وأعيانها يحذر فيها أحد قادة محمد بن مردنيش من اقتحام بلنسية بعد أن أعلن فيها زعيم اسمه يوسف بن حامد الدخول في دعوة الموحدين ونبذ طاعة ابن مردنيش (ابن مغاور الشاطبي : نَوْر الكمائم وسجع الحمائم ، نشره محمد بن شريفة ضمن كتاب " ابن مغاور الشاطبي حياته وآثاره " ، ط . الأولى ، مطبعة النجاح الجديدة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م ، ص ١٣١ – ١٣٤) وقد صرح ابن مغاور أن أولئك الأشياخ والأعيان استحضروه واستنهضوه للكتابة عنهم في ذلك الشأن (المصدر السابق ، ص ١٣٢) ولذا فإن ما فعله ابن مغاور لا يُعد سعياً صريحاً ينسب إليه في مجال الاتحاد مع الموحدين .

نفوذاً في الأندلس من الموحدين الذين كان مركزهم فيها ما زال ضعيفاً [١].
ومع هذا ألا يُعد قتل ابن مردنيش علماء من شرقي الأندلس [٢] مؤشراً على أنهم قاموا بنصحه أو عارضوه في سياسته أو حاولوا الاتصال بالموحدين ودعوتهم لضم بلاده ؟ . فلنأخذ – مثلاً – خبر وفاة أبي الحسن بن أبي الليث☆ ، فقد ورد أنه قُتِلَ بدانية مظلوماً عن أذن محمد بن سعد بن مردنيش في آخر رمضان سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧١م [٣] ، وقد نص الرواة أن قتله كان " لسعاية عند السلطان محمد بن سعد " [٤] . وقَتْلُ عالمٍ بارزٍ كأبي الحسن بن أبي الليث الذي كان " كبير فقهاء دانية ورأس الفتوى " [٥] لـن يَجْسُرَ عليه ابن سعد ما لم يكن يراه قد ارتكب –في نظره– جرماً عظيماً، واحتمال كبير جداً أن تكون السعاية المذكورة في الخبر المتقدم هو تعلقه بالدولة الموحدية.

---

(١) مراجع عقيلة الغناي : قيام دولة الموحدين ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي ، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م ، ص ١١٩ – ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٤١ .

(٢) انظر أمثلة في : ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، ص ٣٠٣ ، ٣٧٩ ؛ ابن الأبار : التكملة ، حـ ٢، ص ٥١٢ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص ٨٥ ، س ٥ ، ق١ ، ص ٢١٩ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص١٢٢ .

☆ أبو الحسن بن أبي الليث هو : علي بن صالح بن أبي الليث بن أسعد العبدري ، يُعرف بابن عز الناس ، ولد بطرطوشة سنة ٥٠٨هـ / ١١١٤م وسكن دانية . وقد برز في الفقه ، وله مصنفات . وكانت وفاته مقتولاً في رمضان سنة ٥٦٦هـ / ١١٧١م (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، حـ٢ ، ص ٦٦٨ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة، س٥ ، ق ١، ص ٢١٨ – ٢١٩ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ٩٦ – ٩٧ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، حـ٤ ، ص ١٨٣-١٨٤ ؛ ابن فرحون : الديباج ، حـ٢ ، ص ١١٩ ؛ التنبكتي : نيل الابتهاج ، ص ٣١٣) .

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق١ ، ص ٢١٩ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، حـ٤، ص ١٨٤ .

(٤) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، حـ ٢ ، ص ٦٦٨ ؛ التنبكتي : نيل الابتهاج ، ص ٣١٣ .

(٥) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، حـ٢ ، ص ٦٦٨ .

ويبدو أن بعض علماء شرقي الأندلس في مرحلة ضعف ابن مردنيش رحبوا بانضمام بلادهم إلى الدولة الموحدية ، فأبو الحسن بن فيد الفارسي☆ (ت٥٦٧هـ/١١٧٢م) - مثلاً - رغم بلوغه من العمر ما يقارب ثمانين عاماً فقد شارك أهل ألْش☆☆ في التخلص من حكم ابن مردنيش [(١)] والدخول في طاعة الموحدين . فقد ورد في ترجمة حياته أنه " نزل ألش وولى الصلاة والخطبة بجامعها ... واستشهد في خروجه من ألش مع عامة أهلها خوفاً على أنفسهم من الأمير محمد بن سعد ، إذ كانوا قد خلعوا طاعته " [(٢)] . وكان خلعهم لدعوته وتعلقهم بحكم الموحدين قد حدث في عام ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م[(٣)]. ومن الملاحظ أن العديد من المدن الأندلسية الشرقية قد أخذت في ذلك العام والعام الذي بعده بإعلان الولاء للدولة الموحدية[(٤)]. ولابد أن

☆ أبو الحسن بن فيد الفارسي هو : علي بن محمد بن أحمد بن فيد الفارسي القرطبي ، ولد في قرطبة قبل عام ٤٩٠هـ/١٠٩٦م . وكانت له رحلة إلى المشرق . عني بالحديث ، فكان محدثاً حافظاً ثقة . وقد خرج من قرطبة في فتنة عام ٥٣٩هـ / ١١٤٥م ، ونزل بألْش ، وظل يتولى الصلاة والخطبة بجامعها حتى وفاته سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧٢م (الضبي : بغية الملتمس ، ص ٤١٤ - ٤١٥ ؛ ابن الأبار : التكملة ط . كوديرا ، جـ ٢ ، ص ٦٧٠ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق١ ، ص ٢٧٨-٢٧٩ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ١٠٢) .

☆☆ ألش Elche من عمل مرسية (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ ٢ ، ص٦٧٠) تقع غربي مدينة مرسية (ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣١٨ حاشية "١") على بعد حوالي أربعين ميلاً منها (الإدريسي : صفة المغرب ، ص ١٩٣) وهي اليوم من مصايف إسبانيا (ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ٥٤٩ ، حاشية "٥") .

(١) ابن الأبار : التكملة ، جـ ٢ ، ص ٦٧٠ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق١ ، ص ٢٧٩ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣١٨ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص١١٣ .

(٤) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ؛ ابن الأبار : التكملة ، جـ١، ص ٧٦ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص ٤٠٦ ؛ ابن عذارى : البيان، ق . الموحدين ، ص ١١٣ ، ١٢٢ .

يكون للعلماء أثر في ذلك التوجه باعتبارهم فئة من أولي الأمر المنوط بها تدبير أمور الناس ، والسهر على مصالحهم .

وحالما انتهى أمر ابن مردنيش بوفاته في رجب عام ٥٦٧هـ/١١٧٢م (١) تهافت أهل الديار الشرقية على الدعوة الموحدية ، فتوافد بعضهم على الحاكم الموحدي يوسف بن عبد المؤمن عند قدومه إلى إشبيلية في ذلك الحين (٢) ، وكان من أبرز الوافدين إليه لتوثيق البيعة أهل مرسية – قاعدة ابن مردنيش الرئيسة (٣) – فكان في مقدمتهم أبو عبد الله بن الفرس ☆ (ت٥٦٧هـ/ ١١٧٢م) (٤) ، وقد كانت النتيجة أن "استوسقت طاعة الموحدين بالشرق ، وشملته دعوتهم" (٥) ، فعادت بذلك أجزاء جزيرة الأندلس الباقية يشد

---

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣٧٩ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٢ ، ص ١٢٧ ؛ وانظر التمهيد من هذا الكتاب .

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣٢٢ ، ٣٧٨ ؛ ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٢١ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص٢١٦ .

☆ أبو عبد الله بن الفرس هو: محمد بن عبد الرحيم بن محمد بن الفرج الخزرجي ، يرجع في نسبه إلى سعد ابن عبادة ﷺ . ولد في غرناطة في صفر عام ٥٠١هـ/١١٠٧م ، كان عالماً بالفقه والحديث والقراءات والأخبار وغيرها . خرج من بلده في فتنة عام ٥٣٩هـ/١١٤٥م واستوطن مرسية ، فولي الشورى بها، ثم تولى قضاء بلنسية مدة ، ثم عاد إلى مرسية وتفرغ للتدريس إلى أن وفد إلى إشبيلية فتوفي بها في شوال عام ٥٦٧هـ/١١٧٢ (ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص ٥٠٨-٥١١ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص ٣٧٢ – ٣٧٥) .

(٤) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص ٥١٠ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٣٧٥ .

(٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٢٦٢ .

بعضها بعضاً تحت راية الموحدين . قال الضبي [(١)] (ت ٥٩٩هـ/١٢٠٢م) مشيداً بالموحدين ، وما آل إليه أمر الجزيرة في ظلهم " فاستولى الأمر العالي... بعد ذلك على جميع ما كان بأيدي المسلمين من الأندلس ، وارتفعت المحن والفتن والجور والجزية ، واجتمعت الكلمة " .

ولقد بقي علماء الأندلس يؤيدون الحكم الموحدي لبلادهم ، فعمل بعضهم في وظائف الدولة الموحدية [(٢)] ، وخرجوا مع جيوشها لجهاد النصارى[(٣)] . كما وقفوا موقفاً صليباً من الحركات المعكرة للوحدة كموقفهم من محاولة والي الأندلس أبي يحيى بن يوسف بن عبد المؤمن للوصول إلى الحكم بطريقة غير مشروعة لما مرض أخوه الحاكم الموحدي المنصور يعقوب بن يوسف (٥٨٠هـ/١١٨٤م - ٥٩٥هـ/١١٩٩م) مرضاً مدنفاً ؛ حيث استمال أشياخ الجزيرة ، ودعاهم إلى نفسه ، فنفروا من فعله ، وصار بعضهم يُحيله إلى بعض ، بل أنهم لما شفي المنصور من مرضه ، وعلم بتدبيره ، وأراد عقابه – شهدوا عليه بما دعاهم إليه ، فقتله المنصور من فوره [(٤)] .

---

(١) بغية الملتمس ، ص ٤٥ .

(٢) انظر على سبيل المثال ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ١ ، ص ٣١٢ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١ ، ص ٢٦٥ ، ٢٧١ .

(٣) انظر مثلاً ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣١٣ ؛ المراكشي : المعجب ، ص ٣٣١-٣٣٢ ؛ ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص ٧٥٩ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ١ ، ص ٣١٢ .

(٤) المراكشي : المعجب ، ص ٣٥٧-٣٥٨ .

وقبل ختام الكلام عن أثر العلماء الأندلسيين في وحدة بلادهم تحت مظلة الموحدين ثمة أمر يستلفت النظر،وهو أن ما مر بيانه من أثر سياسي لهم في سبيل الوحدة يبدو خافتاً إذا ما قُورن بأثرهم في المجال نفسه أيام حكم المرابطين ، ويمكن رد ذلك إلى سببين رئيسين . **أولهما** : إن علماء المالكية الذين هم في غالبهم علماء الأندلس لم يكونوا دائماً على صفاء مع حكام الدولة الموحدية [(١)] ، فلم يخلُ العصر الموحدي من مشاحنات بين الطرفين[(٢)]، وذلك بعكس ما ساد من وفاق بينهم وبين حكام المرابطين [(٣)] لدرجة كان علي بن يوسف بن تاشفين لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورتهم[(٤)]. **ثانيهما** : كان ابن تومرت قد استحدث في التنظيم الذي وضعه لاتباعه ما أسماه بالطلبة [(٥)] ، وقد غدا هذا اللقب في عهد عبد المؤمن بن علي ومَنْ بعده يطلق على جماعة من طلبة العلم☆من المغرب وكذلك من الأندلس ارتكزت تنشيئتهم العلمية على أفكار الدعوة الموحدية التومرتية . ثم أسندت إليهم المناصب الإدارية والعسكرية في الدولة [(٦)] ،بل إنهم حُمّلوا أحياناً في كافة

---

(١) المراكشي : المعجب ، ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

(٢) انظر مثلاً ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص ٥٨٨ ، ٦١٦ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة، س٦ ، ص ٤٤٤ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٥ .

(٤) المراكشي : المعجب ،ص ٢٣٥ .

(٥) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٨٢ .

☆ والطلبة تطلق على ثلاث فئات هم : الطلبة الحفاظ ، طلبة الموحدين ، طلبة الحضرة (حسن علي حسن : الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس ، ص ٣٣٢ ، ٣٣٣) .

(٦) سعد زغلول عبد الحميد: محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والأندلس ، ط . جامعة بيروت العربية ، ١٩٧٣م ، ص٣٢ ، حسن علي حسن : الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس ، ص ٣٣٢ ؛ عز الدين موسى : الموحدون ، ص ٩٩ ؛ تورنو : حركة الموحدين في المغرب ، ص ٧٢ .

أرجاء البلاد المسؤولية التربوية والعلمية والإدارية والعسكرية والقضائية وحتى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [١] ، وكثيراً ما توجه إليهم الرسائل الرسمية [٢] .

ولا ريب أن طبقة الطلبة هذه بوضعها الآنف الذكر قد سحبت البساط من تحت أقدام علماء الأندلس ، ونَحَّتهم بعيداً عن مجريات الأمور ، فصاروا عندئذ يعيشون في الظل بخلاف حالهم أيام الدولة المرابطية .

د – اضطراب وحدة الأندلس أثناء اضمحلال دولة الموحدين وموقف العلماء من ذلك:

عقب تمكن دولة الموحدين من ضم الأراضي الإسلامية في الأندلس كلها عاش المسلمون في العدوتين معاً حقبة من الزمن منصوبة رايتهم ، قوية شوكتهم ، مجتمعة كلمتهم « لانتظام البرين على طاعة الدولة الممهدة القواعد، ورجوعها إلى إمام واحد » على حد تعبير الحميري [٣] . وقد بقيت الأحوال على هذا النحو حتى جرت هزيمة المسلمين في وقعة العقاب في صفر عام ٦٠٩هـ/١٢١٢م ومن يومها صار المسلمون بالأندلس « يرجعون القهقرى»[٤] ولقد تفاقم الوضع سوءاً بتنازع البيت الموحدي على السلطة[٥]، ففي خضم ذلك التنازع استجاش أفراد من الأسرة الموحدية في الأندلس

(١) عز الدين موسى : الموحدون ، ص ٩٥ ، ٩٧ .

(٢) انظر مثلاً بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ، ص ٩٥ ، ٩٩ ، ١٤٩ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ، ١٦٨ .

(٣) صفة جزيرة الأندلس ، ص ١١٨ .

(٤) القرطبي : التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ،ط . الثانية، دار الريان ، القاهرة ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص ٧١٣ .

(٥) ابن الخطيب : الإحاطة ، نصوص جديدة ، ص ٦٣ .

بالعدو النصراني، ولم يروا بأساً في التنازل له عن حصون ومدن أندلسية[١].

ونظراً لأن محمد ابن يوسف بن هود الثائر على الموحدين في الأندلس في منتصف العقد الثالث من القرن السابع الهجري قد حارب النصارى في بداية أمره[٢]، وأعلن تبعيته للخلافة العباسية التي ما نشبت أن أرسلت إليه كتاباً – قُرِيء على الناس– أيدته على فعله، وصدقت شرعية حكمه، وحثته على الجهاد [٣] – نظراً لذلك كله فقد دانت له معظم المدن الأندلسية بالطاعة[٤] ☆ وطفق رجال من أهل العلم يدعون إلى الالتفاف حوله من أجل اتحاد أجزاء البلاد لتبقى قادرة على مجابهة الأعداء النصارى المتربصين بها ، فكان من هؤلاء أبوبكر عزيز بن خطاب☆☆ (ت٦٣٦هـ/١٢٣٨م) حينما كتب إلى

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٠٧ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ٤٤٦ ، ٤٤٧ . وانظر التمهيد من هذا الكتاب .

(٢) ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٧٧ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٢ ، ص ١٢٩ .

(٣) ابن عذاري:البيان، ق . الموحدين، ص ٢٩٤-٢٩٥؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢،ص٢٨٠-٢٨٥.

(٤) ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٩٥ .

☆ نقل الذهبي من خط أبي الوليد بن الحاج أنه لما نجم ابن هود بشرقي الأندلس سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م " قام الناس كلهم بدعوته ، وتعصبوا معه وقاتلوا الموحدين في البلدان ... وخلصت الأندلس كلها له ، وفرح الناس به فرحاً شديداً " . (سير أعلام النبلاء ، جـ٢٣ ، ص ٢٠ – ٢١) .

☆☆ أبو بكر عزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطاب القيسي ، من أهل مرسية ، وأصله من سرقسطة ، ولكن سلفه انتقلوا منها إلى مرسية ، فصاروا من أهلها . ولد عام ٥٦٩هـ/١١٧٣م . كان من المستبحرين بفنون العلم ، واشتهر بالبلاغة في النثر والنظم ، وكان عابداً زاهداً متقللاً من الدنيا إلى أن نصبه ابن هود والياً على بلده مرسية ، فقام بتدبير أمورها حتى صرف عنها بوفاة ابن هود في جمادى الآخرة من سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٨م ، بيد أنه لم يلبث أن عاد إلى حكمها في محرم عام ٦٣٦هـ/١٢٣٨م بمبايعة أهلها له ، فلم يستمر طويلاً ؛ إذ قتل في رمضان من العام نفسه (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص ٦٩٦ ؛ الحلة ، جـ٢ ، ص ٣٠٨ – ٣١١ ؛ ابن عميرة : رسائل أبي المطرف بن عميرة ، ورقة ٧٢-٧٣ ابن سعيد : المغرب ، جـ٢ ، ص ٢٥٢-٢٥٣ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق١ ص ١٤٤-١٤٦ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ١٦٥ ؛ ابن خليل : اختصار القدح المعلى، ص ٤٥، ١٤٦ – ١٤٧) وانظر ما كتبته عنه سحر السيد عبد العزيز سالم في : بنو خطاب بن عبد الجبار التدميري ، ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٩م ، ص ٦٨-٨١) .

خطيب بلنسية أبي عبد الله بن قاسم الأنصاري رسالة -الغرض منها في الأصل الإشارة عليه بندب أبي جُميل زيان ابن مردنيش حاكم بلنسية للدخول في طاعة ابن هود [١] . فمما جاء فيها " ثم قد علمتم مافي إصلاح ذات البين من الأجر ، وأنه من الفرائض التي يأثم الجميع بخلوهم عن قائم به... وعلمتم أن المدن المتجاورة المتشاركة في الدين التي لا تستقل كل واحدة منها بنفسها في معاشها أو دفاع عدوها التي يروم الاستيلاء على أهلها، واستئصال دينهم الحق واجب عليها أن تتناصر وتتعاضد على دفاع ذلك العدو ، ويأمن بعضها من بعض ، وتثبت بينها أسباب التواد والتناصر ، ويكونوا كما قال رسول الله ﷺ (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه) [٢] ، وكما قال ﷺ (المؤمن للمؤمن كالبينان يشد بعضه بعضاً) [٣] . كما يجب ذلك في المدينة الواحدة بين المنازل ، وهذا كله بيِّن لا يخفى أنه فرض في ديننا الذي رضيه لنا ربنا - جل وعز - وهو المراد بقوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ [٤] ، وبقوله تعالى: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم[٥] ﴾ " [٦] ، ثم أكد أن هذا الاتحاد بين تلك المدن لن يتأتى إلا بالاتفاق على زعيم واحد فقال " وبيِّن ومعلوم أن ذلك لا يكون إلا بالاتفاق على مدبر واحد ، يتمكن من الاطلاع على

---

(١) ابن المرابط : زواهر الفكر ، ص ٦٣-٦٤ .

(٢) من حديث عبد الله بن عمر ﷺ (البخاري : صحيح البخاري ، ط . الرابعة ، عالم الكتب ، بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ، جـ ٣ ، ص ٢٥٧) .

(٣) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ (البخاري : صحيح البخاري ، جـ٣ ، ص ٢٥٨) .

(٤) سورة آل عمران ، الآية ١٠٣ .

(٥) سرة الأنفال ، الآية ٤٦ .

(٦) ابن المرابط : زواهر الفكر ،ص ٦٥ .

الأحوال جميعها ، ينقاد إليه مدبر كل واحدة منها ، ويقبل منه المصالح المشتركة وينهي إليه ما يخص الجزء الذي يختص بتدبيره ، إذ بذلك تأتلف نفوس الجميع ... »[١] إلى أن يقول « فإنه إن لم يَنْقد مدبروها إلى مدبر واحد يتمكن منه ما ذُكر اختل نظامها الذي به تتعاضد ، وآثر كل واحد منهم مصلحته الخاصة به على المصلحة التي للآخر »[٢] وختم رأيه هذا بقوله « هكذا يكونون عند التسالم توقعاً »[٣] ثم تساءل قائلاً « فكيف عند ظهور استئثار أو تغالب أو تجاذب على بعض الأطراف ؟ »[٤] ، ثم بين أن هذا يُوجب « ولا بد وهناً في جميعهاوتهيؤاً لاستيلاء عدوها عليها إن كانت متكافئة ، وكان الخلاف بين كل واحدة وكل واحدة منها ، أو في المنفردة منها إن كان أكثرها منتظماً مقاوماً للعدو»[٥] وبعد ذلك ذَكَّر بما يجب عن العلماء من نصح لحكامهم بالائتلاف وعدم اتباع الهوى « العائد عليهم بالخسر المؤدي إن داموا عليه إلى انبتات رئاستهم رأساً ، وانقطاع كلمة الدين عن مدينتهم على أيدي عدو دينهم »[٦] ثم أكد أن حكم البغاة ينبغي تطبيقه على من لم يقبل من حكام المدن بالوحدة . وبعد تصويره لخطر النصارى على بلنسية وما يتصل بها من ثغور أشار إلى أن ابن هود قد عقد العزم على ضمها ، وأنه يتعين على خطيب بلنسية ابن قاسم النصح لزيان للدخول في طاعة ابن هود ليُجنب المسلمين ما يتمخض عن ذلك من شرور.

---

(١) ابن المرابط : زواهر الفكر ، ص ٦٥-٦٦ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٦٦ .
(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(٥) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(٦) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

وفي آخر رسالته طلب أبو بكر بن خطاب من صاحبه ابن قاسم أن يُبلغ نصيحته تلك إلى زيان [١] ☆ .

ولقد مكث الأندلسيون حيناً من الدهر يتفاءلون خيراً بابن هود لانقاذهم من محنتهم التي كانوا يقاسونها [٢] ، ثم تبدد هذا التفاؤل ، وخاب الظن به بعد أن ثبت عجزه عن تسيير شؤون البلاد بحزم [٣] ، فضلاً عن كونه مُني بهزائم من قبل النصارى [٤] ، بل إن الأندلسيين مقتوه حين تكشف لهم تورطه باتفاق سري مع أولئك النصارى للتخلي لهم عن قرطبة [٥] التي سقطت في قبضتهم في شوال عام ٦٣٣هـ/١٢٣٦ [٦] .

---

(١) ابن المرابط : زواهر الفكر ، ص ٦٦ .

☆ انظر الرسالة كاملة في ملاحق هذه الدراسة .

(٢) محمد بن شريفة : من أعلام التصوف بالأندلس في القرن السابع الهجري ؛ ابن عبيديس النفزي (أحد بحوث ندوة تكريم المنوني نشر في كتاب بعنوان " في النهضة والتراكم " ط . الأولى ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ١٩٨٦م ، ص ٢٣٤ .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٢ ، ص ١٢٩ ؛ أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٢٧٨ .

(٤) ابن سعيد : المغرب ، جـ٢ ، ص ٢٥١-٢٥٢ .

(٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ٢٣ ، ص ٢١-٢٢ .

(٦) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٧٦ .

ثالثاً : أثر العلماء في الاستنجاد بالدولة الحفصية لإيقاف الزحف النصراني :

اقترنت الأندلس بالمغرب [(١)] ، فكان كل قطر منهما يعد منطقة أمان للآخر ، وامتداداً له [(٢)] . وقد ربط أهل المغرب مصيرهم وإمكاناتهم بأهل الأندلس ، فأعدوا أنفسهم ليكونوا شعباً مجاهداً حتى ترسبت لديهم فكرة الجهاد ، فصارت جزءاً من كيانهم [(٣)] . وقد صَوَّر أحدهم ذلك بقوله « فالمسلمون حيثما كانوا أخوة لاسيما من بهذه الجزيرة وبتلك العُدوة » [(٤)] . ومنذ أواخر القرن الخامس الهجري أصبح المغرب يشكل القوة الرئيسة المساندة للأندلس في مواجهة الزحف النصراني المتلاطم [(٥)] . فلقد هرع أهل الأندلس للاستنجاد بالمرابطين عندما أحسوا بخطر النصارى على بلادهم [(٦)] . ثم دخلت الجزيرة الأندلسية بعدها رسمياً -كما هومعلوم- ضمن أملاك الدولة المرابطية ثم الدولة الموحدية [(٧)] .

ولما تزايد نشاط النصارى العدواني على جبهات الأندلس كافة

---

(١) العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٢ ؛ أحمد مختار العبادي : صور لحياة الحرب والجهاد في المغرب والأندلس ، مجلة البينة ، السنة الأولى ، عدد ٩ ، يناير ١٩٦٣م ، ص ٨٤ .

(٤) مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٢ .

(٥) خليل السامرائي وزميلاه : تاريخ المغرب العربي ، ص ٣٤١ ؛ المهدي البرجالي : أدب الجهاد في العدوتين: نموذج الجهاد المرابطي في العدوة لابن أبي الخصال ، مجلة دعوة الحق ، عدد ٢٥٩ ، محرم - صفر ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م ، ص ١٠٩ .

(٦) ابن بسام : الذخيرة ، ق٢ ، م١ ، ص٢٥٤ ، ق٢ ، م٢ ، ص ٦٥٣-٦٥٥ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٢٤٣ ؛ النويري : نهاية الأرب ، جـ٢٣ ، ص٤٥٤ - ٤٥٥ ؛ مجهول : الحلل الموشية، ص ٣٣ .

(٧) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق١ ، ص٥ .

إبان الحقبة المتأخرة من العصر الموحدي (١) في وقت كان الأندلسيون قد فقدوا الأمل من زعمائهم وعلى رأسهم ابن هود الذي كان قد تواطأ مع النصارى عند احتلالهم قرطبة (٢) ثم ما لبث أن توفي في عام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م (٣) ، كما أنهم من ناحية أخرى قد يئسوا من الدولة الموحدية الغارقة في مشاكلها الداخلية☆ – لما حدث ذلك كله تجددت حاجة الأندلسيين للاستنجاد بإخوانهم أهل العدوة المغربية ، وكان توجههم هذه المرة إلى إفريقية (٤) ، حيث تقوم هناك دولة ناشئة توسموا فيها المقدرة على نجدتهم ، وهي الدولة الحفصية ☆☆ . وقد انبعث هذا التوجه من أهل شرقي الأندلس خاصة بعد أن

---

(١) ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٣ ؛ الحلة ، جـ٢ ، ص ٢٩٢ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٣٨٥ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ٢٣ ، ص٢١ .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٢ ، ص١٣٢ .

☆ هناك رسالة كتبت عن الحاكم الموحدي الرشيد عام ٦٣٧هـ /١٢٤٠م بشأن الأندلسيين الذين فروا من شرقي الأندلس ونزلوا في رباط الفتح تُلهم أن الدولة الموحدية في ذلك الحين لم تكن تفكر في التصدي للزحف النصراني في الأندلس ، فالرشيد يوصي فيها أن يُوسع لهم بالأموال والأراضي وأن " يتأثلوا الأملاك لأنفسهم وأولاد أولادهم ... وأن يكرموا غاية الإكرام ... ويولوهم من حسن الجوار ما ينسيهم أوطانهم " (ابن عميرة : رسائل أبي المطرف بن عميرة ، ورقة ١١٨-١١٩ ؛ ابن المرابط : زواهر الفكر ، ص ٢٣٩-٢٤٣) فهذه الأقوال السابقة تنبيء أن الموحدين لم تكن لديهم نية استعادة أوطان هؤلاء .

(٤) المقري : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ٣٠٨ .

☆☆ الدولة الحفصية : تنسب إلى أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي أحد أصحاب ابن تومرت المقربين ، ويقال إن نسبه ينتهي بعمر بن الخطاب ﷺ (ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٣٧٠-٣٧١ ؛ ابن الشماع : الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية ، تحقيق الطاهر المعموري ، ط . الدار العربية للكتاب ، طرابلس – ليبيا ، ١٩٨٤م ، ص ٤٨-٤٩) وكانت بداية نشأتها حين عرض محمد الناصر الموحدي على أبي محمد عبدالواحد بن أبي حفص عمر عام ٦٠٣هـ/١٢٠٥م ولايته إفريقية ليقف في وجه الثوار من بني غانية وغيرهم الذين ركزوا نشاطهم حينذاك فيها ، وقد قبل أبو محمد بشروط منها أن ينتخب من يشاء من رجال الموحدين لمعاونته ، وأن لا يُتعقب في شؤون إدارتها . ولقد تلكأ قليلاً عن البيعة للمستنصر الموحدي بعد والده الناصر ولذا بعث المستنصر والياً يشاركه في الولاية على إفريقية ، فظل على تلك –

تعرضوا لهجوم كاسح من قبل نصارى أرغون [١] ، بلغ ذروته في رمضان عام ٦٣٥هـ/١٢٣٨م بحصار مدينة بلنسية [٢] التي كانت تعد من كبريات القواعد الإسلامية في هذه المنطقة [٣] . ذاك أن أبا جُمَيْل زيان بن مردنيش حاكم هذه المدينة ندب أعيانها ، وفي طليعتهم أبو عبد الله الأبار (ت٦٥٨هـ/ ١٢٥٩) للاستنجاد بأبي زكريا☆ حاكم الدولة الحفصية بإفريقية[٤]. وذلك

= الحالة إلى وفاته أول عام ٦١٨هـ/١٢٢١م (ابن عذاري : البيان ، ق الموحدين ، ص ٢٤٨-٢٤٩ ، ٢٩٠ - ٢٩٢ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٣٧٣-٣٧٦ ؛ ابن قنفذ القسنطيني : الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية ، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي ، ط . الدار التونسية للنشر ، ١٩٦٨م ، ص١٠٤-١٠٥ ؛ ابن الشماع : الأدلة البينة ص ٤٩-٥٠ ؛ الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ١٨، ١٩ ؛ السراج : الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٥م ، جـ٢ ، ص ١٤٢) .

(١) ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ٢١٤-٢١٥ ؛ جـ٦ ، ص٣٨٥ ؛ المقري : نفح الطيب، جـ٤، ص٤٥٦ .

(٢) ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٣٤٨ ؛ ابن خلدون :العبر ، جـ٦ ، ص ٣٨٥ .

(٣) الإدريسي : صفة المغرب ، ص١٩١ ؛ مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، ص ٧٣ .

☆ أبو زكريا يحيى بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر . كان عبد الله بن أبي محمد عبد الواحد قد عين والياً على إفريقية ، فعقد لأخيه أبي زكريا هذا على مدينة قابس . ولما جرت الفتنة بين الأسرة الموحدية في مراكش ، وتمخضت عن وصول المأمون إلى الحكم أرسل إلى أبي زكريا يعده بولاية إفريقية إن أخذ البيعة له من أهلها ، فبادر أبو زكريا بذلك ، وخلع أخاه ، ودخل تونس في رجب عام ٦٢٥هـ/١٢٢٨م . ولقد استفاد من الانشقاق في البيت الموحدي فاستقل عن الدولة الموحدية عام ٦٣٤هـ/١٢٣٦ م ، إذ تلقب بالأمير وجدد البيعة لنفسه . وقد كانت وفاته في جمادى الآخرة عام ٦٤٧هـ/١٢٤٩م . (ابن الخطيب: شرح رقم الحلل، ص ٢١٨؛ ابن قنفذ : الفارسية ، ص ١٠٧-١١٤؛ ابن الشماع : الأدلة البينة ، ص ٥٤-٦٠ ؛ محمود مقديش : نزهة الأنظار ، جـ١ ، ص٥٤٤-٥٤٩) ويعد أبو زكريا - بلا ريب - المؤسس الحقيقي للدولة الحفصية (روبار برنشفيك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ترجمة حمادي الساحلي ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٨م ، جـ ١ ، ص ٥١) .

(٤) الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٢٧ .

قبيل حصار بلنسية [١] أو عند حصارها [٢] على اختلاف بين المؤرخين . وحضاً على سرعة الغوث ، وإمعاناً في تبيان الحاجة إلى الغوث حمَّل أبو جميل – فيما يبدو – أولئك الأعيان البيعة بالتبعية للحاكم الحفصي [٣] . وفي هذا الصدد يقول ابن الخطيب [٤] عن سكان شرقي الأندلس " وكَلِبَ عليهم عدو الشرق ، ويئسوا من نصرة أهل الأندلس وأهل المغرب ، فتعلقوا ببيعة أبي زكريا بتونس، واستصرخوه ، وأطمعوه بفتح الشرق... " . وحالما حل الوفد البلنسي بتونس حاضرة الحفصيين قدم أفراده في يوم مشهود البيعة التي كانوا يحملونها لأبي زكريا [٥] .

وقبل أن نتبين نتيجة هذه السفارة الأندلسية إلى تونس يحسن هنا التوقف قليلاً عند قصيدة ابن الأبار السينية التي استحث فيها الحاكم الحفصي على إغاثة أهل الأندلس ومطلعها :

أدرك بخيلك خيلِ الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها دَرَسَا [٦]

فالمصادر – المتوافرة لدينا – التي ذكرتها تباينت في تحديد زمن إلقاء ابن الأبار لها بين يدي ذلك الحاكم ، ولكن على العموم يمكن أن نميز في هذا

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص ٢٧٣ . وانظر ما ذكره ابن الأبار عن نفسه في : التكملة، جـ١ ، ص ٢٦٧ .

(٢) ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ، ص ٢١٥ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٤٥٦ .

(٣) الزركشي : تاريخ الدولتين، ص ٢٧ ؛ المقري : أزهار الرياض ، جـ٣ ، ص ٢٠٥ .

(٤) أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٢٧٢-٢٧٣ .

(٥) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٣٨٦ .

(٦) انظر القصيدة كاملة في : ابن الأبار : ديوان ابن الأبار ، تحقيق عبد السلام الهراس ، ط . الدار التونسية ١٤٠٥هـ /١٩٨٥م ، ص ٣٩٥-٤٠٠ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦، ص ٢٥٩-٢٦٢ ؛ مجهول : الدرر الثيرة في أخبار الجزيرة ، ورقة ١٤٨ ب – ١٥٠ أ .

الشأن بين ثلاثة أنواع من المصادر ؛ **الأولى** : مصادر ربطت قصيدة ابن الأبار بالبعثة الأندلسية المار خبرها آنفاً (١) . **الثانية** : مصادر ساقت القصيدة من غير أن تربطها بتلك البعثة (٢) . أما **الثالثة** : فهي مصادر حددت زمن إلقاء القصيدة بين يدي الحاكم الحفصي بـ " منسلخ شهر رجب " عام ٦٣٦هـ / ١٢٣٩م (٣) أي بعد سقوط بلنسية* بأكثر من أربعة أشهر .

وعلى أي حال فسواءً قيلت في تلك السفارة أو بعد ذلك فأبياتها تبلغ سبعة وستين بيتاً (٤) ، ومضمونها نستطيع تلخيصه في **ثلاثة محاور** : **أولها** : تصوير ما يجري في الجزيرة الأندلسية من جراء الاحتلال النصراني . **ثانيها** : مدح الأمير الحفصي، وقد شغل منها حوالي الثلث. **ثالثها** : مناداة

---

(١) ابن خلدون : العبر حـ٦ ، ص٣٨٦ ؛ ابن الشماع : الأدلة البينة ، ص ٥٩ ؛ المقري : نفح الطيب ، حـ٤، ص ٤٥٧ ؛ ابن أبي دينار : المؤنس ، ص ١٥٥ ؛ السراج : الحلل السندسية ،حـ٢ ، ص ١٤٣ مقديش : نزهة الأنظار ، حـ١ ، ص ٥٤٨ ؛ مجهول : الدرر النثيرة في أخبار الجزيرة ، ورقة ١١٠ب ، ١٤٧ب .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص ٢٥٩ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص ٢٧٣ ؛ المقري : أزهار الرياض ، حـ٣ ، ص ٢٠٧ ؛ ابن خليل : اختصار القدح المعلى ، ص ١٩١ .

(٣) ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٣٤٩ ؛ الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٢٧ .

* مما قد يؤيد الاتجاه الثالث : أ – ما أكد عليه ابن خلدون من أن زيان انتقل إلى جزيرة شقر لما سقطت بلنسية فحمّل على الفور بيعته لأبي زكريا كاتبه ابن الأبار ، وحين وصل هذا الأخير إلى تونس ألقى قصيدته السينية (ابن خلدون : العبر ، حـ٤ ، ص ٢١٥ ، حـ٦ ،ص ٣٨٨) ب – كون بعض من ذكروا القصيدة أشاروا إلى أن ابن الأبار قالها في حادثة بلنسية وقرطبة. يقول ابن المرابط" وللفقيه...ابن الأبار... هذه القصيدة التي ذكر فيها حادث بلنسية وقرطبة – أعادهما الله تعالى – ورفعها إلى ... أبي زكريا " (زواهر الفكر ، ص ١٠٠-١٠١) بل أن ابن الأبار نفسه في أحد الأبيات قال :

وفي بلنسية منها وقرطبة ما ينسف النفْس أو ما ينزف النَّفَسا

(ديوان ابن الأبار ،ص ٣٩٦) فقرن بين بلنسية وقرطبة في المعاناة ، ومعلوم أن قرطبة سقطت قبل بلنسية .

(٤) انظر ابن الأبار : ديوان ابن الأبار ، ص ٣٩٥-٤٠٠ .

الأمير لاستنقاذ الأندلس من قبضة الأعداء [١] .

ويلاحظ أن ابن الأبار في نظمه حرص على إبراز ما خلفه الاحتلال النصراني من بالغ الضرر على الإسلام في الأندلس ، وذلك لتوكفه – فيما يظهر – أن الدولة الحفصية الفتية كانت يومذاك تتوق إلى الحلول محل دولة الموحدين المحتضرة في مهمتها الجهادية في الأندلس ، فها قد جاءتها الفرصة لتبرهن أنها قادرة على القيام بتلك المهمة [٢] .

أثمرت السفارة الأندلسية إلى أبي زكريا عن مسارعته بجمع ما استطاع من مؤن وأسلحة ومال [٣] ، وقد قدرت قيمة ذلك جميعه بمائة ألف دينار [٤] ، فشحنها على الفور بأسطول☆ وجهه صوب بلنسية ، لكن بسبب الحصار الشديد المضروب عليها من قبل النصارى لم يتمكن ذلك الأسطول من إيصال الإمدادات إليها، الأمر الذي دعاه إلى الرسو في دانية القريبة منها، وهناك أفرغ حمولته ما عدا المال الذي رجع به إلى تونس [٥] .

---

(١) الطاهر مكي : دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، ط . الثانية ، دارالمعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣م ، ص ٢٦٦-٢٦٨ ؛ فوزي عيسى : الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ص ١٨٧-١٨٨ .

(٢) جمعه شيخة : القيمة الوثائقية لديوان ابن الأبار ، ص٤٥ .

(٣) ابن خلدون: العبر، حـ٦، ص ٣٨٨؛ الزركشي: تاريخ الدولتين، ص ٢٨؛ المقري: أزهار الرياض، حـ٣، ص ٢٠٥ ؛ نفح الطيب ، حـ٤ ، ص ٤٦٠ ؛ مجهول : الدرر النثيرة في أخبار الجزيرة ، ورقة ١٤٧ب .

(٤) ابن خلدون : العبر ، حـ٦ ، ص ٣٨٨ ؛ الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٢٨ ؛ مقديش : نزهة الأنظار، حـ١ ، ص ٥٤٨ .

☆ حدد عنان عدد سفن الأسطول باثنتى عشرة سفينة كبيرة ، وست صغيرة (عصر المرابطين والموحدين ، ق٢، ص ٤٤٨) . بينما حددها برنشفيك باثنتى عشرة سفينة فقط (تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، حـ١ ، ص ٦٢) ولا تحدد المصادر – الموجودة لدينا – الأسطول بعدد معين .

(٥) ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٣٤٩ ؛ ابن خلدون : العبر ، حـ٦ ، ص ٣٨٨ .

ظل الأندلسيون يستشرفون مساعدة أبي زكريا ، إذ كان لديهم " أمل في أخذه بثأرهم ، وضم انتشارهم " [١] ، ولذا لم يكتفوا باستصراخهم السابق لهم، بل إن ابن الأبار كلف رسمياً بعد ضياع بلنسية بحمل رسالة من أبي جميل زيان إلى تونس ، وذلك في منتصف سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٩ [٢] . وثمة قصيدة أخرى له غير السينية المتقدم عرضها استنهض فيها همة أبي زكريا لإنجاد الأندلس المنهارة ، ولعله قالها بين يديه في رحلته تلك [٣] ، والقصيدة في تسعين بيتاً [٤] مطلعها :

نادتك أندلس فلبِ نداءها　　　واجعل طواغيت الصليب فداءها [٥]

وموضوعاتها بوجه عام على منوال القصيدة السابقة إلا أنه خصص أبياتاً وجه فيها النداء للمسلمين جميعاً فيما وراء البحر يدعوهم إلى أن يهبوا لنصرة الأندلس [٦] ، فقال :

هُبوا لها يامعشر التوحيد قد　　　آن الهُبوب وأحرزوا علياءها

إلى أن يقول :

أولوا الجزيرة نصرة إن العدى　　　تبغي على أقطارها استيلاءها

---

(١) المقري : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ٣٠٨ .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص ٦٤٨ ، ٦٥٥ ، ٧٦١ ؛ الحلة ، جـ٢ ، ص ٢٦٢ .

(٣) ابن الأبار : ديوان ابن الأبار ، ص ١١ ، ٣٣ حاشية ؛ عبد السلام الهراس : شاعر وفي لوطنه ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ٢ ، سنة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، ص ١٢٤ .

(٤) ابن الأبار : ديوان ابن الأبار ، ص ٣٣ – ٤٠ .

(٥) ابن الأبار : ديوان ابن الأبار ، ص ٣٣ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص ٤٧٩-٤٨٣ .

(٦) الطاهر مكي : دراسات أندلسية ، ص ٢٧٢ .

إلى أن يقول :

خوضوا إليها بحرها يصبح لكم　　　رهواً وجوبوا نحوها بيداءها [١]

ولأبي المطرف بن عميرة المخزومي (ت٦٥٨هـ/١٢٦٠م) كتاب وجهه إلى أبي زكريا سلطان إفريقية الحفصي يستنفره لنصرة الأندلس . وقد ضمنه نظماً مدحه فيه ، ثم ذكّره بأن المسلمين في الأندلس يترقبون يوماً منه يُعيد لهم – بعد الله – بلدهم السليب [٢] . ثم اشفعه بنثرٍ جاء فيه ما نصه في معرض حمده لله على ولاية أبي زكريا شؤون الأمة « الحمد لله الذي جعل به حرم الأمة آمناً ... وتلافى فلّ الإسلام منه بفيْئاته التي منها ينتظرون الكر، وبها يُوعَدون الفتح الأعز والنصر الأغر ، فهم بين جِدَة قبضوها ، وعدة رضوها ، وارتقاب للفتح أكبر هممهم منه دَرْك الثأر ، وانتصاف لأهل الجنة من أهل النار .... » [٣] .

وحيث أن عدداً من رجال العلم الأندلسيين☆ قد هاجروا إلى تونس قبل السفارات الرسمية إليها [٤] وبعدها [٥] ، فإنه لا يستبعد قيامهم

(١) ابن الأبار : ديوان ابن الأبار ، ص ٣٦ .

(٢) المقري : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ٣٠٨ – ٣٠٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص٣٠٩–٣١٠ .

☆ ذكر مخلوف أن ابن عصفور – أبو الحسن علي بن مؤمن – كان أحد الذين أرسلوا لاستصراخ أبي زكريا (شجرة النور – التتمة – ص ١٤٠) ومن الملاحظ من تتبع سيرته أنه كان قد عبر إلى إفريقية من الأندلس، ثم رجع إليها ، ثم كانت هجرته الأخيرة إلى إفريقية واستقراره بها (ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ١٤٢–١٤٣) فربما أن عبوره الأول إلى إفريقية كان يرمي من ورائه الاستصراخ .

(٤) انظر : مثلاً : ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص ٢٦٦–٢٦٧ .

(٥) انظر على سبيل المثال : ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٥٨ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق٢ ، ص ٦٥٨ ؛ الغبريني : عنوان الدراية ، ص ٣١٨ ، ٣٤٥؛ ابن خليل : اختصار القدح المعلى ، ص ٢٠ ، ٩٤ .

باستحثاث السلطان الحفصي لإنقاذ بلادهم . يقول المقري [(١)] " ولم يزل أهل الأندلس بعد ظهور النصارى - دمرهم الله تعالى - على كثير منها يستنهضون عزائم الملوك والسوقة لأخذ الثار بالنظم والنثار " .

ولابد أن أهل المدن الأندلسية الذين بعثوا بيعاتهم لأبي زكريا [(٢)] كان بلسان حالهم إن لم يكن بلسان مقالهم يتطلعون إلى إغاثته وإعانته على حماية مدنهم من النصارى المعتدين [(٣)] ، وكونه من جانبه قد أرسل إمدادات[(٤)] غير مدده لبلنسية المار ذكره يومىء إلى أن التواصل بين الجانبين ظل قائماً .

وفي خاتمة كلامنا عن أثر العلماء في الاستنجاد بالحفصيين تنبه إلى أن كل ما بذل من جهود في ذلك المجال لم يُجدِ نفعاً في وقت الزحف النصراني، فموقف أبي زكريا من استنجاد الأندلس لايتلاءم وخطورة الوضع الذي كانت تعاني منه ، فقضيتها ليست قضية إمدادات بل قضية فساد أوضاع ، ولذا فإنقاذها لايكون إلا بالقضاء على أصل الفساد ، ولن يتأتى ذلك إلا باقتحام الأندلس وتصفية الزعامات المتحكمة فيها [(٥)] . وهذا فوق طاقة الحاكم الحفصي في ذلك الوقت ، فدولته - حينذاك - لم تكن تملك

---

(١) نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٤٧٩ .

(٢) ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٣٧٨ ؛ ابن خلدون: العبر ، جـ٦ ، ص ٣٨٨ ، ٣٩٣ ؛ ابن الشماع : الأدلة البينة ، ص ٦٠ ؛ ابن أبي دينار : المؤنس ، ص ١٥٦ ؛ السراج : الحلل السندسية ، جـ٢ ، ص١٤٤ .

(٣) للتعرف على مثل ذلك الشعور انظر ما ورد في رسالة من زيان إلى أبي زكريا (ابن المرابط : زواهر الفكر، ص ٥٦-٦٢) .

(٤) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٣٩٤ .

(٥) محمد العروسي المطوى : السلطنة الحفصية تاريخها ودورها السياسي في المغرب الإسلامي ، ط . دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص ١٣٨ .

من القوة والتماسك ما يجعلها مقتدرة على إنهاء الدولة الموحدية العتيدة ، ومن ثم النهوض بمهامها [١] . فأبو زكريا نَكِلَ – فيما يبدو – عن التدخل المباشر في الأندلس وما يدور على أراضيها من صراع بين المسلمين أنفسهم من طرف وبينهم وبين النصارى من طرف آخر خشيةً على دولته من الزوال [٢] .

☆ ☆ ☆

وصفوة القول أن أثر علماء الأندلس السياسي في مواجهة النصارى زمن المرابطين والموحدين توزع بين استنفار الأمة وطاقاتها للجهاد ، وحرص مفرط على وحدة البلاد ، واستصراخ للمسلمين خارج الجزيرة الأندلسية في السنوات التي عجز فيها الأندلسيون لوحدهم عن مقاومة الأعداء ومجاهدتهم.

(١) محمد العروسى المطوى : السلطنة الحفصية ، ص ١٣٩ .

(٢) برنشفيك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، جـ١ ، ص ٦٢ .

الفصل الثالث

مشاركة العلماء

في الجهاد الحربي ضد النصارى

بحكم مصاقبة الأندلس الإسلامية للممالك النصرانية التي تروم دوماً اجتثاث الإسلام منها من جذوره ؛ علاوة على تداخل أراضي الجانبين ببعضهما بعضاً [(١)] – فقد كانت الأندلس على مر عصورها " دار جهاد ، وموطن رباط " [(٢)] ، واعتبرت عرصاتها " ملاعب الجياد للجهاد " [(٣)] . أما أهلها فقد وُصفوا بأنهم " أصحاب جهاد متصل " [(٤)] . وحين تكلم عنها الزهري [(٥)] – أحد المعاصرين لزمن الدراسة – رأى أن " كل ساكن في الأندلس إنما هو كالآخذ بعنان جوادٍ في سبيل الله " ، ثم نظر – فيما يبدو – إلى المخلصين لدينهم ووطنهم من أهلها فقال " فلا ترى في أرض الأندلس إلا عيناً ساهرة في ذات الله أو مجاهداً في سبيل الله ، أو محارباً للعدو في طاعة الله غير منفك عن الدين المحمدي " [(٦)] . وحري بالعلماء الأندلسيين الذين هم أدرى الناس وأخبرهم بفريضة الجهاد في بلدهم الأندلس [(٧)] أن يكونوا في صدارة هذه الفئة المخلصة التي عناها الزهري، فالعلماء قاطبة أولى من غيرهم في فهم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الواردة في الجهاد ، واستيعاب مدلولاتها ، ثم تمثلِ ما جاء فيها من سنن وأحكام [(٨)] . وعلى هذا بذل كثير

---

(١) ابن بسام : الذخيرة ، ق١ ، م١ ، ص١٤ ؛ الزهري : الجعرافية ، ص ٨١ .

(٢) البكري : المسالك والممالك ، جـ٢ ، ص٨٩٨ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ٣ .

(٣) المقري : نفح الطيب ، ص ١٨٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٤٥.

(٥) الجعرافية ، ص ٨١ .

(٦) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٧) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ٢ ، ص ١٠٢٣ ، ١٠٢٥ ؛ الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ١ ، ص ٤٣٢ ، ٤٣٣ .

(٨) عبد العزيز البدري : الإسلام بين العلماء والحكام ، ط . الثانية ، دار القلم ، الكويت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص ٢٥٣ .

من علماء الأندلس ما في وسعهم ، واستفرغوا طاقتهم في الجهاد الحربي ضد أعدائهم نصارى الممالك الإسبانية أيام المرابطين والموحدين ، فكأنهم وضعوا نصب أعينهم قول الله تبارك وتعالى ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ﴾ [1] فاجتهدوا في تحقيقه ، والعمل بمقتضاه . وسنحاول - إن شاء الله - فيما يوالينا من صفحات الإحاطة بجهود هؤلاء العلماء في هذا المجال وتبيانها مقسمين ذلك على ثلاثة عناصر هي :

- مظاهر عامة لاهتمام العلماء بشؤون الجهاد الحربي ضد النصارى .
- إسهام العلماء في إنفاق الأموال في ميدان الجهاد الحربي ضد النصارى .
- مشاركات العلماء الميدانية في جهاد النصارى .

☆ ☆ ☆

(١) سورة التوبة ، آية ٤١ .

أولاً : مظاهر عامة لاهتمام العلماء بشؤون الجهاد الحربي ضد النصارى :

إن لدينا شذرات متفرقة ، ومجهودات متناثرة ذات صلة وطيدة بالجهاد الحربي للعلماء الأندلسيين ضد النصارى في زمن البحث – يصعب نظمها في سلك واحد ، أو ترتيبها في موضوع محدد ؛ لكنها – على أي حال – تتحد في كونها تعبر بجلاء عن اهتمام أولئك العلماء بالجهاد الميداني المضاد للقوى النصرانية ، وتشبعهم المغرق فيه ، ومعايشتهم لفصوله أولاً بأول .

فلقد كان لبعض العلماء أثر متميز ، وحضور لافت في هذا الميدان ، فابن رشد الجد (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م) هو العالم الذي حكم في هدنة كانت معقودة مع نصارى قشتالة أيام المرابطين، وذلك من حيث سريان مفعولها بعد غارة شنها أولئك النصارى☆ على بلاد الأندلس ، وقد أثيرت هذه المسألة عندما ورد عدد من التجار القشتاليين بتجارتهم إلى قرطبة [(١)] ، فقال ابن رشد " وإن كان التجار من أهل طليطلة☆☆ -أعادها الله- خرجوا منها بعد أن أغارت سريتهم على بلاد المسلمين فأسرت الرجال ، وأخذت الأموال فلا عهد لهم ... " [(٢)] إلى أن يقول " فالواجب أن يُرهنوا هم وما معهم من الأموال فيما أخذت السرية الخارجة من عندهم من أسرى المسلمين وأموالهم

☆ لابد أن غارة النصارى هذه حدثت أيام أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين على قرطبة ، لأنه هو الذي وجه استفساره عنها وما يتعلق بها إلى ابن رشد من قرطبة (ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ٣ ص ١٤٢٣) وحيث أن ولاية أبي طاهر على قرطبة ومعها غرناطة كانت بعد ذي الحجة سنة ٥١٧هـ/١١٢٤م (ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص ٦٧، ١٠٦) وإلى رمضان سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م (ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص ٧٣) فإن زمن تلك الغارة لن يخرج عما بين هذين التاريخين .

(١) ابن رشد: فتاوى ابن رشد ، جـ٣ ، ص ١٤٢٣-١٤٢٤ ؛ الونشريسي : المعيار المعرب، جـ٩، ص٥٩٨.

☆☆ عرفنا فيما سبق أن طليطلة غدت بعد سقوطها عاصمة لقشتالة. انظر (التمهيد من هذا البحث) .

(٢) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ٣ ، ص١٤٢٤ .

حتى يصرفوا ذلك إليهم ، فإن أجابوا إلى ذلك وفعلوه بقيت الهدنة على ما كانت عليه ، وإن أبوا ذلك انتقضت وعادت حرباً ، وكان التجار المرتهنون أسرى المسلمين وأموالهم فيئاً لهم » [١] ☆ .

ولقد أبدى أبو بكر بن العربي (ت٥٤٣هـ/١١٤٨م) فزعه الشديد من هجوم واسع اجتاح به نصارى قشتالة الأندلس عام ٥٢٧هـ/١١٣٣م [٢] وراح بحماس منقطع النظير يُطالب بالتصدي لأولئك النصارى ، ويقترح تدابير رآها كفيلة بإحباط هجومهم ، بل القضاء عليهم قضاءً مبرماً . وقد وصف هذا قائلاً « ولقد نزل بنا العدو - قصمه الله - سنة سبع وعشرين وخمسمائة، فجاس ديارنا ، وأسر خيرتنا ، وتوسط بلادنا في عدد هَالَ الناس عدده ، وكان كثيراً ، وإن لم يبلغ ما حددوه » [٣] . ثم جسَّد لنا موقفه من هذا العدوان بقوله « فقلت للوالي☆☆ والمولى عليه : هذا عدو الله وقد حصل في الشَّرك والشَّبكة ، فلتكن عندكم بركة ، ولتظهر منكم إلى نصرة دين الله

---

(١) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، حـ٣ ، ص ١٤٢٤ - ١٤٢٥ .

☆ أورد الونشريسي كلام ابن رشد، ولكن مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ (المعيار المعرب، حـ٩، ص ٥٩٩) .

(٢) انظر تفاصيل هذا الهجوم النصراني في (ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٢٢٩ ؛ ابن عذاري : البيان ، حـ٤ ، ص ٨٨) .

(٣) ابن العربي : أحكام القرآن ، ق٢ ، ص٩٥٥ ؛ القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ط . دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، حـ٨ ، ص ١٥٢ .

☆☆ من المرجح أن الوالي الذي وجه إليه ابن العربي الكلام هو والي إشبيلية ؛ لأن ابن العربي في ذلك الأوان في إشبيلية (الفصل الأول من هذا البحث) ووالي إشبيلية حتى رمضان سنة ٥٢٧هـ/١١٣٣م هو تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين ، ثم خلفه في شوال من السنة نفسها ينتان بن علي الذي استمر عاملاً عليها حتى صفر سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م (ابن عذاري : البيان ، حـ٤ ، ص ١٠٧) وحيث أن المصادر ضَنَّتْ علينا بتعيين الشهر من تلك السنة التي وقع فيه الهجوم النصراني فإنه لا يمكننا أن نحدد الذي خاطبه ابن العربي بصفته والياً لإشبيلية هل كان تاشفين أم ينتان .

المتعينة عليكم حركة ، فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد في جميع هذه الأقطار فيُحاط به ، فإنه هالك لا محالة إن يسركم الله له ... "[١]. ثم عبر ابن العربي عن خيبة ظنه بمن وجه إليهم النداء[٢] .

ولقد عمد بعض العلماء إلى رصد ما شهدوه أو سمعوه من اعتداءات نصرانية على المدن الأندلسية ، ثم المبادرة بتبليغه لأولي الأمر لكي يقوموا بمسؤوليتهم في حماية المسلمين ، وكذلك في رفع علم الجهاد في وجوه النصارى المعتدين . من ذلك أن النصارى لما أغاروا على إشبيلية ، وعاثوا فيها مفسدين ، وقتلوا واليها أبا حفص عمر بن الحاج☆ في رجب سنة ٥٢٦هـ/١١٣٢م[٣]☆☆ رصد هذا كله قاضي الجماعة في قرطبة محمد بن أصبغ

---

(١) ابن العربي : أحكام القرآن ، ق٢ ، ص٩٥٥ ؛ القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، جـ٨ ، ص١٥٢-١٥٣ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٤٧٧ .

(٢) ابن العربي : أحكام القرآن ، ق٢ ، ص٩٥٥ ؛ القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، جـ٨ ، ص١٥٣؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٤٧٧ .

☆ وأبو حفص بن الحاج : هو عمر بن علي بن الحاج ، ويعرف بابن ومحور أو بحوز أو مقوز (ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص ٨٠ وحاشية "٢" منها ، ٨٣ وحاشية " ٢ " منها) ويرى بعض الباحثين أن اسم ومحور وبحوز ومقوز ما هي إلا صيغ بربرية لكلمة الحاج (ابن القطان : نظم الجمان ، ص ١٥٣، حاشية " ١ ") وقد تولى أبو حفص هذا حكم إشبيلية في ربيع الأول عام ٥٢٤هـ/١١٣٠م حتى مقتله في رجب عام ٥٢٦هـ/١١٣٢م (ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ١٠٧) .

(٣) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٢٢٦-٢٢٧ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص٦١ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١ ، ص٤٥١ .

☆☆ ساق ابن عذاري تفاصيل هذه الغارة في حوادث سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م (البيان : جـ٤، ص٨٢-٨٣) ويظهر أن اضطراباً عند ابن عذاري حصل في نقل الخبر ، لأنه عاد في موضع آخر ، وذكر مقتل والي إشبيلية أبي حفص عمر بن الحاج في رجب عام ٥٢٦هـ/١١٣٢م (البيان ، جـ٤ ، ص ١٠٧) وهذا يعني تأكيده على وقوع الغارة في هذه السنة الأخيرة ، وبهذا تتفق المصادر على سنة وقوعها .

(ابن المناصف)☆ (ت٥٣٦هـ/١١٤٢م) رصداً دقيقاً ، وبعثه على جناح السرعة إلى القائد المرابطي العام – آنذاك – في الأندلس تاشفين بن علي بن يوسف [(١)] الذي كان قد قدم للرد على النصارى دون أن يعرف ما خلّفه هجومهم الغادر على إشبيلية . يقول ابن عذاري [(٢)] " ولما علم تاشفين بأخذ العدو على جهة إشبيلية خرج بالجيش إلى سمت قرطبة، فتلقاه كتاب القاضي بها محمد بن أصبغ مُعْلماً له باكتساح العدو مدينة إشبيلية ،وعرفه باستشهاد صاحبها " . فكانت النتيجة أن جَدَّ تاشفين في السير نحو إشبيلية [(٣)]، ثم أخذ بأعقاب النصارى الذين خلفوا إشبيلية وراءهم منهكة ، وما زال يطاردهم إلى أن التحم معهم في موقعة كبيرة☆☆ انتهت بنصره عليهم [(٤)]. وإذا كان محمد بن أصبغ قد نبأ تاشفين بخبر إشبيلية بصفته المسؤول المباشر عن شؤون الأندلس فإن أحد العلماء الإشبيليين وهو أبو أيوب بن أبي أمية الحضرمي☆☆☆ قد كتب

☆ محمد بن أصبغ : هو أبو عبد الله محمد بن أصبغ بن محمد بن محمد بن أصبغ الأزدي ، يعرف بابن المناصف، تولى خطة المظالم في قرطبة ، ثم قضاء الجماعة فيها مدة طويلة ،وبعد صرفه عن القضاء ولي الصلاة بجامعها ، وأقبل على التدريس وإسماع الحديث حتى وفاته في رمضان عام ٥٣٦هـ/١١٤٢م (ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص ٥٨٥-٥٨٧ ؛ الضبي : بغية الملتمس ، ص ٦١-٦٢ ؛ ابن الأبار: المعجم ، ص ١٣٤ ؛ ابن سعيد : المغرب ، جـ١ ، ص١٦٣) .

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١ ، ص ٤٤٦ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٢١ .

(٢) البيان ، جـ٤ ، ص ٨٣ .

(٣) ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص ٨٣ .

☆☆ حول تحركات تاشفين ضد النصارى عقب هجومهم على إشبيلية انظر(سحر السيد عبد العزيز سالم: من جديد حول وقعة الزلاقة الثانية ، ندوة الأندولس في كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م ، ص٨-١١) .

(٤) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١ ، ص ٤٥٢ .

☆☆☆ وأبو أيوب الحضرمي : هو سليمان بن جعفر بن سليمان بن أبي أمية الحضرمي ، كان من أهل العلم والأدب ، تولى مدة القضاء في بلده إشبيلية ، ثم أعفي منه ، وقد وُصِف بالنباهة والوجاهة ، ولا تعرف سنة وفاته (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٤ ، ص ٦٠-٦١) .

إلى حاكم المرابطين نفسه في مراكش علي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠هـ/١١٠٦م - ٥٣٧هـ/١١٤٢م) يخبره بما جرى لإشبيلية ويعلمه بمقتل أميرها ، وليس هذا فحسب بل ويستصرخه من أجل وضع حدٍ لذلك العيث النصراني [١] .

ونظراً لمشاركة العلماء الأندلسيين في الجهاد العسكري ضد النصارى، أو متابعتهم لسير العمليات الحربية ومستجداتها على جبهات القتال وخطوط التماس بين المسلمين وأعدائهم - فقد عرض بعضهم للأحداث عبر رسائل إخوانية ، فاجتهدوا في تحليل دقائقها ، وتفسير تطوراتها ، وربما وضعوا تصورات لمستقبل الصراع الإسلامي النصراني في بعض البقاع الأندلسية . ففي إحدى المرات التي خرج فيها أبو محمد بن عطية (ت٥٤١هـ/١١٤٧م) للجهاد في الجبهة الشرقية [٢] المصطلية بعدوان ابن رذمير (الفونسو المحارب) حاكم أرغون - كتب إلى أحد إخوانه من العلماء رسالة جاء فيها " أما ما ذهبت إليه ... من تعرف الأنباء ، واجتلاء الأنحاء فإن ابن رذمير ... قد جعل بناء سرقسطة لكلكله عطناً ، واتخذ لذلك الحريم وطناً ، وذلك أنه ندب لهذه السفرة من أهل ملته ما ندب ، وأجلب من خيلهم ورجلهم ما أجلب ، وهو يعتقد أن بمنازلة سرقسطة ستفتح عليه أبواب حروب..." [٣]. ثم أشار إلى أن الحاكم النصراني حاصر مدينة سرقسطة " لما رأى أن حمايتها ليست بضربة لازب ، وأبصر حبلها على الغارب " [٤] . لكن ابن عطية رجح أن سقوطها في تلك الآونة لن يقع - حسب رأيه - لسببين :

---

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص٦١ .

(٢) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق٣ ، ص٦٧٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٧٢ .

(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

أحدهما: ما لوحظ أن النصارى أصحاب ابن رذمير لا استعداد لديهم – آنذاك – للمرابطة حولها . **والسبب الآخر** : المجهودات الحثيثة التي كان يبذلها بعض قادة المرابطين في تلك النواحي لإضعاف الجيش النصراني . ثم عاد ابن عطية بعد هذا التحليل ليرسم صورة لمستقبل سرقسطة وما حولها من مدن ، فتوقع – حسب ما توفر عنده من معلومات ، وما يملكه من نظرة عسكرية – أنها لابد من وقوعها في شراك النصارى إن لم يتداركها المسلمون ، فيقول « وهي – أعزك الله – أقطار إن لم تُقِم القوة منها ميلاً وجنفاً ، ويستعمل لها نظراً أُنُفاً ، وإلا فعِقدُها بمدرج نثار ، وهي في طريق انتكاث وعثار ، والله يكفي المسلمين فيها ، وينعم عليهم بتلافيها » (١)☆ .

وثمة مثال آخر على متابعة العلماء لأحداث الصراع بين المسلمين والنصارى، واستشفافهم لمستقبل بعض جهات الأندلس، ماورد في رسالة كتبها أبو بكر عزيز بن خطاب (ت٦٣٦هـ / ١٢٣٨م) إلى أحد العلماء في أيام انحلال الحكومة الموحدية في الأندلس☆☆ ؛ حيث عرض فيها لواقع الأندلس عامة ومدينة بلنسية بوجه خاص ، فقال « ولا يخفى عليكم حال الأندلس الآن ، وحال بلنسية منها ... وأن الثغور الراجعة إليها قد ضعفت وشارفت استيلاء العدو عليها ، وكثير منها قد استشعر ذلك » (٢) .

ولقد انعكس خوض بعض العلماء الأندلسيين غمار المعارك مع

(١) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق٣ ، ص٦٧٣ .

☆ نقل الأصفهاني بعض كلام ابن عطية في رسالته المثبت أجزاء منها في المتن (خريدة القصر ، ق٤ ، جـ٢ ص ٥٣٨–٥٤٠) انظر الرسالة الكاملة في الملاحق آخر هذه الدراسة .

☆☆ رجح حسن إنليفل تحبير أبي بكر بن خطاب رسالته بين سنتي ٦٢٦هـ/١٢٢٩م – ٦٢٩هـ/١٢٣١م (ابن المرابط : زواهر الفكر ، ص ٦٣ ، حاشية " ١ ") .

(٢) ابن المرابط : زواهر الفكر ، ص ٦٧ .

النصارى على كتاباتهم ، فصاروا يتحدثون عن الشؤون الحربية وآلاتها -إذا تطرقوا إليها- حديثَ من خَبَرها ومرن عليها، وعرف جيدها من رديئها. فعن اختبار قائد الجيش لجنده من حيث طاعتهم له يقول أبو محمد بن عطية (ت٥٤١هـ/١١٤٧م) " وهذه النزعة واجب أن تقع من كل متولي حرب، فليس يُحارب إلا بالجند المطيع "[١] . وحينما تحدث أبو بكر بن العربي (ت٥٤٣هـ/١١٤٨م) عن التعبئة للقتال ، واستشهد بجعل النبي ﷺ يوم بدر الشمس خلفه بخلاف المشركين الذين استقبلوا الشمس ، قال " وهذا من حسن التدبير فإن المقاتل إذا كانت الشمس في وجهه عشي بصره ، ونقص فعله "[٢]، ثم حكى ما وقع له شخصياً في إحدى المعارك الجهادية فقال " ولقد حضرتُ صفاً في سبيل الله في بعض الحروب مع قوم من أهل المعاصي والذنوب ، فلما وازينا العدو أقبلت سحاب وريح ورذاذ كأنه رؤوس الأبر يضرب في ظهر العدو، ويأخذ وجوهنا فما استطاع أحد منا أن يقف مواجهة العدو ، ولاقدرنا على فرس أن نستقبلها به ، وعادت الحال إلى أن كانت الهزيمة علينا "[٣] . وعن بعض الوسائل الناجعة في إثارة حماس المسلمين وإرهاب عدوهم وقت القتال أشار أبو محمد بن عطية[٤] (ت٥٤١هـ/ ١١٤٧م) إلى رفع الأصوات ، وفَرَّق بين نوعين منها ، ففي تفسيره لذكر الله تعالى حال لقاء المسلمين بأعدائهم قال " وهذا ذكر خفي ، لأن رفع الأصوات في موطن القتال رديء مكروه ، إذا كان ألغاطاً "[٤] ، ثم

---

(١) ابن عطية : المحرر الوجيز ، حـ٢ ، ص٢٦٢ .

(٢) ابن العربي : عارضة الأحوذي ، حـ٧ ، ص١٧٥ .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) المحرر الوجيز ، حـ٨ ، ص ٨٢ .

بين النوع المفيد للمسلمين المرهب للعدو ، فقال « فأما إن كان من الجمع عند الجملة فحسن فاتٌ في عضد العدو» [١] ولما تكلم أبوبكر بن العربي [٢] (ت٥٤٣هـ/١١٤٨م) عن الطبل وذكر أنه قسمان : طبل حرب وطبل لهو ، قال « فأما طبل الحرب فلا حرج فيه، لأنه يقيم النفوس ويرهب على العدو». وشيء لاحظه ابن عطية في المرابطين الذين صحبهم كثيراً في الجهاد [٣] ، وهو طرحهم اللثام حال مجالدة الأعداء ، فسجله لما تعرض لكراهية التلثم في القتال بقوله « ولهذا والله أعلم يتسنن المرابطون بطرحه عند القتال على ضنانتهم به » [٤] . وقد أشاد ابن العربي [٥] بفاعلية السهم في قتال العدو إشادة مجرب بصير ، فقال « وقد شاهدتُ القتال مراراً فلم أرَ في الآلة أنجع من السهم ، ولا أسرع منفعة منه " ويرى ابن عطية [٦] أن « السهام من أنجع ما يُتعاطى في الحرب وانكاه في العدو وأقربه تناولاً للأرواح » ، وقال ابن العربي [٧] عن الرمي « ولا شيء أنفع من الرمي ولا أنكى منه في العدو ولا أسرع ظفراً منه ولو لم يكن إلا كفايته لمباشرته العدو وقتله ودفعه من بعيد » .

ومن المعلوم أن الخيل كانت إحدى العناصر المهمة في عدة الجيش الإسلامي الأندلسي المجاهد للنصارى [٨] ، فكانت الحاجة ملحة إلى

---

(١) ابن عطية : المحرر الوجيز ، جـ٨ ، ص٨٢ .
(٢) أحكام القرآن ، ق٣ ، ص١٤٩٤ .
(٣) ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٧١ .
(٤) ابن عطية : المحرر الوجيز ، جـ٨ ، ص ٨٢ .
(٥) أحكام القرآن ، ق٢ ، ص ٨٧٣ ؛ عارضة الأحوذي ، جـ١١ ، ص٢١٤ .
(٦) المحرر الوجيز ، جـ٨ ، ص ١٠٠ .
(٧) عارضة الأحوذي ، جـ٧ ، ص ١٣٦
(٨) حامد عياط : أدب الجهاد في الأندلس ، ص١٣٥ ، ١٣٦ .

الاستكثار منها [١] . ولذا فإن احتفاء بعض العلماء بها من خلال كتاباتهم زمن الدراسة يمكن تصنيفه ضمن المظاهر العامة لجهودهم في حقل الجهاد الحربي المضاد للممالك النصرانية . فثمة فريق منهم – لما تطرق لذكرها عرضاً – نوه بأهميتها في الحروب ، وأثرها في هزيمة العدو ، فأبو محمد بن عطية [٢] (ت٥٤١هـ/١١٤٧م) يؤكد أن " الخيل هي أصل الحروب وأوزارها ، والتي عقد الخير في نواصيها، وهي أقوى القوة، وحصون الفرسان " . أما أبو بكر بن العربي (ت٥٤٣هـ/١١٤٨م) فيقول في هذا الصدد " وقرن النبي ﷺ الخير بنواصي الخيل بقية الدهر☆ لما فيها من الغنيمة المستفادة للكسب والمعاش، وما تُوصِّل إليه من قهر الأعداء ، وغلبة الكفار ، وإعلاء كلمة الله " [٣] . وأبو الحجاج البلوي (ت٦٠٤هـ/١٢٠٨م) تطرق في معلمته " ألف باء " أكثر من مرة للخيل وفضلها وخصائصها وأهميتها في الجهاد [٤] . وهناك فريق آخر منهم استشعروا كبعض الأندلسيين -فيما يبدو- أن الكتابة عن الخيل من المعارف التي ينبغي الاعتناء بها ، لأنها مما " يَرجع ... إلى شأن الجهاد ، ويتعلق بالتأهب للعُداة والاستعداد " [٥] فانبروا للتأليف عنها في كتب منفردة

---

(١) العربي : الحياة العلمية في الأندلس ، ص ٣٤٠ .

(٢) المحرر الوجيز ، جـ٨ ، ص١٠٠ .

☆ يشير ابن العربي إلى قول النبي ﷺ : " الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة : الأجر والمغنم " (البخاري : صحيح البخاري ، جـ٤ ، ص٩٠) .

(٣) ابن العربي : أحكام القرآن ، ق٣ ، ص١١٤٢ .

(٤) البلوي : ألف باء ، جـ١ ، ص٣٤٤-٣٤٧ ، جـ٢ ، ص٥١٦-٥١٨ .

(٥) ابن جزي : كتاب الخيل ، ص ٢٠-٢١ .

من هؤلاء أبو بكر بن المرخي☆ (ت٦١٥هـ/١٢١٨م) الذي صنف كتاباً عن الخيل [(١)] ، سماه « بغية المرتبط ، ودرة الملتقط » [(٢)] ، فكانت مادته العلمية التي حواها « من أنبل الموضوعات ، وأعظمها جدوى » على حد تعبير ابن عبد الملك المراكشي [(٣)] . بل إن أبا عمر السكوني☆☆ (ت٦٤٦هـ/١٢٤٨م) لم يكتفِ بالتأليف عن الخيل وما يتصل بحياتها وصحتها وأنسابها، لكنه عُنى – أيضاً – بالتصنيف عن الشؤون الحربية بشكل عام [(٤)] ، يقول ابن عبد الملك المراكشي [(٥)] عنه « وصنف ... في الطب والبيطرة ، وصنعة ركوب الخيل ، وتدبير الحروب ، وتعليم الثقاف والرمي ... ومعرفة شيات☆☆☆

☆ ابن المرخي : هو محمد بن علي بن محمد بن عبد الملك اللخمي ، من أهل إشبيلية ، كان ذا معرفة بالآداب واللغات ، كاتباً بليغاً ، له عدة مؤلفات غير كتابه في الخيل ، توفي في ربيع الآخر عام ٦١٥هـ/١٢١٨م (ابن الأبار : التكملة ، حـ٢ ، ص٦٠٢ ؛ الرعيني : برنامج شيوخ الرعيني ، ص٩٦-٩٧ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٤٨٧-٤٨٨ ؛ البلفيقي : المقتضب من كتاب تحفة القادم ، ص ١٧٧) .

(١) ابن الأبار : التكملة ، حـ٢ ، ص٦٠٢ ؛ الرعيني : برنامج شيوخ الرعيني ، ص ٩٧ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص٤٨٨ .

(٣) الذيل والتكملة ، س ٦ ، ص ٤٨٨ .

☆☆ وأبو عمر السكوني : هو محمد بن أحمد بن خليل السكوني ، أصله من لَبْلَة ، وسكن إشبيلية ، فصار من أهلها ، كان فقيهاً حافظاً ، له عناية بكثير من العلوم ، ولى القضاء في نواحي إشبيلية . وقد رحل إلى المغرب وأقام مدة في مراكش ، ثم عاد إلى الأندلس ، وتوفي عام ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م ، وقد خلّف عدة مؤلفات في فنون شتى (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق٢ ، ص ٦٣٥ - ٦٣٦) .

(٤) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق ٢ ، ص ٦٣٥ - ٦٣٦ .

(٥) الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ٢ ، ص ٦٣٥ - ٦٣٦ .

☆☆☆ الشّيات : جمع شية ، وهي كل لون يخالف معظم لون الفرس من أي الألوان كان (ابن جزي : كتاب الخيل ، ص ٧١) .

الخيـــل، ودلائل العتاقة »☆ (١) .

هذا ما توفر رصده من مظاهر تشهد بأن علماء الأندلس عنوا بالجهاد الميداني ، فاهتموا بقضاياه ، وتابعوا أخباره ، ووقفوا دارسين لبعض أحداثه ، وتطرقوا في مؤلفاتهم لما يرتبط به من عتاد واستعداد .

☆ دلائل العتاقة ، أي علامات الأصالة التي يعرف بها الفرس الأصيل من الهجين (ابن جزي : كتاب الخيل ، ص ١٧٠) .

(١) ومن المغاربة الذين عُنوا بالتأليف عن الخيل في عصر البحث أبو الحسن بن القطان (ابن خلصة) المتوفى في ربيع الأول سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م ، حيث صنف مؤلفاً سماه "أسماء الخيل وأنسابها وأخبارها" (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٨ ، ق١ ، ١٦٧) .

ثانياً : إسهام العلماء في إنفاق الأموال في ميدان الجهاد الحربي ضد النصارى :

الإنفاق في سبيل الله هو صنو الجهاد الذي فرضه الله على الأمة الإسلامية [(١)] ، ففي القرآن والسنة صاحبت الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله في معظم المواضع دعوة إلى الإنفاق [(٢)] . وقد رغب سبحانه وتعالى أعظم الترغيب بالإنفاق المبذول للجهاد في سبيل الله ، وذلك بالوعد بمضاعفة الثواب فيه أكثر بكثير مما وعده سبحانه بالثواب على ما ينفق في أبواب الخير الأخرى [(٣)].

ولقد دأب العلماء الأندلسيون - كغيرهم - على تخصيص حديث منفرد عن الإنفاق في سبيل الله إذا ما تطرقوا للجهاد في مؤلفاتهم [(٤)] ، أو ألفوا كُتباً عن الجهاد أو ما يدور حوله [(٥)] .

ولا جرم أن علماء الأندلس بما يفقهونه من واقع بلادهم ، وبما يعلمونه من فضل الجهاد بالأموال لاسيما في دعم جهاد العدو النصراني المهدد لهم دوماً - لاجرم أنهم سيكونون في طليعة المنفقين في ذلك السبيل ، الداعين غيرهم إلى البذل والعطاء فيه .

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ط . التاسعة ، دار الشروق ، بيروت ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، جـ١ ، ص٣٠٤ .

(٢) المرجع السابق ، جـ١ ، ص ١٩٢ ، جـ٣ ، ص١٥٤٤ .

(٣) محمد خير هيكل : الجهاد والقتال ، جـ٢ ، ص١٠٨٤ .

(٤) عبد الحق الإشبيلي : الأحكام الشرعية الصغرى ، جـ٢ ، ص٤٧٣ ، ٤٧٩ ؛ ابن هذيل : تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس ، ورقة ١٥-١٦ .

(٥) ابن أبي زمنين : قدوة الغازي ، تحقيق عائشة السليماني ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٨٩م ، ص١٦٠-١٦١ ، كتاب الجهاد ، نشر في (ابن تومرت : أعز ما يطلب ، تحقيق عمار الطالبي ، ط . المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ١٩٨٥م ، ص٢٧٦-٢٧٩) .

ولا يعد غريباً أن لا تفصح المصادر إلا عن أسماء قلة قليلة من العلماء الأندلسيين الذين تطوعوا بالنفقة في الجهاد ضد النصارى ، إذ النفقة في هذا الموطن الأصل فيها ابتغاء وجه الله ، فيجنح باذلها إلى إخفائها عن الأنظار . وربما أن بعض من أفصحت المصادر بإنفاقهم في سبيل الله من العلماء كان إنفاقهم كثيراً ، بحيث صار بين الناس مشتهراً ، أو ربما كان إنفاقهم في مشروع يمت للجهاد بصلة ظاهر للعيان لايمكن خفاؤه على أحد .

ومهما يكن من أمر فقد اختلفت السبل التي أنفق فيها علماء الأندلس في حقل الجهاد ضد الأعداء . فمنها ما كان في إطار حماية المسلمين من النصارى ، أو في أخذ الأهبة والاستعداد لجهادهم ، ومنها ما كان لمعالجة وضع المسلمين عقب الجهاد . ففيما يتعلق بالأول ما ذكر – مثلاً – عن أبي بكر العربي (ت٥٤٣هـ/١١٤٨م) أنه لما كان قاضياً لمدينة إشبيلية [١] تبرع بمال وفير لإصلاح سورها ، وترميم تحصيناتها [٢] . وورد – أيضاً – أن موسى ابن عمران المارْتُلَي☆ (ت٦٠٤هـ/١٢٠٦م) تصدق بمائة دينار للنفقة

---

(١) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٢٣٤ ؛ وانظر الفصل الأول من هذا الكتاب .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ٢٠ ، ص٢٠٠ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٢ ، ص٢٨ .

☆ هو أبو عمران موسى بن حسين بن موسى بن عمران القيسي المارتلي . سكن إشبيلية ، وكان ورعاً زاهداً عابداً . له حظ وافر من الأدب والتقدم في قرض الشعر . توفي في جمادى الأولى سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٦م (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٧٥٤-٧٥٥ ؛ ابن سعيد : الغصون اليانعة في محاسن المائة السابعة ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، ط . الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧م ، ص١٣٥-١٣٧ ؛ المغرب ، جـ١ ، ص٤٠٦-٤٠٧ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، جـ٣ ، ص٥٢-٥٤ ؛ البلفيقي : المقتضب من تحفة القادم ، ص١٤٥ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٣ ، ص٢٢٥) ، والمارتلي نسبة إلى بلدة مارْتُلَة الرابضة على نهر آنه ، وهي من أعمال كورة باجة (ابن سعيد : الغصون اليانعة ، ص ١٣٥ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص١٧٥) .

على غزوة الأرك سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م ، وقد دفعها رأساً للحاكم الموحدي يعقوب المنصور[١] (٥٨٠هـ/١١٨٤م-٥٩٥هـ/١١٩٩م)، حيث أن المنصور لما عبر إلى الأندلس للجهاد زاره في موضعه ، ثم وجه إليه مالاً ، فلم يأخذه ابن عمران المارتلي ، وفوق ذلك قدم لرسول المنصور المائة دينار المار ذكرها ، وطلب منه أن يقول للمنصور» هذه مائة دينار من حلال، خذها لنفقتك في هذه الغزوة، إني أرجو إن لم تطعم إلا الحلال أن تُنْصَر «[٢] . وقد شهر عن المارتلي هذا – كما حكى ابن سعيد – [٣] أنه » لا يقبل من أحد شيئاً ، وإنما كان له ما يقوم به من مُلْكٍ وَرِثه من جهة طيبة ، وكان مع ذلك يعمل الخُوص بيده في خلوته ويبيعه ويتصدق به « .

ولقد كانت للأحباس في الأندلس صلة وثيقة بالجهاد في سبيل الله[٤] ، إذ اعتاد الأندلسيون أن يجعلوا نصيباً من أحباسهم لتمويل مرافق الجهاد الحربي ضد النصارى ومتطلباته [٥] . وثمة أناس في زمن الدراسة حبسوا أملاكاً أو خيلاً على الجهاد ، وقد يكون هؤلاء الحابسون من طلبة العلم أو من سواهم ، فالمصادر حجبت أسماءهم عنا . فهذا رجل من جزيرة

---

(١) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٧٥ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) الغصون اليانعة ، ص ١٣٧ .

(٤) كمال أبو مصطفى : بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي ، ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٩٣م ، ص ٢٠٠ .

(٥) محمد عبد الوهاب خلاف : تاريخ القضاء في الأندلس ، ط . الأولى ، المطبعة العربية الحديثة ، القاهرة ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ، ص ٥٩٥ ؛ كمال أبو مصطفى : بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس ، ص ١٧٥ .

طريف☆ « أوصى في مرضه الذي توفى فيه بوصية جمعت أشياء ، منها أن يحبس على ثغر من ثغور المسلمين الفندقان اللذان له ، تنفق غلتهما هنالك ما دامت الدنيا » حسبما نطقت بذلك الوصية (١) . ولدينا « رجل حبس فرساً على رجل ليجاهد به العدو » (٢) . وكان وقف الخيل للجهاد في سبيل الله من أهل الخير عادة متبعة عند الأندلسيين (٣) .

وهناك من العلماء من نوهت المصادر بكثرة صدقاتهم والمسارعة إلى بذل أموالهم في أعمال البر والخير (٤) . ومع أننا لا نمتلك نصوصاً تصرح أن تلك الصدقات أو ذلك البذل وجهه أصحابه لمصلحة الجهاد ضد النصارى إلا أنه لاجدال في كون النفقة في باب الجهاد تُعد من أفضل النفقات التي لا يتصور أن يَقْصر عنها مَنْ يتصدق بماله في سبيل الخير ، وطرق البر المختلفة ☆☆

☆ جزيرة طريف Tarifa كانت تسمى قبل الفتح الإسلامي بالوما Palomas (الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٤٥-٤٦) وقد سميت بعد الفتح باسم فاتحها طريف بن مالك . وهي تقع في أول المجاز، ويتصل غربيها بالبحر المحيط (ابن هشام اللخمي : المدخل إلى تقويم اللسان ، ص١٦٢ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٢٧) بينها وبين الجزيرة الخضراء الكائنة إلى الشرق منها قدر ثمانية عشر ميلاً (الإدريسي : صفة المغرب ، ص١٦٦ ، ١٧٦) .

(١) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ٣ ، ص١٣٤٠ .

(٢) المصدر السابق ، جـ١ ، ص٣١٣-٣١٤ .

(٣) المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٥٧٣ ، ابن أبي الخصال : رسائل ابن أبي الخصال ، ص ١١٤، ١١٥.

(٤) انظر أمثلة في : ابن بشكوال : الصلة ، جـ١ ، ص٢٩٥ ؛ ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٤٢٩ ؛ جـ٢ ، ص٥٥٩ ، ٦٠٦ ، ٩٣٦ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص١١٩ ، ٢١٨ .

☆☆ ومصداق ما نذهب إليه هنا أن أبا محمد عبد الله بن محمد بن أبي جعفر الخشني (ت٥٢٦هـ/١١٣١م) قال عنه الضبي بأنه " لم يكن قبله ولابعده بمرسية ... أكثر صدقة منه ، ولم يزل كذلك طول حياته " ثم مَثَّل على كثرة صدقته بقصة شرائه ذات يوم فرساً لبعض المجاهدين في سبيل الله ، وأن البائع بكى فسأله عن السبب ، فخبره أنه ما باع فرسه إلا ليفتك ابنه من أسر العدو . فما كان من أبي محمد الخشني إلا أن أعطاه فدية ابنه وترك له فرسه ، واشترى لذلك المجاهد فرساً آخر (بغية الملتمس ، ص٣٣٧-٣٣٨) .

أما ما يتصل بإنفاق العلماء الأموال لإصلاح أحوال المسلمين عقب الجهاد فقد بان واضحاً في افتكاك المجاهدين الواقعين أسارى بأيدي العدو . فأبو بكر بن زُهر☆ (ت٥٩٥هـ / ١١٩٩م) أسهم بماله لإطلاق سراح أسرى مسلمين احتجزهم النصارى بعد تغلبهم على حصن شنتفلية☆☆ في صفر عام ٥٧٨هـ/١١٨٢م (١) ، حيث أسر العدو في ذلك الحصن سبعمائة مسلم ما بين رجل وامرأة ، ففداهم أهل إشبيلية بألفين وسبعمائة دينار وخمسة وسبعين ديناراً ذهباً ، دفع منها ابن زهر من ماله مائة دينار عيناً ، والباقي جمعه الناس بالمسجد ، كما يروي ابن عذارى (٢) . وهذا يعني أن أبا بكر بن زهر قد خلّص بماله حوالي خمسة وعشرين مسلماً من الأسر . وكذلك كان محمد بن عبد الله الأنصاري☆☆☆ (ت٥٩٨هـ/١٢٠١م) ممن خصص جزءاً

☆ أبو بكر بن زُهْر هو محمد بن أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر الأيادي ، ويعرف بأبي بكر بن زهر الحفيد ، من أهل إشبيلية ، كان ذا عناية بالحديث والفقه والآداب واللغة ، أديباً بارعاً ، بذ أهل زمانه في نظم الموشحات ، ماهراً في الطب فلم يكن في أطباء وقته من يتقدمه . وكان قد أخذ الطب عن والده وجده . تولى القضاء فلقب بقاضي الجماعة ، وحظي بمنزلة لدى حكام الموحدين . توفي في مراكش في ذي الحجة سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٩م (ياقوت : معجم الأدباء ، ط . دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، جـ١٨ ، ص ٢١٦ – ٢٢٥ ؛ ابن دحية : المطرب ، ص ٢٠٦-٢٠٧ ؛ ابن الأبار: التكملة ، جـ٢ ، ص ٥٥٥ – ٥٥٦؛ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، جـ٣ ، ص ١٠٩ – ١١٩ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ٤ ، ص٤٣٤ – ٤٣٦ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س ٦، ص ٣٩٨-٤٠٣ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء، جـ٢١ ، ص ٣٢٥-٣٢٧؛ مجهول : إنسان العيون في مشاهير سادس القرون، ميكروفيلم جامعة أم القرى، رقم ٢٤٨/تاريخ، ورقة ١٨١-١٨٤).

☆☆ شِنْتفلية Santafila حصن منيع فوق جبل عالٍ على إحدى الطرق الواصلة بين إشبيلية وقرطبة (الإدريسي : صفة المغرب ، ص ٢٠٧) .

(١) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٤٦ .

(٢) البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٤٦ .

☆☆☆ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سليمان الأنصاري ، من أهل بلنسية ، رحل إلى المشرق ، وحج ثلاث مرات ، ثم عاد إلى بلده ، كان مقرئاً محدثاً حافظاً ، اشتهر بالورع والصلاح والزهد . توفي في-

من ماله لمفادات الأسارى [١] ، فهو -كما يقول ابن عبد الملك المراكشي [٢]- كان " يتعيش من تجارة يديرها ، ويصرف أكثر ريعها في الصدقات ، وفك الأسرى وشبه ذلك من وجوه الخير "☆ .

ومن جانب آخر فقد لجأ بعض الأندلسيين سواء من العلماء أو من غيرهم - إلى أساليب أخرى في البذل لتخليص إخوانهم ممن استذلوا بالأسر في بلاد النصارى ؛ منها التبرع بملك اليمين من النصارى مقابل الأسرى المسلمين[٣] . ومنها - أيضاً - الوصية بأن يكون فك الأسارى المسلمين إحدى طرق صرف المال الموقف لوجه الله تعالى بعد الممات [٤] .

ولقد وُصف أحد علماء وقت الدراسة وهو أبو الحسن بن دري☆☆

- مرسية في محرم عام ٥٩٨هـ / ١٢٠١م (ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص ٥٥٩ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص ٢٨٢) .

(١) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص ٥٥٩ .

(٢) الذيل والتكملة ، س٦ ، ص ٢٨٢ .

☆ ذُكر عن امرأة من غرناطة في عصر الدراسة تكنى أم العلاء اسمها سيدة بنت عبد الغني بن علي بن عثمان العبدري المتوفاة عام ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م أنها عرفت بأعمال البر وفك الرقاب من الأسر (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ ٢ ، ص ٧٤٨ - ٧٤٩ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٨ ، ق١ ، ص ٤٨٧ . وانظر : العريني : الحياة العلمية في الأندلس ، ص ٣٩٩) ولكن بالتأمل في ترجمة حياتها يتبين أن أفعالها هذه كانت بعد استقرارها في تونس عقب هجرتها من الأندلس (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٨ ، ق١ ، ص ٤٨٧ - ٤٨٨ ؛ ابن الخطيب: الإحاطة " نصوص جديدة " ، ص ٢٦٨) .

(٣) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ ٢ ، ص ١٠٥٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨٣٥ ، ٨٤٥ ، ١٢٣٢ .

☆☆ أبو الحسن علي بن محمد بن دري ، أصله من طليطلة ، ثم سكن غرناطة ، وتولى الإمامة في جامعها وكان مقرئاً رواية للحديث . وتوفي في رمضان عام ٥٢٦هـ / ١١٣٢م (ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٤ ، ص ١٠١ - ١٠٤) .

(ت٥٢٦هـ / ١١٣٢م) بأنه من المسارعين لقضاء الحوائج ، المشفقين على المساكين [١] « كثير الصدقة ، والسعي في فداء الأسرى » [٢] . فاحتمال أن سعيه في فداء الأسرى كان بدفع شيء من ماله الخاص لا سيما وأنه وُصِف قبلها بكثرة الصدقة ، والعطف على المساكين ، وربما أن سعيه في فداء الأسرى كان بقيامه بالذهاب بنفسه إلى النصارى ومفاوضتهم في إطلاق أولئك الأسارى . ولا يستبعد – أيضاً – أنه كان يقوم بالعملين كليهما معاً .

☆ ☆ ☆

وإذا كان ما مضى يجسد بسط العلماء أيديهم في النفقة تطوعاً في ميدان الجهاد فإن لهم من ناحية ثانية جهدهم المؤثر في إقناع الناس أو حثهم على الإنفاق في ذلك الميدان عند شعور الدولة المسؤولة عن الأندلس بعجزها – في وقت من الأوقات – عن توفير المال الكافي لتجهيز الحملات الجهادية . فقد أفتى علماء الأندلس – ومعهم علماء المغرب – يوسف بن تاشفين بجواز طلب المعونة من الناس [٣]☆ لتغطية نفقات الجيش المرابطي المجاهد في الأندلس[٤] حينما قصرت عن ذلك أموال الدولة [٥] . ويرجح أن هذا كان

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٤ ، ص ١٠٢ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٧ ، ص ١١٩ ؛ الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ١١ ، ص ١٣٢؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٣ ، ص ٣٨٧ .

☆ جاء في رسائل أندلسية أن ذلك كان في عهد علي بن يوسف بن تاشفين (مجهول : رسائل أندلسية تحقيق فوزي عيسى ، ط . الأولى ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، ١٩٨٩م ، ص ٧٩) .

(٤) الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق جعفر ومحمد الناصري ، ط . دار الكتاب، الدار البيضاء ، ١٩٥٤م ، جـ٢ ، ص ٥٣ .

(٥) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق١ ، ص ٥٢ .

في أواخر حكم يوسف بن تاشفين (١) ، لأن الموارد الشرعية لبيت المال☆ حينذاك " لم تعد تفي بالتزامات الدولة العسكرية في الأندلس☆☆ ، لا سيما مع تقلص أراضي الملكية العامة ، ثم عيشة الترف التي بدأ المرابطون يحيونها " (٢) ☆☆☆ . ولقد تعدى أثر علماء الأندلس الفتوى بجواز طلب المعونة إلى الاضطلاع بتحصيلها من الناس (٣) ، فبموجب تلك الفتوى أرسل يوسف ابن تاشفين إلى قاضي كل بلد من البلدان يكلفه بإلزام أهل بلده بدفع معونة ماليه لصالح الجهاد (٤) .

---

(١) عز الدين موسى : النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري ، ط . الأولى دار الشروق ، بيروت ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ص ١٦٥ .

☆ الموارد الشرعية لبيت المال عند المرابطين هي – كما قال ابن أبي زرع – ما أوجبه " حكم الكتاب والسنة من الزكاة والأعشار وجزية أهل الذمة وأخماس غنائم المشركين " (الأنيس المطرب ، ص١٣٧).

☆☆ يقول الشاطبي : " إنا إذا قررنا إماماً مطاعاً مفتقراً إلى تكثير الجنود لسد الثغور ، وحماية الملك المتسع الأقطار وخلا بيت المال عن الحال ، وارتفعت حاجات الجند إلى ما لا يكفيهم ، فللإمام – إذا كان عدلاً – أن يوظف على الأغنياء ما يراه كافياً لهم في الحال إلى أن يظهر مال بيت المال ... " إلى أن يقول : " وإنما لم ينقل مثل هذا عن الأولين لاتساع مال بيت المال في زمانهم ... ") الاعتصام ، جـ٢، ص ٦١٩) .

(٢) عز الدين موسى : النشاط الاقتصادي ، ص ١٦٥ .

☆☆☆ ويرى سعيد أعراب أن طلب يوسف بن تاشفين المعونة كان بعد موقعة الزلاقة مباشرة (من الرسائل المرابطية : رسالتان لم تنشرا بعد ، مجلة دعوة الحق ، عدد ٢٤٥ ، جمادى الأولى ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص ٣٥) .

(٣) سعيد أعراب : من الرسائل المرابطية ، ص ٣٤ .

(٤) يفهم هذا من كلام قاضي المرية ابن الفراء (ت٥١٤هـ / ١١٢٠م) في رده على رسالة يوسف بن تاشفين بشأن المعونة ، حيث قال " فما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة، وتأخرى عن ذلك ... " (المقري : نفح الطيب ، جـ٣ ، ص ٣٨٦) وفي رواية أخرى " فإنه بلغني كتبك [كذا] تذكر فيها ما كان من تأخري عن المعونة وقبضها ... " (الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ١١ ، ص ١٣٢) .

وعلى صعيد آخر احتسب بعض العلماء في جمع التبرعات المالية والعينية من أجل فكاك الأسرى المسلمين في أعقاب المعارك الحادثة بينهم وبين أعدائهم النصارى ، فتراهم يقصدون أماكن تجمعات الناس يدعونهم إلى بذل ما تجود به النفوس ، وما تسخو به الأيدي من الصدقات لإطلاق سراح إخوان لهم أسروا وهم يجاهدون في سبيل الله☆ . من ذلك ما حكى من فعل أبي عبد الله بن الحجام☆☆ (ت٦١٤هـ / ١٢١٧م) في الجامع الأعظم بإشبيلية، إذ نهض يتكلم بأسلوب رقيق ، وعبارات مؤثرة يُذَكّر المصلين ويحثهم على النفقة في ذلك السبيل [(١)] ، يقول أحد تلامذته ، – وقد رأى فعله بأم عينية في جامع إشبيلية – " ... ولقد شاهدته ... وقد ندب الناس إلى افتكاك أسارى ، فتسارع الناس إلى بذل ما حضرهم ، وخلع كثير منهم بعض ما كان عليه من الثياب، فعهدي بها تراكمت أمام منبره حتى

☆ كانت الدولة الموحدية تفادي الأسارى من بيت المال إذا كانوا من جنودها النظاميين ، أما إذا كانوا من المتطوعة فيقوم بافتدائهم أهالي المنطقة التي ينتمون إليها (السحيباني : النظم الحربية في دولة الموحدين بالمغرب والأندلس ، رسالة ماجستير لم تنشر بعد ، كلية العلوم الاجتماعية بالرياض ، ١٤٠٢هـ ، ص٢٥٤) .

☆☆ أبو عبد الله بن الحجام هو محمد بن أحمد بن محمد اللخمي ، سكن مراكش ، وحظى بمنزلة عند الحكام الموحدين . وكان زاهداً ، ذا حظ من الأدب ونظم الشعر ، عُني بالوعظ والتذكير . وتوفي في شعبان سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م (التادلي : التشوف ، ص ٤٣٩ – ٤٤٠ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٨ ، ق١ ، ص ٢٦٦ – ٢٦٨ ؛ ابن أبي زرع : الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، ط . دار المنصور ، الرباط ، ١٩٧٢م ، ص ٥١ ؛ يحيى بن خلدون : بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، ط . المكتبة الوطنية الجزائرية ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، جـ١ ، ص ١٠٢ – ١٠٣) .

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٨ ، ق١ ، ص ٢٦٨ ؛ يحيى بن خلدون : بغية الرواد، ص ١٠٣ .

كادت تحجبه عن الأبصار سوى ما وُعد به ، فتجمل في أثمان تلك الثياب مال جسيم " [١] .

وقصارى الكلام أن لعلماء الأندلس في عصري المرابطين والموحدين إسهامات ملموسة في حقل الجهاد بالأموال في سبيل الله ؛ سواء ما كان مرتبطاً بالاستعداد لغزو القوى النصرانية أو التصدي لعدوانها ، أو ما كان مواساة لأوضاع المسلمين عقب احتكاكهم العسكري بالنصارى. وقد تنوعت أساليبهم في هذا الحقل، فأنفقوا بأنفسهم الأموال بصور مختلفة ، ودعوا غيرهم إلى النفقة ، وأعانوا الدولة المنوط بها الجهاد في الأندلس على تحصيل الأموال لحرب النصارى حين أيقنوا بحاجتها الشرعية إلى ذلك .

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٨ ، ق١ ، ص ٢٦٨ .

ثالثاً : مشاركات العلماء الميدانية في جهاد النصارى :

كان الصراع العسكري بين المسلمين وجيرانهم النصارى في الأندلس متواصلاً على مر تاريخها الإسلامي المديد . فحروب الأندلسيين مع عدوهم " لم تزل سجالاً ، فتارة حال نصر واقتدار ، وتارة حال تمحيص واختبار "(١). ولقد انعكس ذلك على نمط حياتهم ، فجعلهم – مثلاً – يُعنون بآلات الحرب المختلفة ، ويصرفون الهمم في صناعتها أو جلبها (٢) . وكذلك يسعون لاتقان استخدامها ، فقد حكى ابن الخطيب أن الصبيان في الأندلس كانت " تُدرب على العمل بالسلاح وتُعلم الثاقفة كما يعلم القرآن بالألواح " (٣) . فالجماعة الأندلسية – إذن – جماعة محاربة ، وما العلماء وطلبة العلم الأندلسيون إلا فئة عاملة ناصبة في وسط تلك الجماعة ، فهم قد نحو – ولا بد – منحاها في هذا الجانب التربوي في صغرهم ، ثم صاروا بعد ذلك أبصر من غيرهم بواجبات الجهاد في سبيل الله، وكذلك بمستلزمات الدفاع عن حياض الأمة، والذود عن بيضتها ، والذب عن ذمارها ، والحفاظ على ثغورها .

وفي زمن المرابطين والموحدين – الذي احتدمت فيه المجابهة مع النصارى– لم يتوانَ العلماء عن الانخراط في قافلة المجاهدين بأنفسهم في سبيل الله ، وبخاصة القادرون منهم على القتال ، المطيقون لحمل السلاح. فمنهم الذين نصت المصادر المعنية بتراجمهم على مشاركتهم في غزوة أو أزيد، أو في

(١) ابن هذيل : تحفة الأنفس ، ورقة ١٠ .

(٢) المقري : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ٢٠٢ .

(٣) أحمد مختار العبادي : الأعياد في مملكة غرناطة ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، م١٥ ، ١٩٧٠م ، ص ١٣٨ ، في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٢ .

التصدي للعدو عند حصاره للمدن الأندلسية . ومنهم من عرفنا مشاركته بالجهاد بذكر مقتله في حرب معينة مع النصارى . وهؤلاء جميعاً سيأتي الحديث عنهم مفصلاً – بإذن الله تعالى – . ثم إن هناك طائفة من العلماء اكتفت المصادر بوصف الواحد منهم – مثلاً – بعبارات عامة قد يُفهم منها مشاركته بالجهاد دون تحديد لمعركة أو حادثة معينة ، مثل القول عن بعضهم " كان...مجاهداً " (١) . أوعن آخر " كان ... شهير الزهد والخير والجهاد " (٢). وتارة يذكر عن بعضهم كلمة قد توحي بأن حياته خُتمت بقتال مع العدو النصراني مثل قول " توفي شهيداً " (٣)أو " استشهد " (٤) . ولا شك أن كلمة الجهاد أو الاستشهاد☆ وأشباههما – وإن كانت قد تدل دلالة قوية على المشاركة في الجهاد الحربي ضد الأعداء – إلا أنه لا ينبغي لنا الجزم مطلقاً

---

(١) انظر مثلاً : ابن الأبار : التكملة ، حـ٢ ، ص ٨٢٨ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص ٣٩٨ ؛ س٤ ، ص ٢٢٢ .

(٢) انظر على سبيل المثال : ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص ٦١ .

(٣) انظر ابن الأبار: التكملة، حـ٢، ص ٥٣١؛ ابن عبدالملك المراكشي: الذيل والتكملة، س٦، ص٣١٠.

(٤) انظر مثلاً : ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق ٢ ، ص٦٤٣ ، س٦ ، ص٣٧٧ .

☆ عَنْون البخاري لأحد أبواب كتاب الجهاد في صحيحه بـ " باب لا يقول فلان شهيد " فأورد قول النبي ﷺ في حديث أبي هريرة ﷺ " الله أعلم بمن يجاهد في سبيله ، والله أعلم بمن يُكْلَم في سبيله " . ثم روى حديث الرجل الذي قال عنه النبي ﷺ إنه من أهل النار رغم أنه قاتل المشركين معه قتالاً شديداً ، وقد تبين أن ذلك الرجل أُصيب بجرح غائر ، فاستعجل الموت وقتل نفسه (صحيح البخاري ، حـ٤ ، ص ١٠٤ – ١٠٥) ومن كلام ابن حجر في شرحه لأحاديث هذا الباب قوله " فالمراد النهي عن تعيين وصف واحد بعينه بأنه شهيد ، بل يجوز أن يُقال ذلك عن طريق الإجمال " . ولما وصل إلى شرح حديث الرجل الذي قتل نفسه عقب جهاده المشركين علق عليه بقوله " فلا يطلق على كل مقتول في الجهاد أنه شهيد لاحتمال أن يكون مثل هذا ، وإن كان مع ذلك يعطى حكم الشهداء في الأحكام الظاهرة " (فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، نشر محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب ، ط. دار المعرفة ، بيروت ، حـ٦ ، ص ٩٠) .

بدلالتها على ذلك ، فقد يقصد بهما في المصادر معاني أخرى☆ .

وعلى كل حال فنحن على يقين تام أن كثيراً من العلماء وطلبة العلم في الأندلس وقت الدراسة لم يتخلفوا عن أي مجابهة مع النصارى على مدى أكثر من مائة وخمسين عاماً للحيثيات التي عرضناها في غضون كلام سبق - وذلك كمعرفتهم بفرضية الجهاد في بلادهم ، وإطلاعهم على فضل الجهاد أكثر من غيرهم ؛ فضلاً عن كون العلماء عموماً هم عنصر من العناصر الفاعلة في المجتمع الإسلامي الذي لا يُتصور أن يتخلف عن شهود وقائع ترتبط بمصير الأمة ومستقبلها . لكن الإشارة إلى مشاركتهم بالجهاد في المصادر تتوقف - كما هو معلوم - على قيامهم في المعارك بأعمال تسترعي الانتباه ، وذلك بكسر الوتيرة المألوف رؤيتها في الجيوش المرابطية والموحدية ، أو يكون مقتلهم في هذه المعركة أو تلك . المهم يكون ثَمَّ سبب يدعو الراوي أو الإخباري إلى تسجيل معلومة أو خبر يفهم منهما اشتراك العالم أو طالب العلم بإحدى المعارك الجهادية مع النصارى ، ولذا فلا عجب أن نرى معارك كثيرة دارت رحاها زمن البحث على جبهات القتال بين المسلمين والنصارى - وقد تكون بعضها مهمة - تواطأت المصادر المتوافرة لدينا على عدم ذكر أحد من العلماء شارك فيها .

هذا ما يمكن قوله عن حال علماء الأندلس في المواجهات البرية ، أما حالهم في الغزوات البحرية فإننا لم نعثر - حسبما تهيأ لنا من مصادر - على نصوص صريحة تفيد باشتراك علماء أو طلبة علم أندلسيين في غزاوت بحرية

☆ فالوصف بالمجاهد قد تعني جهاد النفس عند المتصوفة (ابن العربي : عارضة الأحوذي ، جـ٧ ، ص١٢٢) وكلمة الاستشهاد قد تستعملها بعض المصادر أحياناً في مقتل أحد العلماء ظلماً على أيدي مسلمين . انظر مثلاً (عياض : الغنية ، ص ١١٨ ؛ الضبي : بغية الملتمس ، ص ٥١ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص١٥٢) .

في عصر المرابطين والموحدين . وافتقارنا إلى مثل تلك النصوص لا يخول لنا أبداً نفي مشاركة أهل العلم الأندلسيين بغزو البحر . صحيح إن ركوب البحر والقتال على ظهره يتطلب دربة ومراناً ، لكن من غير المعقول - مهما كانت الظروف - أن لا يكون أحد من رجال العلم الأندلسيين قادراً على خوض عباب البحر ، محتسباً لجهاد العدو فيه ، وبخاصة إذا تذكرنا أن المرابطين والموحدين كانوا قد اهتموا بالأساطيل في ذلك الحين ، وتوسعوا في رعايتها وتطويرها [(١)] ، واشتبكوا مع النصارى في معارك بحرية عديدة [(٢)] .
وما قلناه - آنفاً - في تفسير عدم تعقب الرواة لكل مشاركات العلماء في المواجهات البرية يمكن أن يقال - أيضاً - في تعليل خلو المصادر من إشارات إلى مشاركات هؤلاء في الغزوات البحرية ، ولعل ما ورد عرضاً عن القاضي عياض (ت٥٤٤هـ / ١١٤٩م) وهو من علماء المغرب ، وقد عاش شطراً من عمره في الأندلس [(٣)] - لعل ما ورد عنه من غزو في البحر يؤيد جزمنا بمشاركة علماء الأندلس في هذه المضمار ، فعندما أشار ابن عذارى [(٤)] إلى أحد رجال الموحدين قال "وكان قد غزا مع القاضي عياض الروم في البحر" .

وللوقوف على نشاط العلماء الميداني في الجهاد ضد القوى النصرانية

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣١٦ .

(٢) للاطلاع على تلك المعارك البحرية انظر : السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، ط . النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٦٩م ، ص ٢٤٢ - ٢٤٥ ، ٢٦٣ - ٢٦٩ ، ٢٧١ - ٢٧٢ ، ٢٧٦ - ٢٧٩ ، ٢٨٢ - ٢٨٣ ؛ العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٣٢٣ - ٣٢٦ ، ٣٣٣ - ٣٣٧ ، ٣٤٨ - ٣٥٩ ، ٣٦٢ - ٣٦٥ .

(٣) ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص ٤٥٣ ؛ ابن عياض : التعريف بالقاضي عياض ، ص ٦ - ١٠ .

(٤) البيان ، ق . الموحدين ، ص ٣٢ .

في الأندلس سنقسمه إلى قسمين هما :

أ – مشاركة العلماء في الغزاوت ضد نصارى الممالك الإسبانية .

ب – مشاركتهم في حماية المدن الأندلسية والدفاع عنها .

وقبل الولوج في تفاصيل هذه القسمين ننبه على أن ما سيرد ذكره والكلام عنه فيها من مواجهات بين المسلمين والنصارى سواء في ميدان الغزوات أو في مجال الدفاع عن المدن لا يقتضي بالضرورة أهميتها في حلقة الصراع التاريخي بين الجانبين ، لأن التطرق إلى شيء من ذلك خاضع – كما لا يخفى – لما تسعفنا به المصادر من أسماءٍ لرجالٍ من أهل العلم الأندلسيين شاركوا في هذه المواجهة أو تلك .

أ - مشاركة العلماء في الغزوات ضد نصارى الممالك الإسبانية :

ما فتئ علماء الأندلس عموماً ينفرون خفافاً وثقالاً للجهاد في سبيل الله ، فصحبوا الجيوش المجاهدة للنصارى ، ورفعوا راية التوحيد ، وانتضوا السلاح ، وامتشقوا الحسام ؛ وتقدموا الصفوف (١) . فكثير منهم - وفقاً لما روت كتب التراجم والتاريخ - ما فارقوا الحياة الدنيا إلا وهم في ساحات الوغى ، أو في طريق مرجعهم منها (٢) . حيث كانت الشهادة في سبيل الله أغلى أمانيهم كما جاء على لسان بعضهم (٣) .

وفي زمان دراستنا الذي تكالبت فيه القوى النصرانية على المسلمين في الأندلس تدافع العلماء على الخروج مع الجيوش المرابطية والموحدية النافرة للجهاد (٤) حتى قيل عن أحدهم أنه " كان لا يسمع بغزاة ولا سرية إلا تجهز لها ، وسارع إليها ، وبادر نحوها " (٥) . وعندنا عدد من العلماء نوهت المصادر بتتابع خروجهم للجهاد ، وبكثرة شهودهم للغزوات . فعلي بن عبد الله الأنصاري الخزرجي (ت٥٣٩هـ / ١١٤٥م) " غزا بلاد العدو غزوات

---

(١) الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٤٣٢ ؛ محمد مفتاح : مفهوم الجهاد والاتحاد في الأدب الأندلسي ، مجلة عالم الفكر ، م١٢ ، ١٩٨١م ، ص ١٨٥ .

(٢) محمد الخضر حسين: علماء الإسلام في الأندلس، ط: المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٤٧هـ ، ص٢٥.

(٣) ابن العربي : عارضة الأحوذي ، جـ١١ ، ص ١٤٠ ، وانظر : ثريا لهي : أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي ، ص ١٢٧ (نقلاً عن : الكلاعي : جهد النصيح وحظ المنيح في معارضة المعري في خطبة الفصيح ، مخطوط ، ورقة ٧١) .

(٤) Abdul ghafour Ismail Rozi : The Social Role of Scholars in Islamic Spain , Ph .D. , Boston University , ١٩٨٣, P . ٥٠ .

(٥) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق٢ ، ص ٦٦٦ .

كثيرة على قدمية ابتغاء الأجر "[١] . وأبو محمد بن عطية (ت٥٤١هـ / ١١٤٧م) "كان يكثر الغزوات في جيوش الملثمين "[٢] . وكان أبو بكر محمد بن عبد النور السبائي (ت٦١٤هـ / ١٢١٧م) " كثيراً ما يحضر الغزوات ويبلى فيها البلاء الحسن "[٣] . وكان – أيضاً – أبو الربيع الكلاعي (ت٦٣٤هـ / ١٢٣٧م) " يحضر الغزوات ، ويباشر بنفسه القتال ، ويبلى فيها البلاء الحسن"[٤] . كما أن أبا المطرِّف ابن عَميرة المخزومي[٥] (ت٦٥٨هـ/١٢٦٠م) في سياق حديثه عن شيخه أبي الربيع الكلاعي هذا نص على حضوره الجهاد معه أكثر من مرة فقال " حضرت معه غير موطن من مواطن الجهاد " . ومن العلماء من أفادتنا المصادر بالنواحي التي اختلف عليها كثيراً من أجل الجهاد ، فأبو بكر بن العربي (ت٥٤٣هـ / ١١٤٨م) تردد على بلنسية بقصد الغزو وفيما يليها من جهاتٍ[٦] ، كما أن منهم من خلّف بلده وراءه ، ورابط في الثغور المتاخمة للبلاد النصرانية[٧] .

ومما يستلفت النظر مشاركة علماء أندلسين في الجهاد ضد النصارى الصليبين بالمشرق☆ بالإضافة إلى مشاركتهم في الجهاد ضد القوى النصرانية

---

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق١ ، ص ٢٢٢ .

(٢) ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٧١ .

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص ٤١٣ .

(٤) المصدر السابق ، س٤ ، ص ٨٩ .

(٥) رسائل أبي المطرف بن عميرة ، ورقة ٦٨ .

(٦) ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص ٣٤٤ ، ٤٧١ .

(٧) عياض : ترتيب المدارك ، جـ٨ ، ص ٢٠٧ ؛ ابن بشكوال : الصلة ، جـ١ ، ص ٢٢٤ ؛ ابن سعيد : المغرب ، جـ١ ، ص ٤١٥ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٣ ، ص ٣٣٤ .

☆ شارك المغاربة (أهل الأندلس والمغرب) مشاركة فعالة في الجهاد ضد الصليبين بالمشرق بدليل وقوع –

بموطنهم الأصلي الأندلس . فأثبتوا بذلك عمق التلاحم بين المؤمنين في مكانين متباعدين من العالم الإسلامي ، كما جمعوا بين فضيلة الجهاد في بلاد الشام لتخليصها من الصليبيين الغاصبين وبين مثوبة الجهاد في بلادهم الثغرية لصد العدوان المتواصل عليها – من جانب نصارى إسبانيا . ويمثل هذا الصنف من العلماء أبو الحجاج البلوى (ت٦٠٤هـ / ١٢٠٨م) . فقد ورد أنه شارك في الجهاد مع الحاكم الموحدي المنصور (٥٨٠هـ/١١٨٤م – ٥٩٥هـ/١١٩٩م) وكذلك مع صلاح الدين الأيوبي☆ (ت٥٨٩هـ/١١٩٣م) قال ابن الزبير[1] عنه "وغزا عدة غزوات مع المنصور بالمغرب ومع صلاح الدين بالشام" . ولعل مما يناسب الإشارة إليه هنا أن علماء كثيرين من خارج الأندلس دخولها بنية الجهاد ، فمنهم من قضى نحبه تحت بارقة السيوف، وبين الأسنة والرماح[2]،

- عدد منهم في الأسر (ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ص ٢٨٠) ولقد شاعت شهرة المغاربة بالمشرق بصفة خاصة في الجهاد البحري (أحمد مختار العبادي : دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي – ضمن كتاب " بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية " ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٣هـ ، ص ٨٤) .

☆ حصل اتصال بين المنصور الموحدي وصلاح الدين الأيوبي ، إذ طلب الأخير من الأول الإعانة على جهاد الصليبيين في المشرق ، لكن المنصور لم يجبه إلى مبتغاه (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص ١٢ ، المقري : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ٤٤٤ – ٤٤٥) لمعرفة أسباب توقف المنصور عن مساعدة صلاح الدين . انظر (عز الدين موسى : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ، ص ٣٩ – ٤١ ؛ سعد زغلول عبد الحميد : العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب المنصور بن يوسف ابن عبد المؤمن الموحدي ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، م ٦ – ٧ ، ١٩٥٢م-١٩٥٣م، ص ٩٣-٩٧ ؛ السحيباني : النظم الحربية في دولة الموحدين ، ص ٢٦٩-٢٧٠ ؛ ابتسام مرعي خلف الله : العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي ، ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ص ١٥٨ – ١٦٩) .

(١) صلة الصلة ، ص ٢١٨ .

(٢) انظر أمثلة : التادلي : التشوف ، ص ٤١٥ ؛ ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص ٢٠٢ ، جـ٢ ، ص٦٨٤ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، " نصوص جديدة " ، ص ٢٠٥ .

ومنهم مَنْ كتبتْ له الحياة بعد ذلك (١) .

وقبل أن نأتي على تفاصيل مشاركة علماء الأندلس في المعارك الجهادية نلقى أضواءً عامة على طبيعة مسلكهم ، ومقدار أثرهم في الجيوش المرابطية والموحدية ، فإذا تركنا مباشرتهم للقتال على جنبٍ – والتي سيجيء الحديث عنها لاحقاً – ألفيناهم ينهضون في تلك الجيوش بخدماتٍ مختلفة ، ومجهودات متنوعة . وقد لا نغالي إذا قلنا أنه لا يجاريهم في النهوض ببعضها أحدٌ سواهم. ففي أخبار بعض الغزوات إلى بلاد النصارى نجد أمير الجيش سواء كان حاكم الدولة نفسه أو أحد العمال أو القادة يُحاط بكوكبة من العلماء ، طائفة منهم من الأندلسيين (٢) . وقد يُهاب أحياناً بالصالحين والعباد ومَنْ إليهم للخروج إلى جهاد النصارى تفاؤلاً بهم وبدعواتهم (٣) ، ولابد أن قسماً من هؤلاء ينتمون إلى جماعة العلماء أو طلبة العلم . وكان بعض العلماء الأندلسيين النافرين للجهاد يستفاد منهم في معرفة مسارب الأندلس وثغورها ، ويستشارون في أمثل الطرق في بلادهم لمحاربة الأعداء (٤) .

وهناك مناشط معينة يضطلع بفعلها العلماء وطلبة العلم خلال التحرك للجهاد أو الاستعداد له ، لكنَّ المصادر في الغالب لا تكشف لنا هُوية هؤلاء

---

(١) انظر أمثلة في : ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص ٦١٣ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢، ص ٦٨٥ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٨ ، ق١ ، ص ١٦٣ ، ق٢ ، ص ٤٣٢ ، ٤٣٣ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص١٤٨ ؛ ق٣ ، ص٥٦ – ٥٧ ، ١٥٦ ، ٢١٩ – ٢٢٠ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٣٢ .

(٢) انظر أمثلة في : ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص ٢٩ ، المعجم ، ص ٥٧ ؛ ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص ٦٤ ؛ السخاوي : الإعلان بالتوبيخ ، ص ٦٠ .

(٣) المراكشي : المعجب ، ص ٣٦٣ .

(٤) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٧١ .

إن كانوا من الأندلسيين أو من غيرهم . فمما نلمسه من هذه المناشط بصفة خاصة في الجيش الموحدي الشاخص للقتال تكليف العلماء بجمع أحاديث الجهاد لدراستها وإملائها على المقاتلين (١) . ومنها - أيضاً - قراءة بعض طلبة العلم القرآن بصورة جماعية أثناء سير الجيش إلى ساحة المعركة ؛ ثم يعقب ذلك قراءة الحديث وتواليف ابن تومرت (٢) .

وقد نقل عن بعض العلماء سواء أكانوا أندلسيين أو سواهم قيامهم في الجيوش المرابطية والموحدية بمهمة التحريض على جهاد العدو ، والاستبسال في قتاله (٣) ، وذلك بإلقاء الخطب المتعلقة بهذا الأمر حال اللقاء مع الأعداء النصارى (٤) . وقد يَستخدم المحرضُ على الجهاد من العلماء في الجيش الموحدي - أيضاً - اللسان العربي تارة ، واللسان البربري تارة أخرى (٥) .

وشيء خليق إيراده في هذا الشأن عن العلماء ، وهو أن منهم مَنْ آلت إليه الراية خلال بعض المعارك مع النصارى، فحملها وسط المعترك (٦)، واعتبر بذلك وكأنه قائد للجيش الغازي ، وهذا معناه أن بعض العلماء وصلوا إلى مرتبة تُضارع مرتبة القيادة في الجيوش الأندلسية .

أما عن القوى النصرانية التي عَلمْنا -من خلال المصادر المتوافرة لدينا -

---

(١) المراكشي : المعجب ، ص ٣٢٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٢٧ ,

(٣) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٣٧١ ؛ السحيباني : النظم الحربية ، ص ٢٢٦ .

(٤) انظر أمثلة في : ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٧٠ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص٢١٩ .

(٥) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٤١١ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١١٣ .

(٦) النباهي : المرقبة العليا ، ص ١١٩ .

أن علماء الأندلس في زمن الدراسة خرجوا لمجابهة جيوشها ، واشتبكوا معها في معارك جهادية بذلوا فيها مهجهم ، وأرخصوا فيها أرواحهم ، وأهرقوا بها دماءهم فقد كانت أربع قوى هي : قشتالة، وبرشلونة (قطالونيا) ، وأرغون ، والبرتغال☆ ، وفيما يلي سنصنف ما تيسر لنا رصده في هذا المضمار ، بحيث نضع نشاطهم الجهادي ضد كل مملكة على حدة ، وفي إطار هذا التقسيم وعند تناولنا لإسهاماتهم في الغزوات التي جُردت لجهاد هذه القوى سوف نقرنها بما لا مفر منه من إيضاحات تتعلق بهذه الغزوة أو تلك، فنأخذ من مقدمات الغزوات أو أحداثها أو نتائجها ما نحسبه كاشفاً لجهود من جاء النص بمشاركته فيها من أولئك العلماء ، أو ما نظنه مُعِيناً على فهم طبيعة إسهاماتهم فيها ، وسيُراعى في ذلك كله الترتيب الزمني .

١ - مشاركتهم في الغزوات ضد مملكة قشتالة :

تقدم أن نشوء قشتالة بصفتها مملكة مستقلة كان في القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي - ، وأنها في النصف الأول من القرن التالي استحوذت على أراضي ممالك نصرانية متاخمة لها☆☆ ، فصارت تشمل منطقة الوسط والغرب من الشمال الإسباني (١) . وباحتلالها لمدينة طليلطة عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م تمادت حدودها جنوباً في العمق الإسلامي إلى جبال

☆ سيكون الحديث عن نشاط العلماء الجهادى ضد قشتالة ، ثم برشلونة ، ثم أرغون ، ثم البرتغال ، والأساس المعتمد في هذا الترتيب مبني على الأقدم في النشأة بصفتها قوى سياسية ضمن دول إسبانيا النصرانية .

☆☆ انظر : التمهيد .

(١) رجب محمد عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف ، ط . دار الكتب الإسلامية ، بيروت ، ص ٣٠٥ .

قرطبة [١] . وقد ظلت في عصر المرابطين والموحدين من أكبر الممالك الإسبانية رقعة ، وأوفرها موارد وقوة [٢] ، رغم ما انتابها خلال سني ذلك العصر من خلافات على العرش ؛ فضلاً عما ترتب على ذلك من خسرانها لأجزاءٍ من أراضيها أو انسلاخٍ لمناطق كاملة من أملاكها [٣] .

ولقد كانت عشية عبور المرابطين إلى الأندلس لأول مرة أشد الممالك النصرانية حرباً على المسلمين ، فتمكن المرابطون بعد عبورهم من كسر حدتها ، وخضد شوكتها ، وقد استمرت المواجهات بين الطرفين بعد مآل الأندلس للمرابطين ، ثم حمل لواء المواجهة معها - من بعدهم - الموحدون كما هو معلوم☆ .

أما عن إسهام علماء الأندلس في جهادها فقد ورد ذكر لعدد منهم قاتلوا ضدها في صفوف المرابطين قبل ضم الأندلس إلى دولتهم . وفي عصر الدراسة أمدتنا المصادر بأسماء طائفة من العلماء الأندلسيين الذين خرجوا في حملات للغزو في أراضي هذه المملكة النصرانية . فأول موقعة مع قشتالة تطالعنا المصادر الموجودة بين أيدينا - باسم أحد المقاتلين فيها من العلماء هي وقعة أُقْلِيش☆☆ (أقليج) الكائنة إلى الشرق من طليطلة حاضرة

---

(١) أحمد بدر : تاريخ الأندلس ، ص ٢١٧ ؛ العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٨٢ .

(٢) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق١ ، ص ٤٧٧ ، ق٢ ، ص ٥٨٣ - ٥٨٤ ؛ ليلى النجار : المغرب والأندلس في عهد المنصور الموحدي ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى ، ١٤٠٩هـ ، ص ١٧١ .

(٣) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق١ ، ص ٤٧٩-٤٩٨ ، ق٢، ص ٥٨٣ .

☆ انظر : التمهيد في مواضع متفرقة .

☆☆ يبدو أن أقليش دخلت في حوزة النصارى بعد سقوط طليطلة بأيديهم عام ٤٧٨هـ/١٠٨٥م -

قشتالة☆ ، وكان ذلك في ٥٠١هـ/١١٠٨م [١] ، حيث أن تميم بن يوسف بن تاشفين لما ولي غرناطة من قبل أخيه حاكم المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠هـ/١١٠٦م-٥٣٧هـ/١١٤٢م) بادر في التجهز لجهاد النصارى[٢] ، وبالأخص مملكة قتشالة التي كان حاكمها أذفونش (الفونسو السادس) قد آذى المسلمين بتكرار غارته عليهم [٣] ، فتحرك تميم من غرناطة في العشر الأواخر من رمضان من العام المذكور ميمماً وجهه شطر البلاد القشتالية ، وفي طريقه إليها دعا الأندلسيين للشخوص معه فلبوا دعوته☆☆ . ولقد عبّر تميم عن ذلك بقوله " ومررنا من طاعة أمير المسلمين وناصر الدين على جهات سمعت منادينا ، وتبعت هادينا ، وانقادت وراءنا أعداد وأمداد ، برزوا من كمون ، وتحركوا عن سكون... وقد توافد الجمع، وملى البصر والسمع " [٤] . ولابد أن رجال العلم ساعتذاك كانوا في مقدمة من استجاب لداعي الجهاد . وفي اليوم الرابع عشر من شوال وصل الجيش المرابطي مدينة أقليش فحاصرها [٥] ، ولم ينشب أن اقتحمها بلا مشقة ،

- (ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص٨٧) وقد حزم شعيرة باستيلاء النصارى عليها عقب سقوط طليطلة (المرابطون ، ص١٤٥) .

☆ انظر التمهيد من هذا الكتاب .

(١) ابن عذاري البيان ، جـ٤ ، ص٤٩ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) المصدر السابق ، ٤٤-٤٥ .

☆☆ رسالة تميم إلى أخيه علي بن يوسف بشأن موقعه أقليش كتبها ابن شرف ، نشر (عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق١ ، ص٥٣٤ ؛ حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص٣٦) .

(٤) رسالة تميم (عنان : عصر المرابطين والموحدين، ق١، ص٥٣٤ ؛ حسين مؤنس: الثغر الأعلى، ص٣٦) .

(٥)رسالة تميم (عنان: عصر المرابطين والموحدين، ق١ ،ص٥٣٤ ؛ حسين مؤنس: الثغر الأعلى ،ص٣٧).

الأمر الذي أفضى بحماتها النصارى إلى الاعتصام بقصبتها (١) ، وكان خبر الهجوم الإسلامي عليها قد بلغ الحاكم القشتالي فبعث لنجدتها قوة عسكرية تحت إمرة ابنه شانجة☆ (٢) ، فاشتبكت هذه القوة بالجيش الإسلامي، في معركة حامية الوطيس ختمت بنصر ساحق للمرابطين ، وقد قُتل فيها من النصارى أعداد غفيرة كان على رأسهم شانجة بن أذفونش (الفونسو السادس) (٣)☆☆ ، وسبعة من أكابر الفرسان النصارى المرافقين له ، ولذا سميت هذه الموقعة☆☆☆ في المصادر النصرانية بمعركة الأكناد

---

(١) ابن القطان : نظم الجمان ، ص٦٤ ؛ ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص٥٠ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص١٦٠ .

☆ شانجة أوسانشو Sancho هو ابن الفونسو السادس من زوجته أرملة المأمون بن المعتمد على الله بن عباد التي تنصرت (ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص٥٠) وتُدعى زايدة أو السيدة ، وكانت قد فرت إلى قشتالة بعد مقتل زوجها المأمون، فاتخذها الفونسو زوجة له، فأنجبت شانجة هذا(الونشريسي: أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر تحقيق حسين مؤنس ، ط . مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م ، ص٦٣ ، حاشية ١ ؛ بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي ، ط . دار نهضة مصر ، القاهرة ، ص١٥٢-١٦٣ ؛ عنان : دول الطوائف ، ص٣٤٥-٣٤٨) وقد كان هو الابن الوحيد للفونسو ، وحين خرج إلى أقليش كان له من العمر إحدى عشرة سنة في قول (الحجي : التاريخ الأندلسي ص٤٢٥) وخمس عشرة سنة في قول آخر (بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس ، ص١٦٢) .

(٢) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦٠ .

(٣) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٦٦ ؛ ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص ٥٠ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦٠ ، ١٧٠ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٣ ، ص ٢٥٣ .

☆☆ أشار ابن الكردبوس إلى هذه المعركة لكن روايته مختصرة وغير دقيقة (تاريخ الأندلس، ص ١١٤-١١٥).

☆☆☆ زار أمبروسي ويسي ميراندا مكان المعركة سنة ١٩٥٣م ووصفه كتابةً ورسماً (وقعة أقليش ومصرع الأمير ضون شانجة ، مجلة تطوان ، عدد ٢ ، سنة ١٩٥٧م ، ص ١٢٢) .

السبعة Batalla de Ios Siete Condes [١] . أما المسلمون فقد فقدوا فيها - أيضاً - جمعاً من رجالهم . يقول ابن أبي زرع [٢] " واستشهد فيها جماعة من المسلمين رحمهم الله " . وقد كان من هؤلاء عالم سماه ابن القطان [٣] " الإمام الجزولي " ☆ . وبما أن مقدمة الجيش الإسلامي التي يمثلها عسكر قرطبة هي التي تعرضت لانقضاض شرس من قبل الجند النصارى في بداية المعركة ، فاضطربت صفوفها ، وتقهقر رجالها [٤] ؛ فمن المرجح أن يكون الجزولي ومَنْ فُقِدَ من المسلمين معه حصل لهم ما حصل من القتل في غضون ذلك الانقضاض ، وبخاصة أن الذين رووا أحداث الموقعة لا يذكرون أن الجيش الإسلامي أصيب بنكسة غير هذه النكسة طوال القتال بين الفريقين. ومقتل الجزولي على تلك الحالة - إن صح ترجيحنا - يعني أنه كان من أولئك الذين خرجوا بشوقٍ إلى جهاد النصارى ، فالتحقوا بمقدمة جيش المسلمين وحملوا السلاح ، وقاتلوا في هذه الموقعة بشجاعة ، وشاركوا فيها مشاركة فعالة .

☆ ☆ ☆

---

(١) حسين مؤنس ، الثغر الأعلى ، ص ٢٠ .

(٢) الأنيس المطرب ، ص ١٦٠ .

(٣) نظم الجمان ، ص ٦٦ .

☆ الجزولي بالبحث فيما نملكه من كتب تُعنى بالرجال لم نعثر على ترجمة للجزولي هذا . وعليه فلا نعرف عنه سوى ما جاء عند ابن القطان ، حيث لقبه بالإمام ، ووصفه بأنه " رجل صدق " (نظم الجمان ، ص ٦٦) .

(٤) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٦٤ - ٦٥ ، وحاشية١ ؛ رسالة تميم (عنان : عصر المرابطين ، ق١، ص٥٣٧) .

وفي غزوة طَلَبِيرَة☆ سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م جاء النص على رجال من أهل العلم شاركوا فيها (١) ، وهم أبو عبد الله بن حمدين (ت٥٠٨هـ/ ١١١٤م) (٢) وأبو محمد بن سمجون اللواتي☆☆ (ت٥٢٤هـ/ ١١٣٠م) (٣) وأبو محمد بن عطية (ت٥٤١هـ/ ١١٤٧م) (٤) . ذاك أن حاكم المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠هـ/١١٠٦م – ٥٣٧هـ/١١٤٢م) جاز بنفسه إلى الأندلس☆☆☆ برسم الجهاد ، ونصر الملة ، وإعزاز

☆ طَلَبِيرَة Talavera تقع على نهر التاجه إلى الغرب من مدينة طليطلة ، بينهما مسافة تقدر بسبعين ميلاً (الإدريسي : صفة المغرب ، ص ١٨٧) وهي الآن بلدة صغيرة في إسبانيا (أرسلان : الحلل السندسية، حـ١ ، ص ١٠١ حاشية) وقد دخلت في سلطان النصارى أيام احتلالهم طليطلة (ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص٨٧) .

(١) خليل إبراهيم السامرائي : علاقات المرابطين بالممالك الإسبانية بالأندلس وبالدول الإسلامية ، ط . دار الحرية ، بغداد ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ص ٢١٦ .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٧٠ .

☆☆ أبو محمد بن سمجون هو عبد الله بن علي بن عبد الملك بن سمجون اللواتي ، عينه يوسف بن تاشفين على قضاء الجزيرة الخضراء ، وفي سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م نقله إلى قضاء غرناطة ، وظل قاضياً بها حتى سنة ٥٠٨هـ / ١١١٤م . وكانت وفاته عام ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م (ابن الأبار : التكملة ، حـ٢ ، ص ٩١٥ – ٩١٦) .

(٣) ابن الأبار : التكملة ، حـ٢ ، ص ٩١٦ .

(٤) ابن عطية : فهرس ابن عطية ، ص ١٣٧ .

☆☆☆ اتفقت المصادر أن غزوة طلبيرة كانت في سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م ، لكنه لا يظهر اتفاق بينها في تحديد وقت عبور علي بن يوسف إلى الأندلس ، فعدد منها تضع عبوره في سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م دون تحديد بشهر معين (ابن عذارى : البيان ، حـ٤ ، ص ٥٢ ؛ ابن أبي دينار : المؤنس ، ص١٣٢؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ٨٤) بينما يحدد ابن أبي زرع عبوره من سبته في ١٥ محرم منها (الأنيس المطرب ، ص١٦١) أما إذا أخذنا برواية ابن القطان القائلة بوصول الجيش المرابطي إلى طلبيرة نفسها في ١٣محرم من السنة المذكورة (نظم الجمان ، ص ٦٩) فمعنى ذلك أن عبور علي ابن يوسف لابد أن يكون في أواخر سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩م لأنه مَرَّ على مدن أندلسية وامضى –

الكلمة »[1] فلما وصل إلى غرناطة تربص بها قليلاً من أجل أن تتلاحق به العساكر المغربية، وتتجمع الحشود والمطوعة ، وتتأهب الجيوش الأندلسية[2]، ثم غادرها متوجهاً إلى قرطبة ، فأقام فيها أياماً[3] ، وقيل شهراً[4] . ثم تحرك صوب مدينة طلبيرة من أرض قشتالة [5] . والاحتمال كبير جداً أن أبا محمد ابن سمجون – المار ذكره آنفاً – قد انضم إلى القوات المرابطية عندما تحركت من غرناطة، لأنه كان إذ ذاك قاضيها من قبل المرابطين[6] . وكذلك يمكن أن يكون أبو محمد بن عطية قد فعل الشيء نفسه ، وخرج من بلده غرناطة [7] مع تلك القوات ، حيث كان حينها في الثانية والعشرين من عمره[8] ، فكان في مرحلة الطلب ، ولذلك استغل خروجه إلى الجهاد في الاستزادة من العلم، قال مخبراً عن استفادته من أحد العلماء « لقيته في جيان في نهوضي إلى غزوة طلبيرة سنة ثلاث وخمسمائة »[9] . وغالب الظن أن أبا عبد الله بن حمدين التحق –أيضاً– بقوات المرابطين عند نهوضها من قرطبة ، لأنه كان في ذلك

= بها وقتاً يربو عن الشهر (ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص٥٢ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص١٦١) وانظر ميراندا : علي بن يوسف وأعماله في الأندلس ، مجلة تطوان ، عدد ٣-٤ ، عام ١٩٥٨م - ١٩٥٩م ، ص ١٥٧ - ١٥٨) .

(١) مجهول : الحلل الموشية ، ص ٨٥ .

(٢) ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص ٥٢ .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦١ .

(٥) ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص ٥٢ .

(٦) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص ٩١٦ .

(٧) ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص ٣٨٦ .

(٨) ذاك أن ولادته كانت عام ٤٨١هـ / ١٠٨٨م (انظر : الفصل الأول من هذا الكتاب) .

(٩) ابن عطية : فهرس ابن عطية ، ص ١٣٧ .

الوقت يتربع على كرسي قضاء الجماعة بها [١] . وقد لا نتجاوز الحقيقة في شيء إذ قلنا أن خروج هؤلاء مع الجيش المرابطي النافر للقتال في قشتالة إنما يمثل نموذجاً للعديد من العلماء وطلبة العلم الذين لابد أنهم صاحبوا هذا الجيش ، فالمؤرخون أشاروا إلى مبادرة المطوعة في الالتحاق به [٢] . ولا جرم أن العلماء ومن على شاكلتهم يأتون على رأس المطوعة ، وبخاصة إذا كان الجيش يرفع راية الجهاد في سبيل الله .

وبنزول جيش المرابطين على طلبيرة سارع في مهاجمتها ، ثم شرع رجال الجيش في الإحاطة بها من كل جانب، ولكنه عَسُر عليهم الاقتراب من سورها بسبب جريان ماء النهر☆ من حوله [٣]، ذلك أنه قد بُنِيَ – فيما يظهر– سد في النهر لحجز مائه حتى يمر بجوار السور . ولذا فبمجرد أن ثُلم هذا السد انحسر الماء عند السور فبلغ المسلمون باب المدينة ، وتداعوا القتال[٤] ، وهنا يبرز قاضي الجماعة أبو عبد الله بن حمدين في حفز المقاتلين على الجهاد، وإثارة الحماس في نفوسهم يقول ابن القطان [٥] « وكان ابن حمدين يُحرض الناس على الجد والاجتهاد » .

ولقد تمكن المسلمون من دخول المدينة عَنْوَة [٦] عقب مقتلةٍ جرت

---

(١) عياض : الغنية ، ص ١١٦ ؛ ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص ٥٠٧ .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان، ص ٦٩ ؛ ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص ٥٢ .

☆ هو نهر تاجه (الإدريسي ، صفة المغرب ، ص ١٨٧) .

(٣) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٦٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٩–٧٠ .

(٥) نظم الجمان ، ص٧٠ .

(٦) ابن الخطيب: أعمال الأعمال ، ق٢، ص ٢٤٧، ق٣، ص ٢٥٤ ؛ مجهول: الحلل الموشية ص٨٥ .

للنصارى على أيديهم ، أما من أفلت من القتل فقد تحصنوا في القصبة ، فلما جن عليهم الليل تسللوا منها فارين [١] . وبهذا استنقذ المرابطون طلبيرة من نصارى قشتالة ، ثم عرجوا على بعض الحصون وفتحوها [٢] . وبعدها توجهوا إلى طليطلة☆ وحاصروها أياماً [٣] ثم قفلوا راجعين إلى قرطبة [٤] ، ومنها إلى العُدوة المغربية [٥] . وبالنسبة لأبي عبد الله بن حمدين فقد رجع بعد هذه الغزوة إلى قرطبة ، وبقي قاضياً للجماعة بها ، قائماً بواجبه في التدريس وبث العلم حتى وفاته [٦] . وكذلك أبو محمد بن سمجون فقد عاد هو الآخر إلى غرناطة ليمارس عمله في القضاء [٧] . أما أبو محمد بن عطية فقد رجع ليكمل مشوار تحصيله العلمي على أيدي علماء الأندلس وغيرهم ☆☆ .

☆ ☆ ☆

ولقد زودنا ابن صاحب الصلاة [٨] بأسماء عدد من العلماء الأندلسيين

---

(١) ابن القطان : نظم الجمان ، ص٧٠ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

☆ روى ابن أبي زرع أن علي بن يوسف في حملته تلك فتح سبعة وعشرين حصناً من أحواز طليطلة ، وفتح بجريط (مدريد) ووادي الحجارة (الأنيس المطرب ، ص١٦١) ويرى ميراندا أن هذه الرواية لا يمكن قبولها ، فابن أبي زرع – على حد رأيه – خلط بين الحقائق والأكاذيب ، وبالغ في الأحداث. (علي بن يوسف وأعماله في الأندلس ، ص ١٥٩) .

(٣) ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص ٥٢ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٢٥١ .

(٤) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٦١ .

(٥) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص١١٧ .

(٦) عياض : الغنية ، ص ١١٦ .

(٧) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص ٩١٦ .

☆☆ انظر الفصل الأول من هذا الكتاب .

(٨) المن بالإمامة ، ص ٤٠٥ .

الذين رافقوا الحاكم الموحدي أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨هـ / ١١٦٣م-٥٨٠هـ/١١٨٤م) في حملته الجهادية إلى وَبْذَة من المملكة القشتالية في أواخر سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م. فلقد نهض أبو يعقوب بجيشه من مراكش[١] وعبر المضيق في مستهل رمضان من عام ٥٦٦هـ/١١٧١م[٢] ، وفي شوال من العام التالي خرج بجموع وافرة من إشبيلية قاصداً الجهاد في قشتالة ، وفي طريقه لبث أياماً في قرطبة[٣].ثم تابع سيرة ماراً بعدة حصون حتى حل بساحة مدينة وبذة [٤] التي كان قادة شرقي الأندلس قد أشاروا عليه بغزوها [٥]، ولقد وصل بمعيته بمجموعة العلماء وطلبة العلم كان منهم أربعة من الأندلسيين هم : أبو محمد المالقي☆ (ت٥٧٤هـ/١١٧٨م) وكان قد قَدِمَ من المغرب مع الجيش الموحدي يوم عبوره إلى الأندلس، حيث كان أوانها يشغل منصب شيخ طلبة الحضرة بمراكش[٦] . وأبو بكر بن الجد (ت٥٨٦هـ/١١٩٠) الذي يظهر أنه قد عبر هو الآخر من المغرب أيضاً، إذ كان قبل هذه الغزوة يسكن مراكش[٧].

---

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣٤٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص٣٩٨ - ٣٩٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص٤٠٠ -٤٠٢ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق. الموحدين ، ص ١٢٣ .

(٥) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٣٨١ .

☆أبو محمد المالقي : هو عبد الله بن محمد بن عيسى الأنصارى ، أصله من مالقة ، وقد درس في صغره على علماء الأندلس ، وكان فقيهاً خطيباً ذا حظ وافر من الأدب ، رأس طلبة الحضرة بمراكش . وتوفي سنة ٥٧٤هـ / ١١٧٨م ، وقيل في السنة التي قبلها (ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٨٥٢ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٣٩ - ١٤٠) .

(٦) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص٣٥٢ .

(٧) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص ٣٢٥ .

وأبو محمد بن الصفار☆ (ت٥٧٦هـ / ١١٨٠م) الذي يغلب على الظن أنه انضم إلى الجيش عند مروره بقرطبة ، حيث كان يومئذٍ يتولى القضاء فيها(١). وأبو الوليد بن رشد الحفيد (ت٥٩٥هـ/١١٩٨م) الذي يبدو أنه تحرك مع الجيش من إشبيلية ، إذ كان قاضيها في ذلك الحين☆☆ .

كانت طلائع الجيش الموحدي قد اشتبكت مع القشتاليين الذين خرجوا من مدينتهم وبذة للدفاع عنها . وحالما تكاملت وحدات الجيش بوصول أبي يعقوب هاجم المسلمون المدينة ، واستولوا على أرباضها . وفي يومٍ تالٍ قُسم الجيش على جهات المدينة الأربع، وضربت للحاكم الموحدي قبته الحمراء☆☆☆ ، ثم استدعى الناس إليها للبيعة على الثبات في الجهاد ، والعزيمة على القتال ، والنصيحة للإسلام (٢) . فكان العلماء الأندلسيون الذين سبقت أسماؤهم من أوائل من استدعوا إلى تلك القبة (٣) . ولذلك فلا يستبعد أن يكون لهم أثر في استحثاث المقاتلين على مجابهة الأعداء ، والصدق في جهادهم .

☆ ابن الصفار : هو عبد الله بن مغيث بن يونس الأنصاري ، من أهل قرطبة ، ولد سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م ، وولى القضاء في بلده ثماني عشرة سنة . وتوفي في ربيع الأول سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م (ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص ٨٥٣ - ٨٥٤ ؛ التنبكتي : نيل الابتهاج ، ص ٢١١) .

(١) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص ٨٥٤ ، ٥٥٤ .

☆☆ انظر الفصل الأول من هذه الدراسة .

☆☆☆ اعتاد الحكام الموحدون على نصب هذه القبة الحمراء في ميادين القتال (ابن عذارى : البيان، ق . الموحدين ، ص١٦٠ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٢٥ ، ٢٣٨) فكانت بمثابة غرفة لقيادة العمليات كما يعبر عنه في عصرنا الشاهد (السحيباني : النظم الحربية في دولة الموحدين ، ص٢٢٥).

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٤٠٢ - ٤٠٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص٤٠٥ .

لم يقدر المسلمون على اقتحام المدينة رغم محاولاتهم المتكررة [١] ، وقد كان لدى الحاكم الموحدي أمل عريض في فتحها عَنْوَة ، ولذا لم يلتفت إلى عرض أهلها عليه الأمان [٢] . ثم جدتْ ظروف على المسلمين تجسدت برياح وأمطار ، وشح في المؤن ، وانعدام في الأقوات ، فتثبطت الهمم ، وخارت العزائم ، فراح بعض الخطباء يخطبون بالجيش لحمله على مواصلة الحصار ، ومعاودة القتال ، ولكن لم تظهر لهذه ثمرة [٣] الأمر الذي حمل أبا يعقوب على قبول ما كان القشتاليون قد عرضوه من التسليم قبل أيام . ونظراً لكون قائد المدينة نما إلى علمه تحرك سيده ملك قشتالة أذفونش (الفونسو الثامن)☆ لنجدته؛ فضلاً عما شاهده بعينيه من اختلال مريع في جيش الموحدين فقد أبى الاستجابة لرغبة الحاكم الموحدي [٤] ، فما كان من هذا الأخير إلا أن أعلن الرحيل [٥] ، فمر ببعض الحصون والمدن الإسلامية لتفقدها [٦]☆☆ ، وانتهى

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص٤٠٦ – ٤٠٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص٤٠٨ – ٤٠٩ ؛ المراكشي : المعجب ، ص ٣٢٣ – ٣٢٤ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٤٠٩ –٤١١ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص١٢٣ .

☆ الفونسو الثامن (النبيل) Alfonso V١١١ ورث حكم قشتالة وهو طفل صغير بعد وفاة والده شانجة ابن السليطين (الفونسو السابع) عام ٥٥٣هـ / ١١٥٨م ، واستمر في الحكم حتى وفاته عام ٦١١هـ/ ١٢١٤م (أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص ٢٥٧ ، ٣٨٦ ؛ عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق٢ ، ص٥٨٣ ، ٥٩٢ ، ١٠٢-١٠٤ . Jose Terrero : op . cit ., P) ويأتي رسم اسمه في المصادر الإسلامية بـ " أدفونش " (ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ١٥٣) وأحياناً يُرسم بـ " الفنش " (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حـ١٢ ، ص ١١٣) .

(٤) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص ٤١١ – ٤١٢ .

(٥) المصدر السابق ، ص٤١٣ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٢٣ .

(٦) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص٤١٤ – ٤٢٣ .

☆☆ حكى ابن صاحب الصلاة أبو مروان عبد الملك بن محمد الباجي أنه قد حضر دخول الحاكم الموحدي مدينة قونكة (المن بالإمامة ، ص٤١٥) .

به المطاف في مرسية من شرقــي الأندلـس ، ثم عــاد أدراجــه إلى إشــبيلية ، فاستقبله أهلها . وكان على رأس مستقبليه أبو بكر بن الجــد [(١)] الـذي لابـد أنه كان قد سبق الموكب الرسمي إلى إشبيلية ، لأنه - كما أبنــا آنفاً - أحـد العلماء الأندلسيين الذين شاركوا في غزوة وبذة .

☆ ☆ ☆

ولقـد جـاء التصريـح باشـتراك علمـاء الأندلـس في غــزوة الأرك☆ عــام ٥٩١هـ/١١٩٥م التي كان سببها المباشـرقيام نصارىقشـتالة باسـتئناف غـاراتهم على المدن الأندلسية عقب انصرام الهدنة بينهم وبين الموحديـن [(٢)] والـتي كـانت قد وقعت في عام ٥٨٦هـ/١١٩٠م [(٣)] ، فعبر أبو يوسـف يعقـوب المنصـور☆☆

---

(١) ابن صاحب الصـلاة : المن بالإمامـة ، ص٤٢٣ - ٤٢٦ ؛ ابـن عـذارى : البيـان ، ق . الموحديـن ، ص١٢٤.

☆ سبق التعريف بالمكان في التمهيد من هذه الرسالة ، ونلفت النظر أن بعض المؤرخين يسـميها "الأركـة" (الضبي : بغية الملتمس ، ص ٤٥ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيـل والتكملـة ، س٦ ، ص١٩٨) أو الأراكة (المقري : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص ١٧٢) .

(٢) ابـن عـذارى : البيـان ، ق . الموحديـن ، ص٢١٧ ؛ الغرنـاطي : رفـع الحجـب المستورة في محاســن المقصورة ، ط . مطبعة السعادة ، مصر ، ١٣٤٤هـ ، جـ٢ ، ص ١٥٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ، ص ١١٤ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص ٤ .

☆☆ ذكر بعضهم أن ملك قشتالة الفونسو الثامن وصل بغاراته إلى الجزيرة الخضراء على سـاحل الأندلـس الجنوبي ، ثم كتب كتاباً إلى الحاكم الموحدي المنصور يتهدده فيـه ، ويسـتدعيه للقتـال (ابـن الأثـير : الكامل ، جـ١٢ ، ص١١٣-١١٤ ؛ الحلبي : حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، تحقيق أكـرم عثمـان يوسف ، ط . دار الحرية ، بغداد ، ١٩٨٠م ، ص٨٦ ؛ ابن أبي زرع : الأنيـس المطرب ، ص٢٢٠-٢٢١) ويُرتاب في صحة نسبة هذا الكتاب إلى الفونسو الثـامن ، لأن الكتـاب ذاتـه بألفاظـه روى أن الفونسو السادس كتبه إلى زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين (مجهول : الحلـل الموشـية ، ص٤٢-٤٣) وقد نبه إلى ذلك ابن خلكان بعد أن وجد هذه المكاتبة بين الفونسو السـادس ويوسف بن تاشفــين =

(٥٨٠هـ/١١٨٤م - ٥٩٥هـ/١١٩٩م) إلى الأندلس في العشرين من جمادي الآخرة ، فنزل في إشبيلية [١] وقد كان يصاحبه في جيشه العلماء [٢] ، فكان في زمرتهم أحد العلماء الأندلسيين الذين استدعوا قبلاً للسكنى في مراكش وهو نجبة الرعيني☆ . غير أنه لم يكتب له حضور هذه الغزوة مع المنصور ، إذ وافاه أجله عند محاذاة الجيش الموحدي لجزيرة قبطيل☆☆ ، أي قبل أن يصل إلى إشبيلية بمسافة يسيرة☆☆☆ ، وذلك في السابع والعشرين من جمادي الآخرة سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م [٣] . يقول ابن صاحب الصلاة [٤] عنه بعد أن

- في كتاب " تذكير العاقل " لأبي الحجاج البياسي الذي نقلها من خط ابن الصيرفي ، ثم عقب ابن خلكان بقوله"فإن كان كذلك فما يمكن أن تكون هذه الرسالة إلى يعقوب بن يوسف لأن ابن الصيرفي متقدم التاريخ على زمان يعقوب بكثير " (وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص ٧) وثمة أمر آخر يُلاحظ على الكتاب وهو أن ما جاء فيه وصفاً لأحوال الأندلس نراه ينطبق على نهاية عصر الطوائف ، أي في الوقت الذي قيل أن الفونسو السادس راسل يوسف بن تاشفين ، فجاء فيه ما نصه " وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل ، وإهمال الرعية ، وإخلادهم إلى الراحة ، وأنا أسومهم بحكم القهر وجلاء الديار ، وأسبي الذراري ، وأمثل بالرجال " (ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص٢٢٠) .

(١) ابن عذاري: البيان، ق. الموحدين، ص٢١٧-٢١٨ ؛ الغرناطي: رفع الحجب المستورة ، جـ٢، ص ١٥٤.

(٢) التادلي : التشوف ، ص ٣٥٩ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٢٢ .

☆ نجبة الرعيني : هو أبو الحسن نجبة بن يحيى بن خلف الرعيني ، من أهل أشبيلية ، كان عالماً بالقراءات والعربية ، له عناية بالحديث ، وقد استدعاه الحكام الموحدون للاستيطان عندهم في مراكش . توفي في جمادي الآخرة سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م (ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص ٧٥٨ - ٧٥٩) .

☆☆ جزيرة قَبْطيل أو قبطال إحدى جزر إشبيلية القريبة منها (الرعيني : برنامج شيوخ الرعيني ، ص٧٨) فهي في نهر الوادي الكبير إلى الجنوب من إشبيلية ، بينها وبين البحر (الإدريسي : صفة المغرب ، ص١٧٧ ، ١٩٦) .

☆☆☆ لأن هذه الجزيرة تقع على الجنوب من إشبيلية كما جاء في الحاشية السابقة .

(٣) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص ٧٥٩ .

(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

ذكر اليوم الذي توفي فيه " وكانت وفاته بالموضع المعروف بعطف جزيرة قبطيل ، وهو واصل صحبة المنصور - مقدمة لغزو الروم " .

لم يطل مكوث المنصور في إشبيلية ، فريثما استتم استعداداته العسكرية من حيث العدة والعتاد والمقاتلين [١] ، خرج منها بجيشه في الحادي عشر من رجب لجهاد نصارى قشتالة ، فكان من ضمن النافرين معه للجهاد خطيب إشبيلية أبو علي بن حجاج☆ (ت ٥٩٨هـ/١٢٠١م) . وقد جاز الجيش الموحدي بكورة قرطبة ، وما زال يسير حتى حل قريباً من المكان الذي تجمع فيه جند قشتالة ومن ناصرهم من بني ملتهم [٢] ؛ إذ كان ملك قشتالة أذفونش (الفونسو الثامن) قد استنفر النصارى☆☆ للقتال منذ سماعه بعبور الموحدين [٣] ونزل عند حصن الأرك [٤] الذي كان آنذاك على الحدود بين الأراضي الإسلامية والأراضي القشتالية [٥] .

---

(١) المراكشي : المعجب ، ص ٢٥٨ .

☆ أبو علي بن حجاج هو الحسن بن حجاج بن يوسف الهواري ، يرجع في نسبه إلى قبيلة تجيب العربية ، أصله من المغرب ، ثم دخل الأندلس مراراً ، وولي الخطبة في إشبيلية بعد أبي الحسن المالقي ، وذلك في سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م . وقد توفي في عام ٥٩٨هـ / ١٢٠١م (ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص ٢٧١) .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص٢١٨ - ٢١٩ .

☆☆ كان الفونسو الثامن قد طلب العون من ملكي ليون ونافار فاستجابا لطلبة بتثاقل (أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص٣٣٥) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ، ص ١١٤ ؛ المراكشي : المعجب ، ص ٣٥٨ .

(٤) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٢٣ .

(٥) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق٢ ، ص ٢٠٠ ؛ فاضل السباعي : يوم الأرك ، مجلة المناهل ، السنة ٧ ، عدد ١٧ ، جمادي الأولى ١٤٠٠هـ ، ص ٢٠٠ .

أمضى المنصور أياماً يتداول وجهات النظر مع رجال جيشه حول لقاء العدو ، ويستشيرهم في أمثل الطرق وأقومها لقتاله ، فاستقر الرأى على تقديم الجيوش الأندلسية يوم المواجهة مع النصارى ، فأهل الأندلس هم "المجاورون لهم ، المدربون على قتالهم ، العارفون بخدعهم وأحوالهم "[(١)] .

ولما عزم المسلمون على مناطحة العدو ، زحفوا نحوه حتى إذا ما تكاملت جموعهم[(٢)] " قام الخطباء ، فخطبوا في الحض على الجهاد ، فأبلغوا وأحسنوا " على حد تعبير الغرناطي[(٣)] . وهنا يبرز جُهد خطيب إشبيلية أبي علي بن حجاج في وسط المعمعة، إذ هَبَّ يحرض الناس على القتال، ويذكرهم بفضل الجهاد في سبيل الله، ومثوبته عند الله، يقول ابن عذارى[(٤)] في وصفه للقاء مع العدو " وقام أبو علي ... بن حجاج ، وخطب خطبة بليغة في التحريض على الجهاد وفضله، والتنبيه على مكانه وقدره ، ومد القول في ذلك ما وسعه من بيانه " ؛ فكانت ثمرة ذلك بأن " انفصل الناس ، وقد استنارت بصائرهم "[(٥)] " وخلصت لله ضمائرهم وسرائرهم ، وقويت أنفسهم واعتزامهم ، وتضاعفت نجدتهم وإقدامهم "[(٦)] . وفي ضحوة التاسع من شعبان سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٥م تراءى الجمعان واستعدا للجلاد[(٧)] ، فلم

---

(١)ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص٢٢٣ .

(٢) ابن عذارى: البيان، ق . الموحدين ، ص ٢١٩ ؛ الغرناطي : رفع الحجب المستورة، جـ٢، ص١٥٤.

(٣) رفع الحجب المستورة ، جـ٢ ، ص ١٥٤ .

(٤) البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢١٩ .

(٥) الغرناطي : رفع الحجب المستورة ، جـ٢ ، ص ١٥٤ .

(٦) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢١٩ .

(٧) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص٢٢٦ .

يبق أمام المنصور في تلك الساعة الحاسمة إلا التوجه إلى الله بأن ينصره على أعدائه ، فطلب أن يدعو بذلك " كل من يُظن عنده خيراً من الصالحين " (١) وبمقتضى الحال سيكون في عداد هؤلاء الصالحين طائفة من العلماء وطلبة العلم سواء من الأندلسيين أو من غيرهم .

التحم الجمعان في معركة عنيفة استمرت بضع ساعات☆ ، فكانت عاقبتها انهزام النصارى ، ومقتل جم كبير منهم (٢) ، وفرار ملكهم أذفونش (الفونسو الثامن)☆☆ لايلوى على شيء في ثلة من جنده☆☆☆ تحت جنح الظلام إلى حاضرته طليطلة . أما الجيش الإسلامي فقد فَقَدَ جماعة من أفراده☆☆☆☆ ، ثم دخل حصن الأرك ظافراً بعد مقاومة من حماته (٣) ☆☆☆☆☆ . وحين العودة

---

(١) المراكشي : المعجب ، ص ٣٥٩ .

☆ هناك رواية تقول إن القتال استمر من الضحى حتى الزوال (ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص٢٢٠ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص١٣) وثمة رواية أخرى يفهم منها أن القتال استمر حتى الليل (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص٨) .

(٢) الضبي : بغية الملتمس ، ص٤٥ - ٤٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ، ص ١١٤ - ١١٥ ؛ ابن الخطيب : شرح رقم الحلل ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ ؛ ابن أبي دينار : المؤنس ، ص ١٤٣ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٥٩ .

☆☆ تظهر بعض الروايات النصرانية إصراره على المغامرة بنفسه في المعركة رغبة في الانتقام لمقتل جنده ، إلى درجة أن قومه لم يستطيعوا إخراجه من الميدان إلا بالقوة (ليلى النجار : المغرب والأندلس في عهد المنصور ، ص ١٩٠) .

☆☆☆ قيل أن الفونسو الثامن لم يكن معه عند هروبه إلى طليطلة سوى عشرين رجلاً (ابن عذارى : البيان، ق . الموحدين ، ص٢٢٠) وقيل ثلاثين رجلاً (المراكشي : المعجب ،ص٣٥٩) .

☆☆☆☆ كان أبو محمد عبد الواحد بن تومرت المسكوري الأسود أحد علماء المغرب ضمن المقتولين في غزوة الأرك (التادلي : التشوف ، ص ٣٥٩) .

(٣) ابن عذارى: البيان ، ق . الموحدين ، ص٢٢٠ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطروب ، ص٢٢٧ -٢٢٨ ؛ الغرناطي: رفع الحجب المستورة ، جـ٢ ، ص ١٥٥ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص١٣ .

☆☆☆☆☆ للوقوف على نتائج موقعة الأرك انظر مثلاً شوقي أبو خليل: الأرك، ط. دار الفكر،-

إلى إشبيلية [١] كان من ضمن العائدين – فيما يظهر – أبو علي بن حجاج السالف الذكر ، إذ عاش بعد ذلك فنراه في قرطبة عام ٥٩٣هـ/١١٩٧م [٢] ثم نزح إلى المغرب ، فكانت وفاته في فاس عام ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م [٣] .

☆ ☆ ☆

وفي الحركة الجهادية التي قام بها محمد الناصر الموحدي (٥٩٥هـ / ١١٩٩م – ٦١٠هـ/ ١٢١٤م) ضد نصارى قشتالة وحلفائهم والتي بدأت بعبوره إلى الأندلس في ذي القعدة سنة ٦٠٧هـ/١٢١١م [٤] ، وانتهت بوقعة العقاب في صفر سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م [٥] تهيأ لنا معرفة جماعة من العلماء الذين شاركوا فيها أو في بعض مراحلها . وكانت هذه الحركة من جانب الناصر قد نشأت على إثر الأنباء التي بلغته من الأندلس أن أذفونش (الفونسو الثامن) ملك قشتالة عاود غاراته عليها [٦] قبل انقضاء أجل الهدنة☆ المعقودة بين الطرفين [٧] .

= دمشق ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م ، ص ٦٢ – ٦٧ ؛ محمد زغروت : معركة الأرك الموحدية ، ط . دار المعراج للنشر والتوزيع ، ص ٤٩ – ٥٥ .

(١) المراكشي : المعجب ، ص ٣٥٩ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص٢٢٠ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص ٩ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٢٦ .

(٣) ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص ٢٧١ .

(٤) المراكشي : المعجب ، ص ٣٩٨ .

(٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص ٢٧٠ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص١٦١ .

(٦) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص٢٣٣ – ٢٣٤ .

☆ كان حاكم قشتالة قد هادن الموحدين بعد وقعة الأرك بسنتين. انظر(التمهيد من هذا الكتاب).

(٧) يفهم ذلك من رسالة للناصر كُتبت في ربيع الأخر سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١م (ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص٢٦١) .

استنفر الناصر قبيل جوازه إلى الأندلس أهل المغرب للجهاد " فأجابه خلق كثير "[١] كما أنفذ - أيضاً - " المخاطبات إلى الأندلس بتحريض المسلمين على الجهاد ، والتفرغ لما يجب من التأهب والاستعداد ، فامتثل ولاة الأندلس ما أُمروا به " على حد قول ابن عذارى[٢] . وحين نزل في إشبيلية في ١٧ من شهر ذي الحجة عام ٦٠٧هـ/١٢١١م[٣] مكث بها بقية ذلك العام[٤] وأوائل العام التالي عام ٦٠٨هـ/١٢١١م وفي غرة صفر خرج منها بجيش لَجِب وقصد قلعة شَلْبَطَرَّة☆[٥] التي كان يرابط فيها جماعة من الفرسان النصارى☆☆ الذين شاركوا ملك قشتالة بالعدوان على المسلمين[٦]. فلما وصل الناصر إلى تلك القلعة أحاط بها من كل جانب ، فما برح يشدد

---

(١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٣٤ .

(٢) البيان ، ق . الموحدين ، ص ٢٥٩ .

(٣) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص٢٣٤ .

(٤) المراكشي : المعجب ، ص٣٩٨ .

☆ شَلْبَطَرَّة Salvatierra ترسم تارة شلبترة (المراكشي : المعجب ، ص٣٩٩) وتارة أخرى شربطرة (ابن أبي زرع : الذخيرة السنية ، ص٤٧) وهي من توابع قلعة رباح (الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص١٠٨) تقع إلى الجنوب الغربي منها (عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق٢ ، ص٢٨٧) .

(٥) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص٢٣٦ .

☆☆ هذه الجماعة من الفرسان كانت أولاً ترابط في قلعة رباح ، ولما استولى الموحدون عليها عقب موقعة الأرك لجأت إلى قلعة شلبطرة (عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق٢ ، ٢١٤
Antonio Ubieto : Introduccion a la Historia de Espana , Barcelona , p . ١٩٤)

(٦) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق٢ ، ص٢٨٤ ؛ أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص٣٥٦ ؛ شوقي أبو خليل : العقاب ، ط . دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ص ٢٢ ؛
Antonio Ubieto : op . cit . , P . ١٩٤ .

عليها الحصار حتى فتحها (١) في ربيع الآخر سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م☆ فدخلها وحول كنيستها مسجداً (٢) . ولقد روى ابن عبد الملك المراكشي (٣) أن أحد علماء إشبيلية وهو أبو بكر الكناني☆☆ قد " استشهد ... والمسلمون على شربطرة [كذا] سنة ثمان وستمائة " وشربطرة المذكورة في النص ما هي إلا قلعة شلبطرة التي نتحدث عنها ، ولكنها جاءت برسم مغاير قليلاً كما في بعض المصادر (٤) . قال ابن أبي زرع (٥) في حوادث سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م " وفيها كانت غزوة شربطرة وفَتْحِها " . ويتنخل من هذا أن أبا بكر الكناني كان أحد الذين قتلوا في هذه الغزاة ، فهو قد خرج - فيما يبدو - مع الجيش الموحدي من إشبيلية بلده ، ثم ظل مرابطاً مع المسلمين في حصارهم لشلبطرة حتى لقى حتفه مجاهداً للنصارى .

وكان أذفونش (الفونسو الثامن) في تلك الأثناء قد استصرخ

---

(١) المراكشي : المعجب ، ص٣٩٩ .

☆ يذكر أن أبي زرع أن قلعة شلبطرة لم يفتحها المسلمون إلا آخر ذي الحجة سنة ٦٠٨هـ/١٢١٢م (الأنيس المطرب ، ص ٢٣٨) لكن التاريخ الذي اعتمدناه في المتن جاء مثبتاً في رسالة كتبها الناصر بشأن فتح شلبطرة (ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص٢٦٠) وللعلم فإن أبا عبد الله البياسي الموحدي سلّم هذه القلعة غنيمة باردة للنصارى عام ٦٢٣هـ/١٢٢٦م (ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ٢٧٤) .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص٢٦٠ - ٢٦٢ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص١٠٩-١١٠ .

(٣) الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٣٣ .

☆☆ أبو بكر الكناني هو محمد بن أحمد بن محمد الكناني ، من أهل إشبيلية ، رحل إلى المشرق حاجاً ، وكان محدثاً راوية . وقد توفي في سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م تحت أسوار شلبطرة (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٣٣ ، س١ ، ق١ ، ص٢٨) .

(٤) المراكشي : المعجب ، ص٣٩٩ ، حاشية " ١ " .

(٥) الذخيرة السنية ، ص٤٧ .

النصارى لحرب المسلمين☆ ، واستعان بالبابا☆☆ في ذلك ، فكان لهذا الأخير أثر فاعل في انثيال جحافل نصرانية عظيمة من داخل إسبانيا وخارجها على الحاكم القشتالي في طليطلة [١] ، إذ " جاءه عباد الصليب من كل فج عميق ، ومكان سحيق " [٢] فسار بهم إلى بعض الحصون الإسلامية فاحتلها ، ثم انتهى بهم إلى المنطقة التي يقبع بها حصن العقاب إلى الشمال من جيان . أما الناصر الموحدي فقد طفق منذ رجوعه من فتح شلبطرة إلى إشبيلية يستعد للمواجهة مع النصارى ، حيث " استنفر الناس من أقاصي البلاد ، فاجتمعت له جموع كثيفة " حسبما يقول المراكشي [٣] . وفي العشرين من محرم سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م [٤] انطلق بهم ونزل جيان، ثم واصل سيره شمالاً حتى

☆ المصادر العربية تؤكد أن استصراخ الفونسو الثامن للنصارى حدث عقب سقوط شلبطرة بأيدي المسلمين عام ٦٠٨هـ/١٢١١م (المراكشي : المعجب ، ص٣٣٩ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص٢٦٣ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص٢٣٧ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص١٠٩) وللوقوف على ذلك بالتحديد . انظر (عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق٢ ، ص٢٨٨-٢٨٩) بينما يفهم من الروايات النصرانية أن اتصالات الفونسو الثامن بالنصارى داخل الجزيرة الإسبانية وخارجها لحرب المسلمين كان قبل ذلك (Watt : op.cit, p : ٩٢-٩٣) لمعرفة تاريخ هذه الاتصالات انظر : هشام أبو رميلة : علاقات الموحدين بالممالك النصرانية ، ص٢٧٦) .

☆☆ البابا هو أنوسنت الثالث Innocent III اعتلى الكرسي البابوي عام ٥٩٤هـ/١١٩٨م حتى عام ٦١٣هـ/١٢١٦م ، وقد احتلت البابوية في أيامه مركزاً سامياً في أوروبا (سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ط . السابعة ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ، ١٩٧٨م ، جـ١ ، ص٣٧٩ ، ٤٩٤-٤٩٥ ، ٥٣٧ ، جـ٢ ، ص٢١٨- ٢١٩) وقد وصف بأنه من أقدر البابوات وأنشطهم (Joseph Mccube : op . cit , P. ١٥٢) .

(١) أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص٣٥٧- ٣٥٩ ؛ Antonio Ubieto : op . cit . , P .١٩٤-١٩٥ .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص٢٦٣ .

(٣) المعجب ، ص ٤٠١ .

(٤) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص١٣٧ .

حل بالقــرب من المعسكر النصراني [١] .

ولدينا مجموعة من العلماء استبان لنا على ضوء وفياتهم أنهم قد نفروا للجهاد في هذه الغزوة ، وقد كانوا من مدن أندلسية مختلفة . فمن مدينة جيان خرج قاضيها أبو إبراهيم المجابري☆ [٢].ويبدو أنه التحق بالجيش الموحدي عند حلوله في هاته المدينة متجهاً صوب العقاب . كذلك خف للجهاد مع المسلمين في هذه الغزوة أبو عمر بن عات النفزي من مدينة شاطبة☆☆ في شرقي الأندلس[٣] ومحمد بن إبراهيم المديني☆☆☆من مدينة بطليوس في غربي الأندلس[٤] ومحمد بن حسن الأنصاري من مدينة مالقة في جنوبي الأندلس [٥] ، وأبو محمد عبد الواحد بن سليمان الهمداني☆☆☆☆ومُطَرِّف بن

---

(١) المراكشي : المعجب ، ص٤٠١ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق. الموحدين ، ص٢٦٤ .

☆ أبو إبراهيم المجابري هو إسحاق بن إبراهيم بن يعمر المجابري ، كان فقيهاً حافظاً للرأي ، تولى القضاء في عدد من المدن الأندلسية والمغربية ، كان آخرها جيان ، فُقِد في العقاب (ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص١٩٤) .

(٢) ابن الأبار التكملة ، جـ١ ، ص ١٩٤ .

☆☆ شاطبة Jativa من أعمال كورة بلنسية (ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص١٦) تقع إلى الجنوب من بلنسية المدينة (الزهري : الجعرافية ، ص١٠٣) بينهما مسافة اثنين وثلاثين ميلاً (الإدريسي : صفة المغرب ، ص١٩٢) وهي اليوم بلدة إسبانية صغيرة (شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، جـ٣ ، ص٢٥٣ ؛ عنان : الآثار الأندلسية ، ص١٣٩) .

(٣) ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص١٠١-١٠٢ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٢ ، ص٦٠١-٦٠٢ .

☆☆☆ محمد بن إبراهيم المديني يكنى بأبي بكر وبأبي عبد الله ، من أهل بطليوس . كان مقرئاً مجوداً خطيباً ، وكانت وفاته في العقاب (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص١٠٩) .

(٤) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص١٠٩ .

(٥) ابن الأبار التكملة ، جـ٢ ، ص٥٨٥ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص١٦٨ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٣ ، ص٧٤ .

☆☆☆☆ هو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الواحد بن عيسى الهمداني الإلبيري، من أهل غرناطة –

مطرف☆ وكلاهما من مدينة غرناطة في جنوبي الأندلس أيضاً [١] . وأبو عبدالله الحضرمي☆☆ من بلدة إليسانة☆☆☆ التابعة لقرطبة [٢] . كما عبر من المغرب عدد من العلماء [٣] للمشاركة في هذه الغزوة [٤] ، فكان فيهم من الأندلسيين أحد أطباء الناصر وهو أبو مروان بن خلف الهمداني☆☆☆☆ [٥] .

- كانت له عناية بالحديث والفقه واللغة والنحو والأدب ، وكان كاتباً شاعراً . وقد انتهت حياته بالعقاب (ابن الزبير : صلة الصلة ، ص ٢٥ - ٢٦) .

☆ هو أبو الحسن مطرف بن مطرف الغرناطي ، من أهل غرناطة ، أحد الأدباء الشعراء في عصر الموحدين، وقد قتل في العقاب (صفوان بن إدريس : زاد المسافر وغرة مُحيا الأدب السافر ، تحقيق عبد القادر محداد ، ط . دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٩٨٠م ، ص١٤٨ - ١٤٩ ؛ ابن سعيد : رايات المبرزين، ص١٥٨ ؛ المغرب ، جـ٢ ، ص١٢٠-١٢١ ؛ البلفيقي : المقتضب من تحفة القادم ، ص١٥١-١٥٢ . وانظر: ابن الأبار : تحفة القادم ، أعاد بناءه إحسان عباس ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص١٤٣-١٤٥) .

(١) ابن الزبير : صلة الصلة ، ص٢٥-٢٦ ؛ ابن سعيد : المغرب ، جـ٢ ، ص١٢٠ .

☆☆ هو محمد بن إبراهيم الحضرمي ، من أهل إليسانة ، ولي الصلاة والخطبة والقضاء فيها ، وقد ألف مؤلفاً أسماه " الدرة الوسطى في السلك المنظوم في رجال الموطأ " ولقد لقي حتفه في العقاب (ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٩٨٦) .

☆☆☆ إليسانة Lucena تقع إلى الجنوب الغربي من قرطبة على بعد أربعين ميلاً (الإدريسي : أنس المهج وروض الفرج ، ورقة ١٤٩ ؛ صفة المغرب ، ص٢٠٥) وكانت تسمى مدينة اليهود ، لأن اليهود كانوا سكانها لا يداخلهم في جوفها مسلم (الإدريسي : صفة المغرب ، ص٢٠٥) .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٥٨٦ .

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٨ ، ق١ ، ص٣٠٨ .

(٤) انظر على سبيل المثال : التادلي : التشوف ، ص٤١٥ ؛ ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٢٠٢ ، ٢٣٥ ، جـ٢ ، ص٦٨٤ ؛ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، جـ٣، ص١٢٨ ؛ ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة ، س٨ ، ق١ ، ص٢٩٨ .

☆☆☆☆ هو عبيد الله بن محمد بن عمر بن خلف الهمداني ، يعرف بابن قبلان ، من أهل غرناطة ، وقد انتقل إلى مالقة ، كان طبيباً ماهراً ، استدعاه الحكام الموحدون إلى مراكش ، وبقي بها حتى عبر مع الجيش الموحدي إلى الأندلس ، فقتل في العقاب (ابن الزبير : صلة الصلة ، ق٣ ، ص١٦٣ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة " نصوص جديدة " ، ص١٠٣) .

(٥) ابن الخطيب : الإحاطة " نصوص جديدة " ص١٠٣ .

وفي منتصف صفر من سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م [١] اشتبك الجيش الموحدي بنده النصراني في قتال رهيب أسفر عن نكسة مفجعة للمسلمين[٢]، فقتل منهم أعداد هائلة[٣]☆، فيهم " طائفة كثيرة - يطول تعدادهم - من العلماء الفضلاء " حسب تعبيرة النباهي[٤]، فكان على رأس المقتولين من هؤلاء العلماء أولئك النفر السالفة أسماؤهم قبل قليل؛ حيث وردت في المصادر عبارات تؤكد أن كل واحد منهم قد انتهت حياته في هذه الموقعة[٥]. ولقد أظهر بعضهم من ضروب الشجاعة، وألوان البسالة، والتحريض على الجهاد، وصدق النية، في طلب الاستشهاد ما حدا بالناس إلى تناقله، ومن ثم تدوينه، فقد ذكر ابن عَمِيرة [٦] عن شيخه ابن عات النفزي أنه " حضر

(١) المراكشي : المعجب، ص٤٠٢؛ ابن الأبار : التكملة، جـ٢، ص٥٨٥؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة، س٦، ص١٦٨؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس، ص١٣٧، ١٣٨؛ النويري : نهاية الأرب، جـ٢٤، ص٣٤٢.

(٢) ابن عذارى : البيان، ق. الموحدين، ص٢٦٣؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ق٢، ص٢٧٠؛ شرح رقم الحلل، ص٢٠٢؛ ابن خلدون : العبر، جـ٦، ص٣٣٦.

(٣) المراكشي : المعجب، ص٤٠١؛ القرطبي : التذكرة، ص٧١٣؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب، ص٢٣٩-٢٤٠؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس، ص١٣٨؛ ابن أبي دينار : المؤنس، ص١٤٥؛ مجهول : الحلل الموشية، ص١٦١.

☆ للوقوف - بتوسع- على أسباب هزيمة المسلمين في هذه الموقعة. انظر (شوقي أبو خليل : العقاب، ص٤٩-٥١؛ محمد قجة : معركة العقاب، ط. الأولى، دار الحوار، اللاذقية، ١٩٨٤م، ص٦٤-٦٦؛ هشام أبو رميلة : علاقات الموحدين بالممالك النصرانية، ص٢٩٤ - ٢٩٧).

(٤) المرقبة العليا، ص١١٦.

(٥) ابن الأبار : التكملة، جـ١، ص١٠٢، ١٩٤، جـ٢، ص٥٨٦؛ ابن سعيد : المغرب، جـ٢، ص١٢٠؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة، س٦، ص١٠٩، ١٦٨؛ ابن الزبير : صلة الصلة، ص٢٦؛ ابن الخطيب : الإحاطة " نصوص جديدة " ص١٠٣.

(٦) رسائل أبي المطرف بن عميرة، ورقة ٧٠.

وقعة العقاب... فلما رأى المسلمين ولوا الأدبار ، وأباحوا أكتافهم الكفار ، استقبل العدو بوجهه ، ومضى قُدُماً حتى استشهد رحمه الله " . قال ابن الخطيب [١] عن محمد بن حسن الأنصاري " توفي شهيداً محرضاً صابراً " ، وقال ابن عبد الملك المراكشي [٢] في حقه " وذُكر عنه من الثبوت ذلك اليوم ، وطلب الشهادة ، والحض على الجهاد ما دل على إخلاصه وصدق يقينه " ، أما النباهي [٣] فقد أشاد بموقفه في تلك المعركة بقوله " وذُكر عنه من الثبات والحض على حصول الشهادة ، والرغبة في المجاهدة ما دل على حسن نيته ، وصدق بغيته " .

وعلى صعيد آخر فلقد اهتبل النصارى نصرهم على المسلمين في العقاب وهاجموا ما يليهم من مدن إسلامية[٤]، فكانت مدينة أُبَّذَة☆ إحدى هذه المدن[٥] وقد قاوم أهلها الهجوم النصراني حتى قتل منهم جمع كبير، وأسر آخرون[٦]، فكان في هؤلاء المأسورين قاضي المدينة أبو الحسن بن قطرال☆☆

---

(١) الإحاطة ، جـ٣ ، ص٧٥ . وانظر ابن فرحون : الديباج ، جـ٢ ، ص ٢٨٤ .

(٢)الذيل والتكملة ، س٦ ، ص١٦٨ .

(٣) المرقبة العليا ، ص١١٥ .

(٤) المراكشي : المعجب ، ص٤٠٢ .

☆ مدينة أُبَّذَة Ubeda إحدى المدن التابعة لكورة جيان ، تعرف بأبذة العرب (ابن غالب : فرحة الأنفس ص١٥ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٦٤) على مقربة من نهر الوادي الكبير ، تقع إلى الشرق من مدينة بياسة (الإدريسي : صفة المغرب ، ص ١٩٦ ، ٢٠٣) بينهما مسافة خمسة أميال (الحميري: صفة جزيرة الأندلس ، ص١١ ؛ مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، ص٤٦) وما زالت أبذة تضم بعض الآثار الإسلامية (عنان : الآثار الأندلسية ، ص٢٣٠) .

(٥) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص٢٤٠ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص١١ .

(٦) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص١١ .

☆☆ أبو الحسن بن قطرال هو علي بن عبد الله بن محمد الأنصاري ولد عام ٥٦٢هـ/١١٦٦م . كان –

(ت١٥٦هـ/١٢٥٣م) [١] فبقي في الأسر عند النصارى مدة إلى أن نجح أحد رجال الدولة الموحدية في إطلاقه [٢] ، فعاد كرة أخرى يزاول القضاء وما يتصل به إلى آخر يوم من عمره [٣] .

وهكذا انحصرت الغزوات التي خبرتنا المصادر بأسماء العلماء الذين أسهموا فيها بالجهاد ضد نصارى قشتالة في ست غزوات ، ثنتين منها في زمن المرابطين ، وهما أقليش وطلبيرة ، وأربع في زمن الموحدين وهي : وبذة والأرك وشلبطرة والعقاب .

☆ ☆ ☆

٢ - مشاركتهم في الغزوات ضد إمارة برشلونة (قطالونيا) .

عرفنا سابقاً أن برشلونة (قطالونيا) تقع في الركن الشمالي الشرقي من الأندلس ، وأنها كانت تابعة للفرنجة في فرنسا، ثم انفصلت عنهم،

= محدثاً راوية ، فقيهاً حافظاً ، كاتباً بليغاً ، له عناية بالأدب ، تولى قضاء عدد من المدن الأندلسية والمغربية ، وتوفي في ربيع الأول أو جمادي الأولى سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م في مراكش (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٦٨٣ - ٦٨٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٨، ق١ ، ص١٥٤ - ١٥٩ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص١٣٨ - ١٣٩ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٤ ، ص ١٩٠ - ١٩١ ؛ مخلوف : شجرة النور ، ص١٨٣) .

(١) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٦٨٣ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٨ ، ق١ ، ص١٥٦ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٤ ، ص١٩١ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٨ ، ق١ ، ص١٥٦ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٤، ص١٩١ .

(٣) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٦٨٣ - ٦٨٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٨ ، ق١ ، ص١٥٦ .

وصارت إمارة مستقلة ، ومنذ أوائل القرن الخامس الهجري – الحادي عشر الميلادي – أخذت رقعة هذه الإمارة في الاتساع ، وكان أميرها حين خضعت الأندلس للمرابطين هو رامون برنجير الثالث (٤٨٥هـ/١٠٩٢م – ٥٢٥هـ/ ١١٣١) (١) .

ولقد أسهم علماء الأندلس في جهاد برشلونة ، من ذلك ما حدث عام ٥٠٨هـ/١١١٤م حينما حشد والي سرقسطة المرابطي محمد بن الحاج(٢) جيشاً كثيفاً ، وانطلق للجهاد في أراضيها (٣) ؛ إذ خف معه نفر من العلماء ، كان في جملتهم أبو جعفر بن ثابت العوفي☆ من سرقسطة (٤) ، وأبو الوليد ابن قبروق☆☆من بلنسية (٥) .

توغل الجيش الإسلامي في عمق هذه الإمارة النصرانية ، وأحرز انتصارات رائعة ، فغنم المسلمون وسبوا حتى تجمع لديهم من ذلك قدر كبير. وعند الرجوع من تلك البلاد قسم ابن الحاج جيشه إلى قسمين ، القسم الأعظم ومعه المغنم تركه يسلك الطريق المعروف الموصل إلى أرض المسلمين .

---

(١) انظر التمهيد من هذا الكتاب .

(٢) سبق التعريف به .

(٣) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص١٦٠ ؛ وانظر الناصري : الاستقصا ، جـ٢ ، ص٥٨ .

☆ أبو جعفر أحمد بن ثابت بن عبد الله بن ثابت العوفي ، من أهل سرقسطة ، برز في الفقه حتى وصف بالفقيه . توفي في ربيع الأول سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م (ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٢٩ ، ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص ٧٧ – ٧٨) .

(٤) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٧٧ .

☆☆ أبوالوليد بن قبروق هو يحيى بن محمد الأموي، أصله من لاردة، سكن شاطبة، ثم ولي القضاء بها وبعد ذلك انتقل إلى بلنسية . وقد توفي في ربيع الأول سنة٥٠٨هـ/١١١٤م (ابن الأبار: المعجم، ص٣٢٢).

(٥) ابن الأبار : المعجم ، ص٣٢٢ .

أما القسم الآخر وهو بقية الجيش فقد قاده هو بنفسه في طريق البرية [١] الذي كان – فيما يبدو – مختصراً [٢] ، ولكنه كان في الوقت ذاته جبلياً " لا يسلك إلى عن طريق واحد ، لصعوبته ، وشدة وعره " كما يعبر عن ذلك ابن أبي زرع [٣] . فكان في صحبته في هذه المغامرة العالمان اللذان سبقت الإشارة إليهما[٤] . وهنا وجدها النصارى فرصة للإيقاع بهذا الفريق، فكمنوا له وسط الطريق[٥] ، وأطبقوا عليه في موضع يسمى " البورت "[٦]☆، ومعناها بالعربية الباب [٧] . وبعد قتال عنيف قُتِلَ محمد بن الحاج وجماعته من المتطوعة[٨] . وقد ذكر ابن الأبار[٩] أنهم قتلوا " في نحو الثلاثين من العرب وعشرين من الفرسان والأندلسيين ، ومائتي راجل وعشرين راجلاً قتلوا قبل ابن الحاج... " فكان في هؤلاء القتلى أبو جعفر بن ثابت العوفي [١٠] ،

---

(١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص١٦٠ – ١٦١ ؛ الناصري : الاستقصا ، ص٥٨ .

(٢) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص٢٤ .

(٣) الأنيس المطرب ، ص١٦١ .

(٤) ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٢٩ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ،ق١ ، ص٧٨ .

(٥) ابن أبي زرع : الأنيس المطر ب ، ص١٦١ .

(٦) ابن الأبار : المعجم ، ص٥٤ ، ٣٢٢ ؛ التكملة ، جـ١ ، ص٢٩ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٧٨ .

☆ تعرف هذه الموقعة عند المؤرخين النصارى باسم كونجست دي مارتوريل Congost de Martorell(ميراندا : علي بن يوسف ، ص١٦٨ ؛ حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص٢٤ ؛ محمود علي مكي : وثائق تاريخية جديدة ، ص١٢٩) .

(٧) ابن الأبار : المعجم ، ص١٣٨ .

(٨) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص١٦١ .

(٩) التكملة ، جـ١ ، ص٢٩ .

(١٠) ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٢٩ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٧٨ .

وأبو الوليد ابن قبروق [١]. ويبدو أنهما ما قتلا إلا بعد أن قاتلا النصارى بشدة ، وأرخصا نفسيهما في قتالهم ، وأبليا البلاء الحسن يشهد بذلك أنهما آثرا مرافقة الطائفة المختارة من الجيش التي غامرت بالسير في طريق وعر المسلك ، صعب المرور. وقد حدث كل هذا في ربيع الأول سنة ٥٠٨هـ/ ١١١٤م [٢].

هذه المعركة هي كل ما وجدناه حول المشاركة الصريحة لعلماء الأندلس في جهاد هذه الإمارة التي ما لبثت في سنة ٥٣١هـ / ١١٣٧م أن اتحدت مع مملكة أرغون [٣] الآتي الحديث عنها بعد .

☆ ☆ ☆

٣ - مشاركتهم في الغزوات ضد مملكة أرغون :

ظهرت أرغون بصفتها مملكة مستقلة من ممالك إسبانيا النصرانية في أواخر الثلث الأول من القرن الخامس الهجري -الحادي عشر الميلادي - كما سلفت الإشارة -، وقد اتسعت رقعتها على حساب ما حولها من بلاد☆. وعند استيلاء المرابطين على الأراضي المصاقبة لأملاكها في شرقي الأندلس كان ابن ردمير (الفونسو الأول أو المحارب) (٤٩٨هـ/١١٠٥م - ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م) يتربع على عرشها ☆☆ .

---

(١) ابن الأبار : المعجم ، ص٣٢٢ .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٢٩ .

(٣) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق١ ، ص٥٠٢ ؛ هشام أبو رميلة : علاقات الموحدين بالممالك النصرانية ، ص٣٢٠ .

☆ انظر التمهيد من هذا الكتاب .

☆☆ انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب .

ولقد دارت بين المسلمين ونصارى أرغون وقائع عديدة إبان عصري المرابطين والموحدين ☆ ، فكان العلماء الأندلسيون في جملة الشاهدين لتلك الوقائع ، الخائضين لغمارها. فلقد ثبت أن أبا علي الصدفي (ت٥١٤هـ/ ١١٢٠م) وأبا عبد الله بن الفراء☆☆ (ت٥١٤هـ/١١٢٠م) وأبا بكر بن العربي (ت٥٤٣هـ/١١٤٨م) حضروا موقعة كُتُنْدَة☆☆☆ عام ٥١٤هـ/١١٢٠م [١] وكان سببها أن الفونسو المحارب لما سيطر على سرقسطة عام ٥١٢هـ/ ١١١٨م ، وجعلها عاصمة له☆☆☆☆ شرع في احتلال المدن الإسلامية الكائنة إلى الجنوب منها [٢] حتى وصل كتندة ، وضرب عليها الحصار [٣] ، فتعالت الصيحات ، وتوالت الصرخات ، مطالبة بجهاد هذا العدو ، ودرء خطره [٤] . فأمر حاكم المرابطين حينذاك علي بن يوسف بن

☆ انظر التمهيد من هذا الكتاب .

☆☆ رسم في بعض المصادر بـ ابن الفرج (المقري : أزهار الرياض ، جـ٣ ، ص١٥٣) ولكن الصحيح الذي اعتمدته المصادر هو ما اثبتنا رسمه في المتن أي ابن الفراء ، ومن الواضح أن ابن الفرج تحريف لابن الفراء .

☆☆☆ كُتُنْدَة أو قُتُنْدَة Cutanda من حيز دَرُوقَة التابعة لكورة سرقسطة (ابن الأبار : المعجم ، ص٤ ؛ المقري : أزهار الرياض ، جـ٣ ، ص٥٣ ، نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٤٦٠) إلى الجنوب الشرقي من قلعة أيوب (أحمد بدر : تاريخ الأندلس ، ص٢٤٢) في الطريق بين سرقسطة وبلنسية (الإدريسي : صفة المغرب ، ص١٩١) وتقع الآن ضمن مديرية تيروال الحالية في إسبانيا (حسين مؤنس : شيوخ العصر ، ص٩٤) .

(١) المقري : أزهار الرياض ، جـ٣ ، ص١٥٣ ، ١٥٤ .

☆☆☆☆ انظر التمهيد من هذا الكتاب .

(٢) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص١٦٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص٥٨٦ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٥٠١-٥٢٠هـ) ص٢٨٥ .

(٤) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص١٦٣ .

تاشفين [١] (٥٠٠هـ/١١٠٦م-٥٣٧هـ-١١٤٢م) عماله في الأندلس بالخروج لجهاد العدو الأرغوني وكبح جماحه ، وأهاب بالأندلسيين للالتحاق بالجموع المرابطية [٢] . وجعل القيادة العامة لأخيه أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين [٣] .

سارع رجال العلم بالاستجابة لداعي الجهاد ، فقدم أبو عبد الله بن الفراء من المرية في جنوبي الأندلس ، إذ كان في ذلك الوقت على رأس القضاء بها [٤]☆ . وخف أبو علي الصدفي من مرسية في شرقي الأندلس للجهاد [٥] . ومن فَرَطِ إقباله على جهاد الأعداء ، وتوطينه لنفسه على القتل في سبيل الله أوصى وصية من لا يفكر بالعودة من ميدان المعركة إلى أهله ، فعند توديعه لابنته☆☆ الصغيرة التي كانت في سن الرضاعة أوصى بعدم تعجيل فطامها[٦]،

---

(١) يروي ابن الأثير أن علي بن يوسف بن تاشفين كان سنة ٥١٤هـ/١١٢٠م في قرطبة ، فسير الجيوش منها إلى محاربة النصارى (الكامل ، جـ١٠ ، ص٥٨٦) وهذا يخالف المصادر المغربية التي تحدد عبور علي بن يوسف إلى الأندلس في ربيع الأول من العام التالي (ابن عذاري : البيان ، جـ١ ، ص٣٠٨ ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص ٨٦) .

(٢) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٠٣ (نقلاً عن ابن عذاري : أوراق مخطوطة من البيان) .

(٣) المقري : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٤٦١ .

(٤) ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٥٧٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص٥٨٦ .

☆ وقد ورد سؤال عن رجل من مدينة المرية شهد موقعة كتندة (ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ٣ ، ص١٤٢٩) وهذا ينبيء أن رجالاً من المرية شهدوا تلك الموقعة غير أبي عبد الله بن الفراء .

(٥) عياض : الغنية ، ص١٩٤-١٩٥ ؛ ابن بشكوال : الصلة ، جـ١ ، ص١٤٥-١٤٦ .

☆☆ اُختلف في اسمها فسماها ابن الأبار : خديجة (التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٧٤٧) بينما سماها ابن عبد الملك المراكشي : فاطمة (الذيل والتكملة ، س٨ ، ق٢ ، ص٤٨٩) .

(٦) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٨٤٢ ؛ ابن عبدالملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٨ ، ق٢ ، ص٤٨٩ .

وقال : " سِنُّوا بها سنة الاحترام ، ولا تجمعوا لها بين اليتم والفطام " [١] . كما أوصى بإعتاق بعض مماليكه [٢] ، وبهذا الفعل من أبي علي الصدفي انكشف لنا ماكان يختلج في نفوس بعض رجال العلم الأندلسيين عند عزمهم على الخروج إلى قتال النصارى . ومن ناحية أخرى لوحظ على أبي علي استغلاله لوقته وهو في الطريق إلى الجهاد في التدريس ونشر العلم بين الناس ، فالعديد من الطلاب استمعوا إليه -مثلاً- في مدينة شاطبة التي مر عليها غازياً إلى كتندة [٣] . وبعمله هذا -أيضاً- ضرب أزكى مثال للعالم المسلم العامل الذي يصرف ساعات عمره في جهاد مستمر ، متعدد الميادين " ينتقل فيه من واحد إلى آخر ، لذا قام من مجلس الدرس حيث يقيم ليتسلم مقبض السيف حيث يجول ، نوع آخر من الدروس، وكله في سبيل الله الواحد سبحانه وتعالى" [٤]. أما أبو بكر ابن العربي فيبدو أنه نهض للغزو من بلده إشبيلية☆ مع واليها أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف الذي أسندت إليه القيادة العامة للجيش المرابطي النافر إلى كتندة كما سبق ذكره .

ومما يستلفت النظر أن حشوداً كبيرة من المتطوعين نفروا للجهاد في هذه الغزوة ، فأربى عددهم عن العشرين ألفاً [٥] ؛ فكانوا بذلك أكثر عدداً

---

(١) ابن الأبار : المعجم ، ص ١٩٧ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) انظر أمثلة في ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٤٣٣ ؛ جـ٢ ، ص٤٧٢ ، ٩٣٣ ؛ المعجم ، ص٥٧-٥٨ ، ٦٧ ، ٩٦ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٣٦ ، ١٥٦ ، ١٧٦ ، ٢٠٦ ؛ ٢٥٤ ؛ ٢٧٩ .

(٤) الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص٤٣١ .

☆ إذ كان في ذلك الوقت يعيش في إشبيلية ، انظر الفصل الأول من هذا الكتاب .

(٥) ابن الأبار : المعجم ، ص ٤ ؛ المقري : أزهار الرياض ، جـ٤ ، ص١٥٤ .

– فيما يظهر – من الجند النظامي [(١)] ، ويرجح أن خروج هذا العدد الهائل من المتطوعين حصل بتأثير أبي علي الصدفي [(٢)] ؛ فهو أولاً كان يحتل مكانة علمية واجتماعية سامقة ليس في مرسية فقط بل في الأندلس بأسرها[☆] ، وخروجه إلى هذه الغزوة بحد ذاته دعوة لمحبيه وتلامذته ومَنْ إليهم للاقتداء به والخروج معه إلى الجهاد ؛ وثانياً لا يستبعد أن يكون أبو علي قد حث على البروز للجهاد مع أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين الذي نصب قائداً عاماً للجيش، وذلك لمعرفته به قبلاً ، واطلاعه على جانب من أحواله وأخلاقه ، إذ كان إبراهيم أيام ولايته على مرسية قد تتلمذ على يدي أبي علي ، فعد من أصحابه[(٣)] . وقد ظلت الصلة بين الاثنين وطيدة حتى بعد أن نُقل إبراهيم إلى ولاية إشبيلية [(٤)] .

وبوصول الجيش المرابطي إلى كتندة تقدم المتطوعة فيه – وعلى رأسهم العلماء – للالتحام بالجيش النصراني ، فنشبت في يوم الخميس الثامن عشر[☆☆]

(١) حسين مؤنس : شيوخ العصر ، ص٩٤ .

(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

☆ انظر الفصل الأول من هذا الكتاب .

(٣) ابن الأبار : المعجم ، ص٥٥ .

(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها ، وانظر الفصل الأول من هذا الكتاب .

☆☆ اتفقت معظم الروايات على نشوب المعركة في ربيع الأول من سنة ٥١٤هـ/١١٢٠م وأنه في يوم خميس منه ، ثم اختلفت في تاريخه من هذا الشهر ما بين الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين والرابع والعشرين (ابن الأبار : المعجم ، ص ٤ – ٥ ؛ المقري : أزهار الرياض ، جـ٣ ، ص١٥٣-١٥٤) وبالرجوع إلى التقويم نجد أن أيام الخميس في ربيع الأول من ذلك العام توافق : ٤ ، ١١ ، ١٨ ، ٢٥ (محمد مختار باشا : التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الفرنجية والقبطية ، تحقيق محمد عمارة ، ط . الأولى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠ ، جـ١ ، ص٥٤٦) ومن الملاحظ أن الرواية القائلة بوقوع المعركة في يوم الخميس الثامن عشر من ربيع الأول تتطابق مع تاريخ أحد أيام الخميس الواردة في التقويم ، فكان ذلك مرجحاً لاعتمادها في المتن .

من ربيع الأول سنة ٥١٤هـ/١١٢٠م معركة حامية بين الجانبين ، تحمل فيها أولئك المتطوعة عبء القتال ، فأبلوا البلاء الحسن . بيد أن الهزيمة في الأخير حاقت بهم ، وقتل معظمهم☆ ، بينما ارتد الجند النظامي مفلولاً إلى مدينة بلنسية دونما مشاركة تذكر في القتال (١) .

ولا شك أن مبادأة المتطوعة بقتال العدو، وجريان هذه المقتلة الرهيبة☆☆ عليهم ليدل دلالة ساطعة على حماسهم للجهاد في سبيل الله ، والذي لابد أنه استجاش في نفوسهم بأثر من مواعظ العلماء الذين كانوا يرافقونهم . ويظهر أن القيادة في الجيش المرابطي قدرت عدم جدوى الاستمرار في المواجهة مع القوات النصرانية عقب حدوث تلك المقتلة المفجعة، ففضلت الانسحاب من الميدان للحفاظ على بقية أرواح المسلمين .

وعلى أي حال فقد أصيب في هذه الموقعة عدد من العلماء(٢)، فكان

☆ من الغريب أن يُرجح ميكال دي إبلزا هزيمة المسلمين في وقعة كتندة إلى انضمام المطوعة للجيش النظامي ، فالمطوعة – في نظره – ليس لهم هدف إلا الاستشهاد ، فجماهيرهم – حسب رأيه – أفسدت " الخطة الدفاعية والجدوى الهجومية في صفوف الجيش الإسلامي " (الرباط والرابطات في الأسماء والآثار الإسبانية ، تعريب الحسين اليعقوبي ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ١٣ ، شعبان ١٤١٥هـ ، ص٨٥) .

(١) ابن الأبار : المعجم ، ص٤–٥ ؛ المقري : أزهار الرياض ، جـ٣ ، ص١٥٤ ؛ نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٤٦٠-٤٦١ .

☆☆ ولقد كانت لهذه المقتلة صدى في كتب الفتاوى ، إذ ورد على ابن رشد سؤال من نساء فقدْنَ أزواجهن لا يَعرفن مصيرهم أهم قتلوا أو أسروا (ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ٣ ، ص١٣٩٦ ، ١٣٩٩) كما ورد أيضاً سؤال آخر عن أرث رجل فُقِدَ في تلك الموقعة (المصدر السابق ، ص١٤٢٩) .

(٢) شعيرة : المرابطون ، ص١٤٩ .

من ضمن الذين فقدوا أبو علي الصدفي [(١)] وأبو عبد الله بن الفراء [(٢)]☆.
وبالنسبة لأبي بكر بن العربي فقد نجا في جملة من نجوا من تلك النكسة المؤلمة، ولكن بعد أن خسر كل ما خرج به من سلاح ومتاع وعدة ، يتضح ذلك من رده حين سُئل عن حاله بعد الوقعة ، قال " حال من ترك الخباء والعباء " [(٣)] ، " وهذا مثل – كما يقول المقري – [(٤)] عند المغاربة يُقال لمن ذهبت ثيابه وخيامه ، بمعنى أنه ذهب جميع ما لديه " ، وقوله هذا يُلهم أنه باشر القتال بنفسه ، ولم يبارح ميدان المعركة إلا بعد أن بذل كل ما في طاقته من مبارزة وكر وفر☆☆ .

☆ ☆ ☆

ولقد شارك العلماء في غزوة ضد النصارى على الثغور الشرقية

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ، جـ١ ، ص١٤٦ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٣١٠ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٥٠١-٥٢٠) ص٣٦٩ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة، س٨، ق١ ، ص١٥٩ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٢ ، ص٩٢ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٥٧٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص٥٨٦ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٥٠١-٥٢٠) ص٣٧٧ .

☆ ذكر الضبي أن الفقيه المحدث أبا زيد عبد الرحمن بن فتح اللخمي الذي صحبه أبو علي الصدفي وروى عنه كثيراً قد توفي شهيداً في سنة ٥١٤هـ / ١١٢٠م (بغية الملتمس ، ص٣٧٠) فهل رَبْطُ وفاته بالشهادة وفي السنة نفسها التي جرت فيها موقعة كتندة يعني أنه كان من ضمن المفقودين فيها ؟ .

(٣) ابن الأبار : المعجم ، ص٥ ؛ المقري : أزهار الرياض ، جـ٣ ، ص١٥٤ .

(٤) نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٤٦١ .

☆☆ ولعل أبا بكر بن العربي قصد هذه المعركة حينما قال " ولقد سريت الليل كله فراراً من العدو مهموماً مغموماً من هزيمة كبيرة ، وحثت حصناً على اليوم التالي ... وكان لي يوم وليلة لم آكل ولم أنم ..." (عارضة الأحوذي ، جـ٨ ، ص١٩٤) .

للأندلس في زمن المرابطين وهي غزوة كُولْيَة☆ التي قادها الأمير المرابطي أبو بكر بن علي ابن تاشفين☆☆ سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م . حيث وقفنا على ذلك في غضون خبر مفاده أن أبا عيسى بن وَرَهْزَن☆☆☆ (ت ٥٣٨هـ/١١٤٣م) " سمع ... القاضي أبا بكر بن العربي ، لقيه بكولية من الثغور الشرقية حين غزاها مع الأمير أبي بكر بن علي بن يوسف بن تاشفين في جمادي الآخرة سنة اثنين وعشرين وخمسمائة " [1] . ولنا وقفات حول هذه الغزوة :

الوقفة الأولى : أفاد الخبر آنفاً أن كولية من الثغور الشرقية ، ولم نهتدِ إلى مكانها حسبما تحت أيدينا من مصادر ، ولكن ورد أن أحد طلبة

☆ كُولْيَة ثمة بلد اسمه قولية بالقاف ، وهو من عمل بسطة (المراكشي : المعجب ، ص ٤٥٥ ؛ ابن سعيد: المغرب ، جـ٢، ص٥٠ ، ٨٧ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٦٦) وكما جاء في المتن أن كولية من الثغور الشرقية ، وبسطة وما يلحق بها كانت وقت الحادثة التي تتكلم عنها في وسط بلاد المسلمين، ولذا فمن المستبعد أن تكون قولية هي كولية . وسنحاول في المتن تحديد مكان هذه البلدة ولو بالتقريب .

☆☆ أبو بكر بن علي بن يوسف بن تاشفين ، يلقب ببكور ، وكان ذا حدة ونجدة (مجهول : الحلل الموشية، ص٨٤) ولي حكم إشبيلية في محرم سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م ثم عزل عنها في رجب سنة ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م (ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص١٠٦) وذلك بسبب اعتراضه على البيعة لأخيه سير بولاية العهد ، وقد غرب إلى الصحراء مكبولاً ، ثم شارك في الحرب ضد الموحدين (ابن القطان: نظم الجمان ، ص١٤٩ ، ١٥٧) وفي سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م أمر والده علي بن يوسف بسجنه في الجزيرة الخضراء ، ولكنه ما لبث أن هلك في سجنه (ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص١٠١) لمعرفة أخباره انظر : محمود علي مكي : وثائق تاريخيه جديدة ، ص١٣١-١٣٢ ، ١٣٣-١٣٩ ؛ حسين مؤنس : سبع وثائق حديدة ، ص٦٨ - ٧٠) .

☆☆☆ أبو عيسى بن وَرَهزن هو : لب بن عبد الجبار بن عبد الرحمن ، من أهل شَنْتَمَرِيَّة الشرق ، كان فقيهاً، ولي القضاء في بلده وغيرها . وتوفي سنة ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م (ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٣٥٠ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق٢ ، ص٥٧٧-٥٧٨) .

(١) ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٣٥٠ ؛ ابن عبد الملك المراكشي :الذيل والتكملة ، س٥ ، ق٢ ، ص٥٧٧-٥٧٨ .

العلم سمع من أبي بكر بن العربي" مقدمه على بلنسية غازياً في سنة اثنين وعشرين"[1] [وخمسمائة] . فالاحتمال كبير جداً أن الغزوة التي مر فيها أبو بكر بن العربي على بلنسية ما هي إلا غزوة كولية ، إذ هما متوافقتان في السنة، فكلاهما في سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م ؛ فضلاً عن كون بلنسية تعد من البلاد الشرقية في الأندلس الموالية لبلاد العدو [2] . وحيث أن ابن ردمير (الفونسو المحارب) ملك أرغون قد جد في الاستيلاء على الثغر الأعلى الأندلسي والأراضي الواقعة إلى جنوبه عقب هزيمة المسلمين في كتندة [3] فلا يستبعد أن تكون كولية من الحصون الثغرية الكائنة إلى الشمال من بلنسية أو قريبة منها ، يعزز هذا أن الأراضي المحيطة ببلنسية وما يوصل إليها من طرق وصارت بعد غزو المسلمين لكولية مسرحاً لغارات الملك الأغوني وهجماته[4].

الوقفة الثانية : ورد في حوادث سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م أن أبا بكر بن علي بن يوسف بن تاشفين قصد حصناً للنصارى في شرقي الأندلس كانوا قد تملكوه غدراً ، فحاصره حتى دخله عنوة ، ثم صدر عنه بعد أن ثقفه بالرجال والسلاح [5] . وبالمقارنة بين ما جاء في هذا الخبر وبين ما سقناه آنفاً

---

(١) ابن الأبار : المعجم ، ص٢٩٨ .

(٢) المراكشي : المعجب ، ص٤٥٤ .

(٣) حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسي ، ص٢٩ ؛ عبد الواحد شعيب : دور المرابطين في الجهاد بالأندلس ، ط . الأولى ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، طرابلس ، ليبيا ، ١٩٩٠م ، ص١٢٨ .

(٤) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق١ ، ص١١٧-١٢٢ ؛ حمدي عبد المنعم : تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، ص١٩٩-٢٠٢ .

(٥) ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص٧٧ ؛ وانظر : عبد الواحد شعيب : دور المرابطين في الجهاد بالأندلس، ص١٣٨ ، حاشية " ٢ " .

عن غزوة كولية☆ يظهر لنا وكأنهما خبران لحادثة واحدة ، فكلاهما في سنة ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م ، والقائد فيهما هو أبو بكر بن علي بن يوسف ، وجهة الغزوة تقع في شرقي الأندلس ، فيكاد أحد الخبرين يفسر ما أُبهم في الآخر.

الوقفة الثالثة: إن سماع أبي عيسى بن ورهزن العلم علي أبي بكر بن العربي في كولية يثبت جهاد الاثنين في تلك الغزوة ، فالأول وفد للمشاركة فيها من بلده شَنْتَمَرِيَّة الشرق☆☆ (١) ، والثاني قدم مع القائد المرابطي من بلده إشبيلية☆☆☆ ، ثم إن هذا السماع يعني أن أبا بكر بن العربي قد لازمه طائفة من طلبة العلم في غزوة كولية للأخذ عنه ، والاستفادة من علمه ،

☆ توجد رسالة كتبها ابن حسان عن أبي عبد الله بن ورقا إلى القاضي ابن عبد العزيز يبشره بفتح حصن اسم كواليه ، ويشرح فيها الطريقة التي تم فيها ذلك الفتح ، وهي مؤرخة بيوم الجمعة الرابع عشر من جمادي الآخرة سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م (حسين مؤنس : نصوص سياسية ، ص١٢١-١٢٢) وقد ساقها محمود علي مكي على أنها تخص غزوة كولية التي نتحدث عنها (ابن القطان : نظم الجمان ، ص١٥٢-١٥٣ ، حاشية) ونحن إذا تأملنا تاريخ كتابتها سواء الشهر أو السنة وجدناه بالفعل هو تاريخ وقوع غزوة كولية . ثم إن رسم كواليه يكاد يكون هو نفسه رسم كولية ، وربما تطابقا عند النطق بهما .

☆☆ شَنْتَمَرِيَّة الشرق ، وتسمى أيضاً السهلة أو سهلة بني رَزِين . تقع إلى الشرق من مدينة وادي الحجارة (ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص٧١ ، حاشية) فالجغرافيون المسلمون يعدونها من مدن شرقي الأندلس (أبو الفداء : تقويم البلدان ص١٦٨) وهي إلى الشمال من بلنسية على مسافة مائة وعشرة أميال (الإدريسي : أنس المهج ، ورقة ١٥٧) وتعرف اليوم في إسبانيا بالبراثين Albarracin في مديرية ترويل (أرسلان : الحلل السندسية، جـ٢ ، ص١٠٠ ؛ حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية ص١٠٤) .

(١) ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٣٥٠ .

☆☆☆ حيث كان أبو بكر بن علي بن يوسف قائد الغزوة في ذلك الوقت لا يزال على رأس العمل في ولاية إشبيلية (ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص١٠٦) .

وهؤلاء الطلبة لابد وأنهم سيحضرون الغزوة مع شيخهم ، وهذا التوقع – إن صدق – معناه أن عدداً من أهل العلم غير ابن ورهزن وشيخه أبي بكر ابن العربي شهدوا غزوة كولية .

ومن المفيد أن نشير إلى ما أخبرنا به أبو بكر بن العربي [1] عن نفسه من حضوره غزوة مع المسلمين ، وأنهم حاصروا بلدةً من بلدان النصارى☆ فلما كادوا ييأسون منها يسر الله لهم فتحها " ومَنَّ الأمير على مَنْ كان بها ، فخرجوا إلى بلادهم " حسب تعبيره . ومن الجائز أن تكون هذه البلده التي قصدها أبو بكر بن العربي هنا هي كولية التي نتحدث عنها .

☆ ☆ ☆

وبعد موقعة كولية تُعْرِضُ مصادرنا عن تدوين أي إشارة لعلماء أندلسيين خرجوا في الغزوات الإسلامية ضد مملكة أرغون حتى إذ ما وصلنا إلى أواخر عصر الموحدين أفصحت لنا تلك المصادر عن مشاركة لهم في غزوة أَنيشَة☆☆ عام ٦٣٤هـ/١٢٣٧م . ذاك أن الملك النصراني جايمش بن

---

(١) قانون التأويل ، ص١٣٩ – ١٤٠ .

☆ كما ذكر أبو بكر بن العربي في موضع آخر أنه شارك في حصار مدينة من مدن الروم (أحكام القرآن: ق٤ ، ص١٧٠٨) .

☆☆ أَنيشَة أو أَنيجة : موضع من عمل بلنسية (الرعيني : برنامج شيوخ الرعيني ، ص٧٠ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص٣٢) إلى الشمال منها (عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق٢ ، ص٤٤٠ ؛ الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص٤٧٤) على بعد سبعة أميال (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص٨٩) ويسمى مكانها بالإسبانية البويش elbuig (ابن الأبار : الحلة ، جـ١ ، ص٣٤ من المقدمة) .

بطرة (خايمي الأول)☆ حاكم أرغون وبرشلونة المتحدتين جرد نفسه لحرب المسلمين[١] ، فاحتل ما استطاع من جزائر الأندلس الشرقية (البليار)[٢]، كما شرع منذ سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م في تنفيذ مخطط لاحتلال ما يلي بلاده من أراضٍ إسلامية في شرقي الأندلس ، وأسبغ على ذلك صبغة صليبية ، فكانت بلنسية مطمعه الرئيس [٣] . ولخنقها ومن ثم التغلب عليها بعث جماعات من جيشه للاستيلاء على قراها وحصونها الشمالية[٤]. ونظراً لكون حصن أنيشة القريب منها يربض على جبل مرتفع [٥] الأمر الذي جعل موقعه منيعاً وفي الوقت ذاته مشرفاً على مروج بلنسية ومرافقها فقد فطن حاكمها أبو جُميل زيان بن مردنيش إلى خطورة سقوطه بأيدي النصارى ، فعمد إلى هدمه[٦] . غير أن جايمش (خايمي) احتل مكانه، وابتناه من جديد، ثم اتخذه

☆ خايمي الأول Jaime I تسميه المصادر الإسلامية جايمش بن بطرة (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢، ص٣٣٧ ؛ الإحاطة ، جـ١، ص٣٨٣ ؛ اللمحة البدرية ، ص٤٧) أو حاقم البرشلوني (ابن الأبار : الحلة ، جـ٢ ، ص١٢٧) كان عند وفاة والده في عام ٦١٠هـ/١٢١٣م طفلاً حدثاً ، فحكم مملكة أرغون وبرشلونة في البداية بوصاية أحد الفرسان عليه ، وقد جرت محاولات لأخذ الحكم منه ، لكنه في الأخير تغلب على منافسيه ، وظل في الحكم حتى وفاته عام ٦٧٥هـ/١٢٧٦م وفي عهده الطويل تضاعفت رقعة مملكته بشكل واسع على حساب المسلمين ، فلقبه قومه بالفاتح (أشباخ : تاريخ الأندلس، ص٣٨٣ ، ٤١٤-٤٢٦ ؛ عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق٢ ، ص٦٠٥ - ٦٠٧ ؛ Jose Terreo : op . cit . , p . ١٢٨-١٢٩ , ١٣١)

(١) أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص٤١٧ .

(٢) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص٢٧٥ ، ٢٧٦ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص١٩١ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٤٦٩ .

(٣) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق٢ ، ص٤٣٩ .

(٤) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص٣٨٥ .

(٥) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص٣٢ .

(٦) عنان: عصر المرابطين والموحدين، ق٢،ص٢٤٠،٢٤٢،محمد أبوالفضل:شرق الأندلس،ص٢٠٧-٢٠٨.

قاعدة [١] للإغارة والعيث في منطقة بلنسية [٢] . ولقد ضاق المسلمون ذرعاً بالأعمال النصرانية المخربة المنطلقة من هذا الحصن فقرر أبو جميل انتزاعه منهم، فاستنفر المسلمين للجهاد ، فتوافدوا عليه من مدن الأندلس الشرقية مهطعين [٣] . فكان في طليعة هؤلاء جماعة من علماء بلنسية وفضلائها وصلحائها، وعلى رأسهم أبو الربيع سليمان الكَلاعي (ت٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م) [٤] .

ويرى أحد الكتاب [٥] أن الخروج لمجاهدة الأرغونيين في أنيشة لا يمكن أن يكون صاحب القرار فيه حاكم بلنسية زيان لأنه في ذلك الآوان كان يفاوض الملك الأرغوني ليستجلب رضاه ، ولذا فمن المرجح – حسب رأيه – أن القرار قد انبعث من أهل بلنسية وشيخهم أبي الربيع الكلاعي .

ومهما تكن الحال فقد زحف الجيش الإسلامي، واصطدم بالنصارى عند أنيشة في ضحى يوم الخميس العشرين من ذي حجة عام٦٣٤هـ/١٢٣٧م [٦] حيث اختلط الفريقان في قتال شديد ، فانكشف المسلمون أمام عدوهم [٧]، وفي تلك اللحظات الحرجة هب أبو الربيع الكلاعي " وحرض المسلمون وقد اختلوا عن قتال عدوهم ، ورغبهم في مكافحته " حسبما يقول ابن عبد الملك

(١) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص٣٨٥ .
(٢) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق٢ ، ص٢٤٢ .
(٣) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص٣٨٥ .
(٤) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص٨٩ ، ٩٠ .
(٥) وهو حسين مؤنس : شيوخ العصر ، ص١٠٩ .
(٦) النباهي : المرقبة العليا ، ص١١٩ .
(٧) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص٣٨٥ .

المراكشي[١] ويحكي عنه تلميذه ابن عَميرة المخزومي[٢] أنه يوم أنيشة " رأى الخلل في الناس ، فاستنزل من الصف ، وبرز أمام الزحف ، ورَغَّبَ المسلمين في الصبر وقد انكشفوا ، وناشدهم الله أن يقفوا فما وقفوا " . ومع ذلك لم يزل قُدام الصفوف، زاحفاً إلى الكفار ، مقبلاً غير مدبر [٣] ، وقد حمل الراية بيده[٤] وهو ينادي المنهزمين بقوله " أعن الجنة تفرون ؟ " . إلى أن قُتل صابراً محتسباً[٥] . ولقد فقد من المسلمين غيره خلق كثير [٦] ، بين قتيل وأسير [٧] ، فكان في جملتهم طائفة من أهل العلم والصلاح والفضل في بلنسية . ويكفي الدلالة على عظم المصاب في وسط هذه الطائفة هو فقدان نحو سبعين رجلاً من أهل الصف الأول بجامع بلنسية الأعظم [٨] .

وهكذا نلمس في موقعة أنيشة أثراً ظاهراً لأبي الربيع الكلاعي ومَنْ معه من علماء بلنسية في التصدي للزحف النصراني على شرقي الأندلس ، فأبو الربيع كانت له جهوده في استنهاض الناس - فيما يبدو - لمحاربة الأرغونيين ، ثم نراه في ميدان المعركة بمثابة القائد للجيش الإسلامي ، فهو الذي حرض المسلمين على الاستبسال في قتال العدو ، فلما آنس منهم خوراً

---

(١) الذيل والتكملة ، س٤ ، ص٨٩ .

(٢) رسائل أبي المطرف بن عميرة ، ورقة ٦٩ .

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص٨٩ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٤٧٣.

(٤) النباهي : المرقبة العليا ، ص١١٩ .

(٥) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص٨٩ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص١١٩ ، المقري : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٤٧٣ .

(٦) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٢٧٢ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص٣٨٥ .

(٧) النباهي : المرقبة العليا ، ص١٢٠ .

(٨) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص٨٩ - ٩٠ .

في مجابهته ندر عن الصف ، فأمسك الراية بيده ، وتقدم أمامهم ، وأخذ يدعوهم إلى الشهادة في سبيل الله ، وظل على تلك الحالة حتى تجاذبته سيوف الأعداء من كل جانب فخر صريعاً . ولم يكن هذا الفعل من أبي الربيع بِدْعاً في هذه الموقعة، فقد عُرف بأنه " ثابت الجأش ، جري الجنان ... يباشر بنفسه مواضع القتال ، ويُقدم إذا خام أشد الرجال " [(١)] . وقد سجل تلميذه ابن عميرة المخزومي [(٢)] ما شاهده بعينه في إحدى المواطن من شجاعة شيخه بقوله " فلعهدي به في أحد المعاقل الشهيرة المنعة يتقدم حتى نقول سئم السلامة ... وكان العدو الكافر قد استولى على هذا المعقل غدراً ، فجاء أهله يندبون لمعاجلته ، ويسهلون طريق محاولته ، فلما أطللنا عليه وجدناه أصعب على المتناول من نعام الدَّو [(٣)] ، أو عقاب الجو ، فندمنا أية ساعة مندم ، وحرنا بين متأخر ومتقدم ، فقام والله مقاماً شجّع الرعديد ، وقرب البعيد ، وولى القتال بنفسه ، والحجر يهوي إليه ، والنبل يقع حواليه حتى فتح الله على المسلمين ، واستردوا ذلك الحصن الحصين " .

وعلى ضوء ما مضى قد لا نتعدى الحق إذا قلنا أن أبا الربيع الكلاعي كان في تلك الأيام العصيبة – أي في أواخر عصر الموحدين بالأندلس – "أعظم من الحكام مكانة عند البلنسيين بفضل علمه وشخصيته وانصرافه لخدمة أهل بلده " [(٤)]☆ . فبعد تلاشي السلطان السياسي العام في الأندلس

(١) ابن عميرة المخزومي : رسائل أبي المطرف بن عميرة ، ورقة ٦٨ .

(٢) رسائل أبي المطرف بن عميرة ، ورقة ٦٨ .

(٣) الدَّو : الفلاة المستوية الواسعة البعيدة الأطراف (الزبيدي : تاج العروس ، حـ١٩ ، ص٤٢٢) .

(٤) حسين مؤنس : شيوخ العصر ، ص١٠٧ .

☆ وفيما رُثي به من شعر ما يُصدِّق ذلك ، فقد رثاه ابن الأبار في قصيدة تربو على المائة بيت مطلعها : –

- كما يقول حسين مؤنس [١] - « أصبح الشيوخ رموزاً على السلطان الوحيد الباقي وهو سلطان الدين والعلم ، وصاروا رموزاً على قوة الدين وسيادته ، ومعقد الأمال في بعث الدولة وعودة هيبة الإسلام في ... الجزيرة، فهم عمد الدين وجماعته ، وهم في واقع الأمر زعماء الجماعة الإسلامية الأندلسية وقادتها الحقيقيون . وكلما زاد السلطان السياسي تخلخلاً ازداد أولئك الشيوخ جلالاً ، وزاد شعورهم بمسؤولياتهم ، فلم يعودوا مجرد فقهاء بل زعماء أيضاً يتحلون بما تتطلبه الزعامة السليمة من صدق وإخلاص وجرأة واستعداد لبذل النفس في سبيل الجماعة الإسلامية مع الحرص على العلم ، وهو عماد سلطانهم الأول » .

☆ ☆ ☆

٤ - مشاركتهم في الغزوات ضد مملكة البرتغال .

عرفنا فيما سلف إن بداية انسلاخ منطقة البرتغال عن مملكة قشتالة ، حدث عقب وفاة أذفونش (الفونسو السادس) عام ٥٠٢هـ/١١٠٩م الذي كان قد نصب على تلك المنطقة فارساً فرنسياً اسمه هنري دي لورين ، وقد

- ألِما بأشلاء العلا والمكارم تُقدَ بأطراف القنا والصوارم

ومنها قوله :

تفرد بالعليا علماً وسودداً وحسبك من عال في الشهب عالم

تنظر القصيدة كاملة في (ديوان ابن الأبار ، ص٢٧٥ -٢٨٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص٩٠-٩٥ ؛ ابن المرابط : زواهر الفكر ، ص١٠٨-١٢١) كما رثاه شعراً ابن عميرة المخزومي (ابن المرابط : زواهر الفكر ، ص١٥٦-١٥٩ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ص٣٣) وأبو الحسن بن شبلون (البلفيقي : المقتضب من تحفة القادم ، ص٢٠٤) .

(١) ابن الأبار : الحلة ، جـ١ ، ص١٨ من مقدمة التحقيق .

لبث هنري هذا الذي تنعته المصادر الإسلامية بـ " صاحب قُلُمْرِيَّة "☆ يحكم البرتغال حتى وفاته سنة ٥٠٦هـ/١١١٢م فخلّف طفلاً اسمه ابن الرِّيق (الفونسو هنريكيز) فحكمت أمه تيرزا☆☆ هذه البلاد بالوصاية عليه إلى أن كبر واستلم السلطة عام ٥٢٢هـ/١١٢٨م☆☆☆ . وقد عمل ابن الرِّيق (الفونسو هنريكيز) على إنهاء ما بقي من تسلط قشتالي على منطقة حكمه، فتحولت البرتغال بذلك من إمارة إلى مملكة . كما جَدَّ في التوسع على حساب جيرانه المسلمين ، فعُد بأعماله تلك المؤسس الحقيقي لمملكة البرتغال [1] .

ولقد جرد حكام المرابطين ثم حكام الموحدين حملات لجهاد مملكة البرتغال والحد من أطماعها المتزايدة في غربي الأندلس☆☆☆☆ ، وقد شارك علماء الأندلس في ذلك الجهاد ، فنصت المصادر الموجودة بين أيدينا على مشاركتهم في حملتين ؛ إحداهما في عصر المرابطين ، والأخرى في عصر الموحدين . فأما التي في عصر المرابطين فقد وقعت عام ٥١١هـ/١١١٧م ، إذ

☆ قُلُمْرِيَّة Coimbra مدينة على نهر منديق الذي يصب في البحر المحيط (الإدريسي : صفة المغرب ، ص١٨٣) وتبعد عن هذا البحر مسافة اثني عشر ميلاً (الحميري: صفة جزيرة الأندلس،ص١٦٤) وتتبع حالياً دولة البرتغال إلى الشمال من مدينة لشبونة (إرسلان: الحلل السندسية، جـ١، ص٩١، حاشية ٢؛ حسين مؤنس : رحلة الأندلس ، ط . الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة، ١٩٦٣م، ص٣٩٤).

☆☆ تيرزا Theresa هي ابنه غير شرعية للفونسو السادس ، وكان هذا الأخير قد زوجها لهنري دي لورين وجعله والياً على البرتغال نظير إخلاصه في الحرب ضد المسلمين (محمد محمود النشار : تأسيس مملكة البرتغال ، ط . الأولى ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ، ١٩٩٥م ، ص٣٦ ؛ محمود عمران : دور الحركة الصليبية في تكوين مملكة البرتغال ، ص١-٢ ؛ وانظر التمهيد من هذا البحث) .

☆☆☆ انظر : التمهيد من هذا الكتاب .

(١) النشار : تأسيس مملكة البرتغال ، ص١٠ .

☆☆☆☆ انظر التمهيد من هذا الكتاب .

تحرك حاكم المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠هـ/١١٠٦م – ٥٣٧هـ/١١٤٢م) من حاضرته مراكش، وجاز في أواخر محرم سنة ٥١١هـ/ ١١١٧م البحر إلى الأندلس بغرض الجهاد في البلاد النصرانية☆ . فنزل في إشبيلية ، وتريث بها قليلاً لاستمام التجهيزات الحربية ، وتأهُّبِ المجاهدين الأندلسيين (١) . وهنا نشهد المتطوعين من العلماء وطلبة العلم ومَنْ إليهم يهرعون من قرطبة وإشبيلية نفسها وغرناطة للاشتراك مع الجيش المرابطي في جهاد النصارى (٢) . قال ابن عذارى (٣) " ولحقت من قرطبة لُمَة من الفقهاء والعلماء ولفيف من المجاهدين والزعماء خيلاً ورجلاً ، وتأهَبَ فقهاء إشبيلية ومجاهدوها ، واستوفت مطوعة غرناطة ومرتبوها " . ومن أسف أن مصادرنا المتوافرة لم تعين أحداً باسمه من علماء هذه المدن الذين برزوا للجهاد في هذه الغزوة .

وعلى أي حال فقد انطلق علي بن يوسف من إشبيلية بحشوده ، واتجه صوب مدينة قلمرية (٤) من البلاد البرتغالية☆☆ ، وبوصوله إليها طوقها

☆ يرى بعض الباحثين أن الهزائم التي حاقت بالجيوش المرابطية في الأندلس على أيدي النصارى كانت من أكبر الدوافع التي حملت علي بن يوسف على العبور في ذلك الأوان (ميراندا : علي بن يوسف ، ص١٦٨ ؛ حمدي عبد المنعم : تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، ص٢١٢) .

(١) ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص٦٤ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) البيان ، جـ٤ ، ص٦٤ .

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٢٤٧ ؛ الإحاطة ، جـ٤ ، ص٥٩ .

☆☆ يرجح أن علي بن يوسف قصد مملكة البرتغال بالذات لأنها كانت حينذاك تعاني من مشاكل داخلية (النشار : تأسيس مملكة البرتغال ، ص٥٣ ؛ علي أحمد : تاريخ المغرب العربي الإسلامي ، منشورات، جامعة دمشق ، ١٩٩١-١٩٩٢م ، ص١٧٧) .

بالحصار[١] . وقد اختلف فيما جرى لها على قولين ؛ أحدهما أن عليّ بن يوسف افتتحها [٢] ، والآخر إنه انصرف عنها بعد حصار شديد دام عشرين يوماً [٣]☆ . ثم كرر راجعاً إلى إشبيلية بعد أن « دوخ بلاد الشرك ... وكان أثره بها عظيماً » [٤] .

والحاصل أن النص جاء مثبتاً خروج علماء الأندلس لغزوة قلمرية ، بيد أنه ضن علينا بتبيان شخصية أحد منهم من جهة ، وبمعرفة واقع جهودهم في تلك الغزوة من جهة أخرى .

☆ ☆ ☆

أما الغزوة التي عثرنا على أسماء علماء أندلسيين أسهموا فيها ضد مملكة البرتغال في عصر الموحدين فقد حدثت عام ٥٨٠هـ/١١٨٤م . ذاك أنه في الشطر الثاني من عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨هـ/١١٦٣م-٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) نشط البرتغاليون بزعامة ملكهم ابن الريق (الفونسو هنريكيز) في الغارات على غربي الأندلس ، ففتكوا بالمسلمين هناك قتلاً وأسراً ، وعاثوا بالحرمات والأملاك هتكاً ونهباً [٥] . ولذلك بادر الحاكم الموحدي بالتوجه لغزوهم لما عبر بجيشه إلى الأندلس للجهاد في صفر سنة

(١) ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص٦٤ .
(٢) مجهول : الحلل الموشية ، ص٨٦ .
(٣) ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص٦٤ .
☆ تذكر بعض المصادر النصرانية أن حصار قلمرية من قبل المسلمين ابتدأ في اليوم الثامن عشر من صفر سنة ٥١١هـ/١١١٧م (ميرندا : علي بن يوسف ، ص١٦٩) .
(٤) مجهول : الحلل الموشية ، ص٨٦ .
(٥) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٦٢ . وانظر التمهيد من هذا الكتاب .

٥٨٠هـ/١١٨٤م (١) فما هي إلا أيام يسيرة أمضاها في إشبيلية لتجميع قواته ، وتفقد استعداداته (٢) . ثم سرعان ما قصد مدينة شَنْتَرِين من بلاد البرتغال ، فضرب عليها الحصار حال وصوله إليها (٣) في ربيع الأول من تلك السنة (٤) .

ويبدو أن أبا يعقوب غزا شنترين بالذات من بين المدن البرتغالية لأن أكثر غارات البرتغاليين وأعتاها كانت قد انبعثت منها (٥) .

وكيفما كان الأمر فعلماء الأندلس خفوا للجهاد مع الجيش الموحدي وقتذاك ، فهذا أبو بكر بيبش العبدري☆ قدم من مدينة بلنسية في شرقي الأندلس ، والتحق بعسكر الموحدين الغازي لتلك المدينة النصرانية (٦). وثمة نفر من أهل العلم الأندلسين حضروا هذه الغزوة بصفتهم -فيما يظهر- من رجال الدولة الموحدية الذين يعملون في خدمتها، وهم : أبو الحسن

---

(١) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص١٥٩ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص٢١٤ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص٣٢٥ .

(٢) المراكشي : المعجب ، ص٣٣٠ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص١٥٩ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص٣٢٥ .

(٣) المراكشي : المعجب ، ص٣٣٠ - ٣٣١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ، ص٥٠٥ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص٢١٤ .

(٤) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص ١٦٠ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص٢١٤ .

(٥) سحر سالم: تاريخ بطليوس ، جـ٢ ، ص٣٣١ - ٣٣٢ ؛ النشار : تأسيس مملكة البرتغال، ص١٩٢.

☆ أبو بكر بيبش بن محمد بن أحمد بن بيبش العبدري من أهل أُنْدَة ولكنه انتقل إلى بلنسية . كان فقيهاً نبيهاً ، عارفاً بالأحكام ، كاتباً حسن الخط . توفي بعد عودته من غزوة شنترين (ابن الأبار : التكملة، جـ١ ، ص٢٢٨) .

(٦) ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٢٢٨ .

المالقي ☆(١) الذي كان خطيب الدولة (٢) ، أو خطيب الجماعة كما يُلقب أحياناً (٣) . وأبو بكر بن زُهر (٤) وابن قاسم☆☆ ، وابن مقبل (أو ابن طفيل)☆☆☆ وثلاثتهم أطباء للحاكم الموحدي (٥) ، وأبو الحجاج يوسف ابن عمر☆☆☆☆(٦) الذي يُعد من كتاب الجيش(٧)، وأبو مروان بن صاحب

☆ أبو الحسن المالقي : هو علي بن عبد الله بن عبد الرحمن المالقي . كانت له معرفة بالفقه والحديث ، وشهر بقرض الشعر وصناعة الكتابة . وفوق ذلك كان خطيباً معتبراً لدى الحكام الموحدين (المراكشي: المعجب ، ص٣٣١ - ٣٣٢) .

(١) المراكشي : المعجب ، ص٣٣٢ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص١٦٤ .

(٢) المراكشي : المعجب ، ص٣٣٢ .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص١٦٢ .

(٤) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص٢٠٧ .

☆☆ ابن قاسم : هناك طبيب من أطباء أبي يعقوب الموحدي يدعى أبا مروان عبد الملك بن قاسم القرطبي، وقد توفي سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م (ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص٣٢٢ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص٢٠٧) أي قبل غزوة شنترين . وهذا يعني أنه ليس ابن قاسم المشار إليه في المتن وربما أن ابن قاسم المعني هنا هو أبو يحيى بن قاسم الإشبيلي الذي كان هو ووالده من أطباء الموحدين، وعاش حتى دولة المستنصر الموحدي (ابن أبي صيبعة : عيون الأنباء ، جـ٣ ، ص١٢٨) .

☆☆☆ ابن مقبل لم نعثر على طبيب للموحدين بهذا الاسم . ويرى عنان أن هذا الاسم تحريف لاسم ابن طفيل المتوفي سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م طبيب الحاكم الموحدي الخاص (عصر المرابطين والموحدين ، ق٢، ص١٢٧ ، حاشية١) انظر ترجمة ابن طفيل في : (المراكشي : المعجب ، ص٣١١-٣١٤ ؛ ابن سعيد : المغرب ، جـ٢ ، ص٨٥-٨٦ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٢ ، ص٤٧٨ - ٤٨٢) .

(٥) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص١٦٤ .

☆☆☆☆ أبو الحجاج يوسف بن عمر الأموي أو المرواني من أهل إشبيلية . ألف في التاريخ والأدب ، ومن مؤلفاته : الحلي الكتابية والتحف الأدبية ، ولا تعرف سنة وفاته بالضبط (المراكشي : المعجب ، ص٣٩١ ؛ ابن الأبار : التكملة ، تحقيق عبد السلام الهراس ، جـ٤ ، ص٢٢١) .

(٦) تَيقّنا من حضوره هذه الغزوة من قوله مخبراً عن يوم الرحيل عن شنترين " حضرتُ يوم هذا الإقلاع وليله فما رأيته في تاريخ قبله ... " (ابن عذارى : البيان ، ق. الموحدين ، ص١٦٤) .

(٧) المراكشي : المعجب ، ص٣٩١ .

الصلاة☆ (١) الذي كان كاتباً من كُتّاب الموحدين (٢) .

وعلى كل فقد نشبت معارك ضارية بين المسلمين والنصارى المحاصَرين في شنترين☆☆ ، فكانت الغلبة للمسلمين(٣) ، وبينما كانت الحال كذلك، إذ صدر من أبي يعقوب أمر بسحب الجيش من مكانه إلى موضع آخر☆☆☆ ، فوقع خطأ في التنفيذ ، إذ انسحبتْ أكثر وحدات الجيش بالليل دون علم الحاكم الموحدي الذي وجد نفسه بعد أن تنفس الصبح في قلة من جنده

☆ أبو مروان بن صاحب الصلاة هو عبد الملك بن محمد بن أحمد الباجي ، كان كاتباً محسناً ، عُني بالتاريخ ، فصنف فيه كُتباً ، منها " تاريخ ثورة المريدين بالأندلس " و " المن بالإمامة ... " (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٦٢٠ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥، ق١ ، ص٣٢) ولا تعرف سنة وفاته بالضبط . وقد رجح عبد الهادي التازي أنها كانت في أواخر القرن السادس الهجري (ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص١٩ من مقدمة المحقق) .

(١) عرفنا شهود هذه الغزوة من قوله عن بعض أحداثها " رأيت ... " (ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص١٦٠) .

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص١٢-١٣ من مقدمة المحقق .

☆☆ ولقد حضرها أحد المصريين الموالين للدولة العبيدية (المقري : نفح الطيب ، جـ٣ ، ص٦٨) .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص١٦٠ - ١٦١ .

☆☆☆ أشار ابن أبي زرع أن الحاكم الموحدي ترك حصار شنترين لعزمه على غزو مدينة لشبونة ، وشن الغارات على أنحائها (الأنيس المطرب ، ص٢١٤) ويرى المراكشي أن السبب وراء الانسحاب من شنترين هو دخول وقت الشتاء في تلك الأيام ، إذ خشي الحاكم الموحدي على جيشه من البرد ، وما قد يحصل من ازدياد في منسوب النهر الذي يحول بينهم وبين العودة إلى الأراضي الإسلامية (المعجب، ص٣٣١) أما المصادر النصرانية فتجعل انسحاب الجيش الإسلامي هو مقدم فرناندو الثاني ملك ليون لإنجاد بني ملته في شنترين (عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق٢ ، ص١٢٥) ويرى عنان تفسير المراكشي للانسحاب غير مقنع ، إذ أن حصار شنترين كان في أوائل الصيف ، ولم يدم سوى أيام ، ويرى أن الرواية النصرانية أحق بالصواب ، إذ تتفق مع منطق الحوادث (عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق١ ، ص١٢٤ ، ١٢٥) انظر : حول أسباب الانسحاب (النشار : تأسيس مملكة البرتغال ، ص١٩٥-١٩٦ ؛ مراجع الغناي : سقوط دولة الموحدين ، ص١٥٤) .

المحيطين به [١] . ويهمنا هنا ما ألقى من تبعة على الخطيب أبي الحسن المالقي في حركة الانسحاب ، فقد روى أنه هو أول من قوّض خباءه في المعسكر الإسلامي ، وتأهب للرحيل ، فلما رآه الناس فعل ذلك أتتسوا به فقوضوا أخبيتهم [٢] " ثقة به لمكانة من الدولة ، ومعرفته بأخبارها ، فعبر من العشية أكثر العسكر النهر يريدون التقدم خشية الزحام ، وحرصاً على أخذ جيد المواضع " كما يقول المراكشي [٣] ، فكانت العاقبة أن استغل النصارى ذلك في الإيقاع بالجيش الموحدي ، فقتلوا منه جمعاً عظيماً ، كان منهم أبو الحسن المالقي في رواية [٤] ، وفي رواية أخرى أنه خشي على نفسه من الحاكم الموحدي الذي حمله مسؤولية ما حصل لجيشه ، فالتجأ إلى ابن الريق (الفونسو هنريكيز) في شنترين ، ولكنه لم يمكث أن كتب للموحدين يستعطفهم ، ويدلهم على عورات المدينة ، فوقع الكتاب في أيدي النصارى ، فأتوا بأبي الحسن فقتلوه حرقاً بالنار [٥] .

وعلى صعيد آخر فقد كان النصارى قد خلصوا إلى الحاكم الموحدي أبي يعقوب أثناء انسحابه ، وأصابوه بجراح [٦] ، فكان الأطباء الثلاثة المار ذكرهم يمرضونه إلى أن توفي بعد أيام متأثراً بجراحه [٧] .

---

(١) المراكشي : المعجب ، ص٣٣١-٣٣٢ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص١٦١-١٦٣ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص٢١٤ .
(٢) المراكشي : المعجب ، ص٣٣١ - ٣٣٢ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص١٣٥-١٣٦ .
(٣) المعجب ، ص٣٣٢ .
(٤) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص١٦٤ .
(٥) المراكشي : المعجب ، ص٣٣٣-٣٣٤ .
(٦) المصدر السابق ، ص٣٣٢ .
(٧) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص١٦٤ .

وواضح أن ما سبق إيراده من أخبار عن أثر رجال العلم الأندلسيين الذين خرجوا في هذه الغزوة لا يكشف لنا ما هم خليقون بفعله في جهاد العدو ، فالاحتمال كبير جداً أن هؤلاء كلهم أو على الأقل بعضهم باشروا القتال بأنفسهم . ثم من المنتظر أن يكون أبو بكر يبيش العبدري وأبو الحسن المالقي - باعتبارهما من علماء الشرع - على رأس الواعظين للناس في ذلك الموطن ، المبينين لهم فضل الجهاد ، الحاضين على قتال الأعداء ؛ لا سيما المالقي الذي كان يتولى رسمياً خطة الخطابة عند الموحدين ، وكان خباؤه -كما م- في وسط المعسكر الإسلامي ، فالناس يترسمون خطاه، ويقتدون بما يصدر عنه من حركات.وبالنسبة لابن زهر وابن قاسم وابن مقبل (ابن طفيل) فبصفتهم أطباء فإنهم لن يتوانوا في تضميد المثخنين بالجراح من المسلمين . وأما أبو مروان بن صاحب الصلاة وأبو الحجاج يوسف بن عمر فبصفتهما كاتبين للموحدين ، وبخاصة أن الثاني منهما أكد النص على أنه من كتاب ديوان الجيش فمن المتوقع أن يضطلعا ولو بجزء من أعمال هذا الديوان كإحصاء الجند ، ومعرفة احتياجاته المتجددة [١] ، وتحديد الرواتب والأعطيات[٢] ، وكذلك كتابة الأوامر الحربية [٣] . وليس إلى الشك سبيل أن العمل في مصلحة الجيش المجاهد للنصارى كالقيام بمهمة التمريض والكتابة داخلة في إطار أعمال الجهاد في سبيل الله .

☆ ☆ ☆

---

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص٤٣ من مقدمة المحقق ؛ فايزة كلاس : الجيش عند الموحدين ، مجلة دراسات تاريخية ، السنة ١٠ ، العدد ٣١-٣٢ ، ١٩٨٩م ، ص١٩٨ .

(٢) السحيباني : النظم الحربية في دولة الموحدين ، ص١٧٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص١٨١ .

وفي ختام كلامنا عن مشاركة العلماء في الغزوات ضد القوى النصرانية نشير إلى أن ثمة علماء تحدثت المصادر عن خروجهم إلى الجهاد من غير أن تقدم لنا أي إفادة عن الممالك النصرانية التي جاهدوا ضدها ، ولا المعارك التي خاضوها ؛ حيث اكتفت بذكر قصص جهادهم في بلاد العدو ، وأخبرت أن نهاية بعضهم كانت القتل في سبيل الله [١] ، أما البعض الآخر فأفادت بوقوعهم أسارى بأيدي الأعداء [٢] .

---

(١) انظر مثلاً ابن سعيد : المغرب ، جـ١ ، ص٤١٥ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٣ ، ص ٣٣٤ ، ٣٣٩-٣٤٠ .

(٢) انظر مثلاً ابن بسام : الذخيرة ، ق٢ ، م٢ ، ص٨١١ ، ٨١٥ - ٨١٧ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٣ ، ص٤٣٤ .

ب - مشاركة العلماء في حماية المدن الأندلسية والدفاع عنها :

اعتاد المسلمون في الأندلس على الاصطلاء بنار الهجمات النصرانية على مدنهم وقراهم وحصونهم ، وقد تكون تلك الهجمات على شكل غارات خاطفة ، وقد تكون على هيئة حملات منظمة ، وهي آونة لا تتعدى منطقة الثغور ، وآونة أخرى تمتد إلى الداخل فتكون بعيدة الغور . وقد صور أحد القرطبين في العصر المرابطي حالهم مع العدوان النصراني بقوله " وهذا العدو المجاور لنا - قصمه الله - قد أحرقنا بشررٍ من ناره ، وأغرقنا من غماره " (١) . فالغارات والحملات النصرانية سيتخلف عنها - بلا شك - نهب للأموال ، وتخريب للمزارع ، وإفساد للمساكن ، وانتهاك للمحارم ، وسبي للذراري ؛ فضلاً عما يتخلل ذلك من إزهاق لأرواح المسلمين رجالاً ونساءً (٢) . وللتوقي من هذا العدوان النصراني المسلط على المدن الأندلسية، والتقليل من ضرره على المسلمين كان من الطبيعي أن يُعنى بتحصين المدن ، وتجديد أسوارها ، وتقوية قلاعها . فكان للعلماء جهودهم في هذا الشأن . فلقد أسند حاكم المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠هـ/١١٠٦م - ٥٣٧هـ/١١٤٢م) إلى أبي محمد بن مالك المعافري☆ (ت٥١٨هـ/١١٢٤م)

---

(١) مجهول : رسائل ومقامات أندلسية ، ص٨٩ .

(٢) انظر أمثلة في : ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ٣ ، ص١٤٢٤ ، ١٤٢٥ ، ١٦١٤ ؛ القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، جـ٤ ، ص٢٧٢ ، جـ١٠، ص٢٧٠ ؛ ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص٨٣ ؛ ق . الموحدين ، ص٥٣ ، ١٢٥ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٣ ، ص٤٠٠ .

☆ أبو محمد بن مالك المعافري هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن مالك المعافري ، من أهل غرناطة ، كان له اهتمام بالفقه والحديث ، بارعاً في الأدب ، شاعراً كاتباً ، يعد من رجالات الأندلس المتميزين، خدم في الدولة المرابطية وتوفي في غرة شعبان سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م انظر أخباره في (ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق٢ ، ص٥٠٠-٥٠٤ ؛ ابن بسام : الذخيرة ، ق١ ، م٢ ، ص٧٣٩ - ٧٥٤ ؛ =

مهمه أعمال بعض الثغور الشرقية ، قال ابن خاقان [١] " ولما كثر اختلال الشرق وفساده، وظهر استفحال العدو فيه واستئساده، صرف أمير المسلمين وناصر الدين إليه وجه اهتمامه ... ووجه أموالاً لرم خلله وحسم علله ، وإقامة ميله، وانتعاش رَجِله وخيله ... " ، ثم أشار إلى إسناد علي بن يوسف تلك المسؤولية لأبي محمد بقوله " فقلده طوقها ... ووجهه لبناء الأقطار ... فاستقل بها أحسن استقلال ، ونظم مصالحها نظم اللآل " [٢] . وقد كشفت لنا إحدى الروايات جانباً من جهده على الأخص في مدينة طرطوشة الثغرية، حيث ورد التأكيد على قصده هذه المدينة برسم بنائها ، وإصلاح خللها بتكليف من علي بن يوسف [٣] ، وأنه في سبيل إنجاز مهمته التي باشرها بنفسه[٤] استعمل أمناء من ذوي البيوتات ، ووسع أرزاقهم حتى كمل له ما أراد من تجديد البناء ، وردم ما اعترى الأسوار من الاختلال [٥] .

ولقد كان لقاضي الجماعة أبي الوليد بن رشد الجد (ت٥٢٠هـ/ ١١٢٦م) أثر فاعل في التحصينات التي طرأت على المدن الأندلسية في عهد الحاكم المرابطي علي بن يوسف تاشفين (٥٠٠هـ/١١٠٦م-٥٣٧هـ/١١٤٢م) فهو الذي نبه المرابطين إلى وجوب العناية بأسوار مدن الأندلس [٦] من حيث

= ابن سعيد : المغرب ، جـ٢ ، ص١١٧ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٣ ، ص٥٢٤ - ٥٢٧ ؛ المقري: نفح الطيب ، جـ٣ ، ص٢٣٢ - ٢٣٣) .

(١) قلائد العقيان ، ق٢ ، ص٥٠١ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٣ ، ص٥٢٤ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٣ ، ٢٣٢ .

(٤) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق٢ ، ص٥٠٢ .

(٥) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٣ ، ص٥٢٥ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٣ ، ٢٣٢ .

(٦) ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص٧٣ .

ترميمها وتجديدها وتدعيم بنائها والذي عرف عند الأندلسيين بالتعتيب [١] ، وكان ابن رشد قد أفاض برأيه هذا لعلي بن يوسف عند لقائه له في مراكش[٢] عقب قيام الفونسو المحارب (٤٩٨هـ/١١٠٥م - ٥٢٩هـ/١١٣٤م) ملك أرغون باختراق الأندلس من شماليها إلى جنوبيها بجيشه في غضون أشهر من عامي ٥١٩هـ و ٥٢٠هـ/١١٢٥م و ١١٢٦م☆ فأخذ الحاكم المرابطي برأي ابن رشد ، وبعث بكتبه فوراً " إلى الأندلس بالنظر في الأسوار بجميع البلاد " كما يقول ابن عذارى [٣] . ويظهر أن ابن رشد أفتى بجواز جمع الأموال من الناس لتمويل المشروع☆☆ ، إذ أننا نرى القضاة والولاة في المدن الأندلسية طالبوا السكان بدفعها[٤]، وقد سماها بعض الكتاب المحدثين ضريبة التعتيب[٥] أو المعونة[٦]. وبهذه الطريقة بُنيت أسوار غرناطة وأسوار المرية ، وتولى أهل قرطبة " رم أسوارها... فعزم أهل كل مسجد إقامة ما يليهم... وكذلك أهل إشبيلية "[٧]. ويبدو أن بقية مدن الأندلس أُعتني بأسوارها☆☆☆ تنفيذاً لأوامر

---

(١) ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص٧٣ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

☆ عرضنا لذلك في الفصل السابق .

(٣) البيان ، جـ٤ ، ص٧٣ .

☆☆ انظر ما سلف عن مشروعية أخذ مثل هذه الأموال من الناس في أوائل هذا الفصل .

(٤) ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص٧٣-٧٤ .

(٥) حمدي عبد المنعم ، تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، ص٣٧٥ ؛ الهرفي : دولة المرابطين ، ص٣٨٥ .

(٦) دندش : الأندلس في نهاية المرابطين ، ص٢٢٦ .

(٧) ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص٧٤ .

☆☆☆ يقول السيد عبد العزيز سالم عن الأسوار الأندلسية في عصر المرابطين " وقد ابتكر المرابطون نظاماً جديداً في تخطيط الأسوار، ذلك أنهم عمدوا إلى الإكثار من الزوايا الداخلية بالسور،بحيث يتخذ شكل خطوط متعرجة ومتكسرة، وميزة هذا النظام أن يترك الجند أعداءهم يتقدمون داخل إحدى الزوايا ثم=

حاكم المرابطين [(١)] .

ولقد ورد أن أهل قرطبة سخطوا على قاضيهم محمد بن أصبغ (ابن المناصف) (ت٥٣٦هـ/١١٤٢م) عام ٥٢٥هـ/١١٣١م إلى درجة أنهم رجموه ، وكان ذلك بسبب المعونة [(٢)] ، ويرجح أن تكون هذه المعونة هي عينها التي فُرضت على الأندلسيين لاصلاح أسوار مدنهم [(٣)] -كما مر آنفاً- وهذا يعني - إذا صح ما رجحناه - أن بناء الأسوار استغرق سنوات، وأن العلماء - كابن المناصف - قد شددوا في إنفاذ كل وسيلة مشروعة تخدم عملية إتمام التسوير ، حمايةً للمدن الأندلسية من إعتداءات الأعداء النصارى وغدراتهم .

وكان لأبي بكر بن العربي (ت٥٤٣هـ/١١٤٨م) جهود في تحصين مدينة إشبيلية أيام ولايته لقضائها عام ٥٢٨هـ/١١٣٣م ، حيث كُلف من قبل علي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠هـ/١١٠٦م - ٥٣٧هـ/١١٤٢م) في بناء سور إشبيلية من ناحية نهر الوادي الكبير [(٤)] ، أي من جهته الغربية[(٥)]، فكان المال اللازم لتنفيذ البناء غير متوفر حينذاك ؛ ونظراً لكون الاحتياج إلى المال وافق أيام عيد الأضحى فقد خطر على بال ابن العربي الاستفادة من

= يندفعون عليهم من أعلى الأسوار على الدروب فيفتكون بهم فتكاً ذريعاً " (المساجد والقصور في الأندلس ، ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٦م ، ص١٥٩) .

(١) ليوبولدو توريس بالباس : الفن المرابطي والموحدي ، ترجمة سيد غازي ، ط . دار المعارف بمصر ، ١٩٧١م ، ص٣٦ .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ، ص٢٢٢ .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها ، حاشية " ٤ " .

(٤) المصدر السابق ، ص٢٣٤ .

(٥) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص١٩ .

جلود الأضاحي في باب المصالح العامة [١] ، ففرض على الإشبيليين التبرع بجلود ضحاياهم [٢] للافادة – فيما يبدو – من قيمتها في البناء . و لم يتوقف جهد أبي بكر عند هذا الحد بل إنه في سبيل تعمير سور إشبيلية أنفق مبالغ طائلة من ماله الخاص [٣] ، حيث كان أحد العلماء الموسرين في ذلك العصر [٤] .

فإذا كان ما سلف يشرح جانباً مهماً من أثر العلماء في تحصين المدن الإسلامية في الأندلس وحمايتها من هجوم النصارى فإن أثرهم قد استبان أيضاً في الدفاع عنها ، ونرمق ذلك في حالتين ؛ الأولى عند قيام العدو النصراني بالغارات على تلك المدن . والأخرى أثناء هجومه عليها هجوماً منظماً ، وما قد يتبع ذلك أحياناً من حصار .

ففيما يتعلق بالأولى فلدينا حادثة تصور أدق تصوير النشاط المسلح الذي أبداه بعض العلماء في رد الغارات النصرانية على المدن الأندلسية ، وهذه الحادثة حكيت عن أبي محمد عبد الله بن كوثر الغافقي☆ خلال غارة

---

(١) ابن العربي : العواصم من القواصم ، تحقيق محب الدين الخطيب ، ط . الخامسة ، دار المكتبة السلفية ، القاهرة ، ١٣٩٩هـ ، ص٢٦ من مقدمة المحقق .

(٢) المقري : نفح الطيب ، جـ٢ ، ص٢٧ .

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ٢٠ ، ص٢٠٠ ، المقري : نفح الطيب ، جـ٢ ، ص٢٨ .

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ٢٠ ، ص٢٠٠ .

☆ أبو محمد عبد الله بن بكر بن خلف بن كوثر الغافقي ، كان محدثاً حافظاً ، ديناً فاضلاً ، عرف بالشجاعة ، فكان يحرص على حضور الغزوات فيبلي فيها البلاء الحسن ، ولا تعرف سنة وفاته (ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٨٥٥ ؛ ابن عبدالملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص١٨٥–١٨٧) .

نصرانية على مدينة شِرْبة أو شاربة☆ ، وندع لابن عبدالملك المراكشي[١] يرسم لنا بقلمه ما وقع لأبي محمد الغافقي الذي تعود على حضور الغزوات، فيقول إنه في غداة أحد الأيام " لم يرعهم ... إلا العدو مغيراً على شاربة ، فأسر بضاحيتها قوماً ألفاهم بها على غرة ، فركب أبو محمد وأحد أصحابه عند ذلك تجاه العدو ، وحملا عليه حتى استنقذا أولئك الأسارى ، ثم لم يزالا في حرب مع الروم حتى تكاثر الأعلاج عليهما ، فعزم صاحبه على الفرار، فقال أبو محمد – رحمه الله – أين تريد يا فلان وهذه الجنة ؟ فلم يلوِ عليه ، وصار إلى شاربة . وناشب أبا محمد القتال أحدُ أولئك الأعلاج ، فتطاعنا حتى تكسرت رماحهما ، ثم تضاربا بالسيوف حتى سقطا معاً عن فرسيهما إلى الأرض ، ويد كل واحد منهما في شعر صاحبه ، وأهل شاربة ناظرون إليهما من أعلى سور شاربة . ثم إن العلج استصرخ عِلْجاً آخر فقصد إليهما وطعن أبا محمد من خلفه، فاستشهد –رحمه الله–... ، وانكفأ العدو بغير شيء سوى قتل أبي محمد ، ولم يقتل من المسلمين حينئذٍ بذلك الموضع سواه ".

والناظر في الرواية المتقدمة لايخالها تدلي بأية معلومة عن هُوية العدو المغير على مدينة شربة (شاربة) ، كما أنها لم تعين الزمن الذي وقعت فيه الغارة ، بل إذا رجعنا إلى ترجمة أبي محمد الغافقي فإننا لا نهتدي إلى حدث مؤرخ عنه بسنة محددة وفي الوقت نفسه صريحة تعِيْننا على معرفة عصره حتى إن ابن الأبار [٢] لم يستطع التحقق من العام الذي مات فيه فقال " ولم أقف

☆ شِرْبة أو شاربة Serpa تقع في غربي الأندلس (ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٨٥٥ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص١٨٦) وقد ترسم شيربة ، وتقع بالتحديد جنوب بطليوس (ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص٢٨٩ ، حاشية ٦) .

(١) الذيل والتكملة ، س٤ ، ص١٨٦-١٨٧ .

(٢) التكملة ، جـ٢ ، ص٨٥٥ .

على تاريخ وفاته " . ولكن بالتمعن في المصادر كرة أخرى نجد أن أبا محمد قد روى عنه أبو الوليد سعد السعود بن عُفير☆ الذي توفى في عام ٥٨٨هـ/١١٩٢م (١) . وهذا معناه أن أبا محمد الغافقي أولاً قد عاش في النصف الأول من عصر الموحدين ، وثانياً أن الغارة التي قُتِلَ فيها جرت قبل هذا التاريخ . وحيث أن مدينة شربة (شاربة) تقع في غربي الأندلس فالمنتظر أن تكون تلك الغارة صادرة من البرتغاليين ، فغربي الأندلس هو المجال الحيوي الذي كان البرتغاليون يزاولون فيه نشاطهم التوسعي ضد المسلمين في العصر الموحدي (٢) .

وباستعراض حوادث غربي الأندلس في النصف الأول من عصر الموحدين نجد خبراً مقتضباً يشير إلى غارة نصرانية في سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م نفذها فارس نصراني يعمل لحساب ملك البرتغال حينذاك اسمه جراندة☆☆.

☆ سعد السعود بن أحمد بن هشام بن عفير اللبلي . كان فقيهاً محدثاً أديباً شاعراً ، توفى في ذي القعدة عام ٥٨٨هـ/١١٩٢م (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٧١٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص١٨-٢١) .

(١) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٧١٤ .

(٢) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق١ ، ص٥٢٨ ؛ نهاية الأندلس ، ص٨٨ .

☆☆ جراندة هو خيرالدو سيمبا فور Geraldo Sem Pavor أي خيرالدو الباسل (عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق٢ ، ص٢٦ ؛ سحر السيد عبد العزيز سالم : تاريخ بطليوس ، جـ٢ ، ص١٩٨) وقد اختلف في أصله فقيل إنه من البرتغال نفسها ، وقيل إنه أحد الفرسان الصليبيين الذين استقروا في البرتغال (النشار : تأسيس مملكة البرتغال ، ص٢٠٩) ولقد عَرَّفت به المصادر العربية التي تسميه جراندة الجليقي ، فذكرت صرامته وشدته وأسلوبه في اقتحام المدن الإسلامية ، واستعانة ملك البرتغال به في حرب المسلمين (ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص٢٨٨-٢٨٩ ؛ ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص١٠٤) ثم إنه ترك الملك البرتغالي ودخل في خدمة الموحدين عام ٥٦٩هـ/١١٧٣م فما زال هذا الملك يراسله سراً ويدعوه إلى المكر بالمسلمين حتى هم بذلك ، فعلم الموحدون به ، فبعثوه إلى المغرب فسجن هناك ، ثم فر من السجن ، فكان عاقبة أمره أن قُتل في -

يقول ابن صاحب الصلاة [١] عن جراندة " ثم غدر حصن شيربة☆ في عقب جمادى الأولى عام واحد وستين "[وخمسمائة] . فلا يستبعد أن تكون هذه الغارة هي ذاتها التي شارك في مقاومتها أبو محمد الغافقي حتى قضى نحبة مدافعاً عن حرمات المسلمين .

وسواء أكان ما استنتجناه صواباً كله أم كان غير ذلك فإن الرواية التي حدثتنا عن موقف أبي محمد الغافقي من النصارى المغيرين على تلك المدينة قد أمدتنا بتفصيل فريد من نوعه عن إقدام بعض العلماء وشجاعتهم وصبرهم ومصابرتهم في مقاومة النصارى بالسلاح ، دع عنك ما ذودتنا به من وصفٍ حيٍ للقاء بين مُقَاتِلَين أحدهما مسلم والآخر نصراني ، والأسلوب الذي كان كل واحد منهما ينهجه في مطاعنه صاحبه حتى كأنك ترى ذلك رأي العين.

وإذا انتقلنا من غربي الأندلس إلى شرقيها وجدنا نموذجاً آخر للعلماء الذين اندفعوا إلى قتال النصارى عند غاراتهم على حرمات المسلمين ، ففي أواخر سنة ٥٧٥هـ/١١٨٠م هاجم العدو بلده لَرْية☆☆ الكائنة في كورة بلنسية [٢] . ولعل هذا الهجوم كان صادراً من نصارى أرغون وبرشلونة ، إذ

= إحدى المراسي المغربية قبل أن يعبر إلى الأندلس (ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص١٣٠) وانظر أيضاً ما ورد عنه في (البيذق : أخبار المهدي ، ص٨٩) ولقد تحدث عنه البارودي في (أضواء على المسيحية ، ص٣٨-٣٩) .

(١) المن بالإمامة ، ص ٢٨٩ .

☆ وشيربة هي شِربة كما بينا ذلك آنفاً .

☆☆ لَرْية Liria من أعمال بلنسية (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق١ ، ص٢١٤؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٢ ، ص٥٠٩) وهي قرية قريبة جداً من بلنسية المدينة (شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، جـ٣ ، ص٢١٧) .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٧٣٤ .

أن هذه المنطقة من شرقي الأندلس كانت في ذلك الحين مجالاً مباحاً لهجماتهم (١) . وحين اقتحم العدو هذه البلدة قاومه أهلها ، وكان على رأسهم أبو عمر بن عياد اللري☆ الذي لم يمنعه بلوغه السبعين من العمر من حمل السلاح للدفاع عن بيضة المسلمين؛ حيث اشتبك مع الأعداء المهاجمين، "فقاتل حتى اثخن جراحاً ، ثم اجهزوا عليه ، وذلك يوم العيد سنة ٥٧٥هـ" كما يقول ابن الأبار (٢) .

وثمة إشارات إلى علماء قتلوا على إثر هجمات نصرانية على المدن ، وقد يكون مقتلهم بسبب أنهم ناشبوا العدو بالسلاح ، وربما أنهم راحوا ضحية غارات غادرة تَقْتل كل مَنْ تلقاه مِنْ المسلمين . ومن هؤلاء أبو القاسم خلف البكري (٣) الذي قتل عام ٥٥٦هـ/١١٦١م بأيدي نصارى البرتغال عند قيامهم بغارة غادرة على مدينة بطليوس(٤) . وقد وصلنا خبر مقتلة من خلال كتابة منقوشة كانت على قبره ، فمما جاء فيها ما نصه " ... هذا قبر الشيخ الفقيه أبي القاسم خلف بن حسن بن فرجون البكري نور الله ضريحه وقدس روحه ، استشهد بشرقي جامع بطليوس حين غَدْرِ العدو لها في صبيحة يوم

---

(١) ابن مغاور : نور الكمائم وسجع الحمائم ، ص١٥٩ . وانظر أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص ٢٩١ .

☆ أبو عمر بن عياد اللري هو يوسف بن عبد الله بن سعيد بن أبي زيد . من أهل لَرْية . كان معتنياً بالحديث وعلومه ، نحوياً أديباً . كتب مؤلفات في التاريخ والرجال والحديث والرقائق وغيرها . وتوفى عام ٥٧٥هـ/١١٨٠م (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٧٣٤ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص٢١١) .

(٢) التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٧٣٤ .

(٣) فيما تحت أيدينا من مصادر لم نهتد إلى ترجمة للبكري هذا .

(٤) سحر سالم : تاريخ بطليوس ، جـ٢ ، ص١٩٤ .

الخميس أول يوم من ربيع الآخر عام ستة وخمسين وخمسمائة »[١] .

☆ ☆ ☆

أما أثر العلماء أثناء الحملات النصرانية المنظمة على المدن الأندلسية فقد حفظت لنا المصادر جملة من الحوادث التي تعبر عن مقاومتهم لتلك الحملات . وسوف نتناول الحوادث المعنية واحدة بعد الأخرى طبقاً للترتيب الزمني غير ملتفتين إلى مكان المدن من الأندلس من ناحية ، ولا إلى مصدر الهجوم النصراني عليها من ناحية أخرى ، فقد يجيء الحديث - مثلاً - متسلسلاً عن حملات قوة نصرانية معينة على مدن مختلفة ، وربما يأتي بشكل متفرق وفقاً للسنوات التي وقعت فيها ؛ فالغاية هنا رصد مواقف العلماء من هجوم النصارى على المدن أياً كان مصدره ؛ ناهيك عن كوننا -فيما سبق- تعرفنا على القوى النصرانية المعاصرة لزمن الدراسة .

ففي وقت حصار القائد النصراني الشهير القمبيطور مدينة بلنسية مدة عشرين شهراً من رمضان سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م[٢] حتى نهاية جمادى الأولى سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م[٣] أبدى أهلها ضروباً رائعة من الصبر على الحصار ، والإصرار على المقاومة ، ومقدرة كبيرة على مواجهة العدو ، وتحمل ما صاحب ذلك من أذى ومحنة حتى بلغ الجهد بهم « والامتحان أن أحلوا مُحَرَّم الحيوان » كما يقول ابن بسام[٤] . ويصف ابن علقمة[٥] - وهو شاهد عيان -

---

(١) سحر سالم : تاريخ بطليوس ، جـ٢ ، ص١٩٤ .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٢٩٨ .

(٣) ابن الأبار : الحلة ، جـ٢ ، ص١٢٦ .

(٤) الذخيرة ، ق٣ ، م١ ، ص٩٧ .

(٥) ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص٣٨ .

حال بلنسية في ربيع الثاني من عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م أى في الشهر ما قبل الأخير من الحصار – بقوله " عظم البلاء ، وتضاعف الغلاء ، واستوى في عدم القوت الفقراء والأغنياء " ولذا " ترمَّق سائر الناس بالجلود والإصماغ وعروق السوس ، ومَنْ دون هؤلاء بالفئران والقطط وجيف بني آدم " [١] ومع ذلك لم يسلموا مدينتهم إلا بعد أن " عُدمت الأقوات بالجملة ، وهلك الناس ، ولم يبق من ذلك الجم إلا نزر يسير " [٢] . وذلك في منسلخ جمادى الأولى من ذلك العام [٣] .

وأيام هذه المحنة كان لعلماء بلنسية أثر لا يُنكر ، فمن المعروف أن مقاليد الأمور في المدينة أيام محنتها وقبل ذلك كانت بيد قاضيها أبي أحمد جعفر بن جَحَّاف (ت٤٨٨هـ/١٠٩٥م) [٤] . ولذا فهو لم يألُ جهداً عند إحكام القمبيطور حصاره لها في طلب النصرة من المرابطين أولاً [٥] ، ثم من المستعين بالله بن هود صاحب سرقسطة ثانياً [٦] ، فاستجاب المرابطون ، وبعثو إليه بقوة عسكرية ، لكنها لم توفق في الوصول إلى بلنسية[٧] . وأما ابن هود فلم يفعل شيئاً سوى " التسويف والمطل " [٨] . ولاشك أن انتظار أهل بلنسية النجدة من إخوانهم المسلمين ، وأملهم في وصولها إليهم يوماً بعد يوم

---

(١) ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص٣٨-٣٩ .
(٢) المصدر السابق ، ص٣٩ .
(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٢٠٣-٢٠٤ . وانظر الفصل الثاني من هذا الكتاب.
(٥) ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص٣٣ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٢٠٤ .
(٦) المصدر السابق ، جـ٤ ، ص٣٨ ، ٣٩ .
(٧) المصدر السابق ، ص٣٣ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٢٠٤ .
(٨) ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ص ٣٩ .

قد زرع في نفوسهم الصبر ، وثبتهم على مواجهة المحنة . بل إن ابن جحاف لجأ إلى أساليب رآها معينة - فيما يبدو - على مد عمر المقاومة في المدينة كأمره باقتحام الدور لجمع القوت منها،ومن ثم توزيعه على المحاصَرين جميعاً، وكترغيبه لابن هود - لما استنجد به - " في المال والبلد مع الأجر في استنقاذ المسلمين من القتل والأسر "[١] وحين لم يَعُدْ في قوس المقاومة منزع وافق على تسليم المدينة بالأمان بعد أن كلمه الفقيه أبو الوليد الوقشي☆ (ت٤٨٩هـ/١٠٩٦م) الذي كان الناس قد طلبوا منه إقناع ابن جحاف بعملية التسليم[٢].وبعد أن دخل القمبيطور بلنسية ما زال يفتعل الأسباب لإيقاع بابن جحاف حتى قبض عليه بعد مرور عام بحجة إخفائه لأموال كان قد اشترط عليه آداءها ؛ فعذبه عذاباً شديداً، ثم أنهى حياته حرقاً بالنار [٣] . وقد جهر المؤرخون بالسبب الحقيقي الذي أغضب القمبيطور على ابن جحاف ، فقَتَلَه هذه القِتلة البشعة فقال بعضهم " ولم يكن غضب الطاغية عليه إلا لشدة صبره على تلك الأزمة، واجتهاده في طلب النصرة، ودفعه إياه

---

(١) ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص٣٨ .

☆ أبو الوليد الوقشي هو هشام بن أحمد بن هشام الكناني ، يُعد أصلاً من أهل طليطلة . وقد وصف بأنه فقيه إمام في اللغة والآداب ، مستبحر في علوم عصره كلها ، وقد توفى بدانية في جمادى الآخرة سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٦م (ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٦٥٣-٦٥٤ ؛ الضبي : بغية الملتمس ، ص٤٨٥ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص١٩٦) . ويبدو أن هجرته من طليطلة كانت بعد سقوطها بأيدي النصارى ، وربما أنه قدم إلى بلنسية مع القادر بالله بن ذي النون صاحب طليطلة الذي مر خبره في صفحات خلت . ومن المرجح أنه خرج - أيضاً من بلنسية بعد احتلال النصارى لها بدلالة وفاته في دانية .

(٢) ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص٣٩ .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ، ق٣ ، م١ ، ص٩٨-٩٩ ؛ ابن الأبار : الحلة ، جـ٢ ، ص١٢٦ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٤٥٥ .

بالمطاولة "[١] " رجاءً في استمساك البلدة للإسلام، واستبقاءً للكلمة فيها "[٢].

فالذي أغاض النصارى -إذن- من ابن جحاف موقفه الصارم ضدهم[٣] فلا مرية أن تلك المقاومة الأبية التي سطر صفحاتها أهل بلنسية ضد الهجوم النصراني إنما مردها بالمقام الأول إلى ابن جحاف بصفته حاكم المدينة ومصرف شؤونها إلى آخر لحظة من الحصار ، وأسطع دليل على ذلك أن البلنسيين لم يجرأوا على الاتصال بالنصارى لطلب الأمان إلا بعد أن أقنعوه بذلك عن طريق الفقيه أبي الوليد الوقشي .

وكيفما كان الأمر فإن هذا الحقد النصراني لم يقتصر على قائد المدينة ابن جحاف بل تنزى على غيره من علماء بلنسية ، إذ قتل القمبيطور أبا جعفر البُتِّي☆ بالأسلوب نفسه الذي قُتل فيه ابن جحاف ، فحرقه - أيضاً - بالنار في سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م في رواية [٤]، وسنة ٤٩٠هـ/١٠٩٧م في رواية أخرى[٥].

---

(١) ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص٣٨ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص٢٠٥ .

(٣) السحيباني : جهود مفكري الأندلس ، ص٧٧ ؛ عبير زكريا بيومي : دور الفقهاء السياسي والحضاري ص ١٥٩-١٦٠ .

☆ أبو جعفر البُتِّي : هو أحمد بن عبد الولي بن أحمد بن عبد الولي البتي نسبة إلى قرية بُتَّة بشرقي بلنسية ، كان كاتباً بليغاً ، شاعراً مطبوعاً ، ذا عناية بالآداب واللغة والأشعار الجاهلية والإسلامية (الرشاطي : اقتباس الأنوار ، ص٢٨ ؛ ابن الخراط : اختصار اقتباس الأنوار ، ص١٠٩ ؛ الضبي : بغية الملتمس ، ص١٩٥ ؛ ابن دحية : المطرب ، ص١٩٥ ؛ ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٢٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٢٧٣-٢٧٦) .

(٤) الرشاطي : اقتباس الأنوار ، ص٢٨ ؛ الضبي : بغية الملتمس ، ص١٩٥ .

(٥) ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٢٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٢٧٦ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٢١ ؛ مجهول : الدرر النثرة في أخبار الجزيرة ، ورقة ١١٠ب .

كما أنه قبض على جماعة من البلنسيين ، وصادر أموالهم ، وشدد عليهم حتى هلك كثير منهم نتيجة ذلك (١) .

والظاهر أن العلماء الذين عمل القمبيطور على إنهاء حياتهم كان لهم أثر مميز في صمود مدينتهم عند الحصار ، ثم رَفْضِ الاحتلال النصراني للمدينة والتحريض على التخلص منه (٢) . فابن علقمة (٣) الذي شهد الأحداث رصد مشاعر الناس حال تسليم بلنسية للنصارى ، فأشار إلى أن انجلاء الحصار عن المدينة خلق جواً من السرور بين أهلها ، إذ " تهللت الوجوه ، وانبسطت النفوس " ثم عاد فاستثنى طائفة منهم بقوله " إلا أهل العقول والنظر في العواقب " ولا جدال أن العلماء كانوا على رأس هذه الطائفة المحزونة التي تأبى الخضوع للنير النصراني ، فتجتهد في الخلاص منه.

ومن جانب آخر لايُستبعد أن يكون للعلماء الذين صبروا على الحصار في بلنسية ثم خرجوا منها بُعيد استيلاء النصارى عليها (٤) جهود في نقل معاناة البلنسيين إلى الحكام المرابطين ، ومن ثم حثهم لاستعادتها . لاسيما وأن بعضهم عبر إلى العدوة المغربية (٥) . وقد تكون تلك الجهود المباركة إحدى الدوافع المحركة للمرابطين لطرد العدو النصراني منها ، فنراهم يجتهدون في ذلك حتى تمكنوا من إعادة راية الإسلام خفاقة إليها في شهر رجب عام

---

(١) ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص٣٨ .

(٢) كريم عجيل حسين : الحياة العلمية في مدينة بلنسية ، ص١٣٨ .

(٣) ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص٣٩ .

(٤) انظر أمثلة في : ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٢٨٦ ؛ جـ٢ ، ص٤٧٨ ، ٥٠٢ ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٦٤٠ ؛ المعجم ، ص١٦٩ .

(٥) عياض : الغنية ، ص٢٦٦ .

٤٩٥هـ/١١٠٢م [1] .

☆ ☆ ☆

وحين نازل ملك أرغون بيدو الأول☆[2] مدينة وَشْقَة☆☆ في أواخر عام ٤٨٩هـ/١٠٩٦م حشد المستعين بالله بن هود حاكم سرقسطة جيشاً كثيفاً للدفاع عنها ، إذ كانت وشقة - حينذاك - من أعماله [3] . فكان من ضمن الملتحقين بجيشه من العلماء أبو جعفر عبد الوهاب الأنصاري☆☆☆ (ت ٤٨٩هـ/١٠٩٦م)، فجرت معركة☆☆☆☆ ضارية بين الفريقين تواصلت من

---

(١) ابن بسام : الذخيرة ، ق٣ ، م١ ، ص١٠١ ؛ ابن الأبار : التكملة ، حـ١ ، ص٤٢٢ ، حـ٢ ، ص٤٧٨ ، ٩١٤ ؛ المقري : نفح الطيب ، حـ٤ ، ص٤٥٦ ؛ مجهول : الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين ، تحقيق سهيل زكار ، ط . مكتبة دار الملاح ، دمشق ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ، ص٦٨ .

☆ بيدو الأول بن سانشو بن راميرو بن سانشو الكبير ، ولي حكم أرغون بعد والده عام ٤٨٦هـ/١٠٩٣م واستمر في الحكم حتى وفاته عام ٤٩٨هـ/١١٠٥م (أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص١٠٤-١٠٥ ، ١٣٨-١٣٩ ؛ عنان : دول الطوائف ، ص٤٠٥-٤٠٦ ؛ Jose trrero . op. cit. , p.١٢٤)

(٢) أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص١٠٤ .

☆☆ وَشْقَة أو أشقة Huesca تقع إلى الشمال الشرقي من سرقسطة (ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص٧٤ ، حاشية ٣) والمسافة بينهما تقدر بخمسة وأربعين ميلاً (الإدريسي : أنس المهج ، ورقة ١٦٥) .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص١٧٢ ؛ المقري : نفح الطيب ، حـ١ ، ص٤٤١ .

☆☆☆ أبو جعفر الأنصاري : هو عبد الوهاب بن محمد بن حكم الأنصاري ، من أهل سرقسطة . لقب بالمقرىء لتصدره ببلده للإقراء ، حيث انتفع الناس بإقرائه وأخذوا عنه ، وقد توفي في آخر عام ٤٨٩هـ/١٠٩٦م (ابن بشكوال : الصلة ، حـ٢ ، ص٣٨٢ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، حـ٢ ، ص٦٣٨-٦٣٩ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق١ ، ص٩٦) .

☆☆☆☆ تسمى هذه المعركة عند النصارى معركة الكراز (أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص١٠٥ ؛ حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص١٧) .

بزوغ الشمس إلى غروبها ، فكانت عاقبتها انكسار المسلمين [(١)] ، ومقتل جم غفير منهم [(٢)] ، وقد جاء أبو جعفر في طليعتهم ، يقول ابن الأبار [(٣)] فيه " واستشهد في وقيعة وشقة سنة ٤٨٩هـ في آخر ذي القعدة أو أول ذي الحجة منها " . فكان بعمله هذا أحد الذين حملوا السلاح للجهاد في سبيل الله والدفاع عن مدينة وشقة ضد الأطماع النصرانية .

☆ ☆ ☆

ولقد شارك المقريء أبو زيد بن قرايش[☆] في الذود عن حمى سرقسطة التي تعرضت لهجوم نصراني [(٤)] من قبل ابن ردمير (الفونسو المحارب) ملك أرغون. وكان ذلك بعد ضم المرابطين لها مباشرة في سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م[(٥)] وحاصل ما حدث أن الفونسو المحارب تقدم نحو سرقسطة بجيشه ، فلما صار على قيد مسافة قليلة منها أمر واليها المرابطي أبو عبد الله بن الحاج الناس بالنهوض لرده[(٦)] ، فكانت ابن قرايش أحد الذين بادروا بالنهوض[(٧)] . ومع

(١) الطرطوشي: سراج الملوك، جـ٢، ص٦٨٥-٦٨٦ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢، ص١٧٢.

(٢) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٦٣٩ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص١٧٢؛ المقري : نفح الطيب ، جـ١ ، ص٤٤١ .

(٣) التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص ٦٣٩ .

☆ أبو زيد بن قُرايش هو عبد الرحمن بن محمد بن حيوة الأنصاري . من أهل وشقة ، ولكنه سكن سرقسطة . كان مقرئاً ماهراً ، نحوياً ، حافظاً . توفي في سنة ٥٠٣هـ /١١١٠م (ابن الأبار : التكملة ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٥٥٤-٥٥٥) .

(٤) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٥٥٥ .

(٥) ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص٥٤ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص١٧٥ .

(٦) ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص٥٤ .

(٧) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٥٥٥ .

أن ابن الحاج قضى يومه في ترتيب رجاله ، وتهيئتهم للحرب ؛ إلا أن أعدادهم تناقصت في العشي بعد تسلل جماعات منهم إلى المدينة، فانتهز الملك النصراني الفرصة ، وتقدم لقتالهم(١) ، فدارت في منتصف ذي الحجة من عام ٥٠٣هـ/١١١٠م معركة بين الطرفين (٢) ، قاتل فيها ابن قرايش – الآنف الذكر- حتى قُتل (٣) مع جماعة من إخوانه المسلمين (٤) . ولكن بالرغم مما حصل في صفوف المسلمين من قتل إلا أنهم نجحوا في الاحتفاظ بمدينتهم سرقسطة ، فلم يستطع النصارى دخولها هذه المرة (٥) فكان في ذلك بيان واضح على مقدار الجهد الذي بذله المسلمون – وفيهم العلماء كأبي زيد بن قرايش – للدفاع عن هذه المدينة ، ودرء العدوان النصراني عنها .

☆ ☆ ☆

ولما استغل النصارى الصراع الدائر بين المرابطين والموحدين ، وتجمعوا في حلف واحد من قوى متعددة من داخل إسبانيا وخارجها☆ ، وقصدوا ساحل

(١) ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص٥٤ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٢ ، ص١٧٥ .

(٣) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٥٥٥ .

(٤) ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص٥٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص٥٥ .

☆ كانت هذه القوى من إسبانيا وإيطاليا ، وقد انضوت تحت قيادة ملك قشتالة الفونسو السابع الملقب بالسليطين (٥٢٠هـ/١١٢٦م – ٥٥٢هـ/١١٥٧م) (أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص٢٢٤ – ٢٢٥؛ عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق١ ، ص٣٧١ ، ٥٠٨ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، ص٩٣ – ٩٤ ؛ السيد عبد العزيز سالم والعبادي : تاريخ البحرية الإسلامية ، ص٢٤٩ ؛ ١٤٤ . Joseph Mccabe , op. cit . P) وقد صرحت مصادر إسلامية بالسليطين بصفته زعيماً للنصارى المحتلين لمدينة المرية (المقري : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٤٦٣) .

الأندلس الجنوبي ، واقتحموا ميناء المَرِيَّة عنوة في شهر جمادى الأولى عام ٥٤٢هـ/١١٤٧م (١) بعد حصار دام ثلاثة أشهر(٢)☆ " قتلوا أهلها ، وسبوا نساءهم وبنيهم ، وانتهبوا أموالهم " (٣) فكان في عِداد القتلى من أهل البلد أبو محمد الرشاطي الذي قال في مقتله ابن الأبار (٤) " واستشهد بالمرية عند تغلب الروم عليها صبيحة يوم الجمعة الموفى عشرين لجمادي الأولى سنة اثنين وأربعين وخمسمائة " . وكذلك أبو الحجاج بن القَفَّال☆☆ الذي قال عنه ابن الزبير(٥) " واستشهد - رحمه الله - في دخول العدو المرية ، وذلك في الموفي عشرين من جمادي الأولى سنة ٥٤٢ " .

ومقتل هذين العالمين☆☆☆يوم اقتحام النصارى المدينة يثبت أنهما كانا

---

(١) ابن الأبار: التكملة، ط.كوديرا، حـ٢، ص٧٣٢؛ المقري: نفح الطيب، حـ٤، ص٤٦١، ٤٦٣ . وانظر إشارة إلى هذا الاحتلال النصراني للمرية في: ابن الخطيب: الإحاطة، حـ١، ص٢٦٤ -٢٦٥، ٢٧١.

(٢) أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص٢٢٥ .

☆ للتعرف على ظروف هجوم النصارى على المرية ودوافعهم في ذلك ، ثم حصارهم واحتلالهم لها . انظر دراسة موسعة في (محمد أحمد أبو الفضل : دراسات في تاريخ وحضارة الأندلس ، ط . دار المعرفة ، الإسكندرية ، ١٩٩٦م ، ص٢٣١-٢٦٤) .

(٣) المراكشي : المعجب ، ص٢٨٠ .

(٤) المعجم ، ص٢٢٨ . وانظر أيضاً : ابن خلكان : وفيات الأعيان ، حـ٣ ، ص١٠٧ ؛ المقري : نفح الطيب ، حـ٤ ، ص٤٦٢ ؛ الزبيدي : تاج العروس ، حـ١٠ ، ص٢٦٣ .

☆☆ أبو الحجاج بن القفال هو يوسف بن علي بن محمد القضاعي ، ويعرف أيضاً بالحداد ، من أهل أُندة. رحل إلى المشرق ، فلما آب إلى الأندلس سكن المرية . كان أديباً فاضلاً ، صدوقاً صحيح السماع . وكانت وفاته في جمادي الأولى سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، حـ٢ ، ص٧٣٢ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص٢٠٦) .

(٥) صلة الصلة ، ص٢٠٦ . وانظر أيضاً : ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، حـ٢ ، ص٧٣٢ .

☆☆☆ ذكر ابن الزبير أن يوسف بن يبقى بن يسعون التجيبي التاجلي ، توفي عند دخول النصارى المرية (صلة الصلة ، ص٢٠٥) لكن ابن الأبار وهو أسبق من ابن الزبير ذكر أن يوسف المذكور توفي بعد سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م (التكملة ، ط . كوديرا ، حـ٢ ، ص٧٣٣) .

من الذين تحملوا شدائد الحصار الذي امتد ثلاثة أشهر . وأما صيغة الاستشهاد التي عُبر بها عن مصير كل واحد منهما ساعة احتلال العدو للمدينة ، وذلك في صبيحة يوم الجمعة العشرين من جمادي الأولى ففيه احتمالان ، الأول أنهما قاوما العدو بالسلاح حين دخوله المرية ، فقاتلا حتى سقطا قتيلين . والاحتمال الثاني أنهما قُتلا مع الناس بأيدي العدو ، وإن لم يشهرا السلاح في وجهه . فالنصارى كما سبق قتّلوا أهل المرية بمجرد أن دخلوا مدينتهم .

☆ ☆ ☆

ولقد شارك العلماء في الدفاع عن مدينة قصر أبي دَانِس☆ عندما هاجمها النصارى في أوائل سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م . حيث أن نصارى البرتغال اغتنموا مرور الصليبيين الألمان المتجهين إلى المشرق بالساحل الغربي للأندلس ، ودعوهم إلى التعاون في احتلال مدينة قصر أبي دانس[١]، فسار الجميع إليها، وضربوا حولها الحصار [٢] ، فما كان من أهلها إلا أن استنجدوا بالموحدين ، فبادر هؤلاء الأخيرون بدفع جيوشهم إليها من غربي الأندلس وإشبيلية

☆ قصر أبي دَانِس أو القصر Alcacer ينسب إلى جدٍ من بني دانس بن عوسجة المصمودي من البربر البرانس (ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص٥٠١) ويقع على نهر شَطُوبر الذي يسمى أيضاً نهر أبي دانس ، والمسافة بين القصر ولشبونة الواقعة إلى الشمال الغربي منه أربعون ميلاً (الإدريسي : أنس المهج ، ورقة ١٤٤ ؛ ابن سعيد : الجغرافيا ، تحقيق إسماعيل العربي ، ط . المكتب التجاري ، بيروت ، ١٩٨٠م ، ص١٧٨) وهو الآن مركز إداري في مديرية يابُرَة بالبرتغال (ابن الأبار : الحلة : جـ٢ ، ص٢٧٢ ، حاشية ١) .

(١) عنان، عصر المرابطين والموحدين، ق٢، ص٣٣٨؛ محمود سعيد عمران:دور الحركة الصليبية في تكوين مملكة البرتغال ص٢٣، Derk W. Lomax :la Reconquista, Barcelana, ١٩٨٤., P , ٤٢

(٢) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص١٦١ .

وقرطبة وجيان لإنجادها [١]، فخف مع حشود إشبيلية أبو بكر بن محمد بن عبدالنور السبائي [٢] الذي تعود على حضور الغزوات [٣] ، وأبو العباس أحمد بن محمد الأنصاري☆ الذي عُرف بالمجاهد [٤] ، ربما لكثرة خروجه للجهاد . ولما تراءى الجمعان عند قصر أبي دانس خامر قلوب المسلمين الرعب [٥] ، وتخاذل رؤساؤهم [٦] ، فولوا الأدبار ، وأخذوا بالفرار [٧] ، وجرت معركة غير متكافئة في أحد شهري ربيع عام ٦١٤هـ/١٢١٧م [٨] قُتل فيها آلاف من المسلمين[٩] ، فكان العالمان المذكوران قبل قليل في طليعتهم . قال الرعيني[١٠] عن شيخه أبي بكر السبائي " توفي شيخنا أبو بكر هذا مستشهداً في كائنة قصر أبي دانس في عام أربعة عشر وست مائة،وكان قد حضر قبلها غزوات " أما أبو العباس الأنصاري فقد قيل في مقتله " واستشهد - نفعه الله - في كائنة قصر أبي دانس سنة أربع عشرة وستمائة " [١١] .

---

(١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص٤٢٢ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص١٦٢ .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، حـ٢ ، ص٥٩٦ .

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٤١٣ .

☆ أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن عبيد الله الأنصاري ، من أهل إشبيلية . كان خيراً فاضلاً ، انصرف إلى تعليم الناس فنفع الله به خلقاً كثيراً . وكانت وفاته في عام ٦١٤هـ/١٢١٧م (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٣٧١) .

(٤) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٣٧١ .

(٥) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص٢٤٢ .

(٦) ابن الأبار : التكملة ، حـ٢ ، ص٢٩٥ .

(٧) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص٢٤٢ .

(٨) ابن الأبار : التكملة، حـ٢ ، ص٥٩٦ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٤١٣.

(٩) ابن الأبار : الحلة ، حـ٢ ، ص٢٩٥ .

(١٠) برنامج شيوخ الرعيني ، ص١٨ .

(١١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٣٧١ .

وهكذا هب هذان العالمان من إشبيلية ، والتحقا بالجيش الإسلامي ، وحملا السلاح - كدأب العلماء - نصرة لإخوانهم أهل قصر أبي دانس ، ودفاعاً عن ذمارهم ، فشاركا في قتال النصارى المعتدين حتى فقدا حياتهما في سبيل الله . وقد كانت هذه الوقعة التي شاركا فيها من الوقائع المؤثرة على مجريات الأحداث في الأندلس يومذاك ، وقد عبر أحد مَنْ عايش وقوعها - وهو ابن الأبار - (١) بقوله عنها « وهي إحدى الكوائن المنذرة حينئذٍ بما آل إليه أمر الأندلس الآن » ، إذ سقطت على إثرها قصر أبي دانس بأيدي النصارى في جمادي الأولى من ذلك العام (٢) ، وبسقوطها زالت عقبة كأداء أمام الزحف البرتغالي نحو الجنوب الأندلسي ، فتهاوت بعدها المدن الإسلامية في ذلك الصقع واحدة تلو الأخرى (٣) .

وحينما تغلب النصارى☆ على مدينة لَوْشَة☆☆ سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م في رواية(٤)، وسنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م في رواية أخرى(٥) ، أقدموا على أسر خطيبها

---

(١) الحلة ، جـ٢ ، ص٢٩٥ .

(٢) ابن الأبار : الحلة ، جـ٢ ، ص٢٩٥ .

(٣) محمود سعيد عمران : دور الحركة الصليبية في تكوين مملكة البرتغال ، ص٢٧ .

☆ المقصود بالنصارى هنا هم نصارى قشتالة بقيادة ملكهم فرناندو الثالث (عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق٢ ، ص٣٥٩) .

☆☆ لَوْشَة Loja من أعمال غَرْنَاطة (ابن الأبار التكملة ، جـ١ ، ص١١٤) وهي على نهر شَنِّيل ، وتقع إلى الغرب من إلبيرة (غرناطة) المدينة (ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص٢٨) والمسافة بينهما خمسة وعشرون ميلاً (الإدريسي : أنس المهج ، ورقة ١٥٣ ؛ صفة المغرب ، ص٢٠٤) وهي الآن من مدن إسبانيا المتوسطة الحجم (عنان : الآثار الأندلسية ، ص٢٣٦) .

(٤) المقري : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٤٦١ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص١٧٤ .

(٥) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص٢٧١ ؛ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص٢٧٤ .

وصاحب الصلاة في جامعها أحمد الأنصاري☆ [(١)] (ت ٦٢٤هـ/١٢٢٧م) . وحيث أن تغلبهم عليها كان بمساعدة أحد أبناء الأسرة الموحدية☆☆ حال منافسته على الحكم في البلاد[(٢)] فإن أسر هؤلاء النصارى لهذا العالم قد يرجع إلى كونه دعا إلى مقاومتهم بالسلاح ، لأنهم احتلوا المدينة « وعاثوا بها أشد العيث » [(٣)] وربما كان أسرهم له بسبب قيامه بإثارة الناس عليهم ، أو بمجرد خوفهم أن يفعل ذلك☆☆☆ ، فقد كان -كما مر- خطيب لوشة وإمامها.

وعلى أي حال فإنه لم يمكث طويلاً في الأسر ، إذ أنقذه الله تعالى منه، ثم توفي بعد إطلاقه بأيام [(٤)] .

☆ ☆ ☆

وأيام تكالب النصارى بقيادة خايمي الأول (٦١٠هـ/١٢٢٣م -

☆ هو أحمد بن علي بن يوسف الأنصاري ، يكنى بأبي جعفر وبأبي العباس . كان محدثاً زاهداً ورعاً ، اعتنى بالرواية ولقاء المشايخ والأخذ عنهم . وقد توفي بمالقة في ربيع الآخر سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م (ابن الأبار : التكملة، جـ١، ص١١٤؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة، س١، ق١، ص٣٤٥) .

(١) ابن الأبار: التكملة، جـ١، ص١١٤؛ ابن عبدالملك المراكشي: الذيل والتكملة، س١، ق١، ص٣٤٥.

☆☆ المقصود هنا أبو محمد عبد الله البياسي في صراعه مع العادل (ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص٢٧١) .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ق . الموحدين ، ص٢٧١ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص١٧٣-١٧٤؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٤٦١ .

(٣) المقري : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٤٦١ .

☆☆☆ ولقد ورد أن أحد علماء لوشة أحمد بن محمد العكي وصاحباً له اسمه أبو إسحاق بن إبراهيم قد امتحنا بأسر النصارى لهما ، فتوفي الأول منهما أسيراً بأيديهم في آخر سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٣٨٩) فهل كانت ظروف أسرهما تماثل أسر خطيب لوشة المنوه عنه بالمتن ؟

(٤) ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص١١٤ .

٦٧٥هـ/١٢٧٦م) ملك أرغون وبرشلونة على جزائر الأندلس الشرقية ، وتصميمهم على احتلال ميورقة منها تصدر العلماءُ جموعَ المدافعين عنها ، فكانوا مضرب المثل في الإقدام على المواجهة ، والمصابرة على القتال ، والتضحية بالنفس في سبيل جهاد أعداء الله. ففي شوال سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م وصلت الأساطيل النصرانية ساحل ميورقة [(١)☆] ، فخاض بعض أفرادها في الثامن عشر من ذلك الشهر معركة مع المسلمين ، فتراجع المسلمون أمامهم ، ثم استجمع النصارى قوتهم ، واندفعوا لضرب الحصار حول مدينة ميورقة نفسها [(٢)]، فجرى لها " من القتال وشدة الحصار، وأنواع المحن ما لم يجرِ مثله في زمان " على حد تعبير الحميري [(٣)] . ولهذا السبب قيل إن حاكمها أبا يحيى التينمللي[☆☆] فاوض الملك النصراني خايمي الأول كرتين، فأغراه أولاً بالمال مقابل الانسحاب ، ولما لم يقبل عرض عليه في الثانية تسليم المدينة ، وتأمين أرواح من بها من المسلمين ، فرفض أيضاً هذا العرض تحت تأثير كبار القادة

(١) ابن المستوفي : نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل (تاريخ إربل) ، تحقيق سامي الصقار ط . دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠م ، ق١ ، ص٤٣١ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص١٩١ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٤٧٠.

☆ أبحر الأسطول النصراني الذي اتخذ الصليب شعاره من ساحل برشلونه (قطالونيا) في مائة وخمسين سفينة كبيرة ، وعدد كبير من الزوارق الصغيرة . وانضم إليه كثير من المتطوعين الجنويين والبرفانس والألمان وفرسان الداوية (أشباخ : الأندلس ، ص٤١٨ ؛ سيسالم : جزر الأندلس المنسية ، ص٤١٩).

(٢) المقري : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٤٧٠ (والمقري ينقل بتصرف وتلخيص من كتاب : ابن عميرة المخزومي : تاريخ ميورقة) .

(٣) صفة جزيرة الأندلس ، ص١٩١ .

☆☆ أبو يحيى التينمللي : هو محمد بن أبي الحسن علي بن أبي عمران موسى التينمللي ، نصب والياً على ميورقة سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م (المقري : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٤٦٩) وأشار ابن عذارى أن الناصر الموحدي ولاه عليها سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م (البيان ، ق . الموحدين ، ص٢٥٦) وانظر أيضاً (ابن سعيد : المغرب ، جـ٢ ، ص٤٦٧ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص٣٣٢ ، ٣٧٩) .

والنبلاء والرهبان الذين أصروا على مواصلة الحصار(١). ولما كان يوم الجمعة الحادي عشر من صفر سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م " قاتلوا البلد قتالاً شديداً "(٢)، واستمر القتال مستعراً بين الجانبين حتى استطاع العدو النصراني اقتحام المدينة عَنْوَة بعد يومين (٣)، وذلك في يوم الاثنين الرابع عشر من صفر المذكور(٤)، فارتكب في حق أهلها مجزرة شنيعة (٥). وقد أفادتنا المصادر أن عدداً من العلماء تعرضوا للقتل والأسر في ذلك اليوم، ونكاد نجزم أن قتلهم وأسرهم قد حدث وهم يقاومون الغزاة، ويحثون الناس على القتال (٦). فمن الذين قتلوا إبراهيم بن محمد الأنصاري، حيث يذكر النباهي (٧) أنه سكن ميورقة، وولي قضائها، ويوم تغلب عليها النصارى في يوم الإثنين الرابع عشر من صفر سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م " استشهد بها ". وكذلك خطيب ميورقة عبد الملك بن إبراهيم العبدري قُتل في المواجهة مع النصارى عند دخولهم المدينة في اليوم نفسه (٨). وقد صرح الذهبي (٩) في ترجمته لمحمد

---

(١) سيسالم: جزر الأندلس المنسية، ص٤٢٦-٤٢٨؛ عنان: عصر المرابطين والموحدين، ق٢، ص٤٠٦.

(٢) المقري: نفح الطيب، ص٤٧١.

(٣) سيسالم: جزر الأندلس المنسية، ص٤٢٩.

(٤) ابن الأبار: التكملة، جـ٢، ص٦٢٤؛ ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، س٥، ق١، ص١٢، س٦، ص٦، وانظر أيضاً: ابن المستوفى: نباهة البلد الخامل، ق١، ص٤٣١؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٢٧٥.

(٥) المقري: نفح الطيب، جـ٤، ص٤٧١. وانظر استعراضاً مطولاً لما قيل عن هذه المجزرة في: سيسالم: جزر الأندلس المنسية، ص٤٣١- ٤٣٢.

(٦) سيسالم: جزر الأندلس المنسية، ص٤٧٥.

(٧) المرقبة العليا، ص١١٦، ١١٧.

(٨) ابن الأبار: التكملة، ط. كوديرا، جـ٢، ص٦٢٠؛ ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، س٥، ق١، ص١٢.

(٩) تاريخ الإسلام (الطبقة الثالثة والستون) ص٢٦٧.

ابن أحمد البكري☆ أنه « عُدِمَ في دخول الروم ميورقة في صفر » ولا جدال أن مقصوده بدخول الروم هو الاحتلال النصراني الذي نتحدث عنه هنا ، بدليل أن البكري هذا قد استقصى في ميورقة قبل هذا الاحتلال بشهر أو نحوه (١)☆☆ .

أما الذين تجرعوا ذل الأسر من العلماء عند سقوط ميورقة☆☆☆ فيأتي على رأسهم المتصدر لإقراء القرآن في البلد ، والمناوب لعبد الملك العبدري على الخطبة بالجامع علي بن أحمد العبدري الذي توفي وهو يرسف في قيود الأسر(٢)☆☆☆☆ . وأيضاً إبراهيم بن إسحاق

☆ هو محمد بن أحمد بن عبدالودود البكري يكنى بأبي عبد الله ، كان فقيهاً مفتياً ، له اهتمام بعلم العربية وقرض الشعر . توفي في صفر عام ٦٢٧هـ/١٢٢٩م (ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٦٢٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ص٧ ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام (الطبقة الثالثة والستون) ص٢٦٧) .

(١)ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٦٢٤ .

☆☆ ذكر ابن عبد الملك المراكشي أن محمد بن عبد الله البكري قُتل في ميورقة عند تغلب الروم عليها ، و لم يُعط تاريخاً لذلك (الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٣٢٧) ونظراً لكوننا لم نستطع تبين العصر الذي عاش فيه هذا العالم فإنه لا يمكننا القطع بمقتله عند احتلال النصارى ميورقة عام ٦٢٧هـ/١٢٢٩م لأن النصارى سبق لهم في سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م أن احتلوها واستعادها المسلمون في السنة التالية (انظر : التمهيد من هذه الدراسة) ولذلك يحتمل أن يكون مقتل البكري في الاحتلال النصراني الأول أو الثاني . أو ربما أن ترجمة هذا البكري اختلطت بترجمة البكري المشار إليه في المتن .

☆☆☆ ومما يجدر ذكره أن النصارى قبضوا على حاكم ميورقة أبي يحيى التينمللى فعذبوه حتى مات تحت وطأة العذاب (الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص١٩١ ؛ المقري ، نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٤٧١) .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق١ ، ص١٨٣ .

☆☆☆☆ بعض المسلمين الذين وقعوا أسرى في أيدي النصارى عند سقوط ميورقة تقاذفتهم الأيدي حتى صاروا عند نصارى المشرق ، حيث نجد أسرين من أهل ميورقة في حوزة نصراني في عكا (القشتالي: تحفة المغترب ببلاد المغرب ، تحقيق فرناندو دي لاجرانخا ، ط . المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ، ١٩٧٤م ، ص١٧٣) .

العبدري☆ الذي وقع أسيراً في أيدي الغزاة ، فبقى مدة في الأسر ، ثم أفرج عنه☆☆ ، فقدم بلنسية ، ثم انتقل إلى دانية ، وبعدها لحق بتونس ، فتوفى بها آخر عام ٦٤٢هـ/١٢٤٥م [١] .

وهناك جماعة من الميورقيين يتقدمهم العلماء قرروا مواصلة مقاومة النصارى المعتدين ، فانحازوا من المدينة إلى أحد الجبال القريبة منها ، واعتصموا به ، وظلوا يناشبون العدو القتال حوالي سنة وخمسة أشهر حتى انتهى أمرهم بالصلح في شعبان سنة٦٢٨هـ/١١٣١م[٢]. وليس إلى الشك سبيل أن مَنْ اختار من العلماء الاعتصام بذلك الجبل☆☆☆تلك المدة سيبذل قصارى طاقته في جهاد الأعداء باللسان تارة ، وبالسنان تارة أخرى . فمن الذين انخرطوا في تلك الجماعة أبو علي عمر بن أحمد العمري☆☆☆☆ ، فكان يقوم بأعمال القضاء في الجبل أثناء المقاومة إلى أن توفي فيه خلال سنة ٦٢٨هـ/

☆ إبراهيم بن إسحاق بن محمد العبدري ، يكنى بأبي إسحاق ، يُعرف بابن عائشة ، كان من فقهاء بلده ميورقة ، وقد توفى في تونس في ذي القعدة سنة ٦٤٢هـ/١١٤٥م (ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص١٧١-١٧٢) .

☆☆ نص ابن المستوفي أن أبا علي الحسن بن محمد الأندلسي وَرَدَ إربل في ذي القعدة سنة ٦٢٧هـ/١٢٣٠م يستغيث بحاكمها أبي سعيد كوكبوري بن علي لفكاك ما يقدر فكاكه من أسرى ميورقة (نباهة البلد الخامل ، ق١ ، ص٤٣٠) .

(١) ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص١٧١-١٧٢ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٣٤٥ .

☆☆☆ انظر تفصيلاً موسعاً عن حركة المقاومة في هذا الجبل في (سيسالم : جزر الأندلس المنسية ، ص٤٣٣-٤٣٧) .

☆☆☆☆ هو عمر بن أحمد بن عمر العُمري نسبة إلى عمر بن الخطاب ﷺ ، اشتهر بقوة الحفظ ، فكان يستظهر الموطأ وغيره ، وقد توفى في حصن بُلانْسَة سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق٢ ، ص٤٤٢) .

١٢٣١م (١) . كما كان أبو العباس بن المواق (٢) ممن سارع إلى الانضواء إلى جبل ميورقة ليُسهم في المقاومة مع إخوانه ، فلما نزلوا منه صلحاً هاجر إلى المغرب فعاش هناك إلى وفاته سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م (٣) .

☆ ☆ ☆

وقبل أن نغادر إسهام العلماء في رد العدوان النصراني على المدن☆ نعرج على عملين نراهما يتصلان بجهودهم في حماية المدن والذياد عنها : **أولهما**:المخاطرة بالنفس والتسلل من المدينة لمقابلة القادة المنوط بهم دفع العدو عنها.**وثانيهما**: الكتابة من المدينة المحاصرة إلى المسؤولين في الأندلس لإطلاعهم على ظروف المدينة ، وتذكيرهم بأنجع الوسائل لإنقاذها . وقد تجسد هذان العملان كلاهما في غضون حصار النصارى لسرقسطة عام ٥١٢هـ/١١١٨م. ففي أيام محنتها بالحصار تسلل منها خطيبها أبو زيد بن منتيال☆☆وبصحبته

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق٢ ، ص٤٤٢ .

(٢) ابن المواق : اسمه أحمد بن علي الأنصاري ، كان فقيهاً حافظاً ، وُصف بالوقار والنزاهة . وقد توفي بتونس سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م(ابن عبدالملك المراكشي:الذيل والتكملة، س١، ق١، ص٣٤٥-٣٤٦)

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٣٤٥-٣٤٦ .

☆ جاء عند ابن الأبار أن أبا جعفر أحمد بن يوسف بن إسماعيل بن صاحب الصلاة الذي كان من أهل باجة قد استشهد عند باب الجامع في غدر العدو بلده ، وذلك في ليلة السبت الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م (التكملة ، جـ١ ، ص٦٥) وقد ورد في مصدر آخر التأكيد على غدر نصارى البرتغال مدينة باجة في تلك الليلة نفسها (ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص٢٨٩) ويظهر أن ابن عذارى خلط بين خبر هذا الغدر وخبر هجوم آخر عليها سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م فأشار إلى مقتل أبي جعفر بن صاحب الصلاة في ذلك الهجوم (البيان، ق.الموحدين، ١٢٧) ونظراً لأن النص أكد غدر العدو لباجة ، وأنه كان في ليلة ٢٢ التي لا تعد من ليالي الإبدار فالاحتمال الأكبر أن لايكون مقتله حصل بعد مقاومة للعدو ، ولذا آثرنا عدم تصنيفه ضمن العلماء الذين دافعوا النصارى عن المدن.

☆☆ أبو زيد بن منتيال أو مَنْتِيل هو عبد الرحمن بن عبد الله بن منتيل الأنصاري ، من أهل سرقسطة ، صهر القاضي أبي علي الصدفي ، كان رجلاً ديناً ورعاً ، أديباً شاعراً ، وكان خطيباً ببلده . توفي في صدر سنة ٥١٥هـ /١١٢١م (ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٣٤٦-٣٤٧) .

الفقيه أبي الحسن بن مسعود الخولاني☆ إلى الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين ليَطْلبا منه بالنيابة عن أهلها مواجهة النصارى المحاصرين لهم. قال ابن عبد الملك المراكشي [(١)] في ترجمته لأبي الحسن الخولاني "وهو الذي خرج مع الخطيب أبي زيد بن منتيال إلى الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين في حصار سرقسطة، وكلماه عن أهلها ... في مناجزة العدو ...". وكان حصار سرقسطة المومأ إليه في النص قد ابتدأ في أوائل سنة ٥١٢هـ/١١١٨م [(٢)] على يد ملك أرغون الفونسو المحارب الذي أطبق عليها بجيشه ومن استجاب له☆☆من نصارى إسبانيا وفرنسا [(٣)] . حيث كان قد استغل وفاة والي المدينة☆☆☆ وبقاءها مدة بدون والٍ في الدعوة إلى غزوها ،ومن ثم

☆ أبو الحسن هو علي بن مسعود بن إسحاق بن عصام الخولاني .كان فقيهاً مشاوراً ، حافظاً للمدونة ، بارعاً في الوثائق ، له حظ وافر من الأدب . توفي سنة٥١٨هـ /١١٢٤م (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق١ ، ص٤٠٨-٤٠٩) .

(١) الذيل والتكملة ، س٥ ، ق١ ، ص٤٠٨ .

(٢) ذاك أن الحميري حدد محاصرة النصارى لها بتسعة أشهر (صفة جزيرة الأندلس ، ص٩٧) وقد انتهى الحصار في رمضان من تلك السنة (ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٢٠٠) وقد أفادت رواية أن بداية الحصار كان في مستهل صفر من سنة ٥١٢هـ/١١١٨م (عنان : عصر المرابطين والموحدين، ق١ ، ص٩٢ " نقلاً عن ابن عذاري : أوراق مخطوطة من البيان المغرب ") .

☆☆ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص١٦٣ ؛ الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص٩٨ .

(٣) أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص٤٤ ؛ شعيرة : المرابطون ، ص١٤٨ ؛ عبد الواحد شعيب : دور المرابطين في الجهاد بالأندلس ، ص١٢١-١٢٢ .

☆☆☆ هذا الوالي هو أبو بكر بن إبراهيم المسوفي ، وهو زوج أخت علي بن يوسف ، وقد توفي عام ٥١٠هـ/١١١٦م (ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١ ، ص٤٠٤-٤٠٨) ، وفي رواية أن وفاته كانت في عام ٥١١هـ/١١١٧م (عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق١ ، ص٨٩ " نقلاً عن ابن عذاري: أوراق مخطوطة من البيان ") .

إحكام الحصار عليها [١] ، لاسيما وأنه كان قبل ذلك لا يكف عن مضايقتها والإغارة عليها كلما لاحت له فرصة ، أو سنحت له نهزة [٢] .

ويظهر أن وضع المدينة تحرج كثيراً عقب وفاة القائد المرابطي عبد الله ابن مزدلي☆ [٣] الذي ظل يدافع عنها بمقدرة فائقة [٤] منذ وصوله إليها في ربيع الأول سنة ٥١٢هـ /١١١٨م [٥] ولذا خرج الخطيب ابن منتيال وصاحبه إلى تميم بن يوسف بن تاشفين المسؤول عن ولاية شرقي الأندلس حينذاك طالبين منه باسم أهل سرقسطة التحرك لمناجزة العدو . ونظراً لكون الرواية لاتحدد مكاناً للقائهما به فأمامنا احتمالان ، إما إنهما التقيا به في بلنسية مقر ولايته في تلك الأيام [٦] . وإما إنهما التقيا به على مقربة من سرقسطة حين قدم بجيش لاستنقاذها حسب أوامر أخيه حاكم المرابطين

---

(١) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق٣ ، ص٦٥٢ ، ٦٧٢ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١ ، ص٤٠٨ . وانظر حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ٢٣ ؛ عبد الواحد شعيب : دور المرابطين في الجهاد ، ص١٢١ .

☆ عبد الله هذا هو ولد مزدلي بن تيولتكان اللمتوني قريب يوسف بن تاشفين في النسب ، وأحد رجال دولته الكبار (ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٣ ، ص٢٧٤-٢٧٥) . ولي عبد الله بن مزدلي بعد وفاة والده عام ٥٠٨هـ/١١١٤م غرناطة (ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص٦٠-٦١) ثم كان سيره إلى سرقسطة ووفاته بها (ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص١٦٢-١٦٣) انظر بعض أخباره في (عنان : عصر المرابطين والموحدين، ق١ ، ص٧٢ " نقلاً عن ابن عذاري : أوراق مخطوطة من البيان " ؛ ميراندا : علي بن يوسف ، ص ١٦٦) .

(٣) ابن خاقان: قلائد العقيان ، ق٣ ، ص٦٥٣ . ويذكر ابن عذاري أن وفاته كانت في رجب من ذلك العام (عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق١ ، ص٩٤ " نقلاً عن : أوراق مخطوطة من البيان ").

(٤) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق٣ ، ص٦٥٣ ، ٦٧٣ .

(٥) المصدر السابق ، ق٢ ، ص٥٨٩ .

(٦) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص١٦٣ .

علي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠ هـ/١١٠٦هـ-٥٣٧هـ/١١٤٢م)(١) .

هذا فيما يتعلق باختراق العلماء الحصار للاتصال بالقادة المنوط بهم الحفاظ على المدن والدفاع عنها☆ . أما الكتابة من المدينة المحاصرة إلى المسؤولين لتعريفهم بأحوالها وندبهم للإسراع في إنقاذها من براثن الأعداء فقد جاءت على لسان قاضي سرقسطة ثابت بن عبدالله☆☆ إلى الأمير نفسه تميم بن يوسف بن تاشفين ،وذلك في الأيام الأخيرة من الحصار النصراني للمدينة ، وبالتحديد في يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر شعبان عام ٥١٢هـ/ ١١١٨م (٢) ☆☆☆ . فبعدما يشرح في رسالته للأمير معاناة أهل سرقسطة ، وما أصابهم من جراء الحصار من كرب عظيم ، وجهد أليم ، وما سوف

---

(١) رسالة قاضي سرقسطة والجمهور فيها إلى الأمر أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين ، نشرها حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص٤٦ ؛ عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق١ ، ص٥٣٩ .

☆ لقد أتت إشارة إلى أن الفقيه أباعبد الله محمد بن عبد الله الأنصاري خرج من بلده بلنسية لما حاصرها النصارى عام ٦٣٦هـ/١٢٣٨م قاصداً مرسية لاستمداد أهلها (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٣٠٥) .

☆☆ ثابت بن عبد الله بن ثابت بن سعيد بن ثابت بن قاسم بن ثابت بن حزم العوفي، يكنى بأبي الحسن قاضي سرقسطة ، كان نبيه البيت والحسب ، توفى بقرطبة سنة ٥١٤هـ/١١٢٠م (ابن بشكوال: الصلة ، جـ١ ، ص١٢٢-١٢٣) وقد نسب إليه ابن فرحون كتاب الدلائل الذي ألفه أحد أحداد ثابت (الديباج المذهب ، جـ١ ، ص٣١٩ ، ٣٢٠) ومن المستغرب أن يجزم حسين مؤنس بعدم وجود أي معلومات عن ثابت بن عبد الله هذا (الثغر الأعلى ، ص ٤٣ ، ٤٤ ، وحاشية ٤) .

(٢) عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق١ ، ص٩٦ .

☆☆☆ نظراً لأن كاتب الرسالة قد أرخها بقوله فقط "يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان " فقد أشكل على حسين مؤنس لما نشرها تحديد السنة ، فذهب إلى أنها كتبت سنة٥٢٣هـ/١١٢٩م معتمداً على مقارنتها بوثيقتين نشرهما بعدها (الثغر الأعلى، ص٤٣) بيد أن محمد عبد الله عنان قطع بأنها كتبت أثناء الحصار ، لأن نص الرسالة وفقراتها المتتالية تدل على ذلك ؛ فضلاً عن كون تميم الذي وجهت له قد توفى سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م أي قبل السنة التي حددها مؤنس (عصر المرابطين والموحدين ، ق١ ص٩٨ ، حاشية ١) وقد دلل العجلان على أنها كتبت في سنة الحصار وذلك بما جاء فيها من -

تكون حالهم وحال مدينتهم لو سقطت بأيدي النصارى - يتوجه له بالخطاب بصفته المسؤول الأول عنها ، إذ ابتعثه حاكم المرابطين علي بن يوسف بالأجناد نحوها ، وندبه إلى مقارعة العدو . ثم يلومه على تراجعه عن لقاء ذلك العدو ، ويبدي تحسره على الإسلام إن كان أنصاره بهذه المثابة[١]. وبعد ذلك يُلفت نظره إلى أهمية سرقسطة بالنسبة لمن يحكمون الأندلس بقوله " فسرقسطة ... هي السد الذي إن فُتِق فتقتْ بعده أسداد ، والبلد الذي إن استبيح لأعداء الله استبيحت له أقطار وبلاد "[٢] . ثم ينبهه إلى أن أقوم طريقة لإنقاذها تتمثل في قتال الأعداء ﴿ فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ ، وقد ضمن تعالى لمن يجاهد في سبيله أن ينصره ، ولمن حامى عن دينه أن يؤيده ويظهره "[٣] . ثم يهون عليه شأن هؤلاء الأعداء ، لأنهم سيكونون صيداً سهلاً لرماح المسلمين وسيوفهم. ثم يستثير حماس الأمير بأسلوب مبطن بالتهديد ، وذلك بالإشارة إلى الهدف من إرسال الكتاب إليه بقوله " وكتابنا هذا أيها الأمير اعتذار تقوم لنا به الحجة في جميع البلاد، وعند سائر العباد في إسلامكم إيانا إلى أهل الكفر والإلحاد"[٤]. وبعدها يؤكد أن أهل

= دعاء لله بحراسة المدينة ، وذكرٍ لمعاناة أهلها المحاصَرين سبعة أشهر ، وكون بعض العبارات فيها توحي بأنها ما زالت في حوزة المسلمين ، ثم ما ورد فيها حول تحذير للمرابطين من سقوطها ؛ علاوة على أن الثلاثاء الذي نسخت فيه يطابق تاريخه تاريخ الثلاثاء من ذلك العام حسب التقويم (الأندلس تحت حكم المرابطين ، ص١٧٢-١٧٣) ونضيف إلى ذلك دليلاً آخر وهو أن القاضي ثابت بن عبد الله الذي كُتِبتْ الرسالة على لسانه قد خرج من سرقسطة بمجرد أن سقطت بأيدي النصارى ، فاستوطن قرطبة ، ثم ما لبث أن توفي عام ٥١٤هـ/١١٢٠م (ابن بشكوال : الصلة ، جـ١ ، ص١٢٣ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ١ ، ص٣٢٠) .

(١) رسالة قاضي سرقسطة (مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ٤٤-٤٦) .

(٢) رسالة قاضي سرقسطة (مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ٤٦ - ٤٧) .

(٣)رسالة قاضي سرقسطة (مؤنس : الثغر الأعلى ، ص٤٧) .

(٤)رسالة قاضي سرقسطة (مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ٤٧-٤٨) .

سرقسطة موقنون بأنه سيسارع إلى نصرتهم ، وأن التخاذل عنهم أبعد ما يكون عن دين الأمير وصحة يقينه " . ثم يدعوه إلى عدم التأخر لأن في المطل والتسويف وقوع المكروه ، ثم يعود مرة أخرى إلى تحميل المرابطين – والأمير واحد منهم – المسؤولية عن سرقسطة وأهلها ، فهي تابعة لدولتهم فيقول "فأنتم المطالبون عند الله بدمائنا وأموالنا ، والمسؤولون عن صبيتنا وأطفالنا لاحجامكم عن أعدائنا وتثبطكم عن إجابة ندائنا "[(١)] . ثم يذكّره بتعين جهاد الكفار عليه ، والذب عن الحريم والديار . ويفهم من خاتمة الرسالة أن القاضي ثابت بن عبد الله قد حملها بعض ثقاته ، إذ طلب من الأمير أن يستفهم منهم أكثر عن أوضاع سرقسطة ومحنتها . فقال " ومن متحملي كتابنا هذا – وهم ثقاتنا – تقف من كُنْهِ حالنا على ما لم يتضمنه الخطاب ، ولا استوعبه الاطناب ... "[(٢)] .

ولنا أن تساءل عن هؤلاء الثقات المعنيين في آخر الرسالة ، هل في عدادهم أبو زيد بن منتيال وصاحبه أبو الحسن الخولاني ؟ لا نستبعد أن يكونا على رأس هؤلاء الثقات الذين حملهم قاضي سرقسطة رسالته . بل لماذا لا نفترض أن يكونا هما اللذين حملا الرسالة دون غيرهما ؟ إذ جاء – كما سبق إيراده– أنهما قابلا الأمير تميم ، وكلماه عن أهل سرقسطة في مناجزة العدو، والرسالة التي بعثها القاضي ثابت بن عبد الله كانت للغرض نفسه ، وهي من القاضي " وجماعة سرقسطة "[(٣)] ؛ فضلاً عن أن النتيجة لكلا العملين من

---

(١)رسالة قاضي سرقسطة (مؤنس : الثغر الأعلى ، ص٤٨) .

(٢)رسالة قاضي سرقسطة (مؤنس : الثغر الأعلى ، ص٤٨ – ٤٩) .

(٣)رسالة قاضي سرقسطة (مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ٤٤) .

جانب الخطيب وصاحبه ومن جانب القاضي وأهل سرقسطة كانت واحدة إذ لم يُجديا في إنقاذ المدينة ، فسقطت في الرابع من رمضان سنة ٥١٢هـ/١١١٨م [١] .

بقي في نهاية الحديث عن مشاركة العلماء في حماية المدن الأندلسية والدفاع عنها أن نشير إلى طائفة من العلماء وأفادت كتب التراجم عن موتهم بكلمة " استشهد " وربطت ذلك بمعارك عند بعض المدن الأندلسية أو بمواضع قريبة منها [٢] ، لكن تلك الكتب والمصادر الموجودة بين أيدينا لاتسعفنا بمعلومات تقطع بأن هؤلاء قتلوا دفاعاً عن تلك المدن ☆ ، وفوق ذلك فإن الطرفين المتقاتلين في تلك المعارك يكتنف هُويتهما الغموض .

☆ ☆ ☆

وهكذا عبر الصفحات الماضية تجلى لنا في عدة جوانب أثر علماء الأندلس في الجهاد الحربي ضد النصارى في عصر المرابطين والموحدين ، فرأينا اهتمامهم الكبير بشؤون الجهاد وقضاياه وأخباره ، وما يرتبط بذلك

---

(١) ابن الأبار : الحلة ، جـ٢ ، ص٢٤٨ ؛ التكملة ، جـ١ ، ص٢٠٠ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق٢ ، ص٤٢٩ ؛ س٦ ، ص١٣٦ .

(٢) انظر هؤلاء في : ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص١١٣ ، ١٥١ ، ٢٤١-٢٤٢ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٤٠٠ ، س٥ ، ق١ ، ص١١٥ - ١١٦ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص٢٢١ .

☆ وهناك جماعة من العلماء امتحنوا بالأسر دون أن يتأكد لنا أسرهم في جهاد مع النصارى . انظر ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص١٢٣ ، ١٧٦ ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٧٢٧ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق٢ ، ص٤٩٦ ، ٥٠٨ - ٥٠٩ ؛ س٨ ، ق١ ، ص٣١٠ ؛ ابن الزبير: صلة الصلة، ص١٣٣، ١٩١، ق٣ ، ص٣٠؛ ابن سعيد : المغرب ، جـ٢، ص٧٥، ١٤٨.

من عدة وعتاد . كما ظهرت جهودهم في دعم حركة الجهاد الميداني بالأموال ؛ سواء بانفاق ما يستطيعون منها في ذلك السبيل ، أو بِحَثٍّ غيرهم على الإنفاق ، أو بمآزرة الدولة القائمة على حركة الجهاد في مطالبتها الناس بالمعونة عند الحاجة إلى ذلك . على أن أثرهم استبان لنا بشكل لامع في ساحات القتال سواء في الحملات التي جُهزت لغزو البلاد النصرانية ، أو في مجال حماية المدن الأندلسية والدفاع عنها . فرأيناهم يتقدمون الصفوف ، ويحملون السلاح ، ويخالطون به العدو . كما أنهم كانوا لاينفكون عن تحريض أفراد الجيش الإسلامي على التضحية في سبيل الله ، ومقاومة الأعداء في حالة عدوانهم على الديار الإسلامية .

الفصل الرابع

تصدي العلماء
للحملات الفكرية النصرانية ضد الإسلام

ما انفك الأعداء النصارى يتربصون بالإسلام الدوائر ، ويتكرون الأساليب المختلفة لإيقاف زحفه المتدفق ، وإطفاء نوره الساطع ، وتشتيت كلمة أهله ، وخلخلة عقيدتهم . وقد صور الجاحظ [(١)] (ت٢٥٥هـ/٨٦٨م) خطرهم على الأمة الإسلامية ، وأحابيلهم في ضرب عقيدتها ، وهدم فكرها بقوله «على أن الأمة لم تبتلَ باليهود ولا المجوس ولا الصابئين كما ابتليت بالنصارى، وذلك لأنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا ، والضعيف بالإسناد من رواياتنا، والمتشابه من آي كتابنا ، ثم يَخْلون بضعفائنا ، ويسألون عنها عوامنا مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين ؛ وحتى مع ذلك ربما تجرأوا على علمائنا وأهل الأقدار منا يشغبون على القوى ، ويلبسون على الضعيف».

ومن البائن في النص المتقدم أن من الأساليب الدراجة لدى النصارى في محاربة الإسلام والمسلمين النظر في مصادر التلقي والتربية الإسلامية سواء الكتاب أو السنة أو ما تمخض عنهما من ثقافة وفكر ، ثم أخذ ما يلوح فيها من أمور مشتبهات ، واستغلالها مع سواها من القضايا الإلحادية في تشكيك المسلمين بدينهم وإبعادهم عنه . وهذا الأسلوب القائم على الكلمة والفكرة هو ما يجوز لنا تسميته بالحرب الفكرية النصرانية للإسلام والمسلمين .

ولقد قيض الله سبحانه وتعالى لهذه الأمة علماء – على مدار تاريخ المسلمين – يتصدون لأمثال هؤلاء المبطلين المضلين ، فيقذفون بالحق باطلهم، وينفون بالصحيح زيفهم ، ويُزهقون بالعلم ما زخرفوه من أقوال ، وما

---

(١) المختار في الرد على النصارى ، تحقيق محمد عبد الله الشرقاوي ، ط . الأولى ، دار الصحوة ، القاهرة ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م ، ص٩١-٩٢ .

زوروه من دعاوى ، كما قام أولئك العلماء بفضح النصارى ونسف أركان عقيدتهم المحرفة ، وكشف ما هي عليه من تناقض ، وما تحمله من غموض وحيرة ولبس حتى بَيْن من يدّعون فهمها حق الفهم من رجال الدين ؛ دع عنك الغوغاء والعامة .

ومما لا مشاحة فيه أن الأندلس جزء من الوطن الإسلامي الكبير الذي يستهدف الأعداء النصارى تقطيع أوصاله ، وتمزيع أجزائه ، والقضاء على عقيدته الإسلامية . وقد تكشف في عصر المرابطين والموحدين أكثر من أي عصر مضى أن النصارى قد جعلوا ضرب الإسلام في الأندلس - فكرياً - سلاحاً معتبراً في حربهم المتطاولة مع المسلمين ؛ حيث أيدوا مفكريهم الذين عُنوا بهذا النمط من السلاح ، فشجعوا خططهم ، ودفعوهم مادياً ومعنوياً . فكان موقف المسلمين من ذلك أن انبرى جمع من علمائهم للوقوف في وجه تلك الحرب الفكرية النصرانية بسلاح فكري إسلامي ، فناظروا مواجهة قوماً من النصارى ، وردوا بالكتابة على قوم آخرين . ولاستجلاء ما أشرنا إليه سنقسم الموضوع إلى مباحث ثلاثة هي :

١ - حملات النصارى الفكرية ضد الإسلام في عصر المرابطين والموحدين .

٢ - العلماء الذين تصدوا للحملات الفكرية النصرانية .

٣ - عرض لما دونه العلماء في الرد على النصارى .

أولاً : حملات النصارى الفكرية ضد الإسلام في عصر المرابطين والموحدين :

كانت الكنيسة الإسبانية قبل القرن الخامس الهجري -الحادي عشر الميلادي- منعزلة عن البابوية في روما (١) ، فلم تكن تعترف بالرياسة الروحية للبابا ، بيد أنه في غضون هذا القرن أتيح للأباء التابعين للبابوية النفاذ إلى الممالك الإسبانية (٢) ؛ ثم ما نشبوا أن ابثوا في أديرتها ، فصار وجودهم في إسبانيا بهذا الشكل سبيلاً للبابا للتدخل المباشر في الشؤون الإسبانية (٣) ، إذ كتب إلى الحكام الإسبان يطالبهم بالاعتراف له بالسيادة العليا عليهم، وأن لا يقوموا بأي غزو في أراضي المسلمين إلا بعد أخذ إذن منه . كما عمل على وضع جميع أديرة إسبانيا تحت رعايته لتكون له الأحقية في تعيين الأساقفة الإسبان(٤). كما اجتهد في إحلال الطقوس الرومانية محل الطقوس المحلية في الكنائس الإسبانية(٥) . ثم إنه سعى إلى رفع شأن رجال الدين المنتمين إليه في هذه البلاد، فكانت النتيجة أن انتخب منهم فيما بعد معظم الأساقفة العاملين فيها(٦) ، فكان من أشهرهم برنارد الفرنسي☆ الذي عين مطراناً لطليطلة بعد

---

(١) أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص١١٩ ؛ كلود كاهين : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ترجمة أحمد الشيخ ، ط . الأولى ، سينا للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٥م ، ص٨٠ .

(٢) أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص١١٩-١٢٠ ؛ رجب عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا ، ص٣٢٦ .

Reyna Pastor de Togneri : del Islam al Cristianismo, Barcelona, 1985, P . 114

(٣) أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص١٢٠ ؛ كلود كاهين : الشرق والغرب ، ص٨٠ .

(٤) محمد العروسي المطوي : الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، ط . دار الغرب ، بيروت ، ١٩٨٢م، ص١٩٠ .

(٥) مؤنس : فجر الأندلس ، ص٤٩٨ ؛ Reyna Pastor de Togneri : op . cit . P 114

(٦) أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص١٢١ .

☆ برنارد الفرنسي Bernardo كان من المحاربين الشجعان ، ثم انتظم في السلك الكنسي الكلوني ، =

انتزاعها من المسلمين عام ٤٧٨هـ/١٠٨٥م ، ثم ما لبث البابا بعد مدة أن أصدر مرسومه بتعيينه رئيساً عاماً للكنيسة الإسبانية دون الالتفات إلى معارضة رجال الدين المحليين [1] .

لقد كان ارتباط البابوية في روما بالكنيسة الإسبانية ذا أثر فاعل في تأجيج ما يسمى عند النصارى بحركة الاسترداد[2] الرامية إلى محاربة المسلمين في الأندلس واقتلاع جذورهم منها . فلقد شجعت البابوية المحاربين الأوربين -وبخاصة من فرنسا- للانضمام إلى الجيوش الإسبانية المواجهة للمسلمين[3]، كما باركت قيام جماعات الفرسان الدينية في إسبانيا التي كانت غايتها الذود عن النصرانية ، وجلاد المسلمين [4] بمعزل عن التقلبات السياسية بين الممالك

- وعين أسقفاً لدير ساهاجون القريب من ليون . ولما احتل الفونسو السادس طليطلة نصبه بعد شهور مطراناً لطليطلة ، فكان له أكبر الأثر في سرعة تحويل جامع طليطلة إلى كنيسة . وفي عام ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م قابل البابا في روما فصدر مرسوم بابوي بتعيينه رئيساً عاماً للكنيسة الإسبانية (أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص١٢١-١٢٤ ؛ ضيا باشا : الأندلس الذاهبة ، تعريب عبدالرحمن أرشيدات ، ط. الأولى، وزارة الثقافة والإعلام ، عمان ١٩٨٩م ، جـ٢ ، ص٨٣ - ٨٤ ، Reyna Pastor de Togneri : op . cit., P . 114-116) .

(١) أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، Reyna Pastor de Togneri : op . cit . P . 115-116 .

(٢) العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص٢٨٣ ؛ رجب عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا ، ص٣٢٦ ؛ الحركة الصليبية والغرب الإسلامي في القرن الحادي عشر للميلاد " دور البابوية " ؛ ندوة الإطار التاريخي للحركة الصليبية ، حصاد ٣ ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م ، ص١٧٣ ؛ أحمد بدر : تاريخ الأندلس ، ص١٨٧ .

(٣) كلودكاهين : الشرق والغرب ، ص٨٠ . Claudio Sanchez Albornoz : el Islam de Espana y el Occidente , p . 181 .

(4) Derek W.Lomax:la Reconquista,P.134-144;Reyna Pastor de Togneri:op.cit .,P.124.

الإسبانية [١] . وفوق ذلك فقد حَرَّمَ البابا على الإسبان المشاركة في الحروب الصليبية في المشرق لأن محاربة المسلمين الذين يهددونهم في عقر دارهم – على حد اعتقاده – لا تقل أهمية عن المحاربة في المشرق [٢] . ولهذا هرع كثير من الأساقفة الإسبان لمرافقة الجيوش الإسبانية [٣] ، بل قاد بعضهم بأنفسهم حملات لقتال المسلمين [٤] .

فإذا كانت الكنيسة الإسبانية أضحت –حسبما تقدم– كنيسة محاربة في ميدان القتال ضد المسلمين في الأندلس [٥] فإن رجالها الذين رفعوا شعار "من أجل الدفاع عن النصرانية " [٦] أو " من أجل الدفاع عن الكنيسة في مواجهة أعداء الصليب " [٧] لم يقتصروا على الحرب العسكرية بل قرنوا بها حرباً فكرية تتخذ من الكلمة والفكرة وسيلة لها لضرب الإسلام والمسلمين في الأندلس[٨]. يقول أحد رجال الدين النصارى موجهاً كلامه إلى المسلمين في عصر المرابطين " إنني لا أهاجمكم –كما يفعل كثيرون بيننا– بالسلاح ،

---

(١) أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص٢٦٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص١٢٤ ؛ منتجمرى وات : فضل الإسلام على الحضارة الغربية ، ترجمة حسين أحمد أمين ، ط . الأولى ، دار الشروق ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص٧٢ ؛ محمد العروسي المطوي : الحروب الصليبية ، ص١٩١ .

(٣) أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص١٢٥ ، Derek W.Lomex : op. cit . p.138

(4) Reyna Pastor de Togneri : op . cit ., P .125 .

(٥) رحب عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا ، ص٣٢٩ .

(6) Derek W.Lomax : op. cit . p.134 .

(7) Ibid , p . 135 .

(٨) أليكسى جوارفسكي : الإسلام والمسيحية ، ترجمة خلف محمد الجراد ، ط . عالم المعرفة ، الكويت ، جمادي الآخرة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م ، ص٨١ ، ٨٢ .

إنني أوجه إليكم كلماتٍ فقط بغير عنف وبتعقل وهدوء ... "[(١)]. وعلى ضوء هذه المقالة انساق جمع من الناشطين النصارى للإسهام في تلك الحرب الفكرية ، فكان محور نشاطهم يدور حول إظهار محاسن النصرانية في مقابل إثارة الشبه تجاه تعاليم الإسلام وإحكامه ونبيه ﷺ ، وقد صاحب ذلك - بطبيعة الحال - دعوة إلى النصرانية ، وترويج لها بين المسلمين .

ومما ينبغي إيضاحه أن الحملات الفكرية النصرانية التي تعرض لها مسلمو الأندلس إبان عصر المرابطين والموحدين لم تكن كلها جديدة بالمرة عليهم ، لأنهم من قبل واجهوا شيئاً من التهجم على الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام، وذلك من طرف النصارى الذين يعيشون بين ظهرانيهم، إذ نرى أصداءً لهذا التهجم في المصادر الإسلامية ، وبشكل خاص خلال القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي -[(٢)]. لكنَّ الجديد الذي نلمحه في زمن الدراسة أن الكنيسة ليس في الأندلس وإنما في الممالك النصرانية المجاورة تبنت ذلك الاتجاه منهجاً لحرب المسلمين الأندلسيين ؛ حيث طفق بعض أولى الفطنة والمكر من رجالها للتعرف بقدر من الموضوعية على الدين الإسلامي ، والحصول على معلومات أكثر واقعية عن تعاليمه وأحكامه[(٣)] بغرض

---

(١) ريتشارد سوذرن : صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى ، ترجمة رضوان السيد ، ط . الأولى، معهد الإنماء العربي ، بيروت ، ١٩٨٤م ، ص٨٢ .

(٢) ابن سهل : وثائق في أحكام أهل الذمة (مستخرجة من الأحكام الكبرى) تحقيق محمد عبد الوهاب خلاف ، ط . المركز العربي الدولي للإعلام ، ١٩٨٠م ، ص٧٠-٧١ ؛ عياض : الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق محمد أمين قرة علي وآخرين ، ط . الثانية ، دار الفيحاء ، عمان ، الأردن ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، جـ٢ ، ص٥٧٣ ، ٦٢٨ .

(٣) مكسيم رودنسون : الصورة الغربية والدراسات الغربية للإسلام (تراث الإسلام ، تصنيف شاخت وبوزورث) ط . عالم المعرفة ، الكويت ، شعبان - رمضان ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ق١ ، ص٣٧ ؛ =

التفتيش عن المتشابه ، ونبش الغامض ، ومن ثم لبس الحق بالباطل ، وخلط الصحيح بالسقيم ، والغث بالثمين . ومن ذلك ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية ، إذ قام رئيس رهبان دير كلوني☆بطرس الموقر☆☆ (ت٥٥١هـ/١١٥٦م) أثناء رحلته إلى إسبانيا بتكليف نفر من المترجمين في طليطلة عام ٥٣٨هـ/١١٤١م بترجمة القرآن (١) ، فتم ذلك في غضون عامين (٢) ، ثم استفيد من هذه الترجمة - فيما يبدو حال الفراغ منها - في الهجوم الفكري على الإسلام ، ذاك أنه في عام ٥٤٠هـ/١١٤٣م ظهر كتاب يطعن في الإسلام والنبي ﷺ تخللته بعض الآيات القرآنية ، وقد كان تأليفه برعاية بطرس الموقر (٣) .

- محمود حمدي زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ط . الأولى ، كتاب الأمة ، قطر ، صفر ١٤٠٤هـ ، ص٢٤ .

☆ دير كلوني Cluny ظهر في شرقي فرنسا عندما أصدر دوق أكويتان عام ٢٩٧هـ/٩٠٩م أمراً بإنشائه، وقد ترك له نوعاً من الحكم الذاتي على أن يكون تحت حماية البابا نفسه . ومن هذا الدير انطلقت حركة إصلاح دينية امتدت إلى أنحاء أوربا ، فصار دير كلوني مع حلول القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي - يتبعه أكثر من ألف ومائة دير كلها يشرف عليها كلوني إشرافاً مباشراً (أيرل كيرنز : المسيحية عبر العصور " تاريخ الكنيسة المسيحية " ترجمة عاطف سامي برنابا ، ط . دار نوبار ، ١٩٦٢م ، ص٢٣١ ؛ رودنسون : الصورة الغربية ، ص٣٧) .

☆☆ بطرس الموقر Petrus Venerabilis فرنسي ولد عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م . وقد انتظم في سلك الرهبنة ، ثم تولى رئاسة بعض الأديرة ، ولما بلغ الثلاثين من عمره صار رئيساً لدير كلوني ، فاجتهد في إصلاحه وتوسعة نفوذه . وقد رحل إلى إسبانيا مرتين ، وتوفي سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م (عبد الرحمن بدوي : موسوعة المستشرقين ، ط . الثانية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٩م ، ص٦٨ ؛ نجيب العقيقي : المستشرقون ، ط . الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠م ، جـ١ ، ص١١٢) .

(١) بدوي : موسوعة المستشرقين ، ص٦٨ ، ٣٠٦ ؛ العقيقي : المستشرقون ، جـ١ ، ص١١٣ .
Claudio sanchez Albornoz : op . cit ., P . 197 - 198 .

(٢) سوذرن : صور الإسلام ، ص٨٠ ؛ Reyna Pastor de Togneri :op . cit . , P . 120

(٣) بدوي : موسوعة المستشرقين ، ص٦٨ ؛ مونتجمري وات : فضل الإسلام ، ص٩٩ .

ونظراً للارتباط الوثيق والصلة اللاحمة بين الكنيسة الإسبانية ودير كلوني ، والتأثير الكبير الذي يشكله هذا الدير على الحياة الدينية في إسبانيا في ذلك الأوان، فضلاً عما كان يبديه رئيسه بطرس من عناية زائدة بالنصارى الإسبان [١] فمن المؤكد أن المخطط الذي تبناه الكلونيون في حربهم الفكرية للإسلام قد طبق في إسبانيا وإن تلونت أحياناً وسائل التطبيق . ففي سبيل ذلك الهدف -أعني محاربة الإسلام فكرياً- أقبل لفيف من النصارى الإسبان على الدراسات العربية المتعلقة بالدين الإسلامي ، فقام - مثلاً - مارك الطليطلي☆ (ت حوالي ٦٣١هـ/١٢٣٤م) بترجمة القرآن إلى اللاتينية[٢]، ثم ما لبث بعد ثلاث سنوات-أي في سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م- [٣] أن قام بترجمة كتاب عقيدة ابن تومرت[٤] المعروف بالمرشدة ، ورسائل موحدية أخرى[٥]. وكان بأمرٍ من رئيس أساقفة طليطلة الذي كان يُعد آنذاك الرئيس الكاثوليكي لإسبانيا كلها [٦] . وقد أفصح مارك هذا عن غرضه من الترجمة بقوله " لقد

(١) بدوي : موسوعة المستشرقين ، ص٦٨ ؛ العقيقي : المستشرقون ، جـ١ ، ص١١٢ .

☆ مارك الطليطلي: Marcos de Toledo يعد من مترجمي مدرسة طليطلة في عصرها الثاني ؛ حيث ازدهر نشاطه في مجال الترجمة بين عامي ٥٨٧هـ/١١٩١م و ٦١٣هـ/١٢١٦م ، فكان مما ترجمه بعض كتب جالينوس ، والقرآن الكريم وعدة رسائل موحدية . وقد أصبح بعد ذلك كاهن طليطلة ، ويظهر أنه عاش حتى عام ٦٣١هـ/١٢٣٤م (رامون مينينديث بيدال : إسبانيا تنقل العلم العربي إلى الغرب ترجمه مع عدة أبحاث: الطاهر أحمد مكي في: الأدب الأندلسي من منظور إسباني، ط . الأولى ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص ٢٥٦ ؛ Claudio Sanchez Albornoz:op. cit., p. 199

(٢) العقيقي : المستشرقون ، جـ١ ، ص١١٣ ؛ عبد الرحمن بدوي : دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي ط . الثالثة ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٧٩م ، ص١٠ .

(٣) ابن تومرت : أعز ما يطلب ، ص٢١ من مقدمة المحقق .

(٤) Claudio Sanchez Albornoz : op.cit. , p.199-200 .

(٥) بيدال : إسبانيا تنقل العلم العربي ، ص ٢٥٦ .

(٦) ابن تومرت : أعز ما يطلب ، ص٢٠ ، ٢١ من مقدمة المحقق ؛ عبادة كحيلة : تاريخ النصارى في الأندلس ، ط . الأولى ، المطبعة الإسلامية الحديثة ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م ، ص٩٣-٩٤ .

قمت ... بترجمة كُتيب ابن تومرت بعد أن انتهيت من ترجمة القرآن لكي يتسنى للمسيحيين [النصارى] أن يأخذوا أكبر قدر من المعلومات يتمكنون عن طريقها من الرد على المسلمين ومحاربتهم "(١) ☆ ، ثم عاد بعد قليل فأكد بعبارة أخرى على غرضه من ترجمة القرآن وعقيدة ابن تومرت فقال " ولقد قمت بذلك ليتمكن الكاثوليكيون – بعد أن يدرسوا كلا منهما – أن يعرفوا أسرار المسلمين ، ويستطيعوا عن هذه الطريق مهاجمتهم " (٢) .

وثمة رجال دين نصارى من إسبانيا كانوا قد تعلموا اللغة العربية ، ثم سخروا ذلك فيما يفيد بني ملتهم في حربهم الفكرية ضد الإسلام(٣) ، بل إن بعضهم رَغِبَ في تعلم اللغة العربية "التماساً لحجج يقارع بها الإسلام وأهله"(٤).

وربما يكون اتجاه بعض رجال الدين إلى التعرف على تاريخ المسلمين داخلاً في بعض أهدافه في دائرة الحرب الفكرية المتصاعدة ضد الإسلام ، فالمطران رودريك خيمنيس الطليطلي☆☆ رئيس أساقفة طليطلة ما بين سنة

---

(١) ابن تومرت : أعز ما يطلب ، ص٢١ من مقدمة المحقق .

☆ يظهر أن اختيارهم ترجمة كتاب المرشدة يعود لكونه الكتاب المعتمد لدى الدولة الموحدية التي كانت تواجههم . ثم لايستبعد أن اختيارهم أيضاً وقع على هذا الكتاب بالذات لأنه يتضمن شطحات عقدية تجعله لايتوافق مع العقيدة الإسلامية الصحيحة . انظر : (ابن تيمية : مجموع فتاوى ابن تيمية ، جـ١١ ص٤٧٦–٤٩١) وبذلك يسهل عليهم العثور على مفارقات يستغلونها في طعن الإسلام وإثارة الشبهات حوله وبالتالي تشويهه عند بني قومهم .

(٢) ابن تومرت : أعز ما يطلب ، ص٢٢ من مقدمة المحقق .

(٣) العقيقي : المستشرقون ، جـ١ ، ص١١٣ ، ١١٥ ؛ جمال الدين الشيال : التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوربي في عصر النهضة ، ط . دار الثقافة ، بيروت ، ص٢٢ .
Cristobal Cuevas : op. cit ., p. 265 .

(٤) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص٥٤١ .

☆☆ رودريك خيمنيس Rodrigo Jimenez ولد بمقاطعة نبرة في الشمال الإسباني، ودرس في -

٦٠٥هـ/١٢٠٨م وسنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م (١) الذي كان يتكلم العربية (٢) - ألف في تاريخ العرب المسلمين (٣) ؛ وكونه خصص جزءاً من هذا التاريخ لحياة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين (٤) يومىء إلى أن أحد مقاصده من ذلك التأليف كان الاستفادة منه في مواجهة الإسلام فكرياً .

ومهما يكن من أمر وسواء كان حصول هؤلاء النصارى على معلومات عن الإسلام عن طريق الترجمة إلى لغتهم ، أو عن طريق تعلمهم بأنفسهم اللغة العربية، فالذي يتجلى لنا أن محرري الكتابات النصرانية المحاربة للإسلام في عصر المرابطين والموحدين قد عرفوا القرآن الكريم، بحيث صاروا يستشهدون بآيات قرآنية ، فربما ذكروها تارة بنصوصها (٥) ، وربما اكتفوا حيناً بعبارة تنبه إلى أن ما ذكروه وارد في القرآن(٦) ، بل أن المتمعن في تلك

= فرنسا ، ثم عاد إلى إسبانيا ، وبدأ حياته الكنيسة ، حيث عين أسقفاً لمدينة أوسمة ، ثم صار مطراناً لطليطلة حتى وفاته عام ٦٤٥هـ/١٢٤٧م. ولقد أسهم في الحياة السياسية في عصره ، وأبدى حماساً في محاربة المسلمين . وقد ألف الحولية المنسوبة إليه التي تضمنت قسماً عن تاريخ المسلمين (رودنسون : الصورة الغربية ص٤٢؛ عبد المحسن رمضان :تاريخ حركة المقاومة الإسبانية ضد المسلمين في الأندلس، ط . مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، ١٩٨٧م، جـ١، ص٧٧-٧٨؛ الشيال: التاريخ الإسلامي، ص٤٠).

(١) عبد المحسن رمضان : تاريخ حركة المقاومة ، جـ١ ، ص٧٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص٧٨ ؛ الشيال : التاريخ الإسلامي ، ص٤٠ .

(٣) رودنسون : الصورة الغربية ، ص٤٢ .

(٤) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٥) الخزرجي : مقامع الصلبان ، تحقيق عبد المجيد الشرفي ، ط . الشركة التونسية لفنون الرسم ، تونس ١٩٧٥م ، ص٣١ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ؛ القرطبي : الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ، وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، تحقيق : أحمد حجازي السقا ، ط . دار التراث العربي ، القاهرة ١٩٨٠م ، جـ٢ ، ص ٢١٥ ، ٢١٧ ؛ الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ١١ ، ص١٥٦ .

(٦) الخزرجي : مقامع الصلبان ، ص ٣١ ، ٣٦ .

الكتابات يلمح أن بعضهم قد درس عقيدة المسلمين (١) ، واطلع على أصول الدراسات الشرعية الإسلامية (٢) ؛ وعرف من أحكام الدين الإسلامي نصيباً وافراً (٣) .

ولقد تكاثرت الكتابات الطاعنة في الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام في تلك الحقبة ، وقد حكى ذلك قسيس نصراني كتب آنذاك مخاطباً أحد المسلمين بقوله " أما دينكم فقد ألف كثير من أساقفتنا كتباً في الطعن فيه... " (٤) ويظهر أن تلك الكتابات كانت تسطر باللغة العربية، وقد يجتمع عدد من الأساقفة لتصنيف شيء منها (٥) ، وكان بعضها يوجه إلى أشخاص معينين من المسلمين (٦) ، وبعضها الآخر يروج لها في المدن الإسلامية بين الخواص والعوام على حد سواء (٧) . وكانت مدينة طليطلة عاصمة مملكة قشتالة هي أهم المدن الإسبانية التي حملت لواء الحرب الفكرية ضد المسلمين في الأندلس ، فالرسائل والكتب المحادة للإسلام كانت تنبعث من رجال الدين فيها (٨) . ولا غرابة في ذلك وهي التي كانت وقتذاك قاعدة النصرانية في إسبانيا ، وكنيستها هي أم الكنائس والأديرة الإسبانية .

---

(١) الخزرجي : مقامع الصلبان ، ص٣٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص٣٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص٣٥ ؛ القرطبي : الإعلام ، جـ٤ ، ص٤٤٨ .

(٤) الخزرجي : مقامع الصلبان ، ص٣٤ .

(٥) القرطبي : الإعلام ، جـ١ ، ص٤٩ .

(٦) الخزرجي : مقامع الصلبان ، ص٣٠ .

(٧) القرطبي : الإعلام ، جـ١ ، ص٤٣ ، جـ٢ ، ص٢١٦ ، جـ٤ ، ص٤٠٢ ، ٤٣٨ .

(٨) الخزرجي : مقامع الصلبان ، ص٢٩ ؛ القرطبي : الإعلام ، جـ١ ، ص٤٣ ، ٤٩ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة : " نصوص جديدة " ، ص٧٤ .

أما عن الموضوعات الإسلامية التي استغلها النصارى في حملاتهم الفكرية فهاجموها أو أثاروا حولها الشبهات فقد كانت في عصر المرابطين والموحدين تتلخص في قدسية القرآن الكريم وإعجازه ، وصدق نبوة الرسول ﷺ ، وما يحصل في الجنة والنار من نعيم وعذاب ، وكذلك فيما يتصل ببعض شرائع الإسلام وأحكامه كتعدد الزوجات والطلاق والقصاص والجهاد وانتشار الإسلام بالسيف إلى غير ذلك .

ويبدو أن ما لاح في ذلك العصر من نزعة شعوبية تمجد العجم ، وتفخر بمآثرهم ، وتنتقص العرب ، وتحط من قدرهم [1] كانت موجة من موجات الحملات الفكرية المحاربة للإسلام ؛ فالعرب - كما لا يخفى - هم الذين في وسطهم شع نور الدين الإسلامي ، فحملوه إلى الآفاق . وعرب الأندلس ومَنْ تعرب مِنْ أهل البلاد بعد أن رضي الإسلام ديناً كانوا هم حملةَ هذا الدين في الأندلس ، الذابين عنه الأعداء النصارى ، فانتقاص قدرهم ، واحتقار شأنهم في الأندلس يعد ضرباً من ضروب الهجوم على الإسلام بينما تعظيم قدر العجم في المقابل إنما هو في حقيقته - رفع من شأن النصرانية ، لأن هؤلاء هم الذين يمثلونها ، ويرفعون لواءها .

وبجانب الكتابات الناضحة بالعداء للإسلام نشط القساوسة في بث شبهاتهم شفهياً بين المسلمين الذين ظلوا يعيشون في المدن الداخلة حديثاً في الاحتلال النصراني، فكانوا يلتقون بالعامة من أولئك المسلمين، ويشككونهم في عقيدتهم ، ثم يستميلونهم إلى النصرانية [2] ؛ أما العلماء وطلبة العلم

(١) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ١ ، ص٥٤٥ ، جـ٣ ، ص١٤٢٧ - ١٤٢٩ .

(٢) الخزرجي : مقامع الصلبان ، ص ٢٩ ؛ الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ١١ ، ص١٥٥ .

المسلمين فكان رجال الدين النصارى يختلون بهم ويستجرونهم إلى المناظرة في مسائل يرونها كفيلة بخلخلة العقيدة الإسلامية في قلوبهم [١] . ومما يسترعى الانتباه أن أولئك القساوسة والرهبان - كفاء ما يقومون به من بذر الشكوك بين المسلمين وتنصير لهم - كانوا يتقاضون أجوراً من الملوك النصارى ، وينشدون من وراء ذلك عندهم مكاناً علياً[٢] . يحكى أحد الكتاب المسلمين عما رآه بأم عينيه من فعل رجال الدين في مدينة مُرْسِيَة في شرقي الأندلس بعد سقوطها في قبضة النصارى ، فيقول " وكان قد ورد عليها من قبل طاغية الروم جماعة من قسيسهم ورهبانهم شأنهم الانقطاع في العبادة بزعمهم ، ونظر العلوم ، مشرئبون للنظر في علوم المسلمين وترجمتها بلسانهم برسم النقد... ولهم حرص على مناظرة المسلمين ، وقصد ذميم في استمالة الضعفاء، يأكلون على ذلك مال طاغيتهم ، ويستمدون به الجاه من أهل ملتهم ..." [٣].

على أن التنصير لم يكن قاصراً على المدن المحتلة بل امتد إلى الأراضي الإسلامية ، ففي الرسائل النصرانية التي خطها رجال الدين برسم الرد على الإسلام بزعمهم ، وبعثوها إلى المسلمين نلمح في بعضها الدعوة إلى التنصير . تأمل كلمات أحدهم في رسالته إلى أحد طلبة العلم المسلمين بعد أن بين له محاسن النصرانية وفضلها على الإسلام حسب اعتقاده ، قال " وأنا قد بذلت لك النصيحة في هذه الرسالة لما ظهر لي من نُبْلك ، فاعتبرها وتدبرها ، والله يجعلها نورك ، وسبب هداك ، آمين " [٤] . ولا ريب أن النصارى لن يألوا

(١) الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ١١ ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .
(٢) القرطبي : الإعلام ، جـ١ ، ص٤٣ - ٤٤ ؛ الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ١١ ، ص١٥٥ .
(٣) الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ١١ ، ص١٥٥ .
(٤) الخزرجي : مقامع الصلبان ، ص٣٨ - ٣٩ .

جهداً في الدعوة إلى دينهم والدعاية له بين المسلمين في الأندلس إذا حانت لهم الفرص . فعلى سبيل التمثيل قدم نفر من رجال الدين النصارى المتعصبين إلى الأندلس أيام ضعفها في أواخر عصر الموحدين ، فحلوا في مدينة إشبيلية ، وتجرأوا على دخول مسجد من مساجدها في وقت صلاةٍ ، فجعلوا ينشرون الإنجيل ، ويدعون إلى عقيدتهم فما برحوا يفعلون ذلك إلى أن طردهم المصلون من المسجد (١) . ومع أنهم زُجوا في أحد السجون إلا أن حماسهم في التنصير لم يَخْبُ ، إذ استمروا يدعون إلى دينهم وهم في سجنهم (٢) .

وقد لا يجانبنا الصواب إذا قدرنا أن القائمين على الكنيسة الإسبانية حين صوبوا سهامهم إلى العقيدة الإسلامية ، واتجهوا إلى تنصير المسلمين في الأندلس المسلمة كانوا يرمون إلى خلق جوٍ من الغزو الروحي لأولئك المسلمين ليسهل عليهم حينئذٍ غزوهم عسكرياً (٣) .

والمتفحص لواقع المسلمين الفكري في الأندلس يلمح حالات من الانحراف الفكري عن العقيدة الإسلامية بين أفراد منهم خلال زمن دراستنا . فهناك ألفاظ صدرت من بعض الناس تتضمن اجتراءً على الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام،واستخفافاً بما عظمه الله سبحانه من حقوقهم، وتهاوناً بما فرضه الله من توقيرهم (٤) ؛ بل شاعت في زمن الموحدين ما نُسب إلى

---

(١) هنري دي كاستري : الإسلام خواطر وسوانح ، ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا ، ط . مطبعة الشعب، مصر ، ١٣٢٩هـ/١٩١١ ، ص٤٧ ، ١٦٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص٤٨ ، ١٦٢ .

(٣) عبد المجيد التركي : قضايا ثقافية من تاريخ الغرب الإسلامي ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ، ص٢٠ .

(٤) عياض : الشفا ، جـ٢ ، ص٢١٩ - ٥٢٠ ؛ الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ٢ ، ص٣٥٧، ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

الأنبياء عليهم السلام من حكايات منكرة ، وقصص مكذوبة [(١)] . كما صدرت – أيضاً – أقوال من بعضهم تنطوي على غض من جناب النبي ﷺ ، وانتقاص من شخصه الكريم [(٢)] ؛ بل بلغ الفسق بأحدهم إلى سبه عليه الصلاة والسلام[(٣)] . وثمة عبارات ترددت آنذاك تستهجن لسان العرب ، وترى عدم الحاجة إليه[(٤)]. وقد تجرأ أحدهم على لعن اللغة العربية ، وتبجح بالقدرة على قراءة سورة يوسف بلغة العجم [(٥)] . وغير بعيد أن تكون هذه الانحرافات الفكرية التي طفت على السطح بين مسلمي الأندلس عصرذاك كانت بأثر من الحملات الفكرية النصرانية المسلطة عليهم ، يعزز ما نميل إليه من أحد كتاب العصر الموحدي – لما رصد الطوائف التي أشاعت القصص المستشنعة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ذكر منها " أراذل اليهود والنصارى " [(٦)] .

وحاصل القول أن الأندلس تعرضت في عصر المرابطين والموحدين لحرب فكرية منظمة انبعثت من الممالك الإسبانية ، وبخاصة من مملكة قشتالة وحاضرتها طليطلة ، وقد كان أثر البابوية في تأجيج تلك الحرب ظاهراً ، ثم إنها تلونت بين التشكيك في الإسلام وأحكامه وتعاليمه، والقدح في العرب، والترويج للنصرانية ، وقد صوبتْ نحو خواص المسلمين فضلاً عن عوامهم.

---

(١) ابن حمير : تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حُثالة الأغبياء ، تحقيق محمد رضوان الداية ، ط . الأولى ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م ، ص٢٤ ، ٢٥ .

(٢) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ٣ ، ص١٤٢٧ ؛ الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ٢ ، ص٣٥٢ ، ٣٥٩ .

(٣) عياض : مذاهب الحكام ، ص٨١ ؛ الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ٢ ، ص٣٦٦ ، ٥٢٦ .

(٤) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ١ ، ص٥٤٥ .

(٥) المصدر السابق ، جـ٣ ، ص١٤٢٧ – ١٤٢٨ ؛ الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ٢ ، ص٣٥٢ .

(٦) ابن حمير : تنزيه الأنبياء ، ص٢٤ .

ثانياً : العلماء الذين تصدوا للحملات الفكرية النصرانية :

إن دفع المعتدين على الإسلام والمسلمين من النصارى وغيرهم لا ينحصر - كما هو معلوم - على الجهاد بالسيف والسنان وإنما يشمل أيضاً جهادهم بالحجة والبرهان واللسان [(١)] ، وقد تدعو الحالة - أحياناً - إلى الجمع بين النوعين ، وقد ينفع أحدهما حيث لا ينفع الآخر [(٢)] . فإذا قدح الكفار في الإسلام وطعنوا في آياته وشرائعه وجب جهادهم " بالعلم والبيان دون السيف والسنان " [(٣)] . " فالاعتداء على الدين أضر من الاعتداء على الأنفس والأموال ، والدفاع عن الدين أوجب من الدفاع عن الأنفس والأموال " [(٤)] .

ومن نافلة القول التأكيد على أن العلماء وطلاب العلم هم القادرون - خلاف غيرهم من أفراد الجماعة الإسلامية - على الذب عن الدين الإسلامي ، والتصدي للشبهات التي يطلقها ضده الأعداء .

ولقد أدرك علماء الأندلس أيام المرابطين والموحدين خطر الحملات الفكرية النصرانية على بلادهم ، ووعوا مسؤوليتهم في درئها☆ ، وتحصين

(١) عبد الرحمن السعدي : جهاد الأعداء ووجوب التعاون بين المسلمين ، ط . دار ابن القيم ، الدمام ، ١٤١١هـ/١٩٩١م ، ص٩ ؛ عبد الله بن زيد آل محمود : الجهاد المشروع في الإسلام ، ط . الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، جـ ١ ، ص٢٦ .

(٢) ابن تيمية : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ط . علي السيد صبح المدني ، القاهرة، جـ١، ص٦٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص٧٥ .

(٤) آل محمود : الجهاد المشروع ، جـ١ ، ص٢٨ .

☆ لما تعرض أبو بكر بن العربي لقوله تعالى : ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ ذكر أن هذه الآية تحتمل أن تكون مكية "ويكون حق الجهاد في مجاهدة الأعداء بالجدال " إلى أن قال "ومجاهدة الأعداء=

المسلمين من آثارها ، حتى إن أحدهم حين تطاول نصراني بكتاباته على الإسلام في النصف الثاني من العصر الموحدي اعتبر أن الرد على تلك الكتابات وكشف زيفها مسؤولية مناطة به شخصياً ، فحكى شعوره بتلك المسؤولية قائلاً " فصار ذلك علي كأنه من فروض الأعيان " (١) .

وإذا تذكرنا أن الحملات الفكرية النصرانية على الأندلس زمنذاك تمحورت في التأكيد على صحة العقيدة النصرانية في مقابل إثارة الشبه حول الدين الإسلامي عقيدة وشريعة – إذا تذكرنا ذلك علمنا أن مواجهتها مواجهة فكرية واعية تتطلب علماء من طراز خاص لهم علم بمكائد الأعداء وتدابيرهم، ودراية بفساد العقيدة النصرانية وتناقضاتها ، ومعرفة بأحكام الشريعة الإسلامية وفضائلها ومحاسنها وحِكَمِها. ولعل أبا بكر بن العربي (٢) (ت٥٤٣هـ/١١٤٨م) قصد مثل هذا الطراز من العلماء حين ذكر أن من أصناف العلماء الناصحين لدين الله أولئك الذابون " عن دين الله أهلَ العناد وأصحاب البدع ، فهم شجعان الإسلام ، وأبطاله المداعسون عنه في مآزق الضلال " . فيكون ذبهم عن الدين ونصرتهم له ، وإعزازهم لرايته في هذا المجال عن طريق الكلام والأقلام ، وقد عبر أبو الحجاج البلوي (٣) (ت٦٠٤هـ/ ١٢٠٨م) عن ذلك بقوله " ويأبى الله إلا أن يُعز هذا الدين ويناصره ، أقام له حماةً أمجاداً، كماةً أنجاداً ، نصروه بكلامهم ، وزبروه في الكتب بأقلامهم " .

– بالجدال لم يزل ولا يزال " (الناسخ والمنسوخ ، جـ٢ ، ص٣٠٧) .

(١) القرطبي : الإعلام ، جـ١ ، ص٤٥ .

(٢) العواصم ، ص٣١٨ .

(٣) ألف باء ، جـ١ ، ص٣٥٣ .

وقبل أن نتحدث عن العلماء الأندلسيين الذين شهروا بالتصدي الصريح لحملات النصارى الفكرية نشير إلى أن هناك طائفة أخرى من علماء الأندلس كانت لهم إسهامات معينة في هذا المضمار . فالمسلمون بعامة عند قراءتهم للقرآن الكريم يتعرفون على ضلال العقيدة النصرانية ، إذ ناقش القرآن دعاوى النصارى مناقشة عقلية ، أثبت لهم فيها فساد ما يدعونه [١]. وبهذا يمكننا القول إن معلمي القرآن في ذلك الزمان –وهم كثر–[٢] بتدريسهم للقرآن يسهمون بتبصير المسلمين وإعلامهم بما تحويه عقائد النصارى الضالين من انحراف وأوهام . وكذلك الحال بالنسبة للمفسرين الذين يشرحون في دروسهم وكتبهم تلك الآيات المتعلقة بالنصارى ومزاعمهم [٣] .

وغير بعيد أن يكون العلماء الأندلسيون الذين ألفوا في ذلك العصر كتباً في نبوة الرسول ﷺ قد قصد بعضهم في تأليفها مواجهة الحملات النصرانية المشككة – أو قُل المنكرة – لتلك النبوة . يومئ إلى ذلك أنه فيما توافر لدينا من كتب مخصصة للرد على النصارى زمن دراستنا نشهد فصولاً تُعنى بإثبات نبوته ﷺ والتدليل على صدقها [٤] . وخليق بالبيان هنا الإفادة

---

(١) خالد بن عبد الله القاسم : الحوار مع أهل الكتاب ، ط . الأولى ، دار المسلم ، الرياض ، ١٤١٤هـ ، ص١٩٦ .

(٢) انظر على سبيل المثال : ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٥٩٦ ؛ المعجم ، ص٣٩٥ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٣٩٨ ، س٥ ، ق١ ، ص١٢ ، ص١٨٢ .

(٣) انظر مثلاً : ابن برجان ، تفسير ابن برجان (قطعة منه) ، ورقة ٦٦ ب ، ٦٨ ب ، ٦٩ أ ، ٧٧ أ ، ٨٨ ب ؛ ابن عطية : المحرر الوجيز ، جـ٤ ، ص٣١٦ – ٣١٨ ، جـ٥ ، ص١٦١ ، جـ٨ ، ص١٦٤ ؛ ابن العربي : أحكام القرآن ، ق١ ، ص٥١٨ ؛ ابن الجزري : غاية النهاية ، جـ١ ، ص١٢ ، ١٧ ، ٦٦ ، ٨٧ ، ١٢٧ ، جـ٢ ، ص٣ ، ١٢ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٤٦ ، ٦٠ ، ١٠٨ ، ١٤٣ .

(٤) الخزرجي : مقامع الصلبان ، ص١١٦ – ١١٧ ؛ القرطبي : الإعلام ، جـ٣ ، ص٢٦١ .

بأن آيات النبوة التي يكتب عنها العلماء بعامة تعنى عادة معجزاته ﷺ أو دلائل نبوته أو أعلامها[١] . وعندنا علماء أندلسيون ألفوا في النبوة ، منهم أبو عبد الله بن خلف الأوسي☆ (ت٥٣٧هـ/١١٤٢م) الذي ألف كتاب " الأصول إلى معرفة الله ونبوة الرسول ﷺ " [٢] . وأبو عبد الله بن أبي الخصال [٣] (ت٥٤٠هـ/ ١١٤٦م) الذي نظم قصيدة في النبي ﷺ عرض فيها لمعجزاته عنوانها " معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب في ذكر نسب الرسول ﷺ ومعجزاته ومناقب أصحابه " [٤] . وعبد الحق الإشبيلي☆☆ (ت٥٨٢هـ/ ١١٨٦م) الذي ألف كتاباً بعنوان " معجزات الرسول ﷺ " [٥].ومحمد بن

---

(١) ابن تيمية : الجواب الصحيح ، جـ٤ ، ص٦٧ .

☆ أبو عبد الله محمد بن خلف الأنصاري الأوسي ، ويعرف بالإلبيري ، لأن أصله من إِلْبِيرَة ، سكن قرطبة، كان من العارفين بمذاهب المتكلمين ، مشاركاً في الأدب ، متقدماً في الطب ، له عدة مؤلفات في الأصول والحديث . توفي في جمادى الآخرة عام ٥٣٧هـ/١١٤٢م (ابن الأبار : التكملة ، جـ ١ ، ص٤٣٩-٤٤٠ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص١٩٣ - ١٩٥؛ ابن الخطيب: الإحاطة ، جـ٣ ، ص١٦٥-١٦٦ ؛ ابن فرحون : الديباج ، جـ٢ ، ص٣٠٢) .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص١٩٤ .

(٣) رسائل ابن أبي الخصال ، ص٦٢٧ - ٦٣٧ .

(٤) الكلاعي : الإكتفاء ، جـ١ ، ص٣٩ ؛ الوادي آشي : برنامج الوادي آشي ، ص٢٢٤ .

☆☆ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الأزدي الإشبيلي ، يعرف بابن الخراط ، من أهل إشبيلية ، خرج من الأندلس بعد سقوط دولة المرابطين ، فسكن بجاية في المغرب الأوسط . كان فقيهاً حافظاً ، بارعاً في الحديث وعلومه ، مشاركاً في الأدب والشعر ، وله مصنفات عدة في الأحكام والحديث والوعظ طُبع أكثرها . وقد توفي في بجاية سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م وقيل ٥٨٢هـ/ ١١٨٦. (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٦٣٧-٦٣٨ ؛ المنذري : التكملة ، جـ١ ، ص٦١ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص٤-٧ ؛ الغبريني : عنوان الدراية ، ص٤١ - ٤٤ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء، جـ٢١ ، ص١٩٨-٢٠٢ ؛ ابن قنفذ : الوفيات ، تحقيق : عادل نويهض ، ط. الثالثة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، ص٢٩٣ ؛ ابن فرحون : الديباج ، جـ٢ ، ص٦١).

(٥) ابن فرحون : الديباج ، جـ٢ ، ص٦١ .

أحمد اللخمي☆ (ت٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) الذي صنع أرجوزة في معجزات النبي ﷺ سماها « نظم الدرر السنية في معجزات سيد البرية » وقد شرحها بنفسه في سفر ضخم (١) .

ومن جانب آخر فإننا إذا استعرضنا بعض كتب السيرة النبوية المؤلفة في عصر الدراسة نخالها لا تخلو في بعض المواضع من عبارات تُزرى باعتقادات النصارى ، وقلة حظهم من العلم والعقل (٢) . ومن الملاحظ أن أبا الربيع الكلاعي (٣) (ت٦٣٤هـ/١٢٣٧م) لما نقل قصة وفادة نصارى نجران على النبي ﷺ من كتب السيرة ، وما جاء فيها من ذكر لاعتقادهم في عيسى عليه السلام قطع سياق القصة وقال « ففي كل هذا من قولهم قد نزل القرآن مدحضاً حججهم، ومبطلاً دعاويهم ، وا لله يقول الحق وهو يهدي السبيل» (٤). ثم ساق عدداً من الآيات القرآنية الداحضة لأقوالهم (٥) ، ثم نراه يرجع مرة أخرى ليُتم بقية القصة (٦) . فكأنه أراد بهذا التوضيح ألا يفوته الإسهام في مجابهة الفكر النصراني الموجه نحو الإسلام والمسلمين في الأندلس حينذاك.

☆ أبو بكر محمد بن أحمد بن عيسى بن حجاج اللخمي ، من أهل إشبيلية ، سكن بأخرة مراكش ، كان مشاركاً في فنون من العلم ، ذا حظ من الأدب وقرض الشعر . ولي القضاء مرتين ، وله مؤلفات في الحديث ورجاله . وقد توفي في شعبان سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص١٨-١٩) .

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص١٩ .

(٢) السهيلي : الروض الأنف ، جـ٢ ، ص٤٠٤-٤٠٥ ، جـ٥ ، ص٣٥-٣٦ .

(٣) الاكتفاء : جـ١ ، ص٤٨٥ - ٤٨٦ .

(٤) الكلاعي : الاكتفاء ، جـ١ ، ص٤٨٧ .

(٥) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٦) المصدر السابق ، ص٤٨٧ - ٤٩٢ .

وبالرغم من أن القاضي عياضاً [١] (ت٥٤٤هـ/١١٤٩م) قد صرح في كتابه " الشفا بتعريف حقوق المصطفى " عند حديثه عن معجزاته ﷺ ، وخصائصه وكراماته – بأنه لم يجمعه " لمنكر نبوة نبينا ﷺ ، ولا لطاعن في معجزاته " [٢] بمعنى أنه لم يَرِدْ رداً مباشراً على أحد أنكر النبوة ، أو طعن في المعجزات إلا أن الناظر فيما حواه الكتاب من أبواب تبين منزله الرسول ﷺ، وما أظهره الله على يديه من الآيات والمعجزات ، وما يجب له من حقوق على الناس ، وما يجوز عليه من الأمور البشرية وما يمتنع ، وكذلك ما ورد فيه من بيان لأحكام من سبه أو انتقصه من المسلمين أو من أهل الكتاب – إن الناظر في كل هذا ليشعر بأن المؤلف لم يُقْدِم على تأليف كتابه إلا لمعالجة تيار فكري أخذ يسري بين الناس عصرئذٍ يقلل من قدر النبي ﷺ ، يدعم وجهة النظر هذه إشارته في صدر الكتاب إلى أن شروعه فيه قد جاء بعد إلحاف متكرر من بعضهم عليه لتصنيفه ، وأنه طلب منه التمثيل على أقواله ليكون أدعى إلى الاستفادة الحقة منه [٣] . زد على ما سبق أن عياضاً قد حكى ما شهده بنفسه في ذلك الزمن من أن الناس قد اجتالتهم موجة من التساهل بالألفاظ المنطوية على عدم التوقير للنبي ﷺ [٤] .

والذي يلوح لنا – من خلال ما وصلنا إليه آنفاً – أن القاضي عياضاً قد ألف كتابه الشفا ليُسهم في التصدي لتيار فكري منحرف حمل في أطوائه جرأة على مقام النبي ﷺ، وغير مستبعد أن يكون للنصارى أثر في تغلغل

(١) الشفا ، جـ١ ، ص٤٧٩ .
(٢) عياض : الشفا ، جـ١ ، ص٤٨١ .
(٣) المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٨ .
(٤) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٥٢٤ .

ذلك التيار بين المسلمين في ذلك العصر .

ولقد كان لبعض الشعراء مشاركة في التحذير من فساد العقيدة النصرانية وتبيان زيغها وضلالها . فأبو طالب عبد الجبار المرواني☆ (ت٥١٦هـ/ ١١٢٢م) تعرض للعقيدة النصرانية في أرجوزته التي وضعها في التاريخ ، فقال أثناء بيانه للعلم والنظر فيه :

وصانعُ العَالَم فردٌ صمدُ والصُّنعُ لم يشركه فيه أحدُ
فصنعُ الاثنين اشتراك منهما لا يخلوانِ مِن تَغايُرهما
وكلُّ ما زاد عن اثنين كذا من خالف التوحيدَ فهو قَد هذى

إلى أن يقول :

وللِنصارى القولُ في التثليثِ أفظع به من مذهبٍ خبيثِ
وطابقوا اليهودَ في التجسيمِ أف له من منطقٍ ذميم
جَلَّ الإلهُ الفردُ عن شريكِ فهو ذُو التقديسِ والتبريك [1]

☆ ☆ ☆

أما الآن فقد حان الحديث عن العلماء الذين جندوا أنفسهم للتصدي للحملات الفكرية النصرانية ، فكانوا يترصدون لما يذيعه النصارى من أفكار ضالة بين المسلمين ، ويتعقبون ما يثيرونه من شبهات حول الدين الإسلامي ونبيه ﷺ ، ثم يقومون بالرد عليها بالمناظرة الشفهية أونة ، وبالمجادلة

☆ هو عبد الجبار بن عبد الله بن أحمد المرواني يتصل نسبه بالأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط ، كان من أهل المعرفة بالأدب واللغة والشعر . وله كتاب في التاريخ بعنوان " عيون الإمامة ونواظر السياسة " . توفي في رمضان عام ٥١٦هـ/١١٢٢م (ابن بسام : الذخيرة ، ق١ ، م٢ ، ص٩١٦-٩٤٤ ؛ ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٣٧٩-٣٨٠ ؛ ابن سعيد : المغرب ، جـ٢ ، ص٣٧١) .

(١) ابن بسام : الذخيرة ، ق١ ، م٢ ، ص٩٢٤-٩٢٥ .

الكتابية آونة آخرى . ويأتي في مقدمة هؤلاء أبو جعفر بن عَبِيْدَة الخزرجي☆ (ت٥٨٢هـ/١١٨٧م)☆☆ الذي ابتدأت عنايته بالرد على الحملات الفكرية المعادية للإسلام في سن باكرة [(١)] ، ثم إنه في سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م [(٢)] ، وبينما كان عمره إحدى وعشرين سنة [(٣)] أخذه النصارى أسيراً من قرطبة إلى طليطلة[(٤)] ☆☆☆، فكان أحد القساوسة☆☆☆☆ هنالك يلتقي بالمسلمين الخاضعين

☆ أبو جعفر أحمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة بن عبد الحق الخزرجي ، ينسب إلى سعد بن عبادة ﷺ من أهل قرطبة ، عُرف منذ شبيبته بالذكاء والحفظ ، وكان معتنياً بالحديث والتواريخ والقصص . ولقد امتحن بالأسر في طليطلة، ولما أطلق سراحه تنقل بين عدة مدن كان آخرها مدينة فاس بالمغرب ،حيث توفي بها في ذي الحجة سنة ٥٨٢هـ/١١٨٧م . وقد خلف عدة مؤلفات من أبرزها : مقامع الصلبان ، ونَفَس الصباح في غريب القرآن وناسخه ومنسوخه . وقد طبعا كلاهما (ابن الأبار : التكملة ، جـ١، ص٨٥ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٢٣٩-٢٤١؛ ابن فرحون : الديباج ، جـ١ ، ص٢١٥-٢١٦ ؛ التنبكتي : نيل الابتهاج ، ص٦٩ ؛ ابن القاضي : جذوة الاقتباس في ذكر مَنْ حل من الأعلام مدينة فاس ، ط . دار المنصور ، الرباط ، ١٩٧٣م ، جـ١، ص١٤١) .

☆☆ في معظم صحائف هذه الرسالة المنهج الذي سرنا عليه في تناول جهود العلماء أو أثرهم في الصراع ضد النصارى ترتيبهم حسب الأسبقية بالوفاة . وقد بدأنا هنا بابن أبي عبيدة رغم تأخره بالوفاة عن عدد من العلماء الذين سنذكرهم بعده ، لأن المصادر أعطتنا تاريخاً محدداً لجهوده في مجال المواجهة الفكرية مع النصارى يسبق بسنوات ليست قليلة وفاة أولئك العلماء الذين لا نعرف بالتحديد التاريخ الذي زاولوا فيه جهودهم في المجال نفسه .

(١) الخزرجي : مقامع الصلبان ، ص١٢٠ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٢٤٠ .

(٣) ذاك أن مولده كان في سنة ٥١٩هـ/ ١١٢٥م . (ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٨٥) .

(٤) الخزرجي : مقامع الصلبان ، ص٢٩-٣٠ .

☆☆☆ يرجح عبد المجيد الشرفي أن ابن أبي عبيدة كان من أنصار يحيى بن غانية عامل المرابطين على قرطبة، وأن أَسْرَه حَدَثَ عند دخول النصارى قرطبة سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م (الخزرجي : مقامع الصلبان ، ص٨ من مقدمة التحقيق) حيث أنهم دخلوها بالتحالف مع ابن حمدين في أواخر تلك السنة (ابن الخطيب: الإحاطة ، جـ٤ ، ص٣٤٥) .

☆☆☆☆ لم يتيسر معرفة اسم هذا القسيس (الخزرجي: مقامع الصلبان ، ص١٦ من مقدمة التحقيق) وقد تجنب فرناندودي لاجرانخا التحري عن هوية هذا القسيس لما تطرق له في بحثه حول كتاب مقامع =

للحكم النصراني ، ويطرح عليهم شبهات حول الإسلام بغية تشكيكهم فيه، فاستغل هؤلاء المسلمين وجود ابن أبي عبيدة الخزرجي عندهم ، فراحوا يعرضون عليه - رغم حداثة سنة - ما يحيرهم من اعتراضات القسيس على الإسلام ، فكان ابن أبي عبيدة يلقنهم الحجج المفحمة التي استطاعوا بها إسكات ذلك القسيس ، وإدحاض شبهاته المزخرفة [١] ، بل لقد قدر لابن أبي عبيدة الخزرجي أن يكتب -وهو في الأسر- كتاباً في الرد على النصارى. ذاك أن القسيس الطليطلي استنكر إجادة المسلمين في الرد على أغاليطه ، فأخذ يستفهم عن ذلك حتى علم بخبر ابن أبي عبيدة [٢] ، فبعث إليه برسالة يشرح له فيها - على حد زعمه - محاسن النصرانية ، ومساوئ الإسلام [٣]. ونظراً لكون ابن أبي عبيدة الخزرجي يقيم أسيراً في طليطلة فقد خشى على نفسه من غضب النصارى وبطشهم إن رد على رسالة قسيسهم ، فتمهل مدة إلى أن علم بموعد خلاصه من الأسر [٤] ، وذلك في بحر سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م[٥] ، وعندها بادر بالرد على تلك الرسالة ، فأخذ يتعقب عباراتها ، ويكشف عوارها ، ويهتك سترها ، ويبين تهافتها [٦] ، فتجمع لديه كتاب

= الصلبان ، فاكتفى بتسميته بـ " قسيس طليطلة " .

(milagras Espanoles en una obra Polemica Musulmana , Revista Al Andalus , vol . xxx111 , 1968 , p . 14 , 19 ,21 , 39 , 54) .

(١) الخزرجي : مقامع الصلبان ، ص٢٩ - ٣٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص٣٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص٣٠ - ٢٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص٢٩ .

(٥) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٢٤٠ .

(٦) الخزرجي : مقامع الصلبان ، ص٣٩-١٩٧ .

حفيل في الرد على ذلك القسيس☆ ، فحرص على نشره في عدة نسخ بين المسلمين في طليطلة قبل مغادرته إياها . يقول ابن عبد الملك المراكشي [(١)] عنه وعن كتابه " وتركه في نسخ بأيدى جماعة من المسلمين المبتلين بالأسر هناك لما يَسَّرَ الله في تخلصه " . وقد جاء عنوان هذا الكتاب في المصادر غير متطابق ، فسمى بـ " مقامع هامات الصلبان ورواتع رياض الإيمان " [(٢)] و " مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان " [(٣)] و " مقامع الصلبان في الرد على عبدة الأوثان " [(٤)] و " مطامع الصلبان وروضان الإيمان " [(٥)] و "مقامع الصلبان" [(٦)] وقد طبع هذا الكتاب أكثر من مرة .

ويظهر أن اطلاع ابن أبي عبيدة الخزرجي عن قرب على الجهود المبذولة من قبل النصارى لحرب الإسلام وأهله فكرياً ، وقيامه بالرد على بعضها حينما كان مأسوراً عندهم قد خلق في نفسه -لما فاء إلى دار الإسلام- هماً دائماً ، وعناية خاصة بالدراسات التي تنافح عن الإسلام ، وتفضح الحملات الفكرية النصرانية المضادة له . إذ نراه يقدم كتابه الآنف الذكر

☆ استفاد أحد الكتاب المتأخرين من كتاب ابن أبي عبيدة في رده على هذا القسيس فضمنه برمته في كتاب له سماه " الفاصل بين الحق والباطل " ووجهه إلى رجل نصراني اسمه " حنا مقار " (الخزرجي : بين الإسلام والمسيحية (مقامع الصلبان) تحقيق محمد شامة ، ص٤٢-٤٤ من مقدمة التحقيق) .

(١) الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٢٤٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص٢٤٠ .

(٣) ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٨٥ ؛ ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، جـ١ ، ص١٤١ .

(٤) الخزرجي : مقامع الصلبان ، ص٣٩ .

(٥) المصدر نفسه ، ص١٢ من مقدمة المحقق .

(٦) الرعيني : برنامج شيوخ الرعيني ، ص٥٢ ؛ التنبكتي : نيل الابتهاج ، ص٦٩ .

للطلاب ، فيقرأونه عليه بعد سنوات من تصنيفه (١) . كما نراه – أيضاً – قد ألف كتاباً آخرَ يبدو أنه يعالج القضية عينها ، وذلك بعنوان " مقام المدرك في إفحام المشرك " (٢) . وثمة مصنف ثالث كتبه حول إعلام نبوة الرسول ﷺ بعنوان " قصد السبيل في معرفة آيات الرسول ﷺ "(٣). ومسألة نبوة الرسول ﷺ مسألة طالما شكك فيها النصارى وأضرابهم خلال حملاتهم الفكرية ضد الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام .

☆ ☆ ☆

ومن ذاعت شهرته بين علماء الأندلس في ميدان المواجهة الفكرية مع النصارى أبو مروان بن مسرة اليحصبي☆ (ت٥٥٢هـ/١١٥٧م) فلقد اجتمع أساقفة النصارى في طليطلة ، واتفقوا على الكتابة إلى أبي مروان هذا (٤) يثنون – فيما يبدو – على النصرانية ، ويطعنون في الإسلام ، " فبعد أن بذلوا جدهم، وأجهدوا جهدهم كتبوا له رسالة ... في بطاقة صغيرة عدد أسطارها نحو ثلاثين " (٥) . وقد تولى صياغة عباراتها نيابة عنهم رجل اسمه عبدالرحمن

---

(١) الرعيني : برنامج شيوخ الرعيني ، ص٥٢ .

(٢)ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٢٤٠ ؛ ابن فرحون : الديباج ، جـ١ ، ص٢١٦ . انظر تعليقاً للشرفي في : الخزرجي : مقامع الصلبان ، ص١٢١ ، حاشية .

(٣)ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٢٤٠ ، ابن فرحون : الديباج ، جـ١ ، ص٢١٦ .

☆ أبو مروان عبد الملك بن مسرة بن فرج بن خلف بن عزيز اليحصبي ، من أهل قرطبة ، كان ممن جمع الله له الحديث والفقه مع الأدب والفضل والدين والورع والتواضع . توفي في رمضان عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م (ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٣٦٦-٣٦٧ ؛ الضبي : بغية الملتمس ، ص٣٨٢ ، ابن فرحون : الديباج ، جـ٢ ، ص١٨-١٩) .

(٤) القرطبي : الإعلام ، جـ١ ، ص٤٩ .

(٥) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

ابن غصن [(١)☆] ، فصارت تلك الرسالة تنسب إليه [(٢)] .

وبالمقارنة بين الزمن الذي عاش فيه ابن مسرة - وهو النصف الأول من القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي - وبين ما شرحناه سابقاً من ترجمة النصارى القرآن الكريم وغيره عام ٥٣٨هـ/١١٤٣م بقصد حرب الإسلام بالفكر يتراءى لنا أن هذا العمل الذي أقدم عليه أولئك القساوسة ما هو إلا صورة من صور الحرب الفكرية التي أزمعت القوى النصرانية على إحكام تنفيذها تجاه مسلمي الأندلس . أما تخير النصارى أبا مروان بن مسرة ليبعثوا إليه برسالتهم دون سواه فربما مرد ذلك إلا أنه كان وقتها من أبرز العلماء في قرطبة الحاضرة العتيدة للمسلمين في الأندلس ؛ إذ كان أبو مروان فيها حينئذ عالي الذكر ، رفيع القدر [(٣)] . وتلقي مثله لرسالة من النصارى يُكْسِبها دعاية عريضة بين المسلمين عالمهم وعاميهم . فيترتب على ذلك تناقلهم لخبرها ، وتشوفهم إلى النظر فيها ، ومعرفة محتواها ، وإذا تحقق شيء من هذا فلا يستبعد أن يتأثر بما ورد فيها بعض ضعاف المسلمين . فيضطرب إيمانهم ، وتهتز عقيدتهم . وهذا ما ينشده النصارى ويرمون إليه .

ومهما كان الأمر فحين استلم أبو مروان الرسالة بادر بالرد عليها،

---

(١) القرطبي : الإعلام ، جـ١ ، ص٤٩ .

☆ عبد الرحمن بن غصن وصف في بعض المصادر بالنصراني (ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٧٢٣) فاسمه يوحي أنه من مسلمي طليطلة الذين ارتدوا عن الإسلام . وهناك بعض الشخصيات المعروفة في مدينة وادي الحجارة القريبة من طليطلة ينسبون إلى غصن (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢، ص٦٠٦ ؛ ابن سعيد : المغرب ، جـ ٢ ، ص٣٣) فهل عبد الرحمن هذا يمت إليهم بصلة ؟

(٢) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٧٢٣ ، القرطبي : الإعلام ، جـ١ ، ص٤٩ .

(٣) ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٣٦٧ .

حيث أجابهم عنها " وأحسن الجواب ، وأظهر لهم جهلهم وتبلدهم في ذلك الكتاب " [١] ، ولم يكتف بذلك ، وإنما شفعها بقصيدة دالية نظمها في معنى جوابه المذكور[٢]☆. وقد عرفت رسالته وقصيدته في الرد على النصارى بـ " ميزان الصدق المفرق بين أهل الباطل وأهل الحق " [٣] . ولقد سمع طلبة العلم الأندلسيون هذه الرسالة من أبي مروان وكتبوها [٤] وتداولوها فيما بينهم ، وقد قرضها أحد تلامذته بقصيدة جاء فيها :

عقيدةُ إيمانٍ : حَدَتْها كَرَامةٌ
تَجَلَّى ظَلاَمُ الشركِ منها بكوكبِ
أشادتْ بذاكْرَاها العُدَاةُ فَشَيَّدَتْ
أقاويل حَامٍ عن ذُرَا الدِّينِ مُغْرِبِ [٥]

☆ ☆ ☆

---

(١) القرطبي : الإعلام ، جـ١ ، ص٤٩ .

(٢) ابن خير : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص٤١٨ .

☆ كان الشعر أحد الأسلحة الفكرية المعتبرة لدى المفكرين المسلمين في مواجهة النصارى (عبد المجيد الشرفي : الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع / العاشر ، ط . الدار التونسية، تونس ١٩٨٦م ، ص٤٥٤) ولقد استشهد بعض العلماء في معرض تعريتهم للديانة النصرانية المحرفة بالشعر (القرطبي : الإعلام ، جـ٤ ، ص٤١٩ ؛ القرافي : الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة ، تحقيق بكر زكي عوض ، ط . الثانية ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ص١٩٨ - ١٩٩) .

(٣) ابن خير : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص٤١٨ .

(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٥) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٧٢٣ .

ويعد عبد الله بن سهل الغرناطي☆ (ت٥٧١هـ/١١٧٦م) من العلماء الأندلسيين الذين حاوروا النصارى وجادلوهم ، فاحرزوا الغلبة عليهم . فلقد كان مقامه في مدينة بيّاسة☆☆ أيام سيطرة نصارى قشتالة عليها بين سنتى ٥٤٣هـ/١١٤٨م و ٥٤٧هـ/١١٥٢م [1] في أعقاب الصراع بين المرابطين والموحدين – كان ذلك فرصة أتاحت له الالتقاء برجال الدين وطلاب العلم النصارى القادمين من حاضرتهم طليطلة [2] . فجرت بينه وبين قسيسهم عدة مناظرات ، استطاع ابن سهل أن يعلو عليه فيها ، يقول ابن الخطيب [3] عن ابن سهل هذا "وله مع قسيسهم مجالس في التناظر ، حاز فيها قصب السبق" . ولعل من أكبر الأسباب في إقدام ابن سهل على مناظرة القسيس عدة مرات، ومن ثم سحقه بالحجة والبرهان كونه قد تسلح بالعلوم المساعدة على ذلك ، فلقد كان بجانب معرفته بالعلوم الشرعية ذا معرفة بالمنطق والعلوم الرياضية

☆ أبو محمد عبد الله بن محمد بن سهل الضرير ، ينبز بوجه نافخ ، من أهل غرناطة . كانت له عناية بالقرآن والحديث والنحو والآداب والمنطق والعلوم القديمة وغيرها . سكن مرسية بعد أن طلبه محمد بن سعد بن مردنيش لتأديب ولده ، فبقى بها حتى وفاته في ذي القعدة سنة ٥٧١هـ/١١٧٦م (ابن الأبار: التكملة ، جـ٢ ، ص٨٤٩ – ٨٥٠ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٣ ، ص٤٠٤ ، الإحاطة " نصوص جديدة " ، ص٧٤) .

☆☆ بيّاسة Baeza إحدى المدن الكبيرة في كورة جيان (ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص١٥ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٥١٨) إلى الشمال الشرقي من الحاضرة (عنان : الآثار الأندلسية ، ص٢٢٨) وكانت تطل على نهر الوادي الكبير (الإدريسي : صفة المغرب ، ص٢٠٣ ؛ ابن سعيد : المغرب ، جـ٢ ، ص٧١) وهي حالياً مركز إداري في محافظة جيان في إسبانيا (ابن الأبار : الحلة ، جـ٢ ، ص٢٥٣ ، حاشية٢) .

(١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٣ ، ص٤٠٤ ، الإحاطة " نصوص جديدة " ، ص٧٤ .

(٣) الإحاطة ، جـ٣ ، ص٤٠٤ .

والعلوم القديمة – معرفة شَهد له بها النصارى واليهود فضلاً عن المسلمين[١]، حيث « امتد صيته من أجلها ، وأجمع المسلمون واليهود والنصارى أن ليس في زمانه مثله » [٢] .

☆ ☆ ☆

ولقد نظم الفقيه أبو الأصبغ بن زروال الشعباني☆ « قصيدة طويلة ميمية في الرد على نقفور عظيم الروم » كما يقول ابن عبد الملك المراكشي [٣] ، وقد بلغت أبياتها مائة واثنين وسبعين بيتاً ، لا نملك منها سوى البيت الأول فقط ، وهو :

من الملك المنصور من آل هاشم

سليل السراة المنجبين الأعاظم[٤]

وواضح من وزن القصيدة وقافيتها ، وكذلك من سياق كلام ابن خير[٥] (ت٥٧٥هـ/ ١١٧٩م) عنها ، والذي كان قد قرأها على ناظمها

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٣ ، ص٤٠٤ ، الإحاطة " نصوص جديدة " ، ص٧٤ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٣ ، ص٤٠٤ .

☆ عيسى بن موسى بن عمر بن زروال الشعباني ، من أهل غرناطة ، كان فقيهاً محدثاً أديباً بليغاً وشاعراً مجيداً ، وخطيباً مصقعاً (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق٢ ، ص٥١٢-٥١٣ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص٤٦-٤٧) ولا نعرف سنة وفاته ، لكن ابن خير المتوفي سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م روى عنه ، وتَرَحَّمَ عليه مما يشعر بأنه كان قد توفي حين كتب ابن خير كتابه (فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص٤١٠) فتكون وفاة ابن زروال إذن قبل سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م .

(٣) الذيل والتكملة ، س٥ ، ق٢ ، ص٥١٢-٥١٣ .

(٤) ابن خير : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص٤١٠ .

(٥) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

أبي الأصبغ نفسه أن المقصود بنقفور ليس حاكماً نصرانياً معاصراً للناظم – وإنما هو الامبراطور البيزنطي نقفور☆ الذي كان قد بعث إلى الخليفة المطيع لله العباسي☆☆ (١) (٣٣٤هـ/٩٤٧م – ٣٦٣هـ/٩٧٤م) قصيدة ميمية مطلعها :

من الملك الطهر المسيحي مالكاً
إلى خلف الأملاك من آل هاشم
إلى الملك الفضل المطيع أخى العلا
ومن يرتجى للمعضلات العظائم (٢)

☆ هو نقفور بن فوكاس Nikephoros Phokas ينتمي إلى إحدى الأسر الكبرى في آسيا الصغرى وصل عرش الإمبراطورية البيزنطية بعد وفاة الإمبراطور رومانوس الثاني عام ٣٥٢هـ/٩٦٣م . وكان قبل ذلك يطلق عليه الدمستق بمعنى القائد العام للقوات البيزنطية في آسيا الصغرى ، واشتهر أيامها بحروبه العنيفة ضد المسلمين ، فاحتل كريت ودخل حلب واجتاح كثيراً من الأراضي الإسلامية ، وبعد اعتلائه عرش الإمبراطورية واصل نشاطه الحربي في بلاد المسلمين حتى قاد بنفسه حملات إليها . وقد استمر في الحكم إلى أن اغتيل في سنة ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م . انظر أخباره مفصلة في الباز العريني : الدولة البيزنطية ، ط . دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٢م ، ص٤٣٤-٤٤١ ، ٤٤٩-٤٦٤ ، ٤٧٢-٤٩٧ ، ٥١٢-٥١٦) ويبدو أن أخباره اختلطت على ابن كثير رحمه الله (البداية والنهاية ، جـ١١ ، ص٢٤٣-٢٤٤) .

☆☆ المطيع لله العباسي هو أبو القاسم الفضل بن جعفر المقتدر بويع له بالخلافة لما خُلع المستكفي بالله في جمادي الآخرة سنة ٣٣٤هـ/٩٤٦م واستمر في الحكم إلى أن تنازل لابنه الطائع بالله عن الخلافة آخر سنة ٣٦٣ هـ/٩٧٤م ، ثم توفي في محرم السنة التالية (ابن العمراني : الأنباء في تاريخ الخلفاء ، ص١٧٧-١٧٩ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ١٥ ، ص١١٣-١١٨) .

(١) ابن خير : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص٤٠٩ ؛ السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ، ومحمود الطناحى ، ط . دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٧٦م ، جـ٣ ، ص٢٠٥ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١١ ، ص ٢٤٤ .

(٢) ابن حزم : ديوان الإمام ابن حزم الظاهري ، تحقيق صبحي رشاد عبد الكريم ، ط . الأولى ، دار الصحابة ، طنطا ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، ص٤٢ .

وأبياتها تدنو من السبعين بيتاً [(١)] ، حيث أنشأها لهذا الأمبراطور أحد كتابه ممن ارتد عن الإسلام ، فكان « يفخر فيها بهذا اللعين ، ويتعرض لسب الإسلام والمسلمين ، ويتوعد فيها أهل حوزة الإسلام بأنها سيملكها كلها حتى الحرمين الشريفين ... ويزعم أنه ينتصر لدين المسيح ﷺ ... و ... يعرض فيها بجناب الرسول عليه من ربه التحية والإكرام ، ودوام الصلاة مدى الأيام » [(٢)] .

ومن المتوقع أن السبب الذي حرك أبا الأصبغ بن زروال للرد على قصيدة نقفور الروم بالرغم من الفارق الزمني البعيد بينهما هو قيام النصارى في الأندلس بإعادة نشرها بين المسلمين في ذلك الحين ، إذ تحمل في حناياها - كما مر قبل قليل - تهديداً للمسلمين بامتلاك بلادهم ، وتمجيداً للنصرانية والمسيح عليه الصلاة والسلام ، وتعريضاً بمقام النبي ﷺ . وهذه الأغراض هي ذاتها التي كان يدندن حولها نصارى الممالك الإسبانية في حربهم النفسية والفكرية للمسلمين في الأندلس إبان ذلك العصر .

وحيث أنه ليس عندنا من قصيدة أبي الأصبغ بن زروال غير البيت الأول ، وليس لدينا - أيضاً - في المصادر وصفاً لها فإننا بلا شك لا نستطيع تقويمها ، ولا التحقق من مفردات عناصرها ، ولا الحكم على مضامين أبياتها ، ولكن هذا لا يمنعنا - بحكم أنها جاءت رداً على قصيدة نفقور - أن نرجح عدم ابتعادها عن النسق العام للقصائد التي أنشأها علماء الإسلام

---

(١) ابن حزم : ديوان الإمام ابن حزم ، ص٤٢-٤٨ ؛ السبكي : طبقات الشافعية ، جـ٣ ، ص٢٠٥-٢٠٩ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١١ ، ص٢٤٤ - ٢٤٧ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١١ ، ص٢٤٤.

للرد على تلك القصيدة النصرانية [١] ، لا سيما القصيدة التي سبكها في الربع الأول من القرن الخامس الهجري أبو محمد بن حـزم [٢] (ت٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م) بصفته أندلسياً كأبي الأصبغ بن زروال ، حيث دارت قصيدته البالغة مئة وستة وثلاثين بيتاً على محاور متعددة أبرزها : التذكير بالفتوحات الإسلامية ، والإشادة بالقادة المسلمين الذين كانت لهم وقائع مشهودة مع الروم، والتقليل من شأن النصارى وتهديداتهم على البلدان الإسلامية؛ لأن المسلمين سيقفون لهم بالمرصاد ، ويردونهم على أعقابهم بكل عزة وقوة ، ثم التعرض للعقيدة النصرانية المحرفة ، وما فيها من فساد وضلال ، ومجافاة للعقل والمنطق ، وأخيراً التأكيد على صحة نبوة نبينا محمد ﷺ مع ذكر أمثلة على ذلك [٣] . فلا يُظن أن تبتعد كثيراً قصيدة أبي الأصبغ بن زروال عن هذه الموضوعات التي طرقها ابن حزم في قصيدته ما دام أنه قد أنشأها للرد على قصيدة نفقور الروم ، وإن اختلفت طريقته عن غيره في تناول تلك الموضوعات .

☆ ☆ ☆

ولقد كان لأحد علماء قرطبة في الثلث الأول من القرن السابع الهجري – الثالث عشر الميلادي – مشاركة رائدة في مواجهة الفكر النصراني المهاجم

---

(١) ابن خير : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص٤٠٩-٤١٠ .

(٢) قلنا في الربع الأول من القرن الخامس الهجري ، لأن القصيدة اطلع عليها ابن حزم في مجلس الخليفة الأموي في الأندلس المعتد بالله (ابن حزم : ديوان الإمام ابن حزم ، ص٤٨) والمعتد بالله الأموي تولى من ٤١٨هـ/١٠٢٧م حتى ٤٢٢هـ/١٠٣١م (المقري : نفح الطيب ، جـ١ ، ص٤٣٨) .

(٣) انظر القصيدة كاملة في : ابن حزم : ديوان الإمام ابن حزم ، ص٥٢-٦٢ ؛ السبكي : طبقات الشافعية ، جـ٣ ، ص٢١٤-٢٢٢ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١١ ، ص٢٤٧ – ٢٥٢ .

للإسلام والمسلمين في الأندلس . إذ كتب بعض المنتحلين لدين النصرانية كتاباً أسماه " تثليث الوحدانية في معرفة الله " ، وبعث به من طليطلة إلى قرطبة☆ ، "متعرضاً فيه لدين المسلمين ، نائلاً فيه من عصابة الحق الموحدين " (١) وقد سعى إلى تسويق كتابه هذا بين المسلمين " ليستنزل به الأغبياء الأغمار "(٢). ثم إنه تطاول أكثر على الدين الإسلامي ، وأخذ يكثر من الاعتراض عليه ، ويتبجح عند قومه النصارى أن علماء الأندلس ليس في مكنتهم مجاراته في أقواله ، ولا الرد على شبهاته (٣) . ولهذا تصدى هذا العالم القرطبي لصاحب

☆ بعد أن نقل القرافي السؤال الحادي عشر للنصارى الذي ادعوا فيه جواز الاتحاد بين الله وغيره تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، واستشهدوا على ذلك بتكليم الله تعالى لموسى عليه السلام ، وأشار إلى أن هذا السؤال اعتمد عليه أغشتين زعيم قسيسي طليطلة في كتابه " مصحف العالم " (الأجوبة الفاخرة ، ص٢٦٧ – ٢٦٨) قال : " ثم جاء ابن الفخار اليهودي ، تنصر ورأس عند ملوك الإفرنج بالوزارة وغيرها ... وكتب بهذا السؤال إلى علماء قرطبة ... " (المصدر السابق ، ص٢٦٨) وإذا رجعنا إلى نصوص " تثليث الوحدانية " وجدنا فيها فحوى هذا الادعاء (القرطبي : الإعلام ، جـ١ ، ص١٠٥–١٠٦) وحين رد عليه ذلك العالم القرطبي بين أن الكاتب قد استعان في صياغة ادعائه على ما كتبه إغشتين في " مصحف العالم " (المصدر السابق ، جـ١ ، ص١٢٦ ، ١٤٣–١٤٧) فوجود فحوى ذلك الادعاء في كتاب " تثليث الوحدانية " وتأكيد القرافي أن ابن الفخار قد كتب مثل هذا الادعاء إلى علماء قرطبة يدفعنا إلى أن تتساءل لماذا لا يكون ابن الفخار هو محرر " تثليث الوحدانية " ؟ لا سيما وأن ابن الفخار الذي اسمه إبراهيم كان سفيراً لملك قشتالة إلى حكام الموحدين ، وذُكر منهم المستنصر الموحدي (٦١٠هـ/١٢١١م – ٦٢٠هـ/١٢٢٤م) (المقري : نفح الطيب ، جـ٣ ، ص٥٢٨) والزمن الذي عاش فيه ابن الفخار هذا هو الزمن عينه الذي أُلف فيه كتاب الإعلام . كما أن أحوال ابن الفخار كمعايشته للمسلمين ومعرفته باللغة العربية والمنطق (ابن سعيد : المغرب ، جـ٢، ص٢٣ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٣ ، ص٥٢٧) هذه الأحوال تتوافق مع أحوال كاتب " تثليث الوحدانية " حسبما تظهر واضحة لمن يقرأ مناقشة القرطبي له في كتابة الإعلام .

(١) القرطبي : الإعلام ، جـ١ ، ص٤٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص٤٣–٤٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص٤٥ .

كتاب " تثليث الوحدانية " منطلقاً من قناعته " أن النكاية في العدو بالبرهان واللسان أوقع من نكاية السيف والسنان " (١) . فاقتفى أقواله قولاً بعد قول ، وناقشه مناقشة علمية جلى فيها فساد كلامه وتناقضه ، وذلك في كتاب وسم بـ " الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام "☆ وقد نسب هذا الكتاب إلى القرطبي المفسر المشهور ، نزيل مصر : محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري الخزرجي☆☆ المتوفي سنة ٦٧١هـ/١٢٧٣م .

وحيث أن كتاب الإعلام هذا يُعد وثيقة شاهدة على إسهام علماء الأندلس في رد الحملات الفكرية النصرانية الموجهة صوب الأندلس في زمن دراستنا فمن الضروري النظر في مدى صحة نسبته إلى القرطبي المفسر .

---

(١) القرطبي : الإعلام ، جـ١ ، ص٤٦ .

☆ لم يأتِ ذكر لهذا العنوان على لسان المؤلف لا في مقدمة الكتاب ولا في غيرها .

☆☆ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري الخزرجي القرطبي . نشأ في قرطبة ، ثم هاجر إلى المشرق ، واستوطن مصر . كان محدثاً فقيهاً مفسراً ، متبحراً في كثير من العلوم . عَمَرَ أوقاته بين العبادة والتصنيف ، وتوفي في منية ابن الخصيب في صعيد مصر في شوال سنة ٦٧١هـ/ ١٢٧٣م . وقد خلّف عدة مؤلفات طُبع أكثرها ، ومن أشهر تلك المؤلفات كتابه في التفسير : الجامع لأحكام القرآن (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق٢ ، ص٥٨٥ ؛ ابن فرحون : الديباج ، جـ٢ ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ ؛ السيوطي : طبقات المفسرين ، ص٧٩ ؛ الداودي : طبقات المفسرين ، جـ٢، ص ٦٩ - ٧٠ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٢ ، ص٢١٠-٢١٢ ، حاجي خليفة : كشف الظنون، جـ١ ، ص٣٨٣ ، ٣٩٠ ، ٥٣٤ ؛ مخلوف : شجرة النور ، ص١٩٧) انظر تفاصيل واسعة عن حياته وآثاره في : (القصبي محمود زلط : القرطبي ومنهجه في التفسير ، ط . دار الأنصار ، القاهرة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، ص٦ - ٥٠ ؛ يوسف عبد الرحمن الفرت : القرطبي المفسر ، ط . الأولى ، دار القلم ، الكويت ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص٣٣-٩٩ ؛ مشهور حسن سلمان : الإمام القرطبي ، ط. الأولى ، دار القلم ، دمشق ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ، ص١١-١٥٥) .

فأولاً : لا جدال أن المؤلف قرطبي ، يوحي بذلك ما جاء في مقدمة كتاب الإعلام بأنه بادر بالنظر في كتاب " تثليث الوحدانية " الوارد إلى قرطبة بصفته أحد علمائها [(١)] ؛ علاوة عن أن مخطوط الإعلام قد كتب تحت عنوان أنه " للقرطبي رحمه الله " [(٢)☆] .

ثانياً : من الواضح أن الكتاب تم تأليفه قبل سقوط قرطبة بأيدي النصارى عام ٦٣٣هـ/١٢٣٦م [(٣)] ، فالمؤلف يقول عن كتاب النصراني إنه " بعث به من طليطلة أعادها الله إلى مدينة قرطبة حرسها الله " [(٤)] . فعبارة " حرسها الله " تدل على أن قرطبة ما زالت في حوزة المسلمين بعكس قوله عن طليطلة " أعادها الله " التي تعنى أنها قد خرجت من سلطان المسلمين .

ثالثاً : بل يخيل إلينا أن الكتاب قد ألف قبل سقوط قرطبة بمدة ليست بالقصيرة ، فالمؤلف حين تحدث عن الإسلام وظهوره على الدين كله قال : " وهذا دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ له ست مائة سنة ونيف من الأعوام، وهو باق إلى آخر الأيام ... " [(٥)] وفي موضع آخر قال " وهذا دين محمد رسولنا ﷺ قائم منذ ست مائة سنة ونيف " [(٦)] . فهذا يثبت أن الكاتب

---

(١) القرطبي : الإعلام ، جـ١ ، ص٤٣ .

(٢) انظر صورة الصفحة الأولى من المخطوط : القرطبي : الإعلام ، جـ١ ، ص٣٩ .

☆ استفاد منه بعض علماء الإسلام ، واكتفوا باسم " القرطبي " دون إشارة إلى كنية أو اسم (ابن تيمية : مجموعة الرسائل والمسائل ، ط . الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، جـ٤ ، ص١٥٦ ؛ رحمت الله الهندي : إظهار الحق ، تحقيق محمد أحمد ملكاوي ، ط . الثانية ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ، جـ٢ ، ص٣٩٥) .

(٣) ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص١٢٠ ، ٣٢٣ ؛ ابن عذارى : البيان ، ق. الموحدين ، ص٣٣١ .

(٤) القرطبي : الإعلام ، جـ١ ، ص٤٣ .

(٥) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٢٧٧ .

(٦) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٢١٩ .

صنف كتابه بعد عام ست مائة هجرية بسنوات معدودات . فنيف تفيد الزيادة القليلة على العدد ، حتى أن بعض أهل اللغة يراها بين الواحدة إلى الثلاث [١] .

رابعاً : ثم إن المتأمل في مقدمة الإعلام يحس بأن الكاتب كان من أعلام علماء قرطبة ، وليس من غمار طلبة العلم العاديين ، فهو يرى أن جواب النصراني قد تعيَّنَ عليه [٢] ، بل يحكى أن جماعة من إخوانه رغبوا إليه أن يرد على ذلك النصراني [٣] ، مما يفيد أنه كان على قدر من العلم كبير .

خامساً : وإذا قلبنا صفحات الكتاب انكشف لنا أن صاحبه رجل غزير العلم، واسع الثقافة، كثير الاطلاع ، فهو عالم بأصول الدين ودقائق العقيدة، ذو معرفة باللغة والحديث والتفسير والسيرة ، ولديه حظ وافر من الشعر والحكم والأمثال .

سادساً : ثم إننا إذا كررنا النظر في الكتاب استبان لنا أننا أمام كاتب عارف بطرق المجادلة ، متمرس على فنون المحاجحة ، قد اطلع على كثير من أسفار النصارى وكتاباتهم [٤] ، وتتبع بعض ما كتبه العلماء المسلمون من ردود عليهم [٥] . بل إنه وعد بإفراد كتاب للرد على أحد مشاهير علماء النصارى السابقين عندما تعرض لبعض أقواله [٦] . وهذه الأشياء كلها تنبئ إن مؤلف

---

(١) الزبيدي : تاج العروس ، جـ١٢ ، ص٥١٦ .

(٢) القرطبي : الإعلام ، جـ١ ، ص٤٥ .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) المصدر السابق ، ص٧٩ .

(٥) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٢٢٨ .

(٦) المصدر السابق ، جـ١ ، ص٨٤ ، ١٥٧ .

الإعلام شخص متخصص في الدراسات المتصلة بالنصرانية قد صرف وقتاً من عمره للإحاطة بها .

وبناء على هذه المعطيات التي تجمعت لنا حول كتاب الإعلام ننظر الآن إلى أي حد تتوافق وأحوال القرطبي المفسر محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الذي يُنسب إليه الكتاب . فنقول كان القرطبي المفسر حتى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م لا يزال يقرأ العلم على مشايخ قرطبة [١] ، بل إنه في السنة التي سبقتها قد تردد في مسألة علمية بين ثلاثة من علماء قرطبة ليستفتيهم في شأنها [٢] الأمر الذي يفيد أن القرطبي المفسر حتى ذلك الحين لا يعدو أن يكون طالب علم في قرطبة لا يتميز عن غيره من الطلاب . وإذا تذكرنا أن كتاب الإعلام قد ثبت تأليفه قبل عام ٦٣٣هـ/١٢٣٦م وربما قبل ذلك بسنوات ليست قليلة – كما رجحناه – وأن مؤلفه –حسبما استنتجنا – كان من علماء قرطبة البارزين ، وأنه متخصص في الدراسات المتعلقة بالنصرانية – إذا تذكرنا هذه الأشياء جميعها وقارناها بوضع القرطبي المفسر في المدة الزمنية عينها ألفيناها بعيدة الاتفاق ، وأنه من غير المعقول أن يكون القرطبي هذا هو مؤلف الإعلام ، فهو لم يكن حينذاك من علماء قرطبة المعدودين ، و لم يَبْدُ عليه أي اهتمام بالدراسات النصرانية وما يرتبط بها ، وإذا ملنا إلى تأليف كتاب الإعلام في أوائل القرن السابع الهجري كان القرطبي المفسر – فيما يبدو – صبياً وقتها ليس في مقدوره تصنيف الكتب ناهيك عن تصنيف كتاب مثل كتاب الإعلام .

---

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، جـ٣ ، ص٢٣٧ .

(٢) المصدر السابق ، جـ٤ ، ص٢٧٢ .

وأمر آخر يضعف أن يكون كتاب الإعلام للقرطبي المفسر ، وهو أن نسبة هذا الكتاب إليه تبناها بعض المهتمين بكتب التراث من المتأخرين (١) فما تحت أيدينا من مصادر قديمة سواء كانت مغربية أو مشرقية ترجمت للقرطبي المفسر لا تذكر كتاب الإعلام في عداد مؤلفاته ، مع أنه من المفترض - لو كان قد ألفه - أن يأتي ذكره في رأس قائمة المصنفات التي كتبها بصفته أحد مؤلفاته الأولى ؛ وبخاصة عند المغاربة والأندلسيين ، إذ يلزم أن يكون القرطبي قد كتب كتاب الإعلام قبل مغادرته الأندلس ، ولو كان ذلك كذلك لما فات على هؤلاء المؤرخين المغاربة والأندلسيين معرفتهم بتأليفه له - وهم الذين حرصوا على تتبع أخباره لما استوطن مصر بعد تَرْكِهِ الأندلس (٢).

ومما يضعف نسبه الإعلام إلى القرطبي المفسر - أيضاً - أن الذين كتبوا عنه من المعاصرين ، وعنوا بحصر مؤلفاته ، وتعقبوا أماكن وجودها ، لم يعثروا على إشارة لهذا الكتاب في تضاعيف مؤلفاته المعروفة رغم أن كتبه ترددت أسماء بعضها في بعض ، لأن منهجه في التأليف الابتعاد عن تكرار المعلومات أكثر من مرة (٣) ، فكثيراً ما يكتفي - إذا عرضت له مسألة من المسائل - بالإحالة من كتاب إلى آخر من كتبه ، فيذكر هذا الكتاب أو ذاك بعنوانه المعروف (٤) ، ولا شك أن كثيراً من المسائل المتصلة بالنصارى وعقائدهم قد

(١) البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، ط . دار العلوم الحديثة ، بيروت ١٩٥٥م ، جـ٢ ، ص١٢٩ ؛ Fernando de la Granja : milagros Espanoles , p . 2,5 .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق٢ ، ص٥٨٥ .

(٣) مشهور حسن سلمان : الإمام القرطبي ، ص٩٧ .

(٤) المرجع السابق ، ص٩٨ ، ١٢٨-١٢٩ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ؛ الفرت: القرطبي المفسر ، ص٨٤ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ؛ القصبي زلط : القرطبي، ص٤٩ -٥٠.

تطرق إليها ، وبخاصة في كتابه التفسير ، فلو كان الإعلام من مؤلفاته ليس هذا فحسب ، بل ومن أوائلها لأحال إليه وردد اسمه سواء في التفسير أو غيره .

وخلاصة ما نخرج منه بعد هذا النقاش أن القرطبي المفسر محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري المتوفى سنة ٦٧١هـ/١٢٧٣م يَبعد أن يكون هو مؤلف كتاب " الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام " والأقرب أن يكون مصنفه أحد علماء قرطبة الآخرين ، وربما كان من شيوخ القرطبي المفسر .

ولقد عثرنا على إحالات لأبي العباس أحمد بن عمر القرطبي☆ (ت٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) – وهو شيخ القرطبي المفسر – [(١)] في شرحه لصحيح مسلم [(٢)] يشير فيها إلى كتاب اسمه " الإعلام " ، وذلك في عدة مواضع ،

☆ أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر الأنصاري ، يعرف بابن المزين ، ولد بقرطبة ، وسمع فيها الكثير، وانتقل إلى المشرق ، واستقر بمصر ، فاشتهر أمره ، وطار صيته . كان بارعاً في الفقه والعربية، عارفاً بالحديث ، له عدة مؤلفات من أبرزها : المفهم في شرح ما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، كشف القناع عن حكم مسائل الوجد والسماع . توفي في الإسكندرية في ذي القعدة سنة ٦٥٦هـ /١٢٥٨م (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٣٤٨ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، جـ٧ ، ص٢٦٤-٢٦٥ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ١ ، ص٢٤٠ – ٢٤٢ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٢، ص ٦١٥ ؛ مخلوف : شجرة النور ، ص ١٩٤) .

(١) صرح بذلك القرطبي المفسر في عدد من كتبه . انظر مثلاً : الجامع لأحكام القرآن ، جـ٣، ص٩٥، جـ٤ ، ص١٣ ، جـ٥ ، ص٤٤ ، جـ٦ ، ص٢٩٥ ، جـ١٤ ، ص٢٢٩ ؛ التذكرة ، ص١٢٠، ١٩١، ٢٣٦ ، ٣٧٧ ، ٤٢١ ، ٦٦٤ ...

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، تحقيق محي الدين مستو وآخرين ، ط . الأولى ، دار ابن كثير ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م ، جـ٤ ، ص٥٧٠ ، جـ٦ ، ص٥٠، ١٤٨ ، ١٧٦ ، ١٨٣.

الأول : حينما عرض لبركة النبي ﷺ قال : " وذكرنا من ذلك جملة صالحة في كتاب (الإعلام بمعجزات النبي عليه الصلاة والسلام) " [(١)] . **الثاني** : لما أشار إلى أن نبينا ﷺ قد أُعطي من كل نوع من أنواع معجزات الأنبياء عليهم السلام قبله عقب على ذلك بقوله " كما أوضحناه في كتابنا المسمى بـ (الإعلام بصحة نبوة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام) " [(٢)] . **الثالث** : عندما تطرق لصفة الرسول ﷺ في الكتب القديمة قال " وقد ذكرنا منه مواضع كثيرة جاءت في كتب أنبياء بني إسرائيل في كتاب (الإعلام) " [(٣)] . **الرابع** : حين رد على القائلين بأن الحواريين كانوا أنبياء أُرسلوا إلى الناس بعد عيسى عليه الصلاة والسلام قال " وهو قول أكثر النصارى كما ذكرناه في كتاب (الإعلام) " [(٤)] . **الخامس** : لما تعرض لتأويل النصارى للختان قال " وليس هذا بأول جهالاتهم ، فكم لهم منها وكم ؟ ويكفيك من ذلك أنهم زادوا على أنبيائهم في الفهم ، وغلطوهم فيما عملوا عليه ، وقضوا به من الحكم " ثم قال " وقد اسبغنا القول في هذا في كتاب (الإعلام) " [(٥)] .

وإذا أرجعنا البصر في هذه الإحالات الخمس نلحظ مايلي :

١ - في الأولى جاء الكتاب باسم " الإعلام بمعجزات النبي عليه الصلاة والسلام " ، وفي الثانية باسم " الإعلام بصحة نبوة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام " ، وفي الثلاث الباقية اكتفى فقط بالكلمة الأولى من

(١) القرطبي : المفهم ، جـ٤ ، ص٥٧٠ .
(٢) المصدر السابق ، جـ٦ ، ص٥٠ .
(٣) المصدر السابق ، جـ٦ ، ص١٤٨ .
(٤) المصدر السابق ، جـ٦ ، ص١٧٦ .
(٥) المصدر السابق ، جـ٦ ، ص١٨٣ .

العنــوان وهى " الإعلام " .

٢ – موضوعات الإحـالات الثـلاث الأولى تتسـق وموضـوع كتـاب الإعلام هذا الذي يشير إليه أبو العباس القرطبي بصفتـه أحـد مؤلفاتـه ، فهـي تمس – كما هو واضح – معجزات النبي ﷺ وإثبات صحة نبوتـه بـالمعجزات أو بأوصافه في التوراة والإنجيل ، بينما الإحالتان الرابعة والخامسـة يبعـدان في موضوعيهما عن موضوعات الإحالات الثلاث الأولى ، فهمـا يختصـان بـالرد على النصارى ، وتبدو الخامسة أكثر تعلقـاً بموضـوع الـرد علـى النصـارى . فهو –كما سبق – لما ذكر تـأويلات النصـارى المضلـة ، وافـتراءاتهم علـى أنبيائهم عقب بقوله " وقد أسـبغنا القـول في هـذا في كتـاب (الإعـلام) " . وبناءً على هذا الاستنباط فيفترض أن يكـون كتـاب الإعـلام هـذا أكـثر مـن واحد ، وبخاصة أن المؤلف ذكر اسمه بثلاث صيغ ، فيكون – مثـلاً – واحـد منها يختص بإثبات نبوته ﷺ ، والثاني يُعنـى بـالرد علـى النصـارى .وإمـا أن يكون الكتاب واحداً، ولكن مؤلفه لم يلتزم بالعنوان .

٣ – إذا عُدْنا إلى الكتاب المنسوب إلى القرطبي المفسر وهو " الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبـات نبـوة نبينـا محمـد عليـه الصـلاة والسـلام " ألفينـاه يتضمـن موضوعـات كـل الإحالات الخمس التي سردناها قبل قليل ، ففيه أمثلة عن بركة الرسـول ﷺ [1]، وفيـه التـأكيد علـى أن رسـول الله ﷺ قـد أعطـى مـن كـل نـوع مـن أنـواع معجزات الأنبياء عليهـم الصـلاة والسـلام قبلـه [2] ، وفيـه أمثلـة كثيرة مـن

(١) القرطبي : الإعلام ، جـ٣ ، ص٢٨١ – ٢٨٨ ، ٣٧٠ – ٣٧٣ .

(٢) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٢٤٠ ، جـ٣ ، ص٣٤٨-٣٦٦ .

أوصاف الرسول ﷺ في التوراة والإنجيل [١] ، وفيه رد على القائلين بإرسال الحواريين إلى الناس بعد عيسى بصفتهم أنبياء [٢] ، وفيه نقد لكثير من جهالات النصارى وضلالاتهم [٣] . فهل يعني أن الكتاب الذي يعزو إليه القرطبي أبو العباس ويسميه " الإعلام " هو كتاب " الإعلام " الذي نروم معرفة مؤلفه ، وبخاصة أن الكلمة الأولى من العنوان في الكتابين واحدة ؟

إننا لا نستطيع البت في الإجابة على هذاالسؤال ، لأن كتاب "الإعلام " لأبي العباس القرطبي في حكم المفقود ، فهو غير موجود بين أيدينا ، ولا نملك نصوصاً منه - ولو محدودة - لنجري مقارنة بينه وبين ما جاء في كتاب " الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ... " فلنتدبر إذن في أحوال أبي العباس القرطبي هذا ، ونقارنها بما كنا قد استخلصناه من صفات توفرت في مؤلف ذلك الكتاب ، لعلنا نصل إلى شيء فيما نحن بصدد التثبيت منه .

لقد ضنت المصادر علينا بأخبار عن حياة أبي العباس القرطبي في الأندلس ، فكل ما نعرفه أنه ولد في سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م في قرطبة ، وسمع فيها الكثير[٤]. على أن ثمة خبراً ذكره أبو العباس عن نفسه يُلقي ضوءاً على أحد الجوانب التي تهمنا معرفتها من حياته، وفيما يلي سوف نسوق بعض هذا الخبر بالنص وبعضه الآخر بالمعنى . قال أبو العباس[٥] " أني لما وصلت إلى تونس قاصداً الحج سمعت أخباراً سيئة عن البلاد المصرية من جهة العدو الذي

(١) القرطبي : الإعلام ، جـ٣ ، ص٢٦٣ - ٢٨٠ .

(٢) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٢٠٤ ، جـ٣ ، ص ٣٨١ .

(٣) انظر مثلاً : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص١٨٨-٢١٣ ، جـ٤ ، ص٣٩٣-٤٣٧ .

(٤) الصفدي : الوافي بالوفيات ، جـ٧ ، ص٢٦٥ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٢ ، ص٦١٥ .

(٥) المفهم ، جـ٦ ، ص٢٤ .

غلب على دمياط ، فعزمت على المقام بتونس إلى أن ينجلي أمر العدو " ثم ذكر أنه رأى في المنام وكأنه في مسجد رسول الله ﷺ وأنه يسلم عليه ، وعندئذ زال عنه الخوف وتجدد عزمه على قصد الحجاز ، ثم قال " وسافرت إلى أن وصلت الإسكندرية عن مدة مقدارها ثلاثون يوماً .... فوجدتها والديار المصرية على أشد خوف ،وأعظم كرب ، والعدو قد استفحل أمره ، وعظمت شوكته ، فلم أُكمل في الإسكندرية عشرة أيام حتى كسر الله العدو... " (١) ، ثم ختم كلامه بقوله " ثم إن الله تعالى كمل على إحسانه وإنعامه وأوصلني بعد حج بيته إلى قبر نبيه☆ ومسجده ، فرأيته والله في اليقظة على النحو الذي رأيته في المنام من غير زيادة ولا نقصان " (٢) .

يفهم من خاتمة كلام أبي العباس القرطبي أنه لم يسبق له القدوم إلى مسجد رسول الله ﷺ قبل هذه المرة ، وبالتالي أنه لم يسبق له حج بيت الله الحرام قبلها أيضاً . وإذا كان قد نص على أن وصوله إلى تونس كان بقصد الحج ، فإن هذا يُلهم أنه قدم من بلده الأندلس سواء كان مباشرة أو بعد مروره بالمدن المغربية الواقعة إلى الغرب من تونس ، فكان خروجه هذا من الأندلس لأول مرة. فالأندلسيون والمغاربة كان أول شيء يحرصون على المبادرة فيه إذا خرجوا إلى المشرق هو التوجه إلى أرض الحجاز لأداء فريضة الحج وزيارة المسجد النبوي (٣) . وإذا علمنا كذلك أن حادثة دخول العدو النصراني (الصليبيين) دمياط التي أشار إليها أبو العباس قد وقعت في سنة

(١) القرطبي : المفهم ، جـ٦ ، ص٢٤-٢٥ .
☆ هكذا وردت ، حيث قدم قصد قبر النبي ﷺ على مسجده !!
(٢) القرطبي : المفهم ، جـ٦ ، ص٢٥ .
(٣) مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين ، ص٤٣٢ .

٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م (١) . وأن كسر المسلمين له حدث في محرم سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م (٢) فمعنى ذلك أن خروج أبي العباس القرطبي من الأندلس لأول مرة ووصوله إلى تونس كان في سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م أي بعد أزيد من عشر سنوات على سقوط قرطبة الحادث في سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٦م☆ .

أما الآن وبعد أن تجمعت لدينا هذه المعلومات الآنفة الذكر الخاصة بأبي العباس القرطبي وما خالطها أيضاً من استنتاجات فلنطبقها على ما عندنا من معطيات كنا قد استخلصناها من قبل عن مؤلف كتاب " الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام .... " فأبو العباس من أهل قرطبة فهو قرطبي إذن ، وترجح لدينا أنه لم يخرج إلى المشرق إلا بعد سنوات من سقوط قرطبة عام ٦٣٣هـ/١٢٣٦م ، وليس هناك شيء يمنعنا من الجزم بأنه وقت تأليف كتاب " الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ... " كان أحدَ علماء قرطبة ، فمولده قد ثبت في عام ٥٧٨هـ/١١٨٢م ، وقد عُدَّ من

---

(١) الذهبي : العبر ، جـ٣ ، ص٢٥٦ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٧٧ .

(٢) الذهبي : العبر ، جـ٣ ، ص٢٥٨-٢٥٩ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٧٨ ؛ مجهول : الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين ، ص٩٧ .

☆ ذكرابن فرحون عن بعضهم أن أبا العباس القرطبي " رحل مع أبيه من الأندلس في سن الصغر " (الديباج المذهب ، جـ١ ، ص٢٤١) وقد أخذ بهذه الرواية بعض الذين ترجموا له من المتأخرين (القرطبي : المفهم، جـ١ ، ص٣١ من مقدمة المحققين ؛ الفرت : القرطبي المفسر ، ص٥٣ ؛ مشهور سلمان : الإمام القرطبي ، ص٧٢) وهؤلاء قد خلطوا بين أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي مؤلف المفهم نزيل الإسكندرية ، وبين سميه أبي العباس أحمد بن محمد بن عمر القرطبي ساكن قنا (ت٦٧٢هـ/١٢٧٣م) فالذي رحل مع أبيه من الأندلس في سن الصغر هو هذا الأخير وليس صاحب المفهم (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق٢ ، ص٤٧٥ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، جـ٧ ، ص٣٣٩-٣٤٠) ثم أن ما حكاه صاحب المفهم عن نفسه – كما في المتن – يقطع كل التباس .

مشايخ القرطبي المفسر . ولا يخامرنا شك في اهتمامه بالرد على النصارى بعد الذي نقلناه على لسانه من أقوال تنص على ذلك .

وبناء على هذا التطابق، أو التطابق في بعض الوجوه وعدم التعارض في بعضها بين أحوال أبي العباس القرطبي وبين ما عليه مؤلف كتاب " الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ... " فالاحتمال كبير أن يكون هذا الكتاب هو الذي عزا إليه أبو العباس عند شرحه لصحيح مسلم ؛ يرجح هذا الاحتمال ما وقفنا عليه من تصريح لأبي العباس برده على النصارى في كتابه " الإعلام " . ثم إنه لم يثبت – أعني أبا العباس القرطبي – على اسم لكتابه – كما رأينا ، فتارة سماه " الإعلام بمعجزات النبي عليه الصلاة والسلام " وكرة أطلق عليه " الإعلام بصحة نبوة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام " . ومرات سماه " الإعلام " فقط . ثم إننا من ناحية أخرى إذا رجعنا – أيضاً – إلى كتاب " الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ... " لا نجد في المقدمة نصاً على تسميته بهذا العنوان ، كما هي عادة معظم المصنفين ، فهل يا تُرى اجتهد بعض التلاميذ أو النساخ في تسمية هذاالكتاب بهذا الاسم ليتطابق محتواه مع عنوانه ؟

☆ ☆ ☆

ولقد أفادنا أبو علي بن رَشِيق التغلبي☆ (ت٦٩٦هـ/١٢٩٦م) بأن

☆ أبو علي الحسين بن عتيق بن الحسين بن رشيق التغلبي ، من أهل مرسية ، كانت متبحراً في التاريخ ريانا من الأدب ، شاعراً مفلقاً ، كاتباً بارعاً ، مشاركاً في كثير من الفنون .وقد كتب لبعض الأمراء والحكام في عصره . وله مؤلفات منها كتاب بعنوان "ميزان العمل" توفى في محرم سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م (الوادي آشى : برنامج الوادي آشى ، ص١٢٠؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١ ، ص٤٧٢ -٤٧٦ ؛ مجهول : بلغة الأمنية ومقتصد اللبيب فيما كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس –

مناظرة حول إعجاز القرآن جرت بينه وبين أحد القساوسة النصارى☆ وقد سجلها فيما بعد في أحد كتبه [(١)] .ولم يحدد لنا بالضبط السنة التي جرت فيها ، لكنه حكى عن وقت حدوثها بقوله " وكنت في ذلك الوقت أجلس بين يدي والدي – رحمه الله تعالى – لِكتْب الوثائق وعقود الإحكام ، وأنا إذ ذاك لما بَقَلَ☆☆ وجهي " [(٢)] . فكان حينها شاباً لم ينبت من شعر وجهه شيء بعد، أي أن عمره – بلا ريب – دون العشرين☆☆☆ . غير أنه بلغ من العلم مرحلة صار يُعتمد فيها عليه في كتابه الوثائق وعقود الأحكام . ونبأنا – أيضاً – أن

= وأستاذ وطبيب، تحقيق عبدالوهاب منصور ، ط . المطبعة الملكية ، الرباط ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ، ص٢٢) انظر تحليـلاً مفيداً لما ورد من أخبار في الإحاطة عن حياة أبي علي بن رشيق ومؤلفاته في :

(Fernando de la granja :una polemica religiosa en Murcia en tiempos de Alfonso el sabio, revista Al Andalus . vol . xxxI,1966.p. 49 - 55)

☆ أشار ابن رشيق أن القسيس كان من مراكش (الونشريسى : المعيار ، جـ١١ ، ص١٥٥) ويتوقع محمد ابن شريفة أن يكون القسيس المعني هو رامون مارتي Ramon marti الذي كان قد أقام مدة طويلة في مراكش ، وينسب إليه القاموس العربي اللاتيني (حول التسامح الديني وابن ميمون والموحدين ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ١٤ ، محرم ١٤١٦هـ ، ص٢٧) ، وبالرغم من أن فرناندو دى لاجرانخا يرى أن الأوصاف الأخلاقية التي ذكرها ابن رشيق عن مجادله القسيس النصراني تنطبق على رامون مارتي إلا أنه لايميل إلى ترجيح أن يكون رامون مارتي هو القسيس الذي جادل ابن رشيق ، وذلك لعدم قناعته بوجود رامون مارتي في مرسية وقت جريان المناظرة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأن المناظرة الشبيهة بما جرى بين ابن رشيق وذلك القسيس والتي أدرجت في القاموس العربي اللاتيني على أنها لرامون مارتي لا تتوافر الدلائل القطعية على نسبتها إليه

(Una polemiça religiasa en murcia, p.60-62)

(١) الونشريسي : المعيار ، جـ١١ ، ص١٥٥

☆☆ " بَقَلَ وجه الغلام إذا خرج شعره يعني لحيته " (الزبيدي : تاج العروس ، ص١٤ ، ص٥٩) .

(٢) الونشريسي : المعيار ، جـ١١ ، ص١٥٥ .

☆☆☆ يفترض فرنانـدو دي لاجرانخا أن عمر أبي علي بن رشيق وقت المناظـرة كان خمسة عشر عاماً

(una polemica religiose en murcia, p.57) .

مناظرته للقسيس وقعت في مدينة مُرْسِيَة " أيام محنة أهلها بالدجن "[١] . والدجن عند أهل الأندلس يعني إقامة المسلمين في أوطانهم خاضعين للحكم النصراني [٢] ، ومرسية دخلها نصارى قشتالة [٣] صلحاً في شوال سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م في رواية [٤] ، وسنة ٦٤٠هـ/١٢٤٣م في رواية أخرى [٥] ، فتملكوا قصبتها [٦] ، وغدت تحت حمايتهم [٧] . ولما تشوف أهلها إلى التخلص من القشتاليين[٨] تقدم نحوها خايمي الأول (٦١٠هـ/١٢٢٣م-٦٧٥هـ/١٢٧٦م) ملك أرغون [٩] ، فاحتلها سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م فخرجت بذلك من ملك المسلمين نهائياً [١٠] .

ولنرجع البصر كرة أخرى في أقوال أبي علي بن رشيق الماضية وما جرته من بيانات لها لعلنا بذلك نصل - ولو بالتقريب - إلى تاريخ محدد لحصول المناظرة الدائرة بينه وبين ذلك القسيس ، وبخاصة أننا لانعرف سنة مولد أبي علي، ولا عدد السنوات التي أمضاها في هذه الحياة.

---

(١) الونشريسي : المعيار ، جـ١١ ، ص١٥٥ .

(٢) الونشريسي : أسنى المتاجر ، ص١٤ من مقدمة المحقق .

(٣) أشباخ : تاريخ الأندلس ، ص٤٣٧ ؛ أرسلان : الحلل ، جـ٣ ، ص٤٣٨ ؛ عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق٢ ، ص٤٦٠ .

(٤) المقري : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٤٧٢ .

(٥) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٦٥٢ .

(٦) ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص٤٣٢ .

(٧) أرسلان : الحلل ، جـ٣ ، ص٤٣٩ ؛ عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ٢ ، ص٤٦١ .

(٨) ابن عذاري : البيان، ق. الموحدين ، ص٤٣٢ .

(٩) أرسلان : الحلل ، جـ٣ ، ص٤٤٣ ؛ عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق٢ ، ص٤٦٣ .

(١٠) ابن عذاري : البيان ، ق . الموحدين ، ص٤٣٢ .

وحاصل ما نعلم عنه أنه توفي سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م (١) .

إن مناظرة أبي علي للقسيس النصراني حصلت - كما سلف - في حياة والده أبي بكر بن رشيق☆ . وحيث أن هذا الأخير توفي في ذي الحجة سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٣م (٢) فإن الدجن في مرسية المشار إليه سابقاً لايمكن أن يكون أيام حكم نصارى أرغون لها . لأن هؤلاء الأخيرين لم يحتلوها إلا في السنة التالية كما عرفنا . وهذا يفيد - بلا تردد - أن الدجن المقصود في النص هو أيام الحماية القشتالية على المدينة التي ابتدأت سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٩م أو سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٣م ، وحيث أن أحد الذين ترجموا لأبي علي أثبت أقصى سنة عرف أنه كان فيها حياً وهي سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م ، وأنه كان وقتها عالماً بارزاً ، وشاعراً مُفْلِقاً (٣) ، وكاتباً كبيراً يحرص حكام العصر والأمراء على استكتابه (٤) . فمن المتوقع أن لايقل عمره في تلك السنة عن الخمسين . ونظراً لكون مناظرته للقسيس حدثت وهو تحت العشرين - كما ظهر لنا سابقاً - فإن وقت المناظرة لابد أن يكون في السنوات الأولى من

---

(١) مجهول : بلغة الأمنية ، ص٢٢ .

☆ أبو بكر عتيق بن الحسين بن عبد الله بن رشيق التغلبي ، أصله من بَيَّاسَة ، ثم سكن مرسية ، كان مقرئاً محدثاً فقيهاً نحوياً أديباً ، له عناية بالتاريخ والطب وعلم الكلام ، صنف في الحديث ، وتوفي بمرسية في غرة ذي الحجة سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥، ق١ ، ص١١٩ - ١٢٠) .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق١ ، ص١٢٠ .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١ ، ص٤٧٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص٤٧٢ ، ٤٧٥ .

بسط نصارى قشتالة حمايتهم على مرسية☆ .

☆ ☆ ☆

وقبل أن نغادر العلماء الأندلسيين الذين واجهوا الحملات الفكرية النصرانية إبان عصر المرابطين والموحدين نود الإشارة إلى أن هناك رسالة شعوبية كان قد أنشأها في حدود منتصف القرن الخامس الهجري – الحادي عشر الميلادي – (١) ☆☆ أي قبل عصر الدراسة بأكثر من ثلاثين سنة– أبو عامر ابن غَرْسِية☆☆☆ « ذم فيها العرب ، وفخر بقومه العجم »(٢) (٣). فانبرى للرد

☆ يقدر محمد بن شريفة أن المناظرة تمت في منتصف القرن السابع الهجري – الثالث عشر الميلادي – دون أن يشرح كيف توصل إلى هذا التاريخ (حول التسامح الديني ، ص٢٧) .

(١) عنان : دول الطوائف ، ص٢٠٤ ، جمعه شيخة : من مظاهر الشعوبية في الأندلس ،مجلة دراسات أندلسية ، عدد ٤ ، ذو القعدة ١٤١٠هـ ، ص٢٧ وحاشية ٦ .

☆☆ حزم عبد السلام هارون بكتابة ابن غرسية رسالته في حياة حاكم دانية والجزائر الشرقية مجاهد العامري (٤٠٠هـ/١٠٠٩م – ٤٣٦هـ/١٠٤٤م) (نوادر المخطوطات ، ط . الأولى ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤١١هـ/١٩٩١م ، جـ١ ، ص٢٥٨) لكن كلام ابن سعيد في ترجمته لأبي جعفر بن الجزار الذي وجه إليه ابن غرسية رسالته يفهم من سياقه أن الرسالة كتبت في عهد ابن مجاهد العامري: علي إقبال الدولة (٤٣٦هـ/١٠٤٤م – ٤٦٨هـ/١٠٧٥م) (المغرب ، جـ٢ ، ص ٣٥٥).

☆☆☆ أبو عامر أحمد بن غرسية من أبناء البشكنس ، سُبِيَ صغيراً ، فعاش في بلاط مجاهد العامري حاكم دانية والجزائر الشرقية ، ثم في بلاط ابنه علي إقبال الدولة (ابن الأبار : المعجم ، ص٣١١ ؛ البلوي : ألف باء ، جـ١ ، ص٣٥٠ ؛ ابن سعيد : المغرب ، جـ٢ ، ص٣٥٥-٣٥٦ ، ٤٠٦-٤٠٧) وقد اجتهد بعض الكتاب المحدثين في كشف جوانب من حياته . انظر (عبد السلام هارون : نوادر المخطوطات ،جـ١ ، ص٢٥٦-٢٥٨ ؛ العبادي : الصقالبة في إسبانيا ، ط . المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م ، ص٢٨-٣٠) .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ، ق٣ ، م٢ ، ص٧٠٤-٧٠٥ .

(٣) انظر نص هذه الرسالة في : ابن بسام : الذخيرة ، ق٣ ، م٢ ، ص٧٠٥-٧١٤ ؛ مجهول : رسائل أندلسية ، ص١١٥-١٢٦ ؛ عبد السلام هارون : نوادر المخطوطات ، جـ١ ، ص٢٧١-٢٧٩) =

عليها عدد من علماء الأندلس ، فقام أولاً بالرد عليها العلماء الذين عاشوا في عصره [١] ، ثم استمر العلماء يردون عليها على مدى قرنين من الزمان تقريباً[٢]. والذي يعنينا من هؤلاء - بطبيعة الحال - من عاشوا في عصر المرابطين والموحدين ، حيث تمكنا - حسبما توافر لدينا من مصادر - من رصد أسماء أحد عشر عالماً من علماء هذا العصر ردوا على أبي عامر بن غرسية في رسائل وقصائد مختلفة . فبينما اكتفت المصادر من هذه الردود بذكر عناوين مجموعة منها [٣] ، أو بالإشارة فقط إلى بعضها [٤] - حفظت لنا

- وانظر تحليلاً لها في (عبد السلام هارون : نوادر المخطوطات ، جـ١ ، ص٢٦٦ - ٢٦٧ ؛ فوزي سعد عيسى : الهجاء في الأدب الأندلسي ، ط . دار المعارف ، القاهرة ، ص٩٨-١٠١ ؛ عبد الواحد ذنون طه : الدس الشعوبي بالأندلس وموقف العرب من مجابهته ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد٤ ، ذو القعدة ١٤١٠هـ ، ص١٥-١٨ ؛ جمعه شيخة : من مظاهر الشعوبية ، ص٢٧-٢٨) .

(١) ابن بسام : الذخيرة ، ق٣ ، م٢ ، ص٧٠٣ ، ٧٠٤ ؛ السرقسطي : روضة المَحاسن وعمدة المُحاسن، تحقيق منجد مصطفى بهجت ،ط . المجمع العلمي العراقي ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ، ص١٧٤-١٧٥ ؛ مجهول : رسائل أندلسية ، ص١٨٢ ، ١٩١ .

(٢) عبد الواحد ذنون طه : الدس الشعوبي في الأندلس ، ص١٩ .

(٣) المجموعة التي اقتصرت المصادر على ذكر عناوينها فقط هي : " خطف البارق وقذف المارق في الرد على ابن غرسية المارق في تفضيله العجم على العرب وقرعه النبغ بالغرب " لأبي عبد الله بن أبي الخصال (ت٥٤٠هـ/١١٤٦م) (البلوي : ألف باء ، جـ١ ، ص٣٥٠ ؛ حاجي خليفة : كشف الظنون ، جـ١ ، ص٧١٦) ورسالة " الاستدلال بالحق في تفضيل العرب على جميع الخلق والذب والانتصار لصفوة الله المهاجرين والأنصار " لأبي مروان عبد الملك الأوسي (ت؟) (البلوي : ألف باء ، جـ١ ، ص٣٥٠ ؛ ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٦١٩ ؛ حاجي خليفة : كشف الظنون ، جـ١ ، ص٧٨) ورسالة " تفضيل العرب وتمييز النبع من الغرب " لأبي العلا بن إدريس القرطبي (ت٦٤٧هـ/١٢٥٠م) (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٢٤٩) .

(٤) أما الرسائل التي اكتفت المصادر بالإشارة إليها فقط دون ذكر لعناوينها فهي : رسالة لأبي الوليد بن صبر الغافقي الذي كان حياً في أواخر عصر المرابطين (البلفيقي : المقتضب ، ص٩٠-٩١) ورسالة-

نصوص أربعة منها ، الأول لأبي الطيب بن منّ الله☆ (١)(ت٤٩٣هـ/١٠٩٨م) والثاني منسوب لأبي العلا بن الجنان الشاطبي☆☆ (٢) (ت٥٣٩هـ/١١٤٤م) والثالث لأبي الحجاج البلوي (٣) (ت ٦٠٤هـ/١٢٠٨م) والرابع لأبي يحيى بن مسعدة☆☆☆ (٤) . ويرى بعض الكتاب أن تناول العلماء والأدباء لرسالة

- لأبي محمد بن الفرس (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) (البلوي : ألف باء ، جـ١ ، ص٣٥٠ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص١٨ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ٣ ، ص٥٤٣) ورسالة لأبي عمرو ابن عبد ربه التجيبي (ت٦٠٢هـ/١٢٠٥م) (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٤٨٧ ؛ ابن الخطيب الإحاطة ، جـ٣ ، ص٢٢٩) ورسالة لعلي بن أبي قوة الأزدي (ت٦٠٨هـ/١٢١١م) (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق١ ، ص١٥٤) ورسالة لأبي المتوكل السكوني الإشبيلي (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م) (الرعيني : برنامج شيوخ الرعيني ، ص١٩٤) .

☆ أبو الطيب : عبد المنعم بن مَنّ الله بن أبي بحر الهواري القيرواني أو القروي ، سكن شرقي الأندلس . وكان أديباً شاعراً . توفي في صفر سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٨م (ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٣٩٢) .

(١) ابن بسام : الذخيرة ، ق٣ ، م٢ ، ص٧٢٢ .

☆☆ أبو العلاء بن الجنان هو عبد الحق بن خلف بن مفرج الكناني الشاطبي ، كان من كبار الأدباء ، ومن جلة الشعراء ، له معرفة باللغة والطب ، توفي سنة ٥٣٩هـ /١١٤٤م . (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٦٤٧)

(٢) عبد القادر زمامة : كتاب روض الأنس ونزهة النفس ، لأبي البقاء الرندي ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، م١٨ ، جـ١ ، ربيع الثاني ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م ، ص٣٣٥ .

(٣) ألف باء ، جـ١ ، ص٣٥١ ، ٣٥٤ .

☆☆☆ محمد بن علي بن محمد بن علي بن سعيد بن مسعدة العامري القيسي، من أهل غرناطة، كان أديباً بارعاً ،حسن النظم والنثر . وقد كان يكتب مع أخيه أبي بكر لعثمان بن عبد المومن والي غرناطة (ابن سعيد : المغرب ،جـ٢ ، ص١١٣ ، ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٤٨٨) ولا تعرف سنة وفاته ، ولكنه كان حياً على عهد الحاكم الموحدي الناصر (٥٩٥هـ/١١٩٩م - ٦١٠هـ/١٢١١م) كما يتضح في آخر رسالته (مجهول : رسائل أندلسية ، ص١٧٤) .

(٤) مجهول : رسائل أندلسية ، ص١٢٧ .

ابن غرسية أصبح بعد عصره " معرضاً لإظهارالبراعة في الرد ... ومجالاً للتجارب الأسلوبية " [١] ، فالعلماء الذين ردوا على رسالة ابن غرسية في عصر المرابطين والموحدين – طبقاً لهذا الرأي – كان يحركهم للرد فقط دافع بلاغي بحت . صحيح أن الناظر فيما وُجِدَ من ردود على ابن غرسيه من العصر المرابطي والموحدي يلمح كتابها يتوجهون إليه بالخطاب ، ويتعقبون كلماته بالتفنيد ، ويتبارون في الوصول إلى أجود الأساليب ، وأقوى الحجج ، لكن ذلك لا يعطينا حقاً قاطعاً بالحكم عليهم أن لا هدف لهم غير الغرض البلاغي؛ ذاك أن أكثر تلك الردود التي حررها العلماء الأندلسيون في هذا العصر لم نطلع عليها بأسرها لنقطع بأنها جميعاً على منوال الردود الموجودة . ثم إن مواصلة العلماء ردودهم على ابن غرسيه لايمنع أن يكون سببه قيام أشياعه بالاستمرار في تداول رسالته في عصر الدراسة ، والإكثار من استنساخها ، وتبنى أفكارها.ففي أواخر زمن الموحدين في الأندلس وُصفت رسالة أبي العلا إدريس القرطبي☆ (ت٦٤٧هـ/١٢٥٠م) في الرد على ابن غرسيه – بأنها جاءت " فائدة انتجاع الطالب المقيم والمرتحل ، وفائدة أشياع ... ابن غرسية المنتحل" [٢] . ففي الشق الثاني من النص تأكيد على أن أشياع ابن غرسيه في عداد المقصودين بالإفادة من رسالة أبي العلا ، لتصحيح مفاهيمهم ، وتصفية اعتقاداتهم حول العرب والعجم . وفي هذا إيماء بأن ثمة جماعات لاتزال تناصر

(١) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ، ص١٧٦ .

☆ أبو العلا إدريس بن محمد بن محمد بن موسى الأنصاري القرطبي . سمع الحديث ، ومال إلى العربية والآداب وكانت له مشاركة في النظم والنثر ، انتقل بعد سقوط بلده قرطبة بأيدي النصارى إلى سبتة، فتوفي بها في آخر سنة ٦٤٧هـ/١٢٥٠م (ابن الأبار : التكملة ، حـ١ ، ص١٩٦-١٩٧ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٢٤٩) .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٢٤٩ .

أفكار ابن غرسيه الشعوبية، وتعمل على ترويجها في الأندلس في ذلك الحين. ولاجرم أن النصارى الذين كانوا يحاربون المسلمين فكرياً عصرئذ سيكونون في طليعة من يرعى تلك الجماعات ، ويشجعها على بث أفكارها.

وشيء نلفت النظر إليه وهو أن رسائل العلماء الأندلسيين في الرد على أبي عامر بن غرسيه التي أُلِّفتْ قبل زمن دراستنا وفي غضونه كان العلماء يتناقلونها بينهم (١) ، ويُسْمِعونها لطلابهم (٢) ، فانتشرت بين مسلمي الأندلس انتشاراً واسعاً . يقول أبو الحجاج البلوي (٣) إن تلك الرسائل " سارت بها السفار ، وأنجد ذكرها في البلاد وغار ، وانتشر أمرها في البلاد وطار ، واشتهر خبرها في أكثر الأقطار " . والمستعرض لمحتوى ما وصلنا من رسائل في هذا الموضوع سواء في عصر الدراسة أو قبله يجد فيها إبرازاً لمآثر العرب قبل الإسلام وأمجادهم في ظله (٤) ، وفخراً بالفتوحات الإسلامية (٥) ، وذكراً رفيعاً للرسول ﷺ (٦) ،واحتقاراً للعجم (النصارى) وآثارهم (٧) وتعريضاً بدينهم المحرف وتشنيعاً بقولهم في عيسى بن مريم عليه السلام (٨) . وهذه النقاط

(١) البلوي : ألف باء ، جـ١ ، ص٣٥١ .

(٢) الرعيني : برنامج شيوخ الرعيني ، ص١٩٤ .

(٣) ألف باء ، جـ١ ، ص٣٥٤ .

(٤) انظر مثلاً ابن بسام : الذخيرة ، ق٣ ، م٢ ، ص٧٢٨-٧٢٩ ؛ مجهول : رسائل أندلسية ، ص١٨٨-١٨٩ ، ١٩٣ ، ١٩٨ .

(٥) انظر مثلاً ابن بسام : الذخيرة ، ق٣ ، م٢ ، ص٧٢٧ ؛ مجهول : رسائل أندلسية ، ص١٩٦ .

(٦) انظر ابن بسام : الذخيرة ، ق٣ ، م٢ ، ص٧٤٥ ؛ مجهول : رسائل أندلسية ، ص١٧٣، ١٨٠ ، ٢١٨.

(٧) انظر على سبيل المثال ابن بسام : الذخيرة ، ق٣ ، م٢ ، ص٧٢٥ -٧٢٦ ؛ مجهول : رسائل أندلسية، ص١٩٣-١٩٤

(٨) انظر مثلاً ابن بسام : الذخيرة ، ق٣ ، م ٢ ، ص٧٤٢-٧٤٣ ؛ مجهول : رسائل أندلسية ، ص١٣٧-١٤٠ ، ١٤٨ ، ١٥٥ ، ١٨٧ ، ٢١٤ ، ٢١٥ .

بحد ذاتها إذا قرأها المسلمون في الأندلس وتدارسوها أفادتهم في الاتقاء من سموم الهجوم الفكري النصراني المسلط عليهم ، وإن لم تكن الرسائل التي تضمنتها تلك النقاط قد صنفت أصلاً للرد على ما حبكه النصارى من مخططات فكرية لضرب الإسلام والمسلمين في الأندلس في عصر دراستنا .

وهكذا تعرفنا على العلماء الأندلسيين الذين تصدوا للحملات الفكرية النصرانية في عصر المرابطين والموحدين ، وقد وقفنا من خلال ذلك على جهودهم في هذا الميدان ، واستبان لنا أن بعضهم ناظر النصارى وجادلهم مشافهة . أما البعض الآخر فقد دحض شبه النصارى ورد عليهم بالرسائل والكتب وكذلك بنظم الشعر .

ثالثاً : عرض لما دونه العلماء في الرد على النصارى :

إن علماء الأندلس - كما مر شرحه - حرروا كتابات مختلفة في الرد على حملات النصارى الفكرية إبان عصر المرابطين والموحدين ، تفاوت بين الطول والقصر ، والشعر والنثر ، فلم يصلنا منها تاماً حتى الآن سوى كتابين ومناظرة . فالكتابان أحدهما لأبي جعفر بن أبي عَبيدة الخزرجي (ت٥٨٢هـ/١١٨٧م) بعنوان " مقاطع الصلبان ... " ، والآخرالمنسوب للقرطبي بعنوان " الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ... " أما المناظرة فهي لأبي علي بن رَشِيق التغلبي (٦٩٦هـ / ١٢٩٦م) .

والناظر في هذه المكتوبات الثلاث - التي تحت أيدينا - يوقن أن ما كتبه علماء الأندلس رداً على النصارى في ذلك الزمان لم يكن مجرد مباحث كلامية اعتاد بعض علماء الإسلام تضمينها مصنفاتهم في العقيدة أو في باب التوحيد داخل مؤلفات عامة [1] ، وإنما هي منبعثة من واقع فعلي فرضه الأعداء النصارى على العلماء الأندلسيين بهجومهم الفكري الموجه نحو دين الإسلام وأتباعه الموحدين . فكل واحد من هؤلاء الثلاثة وجد نفسه في خندق المواجهة الفكرية مع النصارى، فابن أبي عبيدة الخزرجي أيام انتقال الحكم في الأندلس من المرابطين إلى الموحدين رد على رسالة وجهت له شخصياً تحمل في طياتها طعناً في الدين الإسلامي . والقرطبي في النصف الأول من القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي - تعين عليه من بين علماء قرطبة الرد على متكلم نصراني آذى المسلمين بمقالاته وكتاباته ، وتبجح بعجز علمائهم عن مجاراته ومحاجته . وابن رشيق التغلبي في أواخر عصر الموحدين ألزمه أحد

(١) الشرقي : الفكر الإسلامي في الرد على النصارى ، ص٨ ، ١٤ .

الأساقفه على مناظرة في أصل من أصول الإيمان في الإسلام فوفق في دحره وإسكاته . ولذلك فإن المسائل التي عالجها هؤلاء في كتاباتهم جاءت تبعاً لما أثاره المتهجم على الإسلام ، ولكن هذا لايمنع أن يكونوا قد استرسلوا في الكلام عن تلك المسائل ، وربما انتقلوا منها إلى مسائل أخرى رأوها قمينة بالشرح والبيان ، فالاطلاع -إذن- على ما وصلنا من كتابات في هذا الباب، وعرض محتواها من الأهمية بمكان هنا للتعرف على طريقة النصارى حينذاك في هجومهم الفكري على الإسلام من ناحية ، ومنهج العلماء المسلمين في التصدي لذلك الهجوم من ناحية أخرى .

ولنأخذ الآن ما كتبه أولئك الأندلسيون الثلاثة ، وننظر في عمل كل منهم على حدة . ولنبدأ بكتاب " مقامع الصلبان " فلقد تصدرته رسالة القسيس الطليطلي إلى أبي جعفر بن أبي عبيدة الخزرجي والتي ابتدأها بالدعوة إلى الإيمان بالمسيح عليه السلام باعتباره ابناً لله تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، لأن القرآن يقر بأن المسيح روح الله وكلمته [1] ، وأنه أحيا الموتى ، ثم أخذ يدلل على ألوهية عيسى عليه السلام وفي أثناء ذلك عرج على حكاية الصلب، وحين خلص منها دعا مرة أخرى المسلمين إلى الإيمان بألوهية المسيح لأنهم يعظمونه ، ثم بحكم ما عندهم من العدل والإنصاف لو عادوا إلى التوراة والزبور والنبوات لرأوا فيها شواهد ما يقول . ثم راح يرغب في النصرانية ، ويذكر ميزاتها، وفي المقابل يزهد في دين الإسلام ، ويدعي انعدام الفائدة فيه، وبعد ذلك أخذ يطعن بالشريعة الإسلامية ، فزعم خلوها من التسامح ، وتعرض لتعدد الزوجات ، والطلاق ، ثم شرع ينكر على القرآن ماجاء فيه عن

(١) انظر التفسير الصحيح لهذه الكلمات الواردة في القرآن في ابن تيمية : الجواب الصحيح ، جـ٢ ، ص١٢٧-١٣١ ؛ درء تعارض العقل والنقل ، جـ٧ ، ص٢٥٩-٢٦٠ ، ٢٦٢ - ٢٦٨ .

القتال في التوراة والإنجيل ، ويزعم تعارضه في نسب مريم ، وغلطه في القول بإسقاط إبليس من السماء بعد خلق آدم عليه السلام ، ويرد نصوصه المخبرة بتحريف التوراة والإنجيل ، ويكذب ما ورد فيه من نعيم في الجنة ، ثم ختم شبهاته بانتشار الإسلام بالسيف [١] .

ولقد رد أبو جعفر بن أبي عبيدة الخزرجي على ذلك القسيس ، فافتتح رده بتجريد التوحيد لله وحده ، والتأكيد على أن الإسلام هو الدين الحق [٢] . ثم اندفع يرد على أقوال القسيس قولاً بعد قول ، وإن لم يلتزم في تناوله لتلك الأقوال الترتيب على الدوام ، وربما تكررت مناقشته لقضية من القضايا في أكثر من موضع من كتابه . على أن طريقته في الرد " تعتمد الحجج النقلية أساساً، ولا تجنح إلى المناقشة الكلامية البحت إلا بصفة عرضية سريعة...وهو لايتحاشى استعمال عبارات السب والشتم في بعض المواضع ، ويبدي الكثير من الترفع على مُخَاطِبِهِ ، والاحتقار له ولقومه رغم أنه كان أسيراً فيهم " [٣] .

ويبدو أن الأسلوب الذي استخدمه القسيس في دعوة المسلمين إلى النصرانية بادعائه أن في دينهم ما يؤيدها ويشهد بصحتها [٤] قد أثار أبا جعفر ابن أبي عبيدة ، وجعله يستشعر خطر مثل تلك الدعوى على الرعاع من المسلمين فخصص ما يقارب ثلث كتابه لبيان حقيقة النصرانية المحرفة ، فراح يقوض ما يدعونه من ألوهية المسيح والتثليث والصلب والفداء وغيرها منطلقاً من كتبهم التي بين أيدهم [٥] . وقد أكد على أن ما استشهد به في الرد

(١) الخزرجي : مقامع الصلبان ، ص٣٠-٣٨ .
(٢) المصدر السابق ، ص٣٩-٤٠ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٤ من مقدمة المحقق .
(٤) المصدر السابق ، ص ٣١ ، ٣٣-٣٤ .
(٥) المصدر السابق ، ص٤٠-٨٦ .

عليهم إنما نقله « من أناجيلهم حرفاً حرفاً » (١) وأنه لم يورد من ذلك إلا ما قرأه من كتبهم العبرانية ، ووقف عليه بنفسه ، وطالعه في بعض تفاسيرهم وشافههم بها (٢) . ولهذا رآها ابن أبي عبيدة فرصة للحديث عن تحريف الكتب النصرانية، وشرح تناقض نصوصها ، وفساد تأويل النصارى لها (٣) .

وحين وصل أبو جعفر إلى الكلام عن مطاعن النصارى في الإسلام ونبيه محمد ﷺ قال « وأما طعنكم في ملة الإسلام ، وتجردكم إلى خلق الأكاذيب والنيل منها فغير نكير على مَنْ كانت عقيدة ديانته ما تقدم من إذاية الخالق ... ووصفه تعالى بغير صفاته الحسنى ، وخليق بمن دان بمثل هذا كله أن يجري عن سنن مثله من الطعن أيضاً في دين الله وكتابه الحكيم ورسوله الكريم » (٤) .وحيث أن القسيس كان قد أراد أن يُوهم المطلع على رسالته بوجود مطاعن في الرسول ﷺ لايمكن دفعها ، وذلك بالإشارة إلى أن أساقفة النصارى ذكروا عنه أشياء ، ولكنْ دون أن يتلفظ بواحدة منها (٥) فقد آثر أبو جعفر أن يذكرها غير مكترث بها ، لأنها لاتعدو أن تكون أكاذيب لفقوها، إذ ما فتئوا « يصنفون الدواوين في خلق الأكاذيب على سيد المرسلين محمد ﷺ ، وشتم عرضه على نحو ما فعلوا بالخالق سبحانه وتعالى عن قولهم علواً كبيراً » (٦) ثم مثَّل بجملة من شبهات أثاروها حول النبي ﷺ والتي من

(١) الخزرجي : مقامع الصلبان ، ص١٩٦ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) المصدر السابق ، ص٥٦ ، ٥٩-٦٥ ، ٦٧-٧١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨٩ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٤ ، ٨٩ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٩٣ .

أبرزها نفيهم لمعجزاته ، وردهم لحسن نظم القرآن وإعجازه مع الإشادة بما يسمى بقرآن مسيلمة الكذاب ، وجحدهم لبشارات السابقين به ﷺ ، ثم انطلق يكشف زيفها ، ويجلي حقيقة أمرها ، ويقيم الأدلة المتتابعة على خلاف ما زعمه أولئك الأساقفة. وقد استغرق منه ذلك صحائف كثيرة من كتابه [(١)].

وبعد ذلك ذهب أبو جعفر بن أبي عبيدة يرد الشبه التي كان القسيس الطليطلي قد ساقها في رسالته ضد الإسلام ، فرد على ماقاله في شأن مريم [(٢)]، وتعدد الزوجات[(٣)] ، والقتال[(٤)] ، ونعيم الجنة[(٥)] ، وانتشار الإسلام بالسيف[(٦)]. وأغفل – إما عمداً أو سهواً – الرد على طعنه في الطلاق وطرد إبليس من الجنة ، إلا أن الرد عليهما جاء " ضمناً في بيان ما في التوراة والإنجيل من تحريف" [(٧)] .وقد تخلل الرد على تلك الشبه تعرية لاعتقادات يؤمن بها النصارى ، وطقوس يتقيدون بها في عباداتهم [(٨)] .

ولعله من المناسب أن نختم عرض كتاب " مقامع الصلبان " بإيراد مقتطفات من كلام أبي عبيدة في الرد على شبهة انتشار الإسلام بالسيف : قال " لاخفاء أن سيد المرسلين محمداً ﷺ لم يكن قبل ملكاً فيقال حمل رعيته على دينه ، ولا صاحب مال فيقال بذل ماله مصانعة على دينه ، وإنما أتى

---

(١) الخزرجي : مقامع الصلبان ، ص ٩٤ – ١٤٠ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٥-١٦٦ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٦٧-١٦٩ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١٦٩-١٧٠ .
(٥) المصدر السابق ، ص ١٨٣-١٨٩ .
(٦) المصدر السابق ، ص ١٨٩-١٩٣ .
(٧) الخزرجي : بين الإسلام والمسيحية (مقامع الصلبان) تحقيق محمد شامة، ص٤٦ من مقدمة المحقق.
(٨) الخزرجي : مقامع الصلبان ، ص١٧٣-١٧٧ ، ١٩٣-١٩٦ .

قومه بخلع الأوثان ، وكسر الأصنام ، وعبادة الله وحده ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وآيات ومعجزات خارقات للعوائد ، دالات على صدق رسالته ونبوته ، ثم خصه الله بآية باقية إلى اليوم وهي القرآن ... »(١) « ولما بعثه الله ليدعو العالم إليها اتبعه جماعة من الناس سبقوا إلى الخير ، ورغبوا عن الشرك والشر ، فعمد قومه إليه وعتوا على من اتبعه وعليه ، وآذوهم بالرجم والضرب والنفي والعذاب والفتنة عن دينهم ، وما زال ﷺ كذلك زهاء عشر سنين☆ يجهد نفسه في إظهار أمر الله صابراً على أذى قومه ، لايُخفي نفسه ، ولا يستتر ولا يجحد ... ولم يكن – عليه الصلاة والسلام– بالذي يضعف ويجزع من شيء حتى أفشا دين الله في الأرض ، وجعل أصحابه نجوم الهدى ومصابيح الدجى .... »(٢) .

☆ ☆ ☆

ونأتي على الكتاب الثاني وهو « الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام » فلقد صنفه ذلك العالم القرطبي خصيصاً للرد على كتاب بعنوان « تثليث الوحدانية في معرفة الله » الذي بلغت صفحاته – حسب النصوص المنقولة منه في كتاب الإعلام – حوالي عشرين صفحة(٣) . والقراءة العابرة لهذه النصوص قد تعطي قارئها انطباعاً بأن الكاتب النصراني لايهدف فيما كتبه إلى مهاجمة الدين الإسلامي بقدر ما يريد أن يشرح عقيدته النصرانية

---

(١) الخزرجي : مقامع الصلبان ، ص١٨٩ .

☆ عشر سنين دون سنوات الدعوة السرية الثلاث .

(٢) المصدر السابق ص١٩٠ .

(٣) القرطبي : الإعلام ، جـ١ ، ص ٤٧ ، ٥٧ ، ٦٣ ، ٧١ ، ٧٧ ، ٩١ ، ٩٧ ، ١٠٥ – ١٠٦ ، ١١٥ – ١١٧ ، جـ٢ ، ص١٦٣ – ١٦٥ ، ١٧٧ ، ١٨١ – ١٨٥ ، ٢١٥ – ٢١٧ .

بطريقة منطقية لا أقل ولا أكثر . ولكننا عندما نعود ونقرأتلك النصوص قراءة متمعنة ندرك مدى خطر أقواله على المسلمين وعقيدتهم ، فهو قد تعرف على طريقة المسلمين في توحيد الأسماء والصفات ،وبأسلوب ملتوٍ استدل على التثليث بثلاث من صفات الله عزوجل[(١)]، ثم ربط الأسماء والصفات جميعها بالتثليث[(٢)]، وبعدها راح يشرح كيف يكون اتحاد الثلاثة بواحد على طريقة بعض الفلاسفة والمتكلمين [(٣)] ، وقد استشهد على ذلك بما جاء في القرآن الكريم عن تكليم الله لموسى عليه السلام، فتطرق للآيات القرآنية الواردة في ذلك. ثم استغل ما قالته عن هذه الآيات بعضُ الفرق المنحرفة لدى المسلمين، ودلل به على صدق ما يذهب إليه [(٤)] ☆ . ومع أنه وصل - من وجهة نظره - إلى نتيجة نهائية في صحة عقيدته النصرانية إلا أنه لم يشأ تخطئة ما يخالفها في البداية ، فاعتبر المسلمين واليهود ومعهم النصارى قومه كلهم يَدَّعون الإيمان لأنفسهم ، والكفر لغيرهم ، وإن كل واحد منهم قد ورث دينه عن آبائه حتى صار ذلك طبعاً فيهم ، وإنه لا يفصل بينهم - حسب زعمه - إلا البينة من الكتب التي يقرون جميعهم بها، ويجتمعون على صحة مافيها[(٥)]. ثم أخذ يثبت أن المسيح المنتظر المذكور في الكتب إنما يُعنى به عيسى عليه السلام ، وأن

(١) القرطبي : الإعلام ، جـ١ ، ص٥٧ .

(٢) المصدر السابق ، ٧١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٧ ، ٩١ ، ٩٧ .

(٤) المصدر السابق ، ١٠٥-١٠٦ ، ١١٥-١١٧ .

☆ انظر أقوال بعض الفئات المنحرفة في تفسير تكليم الله تعالى لموسى عليه السلام والرد عليها في ابن تيمية : مجموع فتاوى ابن تيمية ، جـ٦ ، ص ١٥٣-١٥٦ ، ٥١٣-٥٢٩ ، جـ ١٢ ، ص٣٧ - ١١٦ ؛ درء تعارض العقل والنقل ، جـ٧ ، ص٢٥٨-٢٦٠ .

(٥) القرطبي : الإعلام ، جـ٢ ، ١٦٣-١٦٥ .

عيسى قد جاء في كلام الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - [١] . وبعد ذلك ذكر قوله تعالى : ﴿ وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس ﴾ [٢] فطالب المسلمين بإثبات دينهم من التوراة والإنجيل كما أثبت هو دينه منهما ، قال " فأثبتوه من التوراة بالعبراني، ومن الإنجيل بالعجمي كما أنتم مقرون "[٣]. وأكد أنه لن يقبل الروايات الواردة عن الرسول ﷺ لأنه لايعترف بها ، ثم مثل بحديث من صحيح مسلم استغله في الطعن بالطلاق والسخرية من حكمة الإسلام فيه [٤] . ونظراً لكونه قد كتب رسالة قبل هذا الكتاب يدعو فيها إلى نصرانيته ، فانتقده أحد العلماء المسلمين ، وبين باطله ، فقد وجه تهديده إلى ذلك العالم بقوله " واعلم أنك إن أرسلت بعد هذا بالشتم فإني أبعث إلى كل بلد كتاباً بنص شريعتكم ، وبكل مانعرف فيها من الأقاويل التي لا تقدرون على إنكارها " [٥] . وأخيراً ختم كتابه بلمز العرب وذمٍ لهم [٦] .

والظاهر أن ذلك العالم القرطبي حين انبرى للرد على كتاب " تثليث الوحدانية " كان قد تصور ما يشكله هذا الكتاب من خطر فكري على خواص المسلمين فضلاً عن عوامهم ، فالنصراني استخدم أولاً ألفاظ المسلمين في التوحيد ومصطلحاتهم في شرح العقيدة النصرانية ، وقلل في ذلك الشرح من الاستشهاد بالتوراة والإنجيل ما أمكنه ذلك . وتظاهر - ثانياً - بطلبه الحق أياً كان محله سواء عند المسلمين أو اليهود أو عند أهل ملته النصارى ، واقترح

(١) القرطبي : الإعلام ، جـ٢ ، ص١٨١-١٨٥ .
(٢) سورة آل عمران ، آية ٣ ، ٤ .
(٣) القرطبي : الإعلام ، جـ٢ ، ص٢١٥ .
(٤) المصدر السابق ، ص٢١٥-٢١٦ .
(٥) المصدر السابق ، ص٢١٦ .
(٦) المصدر السابق ، ص٢١٧ .

منهجاً لإثبات الحق يتفق عليه أصحاب الملل الثلاث . وبالمنهج الذي اقترحه أثبت - ثالثاً - أن دينه هو الحق ، وطالب المسلمين أن يثبتوا صحة دينهم بالمنهج نفسه . واغتنم - رابعاً - ذكره عرضاً لحديث من أحاديث النبي ﷺ وطعن في حكم من أحكام الإسلام . فهذا النصراني - كما لاحظنا - لم يهاجم الإسلام مهاجمة مكشوفة يستوى في استنكارها المسلم الصغير والكبير والعامي والمتعلم ، بل قصد - كما يبدو من أسلوبه - أن يلبس على المسلمين دينهم، وأنه لايعدو أن يكون ديناً من الأديان ، وأن فيه من الأقاويل والمثالب ما فيه ، وأنهم لو تجردوا للحق لاقتنعوا - حسب خياله - أن الحق في النصرانية . ولذلك فإن صاحب الإعلام - فيما يظهر - لم يجعل رده على أقوال النصراني رداً عاماً ، وإنما حرص على تجزئة نصوص "تثليث الوحدانية" حسب موضوعاتها ، ثم بنى على تلك الموضوعات فصول كتابه ،فأخذ يسوق في فاتحة كل فصل كلام النصراني ، ثم يشرع في مناقشته مناقشة علمية رصينة معتمداً في ذلك على العقل والنقل(١) . وكان قبل ذلك في صدر الكتاب قد ساق خطبة كتاب النصراني ، وناقشه عند كل كلمة فيها (٢) ، ثم أعرض عن تلك الطريقة ، لأنه إن تتبع كلامه كما تتبع خطبته " خرج الأمر عن الاعتدال ، وأدى ذلك إلى الكسل والملال " على حد تعبيره (٣) . ولقد غطى سرد نصوص " تثليث الوحدانية " والرد عليها وما تخلل ذلك من بيان لتحريف التوراة والإنجيل، وحكاية لمذاهب المتقدمين من النصارى الذين عول عليهم صاحب التثليث - غطى ذلك كله ما يدنو من نصف كتاب

(١) القرطبي : الإعلام ، جـ ١ ، ص٥٧-١٥٧ ، جـ٢ ، ص١٦١-٢٣٦ .
(٢) المصدر السابق ، جـ١ ، ص٤٧-٥٤ .
(٣) المصدر السابق ، جـ١ ، ص٥٤ .

الإعلام[١]. أما النصف الثاني فهو وثيق الصلة بالقسم الأول، حيث خصصه المؤلف لمسائل كان قد تناولها عرضاً في القسم الأول ، ورأى ضرورة بسط مجملها ، وإيضاح غامضها ، وتفصيل أجزائها . كما خصصه - أيضاً - لشرح مقاصد عبارات عامة وردت في كلام ذلك النصراني . فلقد تكلم ذلك العالم القرطبي عن معنى النبوة والرسالة والمعجزة [٢] ، ثم عطف بالكلام عن معجزات عيسى الطَّيْكِلاَ ، ووضح حقيقة كثير مما يتناقله النصارى منها [٣] ، وبين أنه تحدى بها الناس ليؤمنوا بأنه رسول الله لا ليعتقدوا بأنه إله تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً [٤] . وحيث أن النصراني كان قد طالب المسلمين أن يستدلوا على صدق ما يدعونه بكلام الأنبياء السابقين فقد تحدث المؤلف عن نبوة النبي ﷺ ، فساق أولاً الأدلة على نبوته من كتب الأنبياء [٥] ، وقد قدم تلك الأدلة على سواها مع أن الحق تقديم ما هو أقوى منها - ليساير النصراني في طلبه ذلك [٦] . ثم عرض بعد هذا لأنواع ثلاثة من الأدلة الشاهدة على نبوة الرسول ﷺ ، فراح يشرح الاستدلال على نبوته بقرائن أحواله [٧]، ثم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[٨] ، ثم بجمله من المعجزات والآيات الواقعة له ﷺ [٩]، وكذلك الكرامات الحادثة

(١) القرطبي : الإعلام ، جـ ١ ، ص٤٧-١٥٧ ، جـ٢ ، ص١٦١-٢٣٦ .
(٢) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٢٣٧ - ٢٤٠ .
(٣) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص٢٤١ - ٢٥٨ .
(٤) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٢٤١ .
(٥) المصدر السابق ، جـ٣ ، ص٢٦٣-٢٨٠ .
(٦) المصدر السابق ، جـ٣ ، ص٢٦٣ .
(٧) المصدر السابق ، جـ٣ ، ص٢٨١ - ٣٢٢ .
(٨) المصدر السابق ، جـ٣ ، ص٣٢٣ - ٣٤٧ .
(٩) المصدر السابق ، جـ٣ ، ص٣٤٨ - ٣٨١ .

لبعض أتباع دينه من الصحابة والتابعين [١] والتي تغاير تماماً ما يحكيه النصارى من خوارق زائفة يزعمون وقوعها في أماكن معينة ، وأوقات محددة [٢] .

وبعد ذلك عطف مرة أخرى على موضوع كان قد عالج جوانب معينة منه في الرد على كلام صاحب " التثليث " وهو حال النصارى مع دينهم ، فتكلم عن طريقتهم في الاعتقاد ، وبين خروجهم عن تعاليم التوراة والإنجيل، وأنه لا مستند لهم في أحكامهم إلا محض الأغراض والأهواء . ثم أخذ يعرض شعائر الديانة النصرانية المحرفة وطقوسها[٣]. وقد كان غرض المؤلف من إيراد تلك الشعائر والطقوس أن يُخرس صاحب كتاب التثليث عن التعرض للإسلام، لأن دينه المحرف يحتوي على عيوب شنيعة ، وأخطاء فادحة ، فكان الأولى به أن يسترها ويسعى إلى كتمانها [٤] . ثم انتقل للحديث عن محاسن الدين الإسلامي ، وجملٍ من أحكامه وفروعه ، وبخاصة تلك التي يطعن فيها النصارى ، وصدر حديثه هذا بقوله " إنما فعلنا ذلك لغرضين : أحدهما : إن السائل الذي حركنا لهذا الكتاب هددنا وزعم إن سُبَ أو شُتِمَ كتب كتاباً بنص شريعتنا ، ووجهه للبلاد حتى يقف الناس عليه ، فأردت أن تولى ذكر شريعتنا لئلا يتعاطى ذكرها ونقلها جهول لايحسن ما ينقل ولا مايقول... " [٥] " والغرض الثاني أنه لا يبعد أن يقف على هذا الكتاب نصراني أو يهودي لم

(١) القرطبي : الإعلام ، حـ٣ ، ص٣٨١ - ٣٨٤ .
(٢) المصدر السابق ، حـ٣ ، ص٣٨٤ - ٣٨٧ .
(٣) المصدر السابق ، حـ٤ ، ص٣٩٣ - ٤٣٧ .
(٤) المصدر السابق ، حـ٤ ، ص٤٠٢ .
(٥) المصدر السابق ، حـ٤ ، ص٤٣٨ .

يسمع قط من ديننا تفصيلاً ولا تصريحاً ، بل إنما سمع له سباً وتقبيحاً، فأردت أن أسرده على الجملة ، ليتبين حسنه لمن كان ذكي العقل ، صحيح الفطرة ، فلعل ذلك يكون سبب هداه .. » [١] . ثم أورد باقتضاب قواعد اعتقاد أهل الإسلام مجردة من أدلتها وشواهدها ، وبعد أن أومأ إلى علم الأصول وبعض مصطلحاته أشار إلى ما في الشريعة الإسلامية من مراعاة للمصالح الدنيوية والأخروية ، وما تضمنته من حثٍ على الأخلاق المحمودة ، وتنفيرٍ من الأخلاق المذمومة [٢] . وقد ختم الكتاب بتجلية لحقيقة ما تعود رجال الدين النصارى على إثارته حول الدين الإسلام ، إذ إنهم « يعيبون دين الإسلام ويقبحونه عند جهالهم وعامتهم بأمور من فروع الإسلام لا ينبغي لمنصف أن يعيبها ، ويتيب شرعاً هي فيه » [٣] . ثم نقل ما قاله أحد القساوسة في إنكاره لنبوة الرسول ﷺ ، وتعييبه عليه الأمر بالقتال والقصاص، وإباحة تعدد الزوجات والطلاق ، وقوله بربط الهدى والضلال بمشيئة الله [٤] . كما مثّلَ المؤلف -أيضاً- ببعض أقوال القسيس الذي كان قد كتب إلى أبي جعفر بن أبي عبيدة الخزرجي رسالة ، وسبق أن تعرضنا لها [٥] . وبعد ذلك أتى هذا العالم القرطبي على هذه الشبهات ورد عليها واحدة بعد الأخرى ، واكتفى بالرد على بعضها باختصار محيلاً للقارئ إلى ما بينه من قبل في أطواء الكتاب[٦]. وقبل أن ينهي كتابه أبدى استعداده التام لمواصلة المعركة الفكرية

---

(١) القرطبي : الإعلام ، جـ٤ ، ص٤٣٩ .
(٢) المصدر السابق ، جـ٤ ، ص٤٤٢ - ٤٤٦ .
(٣) المصدر السابق ، جـ٤ ، ص٤٤٧ .
(٤) المصدر السابق ، جـ٤ ، ص٤٤٨ .
(٥) قارن بين الخزرجي : مقامع الصلبان ، ص٣٥ ؛ القرطبي : الإعلام ، جـ٤ ، ص٤٤٨ .
(٦) القرطبي : الإعلام ، جـ٤ ، ص٤٤٩-٤٥٧ .

مع أولئك القساوسة فقال " ولئن زادوا زدنا ، وإن عادوا عدنا " [١] .

ومن المناسب هنا الإفادة بأن هذا العالم القرطبي في كتابه الإعلام كان سلس الأسلوب ، واضح العبارة ، قوي الحجة ، موفقاً فيما ساقه من استدلالات وشواهد ، واعياً بما يُثبِتُ من كلام وبما يذر [٢] . على أنه ما فتئ من أول الكتاب إلى آخره يسخر بالنصراني ، ويسفه عقله ، ويُزري بفهمه ، ويَهْزأ بكلامه ، ويزدري أقواله . وهذا غير مستغرب في الجدال الديني في ذلك الزمن ، فاستخدام مثل هذا المنهج يكاد يكون قاعدة مطلقة في هذا النوع من التأليف سواء صدر عن النصارى أو عن المسلمين [٣] ، بدليل أن المؤلف رغم ما وجهه إلى النصراني من عبارات قاسية ، وألفاظ ساخرة فقد دعاه أكثر من مرة إلى إنقاذ نفسه من الضلال إلى الهدى ، وتمنى أن يراه حَكَّم العقل ، وثاب إلى الرشد ، واعتنق الدين الحق : الإسلام [٤] .

ومن الخير أن نذيل استعرضنا لكتاب " الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام " بمقاطع من أقوال مؤلفه في حديثه عن بعثة الرسول ﷺ إلى الخلق أجمعين ، وظهور دينه الإسلام على سائر الأديان . قال " إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ إلى الناس كافة ، وإلى جميع أهل الملل عامة نصرانيهم ويهوديهم وغير ذلك ، فبلغهم ما أمر الله به ، فناصبوه العداء ، وأبدوا له

---

(١) القرطبي : الأعلام ، جـ٤ ، ص٤٥٧ .

(٢) مما يدل على وعيه أنه تحاشى تقصى الأدلة المبطلة للحجج التي أقامها صاحب التثليث على اليهود ، وعلل ذلك بخوفه أن يستفيد منها مَنْ يطلع على كتابه من اليهود (القرطبي : الإعلام ، جـ٢ ، ص١٧٨) .

(٣) الخزرجي : مقامع الصلبان ، ص١٤ - ١٥ من مقدمة المحقق .

(٤) القرطبي : الإعلام ، جـ١ ، ص١٠١ ، ١٠٦ ، ١٢٣ ، جـ٢ ، ص٢٣٦ .

صفحة الخلاف .... » [١] « فأول من حاربه كفار قريش فأظفره الله بهم ، وأظهره الله عليهم ، ثم حاربته يهود فأمكنه الله منهم ... فعلا عليهم وظهر، ثم حاربته النصارى ، فغزاهم بتبوك ، ودخل عليهم بلادهم ، وافتتح في طريقه حصوناً لهم ولغيرهم وأظهره الله عليهم .... » [٢] « ثم إن أصحابه بعده لم يزالوا على مثل حاله يقاتلون مَنْ كفر بالله ، ولا يخافون لومة لائم في الله فلقد صيروا ملوك الروم وغيرهم أذلة أهل صغار وجزية وذلة ، ثم لم يزل دين الإسلام مع مرور الأيام ينتشر بكل مكان ويظهر ، وغيره من الأديان يقل ويصغر ، وحسبك شاهداً على ذلك فتح هذه الجزيرة الأندلسية على أيدي جماعة من العرب ، قليل عَددهم وعُددهم ، كثير دينهم ومددهم على أعداد من النصارى لا تحصى ، وجنود لا تستقصى ، ولكن صدق الله عبده ، وأنجز وعده ... ، فأمكنهم الله منكم ، وأظهرهم عليكم فأجدادكم عندهم بين أسير وقتيل ، وتحت صغار الجزية ذليل .... » [٣] .

☆ ☆ ☆

أما الأثر الثالث الموجود بين أيدينا في ميدان الرد على النصارى فهي تلك المناظرة التي في مجال إعجاز القرآن بين أبي علي بن رشيق التغلبي وأحد القساوسة النصارى في مدينة مُرْسِيَة ، وقد قص تفاصيلها أبو علي بن رشيق نفسه ، فذكر أن قسيساً نصرانياً استدعاه للمذاكرة ، ثم استدرجه حتى قعد إلى نفر من النصارى رابعهم ذلك القسيس [٤] ، فبدأ الأخير يتكلم في أمر

(١) القرطبي : الإعلام ، جـ٣ ، ص٣٣٩ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) المصدر السابق ، ص٣٣٩ - ٣٤٠ .

(٤) الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ١١ ، ص١٥٥-١٥٦ .

المعجزة ، ثم انطلق منها إلى مقدمات مسلمة لدى المسلمين حول القرآن وإعجازه ، فاعترف بأن القرآن من أعظم معجزات النبي ﷺ ، وأن الله قد تحدى به العرب -وهم الفصحاء البلغاء- فعجزوا عن الإتيان بشيء من مثله وأن هذا التحدي باقٍ إلى آخر الدهر (١) . فلما وافقه ابن رشيق عموماً على تلك المقدمات أفصح القسيس عما يريد الوصول إليه ، فذكر كتاب المقامات للحريري☆ (ت٥١٦هـ/١١٢٢م) وزعم أن أهل الأدب عجزوا عن معارضته، وأنه قد أنشد بيتين اثنين في المقامة السادسة والأربعين المسماه بالمقامة الحلبية، وتحدى أن يعززهما أحد بثالث(٢)، وأن السنين انصرمت، والأجيال انقرضت ولم يأتِ أحد بثالث لهما – كما يزعم – (٣) ، رغم كثرة دَرْسِ الناس لتلك المقامات وتداولها بينهم في المجالس والمحافل(٤). وانتهى إلى القول على ضوء ما قرره من مقدمات – أن ما أتى به الحريري يكون معجزة ، وهو ليس بنبي ،

---

(١) المصدر السابق ، جـ١١ ، ص١٥٦ .

☆ أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري ، من سكان البصرة . عُرف بالذكاء والفصاحة والبلاغة ، فكان أحد أئمة أهل الأدب واللغة . له تصانيف متعددة تشهد بمقدرته وتفوقه ، يأتي على رأسها " المقامات " التي بلغت خمسين مقامة ، سمى كل واحدة منها – سوى ثلاث – بأسماء البلدان ، وقد توفي في رجب سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م (السمعاني : الأنساب ، جـ ٣ ، ص ١٠٩ ؛ الشريشي : شرح مقامات الحريري ،جـ١ ، ص٤-٥ ؛ القفطي : إنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط . الأولى ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، جـ٣ ، ص٢٣-٢٧ ؛ ياقوت : معجم الأدباء ، جـ١٦ ، ص٢٦١ – ٢٩٣ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٦٣-٦٧ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ،جـ١٩ ، ص٤٦٠-٤٦٥) .

(٢) انظر ما قاله الحريري فعلاً في : مقامات الحريري ، ط . دار صادر ، بيروت ، ص٤٠٦-٤٠٧ ، الشريشي : شرح مقامات الحريري ، جـ٤ ، ص١٩٧ .

(٣) لا يغربن عن البال أننا نعرض المناظرة كما جاءت ، ولا نتعرض لمصداقية ما ورد فيها من أقوال . انظر (ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٤ ، ص٤٩-٥٣) .

(٤) الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ١١ ، ص١٥٧ .

فإذا حصل وقوع تلك المعجزة القائمة على عجز الناس عن الاتيان بمثل ما تحدوا به من قول لغير نبي فإن نبوة الرسول ﷺ – حسب زعمه – لا تثبت بمسألة التحدي المنصوص عليها في القرآن " اللهم – كما يقول – إلا أن نستعين بقرينة أخرى أو بقرائن من غير القرآن ، فتكون حينئذٍ قد جعلت القرآن غير مستقل بإثبات نبوءة نبيكم " (١) . وحين حاول ابن رشيق أن يقنعه الفرق بين المسألتين بالبراهين الأصولية ، والأقاويل العلمية أخذ يرد عليه القسيس بقوله " قد سمعت هذا وناظرني به فلان " (٢) . وفي تلك الأثناء انقدح في ذهن ابن رشيق بيتاً ثالثاً على شاكلة بيتي الحريري ، فأنشده أياه ، فعند ذلك انقطعت حجة القسيس التي ركب عليها شبهته ، فراح يُفهم أصحابه ذلك البيت ، فكانت النتيجة أن ابن رشيق لم ينفصل عنهم " إلا وهم كالمسلمين في انقطاع شبهتهم " على حد تعبيره (٣) .

ومن ناحية أخرى أكد ابن رشيق أن ذلك النصراني كان خلال المناظرة حريصاً أشد الحصر على التلطف بالقول ، والتحفظ من النطق بكلمات غير لائقة بحق القرآن والرسول ﷺ ، والاعتذار من الألفاظ التي تُفْهَم على أكثر من وجه (٤) . ويبدو أنه لجأ إلى هذا الأسلوب ليكسب مُنَاظِره ، ويُحكم شبهته التي اعتقد أنها مفحمة . على أن ابن رشيق رغم حداثة سنة في ذلك الوقت قد وفق في إسكاته وإدحاض باطله .

وهكذا استعرضنا كتاب " مقامع الصلبان " ، وكتاب " الإعلام بما في

---

(١) الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ١١ ، ص١٥٧-١٥٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص١٥٨ .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) المصدر السابق ، ١٥٦-١٥٧ .

دين النصارى من الفساد والأوهام » ، ومناظرة أبي علي بن رشيق مع قسيس نصراني . وكان من حسن حظنا أن هذه الآثار الثلاثة وفرت لنا نماذج ثلاثة من الرد على النصارى ، كل نموذج له ظروفه الخاصة ، وطابعه المميز . فالأول كتبه أبو جعفر بن أبي عبيدة الخزرجي - وهو أسير في طليطلة - رداً على رسالة أحد القساوسة، وقد تميز هذا الأثر باحتوائه على مناقشة لعددٍ غير قليل من شبهات النصارى حول الإسلام . أما الأثر الثاني فقد كُتب على إثر ذيوع كتاب بين المسلمين اسمه « تثليث الوحدانية في معرفة الله » ظاهره شرح العقيدة النصرانية ، وباطنه ضرب للعقيدة الإسلامية ، فجاء الرد عليه محتوياً على نقض لأصول الدين النصراني مدللاً على صدق الدين الإسلامي. أما الأثر الثالث فقد كان أصله مناظرة شفهية دونت - فيما بعد- وقائعها ، وقد تركزت على قضية واحدة لم تتجاوزها ، كانت تدور - أيضاً - في جانب واحد من جوانب إعجاز القرآن وأثره في إثبات نبوة الرسول ﷺ .

☆ ☆ ☆

وصفوة ما تبين لنا من خلال صفحات هذا الفصل أن الأندلس في عصر المرابطين والموحدين تعرضت لحملات فكرية نصرانية غرضها تقويض أركان الإسلام ، وتشكيك المسلمين في عقيدتهم ، وصرفهم عن الدين الحق إلى الدين النصراني ، ثم تأكد لدينا أن عدداً من علماء الأندلس نهضوا بمسؤوليتهم في التصدي لتلك الحملات سواء بالمشافهة أو بالكتابة . وقد تيسر لنا معاينة ثلاثة من الأعمال الباقية من مجهوداتهم في هذا الميدان ، حيث تعرفنا بصورة حية على المناهج والوسائل والأدوات التي استخدمها العلماء الأندلسيون في صد الأفكار والعقائد والتصورات النصرانية المناوئة للإسلام.

الفصل الخامس

أثر العلماء في المحافظة على
الشخصية الإسلامية تجاه التأثيرات النصرانية

إن تميز أي أمة من الأمم في شخصيتها أوضح ما يكون في المظاهر الشكلية والجوانب السلوكية ، ويتجسد ذلك غالباً في العادات والتقاليد والقيم والشعائر والآداب والعطاءات المادية والفنية ، ولا خفاء أن تلك المظاهر والجوانب ما هي إلا مرآة صافية للثقافة التي تتبناها هذه الأمة أو تلك . والأمة الإسلامية لها شخصيتها المميزة ، وهُويتها المتفردة ، فنظام المجتمع فيها " يقوم على الإسلام ابتداءً ، ويستمد قوانينه كلها من شريعة الإسلام ، ولايستمدها من أي مصدر سواه " [1] ، فكان حصيلة ذلك " سمات اتسم بها المجتمع الإسلامي ، وسلوكاً معيناً اتخذه المسلمون ، تميزوا به عن المجتمعات كلها من قبلهم ومن بعدهم " [2] . والمسلم حين يتجول في بلاد الإسلام في ذلك الزمان يجد الناس يتوجهون بالعبادة إلى الإله الأحد ، يصلون مثلما يصلى ويجد - أيضاً - شريعة واحدة [3] ، وقيماً متساوية ، وسمات متقاربة ، ولكنَّ هذا لايمنع أن يوجد في البلدان الإسلامية اختلاف في بعض التطبيقات السلوكية والمظهرية لأحكام الإسلام أو آدابه ، وذلك تبعاً للعادات والتقاليد والأعراف المشتهرة بين سكان تلك البلدان .

وجماعة المسلمين في الأندلس كانت - بطبيعة الحال - مصطبغة في أنماطها الاجتماعية على الأغلب بقواعد الإسلام وآدابه، وقد يبدو بينها وبين

---

(١) محمد قطب : هل نحن مسلمون ، ط . دار الشروق ، بيروت - القاهرة ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص٥٥ .

(٣) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريده ، ط . الرابعة دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ، جـ١ ، ص٢٢ .

المشارقة -أحياناً- اختلاف في بعض مظاهر السلوك والأزياء ونحوها[١]. على أن المسلمين في الأندلس إبان عصر المرابطين والموحدين شاركوا النصارى في بعض عوائدهم ، ومال بعضهم إلى التشبه بأولئك النصارى في بعض النواحي السلوكية والمظاهر الشكلية .

ومما لا شك فيه أن اتجاه بعض مسلمي الأندلس إلى هذا الطبع- أعني المشاركة للنصارى في أمورهم الخاصة والتشبه بهم - يمثل تهديداً للشخصية الإسلامية المتميزة التي ينبغي حفظها من التلاشي ، وحمايتها من الذوبان في الثقافات الأخرى ، هذا في الأحوال العادية . أما في عصر كعصر دراستنا الذي كان الصراع فيه محتدماً بين المسلمين في الأندلس ونصارى الممالك الإسبانية ، ليس هذا فحسب ؛ بل ربما مالت كفة النصارى على المسلمين في بعض المواقع والسنوات - فإن الانسياق وراء ما يختص بالنصارى من مظاهر وشكليات وسمات يكون أنكى خطراً ، وأعظم ضرراً على هوية المسلمين في الأندلس ، إذ المعروف " أن المشابهة في الظاهر تورث نوعَ مودة ومحبة وموالاة في الباطن " [٢] ، والمسلمون في الأندلس في ذلك العصر أحوج ما يكونون إلى دعم وحدتهم ، وتماسك جبهتهم الداخلية ، وتقوية قلوبهم ، وتجريد ولائهم للإسلام ودولته ، والابتعاد عن كل سبيل يسهل على العدو هزيمتهم واحتلال بلادهم .

---

(١) المقري : نفح الطيب ، جـ١ ، ص٢٢٢-٢٢٣ .

(٢) ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ، تحقيق ناصر بن عبد الله العقل ، ط . الثالثة ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ، جـ١ ، ص٤٨٨ .

أولاً : بعض التأثيرات النصرانية على الشخصية الإسلامية في الأندلس :

المتمعن في طوائف المجتمع الأندلسي ، وصلات بعضها ببعض ، وأثر بعضها على بعض يلمح أن المسلمين - كما أثروا على الطوائف الأخرى في شتى أوجه حياتها ، وفرضوا مظاهر اجتماعية عديدة عليها - فقد وجدت في حياتهم الاجتماعية - هم الآخرون - جملة من العادات والتقاليد والسمات النصرانية وقد كانت تتفاوت في مقدار انتشارها بينهم ، ومدى تقبلهم لها ، ولكن يمكننا أن نميز بين نوعين منها ، فنوع تواترت الأخبار بأن جمهرة كبيرة من مسلمي الأندلس التزموها، واعتادوا على الاحتفاء بها،ونوع آخر من تلك المظاهر النصرانية لم تستهوِ سوى أفراد معينين ، أو عصابة قليلة من المسلمين.

فعلى سبيل المثال كانت فئام كبيرة من مسلمي الأندلس تستعد -مثلاً- للأعياد والمناسبات النصرانية ، ثم تشارك النصارى في الاحتفال بها. فمن الأيام النصرانية التي كان المسلمون في الأندلس يحتفون بها مع النصارى ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام [١] المحدد بالخامس والعشرين من شهر ديسمبر العجمي[٢] ، ويناير سابع ولادته[٣] ، ويوم ختنه وهو أول السنة الميلادية[٤] ، والعنصرة [٥] المسمى أيضاً بـ عيد سان خوان [٦] والذي يعتقد أنه يوم مولد

(١) العَزَفي : الدر المنظم في مولد النبي المعظم ، مقدمة الكتاب ، نشرها فرناندودي لاجرانخا ، بمجلة AL ANDALUS الإسبانية ، عدد ٣٤ ، سنة ١٩٦٩ ، ص١٩ ، ٢٣ .

(٢) عريب بن سعد : الأنواء ، نشر : ر . دوزى ، ط . ليدن ، بريل ، ١٩٦١م ، ص١٨٣ .

(٣) العزفي : الدر المنظم ، ص١٩ ، ٢٣ .

(٤) عريب بن سعد : الأنواء ، ص٢١ ، ٢٧ .

(٥) العزفي : الدر المنظم ، ص١٩ ، ٢٣ .

(٦) العبادي: الأعياد في مملكة غرناطة، ص١٤٠ ، سامية مصطفى مسعد: الحياة الاقتصاديةوالاجتماعية-

يحيى بن زكريا عليهما السلام [(١)]☆ ، ويوافق اليوم الرابع والعشرين من يونية [(٢)] ، وخميس إبريل [(٣)] الذي يرمز عند النصارى إلى يوم صلب المسيح كما شبه لهم [(٤)] .

ولقد كان الجم الغفير من المسلمين في الأندلس يترقبون موعد هذه الأعياد [(٥)] " فكثيراً ما يتساءلون عن ميلاد عيسى ... وعن ينير ... وعن العنصرة " [(٦)] حتى كان ديدنهم " التحفي عنها بالسؤال ، والمحافظة عليها والإقبال " [(٧)] ، يقول ابن بشكوال [(٨)] (ت٥٧٨هـ/١١٨٢م) واصفاً عناية المسلمين في الأندلس بالأعياد النصرانية كما شاهد ذلك بأم عينه " فإني رأيت ... الجمهور اللفيف والعالم الكثيف من أهل عصرنا قد تواطأوا على إعظام شأن هذه البدع الثلاث : الميلاد وينير ... و... العنصرة - تواطؤاً

= في إقليم غرناطة في عهد المرابطين والموحدين ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ١٩٨١م ، ص٢٥٩ .

(١) العزفي : الدر المنظم ، ص١٩ .

☆ ويقال إنه يمثل عند النصارى حسب زعمهم يوم نزول الروح القدس على الحواريين (إبراهيم القادري بوتشيش : المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، ط . الأولى ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٩٣م ، ص٩٣) .

(٢) عريب بن سعد : الأنواء ، ص١٠١ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص٢٢٧ .

(٣) الطرطوشي : الحوادث والبدع ، تحقيق عبد المجيد تركي ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، ص٣٠٠ حاشية ؛ ابن خليل : اختصار القدح المعلى ، ص١٥٦ .

(٤) بوتشيش : المغرب والأندلس ، ص٩٤ ، حاشية " ١ " .

(٥) العزفي : الدر المنظم ، ص١٩ ، ٢٩ .

(٦) المصدر السابق ، ص١٩ .

(٧) المصدر السابق ، ص٢٠ .

(٨) المصدر السابق ، ص٢٣ .

فاحشاً ، والتزموا الاحتفال لها ، والاستعداد لدخولها التزاماً قبيحاً ، فهم يترقبون مواقيتها ، ويفرحون بمجيئها " .

وكان بعض مسلمي الأندلس يعتبرون المناسبات النصرانية " كأحد الأعياد " [١] . ففي يناير رأس السنة الميلادية " يترك الرجال والنساء أعمالهم صبحيتها تعظيماً لليوم " [٢] . وربما لبسوا فيها الثياب الحسنة [٣] . ولايُستغرب أن يذبح بعضهم فيها الذبائح [٤] . وكان من عادتهم في يناير وغيره من المناسبات النصرانية [٥] تجهيز صنوف المأكولات ، منها ما عُرف لديهم بالمدائن [٦] ، وهي معجنات مصنوعة بالأفران من الدقيق والزيت والبيض والزعفران والأصباغ المتعددة الألوان وخلافه ، وكانت تُصنع على هيئة مدن ذات أسوار [٧] ، وقد يشكل منها صور مجسمة [٨] . وكان أهل اليسار منهم ينصبون في تلك المناسبات - أيضاً - موائد تحتوي على قناطر السكر وأنواع كثيرة من الفاكهة والثمار ذوات القشور، والخالية من القشور

---

(١) الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ١١ ، ص١٥٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص١٥٠ .

(٣) ابن قزمان : ديوان ابن قزمان ، تحقيق : ف . كورينطي ، ط . المعهد الإسباني العربي للثقافة ، مدريد ١٩٨٠م ، ص٢٨٤ .

(٤) العزفي : الدر المنظم ، ص٢٧ .

(٥) المصدر السابق ، ص٢١ .

(٦) المصدر السابق ، ص٢٠ ؛ ابن سعيد : المغرب ، جـ١ ، ص٢٩٤ .

(٧) ابن عبدالملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق٢ ، ص٥٦٥-٥٦٦ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٤ ، ص١٣١ .

(٨) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ٢ ، ص٩٤٠ ؛ ابن المناصف : تنبيه الحكام ، ص٣٤٦ ؛ العزفي : الدر المنظم ، ص٢٠ .

الرطبة منها واليابسة [(١)] . وقد تبلغ النصبة من هذه الموائد سبعين ديناراً أو تزيد [(٢)]☆ . وكان بينهم من يدعو أقاربه وأصهاره إلى تناول شيء مما أعده من هذه المأكولات [(٣)] . كما وُجد من المسلمين من يتهادون في الأعياد النصرانية " صنوف الأطعمة وأنواع التحف والطرف " [(٤)] . وقد اختص خميس إبريل من بين الأعياد النصرانية بأكل المجبنات والإسفنج [(٥)]☆☆ .

وهناك من الناس من أُلقي في رُوعه اعتقادات فاسدة حول ما يفعلونه في تلك الأعياد؛ إذ اعتقد بعضهم أن التوسعة في الأطعمة في هذا العيد أو ذاك

---

(١) ابن قزمان : ديوان ابن قزمان ، ص٤٦٤ ، ٤٦٦ ؛ العزفي : الدر المنظم ، ص٢١ .

(٢) العزفي : الدر المنظم ، ص٢١ .

☆ لتصور القيمة الشرائية للدينار في ذلك العصر ، ومن ثم معرفة تكلفة هذه الموائد التي تنصب في الأعياد النصرانية نذكر أن رطل القمح بلغ – في وقت الغلاء الفاحش الذي حل ببلنسية أيام حصار القمبيطور لها سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م – بلغ ديناراً ونصف دينار ، ورطل الشعير ديناراً (ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص٣٨) فإذا كان هذا في وقت الغلاء الفاحش ففي الحالات الطبيعية سيكون الرطل من القمح أو الشعير أقل من ذلك بكثير .

(٣) الونشريسي : المعيار المغرب ، جـ١١ ، ص١٥١ .

(٤) المصدر السابق ، ص١٥١ .

(٥) الطرطوشي : الحوادث والبدع ، ص٣٠٠ حاشية ؛ ابن خليل : اختصار القدرح المعلى ، ص١٥٦ .

☆☆ والمجبنات تصنع من سميد يعجن بالماء ، ثم يحشى بالجبن الطري ، ويقلى بالزيت ، فإذا نضج سقي بالزبد الطري والعسل المذاب ، ثم ذر عليه سكر وقرفة . والمجبنات أنواع متعددة (ابن رزين التجيبي: فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان ، تحقيق محمد بن شقرون ، ط . الثانية ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ١٩٨٤م ، ص٨٢-٨٦) وانظر السقطي : في آداب الحسبة ، تحقيق حسن الزين، دار الفكر الحديث ، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ص٤٦ .

والإسفنج يصنع ببل السميد أو دقيق الدرمك بالماء الساخن ، ثم يمزج بالملح والخمير ، ثم تعجن هذه الأشياء وتترك حتى تختمر ، ثم تقلى بالزيت بعد تقطيعها إلى قطع صغيرة أو كبيرة حسب الحاجة ، وله أنواع ، منها إسفنج الريح وإسفنج القلة (ابن رزين التجيبي : فضالة الخوان ، ص٨٠-٨٢) .

تبشير بخصب العام ، وتفاؤل ببسط الرزق فيه [١] .

ولقد كانت تجرى في الأعياد النصرانية أنشطة مختلفة بقصد التسلية والترفيه . ففي العنصرة يعمد الصبيان إلى رش الشوارع والأسواق بالماء ، ويلعبون بالمقارع والعصى [٢] . وفي اليوم نفسه - أيضاً يقوم بعض الناس بإشعال شعلة نار يسمونها شعلة العنصرة ، ويقفزون من فوقها ابتهاجاً بتلك المناسبة [٣] . كما يحتفل رجال الأسطول في بعض المدن ، فيقيمون في هذا اليوم السبق بين سفنهم في الأنهار [٤] . وقد يقام في تلك الأيام سباق للخيل [٥] . وفي خميس إبريل اعتاد الناس - بمن فيهم المثقفون - على الخروج للنزهة [٦] ☆ .

والحديث عن مشاركة مسلمي الأندلس في الأعياد النصرانية، وتتبعهم لمواعيدها يجرنا إلى الوقوف عند تأثير نصراني آخر عليهم ، وهو تعاملهم في حياتهم بالتقويم العجمي النصراني بجانب التقويم الهجري ، فلقد كان تعامل

---

(١) العزفي : الدر المنظم ، ص٢١ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق٢ ، ص٥٦٦ .

(٢) الجرسيفي : رسالة في الحسبة ، نشرها إ . ليفي بروفنسال ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ، ط . المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥م ، ص١٢٤ .

(٣) الزجالي : أمثال العوام في الأندلس ، دراسة وتحقيق محمد بن شريفة ، ط . مطبعة محمد الخامس ، فاس ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ، ق١ ، ص٢٤٠ ، ق٢ ، ص٨٥ ، ٢٦٧ .

(٤) المراكشي : المعجب ، ص٢١٥ .

(٥) الزجالي : أمثال العوام ، ق١ ، ص٢٤٠ ؛ الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ١١ ، ص١٥١ .

(٦) ابن خليل : اختصار القدح المعلى ، ص١٥٦ .

☆ ذكر بعض الكتاب وسائل مختلفة للاحتفال بالأعياد في مملكة غرناطة (العبادي : الأعياد في مملكة غرناطة ، ص١٤١ - ١٤٥ ؛ سامية مصطفى مسعد : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إقليم غرناطة، ص٢٦٠ - ٢٦١) .

المسلمين في الأندلس بالشهور العجمية☆ سارياً في عصر المرابطين والموحدين، إذ كانوا أحياناً يعينون بها الحوادث مضافة إلى التاريخ الهجري [١]، ويحددون بها مواسم الأمطار [٢] والزراعة [٣]، وأوقات صناعة بعض الأطعمة [٤]، كما لم يجد بعضهم غضاضة في اعتماد الأعياد النصرانية أنفسها لتحديد تاريخ الوفيات [٥] أو المواليد [٦]. وقد بلغ الأمر بأحد طلبة العلم أن تذكر ميلاده بالشهر العجمي، ونسي ما يوافقه بالعربي [٧].

ومن الأمثلة التي يمكن أن تذكر عن التشبه بالنصارى استخدام بعض مسلمي الأندلس –وبخاصة من يجاورون الممالك الإسبانية– أزياء النصارى في الملبس والمركب والسلاح. وكذلك استخدام اللغة العجمية النصرانية. فلقد ورد أن محمد بن سعد بن مردنيش حاكم شرقي الأندلس في النصف الأول من العصر الموحدي كان يقلد النصارى "في الزي والكلم" [٨]. وتحدث

☆ في التقويم السنوي الذي كتبه عريب بن سعد، أو ألفه باللاتينية المستعرب ربيع بن زيد ثم نقله إلى العربية عريب بن سعد (بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص٤٨٧؛ كحيلة: تاريخ النصارى، ص١٠٨) في هذا التقويم الذي ظهر في القرن الرابع الهجري – العاشر الميلادي – جُعلت الأشهر العجمية النصرانية هي الأساس، بينا الأشهر القمرية والشمسية التي يستخدمها المسلمون لم تحضَ فيه باهتمام كبير (الأنواء، ص٢١ – ١٨٧).

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص٢٩٨، ٣٩٤.

(٢) المصدر السابق، ص٣١١.

(٣) ابن العربي: عارضة الأحوذي، جـ٥، ص٢٣٤ – ٢٣٥.

(٤) ابن رزين التجيبي: فضالة الخوان، ص٢٢٠، ٢٦٢.

(٥) ابن بشكوال: الصلة، جـ٢، ص٦٧٤.

(٦) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، س٥، ق٢، ص٦٦١.

(٧) المصدر السابق، ص٦٦٠ – ٦٦١.

(٨) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص٢٠٢.

ابن الخطيب [١] عنه بقوله " وآثر زي النصارى في الملابس والسلاح واللجم والسروج ، وكَلِفَ بلسانهم ... " . وقال عنه في موضع آخر " ومال إلى اتخاذ زي الروم من اللباس الضيق ، وركوب البراذين الهماليج ، واتخاذ السروج الضخمة القرابيس ... " [٢]☆ .

وهكذا بالأمثلة السالفة ثبت أن المسلمين في الأندلس تلبسوا بمظاهر نصرانية ، فابتعدوا بذلك عن الشخصية الإسلامية التي ينبغي أن تكون متميزة عن أعدائها في المظهر والمخبر .

---

(١) الإحاطة ، حـ٢ ، ص١٢٣ .

(٢) أعمال الإعلام ، ق٢ ، ص٢٦١ .

☆ لما تكلم ابن سعيد عن الزي الأندلسي قال " وكثيراً ما يتزيا سلاطينهم وأجنادهم بزي النصارى المجاورين لهم ، فسلاحهم كسلاحهم ، وأقبيتهم من الإشكرلاط [نوع من الجوخ] وغيره كأقبيتهم ، وكذلك أعلامهم وسروجهم " (المقري : نفح الطيب ، حـ١ ، ص٢٢٢ - ٢٢٣) والذي حكاه ابن سعيد في هذا النص يظهر أنه ينطبق على حال المسلمين بعد أن انحصرت دولتهم في مملكة غرناطة النصرانية ، فهو يتحدث عما شاهده بنفسه . وقد كانت وفاته سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م (ابن الخطيب: الإحاطة ، حـ٤ ، ص١٥٨) وقد وصف ابن الخطيب زي أهل مملكة غرناطة بشيء قريب مما قاله ابن سعيد (الإحاطة ، حـ١ ، ص١٣٦ ؛ اللمحة البدرية ، ص٣٩) .

ثانياً : تفسير علماء الأندلس ونظرتهم لوجود المظاهر النصرانية بين المسلمين :

من تعامل مع التاريخ الأندلسي يعلم أن ما عرضناه آنفاً من تأثيرات نصرانية سارية في حياة بعض مسلمي الأندلس - يعلم أنها لم تكن كلها وليدة عصر المرابطين والموحدين ، وإنما كان بعضها أقدم من ذلك بكثير ، فالتاريخ بالتقويم العجمي النصراني - مثلاً - كان متداولاً بين المسلمين في الأندلس منذ أمد بعيد ، فثمة تقاويم سنوية انتشرت عندهم منذ النصف الأول من القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي [١] - كان عمادها الأشهر العجمية [٢] . وكذلك الاحتفال بالأعياد النصرانية كان موجوداً بين المسلمين في الأندلس منذ زمن الأمويين . وما زال العلماء ينعون على المسلمين مشاركتهم النصارى في مناسباتهم وعوائدهم[٣] ، ولكن الذي يسترعى الانتباه في عصر الدراسة أن العلماء في تناولهم لمثل هذه الظواهر النصرانية الفاشية بين المسلمين كانوا أكثر تدقيقاً لمسائلها ، وأوعب تحليلاً لأسبابها، وأقرب معرفة لواقعها الفعلي في حياة المجتمع الإسلامي مما ينبئ بانتشارها بين المسلمين في وقت صار النصارى في الأندلس أقلية في وسط الجماعة الإسلامية[٤] . وكانت أعدادهم - أيضاً - في انخفاض مطرد بسبب الهجرة إلى الممالك الإسبانية [٥] ، واستمرار دخول أفواج منهم في

(١) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص٤٨٧ .

(٢) انظر - مثلاً - عَريب بن سعد : الأنواء ، ص٢١ - ١٨٧ .

(٣) العزفي : الدر المنظم ، ص٢٧ .

(٤) حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص٤٣٩ ؛ كحيلة : تاريخ النصارى ، ص١٩٤ ، ٢٤٦ .

(٥) لطفي عبد البديع : الإسلام في إسبانيا ، ط . الثانية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ص٣٠ ، ٣٤؛ كحيلة : تاريخ النصارى ، ص٨٤ ، ٢٣٩ .

الإسلام [(١)]☆ ، وفوق ذلك كان الصراع بين الإسلام والنصرانية قد بلغ – حينذاك – حداً خطيراً .

إن وجود السمات والمظاهر النصرانية بين مسلمي الأندلس التي سبق أن سقنا أمثلة منها يعاكس القاعدة المشهورة أن " المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها بل وفي سائر أحواله " [(٢)] ، حيث نرى المغلوبين النصارى في الأندلس أثروا في الغالبين المسلمين [(٣)]☆☆ فلننظر بما فسر به علماء الأندلس في زمن البحث تفشي بعض العوائد والسمات النصرانية في جماعة المسلمين الأندلسيين . فابن بشكوال [(٤)] (ت ٥٧٨هـ/١١٨٢م) حين تحدث عن تعلق مسلمي الأندلس بالاحتفال في الأعياد والمناسبات النصرانية ذكر إن من أعظم أسبابها " وأقوى دواعيها مطاوعة الرجال للنساء على الاستعداد لها ، والتفخيم لشأنها ، وانقيادهم لهن

---

(١) الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص١٦٢ .

☆ لقد استمر دخول نصارى الأندلس في الإسلام حتى زمن الدراسة ، فهناك عدد من المعاهدين النصارى من أهل إشبيلية أسلموا في عهد الحاكم المرابطي علي بن يوسف (الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ٨، ص٢٠) كما أن جماعة من النصارى أسلموا – أيضاً – في عصر الموحدين (كحيلة : تاريخ النصارى ، ص٢٤٧) .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص١٨٤ .

(٣) Fernando de la Granja:fiestas cristianas en Al Andalus , Revista AL Andalus,vol xxxIV, 1969,p. 3

☆☆ يقول أحد الكتاب أن الأمة الغالبة " كثيراً ما تستهين بشخصية الأمة المغلوبة ، وقدرتها على التأثير فيها ، ومن خلال استهانتها بأعدائها قد تدخل إليها من أفكار المغلوب وسلوكياته واعتقاداته ما يكون له آثار مدمرة لكيانها في المستقبل " (الورداني : النهي على الاستعانة والاستنصار في أمور المسلمين بأهل الذمة والكفار ، تحقيق طه جابر فياض العلواني ، ط . دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٨٣م ، ص١١ من مقدمة التحقيق) .

(٤) العزفي : الدر المنظم ، ص٢٨ .

في ذلك عاماً بعد عام حتى رسخت في صدورهم ، وتصورت في عقولهم ، وتاقت لها نفوسهم" . فابن بشكوال قد وقع - فيما يبدو - على سبب مهم من أسباب وجود عادات وتقاليد نصرانية في وسط المسلمين في الأندلس يدركه من عرف التركيبة الاجتماعية لهم ؛ فالمسلمون عربهم وبربرهم منذ نزولهم في الأندلس أقبلوا على الزواج من نساء أهل البلاد سواء تلك اللاتي اعتنقن الإسلام ، أو اللاتي بقين على نصرانيتهن [١] . فالأخيرات لن يستنكر عليهن الاستمرار في التمسك بشعائر دينهن وتقاليدهن وآدبهن النصرانية ما دام المسلمون - رعاة ورعية - حسب ما يمليه عليهم دينهم الإسلامي قد تكفلوا لأهل الذمة عدم المساس بشيء من تلك الأشياء [٢] ، ومن ثم فإن مسايرة أزواجهن وأولادهن المسلمين لهن في بعض المظاهر الاجتماعية تبقى محتملة جداً ، فَنَشَأَتْ الأجيال الإسلامية التالية على ذلك .

ولقد علل أبو العباس العَزَفي[٣]☆ (ت٦٣٣هـ/١٢٣٦م) تشبه مسلمي

---

(١) مؤنس : فجر الأندلس ، ص٤٢٠-٤٢٢ ؛ الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص١٥٨ ؛ كحيلة : تاريخ النصارى، ص١٦٥-١٧٠ ؛ إبراهيم القادري بوتشيش : المرابطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس، مجلة دراسات أندلسية ، العدد ١١ ، رجب ١٤١٤هـ ، ص٣١ ؛
Jesus Greus : Asi vivian en Al Andalus , madrid , 1989 , p. 20-21

(٢) ضيا باشا : الأندلس الذاهبة ، جـ٣ ، ص٣٩٧ ، ٣٩٩ ؛ كحيلة : تاريخ النصارى ، ص١٤٤-١٦١؛ الحجي: التاريخ الأندلسي، ص١٥٨ ؛ السامرائي: علاقات المرابطين بالممالك الإسبانية ، ص٤٠٤ .

(٣) الدر المنظم ، ص٢١ .

☆ أبو العباس العَزَفي هو أحمد بن أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد اللخمي عرف بابن أبي عزفة. كان من أهل العلم بالسنة، لزم التدريس بجامع سبتة ، وتوفي في شهر رمضان سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٦م (الرعيني: برنامج شيوخ الرعيني ، ص٤٢-٤٧ ؛ المقري : أزهار الرياض، جـ٢ ، ص٣٧٥) وانظر ما كتبه عنه:
- Fernando de la Granja : fiestas cristianas en Al Andalus , p.7,15

الأندلس بالنصارى في بعض تقاليدهم وعاداتهم كالعناية بالأعياد والأيام النصرانية ، وما صاحب ذلك من اعتقادات فاسدة - فقال " وأرى أن ماجر على أهل الأندلس هذا إلا جوار النصارى - دمرهم الله من جيران - ، ومخالطتهم لتجارهم ، ومكاشفتهم عند الكينونة في إسارهم " . ففيما يتعلق بجوار النصارى فقد كان المسلمون في الأندلس على مستوى دولتهم يتاخمون من الشمال دول إسبانيا النصرانية ، ومن أهمها في زمن الدراسة - كما تكرر مراراً - أرغون وقشتالة والبرتغال . أما في داخل البلاد الأندلسية فالنصارى كانوا منبثين بين المسلمين في مناكبها. وقد كان السواد الأعظم منهم يقيمون في كبريات المدن [١]، ولم يفرض عليهم اتخاذ مساكن معزولة عن المسلمين[٢] ☆ بل كانوا يعيشون بين ظهرانيهم [٣] ، فكان النصراني يجاور في داره المسلم [٤] . ولا يخفى ما لهذا جميعه من أثر في انتقال بعض العادات والآداب والتقاليد بين المتجاورين .

- ومع أن إقامته كانت في سبتة ولم تكن بالأندلس بحيث يُعد عالماً أندلسياً فإننا استشهدنا بآرائه هنا لأسباب منها : أ - أنه درس على علماء الأندلس ويروي عنهم (العزفي : الدر المنظم ، ص٢٢ ؛ الرعيني: برنامج شيوخ الرعيني ، ص٤٥ ، ٤٦) ب - إن طلبة العلم الأندلسيين درسوا على يديه وأخذوا العلم منه (الرعيني : برنامج شيوخه الرعيني ، ص٤٢ ، ٤٣) جـ - أنه عاش في وقت اتحاد المغرب بالأندلس في عصر دولة الموحدين . د - أنه اهتم بقضية أندلسية ، وناقشها مناقشة جادة ، أعني مسألة الاحتفال بالأعياد النصرانية في الأندلس من قبل المسلمين .

(١) لطفي عبد البديع : الإسلام في إسبانيا ، ص٢٧ ، ليفي بروفنسال : حضارة العرب في الأندلس ، ترجمة ذوقان قرقوط ، ط . دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ص٧٩ .

(٢) عمر بنميرة : جوانب من تاريخ أهل الذمة في الأندلس الإسلامية ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ١٤، محرم ١٤١٦هـ ، ص٥٩ .

☆ وهذا لا ينفي أن يكون للنصارى في بعض المدن الأندلسية أحياء خاصة بهم (Jesus Greus:op.cit.p,.13) .

(٣) ابن العربي : العواصم ، ص٦١ ؛ ابن رزين التجيبي : فضالة الخوان ، ص٣١ .

(٤) الطرطوشي : سراج الملوك ، جـ٢ ، ص٥٨٩ .

أما المخالطة بالتجارة التي يراها أبو العباس العَزَفي عاملاً من عوامل تشبه المسلمين في الأندلس بالنصارى في بعض عوائدهم فقد كانت بالفعل قائمة بين الجانبين ، فلقد تعود تجار النصارى من الممالك الإسبانية على القدوم بتجارتهم إلى الأندلس أوقات الهدنة مع الدولة الإسلامية ، فكان المسلمون يتعاملون معهم ويبايعونهم (١) ، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى كانت أسواق الأندلس تعج بالنصارى المحليين من أهل الذمة (٢) ، فكان عموم المسلمين يبيعون عليهم ويبتاعون منهم الألبسة والأطعمة وغيرها (٣) . وفي كلا الصورتين سواء تعامل المسلمون بالتجارة مع نصارى الممالك الإسبانية أو مع النصارى المحليين فإنه لا مناص من حصول الخلطة بين الطرفين عند البيع والشراء ، من ثم فإن تأثر طرف بشيء من عادات الطرف الآخر وتقاليده يبقى مؤكداً .

وثالث العوامل التي عدها العزفي مفسرة لما وُجد بين المسلمين الأندلسيين من مظاهر اجتماعية نصرانية فيُرجعه إلى بقاء بعض المسلمين أُسارى مدة في بلاد العدو ، ثم عودتهم إلى بلادهم وقد اكتسبوا بعيشهم هنالك - بعد تقاليد النصارى وعاداتهم ، وقد عبر عن ذلك بقوله - كما مر - " ومكاشفتهم عند الكينونة في إسارهم " . ذاك أن الأسرى المسلمين الذين يقعون في أيدي النصارى - وبخاصة عقب الهزائم الحربية - سيكون

(١) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ٣ ، ص١٦١٩-١٦٢٠ .

(٢) عمر بنميرة : جوانب من تاريخ أهل الذمة ، ص٥٨ .

(٣) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ٢ ، ص٩٧٣ ، جـ٣ ، ص١٢٨١-١٢٨٢ ، ١٦١٨ ؛ الزجالي : أمثال العوام ، ق١ ، ص٢٤٦ ، ق٢ ، ص٢٩٣ ؛ الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ٦ ، ص٦٩ .

غالبهم من العامة (١) . وقد يبقى بعضهم سنوات في دار الحرب (٢) قبل فدائهم بالمال أو غيره (٣) ، ومثل هؤلاء العامة إذا عاشوا سنوات يتجرعون ذل الأسر بين النصارى ، وربما صحب ذلك أحياناً عمليات مقصودة لتغيير المعتقدات والأفكار (٤) . فإنه لايؤمن عليهم إذا رجعوا إلى بلاد الإسلام أن يحملوا معهم بعض المظاهر السلوكية التي عايشوها أو شاهدوها هناك☆ .

☆ ☆ ☆

ولاجرم أن مَنْ نصب نفسه من العلماء لتنقية المجتمع الإسلامي مما ألمَّ به من مظاهر نصرانية كان ينطلق في أحكامه وتصوراته من هدى الإسلام الداعي إلى تميز المسلمين عن غيرهم في مظهرهم العام ، دع عنك تميزهم في المضمون أيضاً (٥) . وللاطلاع على نظرة العلماء الأندلسيين إلى هذه القضية نسوق مقطعاً من كلام أحدهم حين تعرض لاحتفال المسلمين في الأندلس بالأعياد النصرانية ، إذ قال " أي بدعة أفحش وأسمج من أن يكون المسلمون يحتفلون ويستعدون لدخول شهر أو سنة من شهور [كذا] العجم ، وهم

---

(١) الحسين اليعقوبي : في الفكاكة والفكاكين ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ٧ ، رجب ١٤١٢هـ ، ص٦٨ .

(٢) ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ٢ ، ص١٠٥٨-١٠٥٩ .

(٣) الحسين اليعقوبي : في الفكاكة والفكاكين ، ص٦٨ .

(٤) الخزرجي : بين الإسلام والمسيحية ، ص٣٤ ، ٥٣ .

☆ يقول ابن تيمية " وقد رأينا اليهود والنصارى الذين عاشروا المسلمين هم أقل كفراً من غيرهم ، كما رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود والنصارى هم أقل إيماناً من غيرهم ممن جرد الإسلام " (اقتضاء الصراط المستقيم ، جـ١ ، ص٤٨٨) .

(٥) محمد بن سعيد القحطاني : الولاء والبراء في الإسلام ، ط . الثانية ، دار طيبة ، الرياض ، ١٤٠٤هـ ، ص٣٢١ .

أعداؤنا ، وإنما عاديناهم على كفرهم بالله ، وقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ﴾ [(١)] فأي مودة تكون أبين من تعظيم أعيادهم في ضلالهم وكفرهم . يا لها مصيبة ما أجلها ، إنا لله وإنا إليه راجعون " [(٢)] .

على ضوء هذا النص يبدو أن العلماء الأندلسيين في عصر المرابطين والموحدين استيقنوا بأن أهل الذمة من نصارى الأندلس الذين كان المسلمون يشاركونهم في بعض المظاهر لا يقل خطرهم على الإسلام والمسلمين في هذه البلاد عن خطر نصارى الممالك الإسبانية . تأمل عبارة " وهم أعداؤنا " التي تلت مباشرة القول باستعداد المسلمين في الأندلس واحتفالهم مع هؤلاء النصارى المحليين بالأعياد والأيام العجمية ، ويبدو أن رأي العلماء هذا في أهل الذمة الأندلسيين قد تشكل على إثر مواقف بعضهم المتنكرة لحكامهم المسلمين ، إذ تكشف في ذلك العصر أن جماعات متفرقة من النصارى الإندلسيين الذين عاشوا جنباً إلى جنب مع المسلمين لم يستطيعوا كبت عواطفهم الدينية، ومشاعرهم القومية تجاه إخوانهم في العقيدة نصارى الممالك الإسبانية الذين كانوا في حرب ضروس مع الدولة الإسلامية في الأندلس . فلقد ثبت أن قوماً منهم هددوا المسلمين باستدعاء حاكم قشتالة الفونش (الفونسو السادس) [(٣)] . كما أن أهل الذمة النصارى في بلنسية صاروا في

---

(١) سورة الممتحنة ، آية (١) .

(٢) العزفي : الدر المنظم ، ص٢٨ .

(٣) ابن بلقين : التبيان ، ص١٠٨ .

صف القائد النصراني القمبيطور أثناء حصاره لهذه المدينة (١) ، ثم أيام حكمه لها (٢) ما بين سنتي ٤٨٧هـ/١٠٩٤م و ٤٩٥هـ/١١٠٢م☆ . وتجلت عداوة النصارى المحليين للمسلمين في الأندلس بشكل فاضح في غارة الفونسو المحارب ملك أرغون الذي اخترق بها الأندلس في غضون شهور من سنتي ٥١٩هـ/ ١١٢٥م و ٥٢٠هـ/١١٢٦م والتي مضى عرضها في فصل سالف☆☆ ، حيث أن فكرتها نبعت أساساً من المعاهدين النصارى في غرناطة وغيرها الذين خاسوا بذمة المسلمين ، ونكثوا ميثاقهم ، وخانوا عهدهم (٣) ، واتصلوا بهذا الملك النصراني ، ودعوه للمجيء إلى غرناطة للسيطرة عليها . ولإغرائه للقدوم أرسلوا إليه كتاباً سُجلت فيه أسماء اثنى عشر ألفاً من مقاتليهم ، ووعدوه بالانضمام إليه متى ما وصل ، كما زودوه بشرح مفصل عما تتمتع به غرناطة من خيرات وميزات (٤) . ومن المؤكد أنهم لن يبخلوا عليه بمخطط يُعَرِّفه بنقاط ضعف غرناطة وقوتها من الناحية العسكرية . كما أبانت هذه الغارة -أيضاً- ما يكنه أهل الذمة النصارى في صدورهم للمسلمين من عداء على طول الطريق الذي سلكه الفونسو المحارب ، إذ التحق به أثناء ذلك عدد وافر منهم " يكثرون سواده ، ويدلونه على الطريق ، وينبهون إلى المراشد التي تضر

---

(١) ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص٣٩ .
(٢) المصدر السابق ، ص٤٠ .
☆ انظر الفصل الثالث من هذا البحث .
☆☆ انظر الفصل الثاني .
(٣) شعيرة : المرابطون ، ص١٥١ ؛ محمد أبو الفضل : شرق الأندلس ، ص ٧٠ .
(٤) ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص٦٩ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١ ، ص١٠٩ ؛ مجهول : الحلل الموشية ص٩١ .

بالمسلمين وتنفعه »[١] ، فبلغ جملة من وصل معه إلى غرناطة نتيجة لذلك خمسين ألفاً[٢] رغم أنه لم يخرج من مملكته إلا بأربعة آلاف في رواية[٣] ، وعشرين ألفاً في رواية أخرى[٤]☆ .

ويرى قائل النص –أيضاً– بأن مشاركة مسلمي الأندلس في المناسبات المختصة بالنصارى ، والتشبه بهم في بعض أحوالهم آية محبة ، وعنوان ولاء لقومٍ عداوتهم للإسلام وأهله أزلية . وقد أثبتت الأحداث تأصل هذه العداوة في قلوب أهل الذمة من النصارى الأندلسيين وتكرسها رغم عيشهم الكريم في وسط المسلمين ، وإذا داخلت قلوب بعض مسلمي الأندلس محبة وموالاة للنصارى المحليين الذين يرتبطون بنصارى الممالك الإسبانية برباط العقيدة ، ووحدة الهدف فإن موقف أولئك المسلمين من الغزو النصراني سيضعف بلا ريب ، وستخف لديهم روح المقاومة . وقد يحل في نفوس بعضهم شيء من عدم المبالاة عند حلول الأعداء بلادهم☆☆ .

---

(١) مجهول : الحلل الموشية ، ص٩٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص٩٤ .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) ابن عذاري : البيان ، جـ٤ ، ص٦٩ .

☆ ولقد أقر نصارى غرناطة ضمنياً بخيانتهم للمسلمين بعد انسحاب الفونسو المحارب إلى بلاده ، حيث خافوا على أنفسهم من المسلمين ، فهرب من غرناطة عشرة آلاف نصراني كما يحكي دوزي (المسلمون في الأندلس ، جـ٣ ، ص١٦٣) .

☆☆ نذكر على سبيل المثال أن نصارى قشتالة حينما دخلوا مدينة بياسة في أواخر عصر الموحدين ، وسكنوا قصبتها لم يتحرج المسلمون في سائر المدينة من الاتصال بهم ، إذ بقي النصارى " في القصبة ساكنين ، والمسلمون في البلد يداخلونهم ويعاملونهم " (الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص٥٨) .

ولباب القول أن بعض علماء الأندلس في خضم معالجتهم لقضية الهوية الإسلامية أمام النصارى في زمن الدراسة فسروا وجود مظاهر نصرانية في وسط المسلمين بمطاوعة النساء اللاتي كان قسمٌ منهن من النصرانيات ، وكذلك بكثرة المخالطة مع النصارى سواء عن طريق الجوار أو التجارة أو الأسر ، كما لَفَتَ بعضهم الأنظار إلى التناقض الحاصل بين موافقة كثرة من مسلمي الأندلس النصارى في مجموعة من سماتهم - والتي تعني مودتهم ومحبتهم - وبين عداوتهم الأزلية التي نبأ بها العليم الخبير ، وصدقها الواقع بشكل جلي في العصر المرابطي والموحدي .

ثالثاً : جهود علماء الأندلس في الحفاظ على الهوية الإسلامية أمام النصارى :

من خصائص الإسلام الأصلية بثه لروح التميز بين أتباعه في القول والعمل والسلوك تميزاً ينأى بهم نأياً عن التشبه بغيرهم من الأمم المخالفة لهم في العقيدة والخلق والاتجاه ، وذلك في كل شأن يمس وجودهم الفريد ، وأوضاعهم الاجتماعية ، وطابع شخصيتهم العامة [١] ، إذ الشعور بالتميز المستند إلى الحق ، والمتصل بالشريعة ، والمنبثق من جوهر العقيدة " يصون في الأمة مقومات وجودها ، وينشيء لها كياناً راسخاً صلباً لا يعتريه التصدع أو ينفذ إليه الخلل " [٢] .

وليس سبيل إلى الشك أن للعلماء - وعلى الأخص علماء الشرع - كبير الأثر في وضوح تميز حياة المجتمع الإسلامي عن غيره في كل زمان ، لأنهم هم الموقعون عن الله ، الحاملون لهذا الدين ، المكلفون بتعليمه للجماعة الإسلامية، وتأصيل أحكامه وآدابه بين أفرادها[٣] ؛ بل إنهم فوق ذلك المتعين عليهم صيانة الدين ، وحمايته من كل انتحال باطل ، وتحريف غال ، وتأويل جاهل ، والمناط بهم أيضاً مع غيرهم إصلاح فساد الأمة ، ومعالجة أي إعوجاج يطرأ على عقيدتها ، أو أي تنكب ينحرف بها عن طريقها القويم.

وطبيعي أن يسير علماء الأندلس على نهج علماء الإسلام عموماً في

---

(١) عمر عودة الخطيب : لمحات في الثقافة الإسلامية ، ط . الثالثة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ، ص٧٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص٧٩ .

(٣) انظر خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية في الأندلس ، ترجمة الطاهر أحمد مكي ، ط . دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١م ، ص٣٠ .

رعاية الهوية الإسلامية ،والحفاظ على تميزها عن سواها . ولابد أنهم في وقت تصاعد الصراع مع النصارى في عصر المرابطين والموحدين قد عنوا بهذا الجانب أكثر من ذي قبل ، وأخذوا على عواتقهم مقاومة ما في حياة المسلمين من مظاهر ذات صلة بالنصارى .

والمتيقن أن يكون للعلماء الأندلسيين – وبخاصة الذين يتعاطون التعليم والتدريس في مجال العلوم الشرعية – أثر في بقاء تميز المسلمين في الأندلس في شخصيتهم أمام النصارى . ذاك أن القرآن الكريم والسنة المطهرة اللذين هما أساس العلوم الإسلامية (١) يتضمنان منهجاً تربوياً يقيم بين المسلمين وأعدائهم حاجزاً نفسياً يرسخ فيهم الاعتزاز بشخصيتهم الإسلامية ، ويصونهم – في الوقت عينه – من الذوبان في هوية غيرهم (٢) . وفي عصر الدراسة لدينا أعداد وفيرة من علماء الأندلس المعنيين بتدريس القرآن والسنة وما يتفرع عنهما من علوم ، سواء منهم من بانت لنا –قبلاً– مساهمته في الجهاد ضد النصارى ، أو ممن لم يستبن لنا أي جهد له في ذلك المضمار . ولا نشك أن هؤلاء جميعاً قد أثروا قليلاً أو كثيراً في نمط حياة المجتمع الإسلامي في الأندلس في زمنهم ، وذلك بتعرضهم خلال تدريسهم للناس لكثير من الآيات والحديث والمباديء الإسلامية الموجدة في نفوس المسلمين روح الاستعلاء والعزة ، وازدراء الكفر وأهله ، والتنفير من موالاة الأعداء ومحبتهم، وما يستتبع ذلك من تأكيد على التميز عن النصارى ومن إليهم في المظاهر والسمات والشكليات .

ومن الملاحظ أن بعض كُتاب ذلك العصر حين كتبوا إلى مَنْ لهم علاقة

---

(١) محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس ، ص٢٣٤ ، ٢٨١ .

(٢) الورداني : النهي عن الاستعانة والاستنصار في أمور المسلمين بأهل الذمة والكفار ، ص٦ – ٩ من مقدمة المحقق .

بالنصارى أو مَنْ ابتلوا من المسلمين بالوقوع تحت الحكم النصراني – من الملاحظ أنهم عمدوا إلى إبراز الآيات القرآنية الناهية عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء (١) ، وكذلك الأحاديث النبوية المحرمة للإقامة بين أظهر الكفار (٢) . وقد أوضح عبد السلام بن بَرَّجان (٣) (ت٥٣٦هـ/١١٤١م) رأيه في موالاة أهل الكتاب فقال " ولاشك أن موالاتهم من أرذل الرذائل ، إذ لا موالاة إلا بالمناسبة " . وحين عرض ابن عطية (٤) (ت٥٤١هـ/١١٤٧م) لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾☆ قال " نهى الله تعالى المؤمنين بهذه الآية عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء في النصرة والخلطة المؤدية إلى الامتزاج والمعاضدة ، وحُكْمُ هذه الآية باقٍ ، وكل من أكثر مخالطة هذين الصنفين فله حظه من هذا المقت الذي تضمنه قوله تعالى ﴿ فإنه منهم ﴾. أما معاملة اليهودي والنصراني من غير مخالطة ولا ملابسة فلا تدخل في النهي ... " .

☆ ☆ ☆

ولقد أخذ بعض علماء الأندلس يتناقلون في ذلك العصر مؤلفات مصنفة في أحكام أهل الذمة في الدولة الإسلامية ، فكان بعضهم يُحَدِّثُ بها بعضاً ، ويحتفظون بها مكتوبة لديهم (٥) . كم أننا – أيضاً – نرمق في

---

(١) ابن مغادر الشاطبي : نَوْر الكمائم ، ص١٣٢ ، ١٨٧ .
(٢) المصدر السابق ، ص١٨٧ .
(٣) تفسير ابن برجان (قطعة منه) ورقة ٨٥أ .
(٤) المحرر الوجيز ، جـ٥ ، ص١٢٦ .
☆ سورة المائدة ، آية ٥١ .
(٥) ابن خير: فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص٢٥٩ ؛ الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ٢، ص٢٥٧ ، ٢٥٨.

كتاباتهم المختلفة اهتمامات ملموسة بشأن تميز المسلمين في الأندلس عن النصارى والتي يمكن اعتبارها إجراءات وقائية دعا إليها العلماء لحفظ الشخصية الإسلامية من الذوبان في هوية الأعداء ، فكان شطر منها موجه إلى أهل الذمة النصارى ومن على شاكلتهم ، والشطر الآخر قُصِد به المسلمون . ولنعرض أمثلة من أقوال هؤلاء العلماء تشهد باهتمامهم بهذه القضية في بعض كتاباتهم التي وصلت إلينا . فأبو بكر بن العربي [١] (ت٥٤٣هـ/١١٤٨م) لما تعرض لأهل الذمة - ونصارى الأندلس يعدون منهم - قال محدداً وضعهم الذي يجب أن يكونوا عليه بين المسلمين - قال " إنما عُقد لهم أن يُقروا على ما هم عليه فيمن يؤخذ منهم ، فيكونوا من أهل دارنا لا يساوونا فيها ، وإنما يساوونا في الأمنة والعصمة خاصة ، على صَغَار وذلة ، فمن ذلك تميزهم بغَيار يكون عليهم ، ولا يركبوا إلا بإكافٍ☆ ، ولا يُبدؤوا بالسلام ، ولا يُظهروا دينهم علانية ... " وقال عن تعامل المسلم مع أهل الذمة " أما الذمي فقد أذن الله في ملاينته وبره لافي احتمال جفائه ، فإن ذلك لايجوز لمسلم بحال " [٢] . وحين تطرق إلى الزواج من الكتابيات ذكر كراهية علماء المالكية للزواج منهن ، لأن الولد من تلك الكتابيات معرض لشرب الخمر ، وأكل الخنزير ونحو ذلك [٣] ، ثم أفضى برأيه الخاص في هذه المسألة فقال " و لم تزل الصحابة والتابعون يتسرون الكوافر ، وينكحون ، وقد أذن الله تعالى بالتحليل في كتابه ، وخاطب بذلك جميع خلقه ، لاسيما

---

(١) عارضة الأحوذي ، جـ٧ ، ص١٠٤ .

☆ الإكاف : هو البرذعة ، وتُشْبِه الرِّحال والأقتاب (الزبيدي : تاج العروس ، جـ١٢ ، ص٨٧) .

(٢) الناسخ والمنسوخ ، جـ٢ ، ص٣٢١ .

(٣) أحكام القرآن ، جـ٢ ، ص٥٥٧ ؛ القبس ، جـ٢ ، ص٧١١ .

وفي استفراشها عزة للإسلام » [١] . وحول تعيين أحد من أهل الذمة - اليهود والنصارى - في منصب يمس شؤون المسلمين ، قال « لاينبغي لأحد من المسلمين وُلّي ولاية أن يتخذ من أهل الذمة ولياً فيها، لنهي الله عن ذلك، وذلك أنهم لا يخلصون النصيحة ، ولا يؤدون الأمانة ، بعضهم أولياء بعض » [٢] ☆ . ولقد أبدى ابن العربي [٣] - أيضاً - تحسره على تكليف المسلمين نصارى وأشباههم لترجمة الكتب القديمة إلى العربية ، إذ كيف يوثق بهؤلاء ويسند إليهم ترجمة كُتب لا يُعلم حقيقة ما فيها من معلومات قد تكون أحياناً مخالفة لأصول الإسلام .

وابن عبد الغفور الكلاعي [٤] بحكم تخصصه في المجال الأدبي نبه إلى وجوب تميز المسلم في مخاطباته ورسائله عن غير المسلمين من النصارى وغيرهم فقال « ومما يجب - أعزك الله - في مكاتبة أهل الكفر أن يترك تبجيلهم ، ويتجنب ترفيعهم وتأهيلهم ، وأن يُنظروا بعين الاحتقار ، ويعتمدوا بالذلة والصغار » . ثم أكد بعد ذلك أنه يجب على الكاتب المسلم « ألا يُسَلِّم على يهودي ولا نصراني في ابتداء خطاب ، ولا في رد جواب »[٥]. وليُعزز آراءه

---

(١) القبس ، جـ٢ ، ص٧١١ .

(٢) أحكام القرآن ، جـ٢ ، ص٦٣٤ .

☆ ولقد جاء في رسالة الحاكم المرابطي تاشفين بن علي (٥٣٧هـ/١١٤٢-٥٣٩هـ/١١٤٤م) إلى بلنسية "وكذلك نؤكد عليكم أتم تأكيد أمر أهل الذمة ألا يتصرف أحد منهم في أمور المسلمين ، لأنه فساد الدين" (مجهول : رسائل أندلسية ، ص٦٠ ، مؤنس : نصوص سياسية ، ص١١٣) .

(٣) العواصم ، ص٧٥ .

(٤) إحكام صنعة الكلام ، ص٩٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص٩٥ .

هذه أتكأ على فتوى في أهل الذمة سمعها من أحد أشياخه☆ ، فأثبتها بقوله عن هذا الشيخ أنه " يفتي في أهل الذمة ... بألا يتشبهوا بالمسلمين ، فلا يلبسوا الطيالس ، ولا يمسكوا العمائم ولا القلانس ، ولا يمشوا في الخفاف ، ولا يركبوا إلا عرضاً على الإكفاف ، ولا يدخلوا معنا حماماً ، ولا يبيعوا من المائعات طيباً ولا طعاماً ، ولا يتجروا في سوقنا ، ولا يزاحمونا في طرقنا ، ولا يمسكوا الدنانير التي فيها اسم الله تعالى ...." (١) .

ولقد نادى بعض رجال الحسبة الأندلسيين إلى اتخاذ تدابير مفيدة للحفاظ على الشخصية الإسلامية في الأندلس تجاه النصارى . فابن عبدون (٢) أكد على وجوب قطع ضرب النواقيس ببلاد الإسلام ، ورأى في الحقل الطبي أنه من الأفضل إبعاد الأطباء النصارى واليهود عن تطبيب المسلمين(٣). كما أنكر أن يعمل أي من المسلمين في خدمة اليهود والنصارى(٤) . أما الجرسيفي(٥) فقد دعا إلى منع " أهل الذمة من الإشراف على المسلمين في منازلهم والتكشيف عليهم ، ومن إظهار الخمر والخنزير في أسواق المسلمين ، ومن

☆ يُسمِي هذا الشيخ بالفقيه الحافظ أبي القاسم بن إسماعيل (أحكام صنعة الكلام ، ص٨٥-٨٦ ، ٩٣) وربما كان يقصد أبا القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل الأزدي الذي كان إماماً في جامع إشبيلية ، ويفتي القضاة في نوازل الأحكام (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٥٥٦) أو أبو القاسم خلف بن خلف بن إسماعيل الأنصاري المتوفى سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م (المصدر السابق ، جـ١ ، ص٥٠-٥٢) .

(١) ابن عبد الغفور الكلاعي : إحكام صنعة الكلام ، ص٩٣ .

(٢) رسالة في القضاء والحسبة ، نشرها إ . ليفي بروفنسال ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ط . المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص٥٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص٥٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص٤٨ .

(٥) رسالة في الحسبة ، ص١٢٢ .

ركوب السروج والزي بما هو من زي المسلمين ، أو بما هو من أبهةٍ ، وينصب عليهم علماً يمتازون به من المسلمين " . ووقف بشدة من العمل لدى أهل الذمة في أعمال فيها " خساسة أو إذلال للمسلمين كطرح الكُناسة، ونقل آلات الخمر ، ورعاية الخنازير وشبه ذلك ، لما فيه من علو الكفر على الإسلام "[١] ، وإذا باشر أحد من المسلمين شيئاً من ذلك رُدِعَ بالتأديب[٢].

☆ ☆ ☆

ولعل ما كتبه بعض علماء الأندلس من فضحٍ لحياة النصارى وما فيها من ابتذال وتهتك وإباحية كان له أثره في تنفير المسلمين من أولئك النصارى، وتجنب الانسياق وراء عادتهم وتقاليدهم وآدابهم وبالتالي الاعتصام بالهوية الإسلامية المتميزة والتمسك بها . فأبو الطيب بن مَنّ الله [٣] (ت٤٩٣هـ/ ١٠٩٨م) تعرض لحياة النصارى وما فيها من تفسخ وضياع في رسالته التي رد فيها على ابن غرسية الشعوبي ، وقد تبادلها الكتاب الأندلسيون من بعده[٤]، فقال موجهاً كلامه للنصارى " وأنتم .. لا تغيرون ولا تغارون ، ولا تمنعون ولا تمتنعون ، قلوبكم قواء☆ ، وأفئدتكم هواء ، وعقولكم سواء ، ... تحلقون اللحى والشوارب ، وتتهادون القُبل في المشارب ... " . " والمباضعة عندكم كالمراضعة ، ما في السكر عندكم نكر ، تبيحون ولوج العلوج على بُدور

(١) رسالة في الحسبة ، ص ١٢٢ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ، ق٣ ، م٢ ، ص٧٢٥ ؛ مجهول : رسائل أندلسية ، ص١٩٤ - ١٩٥ .

(٤) ابن بسام : الذخيرة ، ق٣ ، م٢ ، ص٧٢٢ ؛ البلوى : ألف باء ، جـ٢ ، ص٣٥٠ .

☆ قواء بمعنى خاوية مقفرة (الزبيدي : تاج العروس ، جـ٢٠ ، ص١١٠) .

الحدوج☆ ، الزنا عندكم سنا ، والفجار عند فِخار ... "[١] . فتبادل مثل هذه الأقوال التي تجلي واقعاً منحطاً يعيشه النصارى ، وإطلاع مسلمي الأندلس عليه من خلال رسائل كرسالة أبي الطيب بن مَنَّ الله ، أو من خلال مؤلفات أكبر ككتابات بعض المؤرخين والرحالة والجغرافيين الأندلسيين [٢] سيجدد لدى المسلمين في الأندلس - فيما نظن - الثقة بكمال عقيدتهم ، واستقامة منهجهم ، وسمو حياتهم في ظل الإسلام ، مقابل الديانة النصرانية المحرفة ، ولا يخفى ما لهذا الشعور من آثار نفسية ومعنوية مفيدة في التشبث بالهوية الإسلامية المتفردة .

☆ ☆ ☆

ومن أبين الدلائل التي تؤكد أن علماء الأندلس في عصر الدراسة اضطلعوا بمهمتهم في الحفاظ على تميز المجتمع الإسلامي في بلادهم هو ما انتهى إلينا من فتاوٍ وأقوالٍ وكتابات صريحة تتصدى لمظاهر نصرانية كانت تتخلل حياة مسلمي الأندلس في العصر المرابطي والموحدي . فحول أعياد النصارى التي كانت طوائف من المسلمين في الأندلس تشارك فيها شدد أبو عبد الله بن الحاج[٣] (ت٥٢٩هـ/١١٣٤م) أن يكون لأحد من المسلمين يد في إقامتها ، أو الإعانة على تمويلها ، فقال محذراً المسلمين ، وقاصداً

☆ الحُدُوج جمع حِدْج وأصله مركب النساء (الزبيدي : تاج العروس ، جـ٣ ، ص٣١٩) .

(١) ابن بسام : الذخيرة ، ق٣ ، م٢ ، ص٧٢٦ ؛ مجهول : رسائل أندلسية ، ص١٩٥ .

(٢) انظر - مثلاً- البكري : المسالك والممالك ، جـ٢ ، ص٩١٣ ؛ ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ص٢٨٠؛ ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص٥١ .

(٣) الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ٢ ، ص٤٨٩ .

النصارى في أعيادهم " ولا يُعارون دابة ، ولا يعانون على شيء من عيدهم ". وقد علل نهيه هذا بقوله " لأن ذلك من تعظيم شركهم ، وعونهم على كفرهم " (١) . فمساعدة المسلمين للنصارى بشيء من تلك الأعياد علو للملة النصرانية ، ورفع لقدرها ومقامها بين المسلمين ، وهذا – بلا ريب – تهديد خطير للهوية الإسلامية في الأندلس إزاء النصارى ، ولذلك فإن ابن الحاج عاد وناشد السلطات التنفيذية في الأندلس للتدخل في زجر من يعاونون النصارى في أعيادهم من المسلمين . فقال " وينبغي للسلاطين أن ينهوا المسلمين عن ذلك " (٢) .

ولقد تطرق أبو عبد الله بن أبي الخصال (٣) (ت٥٤٠هـ/١١٤٦م) في خطبة من خطب عيد الأضحى لمشاركة مسلمي الأندلس في الأعياد غير الإسلامية ، فخصص جزءاً من خطبته لتحذير الناس من الاحتفاء بالأعياد والأيام النصرانية وغيرها وحثهم في الوقت عينه على الاكتفاء بالأعياد الإسلامية فقط ، فقال " أَمَتْنا أيام ملتنا الأوانس ، وأحيينا مهرجان الروم وفارس ، وجددنا نيروزها☆ الداثر الدارس ، وهجرنا تسبيح تلك وقرآنها ،

---

(١) الونشريسي : المعيار المعرب ، جـ٢ ، ص٤٨٩ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) رسائل ابن أبي الخصال ، ص٥٦٤ .

☆ المهرجان والنيروز رغم أن أصلهما عيدان فارسيان (النويري : نهاية الأرب ، جـ١ ، ص١٨٥ ، ١٨٧) إلا أن العلماء في الأندلس يعتبرونهما عيدين نصرانيين (العزفي : الدرر المنظم ، ص٢٣) وذلك لأن الاحتفال بالنيروز في الأندلس يمتزج بيوم يناير أول السنة الميلادية، وليس في أول شهر مارس كما يُحْتَفل به في المشرق، وكذلك الحال في المهرجان فالاحتفال به يكون في الأندلس في يوم العنصرة في يوم ٢٤ يونيه وليس في سبتمبر كما في المشرق . وعلى هذا فالنيروز عند الأندلسيين هو يناير ، والمهرجان عندهم هو العنصرة (هنرى بيريس: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف،ترجمة الطاهر أحمد مكي .ط.الأولى،دار المعارف،القاهرة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م،ص٢٧١،٢٧٢ .

Fernando de la Granja:Fiestas Cristianas ., p . 2 - 3

وأعدنا لهذه الطاغية أقرانها ، وضارعناها إلا نيرانها وأوثانها »[١] . وبعد أن أشار إلى تشابه الأيام من الناحية الفلكية بين أن الله تعالى قد اختص المسلمين بأيام مفضلة « دلهم بها على سبلٍ إلى رضوانه تُشرع ، وأبواب إلى غفرانه تُقرع ، ودرجات إلى داره دار السلام تفرع ... »[٢] .

وكان أبو بكر بن العربي[٣] (ت٥٤٣هـ/١١٤٨م) حاسماً حين عرض لحضور المسلمين الأعياد النصرانية وغيرها ، إذ انطلق في فتواه مما يدور فيها ، فذكر أن أي عيد من أعياد أهل الذمة « يذكر فيه الكفر فمشاهدته مشاهدة كفر » . ثم استثنى قائلاً « إلا لما يقتضي ذلك من المعاني الدينية ، أو على جهل من المشاهد له »[٤] فهو قد استثنى من المشاهدة أن تكون لها معاني دينية ، ربما قصده – مثلاً – اطلاع عالم مسلم عليها ليعرف ما يحصل فيها ، ومن ثم الحكم عليها وتحذير الناس منها تحذير من خَبَرها ، كما استثنى من ذلك أيضاً المشاهد المسلم الجاهل .

وقد أدى جنوح بعض المسلمين في الأندلس إلى التشبه بالنصارى في أشياء من عوائدهم وتقاليدهم ومظاهرهم أيام المرابطين والموحدين أن أصبح هذا الأمر هاجساً أشغل بال ابن بشكوال (ت٥٧٨هـ/١١٨٢م) بصفته آنذاك عالماً من علماء الأندلس ، فهب للكتابة في هذا الموضوع ، وتبيان الحق

---

(١) ابن أبي الخصال : رسائل ابن أبي الخصال ، ص٥٦٦ – ٥٦٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص٥٦٧.

(٣) أحكام القرآن ، جـ٣ ، ص١٤٣٢ .

(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

في غوامضه . حيث حكى أحد تلاميذه أنه قدألف في ذلك " جزءاً حسناً "[١]. وقد سعى إلى نشره بين الناس ، إذ يقول هذا التلميذ إنه " مما أذن لنا فيه ، وكتب به غير مرة إلينا "[٢] وقد كان أحد أبواب هذا الجزء بعنوان " باب كراهية النيروز والمهرجان☆ والميلاد وذم الاحتفال لها ، وترك تعظيمها والاستعداد لدخولها "[٣] . ولا نجد إشارة لهذا المؤلف في قائمة مؤلفات ابن بشكوال المذكورة في المصادر التي تحت أيدينا ، ولكن لا غرابة في ذلك ، لأن مؤلفاته قد بلغت الخمسين[٤] ولم يذكر منها في المصادر إلا القليل .

ولعلنا نتعرف على ما ذكره ابن بشكوال في الباب الوحيد الذي وصل إلينا بعضه حتى الآن من هذا الكتاب ، وهو الباب الذي يتحدث عن كراهية الأعياد غير الإسلامية ، وتشديد النكير على الذين يعظمونها من المسلمين ويحتفون بها ، وقد أشرنا إلى عنوانه آنفاً . فمما قاله في هذا الباب " كان السلف رضي الله عنهم وأهل الخير والفضل والدين والورع يكرهون هذه الفصول المذمومة ويعيبونها على فاعلها والمستعمل لها والمحافظ عليها "[٥] . ثم نص على سبب هذه الكراهية والعيب لدى هؤلاء فقال " لأنها أعياد النصارى "[٦] . وقد عزز رأيه هذا بحديث للنبي ﷺ ورد النهي العام فيه عن

---

(١) العزفي : الدر المنظم ، ص٢٣ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

☆ سبق أن ذكرنا قبل قليل أن النيروز والمهرجان يطلقان على أعياد النصارى في الأندلس .

(٣) العزفي : الدر المنظم ، ص٢٣ .

(٤) ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٣٠٦ ؛ مجهول : إنسان العيون ، ورقة ٩٤ .

(٥) العزفي : الدر المنظم ، ص٢٣ .

(٦) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

التشبه ، وهو حديث "من تشبه بقوم فهو منهم " [١] [٢] . وبعد أن أشار إلى ما شاهده بنفسه من اهتمام كثير من المسلمين في الأندلس بالأعياد النصرانية أبدى وجهة نظره في ذلك فقال " ولعمري لقد نشبوا في فتنة هوى أوقعتهم في بدعة عمى ، وشاقوا الله ورسوله من حيث لا يعلمون ، واستسهلوا هذه البدع حين ألفوها وعظموها حتى صارت عندهم كالسنة المتبعة " [٣] . ثم حمل إخوانه العلماء ومن ورائهم السلطان كفلاً من تَبِعَةِ تمادى مسلمي الأندلس في مجاراة النصارى في أعيادهم وعاداتهم وراح بعد ذلك يسوق أقوالَ العلماء الأندلسيين وغيرهم الذين كتبوا من قبل حول الموضوع، وكذلك آثار من قبلهم من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين[٤]. ويستوقف النظر أن ما استشهد به من أقوال وآثار لم يقصرها فقط على الأعياد بل توسع في ذلك فنقل بعضاً مما ورد من نهى عن التشبه بالنصارى في أمور أخرى كالتشبه بأزيائهم وتعلم رطانتهم [٥] . فكأن الحديث عن مشاركة المسلمين في الأعياد النصرانية قد جر ابن بشكوال إلى معالجة انحرافات أخرى كان يراها في بعض أفراد المجتمع الإسلامي في الأندلس والمتجسمة في تقليد النصارى في أزيائهم والتكلم بلغتهم .

☆ ☆ ☆

---

(١) العزفي : الدر المنظم ، ص٢٣ .

(٢) انظر روايات للحديث في أحمد : مسند الإمام أحمد بن حنبل ، جـ٢ ، ص٦٨ ، ٦٩ ، وانظر تخريجه والحكم عليه في ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم ، جـ١ ، ص٢٤٠ ، ٢٤٢ حاشية " ٩ " .

(٣) العزفي : الدر المنظم ، ص٢٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص٢٣ - ٢٨ .

(٥) المصدر السابق ، ص٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ .

وثمة أمور أثرت على تميز الشخصية الإسلامية في الأندلس أمام أعدائهم النصارى وقف منها العلماء مواقف مشهودة ، وهذه الأمور حرمها - أصلاً- الإسلام ، ولكنَّ بعض مسلمي الأندلس غفلوا عن تحريمها ، وأخذوا يفعلونها فكان فعلهم هذا موافقاً للنصارى وغيرهم الذين كانوا يمارسونها في حياتهم بشكل طبيعي . فمن ذلك الخمر الذي حرمه الإسلام ومع ذلك كان موجوداً بين بعض مسلمي الأندلس في زمن المرابطين والموحدين ، وقد انتشر بينهم في أواخر عصر الموحدين بشكل لافت ، بل رافق انتشاره هذا استهتار بالحرمات ، وانسلاخ في الأخلاق ، وجرأة على الله تعالى ودينه (١) . ولا جدال أن معاقرة بعض المسلمين في الأندلس للخمر وما ينجم عنها من آثار عليهم سبب رئيس من أسباب تلاشي شخصيتهم أزاء النصارى . فالابتعاد عن تعاليم الدين الإسلامي وأحكامه بشرب الخمر وما يتفرع عنه من انتهاكات أخرى هو بحد ذاته تراجع عن الهوية الإسلامية التي يجب أن تكون متفردة بخلال الإسلام وسماته . وإذا أضفنا أن الخمر مسوغٌ شربُه لدى النصارى في دينهم المحرف (٢) كان تعاطي المسلمين له موافقة لهؤلاء الأعداء في شيء من عاداتهم☆ . وغير خافٍ ما يكون لهذا كله من خطر على تميز شخصية مسلمي الأندلس تجاه النصارى ، ولذلك هب العلماء للحد من انتشار الخمر بين المجتمع الإسلامي في الأندلس . فأبو بكر ابن العربي (ت٥٤٣هـ/١١٤٨م) الذي عرف أثناء ولايته قضاء إشبيلية

---

(١) السعيد : الشعر في عهد المرابطين والموحدين ، ص٢٠١ - ٢١٦ ؛ فوزي عيسى : الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ص١٤٨-١٥٧ .

(٢) القرطبي : الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ، جـ٤ ، ص٤٢٧ ، ٤٢٨ .

☆ وترى إحدى الكاتبات أن من أسباب تفشي الخمر بين مسلمي الأندلس اختلاطهم بالمستعربين ، وزواجهم من النصرانيات (عصمت دندش : الأندلس في نهاية المرابطين ، ص٣٢٣) .

بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والضرب على أيدي المفسدين والصرامة مع المستهترين بالدين [(١)] - اتخذ أعواناً يتتبعون خطوات المتعاملين بالخمر [(٢)]، فكانوا - كما يرى أحد الكتاب [(٣)] - " يرقبون كل حركة أو بادرة من طرف السكارى والمخمورين " ، ولقد عثروا ذات يوم على رجل يحمل خمراً فأخذوه إلى أبي بكر بن العربي ، فلما وصلوا إليه اعتذر حامل الخمر بأن ما يحمله إنما هو لخادم نصرانية عنده ، والخمر قوام شرعها " فأطرق ابن العربي ، وقال : لعن الله بائعها ومبتاعها وعاصرها وحاملها ، اللعن عليها " [(٤)] ، فأمر بلعن الخمر " وعرضه على الحامل ، ثم خلى سبيله ، فانطلق عليه اللعن في كل مكان ، ومن كل إنسان " [(٥)] ، فكان ذلك " أمرَّ من العقاب ، وأشدَّ من العذاب ، فلما طال على الرجلِ الأمرُ انتقل عن البلد " [(٦)].

وكما حرص أبو القاسم بن الطيلسان (ت٦٤٢هـ/١٢٤٤م) على تحريض الجماعة الإسلامية في الأندلس على جهاد العدو النصراني بتأليفه كتاباً عن الجهاد☆ فقد اجتهد - أيضاً - أن يصلح من الداخل هذه الجماعة التي ستواجه ذلك العدو في ميدان القتال ، وأن تعود إلى هويتها الإسلامية

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ، ص٥٩١ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص١٠٦ .

(٢) ابن عذاري : البيان ، جـ ٤ ، ص ٩٣ .

(٣) هو سعيد أعراب : مع القاضي أبي بكر بن العربي ، ص٨٤ .

(٤) ابن عذارى : البيان ، جـ٤ ، ص٩٣-٩٤ .

(٥) المصدر السابق ، جـ٤ ، ص٩٤ .

(٦) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

☆ انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب .

الصحيحة ، فأسهم في محاربة الخمر وآثاره بينها☆ ، فصنف كتاباً أبرز فيه - فيما يبدو - الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المحرّمة للخمر ، والمنفّرة منه ، وذلك بعنوان " ما ورد من تغليظ الأمر على شَرَبَةِ الخمر " [١] .

ولقد أفادتنا المصادر أن حكام الدولتين المرابطية والموحدية سعوا إلى الحد من شيوع الخمر بين مسلمي الأندلس ، فعلى سبيل المثال جاء في خطاب للحاكم المرابطي تاشفين بن علي (٥٣٧هـ/١١٤٢م - ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م) إلى بعض المتنفذين في الأندلس " والخمر - نزهكم الله عن خبايث الأمور - التي هي جماع الأثم والفجور ، والباب المفضي إلى سواكن الفسق والشرور ، فاجتهدوا في شأنها ، وأوعزوا في جميع جهاتكم بإراقة دِنانها " [٢] . وورد في رسالة للمنصور الموحدي (٥٨٠هـ/١١٨٤م - ٥٩٥هـ/١١٩٩م) إلى المسؤولين في بعض مدن الأندلس يأمرهم بشأن الخمر بقوله " فإذا وافاكم كتابنا هذا بحول الله عز وجل فاقطعوه جملة وتفصيلاً ، ولا تُوجدوا أحداً إلى بيعه سبيلاً ، واشتدوا في ذلك اشتداداً لا يوسع مستسمحاً فيه صُدوفاً عن هذا القصد الحميد ولا عُدولاً " [٣] [٤] .

☆ لما شرح ابن عطية قوله تعالى : ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر...الآية﴾ كان مما قاله إنه " باجتماع النفوس والكلمة يحمي الدين ويجاهد العدو ، والبغضاء تنقض عرى الدين ، وتهدم عماد الحماية . وكذلك أيضاً يريد الشيطان أن يصد المؤمنين عن ذكر الله وعن الصلاة ويشغلهم عنها بشهوات ، فالخمر والقمار كله من أعظم آلاته في ذلك ... " (المحرر الوجيز، جـ٥ ، ص١٨٥) .

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق٢ ، ص٥٦٦ .

(٢) مجهول : رسائل أندلسية ، ص٥٩ - ٦٠ ؛ مؤنس : نصوص سياسية ، ص١١٣ .

(٣) بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ، ص١٦٧ .

(٤) انظر مثالاً ثالثاً في : المرجع السابق ، ص١٣٣ .

ولا نتصور أن لا يكون للعلماء يد في حث حكام المرابطين والموحدين على محاربة الخمر في الأندلس ، فالعلماء عندهم - كما مر في غضون صحائف هذه الدراسة - محترمون ، وكلمتهم مسموعة ، بل إن هذين الخطابين- مثلاً - قد وجّها إلى المسؤولين في الأندلس لانفاذ ما فيهما من أوامر على واقع الناس ، وقد جُعل العلماء على رأس أولئك المأمورين بالتنفيذ (١) .

وأمر آخر توافق بعض مسلمي الأندلس مع النصارى في فعله قد نهى -أصلاً- عنه الإسلام ، وهو استعمالهم للصور والتماثيل في المساكن والمرافق العامة ، فمنذ القرن الثالث الهجري -التاسع الميلادي- تقريباً اضمحل لدى كثير من مسلمي الأندلس الحرج من الصور والتماثيل لذوات الأرواح التي حذر الإسلام منها (٢) ، فصارت كثرة من قصور الحكام والأمراء وحتى من دونهم ، وأيضاً المباني العامة لا تخلو من رسوم وتماثيل مجسمة متنوعة الأشكال لرجال ونساء ، وكذلك لحيوانات مختلفة الأجناس ، وقد استعمل في صناعة تلك التماثيل الحجارة والرخام والذهب والفضة والبرنز (٣) . وعلى هذا عاش المسلمون في الأندلس تحيط بهم أشكال مصورة ومجسمة في العديد من المباني الخاصة والمرافق العامة . وظل هذا التقليد متواصلاً على

---

(١) مجهول : رسائل أندلسية ، ص٥٥ ؛ مؤنس : نصوص سياسية ، ص١١٠ ؛ بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ، ص١٦٤ .

(٢) فون شاك : الفن العربي في إسبانيا وصقلية ، ترجمة الطاهر أحمد مكي ، ط . الثانية ، دار المعارف، القاهرة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م ، ص٦٦ ؛ رجب عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا، ص٤٦٣ .

(٣) فون شاك : الفن العربي ، ص٦٦-٦٨ ؛ هنري بيريس : الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ، ص٢٩١ - ٢٩٨ .

امتداد عصر المرابطين والموحدين [١] . وإذا عدنا إلى النصارى رأينا الصور والتماثيل لديهم من الأشياء المعتادة منذ تاريخهم المبكر ، فهي تقوم عندهم بتجسيد بعض حقائق ديانتهم النصرانية [٢] . إذن فرواج الصور والتماثيل في مباني المسلمين في الأندلس يباعدها من نمط العمارة الإسلامية المتشكلة على ضوء ضوابط الإسلام وتعاليمه ، ويقربها في الآن ذاته من نمط عمارة أعدائهم النصارى ، فيكون ذلك سبباً في ذوبان شخصيتهم الإسلامية التي يجب أن تكون متميزة الشكل ، متفردة الطابع في المجال العمراني كشأنها في المجالات الأخرى . ولذا بذل بعض العلماء مساعيهم للوقوف في هذا التيار الذي كان رائجاً بين المسلمين في عصر الدراسة ، فأبو عبد الله بن المناصف [٣] (ت ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م) أبدى ضيقه مما رآه من تصاويرَ وتماثيل ذات أرواح☆ كانت تباع في أسواق المسلمين لتنصب بعد ذلك في البيوت والحمامات مما ينأى بها في شيء من طرازها وتشكيلها عن النمط الإسلامي المتميز فقال محذراً المسلمين ، وحاضاً رجال الحسبة في الأسواق على تغيير ما يُستطاع تغييره منها ، إن "بيع التصاوير والأشكال المتخذة على هيئة الحيوان كنحو ما يستعمل لجري الماء في الحمامات والديار ونحوها على أشكال الأسد وغيره من جنس الحيوان ، وكالتصاوير التي تستعمل للصبيان في الأعياد والمواسم كل ذلك منكر

---

(١) هنري بيريس : الشعر الأندلسي ، ص٢٩٩ .

(٢) إيرل كيرنز : المسيحية عبر العصور ، ص١٨٨ .

(٣) تنبيه الحكام ، ص٣٤٦.

☆ يرى ابن رشد الجد أن " المُحرَّم من ذلك بإجماع ما كان مخلوقاً له ظل قائم على صفة إنسان أو ما يحيا من الحيوان ، وما سوى ذلك من المرسوم في الحيطان ، أو المرقوم في الستور التي تُنشر ، أو البسط التي تفرش ، أو الوسائد التي يرتفق بها ويتكأ عليها – مكروه وليس بحرام في الصحيح من الأقوال لتعارض الآثار في ذلك ... " (الجامع من المقدمات ، ص٢٩٣) .

لا يحل ، ويجب تغييره ، والمنع من جميعه ... "[١] .

☆ ☆ ☆

وعلى صعيد آخر فالوعظ والتذكير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلة من الوسائل الناجعة التي فرضها الإسلام على المسلمين وبالأخص على العلماء☆ لتوطيد كيان مجتمعهم ، ودعم أركانه وصيانته من عوامل الفساد ، وإصلاح ما يعتوره من انحرافات وتجاوزات ، ونشاهد في عصر المرابطين والموحدين مجموعة من العلماء الأندلسيين اختصوا بوعظ الناس وتذكيرهم والنصح لهم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ونظراً لكون التشبه بالنصارى وموالاتهم ومشاركتهم ببعض خصائصهم داخل في إطار الانحراف عن الدين الحق فإننا لا نستبعد أن يكون هؤلاء العلماء جميعهم أو بعضهم قد قاموا بجهود في هذا الميدان وإن كنا نجهل حجمها ومقدار أثرها . ولنذكر أمثلة لهذه المجموعة من العلماء المشار إليها آنفاً . فلقد كان عُليم بن عبدالعزيز العمري☆☆ (ت٥٦٤هـ/١١٦٩م) " واعظاً ناصحاً "[٢] نفع الله تعالى بنصحه

---

(١) ابن المناصف : تنبيه الحكام ، ص٣٤٦ .

☆ عند تفسير ابن عطية لقوله تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ... الآية ﴾ قال " وأمر الله الأمة بأن يكون منها علماء يفعلون هذه الأفاعيل على وجهها ، ويحفظون قوانينها على الكمال ، ويكون سائر الأمة متبعين لأولئك ، إذ هذه الأفعال لا تكون إلا بعلم واسع ، وقد علم تعالى أن الكل لا يكون عالماً " (المحرر الوجيز ، جـ٣ ، ص١٨٦) .

☆☆ عُليم بن عبد العزيز بن عبدالرحمن العُمري يكنى بأبي الحسن وبأبي محمد ، أصله من شاطبة كان صالحاً زاهداً محدثاً حافظاً يستظهر عدداً من كتب الحديث والرأي والتفسير . وكان ذا حظ وافر من الأدب وعلم الكلام وعبارة الرؤيا وقرض الشعر . وقد عرف بأعمال الخير وقضاء حوائج الناس ، توفي في آخر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م ، أو في السنة التي بعدها (ابن الأبار : التكملة ، تحقيق عبد السلام الهراس ، جـ٤ ، ص٤٣ -٤٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي: س٥ ، ق١، ص٤٢٩-٤٣٠؛ ابن الزبير: صلة الصلة ، ص١٦٢-١٦٣) .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق١ ، ص٤٢٩ .

"خلقاً كثيراً" [١] ، إذ كان "يجلس للعامة فيعظهم ويعلمهم دينهم فينقلبون وقد أحرزوا آمالاً، وأحكموا من التكليفات أقوالاً صالحة وأعمالاً" [٢] . أضف إلى ذلك أنه كان "محتسباً نفسه في تغيير المناكر" [٣] ، فكان "يخاطر بنفسه في تعفير وجه المنكر وتغييره" [٤] . ولقد وُصف أبو الحسن النجار الزاهد☆ (ت٥٧٨هـ/١١٨٢م) بأنه "كان يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر" [٥] . وكان "يعظ الناس في المساجد ويذكرهم ، فتنفعل نفوسهم لما كانوا يعلمون من دينه وصدق يقينه" [٦] .ولقد انتاب بعض العلماء مساجد معينة للوعظ فيها ، فعلى سبيل المثال كان لخلف بن يحيى الزاهد☆☆ (ت٥٧٦هـ/١١٨٠م) مجلس بجامع الزاهرة يعظ فيه الناس[٧]. وكان محمد بن يحيى☆☆☆ (ت٦٠٠هـ/١٢٠٤م) يصلي التراويح في رمضان بجامع قرطبة

---

(١) ابن عبد الملك : الذيل والتكملة ، س ٥ ، ق ١ ، ص٤٢٩ .

(٢) ابن الزبير : صلة الصلة ، ص١٦٢ .

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق١ ، ص٤٣٠ .

(٤) ابن الزبير : صلة الصلة ، ص١٦٢ .

☆ أبو الحسن علي بن حسين النجار ، يُعرف بابن سعدوك ، أصله من جزيرة شُقر ، وسكن بلنسية ، كان من أهل الزهد والصلاح والعلم ، وكان يحفظ من صحيح مسلم كثيراً . توفي سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م . (ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٦٧٢ ، وتحقيق عبد السلام الهراس ، جـ٣ ، ص٢١٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق١ ، ص٢٠٥) .

(٥) ابن الأبار : التكملة ، ط . كوديرا ، جـ٢ ، ص٦٧٢ .

(٦) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق١ ، ص٢٠٥ .

☆☆ خلف بن يحيى بن خطاب الزاهد ، يكنى بأبي القاسم ، من أهل قرطبة ، كان قد أمَّ بالجامع الأعظم فيها وقتاً . وتوفي سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م (ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٣٠٤) .

(٧) ابن الأبار التكملة ، جـ١ ، ص٣٠٤ .

☆☆☆ محمد بن يحيى القرطبي كنيته أبو عبد الله ، كان مقرئاً مجوداً ، توفي في رمضان ، سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٤م . (ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٥٦٩) .

الأعظم ثم " يجلس للتذكير والوعظ "[١]. وثمة من استثمر المسجد الذي يؤم فيه في القيام بنصح المصلين وتذكيرهم وتنبيههم على مايراه من أخطاء والخرافات، فمثلاً عياش بن فرج الأزدي☆ (ت٥٤٠هـ/١١٤٥م) الذي كان يؤم بأحد مساجد قرطبة [٢] . ويدرس فيه بعض العلوم - قد خصص يوماً في الأسبوع لوعظ الناس وإرشادهم " فنفع الله بـه خلقاً كثيراً " [٣] . وكان أحمد بن محمد الخشني☆☆ (ت٦١١هـ/١٢١٤م) يؤم بمسجد إحدى الحصون القريبة من قرطبة فيُقرئ به القرآن ويُسمع الحديث [٤] " ويذكر الناس " [٥] [٦].

(١) ابن الأبار : التكملة ، جـ٢ ، ص٥٦٩ .

☆ عياش بن فرج بن عبد الملك الأزدي يكنى أبا بكر . أصله من يابرة ، وسكن قرطبة ، كان معتنياً بالقرآن وتجويده ، أقرأه واكتبه بجامع قرطبه زماناً طويلاً ، وكان يدرس - أيضاً - النحو واللغة ، وكان متين الدين صالحاً زاهداً . توفي في حدود سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م (الضبي : بغية الملتمس ، ص٤٣٢ ؛ ابن عبد الملك المراكشي ، س٥ ، ق٢ ، ص٤٨٦ - ٤٨٧ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص١٥٧ - ١٥٨ ؛ ابن الجزري : غاية النهاية ، جـ١ ، ص٦٠٧) .

(٢) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق٢ ، ص٤٨٦ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص١٥٧ .

(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق٢ ، ص٤٨٦ .

☆☆ سبق أن عُرف به في الفصل الأول .

(٤) ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص١٠٣ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق١ ، ص٣٩٨.

(٥) ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص١٠٤ .

(٦) انظر أمثلة أخرى في عياض : الغنية ، ص١٨٠ ؛ ابن بشكوال : الصلة ، جـ١ ، ص٧٣ ، جـ٢ ، ص٣٤٥ ، ٣٥٠؛ ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٤١٤ ، تحقيق عبد السلام الهراس ، جـ٤ ، ص١٩٤ ، ٢٥٩ ؛ الحلة، جـ٢، ص٢٣٥ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٥ ، ق٢ ، ص٥٨٤ ، س٦ ، ص١١٨ ، ١٢٦ ، ٣٠٢ ، س٨ ، ق١ ، ص٢٦٦ - ٢٦٨ ، ق٢ ، ص٣٨٨ ، ٤١٠ ، ٤١٣ ، ٤٨٥ ؛ ابن الزبير : صلة الصلة ، ص١٣ ، ١٥ ، ٥٤ ، ٦٥ ، ١٧٣ ، ١٩٤، ٢٠٢، ق٣ ، ص٣٤ - ٣٦ ، ق٥ ، ص٢٦٩ - ٢٧١ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، نصوص جديدة ، ص٢٢١ ؛ المقري : نفح الطيب ، جـ٣، ص٦٨ ، ١٣٩ .

أما العلماء خطباء الجوامع فلا جدال أن خطب كثير منهم في كل جمعة ستحتوى على ما يمس حياة المجتمع ومعالجة ما فيه من مشكلات وانحرافات ، فأبو عبد الله بن قاسم الأنصارى☆ (ت٦٤٠هـ/١٢٤٢م) – مثلاً – الذي ولى الخطابة في بلنسية وغيرها زمناً (١) عُنى بالوعظ حتى أنه ألف كتابين في ذلك ، عنوان الأول " نسيم الصبا " والآخر " بغية النفوس الزكية في الخطب الوعظية (٢) .

ولقد سمت ببعض العلماء هممهم وحبهم للخير ، وإقبالهم على الإصلاح إلى أن يتنقلوا في مناحي الأندلس بين المدن والقرى لوعظ المسلمين. ونصحهم بالحسنى ، وأطرهم على الحق أطراً . فهذا أبو المعالي الواعظ☆☆ "كان يتجول في البلاد للوعظ والتذكير فينتفع الناس به " (٣) .وأبو العباس الشنتريني☆☆☆ " كان واعظاً صادق النصيحة ، كثير التجوال ببلاد الأندلس للتذكير والوعظ " (٤) .

☆ عُرف به من قبل .

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س٦ ، ص٣٠٥ .

(٢) ابن الأبار: التكملة ، جـ٢ ، ص٦٥١ ؛ ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة ، س٦، ص٣٠٥.

☆☆ أبو المعالي الواعظ هو إدريس بن يحيى بن يوسف الواعظ ، من أهل إشبيلية عُنى بالحديث ، وقد سمع من أبي بكر بن العربي بقرطبة عام ٥٣١هـ/١١٣٦م (ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص١٩٥ – ١٩٦ ؛ المعجم ص٦٨- ٦٩) وسماعه من أبي بكر بن العربي عام ٥٣١هـ/١١٣٦م يفيد أنه كان حياً حتى ذلك العام .

(٣) ابن الأبار : المعجم ، ص٦٩ .

☆☆☆ أبو العباس الشنتريني هو أحمد بن محمد بن سعدان القيسي ، من أهل شنترين ، كان خيراً فاضلاً سنياً ، وقد قرئت عليه إحدى رسائل الغزالي سنة٦٠٣هـ/١٢٠٦م (ابن الأبار : التكملة ، جـ١ ، ص٩٦ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١، ق٢ ، ص٤٧٠) والقراءة عليه في سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م يعني أنه كان حياً في تلك السنة .

(٤) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، س١ ، ق٢ ، ص٤٧٠ .

وحاصل ما سبق أن كثرة من العلماء أسهموا بجهود متنوعة في سبيل تميز الشخصية الإسلامية في الأندلس أمام الأعداء النصارى ، فكان منهم من رجحنا إفادته في هذا الجانب بتدريس الثقافة الإسلامية المحتوية على منهج تربوي يغرس في النفوس التميز عن الأعداء . ومنهم مَنْ أفاد في الجانب نفسه بالدعوة إلى اتباع إجراءات وقائية تحول بين مسلمي الأندلس وذوبانهم في هوية أعدائهم . وكان منهم – أيضاً – مَنْ تصدى لمظاهر نصرانية صريحة متغلغلة في داخل الجماعة الإسلامية في الأندلس ، ومنهم كذلك من جندوا أنفسهم للوعظ والنصح والدعوة إلى الخير ، والإرشاد إلى الحق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتصحيح المفاهيم والانحرافات في حياة المجتمع الإسلامي الأندلسي ، وقد رجحنا أن قيامهم بهذا كله في ظل الصراع مع النصارى سيشمل – لا محالة – ما تلبس به بعض المسلمين من أمور نصرانية .

الخاتمة

ها نحن أولاء قد انتهينا - بنعمة من الله وفضل - إلى خاتمة الرسالة لنستقصي فيها أهم ما توصلنا إليه من نتائج ، وما اهتدينا إليه من اجتهادات على مدى ما مر من فصول ، وما خلا من صفحات .

لقد تبين لنا أن العلماء الأندلسيين الذين وقفوا أمام النصارى، وتصدوا لاعتداءاتهم المتنوعة الصور على الإسلام والمسلمين في الأندلس أيام المرابطين والموحدين كانوا كثرة كاثرة معظمهم احتل مكانة علمية شهد لهم بها أولاً معاصروهم ، ثم شهد لهم بها الواقع ثانياً ، حيث تربع نفر منهم على كرسي الصدارة العلمية في العلوم التي تخصصوا بها ، وصار كثير منهم مثابة لطلبة العلم من داخل البلاد وخارجها ، يقرأون عليهم ، وينهلون من علمهم. كما وصل جماعة منهم إلى شغل وظائف رفيعة في المجتمع والدولة لا يصل إليها إلا من كان علمه يؤهله إلى شغلها . ثم إن فريقاً منهم كتبوا مؤلفات دل ما بقي منها ، أو ما ورد في وصفها - أن مصنفيها بلغوا في العلم درجة عالية.

كذلك اتضح أن لهم منزلة سامية في مجتمعهم الذي عاشوا فيه ، فقد كان الحكام المرابطون يرفعون قدرهم ، ويعلون مقامهم، ويقبلون شفاعتهم، ولايقطعون في كثير من الأمور -لاسيما التي تخص الأندلس- إلا عن رأيهم. كما أن الحكام الموحدين -أيضاً- أحلوهم منزلة كريمة ، فاستقدموا بعضهم إليهم في مراكش، واستفادوا من علمهم ومشورتهم. وقد كان لهؤلاء العلماء كلمتهم المسموعة، ورأيهم النافذ ، وأوامرهم المطاعة عند جماعة المسلمين في الأندلس ، وقد دأبوا على الالتفاف حولهم إذا استنفروهم لتحقيق واجب، أو استصرخوهم لجهاد عدو . كما اعتاد الناس في كثير من الأوقات على اللجوء إليهم -بعد الله- إذا حزبهم أمر ، أو حلت بهم رزئية ، أو أدركتهم مظلمة .

ولقد استبان أن هؤلاء العلماء أفادوا المسلمين في الأندلس من الناحية العلمية ، فعن طريق امتلاكهم لقنوات التأثير على المجتمع كالتدريس والخطابة والتأليف وغيره نشروا العلوم والمعارف الأساسية التي لا يستغنى المسلمون عن معرفتها والإلمام بها ، وخَرَّجوا أعداداً متعاقبة من طلبة العلم الذين صار عديد منهم من كبار العلماء ، وتهيأ لنفر منهم نشر مصنفات كثيرة في فنون مختلفة . كما وفق آخرون في إثراء علوم تخصصوا فيها، فصار لبعضهم آراء واجتهادات يركن إليها معاصروهم ومن جاء بعدهم .

ثم إن هذه الدراسة كشفت بجلاء ما كان للعلماء زمن المرابطين والموحدين في الأندلس من جهود متعددة الأشكال ، متلونة الصور في ميدان الصراع ضد النصارى ، فتبين لنا أنهم تبنوا أساليب ومناشط مختلفة لدعوة الناس إلى مناهضة العدو ومواجهة عدوانه ، فأصدروا الفتاوى الشرعية الموضحة لفرضية الجهاد في بلاد الأندلس على الأندلسيين ومن يجاورهم ، وخصصوا دروساً وخُطباً في المساجد للتحريض على جهاد الأعداء ، واغتنموا – أحياناً – احتشاد جماهير المسلمين في المساجد وغيرها خلال المناسبات الخاصة والعامة لشحن النفوس بقضية العداء للنصارى ليبقى الجهاد عندهم ماثلاً في الأذهان ، متجدداً على الدوام . كما اتجه العلماء في سبيل الحض على الجهاد أثناء ذلك العصر إلى تصنيف كتب تتعلق بالجهاد في الاسلام ، وما يرتبط به من أحكام. وقد لاحظنا أن بعضهم توقفوا عند بعض الآيات والأحاديث والألفاظ الخاصة بالجهاد في مؤلفاتهم في التفسير والسنة والأدب ، فعُنوا ببيانها وشرح دلالاتها، واستنبطوا منها معاني وأحكاماً ربطوها بواقعهم لتبصر الناس بأهمية إعداد القوة لمجاهدة الأعداء ،

والتصدي لانتهاكاتهم وغاراتهم وعدوانهم . كما استغلوا سقوط بعض المدن الأندلسية بأيدي النصارى في تحريك همم الناس للجهاد ،وذلك بإنشائهم الكتب والقصائد التي تصف ما وقع لها ولسكانها على أيدي النصارى من محن وفظايع . كذلك رأينا أن من الأساليب التي استخدمها العلماء لدفع مسلمي الأندلس نحو مقاومة الأعداء والنهوض لجهادهم الكتابة عن فضل الأندلس وخصائص سكناها باعتبارها من الثغور الإسلامية ، مع إبراز ماضي الأمة المجيد الذي ارتفع فيه علم الجهاد في سبيل الله ، وبخاصة في عصر الرسول ﷺ وصحابته الكرام – رضي الله عنهم – ، ثم الإشادة بالقادة الأوائل الذين فتحوا هذه الجزيرة الأندلسية . كما حرص بعضهم على إشاعة ما يصلهم من أخبار سارة عن انتصارات المسلمين في الشام على النصارى الصليبيين ليكون ذلك حافزاً للأندلسيين في جهاد أعدائهم المصاقبين .

ومن الجوانب المهمة التي كشفتها الدراسة ما أبداه علماء ذلك العصر من سعي متواصل لإبقاء الأندلس متلاحمة الأجزاء ، متحدة الكلمة في وجه العدو النصراني ، فهم مثلما تبنوا دعوة المرابطين لاستنقاذ الأندلس من براثن النصارى ، ثم أفتوا يوسف بن تاشفين بخلع ملوك الطوائف ، وقتالهم إذا لزم الأمر – فقد رأيناهم يتابعون تأييدهم للحكام المرابطين لإتمام توحيد البلاد بأجمعها تحت رايتهم ، فيقفون في صفهم ضد بعض ملوك الطوائف الذين أظهروا الطاعة للحكم المرابطي في البداية ، ثم ما لبثوا أن انشقوا عليه ، كفعل ابن الأفطس في بَطَلْيَوس ، وابن هود في سَرَقُسْطَة . كما شهدنا علماء عملوا بأنفسهم لتخليص مدن كان يحكمها حكام مسلمون محتمون بالنصارى ، بغية ضمها إلى الوحدة المرابطية كسعي ابن جحاف وابن واجب

في ضم بَلَنْسِيَة إلى المرابطين بعد انتزاعها من القادر با لله بن ذي النون المحتمي بالقائد النصراني القمبيطور .

وبعد ذلك ثبت لنا أن علماء الأندلس حرصوا على دعم وحدة بلادهم في ظل الدولة المرابطية ، فرأيناهم يستمسكون بحبلها ، ويسيرون في ركابها ، فارتبط كثير منهم بجهازها الإداري ، وداخل بعضهم أمراءها وعمالها ، وأخذوا يبثون الدعاية الحسنة لها في أواسط المجتمع الأندلسي . ثم تبين لنا أن لهم أثراً كبيراً في اتصال الدولة المرابطية بالخلافة العباسية وبعلماء المشرق لإضفاء الشرعية على حكمها في المغرب والأندلس والذي كان من أَجَلِّ ثماره دعم وحدة بلادهم في مواجهة القوى النصرانية . ثم عرفنا أن للعلماء الأندلسيين جهودهم الفعالة في الحفاظ على الوحدة متماسكة تحت حكم المرابطين ، فكانوا يتعاهدونها ، ويقفون بالقول والفعل لكل عمل يكدر صفوها ، ويعكر انسجامها ، فرأينا كيف وقف أبو عبد الله بن حمدين (ت٥٠٨هـ/ ١١١٤م) موقفاً صارماً من حركة والي قرطبة ابن الحاج حين فكر في عصيان حاكم المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين في غرة عهده ، وكيف تصدى ابن رشد الجد (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م) للفتنة في قرطبة عام ٥١٤هـ/١١٢١م ، ثم موقفه من حركة نصارى الأندلس من أهل الذمة الذين خانوا المسلمين ، وتعاونوا مع حاكم أرغون الفونسو المحارب بين عامي ٥١٩هـ/١١٢٥م و ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م . كما اتضح لنا حساسيتهم المفرطة من وقوع الاختلاف المذهبي والعقدي بين الأندلسيين الذي يؤدي إلى تصدع الوحدة أمام النصارى ، فكان موقفهم المعروف من دخول كتاب " إحياء علوم الدين " لأبي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ/١١١١م) . ولما اختلت وحدة

الأندلس بالفتنة التي أشعل فتيلها عدد من الثوار ضد المرابطين في أواخر أيامهم نأى بعض العلماء المخلصين عن الخوض في الفتنة ، وتصرف بعضهم وفق ما غلب على ظنهم أن فيه فائدة للمسلمين ووحدتهم في هذه البلاد ، فأنكروا علانية على أولئك الثوار ، وامتنعوا عن التسليم لهم بالولاية باعتبارهم خارجين على السلطة المرابطية الشرعية .

وحين انقرضت دولة المرابطين من الوجود بقيام الدولة الموحدية ، وأخذت هذه تفرض وجودها في المنطقة ، وتظهر نية جازمة للنهوض بمهام الجهاد في الأندلس تبين لنا أن العلماء الأندلسيين تعاملوا مع هذا الواقع المفروض فترأسوا وفود بلادهم للبيعة للموحدين ، وصار بعضهم يعمل جاهداً لإنهاء المعارضين للحكم الموحدي في البلاد لتبقى الكلمة واحدة ، والجهود متعاضدة إزاء الزحف النصراني ، كموقف بعض علماء شرقي الأندلس من محمد بن سعد بن مردنيش . ثم اتضح أن هؤلاء العلماء استمروا يقفون في صف هذه الدولة ، ويشاركون في أجهزتها الإدارية ، ويعارضون أي حركة تشق عصاها ، أو تضعف كيانها . ولكن حينما انشق البيت الموحدي على نفسه ، وغرق في خلافات أسرية تجرأ أفراد من الأسرة الموحدية على تسليم مدن أندلسية إلى النصارى نظير مساعدة لهم على منافسيهم – رأينا بعض العلماء يدعون الأندلسيين إلى الالتفاف حول ابن هود الزعيم الأندلسي الذي ظنوه في البداية أنه سينقذهم – بعد الله – من الخطر النصراني ، وذلك كما فعل أبو بكر عزيز بن خطاب (ت٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م) في رسالة له في هذا الشأن . ثم كان للعلماء أثر في الاستنجاد بأهل العُدوة المغربية عندما تزايد نشاط الممالك النصرانية ضد الأندلس في

الوقت الذي لم يكن فيها دولة ولا زعماء يعول عليهم في دفع ذلك النشاط، فشاهدناهم يتجهون إلى حاكم إفريقية أبي زكريا الحفصي الذي رأوه مؤهلاً لمعاونتهم على كشف محنتهم ، فخف بعضهم إليه كما فعل أبو عبدالله بن الأبار (ت٦٥٨هـ/١٢٥٩م) ، وكتب إليه آخرون مثلما فعل أبو المطرِّف بن عَميرة المخزومي (ت٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) .

ولقد أزاح البحث الستار عن إسهامات متشعبة لعلماء الأندلس في الميدان الحربي ضد الممالك الإسبانية في ذلك العصر ، فبان لنا بجلاء أن جهاد النصارى كان على رأس اهتماماتهم ، فكانوا يتابعون فصوله أولاً بأول ، وكانت لهم فيه فتاوى وأقوال . وكان بعضهم يرصد ماشهده أو سمعه من اعتداءات نصرانية ، ثم يبادر بتبليغ ذلك إلى القادة أو الحكام ليقوموا بمسؤوليتهم تجاهها . وبحكم مشاركتهم المباشرة في المعارك العسكرية الدائرة رحاها بين المسلمين وأعدائهم ، ومتابعتهم لتطوراتها كان لبعضهم حولها تحليلات دقيقة ، وآراء جيدة ، وتوقعات صائبة . ثم أن عدداً منهم صار يتحدث عن الأمور الحربية حديث من خبرها ومارسها ، وعلم الطرق المجدية منها ، وعرف جيد آلاتها من رديئها . ثم لاحظنا بعضهم قد ذهب به الاهتمام بجهاد النصارى إلى الاحتفاء بعناصر أساسية في سير العمليات القتالية فحثوا – مثلاً – على العناية بالخيل ، وأشادوا بفوائدها في الجهاد ، وأفردوا في شأنها المؤلفات .

ثم وجدنا لعلماء الأندلس حضوراً متميزاً في مجال الإنفاق على الجهاد الحربي ضد النصارى ، سواء ما كان في إطار حماية المسلمين ، أو في أخذ الأهبة للجهاد أو في معالجة الأوضاع بعده . فكان هؤلاء العلماء في طليعة المنفقين في

ذلك المجال في شتى صوره ، الداعين غيرهم إلى الإنفاق فيه ؛ بل أنهم تبنوا إلزام الناس في الأندلس بمعونة مالية لصالح الجهاد حينما تحققوا من عجز الدولة القائمة بحرب الأعداء عن توفير النفقات اللازمة لذلك .

وبعد ذلك تجلى لنا أن العلماء الأندلسيين حينذاك انخرطوا بشكل كبير في قافلة المجاهدين بأنفسهم في سبيل الله فخفوا مع الجيوش المرابطية والموحدية في غزواتها ضد القوى النصرانية المجاورة ، فكانوا يتوافدون للمشاركة في تلك الغزوات من مدن الأندلس المختلفة ، حتى أن بعضهم لا يسمع بغزاة ولا سرية إلا تجهز لها ، وبادر بالخروج إليها . وقد كان هؤلاء العلماء فوق مشاركتهم القتالية في المعارك الحربية بين المسلمين والنصارى - لا يتوانون في بذل كل شيء يعين الجيش الإسلامي في النصر على الإعداء ، فأخلصوا النصيحة للقادة ، ووعظوا المقاتلين وذكروهم ، وألقوا الخطب والمواعظ للتحريض على القتال ، وحمل بعضهم الراية في أتون المعارك . ثم ثبت أنهم شاركوا على نطاق واسع في الحملات العسكرية الموجهة نحو الممالك الإسبانية المجاورة في ذلك الحين ، فكان من ضمن المشاركين في جهاد مملكة قشتالة أيام المرابطين الإمام الجزولي في غزوة أُقْلِيش عام ٥٠١هـ/١١٠٨م التي انتهت بنصر مؤزر للمسلمين ، وأبو محمد بن عطية (ت ٥٤١هـ / ١١٤٧م) في غزوة طَلَبِيْرَة عام ٥٠٣هـ / ١١٠٩م التي كانت عاقبتها أيضاً للمسلمين . وفي أيام الموحدين كان من ضمن المشاركين في جهاد هذه المملكة النصرانية أبو الوليد بن رشد الحفيد (ت ٥٩٥ هـ/١١٩٨م) في غزوة وَبْذَة عام ٥٦٧هـ/١١٧٢م ، وأبو علي بن حجاج (ت ٥٩٨هـ/١٢٠١م) في غزوة الأرك عام ٥٩١هـ / ١١٩٥م التي انتصر

فيها المسلمون ، وأبو بكر الكناني في غـزوة شَلْبَطَرَّة عـام ٦٠٨هـ/١٢١١م والتي قضى نحبه فيها ، وقد كانت نهايتها أندحار القشتاليين ، وأبو عمر بن عات النفزي في موقعـة العقـاب ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م ، وقـد قُتِل فيهـا عقـب هزيمة موجعة للمسلمين . كمـا جـاهد العلمـاء مملكـة برشلونة (قطالونيـا) فكان من أشهرهـم أبو جعفر بن ثابت العوفي الذي انتهـت حياتـه في معركـة البورت (الباب) بين قوات هذه المملكة والمسلمين عام ٥٠٨هـ/١١١٤م . ثم رأينا علماء الأندلس خرجوا لجهاد نصارى مملكة أرغون ، فكان في جملـة المشاركين في جهادها إبان عصر المرابطـين أبـو علـي الصـدفي الـذي فُقِدَ في قتالها في معركة كُتُنْدَة عام ٥١٤هـ/ ١١٢٠م والـتي انتصـر فيهـا الأرغونيـين على المسلمين ، وأبو بكر بـن العربـي (ت٥٤٣هـ/١١٤٨م) الـذي حضـر كتنـدة الآنـف ذكرهـا ، وموقعـة كُولْيَـة عـام ٥٢٢هـ/١١٢٨ . أمـا أبـرز المشاركين في جهاد هذه المملكـة في أواخـر عصـر الموحديـن فقـد كـان أبـو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الذي كـان علـى رأس النـافرين لقتالهـا في أَنِيشَة عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م ، فقاتل فيها قتالاً شـديداً حتـى قُتِلَ ، وانهـزم المسلمون هزيمة مروعة . وفي جهاد مملكة البرتغال اشترك علماء الأندلـس فكـان من أظهرهم أبو بكر بيبش العبدري الذي فُقِدَ في موقعة مـع هـذه المملكـة عنـد شنترين عام ٥٨٠هـ / ١١٨٤م بعد انكسـار المسـلمين فيهـا ، وأبـو الحسـن المالقي وأبو بكر بن زُهر اللذان كانا في عداد المشاركين في هذه الموقعة .

ثـم وقفنـا علـى إسـهامات فاعلـة للعلمـاء في حمايـة المـدن الأندلسـية والدفاع عنهـا مـن هجمـات النصـارى المركـزة وغـاراتهم الخاطفـة في ذلـك العصر ، فكان لأبي الوليـد بـن رشـد الجـد (ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦م) أثـر

ملموس في دفع المرابطين للعناية بأسوار مدن الأندلس ، وقد تبنى العلماء القول بجواز جمع الأموال من الناس لتمويل هذا المشروع ؛ بل رأينا أبا بكر ابن العربي (ت٥٤٢هـ / ١١٤٨م) يتبرع بقدر من أمواله الخاصة لتثقيف سور مدينة إشبيلية . أما العلماء الذين تصدوا لغارات العدو على المدن الأندلسية فقد جاء على رأسهم أبو محمد عبد الله بن كوثر الغافقي الذي قُتِلَ عند رده لغارة على مدينة شربة في غربي الأندلس ، وأبو عمر بن عياد الذي قُتِلَ أثناء بروزه عام ٥٧٥هـ / ١١٨٠م لمقاتلة النصارى المغيرين على بلدة لَرْيَة التابعة لكورة بلنسية . وقد تيسر لنا معرفة عدد من العلماء الذين قاوموا هجمات العدو المنظمة على المدن الأندلسية ، فكان منهم أبو أحمد جعفر بن جَحّاف (ت٤٨٨هـ / ١٠٩٥م) الذي وقف للقمبيطور عند حصاره العنيف لمدينة بلنسية عشرين شهراً ما بين سنتي ٤٨٥هـ/١٠٩٢م و ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م ، وأبو جعفر عبد الوهاب الأنصاري الذي قتل عام ٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م حال اشتراكه في مقاومة العدو المهاجم لمدينة وَشْقَة ، وأبو زيد بن قرايش الذي لقى ربه في الذود عن مدينة سرقسطة عام ٥٠٣هـ/ ١١١٠م ، وأبو محمد الرشاطي الذي قتله النصارى عند دخولهم المِرَيَة سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م، وأبو بكر بن عبد النور السبائي الذي قُتل مجاهداً للعدو تحت أسوار مدينة قصر أبي دانس عام ٦١٤هـ / ١٢١٧م ، وأحمد الأنصاري الذي وقع أسيراً في أيدي النصارى بعد مقاومته لهم عند اقتحامهم مدينة لوشة سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م أو في السنة التي بعدها ، وعبد الملك بن إبراهيم العبدري المقتول عام ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م بأيدي النصارى عند جهاده لهم أثناء تغلبهم على مدينة ميورقة في جزائر الأندلس الشرقية

(البليار) ، وإبراهيم بن إسحاق العبدري (ت٦٤٢هـ / ١٢٤٥م) المأسور على أيدي هؤلاء الغزاة بعد مشاركته في التصدي لهم . وقد رأينا أن العلماء الأندلسيين علاوة على حملهم السلاح لمقاومة العدو المهاجم للمدن الإسلامية – فإن بعضهم قد قام بمهمة الرسل لأهل مدنهم المحاصَرة من أجل المساعدة لفك الحصار عنها ، كما أن بعضهم الآخر لجأ إلى الكتابة للغرض نفسه كما فعل قاضي سرقسطة ثابت بن عبد الله (ت٥١٤هـ / ١١٢٠م) الذي كتب يطلب النجدة من القائد المرابطي أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين لما حاصر العدو الأرغوني مدينة سرقسطة عام ٥١٢هـ / ١١١٨م .

ولقد كشفت الدراسة تعرض الأندلس في عصر المرابطين والموحدين لحرب فكرية نصرانية منبعثة من الممالك الإسبانية المجاورة ، حيث اتجه النصارى في تلك الممالك – بتأثير من البابوية كبير – إلى مهاجمة الإسلام آنذاك باللسان والقلم ، وجعلوا ذلك – أكثر من أي عصر مضى – سلاحاً معتبراً في حربهم الضروس ضد مسلمي الأندلس ، فترجموا في سبيل ذلك القرآن الكريم وعقيدة ابن تومرت (المرشدة) وغيرها ، وتعلموا اللغة العربية وقد تركزت حملاتهم الفكرية في إظهار محاسن النصرانية ، وترويج مبادئها بين المسلمين في مقابل إثارة الشكوك ، وتلفيق الأكاذيب ، وخلق الشبهات حول تعاليم الإسلام وآدابه وشرائعه ونبيه محمد ﷺ والعرب ولغتهم . وقد كانت طليطلة عاصمة قشتالة أهم المدن الإسبانية التي حملت لواء هذه الحملات الفكرية – مشافهة أو كتابة – إلى خواص المسلمين وعوامهم تارة في المدن المحتلة ، وتارة في المدن الإسلامية .

ولقد اتضح لنا أن علماء الأندلس كانوا حينذاك مدركين لخطر تلك

الحملات على بلادهم ، واعين بمسؤوليتهم في دمغها ، وحماية الأمة من آثارها. فبجانب ما كان لهم من جهود تعتبر عامة في هذا المضمار كتدريسهم للقرآن وتفسيره ، والتأليف في نبوة الرسول ﷺ وحقوقه ، والتنفير من العقيدة النصرانية – فقد وجدناهم يترصدون لما كان يقوم به رجال الدين النصارى من أنشطة فكرية مضادة للدين الإسلامي في الأندلس، فيكشفون زيف أفكارهم ، ويبطلون زخارف شبهاتهم ، فكان منهم من ناظر القساوسة النصارى – مواجهةً – كعبد الله بن سهل الغرناطي (ت٥٧١هـ/ ١١٧٦م) وأبي علي بن رشيق التغلبي (ت ٦٩٦هـ/١٢٩٦م)، ومنهم من رد على النصارى بالشعر كفعل أبي الأصبغ بن زروال الشعباني ، ومنهم من رد عليهم برسائل نثرية وشعرية كنهج أبي مروان بن مسرة اليحصبي (ت ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م) . وهناك مَنْ صنف في هذا المجال مؤلفات موسعة كابن أبي عَبيدة الخزرجي (ت ٥٨٢هـ / ١١٨٧م) ، وقد توصلنا – أثناء – استعراضنا لهؤلاء العلماء وجهودهم في هذا المضمار – إلى أن مؤلف كتاب " الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ... " يبعد أن يكون القرطبي المفسر المشهور : محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري الخزرجي المتوفى سنة ٦٧١هـ / ١٢٧٣م ، لأن زمن تأليف هذا الكتاب ، وما حواه من معلومات لا يتوافق مع أحوال هذا القرطبي في الزمن نفسه ؛ فضلاً عن أمور أخرى ذكرناها في محلها ، وقد عثرنا على إحالات لأبي العباس أحمد بن عمر القرطبي (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) – شيخ القرطبي المفسر – في شرحه لصحيح مسلم جعلتنا نميل إلى الظن الغالب بأنه هو مؤلف كتاب « الإعلام » .

كذلك لاحظنا أن جماعة من العلماء كأبي العلا الجنّان (ت٥٣٩هـ/ ١١٤٤م) وأبي الحجاج البلوى (ت ٦٠٤هـ / ١٢٠٨م) وغيرهما تصدوا لفكرٍ يلتقي في حقيقته وأهدافه مع حملات النصارى على الإسلام ، أعني الفكر الشعوبي الذي يرتكز على ذم العرب ودينهم الإسلامي في مقابل الفخر بالعجم ودينهم النصراني .

ثم شرحت الدراسة بشكل ثابت موثوق ، وبصورة حية مباشرة - منهج العلماء في مواجهة الحملات الفكرية النصرانية ضد الإسلام والمسلمين في الأندلس ، وذلك من خلال استعراضنا لثلاثة من أعمال علماء الأندلس في هذا المجال تعود كلها إلى ذلك العصر ، وهي " مقامع الصلبان " لابن أبي عَبيدة الخزرجي (ت ٥٨٢هـ / ١١٨٧م) و " الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ... " المنسوب للقرطبي ، ومناظرة أبي علي بن رشيق التغلبي (ت ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م) لقسيس نصراني ، وقد وجدنا أن منهجهم يقوم على عرض الشبهات النصرانية كما جاءت من مثيرها ، ثم الرد عليها رداً علمياً محكماً يعتمد في عمومه على الأدلة النقلية ، والبراهين العقلية، والمناقشات الكلامية ، كل ذلك بأساليب سلسلة ، ولغة واضحة ، وعبارات مفهومة .

ولقد كشف البحث أن هناك جملة من العادات والتقاليد والسمات النصرانية كانت مألوفة في حياة مسلمي الأندلس الأمر الذي أخل بهويتهم الإسلامية إزاء أعدائهم المحاربين لهم ، فكانت فئام من هؤلاء المسلمين - تشارك مثلاً - النصارى في أعيادهم ومناسباتهم الموسمية ، فتحتفل بها مثلما يحتفلون ، وتمارس فيها الأنشطة التي يمارسون . كما تعامل المسلمون

في الأندلس – أحياناً – بالتقويم العجمي النصراني ، ومال بعضهم إلى التشبه بالنصارى في زيهم ولغتهم .

ثم تبين لنا أن فئة من علماء الأندلس في عصر المرابطين والموحدين تناولوا هذه الظواهر النصرانية الفاشية في مجتمعهم بالدراسة ؛ حيث رصدوها من واقعهم المشهود ، ثم راحوا يدققون النظر فيها ، ويحللون أسبابها ، فكان من الأسباب التي توصلوا إليها لفشو تلك الظواهر النصرانية في مجتمعهم : مطاوعة الرجال للنساء اللاتي كان قسم منهن من النصرانيات ، والمجاورة بالسكنى ، والمخالطة بالتجارة ، وعيش بعض المسلمين أسارى في بلاد العدو مدة من الزمن .

ولقد برز خلال الدراسة ما للعلماء من جهود متنوعة الأثر في مجال تميز شخصية المسلمين في هذه البلاد ، وحفظها من الذوبان في شخصية أعدائهم النصارى ، فكان من تلك الجهود ما جاء تلقائياً عن طريق تدريسهم للعلوم الإسلامية المحتوية على منهج تربوي يقيم حاجزاً نفسياً يرسخ في نفوس المسلمين الاعتزاز بشخصيتهم المتميزة ، ويصونهم من الذوبان في هوية غيرهم من أهل الملل الأخرى ، ثم كان منها ما ظهر لنا أن أولئك العلماء قد قاموا بها ابتداءً مدفوعين بغيرتهم على الهوية الإسلامية التي رأوها تتراجع أمام هوية الأعداء النصارى الذين يحاربون مسلمي الأندلس بضراوة على أكثر من جبهة وصعيد ، فأخذوا يُعنون في ذلك الوقت بالمؤلفات المصنفة في أحكام أهل الذمة ، ثم لمسناهم في كتاباتهم يدعون إلى التقيد بطائفة من الضوابط الشرعية في التعامل مع الذميين لتكون بمثابة إجراءات وقائية تحفظ للمسلمين شخصيتهم ، وتكفل لهم تميزهم عن أعدائهم . كما عمد بعضهم إلى التنفير

من النصارى بفضح ما في حياتهم من ابتذال وتهتك وتفسخ وإباحية . ثم إنا رأينا عدداً من العلماء تصدوا لما كان يطبع حياة مسلمي الأندلس في بعض جوانبها من مظاهر نصرانية صريحة ، أو أعمال أصلها محرم في الإسلام توافق فعلهم لها مع فعل النصارى ، فاجتهدوا بأقوالهم وكتاباتهم محذرين المسلمين من التلبس بشيء منها ، إذ أن تعاطيهم لها يعني مسخاً لمعالم شخصيتهم المتفردة ، وفقداناً لطابع هويتهم المتميزة .

☆ ☆ ☆

تم الفراغ من هذه الدراسة في عصر يوم الخميس الثامن عشر
من شهر ذي الحجة سنة ١٤١٧هـ الموافق ١٩٩٧/٣/٢٧م
وعند فراغي منها كان يتردد في مسامعي دعوات وتمنيات
ذاك الذي غاب عن هذه الدنيا الفانية مرتحلاً إلى الدار الآخرة
في ليلة الخميس السابع عشر من شهر رجب سنة ١٤١٧هـ
والدي رحمه الله وجعل الجنة مثواه-دعواته المباركات وتمنياته
الصادقات لي بالانتهاء من هذا العمل العلمي كلما
رآني مقبلاً إليه ، أو ناهضاً من مجلسه حتى في مرضه
الأخير الذي لقى فيه ربه . وقبل هذا كان قد رباني
صغيراً ، وتعهدني بالتوجيه كبيراً ، وشجعني على
إتمام دراستي العليا . فجزاه الله عني خير الجزاء
اللهم ما في هذا العمل من حق وخير فاجعل
ثوابه له ، وثقّلْ به ميزان حسناته ، اللهم
اغفر له ، وارفع درجته في المهديين ،
واجعلنا وإياه وجميع المسلمين ممن تكون
لهم عقبى الدار ، جنات عدن يدخلونها
ومن صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم .
آمين آمين . وصلى الله على نبينا محمد
وعلى آله وصحبه ومن تبعهم
بإحسان إلى يوم الدين .

الملاحق والخرائط

[١]

رسالة أبي بكر عزيز بن خطاب إلى الفقيه أبي عبد لله بن قاسم يندبه لدعوة أبي جُميل زيان للدخول في طاعة محمد بن يوسف بن هود . وجاء فيها بيان وجوب تكاتف المدن الأندلسية وتآزرها ضد النصارى☆ .

« سلام كريم طيب ، عليك أيها الفقيه المعظم ، الخطيب ، الزاهد ، الفذ ، الورع ، التقي ، الفاضل ، المقدم ، الحبيب في الله عز وجل ، المكرم ، أبو عبد الله بن قاسم ورحمة الله وبركاته .

كتب إليك أخوك في الله تعالى ، العارف بحقك ، المعترف بفضلك ، المحب فيك ، الناصح لك ، عزيز بن خطاب ، مستفتحاً للخطاب ، مستمنحاً للجواب ، مستجنحاً للصواب ، يقول مذكراً بآيات الله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾ ، ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى ... الآية ﴾ ، ثم قد علمتم ما في إصلاح ذات البين من الأجر ، وأنه من الفرائض التي يأثم الجميع بخلوهم عن قائم به ، وأعمه أعظمه أجراً وأتمه ، وعلمتم ما في الأمر بالمعروف وما تجشم الصالحون فيه ، وعلمتم أن المدن المتجاورة المتشاركة في الدين ، التي لا تستقل كل واحدة منها بنفسها في معاشها أو دفاع عدوها ، الذي يروم الاستيلاء على أهلها ، واستئصال دينهم الحق ، واجب عليها أن تتناصر وتتعاضد على دفاع ذلك العدو ، ويأمن بعضها من بعض ، وتَنْبُت بينها أسباب التواد والتناصر ، ويكونوا كما قال رسول الله ﷺ (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه)، وكما قال – صلى الله عليه وسلم – : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه

☆ ابن المرابط : زواهر الفكر ، ص٦٥–٧٠ .

بعضاً) ، كما يجب ذلك في المدينة الواحدة بين المنازل ، وهذا كله بين لايخفى أنه فرض في ديننا الذي رضيه لنا ربنا - جل وعز - وهو المراد بقوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ ، وبقوله تعالى : ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ ، وبيِّن معلوم أن ذلك لا يكون إلا بالاتفاق على مدبر واحد ، يتمكن منه الاطلاع على الأحوال جميعها ، ينقاد إليه مدبر كل واحدة منها ، ويَقْبل منه المصالح المشتركة ، ويُنْهِي إليه ما يخص الجزء الذي يختص بتدبيره، إذ بذلك تأتلف نفوس الجميع ، وتكون كل واحدة منها على ثقة من أن المصلحة التي لها في الأخرى تصل إليها، فتسمح هي بالمصلحة التي للأخرى فيها، لأن نِسَبَها إلى مدبر واحد نِسَبٌ متكافئة، فهو يُعني بها عناية متساوية ، فَيَحْسُن النظام ، ويقع التعاضد على ثقة من التناصف ، فإنه إن لم ينقد مدبروها إلى مدبر واحد يتمكن منه ما ذكر ، اختل نظامها الذي به تتعاضد ، وآثر كل واحد منهم مصلحته الخاصة به على المصلحة التي للآخر، ولم يثق أهل مدينة منهم أهلَ مدينة أخرى ، في أن يستأثروا عنهم بما يخصهم ولم يركنوا إلى مدبر يصرفهم لتساوي عنايته بهم، هكذا يكونون عند التسالم توقعاً ، فكيف عند ظهور استئثار ، أو تغالب أو تجاذب ، على بعض الأطراف؟ ويوجب هذا ولابد وهنا في جميعها وتهيؤا لاستيلاء عدوها عليها، إن كانت متكافئة ، وكان الخلاف بين كل واحدة وكل واحدة منها ، أو في المنفردة منها ، إن كان أكثرها منتظماً مقاوماً للعدو . ويجب على الصالحين من أهل الدين والرضا ، أن يسعوا في نظامها ويدعوا إليه ، ويؤكدوا على المنفردة على الأكثر أن ترجع عن انفرادها لغير سبب ديني ، ولا عدل مدني ويعظوا المدبر والرؤساء في عدم اتباع الهوى ، العائد عليهم بالخسر المؤدي

- إن داموا عليه - إلى انبتات رياستهم رأساً ، وانقطاع كلمة الدين عن مدينتهم، على يدي عدو دينهم ، فإن أجاب الرؤساء والمدبر إلى ذلك وجب على حملة الدين وعلمائه ، أن يسعوا في إعلاء مراتب ذلك المدبر وأولئك الرؤساء ، ويبثوا بينهم وبين المدبر الذي انقادوا إليه أسباب المودة ، ويؤكدوا عليه استخلاصهم وتمكينهم ، إذ أصلح الله تعالى أهل الدين ، ونظم شملهم على أيديهم ، ويشددوا الثقة بهم ، إذ آثروا الصواب على ما كان بأيديهم ، طوعاً لله تعالى وإنصافاً من أنفسهم ، وإن لم يجيبوا إلى ذلك ، أوجب كتاب الله تعالى ، والنظر الصحيح ، على أهل المدن المنتظمة محاربتهم ، بعد الإعذار إليهم ، والموعظة لهم ، حتى يرجعوا إلى الانتظام معهم ، والتعاضد على عدوهم ، وكانت محاربتهم عدلاً ، لظهور البغي عندهم ، ومفارقتهم الأكثر وجعلهم لعدو الدين سبيلاً إلى أنفسهم وحريمهم ، قال الله تعالى : ﴿ فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾، وإثم من يصاب منهم من المستضعفين ومن لا يعلم من الصالحين - على المدبر المنفرد ، وحجة الله تعالى عليهم للذي يصيبهم : ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ ، ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾، ﴿ وما كان ربك نسياً ﴾ ، هذا كله بيّن لا ينكر ذو دين صحته، قرآناً وسنة ، وإجماعاً ونظراً ، ولا تخفى عليكم حال الأندلس الآن ، وحال بلنسية منها ، وبأي أصل من هذه الأصول تُلْحَق ، وأن الثغور الراجعة إليها قد ضعفت وشارفت استيلاء العدو عليها ، وكثير منها قد استشعر ذلك فانتظم مع الأكثر ثقة بأنه الصواب ، وبقي علي أن أعلمكم ، بأن البلاد المصاقبة لكم، التي انتظمت مع هذه البلاد ، تؤكد الرغبة على أمير المسلمين - أيده الله تعالى - في النهوض إليها ، وتقرر أنها قد أحقدت بلنسية فلا تأمن عاديتها ، ولا

تتهدن معها أرجاؤها ويقولون : إنما لحقنا بالأكثرين لنغزو على عدو الدين ، فإن أسلمنا إلى ما نخاف من الأقلين ، كان ذاك أشد لنكايتنا ، وأبعد من حمايتنا ، وأمير المسلمين – أيده الله تعالى – يرى أنه لا يسعه تركهم ، ولا تسوغ له إضاعتهم ، ويكره أن يطأ في أثناء أهل بلنسية ، رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات ، فتصيبهم معرة بغير علم ، فيتردد ويرجع إلى الدعاء والضراعة إلى الله تعالى في رفع الفتن وجمع الكلمة ، ويبكي بمحضري بكاء مُبَرِّحاً ، رأفة بالمؤمنين وإشفاقاً على ضعفاء المسلمين ، ويقول : كيف الخلاص بين إسلام قوم تقوم لهم علينا الحجة ، ووطء قوم قبل أن تتم عليهم الحجة على أنه قد استفتى من قَبَله ، فأفتوه بالنهوض إليهم ، إلا من شاء الله تعالى توفيقه ، فأفتاه بالرفق بهم والأناة فيهم والموعظة لهم ، معذرة إلى ربهم ولعلهم [كذا] ، فإن استمروا على الفرقة ، فأَخْلِقْ بهم أن تتفق الفتوى على حربهم ، ويجتمع المسلمون على سقوط حرمتهم ! أعاذنا الله تعالى من التمادي على الفرقة ، وعصمنا من الاختلاف .

ودعاني إلى الدخول في هذا الشأن الذي لم يكن من شؤوني، أداء ما تعين علي من السعي في إصلاح ذات البين وحَذَارِ الإثم في الكف عنه، إذ لم أر من يتحرك إليه ويقوم به ، مع أنه فرض على الجميع ، وأنا أدعوك إلى الله تعالى في أن تعينني في ذلك، وتُنْهِي الموعظة عني وعنك إلى الرئيس أبي جُميل، وتُذَكّره بالله تعالى وبآيات الله ، وبأن الدنيا لا تساوي عند الله تعالى جناح بعوضة ، ولأن يهدي الله تعالى به رجلاً واحداً خير له مما طلعت عليه الشمس ، وتُقَوِّي ما جعل الله تعالى في قلبه وجَبَلَه عليه ، من اختيار الخير واتباع معالم الدين ، ، وتُضْعِف كيد الشيطان فيما يريد أن يوقعه من العداوة

بين المؤمنين ، وتذكره بندامة أبي بكر – رضي الله تعالى عنه – إذ حضرته الوفاة فقال (وندمت على أن لم أقذف بالأمر في عنق أحد الرجلين فيكون أميراً وأكون وزيراً) و ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب﴾ [فعسى] الله أن يؤتيه المنقبة العظمى ، التي كان رسول الله ﷺ يبشر بها الحسن – رضي الله عنه – ويفضله من أجلها ، ويقول له (ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين) ، وتُعْلِمه أن نفوس صلحاء الأندلس ، تجتمع على محبته إذا دخل فيما دخلوا فيه ، ويقر له جميعهم بفضل الانقياد إلى الحق ، وتنطلق ألسنتهم بالدعاء له ، وينشر الملأ الكثير فضائله، ثم لا يفوته من الملك إلا كَدَرُه، ويشرب صفوه ويأخذ عفوه، ممتعاً به هيناً، ويربح إلى ذلك ملكاً لا يبيد، وينال عند الله تعالى من مودة أمير المسلمين وإخائه كل ما يريد، وما أربح صفقة مَنْ آتاه الله تعالى الدنيا فاشترى بها الآخرة ، فاعتاض من زائل حقير قليل دائماً كبيراً كثيراً ! أين مَنْ يزاحم إبراهيم بن أدهم في مقامه ؟ أين من يتبع الحسن بن علي – رضي الله تعالى عنه – في مَأْثُرته ؟ هل في الأمراء من يفاخرهما ؟ أو في المسلمين بعدهما من لا يرى تقديمها؟ والتوسل إلى الله تعالى بهما ؟ أما يقنع الرشيد السعيد أن يكون لهما ثالثاً تالياً ، وإلى عِليّ درجتهما راقياً ؟ أين المتنازعون على الممالك ؟ أين السالكون في طلب الدنيا في شتى المسالك ؟ هل ﴿ ترى لهم من باقية ﴾ هل وقتهم من الموت واقية ؟ هل بقي لهم في ملكهم ما بقي للحسن وابن أدهم من زهدهما ؟ أين الذين قالوا لمن أتاه الله الملك : ﴿ نحن أحق بالملك منه ﴾ ؟ أين الذين ﴿ قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول﴾ صَدوا عنه ؟ ﴿هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم

ركزا﴾ ؟ ما أعلم من يُسْمعني بما صاروا إليه ؟ ما أقل ما تنفعهم الندامة فيما ندموا عليه ، حين رأوا ما قَدَموا إليه ؟ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يأخذ بحجزنا عن النار ، ونحن نتهافت عليها تهافت الفراش ، يقول لنا : (لا تطلبوا الإمارة ولا تتخذوا الدنيا دار عمارة) ونحن لا نستقر من أجل طلبها على فراش ، ما أغوانا إن لم نقبل نصيحته ! ما أقل هدانا إن لم نسلك طريقته ! والله إني لأنصح الناس للرئيس أبي جُميل ، وأدلهم له على كل جميل ، وأسعاهم في أن ينال في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، وأنت بكذلك يوجب عليك الدين ، فتعال نتعاون على نصيحته ، فقد جعله الله تعالى ممن يحب أهل الصلاح والدين ، ويأخذ في أموره أخذ المهتدين ، فتلطف في توصيل الموعظة إليه ، وأعرض نصيحتي عليه ، فعسى الله تعالى أن ينظم شمل المسلمين على يديه ، وقد أديت ما لله تعالى علي من النصيحة والتنبيه ، على غفلة ربما عرضت ، ولم يبق مع الأصول التي قَدَّمت موضع إشكال و ﴿ قد تبين الرشد من الغى ﴾ ، والعدل من البغي ، فأد يا أخي ، أنت ما عليك كما يقتضيه الحق منك ، ولا تأخذك في الله تعالى لومة لائم ، والله تعالى يجزينا على نياتنا ، إن عَجزَتْ عنها أعمالنا ، وأنا منتظر جوابك بما تؤول إليه الحال. ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ ، جعلنا الله تعالى ممن قال الحق مراً ، وأطاع الله سراً وجهراً ، وجعل لنا الدنيا طريقاً إلى السعادة في الأخرى ، وهدانا من مرضاته إلى الأحق والأحرى ، بمنه ، والسلام الكريم عليكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته " .

[٢]

رسالة تبين اهتمام العلماء بشؤون الجهاد ☆

" كتب [أبو محمد بن عطية] إلى الفقيه القاضي أبي سعيد خلوف بن خلف – أعزه الله – من حضرة بلنسية ، وقد نهض في صحبة الأمير الأجل عبد الله بن مزدلي ، عند منهده إلى سرقسطة – أعادها الله – ملبياً لمناديها ، ومعيناً لمدافعة العدو المخيم بواديها ، وأقام الفقيه أبو محمد خلاف المعسكر هنالك لعذر اعترضه وعاق منهضه :

أستوهب الله للفقيه الأجل ، قاضي الجماعة سيدي وعمادي شمول نعمه وأياديه ، واتصال روائح عز الطاعة وغواديه ، واتساق خواتم الإجمال بمباديه ، والتئام أعجاز السعد بهواديه ، ولا زال مُنهَل سحاب العدل ، ممتد أطناب الظل ، مُخضَرّ جناب الفضل ، لا يُقرع باب أملٍ إلا ولجه ، ولا يَعِنُّ لما تَكره النفوس من أمر إلا فرجه ، بعزة الله كتبته – أدام الله بالطاعة عزك – من حضرة بلنسية – حرسها الله– يوم كذا عن منبر ودك الذي لا تخبو لدي ناره ، ولا تأفل عندي شموسه وأقماره، ونضير عهدك الذي لا يخلع لبسه الكرم ، ولا يزداد إلا طيباً على القِدَمِ ، وعطير حمدك الذي به أحاور وأحاضر وبمحاسنه أباهي وأكاثر ، والله تعالى يملأ بمحامدك أسماعاً ويطلق ألسناً ، ويبقيك للفضل عيناً كريمة وأثراً حسناً ، ويديم ما بيننا في ذاته زاكي الفروع ثابت الأصول ، حصين الشّكة مرهف النصول ، بمنه .

بعد أن ورد كتابك الكريم روضة الحَزْن ، غب المُزْن ، وحديقة الزهر تبسمت لوفد المطر ، تتجارى إلى محاسنه العين والنفس ويترقرق من خلاله الأنس ، وانتهيت منه أيضاً إلى ما يقتضي رضى وتسليماً ، ويسر كما

☆ ابن خاقان : قلائد العقيان ، ق٣ ، ص٦٧٠-٦٧٣ .

سمي اللديغ سليماً ، وأما ما ذهبت إليه دام عزك ، من تَعرّف الأنباء ، واجتلاء الأنحاء ، فإن ابن رُذْمير - وقمه الله - قد جعل بناء سرقسطة لِكَلْكَلِه عَطَنًا ، واتخذ ذلك الحريم وطناً ، وذلك أنه ندب لهذه السفرة من أهل ملته ما ندب ، وأجلب من خيلهم ورجلهم ما أجلب ، وهو يعتقد أن بمنازلة سرقسطة ستفتح عليه أبواب حروب ، وأنه قد وطئ غِيلا غير مقروب، فلما رأى أن حمايتها ليست بضربة لازب ، وأبصر حبلها على الغارب ، نبهت المطامع حرصه ، ففعل فعل الضعيفة أصابت فرصة ، فلازم ملازمة الغريم ، وصرف إليها وجوه الهمم والهموم ، أما أن غراب الرحيل ينعب كل يوم في عرصاته ويفصح ، وطوائف الإفرنج - دمرهم الله - كل ليلة تمسي ولا تصبح ، لأن نيتهم قذفٌ ، ونَواهم نزوح ، ومن دون أفراحهم مهامةُ فيحٌ ، وأيضاً فإن الأمير الأجل أبا محمد عبد الله بن مزدلي - أيده الله - قد أضاق بضبط الطرق ، وقَطَعَ المتصرفين ذرعهم ، وعجّز بنصب حبائل الخيل لمن شد أو فر وسعهم ، فإنه - دام أمره - أطل عليهم إطلال الفجر على الظلام ، وأخذ هنالك بِضَبْع الإسلام وأقام مرة كالحية النضناض ، وطوراً كالأسد القضقاض ، يُسرِّب إلى محلتهم من يضرم نار الحرب في أكنافها ، ويأتي أرضهم بنقصها من أطرافها ، ولولاه ما علا هنالك للإسلام اسم ، ولا حبى للمدافعة رسم ، ولا لاح للمكافحة وسم ، ولا عَنَّ لتلك العلل المجهزة على تلك الأقطار جسم ، ولكنه رِكَبِ صعبَ الأهوال ، وصدق الصيال ، وهي - أعزك الله - أقطار إن لم تُقِمِ القوةُ منها ميلاً وجَنَفا ، ويستعمل الجد لها نظراً أُنُفا ، وإلا فعقدها بِمَدْرجِ نثار ، وهي في طريق انتكاث وعَثار ، والله يكفي المسلمين فيها ، ويُنعم عليهم بتلافيها ، بعزته ، والسلام الجزيل ، عليك يا عمادي ، ورحمة الله وبركاته " .

[٢]

فتوى لابن رشد الجد في الجهاد ☆

" وكتب إليه ﷺ أمير المسلمين وناصر الدين علي بن يوسف بن تاشفين – أدام الله أمره وأعلى نصره – يسأله هل الحج أفضل لأهل الأندلس أو الجهاد ؟ **ونص السؤال** : بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم جوابك – رضي الله عنك – فيمن لم يحج من أهل الأندلس في وقتنا هذا هل الحج أفضل أم الجهاد ؟ وكيف إن كان قد حج حجة الفريضة ؟ راجعنا في ذلك بما تراه موفقاً مأجوراً إن شاء الله .

فأجاب : – أدام الله توفيقه – على ذلك بما هذا نصه: تصفحت –رحمنا الله وإياك – سؤالك هذا ، ووقفت عليه . وفرض الحج ساقط عن أهل الأندلس في وقتنا هذا لعدم الاستطاعة التي جعلها الله شرطاً في الوجوب لأن الاستطاعة القدرة على الوصول مع الأمن على النفس والمال ، وذلك معدوم في هذا الزمان . وإذا سقط فرض الحج لهذه العلة صار نفلاً مكروهاً لتقحم الغرر فيه . فبان بما ذكرناه أن الجهاد الذي لا تحصى فضائله في القرآن والسنن المتواترة والآثار أفضل منه ، وأن ذلك أبين من أن يحتاج إلى السؤال عنه .

وموضع السؤال إنما هو فيمن حج حجة الفريضة والسبيل مأمونة ،

☆ ابن رشد : فتاوى ابن رشد ، جـ٢ ، ص ١٠٢١ – ١٠٢٤ .

وهل الحج له أفضل أم الجهاد ؟ والذي أقول به : أن الجهاد له أفضل لما ورد فيه من الفضل العظيم . وأما من لم يحج حجة الفريضة والسبيل مأمونة فيتخرج ذلك على الاختلاف في الحج هل هو على الفور أو على التراخي ؟ وهذا إذا سقط فرض الجهاد على الأعيان بقيام من قام به . وأما في المكان الذي يتعين فيه على الأعيان فهو أفضل من حجة الفريضة قولاً واحداً للاختلاف فيه هل هو على الفور أو على التراخي ؟ وبالله التوفيق " .

[٤]

المعارك الحربية مع النصارى التي ثبت لدينا مشاركة علماء الأندلس فيها زمن المرابطين والموحدين

المعركة وتاريخها ☆	نوعية المعركة	القوة النصرانية التي اشتبك معها المسلمون
وَشْقَة ٤٨٩هـ/١٠٩٦م	هجوم نصراني على مدينة وشقة الإسلامية .	أرغون
أُقْلِيش ٥٠١هـ/١١٠٨م	حملة إسلامية خرجت لمواجهة العدو .	قشتالة
طَلَبِيرة أوائل سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م	حملة إسلامية خرجت لمواجهة العدو .	قشتالة
سرقُسْطَة أواخرسنة ٥٠٣هـ/١١١٠م	هجوم نصراني على مدينة سرقسطة الإسلامية .	أرغون
البورت (الباب) ٥٠٨هـ/١١١٤م	حملة إسلامية خرجت لمواجهة العدو .	برشلونة
كُتُنْدَة ٥١٤هـ/١١٢٠م	حملة إسلامية خرجت لمواجهة العدو .	أرغون
كُولِيَة ٥٢٢هـ/١١٢٨م	حملة إسلامية خرجت لمواجهة العدو .	أرغون
المَرِيَّة ٥٤٢هـ/١١٤٧م	هجوم نصراني على مدينة المرية الإسلامية .	مجموعة من القوى النصرانية
بَطَلْيَوس ٥٥٦هـ/١١٤٧م	غارة نصرانية على مدينة بطليوس الإسلامية .	البرتغال
شِرْبة ٥٦١هـ/١١٦٥م	غارة نصرانية على بلدة شربة الإسلامية .	البرتغال
وَبْذَة ٥٦٧هـ/١١٧٢م .	حملة إسلامية خرجت لمواجهة العدو .	قشتالة
لَرْية ٥٧٥هـ/١١٨٠م	غارة نصرانية على بلدة لرية الإسلامية .	غالب الظن أنها أرغون
شَنْتَرِين ٥٨٠هـ/١١٨٤م	حملة إسلامية خرجت لمواجهة العدو .	البرتغال
الأَرَك ٥٩١هـ/١١٩٥م	حملة إسلامية خرجت لمواجهة العدو .	قشتالة
شَلْبَطَرَّة ٦٠٨هـ/١٢١١هـ	حملة إسلامية خرجت لمواجهة العدو .	قشتالة

☆ رتبت المعارك بالتسلسل على حسب تاريخ حدوثها .

المعركـــة وتاريخهـــا ☆	نوعيــة المعركــة	القوة النصرانية التي اشتبك معها المسلمون
العِقَاب ٦٠٩هـ/١٢١٢م	حملة إسلامية خرجت لمواجهة العدو .	قشتالــة
أُبَّـــذَة ٦٠٩هـ/١٢١٢م	هجوم نصراني على مدينة أبذة الإسلامية	قشتالــة
قصر أبي دَانِس ٦١٤هـ/١٢١٧م	هجوم نصراني على مدينة قصر أبي دانس الإسلامية .	مجموعة قوى نصرانية
لَوْشَة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م أو٦٢٣هـ/١٢٢٦م	هجوم نصراني على مدينة لوشة الإسلامية .	قشتالــة
ميورقـــة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م	هجوم نصراني على مدينة ميورقة الإسلامية .	أرغـــون
أنِيشَة ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م	حملة إسلامية خرجت لمواجهة العدو	أرغـــون

[٥]

حكام المرابطين والموحدين ومدة ولاية كل واحد منهم

أ - حكام المرابطين :

١ - يحيى بن عمر اللمتوني ٤٣٤هـ/١٠٤٢م-٤٤٨هـ/١٠٥٦م .

٢ - أبوبكر بن عمر اللمتوني ٤٤٨هـ/١٠٥٦م -٤٦٥هـ/١٠٧٣م .

٣ - يوسف بن تاشفين ٤٦٣هـ/١٠٧٠م-٥٠٠هـ/١١٠٦م .

٤ - علي بن يوسف ٥٠٠هـ/١١٠٦م-٥٣٧هـ/١١٤٣م .

٥ - تاشفين بن علي ٥٣٧هـ/١١٤٣م-٥٣٩هـ/١١٤٥م .

٦ - إبراهيم بن تاشفين ٥٣٩هـ/١١٤٥م-٥٤١هـ/١١٤٧م .

٧ - إسحاق بن علي بن يوسف ٥٤١هـ/١١٤٧م-٥٤٢هـ/١١٤٨م.

ب - حكام الموحدين :

١ - محمد بن تومرت ٥١٥هـ/١١٢١م-٥٢٤هـ/١١٣٠م .

٢ - عبد المؤمن بن علي ٥٢٤هـ/١١٣٠م-٥٥٨هـ/١١٦٣م .

٣ - يوسف بن عبد المؤمن ٥٥٨هـ/١١٦٣م-٥٨٠هـ/١١٨٤م.

٤ - يعقوب المنصور بن يوسف ٥٨٠هـ/١١٨٤م - ٥٩٥هـ/١١٩٩م

٥ - محمد الناصر بن يعقوب ٥٩٥هـ/١١٩٩م-٦١٠هـ/١٢١١م.

٦ - يوسف المستنصر بالله ٦١٠هـ/١٢١١م-٦٢٠هـ/١٢٢٤م.

٧ - عبد الواحد المخلوع ٦٢٠هـ/١٢٢٤م-٦٢١هـ/١٢٢٤م .

٨ - عبد الله العادل ٦٢١هـ/١٢٢٤ هـ-٦٢٤هـ/١٢٢٧م.

٩ - إدريس المأمون ٦٢٤هـ/١٢٢٧م-٦٢٩هـ/١٢٣٢م.

١٠ - يحيى المعتصم ٦٢٤هـ/١٢٢٧م-٦٣٣هـ/١٢٣٦م.

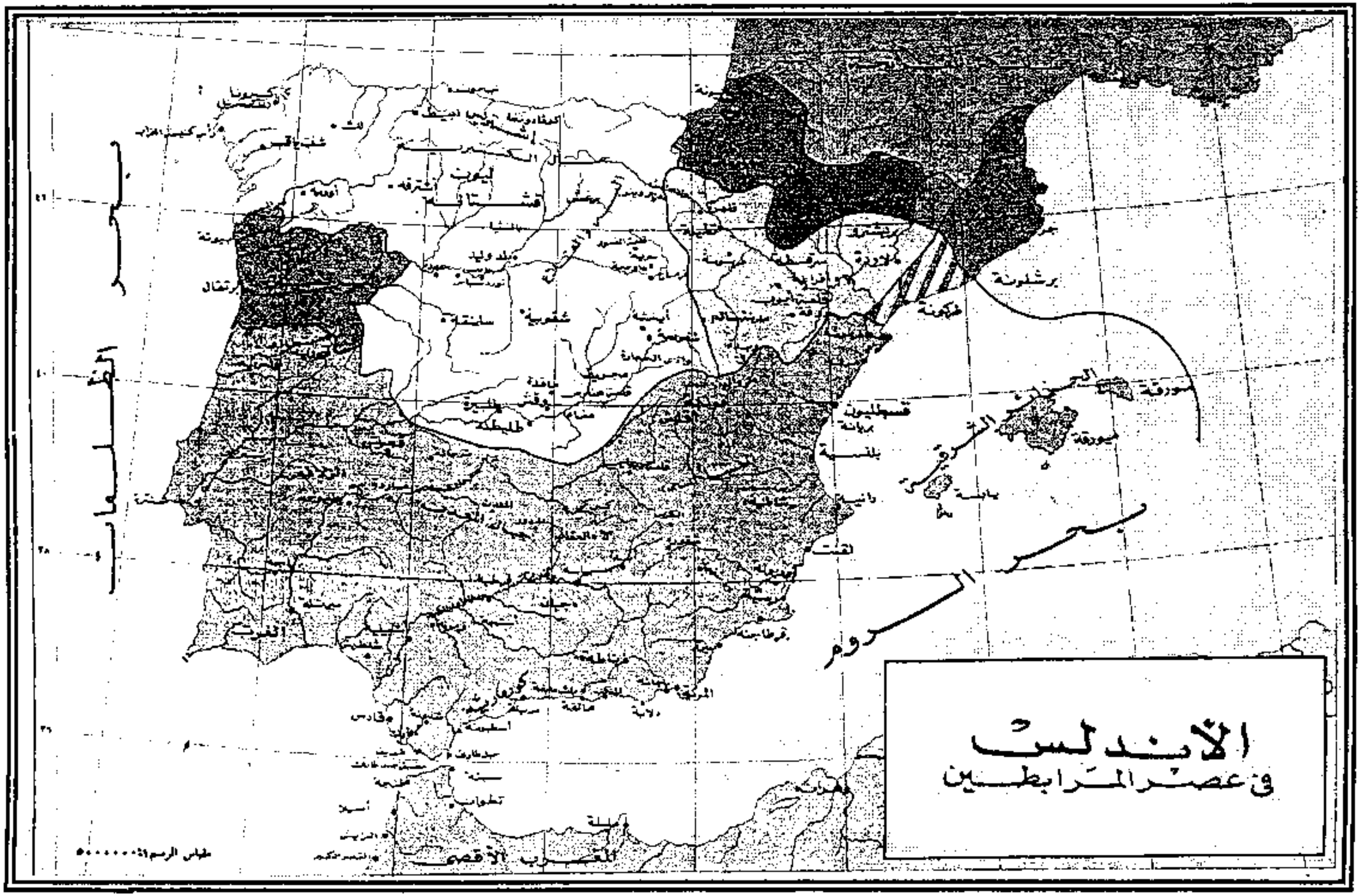
١١ - عبد الواحد الرشيد ٦٣٠هـ/١٢٣٢م-٦٤٠هـ/١٢٤٢م.

١٢ - علي السعيد ٦٤٠هـ /١٢٤٢م-٦٤٦هـ/١٢٤٨م.

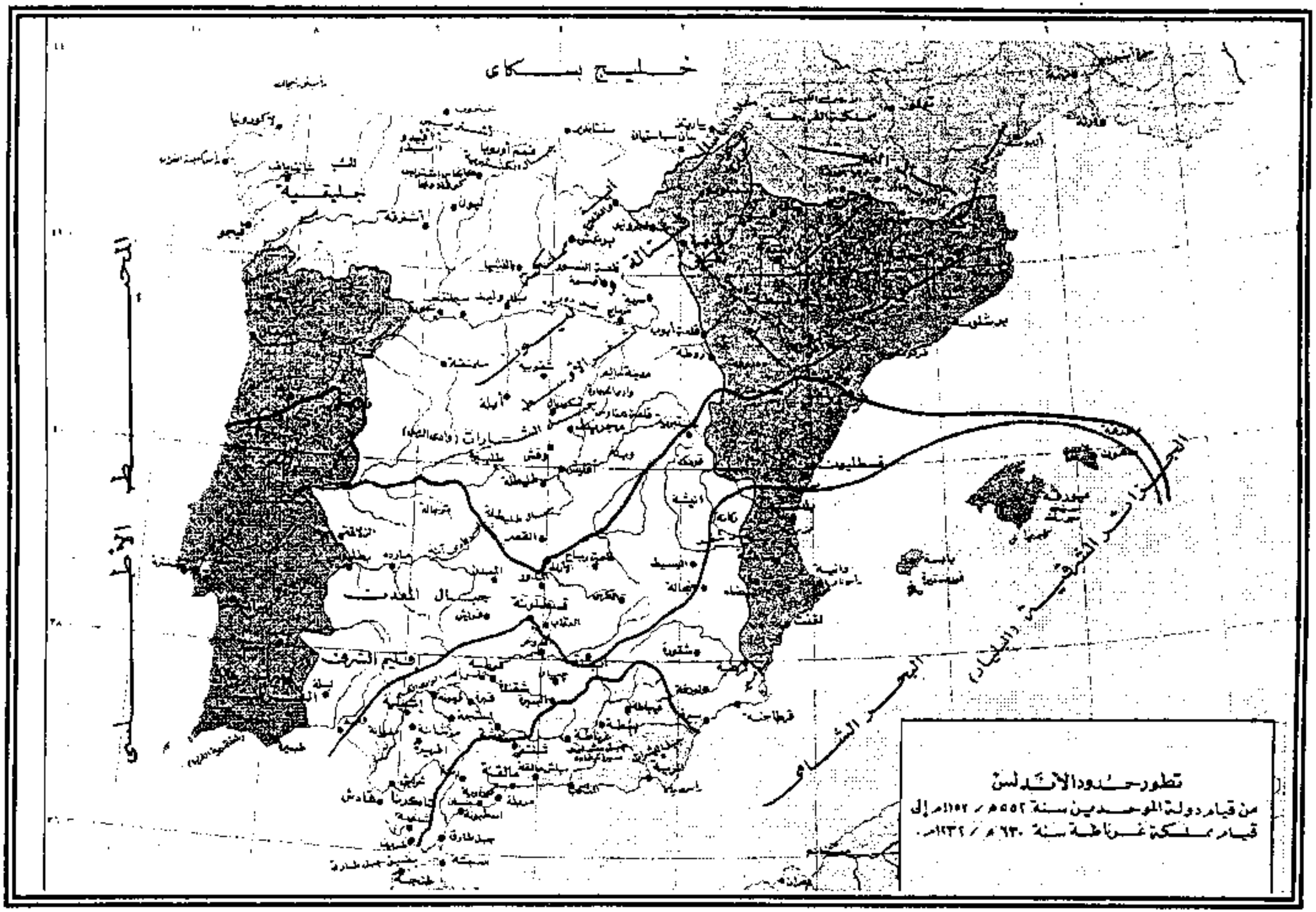
١٣ - عمر المرتضى ٦٤٦هـ/١٢٤٨م-٦٦٥هـ/١٢٦٦م.

١٤ - إدريس الواثق ٦٦٥هـ/١٢٦٦م-٦٦٨هـ /١٢٦٩م.

خارطة ١ : تبين حدود الدولة المرابطية في الأندلس وكذلك القوى الأسبانية النصرانية المعاصرة لها التي شارك العلماء الأندلسيون في جهادها إبان عصر الدراسة
(مصورة من كتاب : أطلس تاريخ الإسلام ، د / حسين مؤنس ، ص ١٧٤)



خارطة ٢ : تبين حدود الدولة الموحدية في الأندلس وكذلك القوى الأسبانية النصرانية المعاصرة لها التي شارك العلماء الأندلسيون في جهادها إبان عصر الدراسة
(مصورة من كتاب : أطلس تاريخ الإسلام ، د / حسين مؤنس ، ص ١٧٥)



المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية القديمة

أ - المصادر المخطوطة .

الإدريسي : أبو عبد الله محمد بن محمد (ت حوالي ٥٦٠هـ/١١٦٤م) .

– **أنس المهج وروض الفرج** ، مخطوط حكيم أوغلى برقم ٦٨٨ ، مكتبة السليمانية في إستانبول ، نشر مخطوطاً بالتصوير الفوتوغرافي في معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في فرانكفورت .

ابن برجان : أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن بن أبي الرجال (ت٥٣٦هـ/١١٤١م) .

– **تفسير ابن برجان (قطعة منه)** ، مخطوط مكتبة عنيزة الوطنية بالجامع الكبير ، كتاب رقم ٩٧ .

البرزلي : أبو القاسم بن أحمد البلوي (ت أول القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) .

– **جامع مسائل الأحكام لما نزل بالقضايا من المفتين والحكام** ، ميكروفيلم جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، رقم ١٠٧٩٠ .

السهيلي ☆ :

– **جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس** ، مخطوط المكتبة الظاهرية رقم ٦٤٩/ تاريخ ، ميكروفيلم جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، رقم ١٠٥٣/ تاريخ .

☆ جاء في الصفحة الأولى من المخطوط بعد الحمدله والتصلية عبارة " قال الشيخ الإمام أبو القاسم وأبوالزيد (كذا) عبد الرحمن بن الخطيب أبي محمد عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن أصبغ بن حسين ابن سعدون بن رضوان بن فتوح الخثعمي السهيلي الأندلسي " فسلسلة النسب هذه والكنية في البداية تنطبقان على السهيلي المشهور صاحب الروض الأنف (ت٥٨١هـ/١١٨٥م) . لكن كتاب "جذوة المقتبس" هذا تعدى في تراجمه عصر السهيلي الأخير إلى وقت متأخر ، بل تُرجم فيه لصاحب الروض الأنف .

ابن العربي : أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري (ت٥٤٣هـ/١١٤٧م) .

– **سراج المريدين في سبيل المهتدين** ، مخطوط دار الكتب المصرية ، رقم ٢٠٣٤٨ ب .

ابن عساكر : أبو القاسم علي بن الحسن (ت٥٧١هـ/١١٧٥م) .

– **تاريخ دمشق** ، نشرته مخطوطاً مكتبة الدار بالمدينة المنورة .

ابن عَميرة المخزومي : أبو المطرِّف أحمد بن عبد الله (ت٦٥٨هـ/١٢٦٠م) .

– **رسائل أبي المطرف بن عميرة** ، مخطوط الخزانة العامة بالرباط ، رقم ٥٢٣٢.

ابن فودي : عثمان بن محمد (فودي) بن عثمان (ت١٢٣٢هـ/١٨١٧م) .

– **نجم الإخوان يهتدون به بإذن الله تعالى في أمور الزمان** ، مخطوط بمجموعة صكت ، مجلد (١) ، مظروف (١) ، مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا ، جامعة أحمد بيللو ، زاريا ، نيجيريا .

مجهول :

– **إنسان العيون في مشاهير سادس القرون** ، ميكروفيكم جامعة أم القرى ، رقم ٢٤٨/تاريخ .

مجهول :

– **الدرر النثيرة في أخبار الجزيرة** ، مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس ، رقم ١٨٦٢١.

ابن المرابط : محمد بن علي بن عبد الرحمن (كان حياً عام ٧٢١هـ/١٣٢١م) .

– **زواهر الفِكرَ وجواهر الفِقَر** ، حققه حسن أفليفل ، رسالة دكتوراه غير منشورة ☆ كلية الفلسفة والآداب ، جامعة غرناطة ١٩٩٢م .

☆ آثرت إدراج كتاب ابن المرابط هذا ضمن المخطوطات مع أنه يُعد رسالة جامعية لسببين : **الأول** : أنه في حكم المخطوط فهو مكتوب بالآلة الكاتبة . **والثاني** : أنني استفدت من نصوص " زواهر الفكر " دون كلام المحقق ، فكنت أعزو إلى ابن المرابط عند الرجوع إليه .

ابن هذيل : أبو الحسن علي بن عبد الرحمن (من أهل القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي)

– **تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس** ، مخطوط . م . نهيل ، الدار البيضاء، نشره مخطوطاً بالتصوير الفوتوغرافي لويس مرسي، باريس ١٩٣٢م.

ب - المصادر المطبوعة :

ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت٦٥٨هـ/١٢٥٩م) .

– **إعتاب الكتاب** ، تحقيق صالح الأشتر ، ط . مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م .

– **تحفة القادم** ، أعاد بناءه وعلق عليه إحسان عباس ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

– **التكملة لكتاب الصلة** ، نشر السيد عزت العطار الحسيني ، ط . مطبعة السعادة ، مصر ، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م ، في جزئين ، وطبعة فرانسيسكو كوديرا ، مدريد ، في جزئين الأول ، ١٨٨٦م ، والثاني ، ١٨٨٧م . وتحقيق عبد السلام الهراس ، ط . دار المعرفة ، الدار البيضاء .

– **الحلة السيراء** ، تحقيق حسين مؤنس ، ط . الأولى ، الشركة العربية للطباعة والنشر القاهرة ، ١٩٦٣م .

– **دُرر السمط في خبر السبط** ، تحقيق عز الدين أحمد موسى ، ط. الأولى، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

– **ديوان ابن الأبار** ، تحقيق عبد السلام الهراس ، ط . الدار التونسية ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

– **المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي** ، ط . دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م . وط . فرانسيسكو كوديرا، مدريد، ١٨٨٥م .

ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن بن علي بن أبي الكرم (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م) .

– **الكامل في التاريخ** ، ط . دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

أحمد : الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (ت٢٤١هـ/٨٥٥م) .

– **مسند الإمام أحمد بن حنبل** ، إعداد مجموعة من الباحثين ، إشراف سمير طه المجذوب ط . الأولى ، المكتب الإسلامي ، بيروت ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .

الإدريسي ☆ :

– **صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)** ، ط . ليدن ، ١٩٦٨م .

ابن أبي أصيبعة : أبو العباس أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م) .

– **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** ، ط . دار الثقافة ، بيروت ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ/٨٧٠م) .

– **صحيح البخاري** ، ط . الرابعة ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

ابن بسام : أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت٥٤٢هـ/١١٤٧م) .

– **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة** ، تحقيق إحسان عباس ، ط . الثانية ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الله (ت٥٧٨هـ/١١٨٢م) .

– **كتاب الصلة** ، ط . الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٦م .

البكري : أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (٤٨٧هـ/١٠٩٤م) .

– **المسالك والممالك** ، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري ، ط . الدار العربية للكتاب ، تونس ، ١٩٩٢م .

☆ سبق التعريف به .

البلفيقي : أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (من رجال القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي) .

- **المقتضب من كتاب تحفة القادم** ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، ط . الثانية ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

ابن بُلُقّين : عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن زيري (ت آخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي) .

- **التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيرى في غرناطة "مذكرات الأمير عبد الله"** . تحقيق إ. ليفي بروفنسال ، ط . دار المعارف ، القاهرة، ١٩٥٥م.

البلوي : أبو الحجاج يوسف بن محمد - ابن الشيخ - (ت٦٠٤هـ/١٢٠٨م) .

- **كتاب ألف باء** ، ط . الثانية ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

البياسي : أبو الحجاج يوسف بن محمد (ت ٦٥٣هـ/١٢٥٥م) .

- **الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام** ، تحقيق شفيق جاسر أحمد محمود ، ط . الأولى ، عمان ، الأردن ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

البيذق : أبو بكر بن علي الصنهاجي (عاش في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) .

- **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين** ، ط . دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط ، ١٩٧١م .

التادلي : أبو يعقوب يوسف بن يحيى -ابن الزيات- (ت ٦٢٧هـ/١٢٢٩م أو٦٢٨هـ/١٢٣٠م).

- **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي** ، تحقيق أحمد توفيق ، ط . الأولى ، دار النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .

التجيبي : القاسم بن يوسف (ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م) .

– **برنامج التجيبي** ، تحقيق عبد الحفيظ منصور ، ط . الدار العربية للكتاب ، ليبيا – تونس ، ١٩٨١م .

ابن تَغْري بَرْدِي : جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م) .

– **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧١م .

التنبكتي : أبو العباس أحمد بابا بن أحمد (ت١٠٣٦هـ/١٦٢٧م) .

– **نيل الابتهاج بتطريز الديباج** ، نشر عبد الحميد الهرامة ، ط . الأولى ، كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، ليبيا ، ١٩٨٩م .

ابن تومرت : أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت٥٢٤هـ/١١٣٠م) .

– **أعز ما يطلب** ، تحقيق عمار الطالبي ، ط . المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ١٩٨٥م .

ابن تيمية : أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (ت٧٢٨هـ/١٣٢٨م) .

– **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم** ، تحقيق ناصر بن عبدالله العقل ط . الثالثة ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .

– **بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلول والاتحاد** ، تحقيق موسى بن سليمان الدويش ، ط . الأولى ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة ، ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨م .

– **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح** . ط . علي السيد صبح المدني ، القاهرة .

– **درء تعارض العقل والنقل**، تحقيق محمد رشاد سالم، ط. مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

– **مجموع فتاوى ابن تيمية** ، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد، ط . مكتبة المعارف ، الرباط ، المغرب .

– **مجموعة الرسائل والمسائل** ، ط . الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .
– **مقدمة في أصول التفسير** ، تحقيق محمود نصار ، ط . مكتبة التراث الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٨٨م .
الجاحظ : أبو عثمان عمر بن بحر (ت٢٥٥هـ/٨٦٨م) .
– **المختار في الرد على النصارى** ، تحقيق محمد عبد الله الشرقاوي ، ط . الأولى ، دار الصحوة ، القاهرة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م .
ابن جبير : أبو الحسين محمد بن أحمد (ت٦١٤هـ/١٢١٧م) .
– **رحلة ابن جبير " تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار "** ، ط . دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .
الجرسيفي : عمر بن عثمان (من أهل القرن السادس الهجري /الثاني عشر الميلادي) .
– **رسالة في الحسبة** ، نشره إ . ليفي بروفنسال ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ، ط . المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥م .
ابن جُزَيّ الكلبي : أبو محمد عبد الله بن محمد (من أهل القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي) .
– **كتاب الخيل " مطلع اليمن والإقبال في انتقاء كتاب الاحتفال "** ، تحقيق محمد العربي الخطابي ، ط . دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .
ابن جزى : أبو القاسم محمد بن أحمد (ت٧٤١هـ/١٣٤٠م) .
– **القوانين الفقهية** ، ط . دار الكتب العلمية ، بيروت .
حاجي خليفة : مصطفى بن عبد الله (ت ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م) .
– **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** ، ط . دار العلوم الحديثة ، بيروت .

ابن حُبيش : أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد (ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م) .
– **الغزوات الضامنة الكاملة والفتوح الجامعة الحافلة الكائنة في أيام الخلفاء الأُول الثلاثة** ، تحقيق سهيل زكار ، ط . الأولى ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .
ابن حجر العسقلاني : شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م).
– **فتح الباري بشرح صحيح البخاري** ، نشر محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب . ط . دار المعرفة ، بيروت .
ابن حزم : أبو محمد علي بن أحمد (ت٤٥٦هـ/١٠٦٣م) .
– **جمهرة أنساب العرب** ط . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .
– **ديوان الإمام ابن حزم الظاهري** ، تحقيق صبحي رشاد عبد الكريم ، ط . الأولى ، دار الصحابة ، طنطا ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .
الحلبي : شهاب الدين محمود بن سليمان (ت٧٢٣هـ/١٣٢٤م) .
– **حسن التوسل إلى صناعة الترسل** ، تحقيق أكرم عثمان يوسف ، ط . دار الحرية ، بغداد ، ١٩٨٠م .
الحميدي : أبو عبد الله بن أبي نصر (ت٤٨٨هـ/١٠٩٥م) .
– **جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس** ، تحقيق إبراهيم الإبياري ، ط . الثانية ، دار الكتب الإسلامية ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
ابن حمير : أبو الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي (من أهل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) .
– **تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حُثالة الأغبياء**، تحقيق محمد رضوان الداية، ط . الأولى ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م .
الحميري : أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت حوالي ٧٢٧هـ/١٣٢٦م) .

– **صفة جزيرة الأندلس (منتخب من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار)** ، نشر إ . ليفي بروفنسال . ط . د . م .
ابن خاقان : أبو نصر الفتح بن محمد (ت٥٢٨هـ/١١٣٨م) .
– **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان** ، تحقيق حسين يوسف خربوش ، ط . الأولى ، مكتبة المنار ، عمان ، الأردن ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .
– **مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس** ، تحقيق محمد علي شوابكة ، ط . الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
الخزرجي : أبو جعفر أحمد بن عبد الصمد بن أبي عَبيدة (ت٥٨٢هـ/١١٨٧م) .
– **مقامع الصلبان** ، تحقيق عبد المجيد الشرفي ، ط . الشركة التونسية لفنون الرسم ، تونس ، ١٩٧٥م ، وتحقيق محمد شامة الذي عنون له بـ " بين الإسلام والمسيحية " ، ط . مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٩م .
– **نَفَس الصَّباح في غريب القرآن وناسخه ومنسوخه** . تحقيق محمد عزالدين المعيار الإدريسي، ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .
ابن أبي الخصال : أبو عبد الله محمد بن مسعود (ت ٥٤٠هـ/١١٤٦م) .
– **رسائل ابن أبي الخصال** ، تحقيق محمد رضوان الداية ، ط . الأولى ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م .
ابن الخطيب : لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م) .
– **الإحاطة في أخبار غرناطة** ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، م ١ : ط . الثانية ، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ، م٢: ط.الأولى ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، م٣: ط.الأولى ، ١٣٩٥هـ /١٩٧٥م ، م٤ : ط . الأولى ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٦م ، ونصوص جديدة لم تنشر ، تحقيق عبد السلام شقور ، ط . مؤسسة التغليف والطباعة والنشر ، تطوان ، ١٩٨٨م .

- **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام** . ق٢ "تاريخ إسبانيا الإسلامية " ، نشر إ . ليفي بروفنسال ، ط . الثانية ، دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٥٦م ق٣ " تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط " ، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني ، ط . دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٦٤م .

- **شرح رقم الحلل في نظم الدول** ، تحقيق عدنان درويش ، ط . وزارة الثقافة السورية ، ١٩٩٠م .

- **اللمحة البدرية في الدولة النصرية** ، ط . الثالثة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٤٠٠هـ /١٩٨٠م .

ابن خلدون : أبوزيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) .

- **[العبر ☆ و] ديوان المبتدأ والخبر وأيام العرب [والعجم☆] والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر** ، نشر خليل شحادة ، ط . دار الفكر، بيروت ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

ابن خلدون : أبو زكريا يحيى بن محمد (ت٧٨٠هـ/١٣٧٨م) .

- **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد** ، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، ط . المكتبة الوطنية الجزائرية ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

ابن خلكان : أبو العباس أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ/١٢٨٢هـ) .

- **وفَيَات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** ، تحقيق إحسان عباس ، ط . دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

☆ كلمة " العبر " و " العجم " سقطتا من العنوان في هذه الطبعة مع أنهما من ضمن العنوان الذي جاءت تسميته على لسان ابن خلدون نفسه في صدر الكتاب وفي الطبعة نفسها .

ابن خليل : أبو عبد الله محمد بن عبد الله (؟) .

– **اختصار القِدْح المَعَلى في التاريخ المحلى لابن سعيد** ، تحقيق إبراهيم الإبياري ، ط . الثانية ، دا رالكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

ابن خير : أبو بكر محمد بن خير الأموي (ت ٥٧٥هـ/١١٧٩م) .

– **فهرسة مارواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف**، نشر فرانسيسكو كوديرا ، ط. الثانية، دار الآفاق الجديدة، بيروت ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

الداودي : محمد بن علي بن أحمد (ت٩٤٥هـ/١٥٣٨م) .

– **طبقات المفسرين** ، ط . الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

ابن دحية : أبو الخطاب عمر بن حسن (ت٦٣٣هـ/١٢٣٥م) .

– **المطرب من أشعار أهل المغرب** ، تحقيق إبراهيم الإبياري و حامد عبد المجيد و أحمد أحمد بدوي ، ط . القاهرة ، ١٩٩٣م .

ابن أبي دينار : محمد بن القاسم الرعينى القيرواني (كان حياً سنة ١٠٩٢هـ/١٦٨١م) .

– **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس** ، ط . الثالثة ، دار السيرة ، بيروت ، ١٩٩٣م .

الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٨م) .

– **تذكرة الحفاظ** ، ط . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م .

– **سير أعلام النبلاء** ، حقق بعضه وأشرف على تحقيق بعضه الآخر شعيب الأرناؤوط، ط . الثامنة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

– **العبر في خبر من غبر** ، تحقيق أبو المهاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، ط. دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

ابن رَزَين التجيبي: أبوالحسن علي بن محمد (عاش في القرن السابع الهجري/الثالث عشرالميلادي)

– **فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان** ، تحقيق محمد بن شقرون ، ط . الثانية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٤م .

ابن رسول : الأشرف عمر بن يوسف (ت ٦٩٦هـ/١٢٩٦م) .

– **طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب** ، تحقيق سترستين ، ط . الثانية ، دار الكلمة ، صنعاء ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م .

الرُّشاطي : أبو محمد عبد الله بن علي (ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م) .

– **اقتباس الأنوار** ، نشر وحقق ما يخص الأندلس منه في كتاب تحت عنوان " الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار الأنوار " إميليو مولينا وخاثينتو بوسك بيلا ، ط . المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، معهد التعاون مع العالم العربي ، مدريد ، ١٩٩٠م .

ابن رشد الجد : أبو الوليد محمد بن أحمد (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م) .

– **البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة** ، تحقيق محمد حجي ، ط . دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .

– **الجامع من المقدمات** . تحقيق المختار بن الطاهر التليلي ، ط . الأولى ، دار الفرقان ، عمان ، الأردن ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

– **فتاوى ابن رشد** . تحقيق المختار بن الطاهر التليلي ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، وتحقيق محمد الحبيب التجكاني بعنوان "مسائل أبي الوليد بن رشد " ، ط . الثانية ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م

ابن رشد الحفيد : أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد " الجد " (ت٥٩٥هـ/١١٩٨م).

– **بداية المجتهد ونهاية المقتصد** ، ط . السادسة ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .

– **تهافت التهافت** ، تحقيق محمد العريبي ، ط . الأولى، دار الفكر اللبناني، بيروت ، ١٩٩٣م .
– **رسائل ابن رشد الطبية** ، تحقيق جورج قنواتي وسعيد زايد ، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٧م .
– **فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال** ، ط . الثانية ، دار العلم للجميع ، بيروت ، ١٩٣٥م .
– **الكشف عن مناهج الأدلة** ، ط . الثانية ، دار العلم للجميع ، بيروت ، ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٥م .

الرعيني : أبو الحسن علي بن محمد (ت ٦٦٦هـ/١٢٦٧م) .
– **برنامج شيوخ الرعيني** ، تحقيق إبراهيم شبوح ، ط . مديرية إحياء التراث القديم ، دمشق ، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م .

الزبيدي : محب الدين أبو فيض السيد محمد مرتضى (ت١٢٠٥هـ/١٧٩١م) .
– **تاج العروس من جواهر القاموس** ، تحقيق علي شيرى ، ط . دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٤م .

ابن الزبير : أبو جعفر أحمد بن إبراهيم (ت ٧٠٨هـ/١٣٠٨م) .
– **صلة الصلة** ، تحقيق إ . ليفي بروفنسال ، ط . مكتبة خياط ، بيروت ، وتحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أعراب ، ط . وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ، القسم الثالث ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م . والقسم الرابع ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م . والقسم الخامس ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م .

الزجالي : أبو يحيى عبيد الله بن أحمد (ت ٦٩٤هـ/١٢٩٥م) .
– **أمثال العوام في الأندلس** ، دراسة وتحقيق محمد بن شريفة ، ط . مطبعة محمد الخامس ، فاس ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .

ابن أبي زرع : أبو الحسن علي بن عبد الله (ت ٧٤١هـ/١٣٤٠م) .

– **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** ، ط . دار المنصور ، الرباط ، ١٩٧٢م .

– **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية** . ط . دار المنصور ، الرباط ، ١٩٧٢ .

الزركشي : أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (كان موجوداً ٨٩٤هـ/١٤٨٩م) .

– **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية** ، تحقيق محمد ماضور ، ط . الثانية ، المكتبة العتيقة ، تونس ، ١٩٦٦ م .

ابن أبي زمنين : أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٣٩٩هـ / ١٠٠٨ م) .

– **قدوة الغازي** ، تحقيق عائشة السليماني ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٩ م .

ابن زهر : أبومروان عبد الملك بن زهر الأيادي (ت ٥٥٧هـ/١١٦٢م) .

– **التيسير في المداواة والتدبير** ، تحقيق ميشل الخوري ، ط . الأولى ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

الزهري : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت في أواسط القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) .

– **كتاب الجعرافية** ☆ ، تحقيق محمد حاج صادق ، ط . مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة .

السبكي : تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي (ت ٧٧١هـ/١٣٧٠م) .

– **طبقات الشافعية الكبرى** ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي ، ط. دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٧٦م .

السخاوي : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م) .

☆ بالعين المهملة ، ومعناها " خارطة " .

الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، تحقيق فرانز روزنثال ، ترجمة صالح العلي ، ط . الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م .

السراج : محمد بن محمد الأندلسي (ت ١١٤٩هـ/١٧٣٦ م) .

– **الحلل السندسية في الأخبار التونسية** ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة . ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٥م .

السرقسطي : أبوعبد الله محمد بن عبد الله بن مطروح (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م) .

– **روضة المَحاسن وعمدة المُحاسن** ، تحقيق منجد مصطفى بهجت ، ط . المجمع العلمي العراقي ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م .

ابن سعيد : أبو الحسن علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) .

– **الجغرافيا** ، تحقيق إسماعيل العربي ، ط . المكتب التجاري ، بيروت ، ١٩٨٠م .

– **رايات المبرزين وغايات المميزين** ، تحقيق محمد رضوان الداية ، ط . الأولى ، دار طلاس ، دمشق ، ١٩٨٧م .

– **الغصون اليانعة في محاسن المائة السابعة** ، تحقيق إبراهيم الإبياري ، ط . الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧م .

– **المغرب في حلى المغرب** ، تحقيق شوقي ضيف ، ط . الثالثة ، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٨٠م .

– **المقتطف من أزاهير الطرف** ، تحقيق سيد حنفي حسنين ، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٤م .

السقطي : أبو عبدا لله محمد بن أبي محمد (من أهل القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي)

– **في آداب الحسبة** ، تحقيق حسن الزين ، ط . دا رالفكر الحديث، بيروت، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

السمعاني : أبو سعد عبد الكريم بن محمد (ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م) .

الأنساب . تحقيق عبد الله عمر البارودي . ط . الأولى ، دار الجنان ، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

ابن سهل : أبو الأصبغ عيسى بن سهل الأسدي (٤٨٦هـ/١٠٩٣م) .

– **ثلاث وثائق في محاربة الأهواء والبدع في الأندلس " مستخرجة من الأحكام الكبرى "** ، تحقيق محمد عبد الوهاب خلاف ، ط . الأولى ، المركز العربي الدولي للإعلام ، القاهرة ، ١٩٨١م .

– **وثائق في أحكام أهل الذمة " مستخرجة من الأحكام الكبرى "** . تحقيق محمد عبد الوهاب خلاف ، ط . المركز العربي الدولي للإعلام ، ١٩٨٠م .

السُّهَيْلي : أبو القاسم وأبو زيد عبد الرحمن بن أبي محمد (ت ٥٨١هـ/١١٨٥م) .

– **الرَّوض الأُنُف في شرح السيرة النبوية لابن هشام** ، تحقيق عبد الرحمن الوكيل ، ط. الأولى ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) .

– **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ط . المكتبة العصرية ، بيروت .

– **طبقات المفسرين** ، ط . الأولى ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

الشاطبي : أبو إسحاق إبراهيم بن موسى (ت ٧٩٠هـ/١٣٨٨م) .

– **الاعتصام** . تحقيق سليم عيد الهلالي . ط . الأولى ، دار ابن عفان ، الخبر ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

الشَريشي : أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن (ت ٦١٩هـ/١٢٢٢م) .

– **شرح مقامات الحريري** ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط . المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٤١٣ هـ/١٩٩٢م .

ابن الشماع : أبو عبد الله محمد بن أحمد (كان حياً سنة ٨٦١هـ/١٤٥٧م) .

- **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق الطاهر المعموري، ط . الدار العربية للكتاب ، طرابلس ، ليبيا ، ١٩٨٤م .

ابن صاحب الصلاة : أبو مروان عبدالملك بن محمد (ت أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) .

- **المن بالإمامة "تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين"** . تحقيق عبد الهادي التازي ، ط . الثالثة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، ١٩٨٧م.

الصفدي : صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م) .

- **الوافي بالوفَيات** . تحقيق مجموعة من المحققين ، ط . دار النشر فرانز شتايز بفيسبادن ١٤١١هـ/١٩٩١م .

صفوان بن إدريس : أبو بحر التجيبي المرسي (ت ٥٩٨هـ/١٢٠٢م) .

- **زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر** ، نشر عبد القادر محداد ، ط . دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٩٨٠م .

الضبي : أبو جعفر أحمد بن يحيى (ت ٥٩٩هـ/١٢٠٢م) .

- **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس** ، ط . دار الكتاب العربي ، ١٩٦٧م .

الطُرْطُوشي : أبو بكر محمد بن الوليد (ت ٥٢٠هـ/١١٢٦م) .

- **الحوادث والبدع** ، تحقيق عبد المجيد تركي ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

- **سراج الملوك** ، تحقيق محمد فتحي أبو بكر ، ط . الأولى ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٤١٤ هـ/١٩٩٤م .

عبد الحق الإشبيلي : أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن (ت ٥٨١هـ/١١٨٥م) .

- **الأحكام الشرعية الصغرى** ، تحقيق أم محمد بنت أحمد الهليس ، ط . الأولى ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .

- **الصلاة والتهجد** ، تحقيق عادل أبو المعاطي ، ط . الأولى ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .

ابن عبد الغفور الكلاعي : أبو القاسم محمد بن عبد الغفور (من أهل القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) .

- **إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس** ، تحقيق محمد رضوان الداية . ط . الثانية ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

ابن عبد الملك المراكشي : أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك (ت ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م) .

- **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة** ، تحقيق إحسان عباس ، ط . دار الثقافة ، بيروت ، السفر الرابع ، د . ت . ، السفر الخامس ، ١٩٦٥م ، السفر السادس ، ط . الأولى ١٩٧٣م . وتحقيق محمد بن شريفة ، السفر الأول ، ط . دار الثقافة ، د . ت . السفر الثامن ، مطبوعات أكادمية المملكة المغربية ، ١٩٨٤م .

ابن عبدون : محمد بن أحمد التجيبي (من أهل القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) .

- **رسالة في القضاء والحسبة** ، نشرها إ . ليفي بروفنسال ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ، ط . المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥م .

ابن عِذاري : أبو العباس أحمد بن محمد (ت بعد ٧١٢هـ/١٣١٢م) .

- **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب** ، جـ ٤ ، تحقيق إحسان عباس، ط . الثالثة ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٣م ، " قسم الموحدين " ، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرين ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ودار الثقافة ، الدار البيضاء ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م .

ابن العربي ☆ :
– **أحكام القرآن** ، ط . دار المعرفة ، بيروت .
– **رسائل أبي بكر بن العربي** ، تحقيق عصمت عبد اللطيف دندش (ملحقة بكتاب دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا للمحققة ، ط. الأولى، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) .
– **عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي** ، ط . دار أم القرى للطباعة والنشر ، القاهرة .
– **العواصم من القواصم** . تحقيق عمار طالبي ، ط . الأولى ، دار الثقافة ، الدوحة ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م . وتحقيق محب الدين الخطيب ، ط . الخامسة ، دار المكتبة السلفية القاهرة ، ١٣٩٩هـ .
– **قانون التأويل** ، تحقيق محمد السليماني ، ط . الثانية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٩٠م .
– **القبس في شرح موطأ مالك بن أنس** ، تحقيق محمد عبد الله ولد كريم ، ط . الأولى دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٢م .
– **الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم** ، تحقيق عبد الكبير العلوي المدغري، ط . وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
ابن عربي : أبو بكر محمد بن علي الحاتمي الصوفي (ت ٦٣٨هـ/١٢٤٠م) .
– **الفتوحات المكية** . تحقيق عثمان يحيى ، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .
عريب بن سعد القرطبي (ت ٣٦٩هـ/٩٧٩م) .
– **الأنواء** ، نشر ر . دوزي ، ط . ليدن ، بريل ، ١٩٦١م .
ابن العريف : أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٥٣٦هـ/١١٤١م) .
– **مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة** ، تحقيق عصمت عبد اللطيف دندش ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٣م .

☆ سبق التعريف به .

العَزَفي : أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٦٣٣هـ/١٢٣٦م) وابنه أبو القاسم محمد (ت ٦٧٧هـ / ١٢٧٩م) .
- **الدر المنظم في مولد النبي المعظم** ، نشر مقدمة هذا الكتاب فرناندو دي لاجرانخا في مجلة Al Andalus الإسبانية ، عدد ٣٤ ، سنة ١٩٦٩م .
ابن عطية : أبو محمد عبد الحق بن أبي بكر غالب (ت ٥٤١هـ/١١٤٧م) .
- **فهرس ابن عطية** ، تحقيق محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي ، ط . الثانية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٣م .
- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** ، تحقيق المجلس العلمي بفاس وغيره، ط . مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .
العماد الأصفهاني : أبو عبد الله محمد بن محمد (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م) .
- **خريدة القصر وجريدة العصر** ، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم ، ط . دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٩م .
- **الفتح القسي في الفتح القدسي** ، ط . الأولى ، المطبعة الخيرية بمصر ، ١٣٢٢م .
ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد (ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٩م) .
- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** ، ط . دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
ابن العمراني : محمد بن علي (ت في حدود ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) .
- **الأنباء في تاريخ الخلفاء** ، تحقيق قاسم السامرائي ، ط . الثانية ، دار العلوم ، الرياض ١٩٨٢م .
عياض : القاضي أبو الفضل عياض بن موسى (ت ٥٤٤هـ/١١٤٩م) .
- **الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع** ، تحقيق السيد أحمد صقر، ط . الثانية ، دار التراث ، القاهرة ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .
- **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك** ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي وآخرين ، ط . الثانية ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

– **الشفا بتعريف حقوق المصطفى** ، تحقيق محمد أمين قره علي وآخرين ، ط. الثانية، دار الفيحاء ، عَمَّان ، الأردن ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م .
– **الغنية " فهرست شيوخ القاضي عياض "** ، تحقيق محمد بن عبد الكريم ، ط . الدار العربية للكتاب ، ليبيا – تونس ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .
– **مذاهب الحكام في نوازل الأحكام** ، بالاشتراك مع ولده محمد ، تحقيق ، محمد بن شريفة ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٠م .
ابن عياض : محمد بن القاضي عياض (ت ٥٧٢هـ/١١٧٦م) .
– **التعريف بالقاضي عياض** ، تحقيق محمد بن شريفة ، ط . الثانية ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .
ابن غازي : محمد بن أحمد بن محمد (ت ٩١٩هـ/١٥١٣م) .
– **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون** ، تحقيق عبد الوهاب منصور ، ط . الثانية ، المطبعة الملكية ، الرباط ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
ابن غالب : محمد بن أيوب (من أهل القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي) .
– **فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس** ، (قطعة من هذا الكتاب) ، تحقيق لطفي عبد البديع ، ط . مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٦م .
الغبريني : أبو العباس أحمد بن أحمد (ت ٧١٤هـ / ١٣١٥م) .
– **عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية** ، تحقيق عادل نويهض ، ط . الثانية ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٧٩م .
الغرناطي : الشريف محمد بن أحمد بن محمد (ت ٧٦٠هـ / ١٣٥٩م) .
– **رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة** ، ط . مطبعة السعادة ، مصر ، ١٣٤٤م.
أبو الفداء : عماد الدين إسماعيل بن محمد (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) .
– **تقويم البلدان** ، نشر دينود وماك كوكين ديسلان ، ط . الأولى، باريس، ١٨٤٠م .
ابن فرحون : أبو إسحاق إبراهيم بن علي (ت٧٩٩هـ/١٣٩٦م) .
– **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب** ، تحقيق محمد الأحمدي

أبو النور ، ط. دار التراث ، القاهرة .

ابن القاضي : أبو العباس أحمد بن محمد (ت ١٠٢٥هـ/١٦١٦م) .

– **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس** ، ط . دار المنصور ، الرباط ، ١٩٧٣م .

القرافى : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) .

– **الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة** ، تحقيق بكر زكي عوض ، ط . الثانية ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

القرطبي ☆ :

– **الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام** ، تحقيق أحمد حجازي السقا ، ط . دار التراث العربي ، القاهرة ، ١٩٨٠م .

القرطبي : أبو العباس أحمد بن عمر (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) .

– **المُفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم** ، تحقيق محي الدين مستو ويوسف بديوي ، وأحمد السيد ومحمود بزال ، ط . الأولى ، دار ابن كثير ، دمشق - بيروت ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .

القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت ٦٧١هـ/١٢٧٣م) .

– **التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة** ، ط . الثانية ، دار الريان ، القاهرة ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م .

– **الجامع لأحكام القرآن** ، ط . دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

ابن قُزْمَان : أبو بكر بن عبد الملك (ت ٥٥٤هـ/١١٥٩م) .

☆ ناشر كتاب " الإعلام ... " نسبه إلى القرطبي المفسر أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت٦٧١هـ/ ١٢٧٣م) ، وفي الفصل الرابع من دراستنا هذه استبعدنا أن يكون هذا هو مؤلف الكتاب، ثم ترجح لدينا أن مؤلفه هو أبو العباس أحمد بن عمر (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) شيخ القرطبي المفسر .

– **ديوان ابن قزمان**، تحقيق ف . كورينطى ، ط . المعهد الإسباني العربي للثقافة ، مدريد ، ١٩٨٠م .
القشتالي : أبو العباس أحمد بن إبراهيم (من أهل القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي).
– **تحفة المغترب ببلاد المغرب** ، تحقيق فرناندو دي لاجرانخا ، ط . المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ، ١٩٧٤م .
ابن القطان : أبو محمد حسن بن علي (ت . في حدود منتصف القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي) .
– **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان** ، تحقيق محمود علي مكي، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٠م .
القفطي : أبو الحسن علي بن يوسف (ت ٦٢٤هـ/١٢٢٦م) .
– **إنباه الرواة على أنْباه النحاة** ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط . الأولى ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .
القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤٨١م) .
– **صبح الأعشى في صناعة الإنشا** ، تحقيق مجموعة من المحققين ، ط . الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م .
– **قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان** ، تحقيق إبراهيم الإبياري ، ط . الثانية ، دار الكتب الإسلامية ، بيروت ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .
ابن قنفذ القسنطيني : أبو العباس أحمد بن حسن (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦هـ) .
– **الفارسية في مباديء الدولة الحفصية**، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، ط . الدار التونسية للنشر ، ١٩٦٨م .
– **الوفيات** ، تحقيق عادل نويهض ، ط . الثالثة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .
ابن قيم الجوزية : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ/١٣٥٠م).
الفروسية ، تحقيق مشهور بن حسن بن سلمان ، ط . الأولى ، دار الأندلس،

حائل ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .
الكتبي : محمد بن شاكر (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م) .
– **فوات الوفيات** ، ط . دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٤ م .
ابن الكردبوس : أبو مروان عبد الملك (عاش في النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) .
– **تاريخ الأندلس (قطعة من كتاب الإكتفاء في أخبار الخلفاء)** ، تحقيق أحمد مختار العبادي ، ط . معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٧١م .
الكلاعي : أبو الربيع سليمان بن موسى (ت ٦٣٤هـ/١٢٣٧م) :
– **الإكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء** ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، ط . مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م .
مجهول :
– **الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين** ، تحقيق سهيل زكار ط . مكتبة دار الملاح ، دمشق ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .
مجهول :
– **بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيما كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب** ، تحقيق عبد الوهاب منصور ، ط . الملكية ، الرباط ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .
مجهول : (من أهل القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي) .
– **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية** ، تحقيق سهيل زكار وعبدالقادر زمامة ، ط . الأولى ، دار الرشاد الحديثة ، الرباط ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .
مجهول : (عاش في أواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي) .
– **ذكر بلاد الأندلس** ، تحقيق لويس مولينا ، ط . المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، مدريد ، ١٩٨٣ م .
مجهول :
– **رسائل أندلسية** ، تحقيق فوزي سعد عيسى ، ط . الأولى ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، ١٩٨٩م .
مجهول :

- **رسائل ومقدمات أندلسية** ، تحقيق فوزي سعيد عيسى ، ط . منشأة المعارف بالإسكندرية ، ١٩٨٩م .
مجهول :
- **نص في أخبار دول ملوك الطوائف ملحق بـ (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري) جـ٣ ، ص٢٨٧-٣١٦** ، ط . الثالثة ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٣م .
مجهول :
- **نبذ تأريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى (منتخبة من كتاب مفاخر البربر)**، نشر إ . ليفي بروفنسال ، ط . المطبعة الجديدة ، الرباط ، ١٣٥٢هـ/١٩٣٤م .
المراكشي : محي الدين عبد الواحد بن علي (ت ٦٤٧هـ/١٢٤٩م) .
- **المعجب في تلخيص أخبار المغرب** ، تحقيق محمد سعيد العريان ، ط . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة .
ابن المستوفى : شرف الدين أبو البركات المبارك بن أحمد (ت ٦٣٧هـ/١٢٣٩م) .
- **نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل (تاريخ إربل)** ، تحقيق سامي الصقار ، ط . دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠م .
ابن مغاور الشاطبي : أبو بكر عبد الرحمن بن محمد (ت ٥٨٧هـ/١١٩١م) .
- **نَوْر الكمائم وسجع الحمائم ، نشره محمد بن شريفة ضمن كتابه " ابن مغاور الشاطبي حياته وآثاره "** ، ط . الأولى ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .
مَقديش : محمود بن سعيد (ت حوالي سنة ١٢٢٨هـ/١٨١٣م) .
- **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار** ، تحقيق على الزواري ومحمد محفوظ ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٨م .
المقرى : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م) .
- **أزهار الرياض في أخبار عياض** ، ط . صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة ، الرباط ، ١٩٧٨م .
- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** ، تحقيق إحسان عباس ، ط . دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

المنذري : زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) .
– **التكملة لوفيات النقلة** ، تحقيق بشار عواد معروف ، ط . الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .
ابن منظور : جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرَّم (ت ٧١١هـ/١٣١١م) .
– **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر** ، تحقيق مجموعة من المحققين ، ط . الأولى ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠١هـ/١٩٩٠م .
النباهي : أبو الحسن علي بن عبد الله (كان موجوداً سنة ٧٩٣هـ/١٣٩٠م) .
– **المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا "تاريخ قضاة الأندلس"** ، ط . دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .
النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٧٣٣هـ/١٣٧٢م) .
– **نهاية الأرب في فنون الأدب** ، تحقيق عدد من المحققين ، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .
ابن هشام اللخمي : أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٥٧٧هـ/١١٨١م) .
– **المدخل إلى تقويم وتعليم البيان** ، تحقيق مأمون بن محي الدين الجنان ، ط. الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .
الوادي آشي : أبو جعفر أحمد بن علي البلوي (ت ٩٣٨هـ/١٥٣٢م) .
– **ثَبَتُ أبي جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي آشي** ، تحقيق عبد الله العمران، ط. الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
الوادي آشي : محمد بن جابر (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) .
– **برنامج الوادي آشي** ، تحقيق محمد محفوظ ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، أثينا ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .
الورداني : مصطفى بن محمد (يرجح أنه من علماء الدولة العثمانية الذين عاشوا في القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي) .
– **النهي عن الاستعانة والاستنصار في أمور المسلمين بأهل الذمة والكفار** ، تحقيق طه جابر فياض العلواني ، ط . دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٨٣م .
الونشريسي : أبو العباس أحمد بن يحيى (ت ٩١٤هـ/١٥٠٨م) .
– **أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر** ، تحقيق حسين مؤنس ، ط . مكتبة

الثقافة الدينية ، القاهرة ، ١٤١٦هـ /١٩٩٦م .
- **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب** ، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي ، ط . دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .
ياقوت : أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) .
- **معجم الأدباء** ، ط . دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- **معجم البلدان** ، ط . دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

ثانيا : المراجع العربية الحديثة

أحمد : علي (دكتور) .

– **الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس وحتى نهاية القرن التاسع الهجري** ، ط . الأولى ، دار طلاس ، دمشق ، ١٩٨٩ م .

– **تاريخ المغرب العربي الإسلامي** ، منشورات جامعة دمشق ، ١٩٩١م – ١٩٩٢م .

أرسلان : شكيب .

– **الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية** ، ط . دار مكتبة الحياة ، بيروت .

أعراب : سعيد .

– **مع القاضي أبي بكر بن العربي** ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

الأهواني : عبد العزيز (دكتور) .

– **الزجل في الأندلس** ، ط . معهد الدراسات العربية العالمية ، ١٩٥٧م .

البارودي : رضوان (دكتور) .

– **أضواء على المسيحية والمسيحيين في المغرب في العصر الإسلامي** . ط . دار الفكر العربي ، ١٩٩٠م .

باشا : علي إسلام .

– **إسبانيا والأندلس** ، ط . مطبعة مصر ، القاهرة .

باشا : محمد مختار .

– **التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية** ، تحقيق محمد عمارة ، ط . الأولى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م .

بدر : أحمد (دكتور) .

– **تاريخ الأندلس** ، ط . مكتبة أطلس ، دمشق ، ١٩٨٣م .

البدري : عبد العزيز .
– **الإسلام بين العلماء والحكام** ، ط . الثانية ، دار القلم ، الكويت ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م
بدوي : عبد الرحمن (دكتور) .
– **دور العرب في تكوين الفكر الأوربي** . ط . الثانية ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٧٩م
– **موسوعة المستشرقين** ، ط . الثانية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٩م .
بروفنسال : إ . ليفي .
– **مجموع رسائل موحدية** ، ط . المطبعة الاقتصادية ، الرباط ، ١٩٤١م .
البغدادي : إسماعيل باشا .
– **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين** ، ط . دار العلوم الحديثة ، بيروت ، ١٩٥٥م .
بهجت : منجد مصطفى (دكتور) .
– **الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين** ، ط . الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م .
بوتشيش : إبراهيم القادري (دكتور) .
– **المغرب والأندلس في عصر المرابطين** ، ط . الأولى ، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٣م.
التركي : عبد المجيد (دكتور) .
– **قضايا ثقافية من تاريخ الغرب الإسلامي** ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م .
التليلي : المختار (دكتور) .
– **ابن رشد وكتابه المقدمات** ، ط . الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، ١٩٨٨م.
الحجي : عبد الرحمن علي (دكتور) .
– **التاريخ الأندلسي** ، ط. الثانية، دار القلم، دمشق ، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م.

الحرتاني : نهلة عبد الكريم .
– **معجم الشعراء والكتاب والمترسلين في عصر المرابطين** ، ط . الأولى ، دار البشير ، عمان ، الأردن ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .
حركات : إبراهيم .
– **المغرب عبر التاريخ**، ط . الأولى ، دار السلمي ، الدار البيضاء ، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م
– **النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين** ، ط . مكتبة الوحدة العربية ، الدار البيضاء .
حسن : حسن علي (دكتور) .
– **الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس – عصر المرابطين والموحدين** ، ط . مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٨٠م .
الحسيسن : عبد الهادي أحمد .
– **مظاهر النهضة الحديثية في عهد يعقوب المنصور الموحدي** ، ط . مطابع الشويخ ، تطوان ، ١٩٨٢م .
حسين : حمدي عبد المنعم محمد (دكتور) .
– **تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، دولة علي بن يوسف المرابطي** . ط. مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ١٩٨٦م .
حسين : كريم عجيل .
– **الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية** ، ط . الأولى ، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .
حسين : محمد الخضر .
– **علماء الإسلام في الأندلس** ، ط . المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٤٧هـ.
الخطابي : محمد العربي .
– **الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية** ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٨م .
الخطيب : عمر عودة (دكتور) .

- **لمحات في الثقافة الإسلامية** ، ط . الثالثة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

خلاف : محمد عبد الوهاب (دكتور) .

- **تاريخ القضاء في الأندلس** ، ط . الأولى ، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .

خلف الله : ابتسام مرعي (دكتورة) .

- **العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي** ، ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ،

أبو خليل : شوقي .

- **الأرك** ، ط . دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .
- **العقاب** ، ط . دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

دَنَدش : عصمت عبد اللطيف (دكتورة) .

- **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين** ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي بيروت ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

الرقب : شفيق محمد .

- **شعر الجهاد في عصر الموحدين** ، ط . مكتبة الأقصى ، عمان ، الأردن ، ١٩٨٤م .

رمضان : عبد المحسن طه (دكتور) .

- **تاريخ حركة المقاومة الإسبانية ضد المسلمين في الأندلس**، ط . مكتبة سعيد رأفت، القاهرة ، ١٩٨٧م .

أبو رميلة : هشام (دكتور) .

- **علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس** ، ط . الأولى، دار الفرقان ، عمان ، الأردن ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

زعرور : إبراهيم (دكتور) وعلي أحمد (دكتور) .

- **معجم أطباء المغرب والأندلس خلال العصور الوسطى** ، ط . مطابع الجمهورية ، دمشق ، ١٩٩٤م .

زغروت : محمد (دكتور) .
- **معركة الأرك الموحدية** ، ط . دار المعراج للنشر والتوزيع .
زقزوق : محمود حمدي (دكتور) .
- **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري** ، ط . الأولى ، كتاب الأمة ، قطر صفر ، ١٤٠٤هـ .
زلط : القصبي محمود (دكتور) .
- **القرطبي ومنهجه في التفسير** ، ط . دار الأنصار ، القاهرة ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .
الزيات : عبد الله .
- **رثاء المدن في الشعر الأندلسي** ، ط . الأولى ، جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا ١٩٩٠م .
سالم : سحر السيد عبد العزيز (دكتورة) .
- **بنو خطاب بن عبد الجبار التدميري** ، ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٩م .
- **تاريخ بطليوس الإسلامية** ، ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية .
سالم : السيد عبد العزيز (دكتور) .
- **تاريخ مدينة المرية الإسلامية** ، ط . دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٦٩م .
- **تاريخ المغرب في العصر الإسلامي** ، ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية .
- **المساجد والقصور في الأندلس** ، ط . مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ، ١٩٨٦م .
سالم : السيد عبد العزيز (دكتور) وأحمد مختار العبادي (دكتور) .
- **تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس** ، ط . النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٦٩م .
السامرائي : خليل إبراهيم (دكتور) .

- **علاقات المرابطين بالممالك الإسبانية بالأندلس وبالدول الإسلامية**، ط. دار الحرية بغداد، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

السامرائي: خليل إبراهيم (دكتور) وعبد الواحد ذنون طه (دكتور) وناطق صالح مطلوب (دكتور).

- **تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس**، ط. جامعة الموصل.

- **تاريخ المغرب العربي**، ط. جامعة الموصل، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

سعد: الطبلاوي محمود (دكتور).

- **موقف ابن تيمية من فلسفة ابن رشد**، ط. الأولى، مطبعة الاستقامة، مصر، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

السعدي: عبد الرحمن بن ناصر.

- **جهاد الأعداء ووجوب التعاون بين المسلمين**، ط. دار ابن القيم، الدمام، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

السعيد: محمد مجيد (دكتور).

- **الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس**، ط. دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠م

سلمان: مشهور حسن.

- **الإمام القرطبي**، ط. الأولى، دار القلم، دمشق، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

سيسالم: عصام سالم (دكتور).

- **جزر الأندلس المنسية**، ط. الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م.

الشرفي: عبد المجيد (دكتور).

- **الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع / العاشر**، ط. الدار التونسية، تونس، ١٩٨٦م.

ابن شريفة: محمد (دكتور).

- **أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي**، ط. المركز الجامعي للبحث العلمي بجامعة محمد الخامس، ١٩٦٦م.

شعيب : عبد الواحد .
– **دور المرابطين في الجهاد بالأندلس** ، ط . الأولى ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، طرابلس ، ليبيا ، ١٩٩٠م .
شعيرة : محمد عبد الهادي (دكتور) .
– **المرابطون " تاريخهم السياسي "** ، ط . الأولى ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٦٩م .
شقور : عبد السلام .
– **القاضي عياض الأديب** ، ط . الأولى ، دار الفكر المغربي ، ١٩٨٣م .
الشيال : جمال الدين (دكتور) .
– **التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوربي في عصر النهضة**، ط. دار الثقافة ، بيروت .
الطالبي : عمار .
– **آراء أبي بكر بن العربي الكلامية** ، ط. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، ١٩٧٤م .
الطيار : رضا عبد الجليل .
– **الدراسات اللغوية في الأندلس** ، ط . دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠م .
الطيبي : أمين توفيق (دكتور) .
– **دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس** ، ط. الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس ، ١٩٨٤م .
عاشور : عبد الفتاح سعيد (دكتور) .
– **أوربا العصور الوسطى** ، ط . السابعة ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ، ١٩٧٨م .
العبادي : أحمد مختار (دكتور) .
– **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس** ، ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية .
– **الصقالبة في إسبانيا** ، ط . المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م .

– **في تاريخ المغرب والأندلس** ، ط . مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية.
عباس : إحسان (دكتور) .
– **تاريخ الأدب الأندلسي " عصر الطوائف والمرابطين "** ، ط . الخامسة ، دار الثقافة بيروت ، ١٩٧٨م .
عبد البديع : لطفي (دكتور) .
– **الإسلام في إسبانيا** ، ط . الثانية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .
عبد الحليم : رجب محمد (دكتور) .
– **العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف** ، ط . دار الكتب الإسلامية ، بيروت .
عبد الحميد : سعد زغلول (دكتور) .
– **محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والأندلس** ، ط . جامعة بيروت العربية ، ١٩٧٣م .
عبد المجيد : عبد العزيز .
– **ابن الأبار حياته وكتبه** ، ط . المطبعة الحسنية ، تطوان ، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م .
ابن العربي : الصديق .
– **كتاب المغرب** ، ط . الثالثة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .
العريني : الباز (دكتور) .
– **الدولة البيزنطية** ، ط . دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٢م .
العقاد : عباس محمود .
ابن رشد ، ضمن كتاب المجموعة الكاملة جـ٩ ، ط . الأولى ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٨م .
العقيقي : نجيب .
– **المستشرقون** . ط . الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠م .
العكش : إبراهيم .

- **التربية والتعليم في الأندلس** ، ط . الأولى ، دار الفيحاء ، دار عمار ، عمان ، الأردن ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

علام : عبد الله (دكتور) .

- **الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي** ، ط . دار المعارف بمصر ، ١٩٧١م .

العلوي : جمال الدين .

- **المتن الرشدي** ، ط . الأولى ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ١٩٨٦م .

عميرة : عبد الرحمن (دكتور) .

- **الفلسفة الإسلامية بين التقليد والابتكار** ، ط . مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه القاهرة ، ١٩٧٥م .

عنان : محمد عبد الله .

- **الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال** ، ط . الثانية ، مؤسسة الخانجي ، القاهرة ، ١٣٨١هـ/١٩٦١م .

- **دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي** ، ط . الثانية ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .

- **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس** ، ط . الأولى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤م .

- **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين** ، ط . الثالثة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م .

عيسى : فوزي سعد (دكتور) .

- **الشعر الأندلسي في عصر الموحدين** ، ط . دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩١م .

- **الهجاء في الأدب الأندلسي** ، ط . دار المعارف ، القاهرة .

عيسى : محمد عبد الحميد (دكتور) .

- **تاريخ التعليم في الأندلس** ، ط . الأولى ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٢م .

الغناي : مراجع عقيلة (دكتور) .
– **سقوط دولة الموحدين** ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.
– **قيام دولة الموحدين** ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م .
فايد : عبد الوهاب عبد الوهاب (دكتور) .
– **منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم** ، ط . الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، القاهرة ، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م .
فخري : ماجد .
– **ابن رشد فيلسوف قرطبة** ، ط . الثالثة ، دار المشرق، بيروت، ١٩٩٢م.
الفرت : يوسف عبد الرحمن .
– **القرطبي المفسر** ، ط. الأولى ، دار القلم ، الكويت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
فرحات : يوسف شكري (دكتور) .
– **غرناطة في ظل بني الأحمر** ، ط . الأولى ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
أبو الفضل : محمد أحمد (دكتور) .
– **دراسات في تاريخ وحضارة الأندلس** ، ط . دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٦م .
– **شرق الأندلس في العصر الإسلامي (٥١٥-٦٨٦هـ/١١٢١-١٢٨٧م)** ، ط . دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٦م .
القاسم : خالد عبد الله .
– **الحوار مع أهل الكتاب** ، ط . الأولى ، دار المسلم، الرياض، ١٤١٤هـ.
القبلي : محمد .
– **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط** ، ط . الأولى ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ١٩٨٧م .

قحة : محمد .
– **معركة العقاب** ، ط . الأولى ، دار الحوار ، اللاذقية ، ١٩٨٤م .
القحطاني : محمد بن سعيد .
– **الولاء والبراء في الإسلام** ، ط . الثانية ، دار طيبة ، الرياض ، ١٤٠٤هـ.
القرضاوي : يوسف (دكتور) .
– **غير المسلمين في المجتمع الإسلامي** ، ط . الثانية ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م .
قطب : سيد .
– **في ظلال القرآن** . ط . التاسعة ، دار الشروق ، بيروت ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م .
قطب : محمد .
– **هل نحن مسلمون** ، ط . دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .
كحيلة : عبادة عبد الرحمن (دكتور) .
– **تاريخ النصارى في الأندلس** . ط . الأولى ، المطبعة الإسلامية الحديثة ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م .
كنون : عبد الله .
– **أدب الفقهاء** ، ط . دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٨٨م .
– **النبوغ المغربي في الأدب العربي** ، ط . الثالثة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .
محمود : حسن أحمد (دكتور) .
– **قيام دولة المرابطين** ، ط . دار الفكر العربي ، القاهرة .
آل محمود : عبد الله بن زيد .
– **الجهاد المشروع في الإسلام** ، ط . الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .
مخلوف : محمد بن محمد .

– **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية** . ط . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
أبو مصطفى : كمال (دكتور) .
– **بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي** ، ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٩٣م .
المطوى : محمد العروسي .
– **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب** ، ط . دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٢م .
– **السلطنة الحفصية "تاريخها السياسي ودورها السياسي في المغرب الإسلامي"** ، ط . دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .
المغراوي : محمد بن عبد الرحمن .
– **العقيدة السلفية في مسيرتها التاريخية وقدرتها على مواجهة التحديات** ، ق٥ ، ط . الأولى ، دار المنار ، الرياض ، ١٤١٤هـ .
مكي : الطاهر أحمد (دكتور) .
– **دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة** ، ط . الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣م .
– **ملحمة السيد** ، ط . مطابع دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩١م.
المنوني : محمد .
– **حضارة الموحدين** ، ط . الأولى ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ١٩٨٩م .
موسى : عز الدين أحمد (دكتور) .
– **دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي** ، ط . الأولى، دار الشروق ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
– **الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم** ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤١١هـ/١٩٩١م .
– **النشاط الإقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري** ، ط . الأولى ، دار الشروق ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

مؤنس : حسين (دكتور) .
- **تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس** ، ط. الثانية ، مكتبة مدبولي ، القاهرة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .
- **تاريخ المغرب وحضارته** ، ط . الأولى ، العصر الحديث للنشر، بيروت ، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م .
- **الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين** ، ط . مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .
- **رحلة الأندلس** ، ط. الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة، ١٩٦٣م.
- **شيوخ العصر في الأندلس** ، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٦م .
- **فجر الأندلس** ، ط . الثانية ، الدار السعودية ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
الناصري : أبو العباس أحمد بن خالد .
- **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** ، تحقيق جعفر ومحمد الناصري ، ط . دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤م .
الناعوري : عيسى (دكتور) .
- **في ربوع الأندلس** ، ط . الدار العربية للكتاب ، ليبيا- تونس، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .
النشار : محمد محمود (دكتور) .
- **تأسيس مملكة البرتغال** ، ط . الأولى ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية ، القاهرة ، ١٩٩٥م .
نصر الله : سعدون بن عباس (دكتور) .
- **دولة المرابطين في المغرب والأندلس " عهد يوسف بن تاشفين "** ، ط . الأولى ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
هارون : عبد السلام .
- **نوادر المخطوطات** ، ط . الأولى ، دار الجيل، بيروت ، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
الهرامة : عبد الحميد .

– **الأعمي التُطيلي حياته وأدبه**، ط . الأولى ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ليبيا ، ١٩٨٣م .

الهرفي : سلامة محمد .

– **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين** ، ط. المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

الهندي : رحمت الله .

– **إظهار الحق** ، تحقيق محمد أحمد ملكاوي ، ط . الثانية ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .

هيكل : محمد خير (دكتور) .

– **الجهاد والقتال في السياسة الشرعية** ، ط . الأولى ، دار البيارق ، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .

الوراكلي : حسن (دكتور) .

– **ياقوتة الأندلس** ، ط . دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٤م .

ثالثا : المراجع المنقولة إلى العربية

أحمد : منير الدين (دكتور) .
– **تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس الهجري** ، ترجمة وتلخيص وتعليق سامي الصقار ، ط . دار المريخ، الرياض، ١٩٨١م .
أشباخ : يوسف .
– **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين** ، ترجمة محمد عبدالله عنان ، ط.الثانية مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة، ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م.
باشا : ضيا .
– **الأندلس الذاهبة** ، تعريب عبد الرحمن إرشيدات ، ط . الأولى ، وزارة الثقافة والإعلام ، عمان ، الأردن ، ١٩٨٩م .
بالباس : ليوبولدو توريس .
– **الفن المرابطي والموحدي** ، ترجمة سيد غازي ، ط . دار المعارف بمصر ، ١٩٧١م .
برنشفيك : روبار .
– **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي** ، ترجمة حمادى الساحلي ، ط . الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٨م .
بروفنسال : إ . ليفى .
– **الإسلام في المغرب والأندلس** ، ترجمة السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي ، ط . دار نهضة مصر ، القاهرة .
– **حضارة العرب في الأندلس**، ترجمة ذوقان قرقوط ، ط . دار مكتبة الحياة، بيروت.
بلانت : ريتشارد .
– **النقود العربية والإسلامية** ، تعريب بسام سروج وإبراهيم سروج ، ط . الأولى ، مكتبة السائح ، سوريا ، ١٩٩٤م .

بول : ستانلي لين .
- **العرب في إسبانيا** ، تعريب علي الجارم ، ط . دار المعارف بمصر .
بيريس : هنري .
- **الشعر الأندلسي في عصر الطوائف** ، ترجمة الطاهر أحمد مكي ، ط . الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
تورنو : روجي لي .
- **حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر** ، ترجمة أمين الطيبي ، ط . الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس ، ١٩٨٢م .
جوارفسكي : أليكسى .
- **الإسلام والمسيحية** ، ترجمة خلف محمد الجراد ، ط . عالم المعرفة ، الكويت ، جمادي الآخرة ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .
دوزي : رينهرت .
- **المسلمون في الأندلس** ، ترجمة حسن حبشي ، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥م .
دي بوز .
- **تاريخ الفلسفة في الإسلام** ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ، ط . الخامسة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨١م .
دي كاستري : هنري .
- **الإسلام خواطر وسوانح** ، ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا ، ط . مطبعة الشعب ، مصر ، ١٣٢٩هـ/١٩١١م .
ريبيرا : خوليان .
- **التربية الإسلامية في الأندلس** ، ترجمة الطاهر أحمد مكي ، ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١م .
رينان : أرنست .
- **ابن رشد والرشدية** ، ترجمة عادل زعيتر ، ط . دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٧م .

سوذرن : ريتشارد .
– **صورة الإسلام في أوربا في العصور الوسطى** ، ترجمة رضوان السيد ، ط. الأولى ، معهد الإنماء العربي ، بيروت ، ١٩٨٤ م .
شاك : فون .
– **الفن العربي في إسبانيا وصقلية** ، ترجمة الطاهر أحمد مكي ، ط . الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م .
غومس : إميليو غرسيه .
– **الشعر الأندلسي** ، ترجمة حسين مؤنس ، ط . الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٩م .
كاهين : كلود .
– **الشرق والغرب في زمن الحروب الصليبية** ، ترجمة أحمد الشيخ ، ط . الأولى ، سينا للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٥م .
كراتشكوفسكي . أغناطيوس يوليا نوفتش .
– **تاريخ الأدب الجغرافي العربي** ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، ط . الثانية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م .
كيرنز : أيرل .
– **المسيحية عبر العصور " تاريخ الكنيسة المسيحية "** ، ترجمة عاطف سامي برنابا ، ط . دار نوبار ، ١٩٩٢م .
وات : مونتجمري .
– **فضل الإسلام على الحضارة الغربية** ، ترجمة حسين أحمد أمين ، ط . الأولى ، دار الشروق ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

رابعا : الرسائل الجامعية غير المنشورة

بيومي : عبير زكريا سليمان .

– **دور الفقهاء السياسي والحضاري في الأندلس في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي** ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة طنطا ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

السحيباني : حمد بن صالح .

– **النظم الحربية في دولة الموحدين بالمغرب والأندلس** ، رسالة ماجستير ، كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، ١٤٠٢هـ.

العجلان : عبد الرحمن بن سليمان .

– **الأندلس تحت حكم المرابطين** ، رسالة ماجستير، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، ١٤٠٢هـ.

عياط : حامد كساب .

– **أدب الجهاد في الأندلس في عصر المرابطين** ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، الجامعة الأردنية ، ١٩٨٣م .

ابن محمد : عبد رب النبي .

– **مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال إفريقيا والأندلس** ، رسالة ماجستير ، كلية الشريعة بمكة المكرمة ، ١٣٩٨هـ – ١٣٩٩هـ .

مسعد : سامية مصطفى محمد .

– **الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إقليم غرناطة في عهد المرابطين والموحدين (٤٨٤–٦٢٠هـ/١٠٩٢–١٢٢٣م)** ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة الزقازيق ، ١٩٨١م .

النجار : ليلى أحمد .

– **المغرب والأندلس في عهد المنصور الموحدي (دراسة تاريخية وحضارية)**، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، ١٤٠٩هـ .

خامسا : الأبحاث والمقالات العربية

أعراب : سعيد .

– من الرسائل المرابطية : رسالتان لم تنشر بعد ، مجلة دعوة الحق ، عدد ٢٤٥ ، جمادى الأولى ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

الإمام : رشاد (دكتور) .

– ابن الأبار وعصره في تونس، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ٢ ، ذو القعدة ١٤٠٩هـ

البدراوي : محمد اليعقوبي .

– إحراق كتاب الإحياء في الغرب الإسلامي ، مجلة المناهل ، عدد ٩ ، السنة ٤ ، رجب ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

البرجالي : المهدي .

– أدب الجهاد في العدوتين : نموذج الجهاد المرابطي في العدوة لابن أبي الخصال ، مجلة دعوة الحق ، عدد ٢٥٩ ، محرم – صفر ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م .

بنسباع : مصطفى .

– ابن الحاج التجيبي القرطبي ومسائل بيوعه في معيار الونشريسي ، ندوة الأندلس ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م ، الجلسة (٦) ، بحث (٢)

بنميرة : عمر .

– جوانب من تاريخ أهل الذمة في الأندلس الإسلامية ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ١٤ ، محرم ، ١٤١٦هـ .

بوتشيش : إبراهيم القادري (دكتور) .

– المرابطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس ، مجلة دراسات أندلسية، عدد ١١ ، رجب ١٤١٤هـ .

الحسيسن : عبد الهادي .

– الحركة العلمية في العصر الموحدي، مجلة دار الحديث الحسنية، عدد ٥ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م .

زمامة : عبد القادر .
– **كتاب روض الأنس ونزهة النفس لأبي البقاء الرندي** ، مجلة معهد المخطوطات
العربية ، م١٨ ، جـ١ ، ربيع الثاني ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .
سالم : سحر السيد عبد العزيز (دكتورة) .
– **من جديد حول وقعة الزلاقة الثانية** ، ندوة الأندلس في كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .
السباعي : فاضل .
– **يوم الأرك** ، مجلة المناهل ، السنة ٧ ، عدد ١٧ ، جمادى الأولى ، ١٤٠٠هـ .
السحيباني : حمد بن صالح (دكتور) .
– **الاتجاه الفكري لدعوة ابن تومرت** ، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، عدد ٦ ، محرم ، ١٤١٣هـ.
– **جهود مفكري الأندلس لإصلاح الوضع السياسي في عصر ملوك الطوائف** ، بحث غير منشور .
ابن شريفة : محمد (دكتور) .
– **حول التسامح الديني وابن ميمون والموحدين** ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ١٤ ، محرم ١٤١٦هـ.
– **من أعلام التصوف بالأندلس في القرن السابع : ابن عبيد يس النفزي** ، نشر في كتاب " **في النهضة والتراكم** " مجموعة بحوث ندوة تكريم محمد المنوني ، ط . الأولى ، دار بوتقال ، الدار البيضاء ، ١٩٨٦م .
شيخة : جمعة (دكتور) .
– **ثورة الميورقيين بإفريقية وأثرها في توازن القوى بين الإسلام والنصرانية في المغرب والأندلس** ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، تونس ، عدد ١١٧ – ١١٨ ، ١٩٨١م .

– **القيمة الوثائقية لديوان ابن الأبار** ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ٢ ، ذو القعدة ، ١٤٠٩هـ.

– **من مظاهر الشعوبية في الأندلس** ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد ٤ ، ذو القعدة ، ١٤١٠هـ .

صادق : صبيح .

– **ما كُتب عن ابن رشد في المراجع العربية الحديثة** ، مجلة المورد ، م٧ ، عدد ٢ ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

الطاهر : محمد .

– **حول ابن أبي الخصال** ، مجلة دعوة الحق ، عدد ٢٦٦ ، محرم ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

طه : عبد الواحد ذنون (دكتور) .

– **الدس الشعوبي بالأندلس وموقف العرب من مجابهته** ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد٤ ، ذو القعدة ، ١٤١٠هـ.

العبادي : أحمد مختار (دكتور) .

– **دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي** ، نشر ضمن كتاب " بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية " ط . مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٣م .

– **صور لحياة الحرب والجهاد في المغرب والأندلس** ، مجلة البيّنة ، السنة الأولى ، عدد٩ ، يناير ١٩٦٣م .

عباس : إحسان (دكتور) .

– **الجانب السياسي من رحلة ابن العربي إلى المشرق** ، مجلة الأبحاث ، السنة ١٦ ، جـ٢ ، حزيران ، ١٩٦٣م .

– **نوازل ابن رشد** ، مجلة الأبحاث ، السنة ٢٢ ، جـ ٣ - ٤ ، ١٩٦٩م .

عبد الحليم : رجب محمد (دكتور) .

– **الحركة الصليبية والمغرب الإسلامي في القرن الحادي عشر للميلاد "دور البابوية"**، ندوة الإطار التاريخي للحركة الصليبية ، حصاد "٣" ، منشورات إتحاد المؤرخين العرب القاهرة ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .

عبد الحميد : سعد زغلول (دكتور) .
– **العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي** ، مجلة كلية الأداب ، جامعة الإسكندرية ، م٦ – ٧ ، ١٩٥٢م – ١٩٥٣م .
عفيفي : أبو العلا .
– **أبو القاسم بن قسي وكتابه خلع النعلين** ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ،
م١١ ، ١٩٥٧م .
عمران : محمود سعيد (دكتور) .
– **دور الحركة الصليبية في تكوين مملكة البرتغال** ، ندوة الأندلس في كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .
قارة : حياة .
– **رائية أبي الربيع سليمان بن موسى الكَلاعي البلنسي** ، مجلة دعوة الحق ، عدد ٢٩٨ ، محرم ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .
الكتاني : محمد إبراهيم .
– **أبو عبد الله بن المناصف المجتهد المغربي** ، مجلة الباحث ، السنة الأولى ، م٢ ، ١٩٧٢م .
كلاس : فايزة .
– **الجيش عند الموحدين** ، مجلة دراسات تاريخية ، السنة ١٠ ، العدد ٣١ – ٣٢ ، ١٩٨٩م .
مخلص : عبد الله .
– **كتاب ألف باء** ، مجلة المقتبس ، م٧ ، جـ٥ ، ١٣٣٠هـ/١٩١٢م .
مفتاح : محمد .
– **مفهوم الجهاد والاتحاد في الأدب الأندلسي** ، مجلة عالم الفكر ، م١٢ ، ١٩٨١م .
مكي : محمود علي (دكتور) .

– وثائق جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، م٧-٨ ، ١٩٥٩ - ١٩٦٠م .
مؤنس : حسين (دكتور) .
– السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين ، المجلة التاريخية المصرية ، م٣ ، عدد ١ ، مايو ١٩٥٠م .
– صورة الأندلس ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، م١٤ ، ١٩٦٠م .
– نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين ، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، عدد٣ ، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م .
الهراس : عبد السلام (دكتور) .
– شاعر وفيٌّ لوطنه ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد٢ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .
الوافي : إبرهيم (دكتور) .
– التفسير وعلوم القرآن في الغرب الإسلامي من القرن الثاني إلى القرن الثامن الهجري ، ندوة الأندلس ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م جلسة (٢) ، بحث (١) .
الوراكلي : حسن (دكتور) .
– التراث الأندلسي وسؤال الوحدة ، ندوة الأندلس ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م ، جلسة (٢) ، بحث (٣) .
اليسوعي : بولس نويا .
– رسائل ابن العريف إلى أصحاب ثورة المريدين في الأندلس ، مجلة الأبحاث ، عدد ٢٧ ، ١٩٧٨ - ١٩٧٩م .
اليعقوبي : الحسين .
– في الفكاكة والفكاكين ، مجلة دراسات أندلسية ، عدد٧ ، رجب ١٤١٢هـ .

سادسا : الأبحاث والمقالات المنقولة إلى العربية

بيدال : رامون مينيديث .

– **إسبانيا تنقل العلم العربي إلى الغرب** ، ترجمه مع أبحاث أخرى الطاهر أحمد مكي في كتاب " الأدب الأندلسي من منظور إسباني " ، ط . الأولى ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

دي إبلزا : ميكال .

– **الرباط والرابطات في الأسماء والآثار الإسبانية** ، تعريب الحسين اليعقوبي، مجلة دراسات أندلسية ، عدد١٣ ، شعبان ١٤١٥هـ.

رودنسون : مكسيم .

– **الصورة الغربية والدراسات الغربية للإسلام** ، نشر في (تراث الإسلام ق١ ، تصنيف شاخت وبوزورث) ترجمة محمد زهير السمهوري ، عالم المعرفة ، الكويت ، شعبان – رمضان ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .

ميراندا : أمبروسي ويسى .

– **علي بن يوسف وأعماله في الأندلس** ، مجلة تطوان ، عدد ٣ – ٤ ، عام ١٩٥٨ – ١٩٥٩م .

– **وقعة أقليش ومصرع الأمير ضون شانجة** ، مجلة تطوان ، عدد ٢ ، عام ١٩٥٧م .

سابعا : الأطالس ودور المعارف

- **أطلس تاريخ الإسلام** ، حسين مؤنس ، ط . الأولى ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
- **دائرة المعارف الإسلامية** ، تعريب أحمد الشنتناوي وإبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس ، ط . دار المعرفة ، بيروت .
- **دائرة معارف القرن العشرين** ، محمد فريد وجدي ، ط . الثالثة ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٧١م .

ثامنا : المراجع والأبحاث الأجنبية

- Abdulghafour Ismail Rozi : The Social role of Scholars in Islamic Spain , ph . D., Boston University , 1983 .
- Antonio Ubieto : Introduccion a la Historia de Espana , Barcelona .
- Claudio Sanchez Albornoz : el Islam de Espana y el Occidente , Madrid , 1981 .
- Cristobal Cuevas : el Pensamiento del Islam , Madrid , 1972.
- Derk W. Lomax : la Reconquista , Barcelona, 1984 .
- Emilio Mitre : La Espana medieval , Madrid , 1979 .
- Fernando de la Granja : Fiestas cristianas en AL Andalus, Revista AL Andalus, vol . xxxIv , 1969.
  Milagras Espanoles en una obra polemica Musulmana, Revista AL Andalus , vol.xxxIII, 1968.
  Una polemica religiosa en Murcia en tiempos de Alfonso el sabio , Revista AL Andalus , vol . xxxI,1966
- Jesus Greus : Asi vivian en AL Andalus, Madrid, 1989.
- Jose Terrero : Historia de Espana , Barcelona , 1972 .
- Joseph Mccabe : The Splendour of Moorish Spain , London, 1935 .
- Montgomery Watt and Pierre Cachia : Ahistory of Islamic Spain , New York , 1967 .
- Reyna Pastor de Togneri : del Islam al Cristianismo , Barcelona , 1985 .

المحتويات

الموضوع **الصفحة**